إيـران

الحضور الإيراني في أزمات الوطن العربي

د. خالد المسالمة

مطبعة جامعة الرور- بوخوم ألمانيا

إيـــــران

الحضور الإيراني في أزمات الوطن العربي

د. خالد المسالمة

الطبعة الثانية
بوخوم - ألمانيا عام 2010

حقوق الطبع محفوظة

مركز الدراسات الألمانية ـ العربية

جميع حقوق الطبع محفوظة

الطبعة الثانية

بوخوم ـ ألمانيا 2010

مطبعة جامعة الرور

إن الآراء الواردة في هذا الكتاب تلزم أصحابها ولا تعبر

بالضرورة عن آراء مركز الدراسات الألمانية ـ العربية

إيـــــران

الحضور الإيراني
في أزمات الوطن العربي

د. خالد المسالمة

الطبعة الثانية

بوخوم ـ ألمانيا عام 2010

حقوق الطبع محفوظة

تمـهيد

كتبت مادة الكتاب في خضم أحداث متلاحقة في المنطقة العربية. تداعيات الحرب الدائرة في العراق، التي تشترك أطراف عدة في التأثير على مجرياتها، تخلق كل يوم عنصراً جديداً من عناصر صورة المستقبل الذي تساهم في رسم ملامحه وتشارك في تجميع وأجزائه. هذه هي الطبعة الثانية من هذا الكتاب الذي نشر لأول مرة في عام 2007 ، وقد اقتضت الضرورة إعادة صياغة بعض مقاطع هذا الكتاب وأضيفت بعض المعطيات المستجدة، والتي لها علاقة بمواد هذا البحث. الكارثة التي حلت بالعراق كانت من أهم الأسباب التي دفعت في ضرورة تناول الدور الإيراني في المنطقة العربية للبحث.

البحث عن الأسباب والنوايا التي تجعل حكومات إيران تغامر في تحدي مشاعر مئات الملايين من العرب والمسلمين، وتشارك القوى الغربية في عملية التحضير للحرب على العراق وعلى أفغانستان، وتدخل شريكاً نشطاً وفعالاً في إعلان الحرب واحتلال العراق وأفغانستان، ستكون أحد أسباب تدوين سطور هذا الكتاب. في هذا البحث جملة من الأسئلة تبحث عن أجوبة. الفضول والرغبة الكبيرة في الإجابة عن الدوافع الحقيقية التي تقف خلف تصرف المسؤولين الإيرانيين، وإقدامهم على المشاركة الفعالة في تدمير بلدين إسلاميين، العراق وأفغانستان، ظلت تواكب أبواب وفصول هذا البحث.

إن من أهم تداعيات الحرب على العراق والتدخل الإيراني السافر في هذه الحرب نشوء أزمة وتشققات اجتماعية في جسم بعض الأقطار العربية بفعل الحساسيات الطائفية التي استعرت ورافقت جنود ودبابات الغزاة والمحتلين إلى المنطقة.

تتصاعد مع استمرار الحرب على أرض العراق أزمة استراتيجية تواجه إيران وتهدد بتفكك الكيان الإيراني المتعدد الأعراق والقوميات. لقد حرض احتلال العراق وانفلات الأمن فيه القوى العربية في إقليم الأحواز العربي المحتل على الثورة والتمرد على السلطات الإيرانية المحتلة. لقد انتقلت الانتفاضة السلمية في الأحواز في 15. 4. 2005 إلى طور الكفاح المسلح، والمستقبل ينذر بالمزيد. لحقت جماعات من الشعب البلوشي والكردي داخل دولة إيران بالشعب العربي الأحوازي في الثورة والتمرد. إن استمرار الأزمة المتشعبة الأبعاد في العراق، واستمرار الأزمة في الأحواز سيفتح الباب على مصراعيه لثورات وتمردات اجتماعية وعسكرية في صفوف قوميات أخرى داخل الكيان السياسي الإيراني المركب.

أصبح من المسلمات ترابط وتداخل الأزمات والحروب في المنطقة العربية، ولا بد من الإقرار بآلية التأثير المتبادل بين أحداث وفصول تلك الأزمات. ارتباط الوضع في لبنان

وتداعياته في كثير من جوانبه بالواقع العراقي أصبح مؤكد. وكلا الأزمتين مرتبطتان بالقضية الفلسطينية. يكاد حضور الأطراف اللاعبة في كل تلك الساحات الثلاثة يتكرر بشكل من الأشكال ويدل على إمتلاك لكل من اللاعبين أجندته الخاصة به ضمن أهداف استراتيجية شاملة تخص المنطقة العربية.

العلاقات السورية اللبنانية ومسلسل الاغتيالات في هذا البلد العربي، وتداعيات حادث اغتيال رئيس الوزراء اللبناني، رفيق الحريري، وما أفرزته هذه الجريمة السياسية من إخراج للجيش السوري من لبنان بطريقة غير مشرفة، وتشكيل لجنة التحقيق الدولية للبحث عن الأطراف المتورطة في فصول الجريمة، والحرب التي افتعلتها طهران في شهر تموز عام 2006 ، ودور الأطراف اللبنانية المرتبطة بإيران في تعطيل البرلمان اللبناني والحكومة اللبنانية، تؤشر على الحضور الإيراني في تفاقم الأزمة اللبنانية واحتمالات تفجرها. لا زالت تداعيات الحرب الإسرائيلية على لبنان في 12 . 7. 2006 تتفاعل إقليميا ودولياً، ولم يعد خافياً على أحد حقيقة الحضور الإيراني والتأثير الإيراني على تلك التداعيات.

تشارك إيران في نسج فصول الأحداث على الساحة الفلسطينية. العلاقة المتينة مع حركة الجهاد وحماس الفلسطينيتين من جهة وعلاقة إيران السرية والشبه علنية مع إسرائيل من جهة أخرى تجعل من إيران لاعب أساسي في الساحة الفلسطينية. في الأزمة التي عصفت في الساحة الفلسطينية في نهاية عام 2006 وبداية 2007 بين حركتي فتح وحماس والتي لم تنتهي بعد كان لإيران حضور ودور أساسي فيها. الوضع الفلسطيني ينذر بالتفاقم، ولا يلوح في الأفق مشروع سياسي حقيقي يعيد الحقوق العربية المغتصبة ويحقق السلم في المنطقة. الموضوع الفلسطيني يمتلك آلية من نوع خاص في التأثير على الأحداث والقوى السياسية والاجتماعية في المنطقة العربية والإسلامية، وتعمل إيران بكل السبل على أن تبقى لاعباً رئيسياً في هذا الملف.

يتصدر الملف النووي الإيراني الأحداث الدولية ويشغل ايضاً اغلب القوى الدولية وشعوب المنطقة. هذه الأزمة الدولية مرشحة للتفاقم. تعود إيران من خلال أزمة المشاريع النووية إلى بؤرة الحدث في المنطقة، ولن تمر هذه الأزمة دون نتائج سلبية على إيران وبقية شعوب المنطقة. الدول الغربية والكيان الصهيوني مصممة على عدم السماح لإيران في امتلاك السلاح النووي. والغرب خاض سلسلة من الحروب المدمرة على العراق لوقف أي تقدم علمي وعسكري في المجال النووي، ولن يتوانى الغرب أو يتباطأ في خوض حروب أخرى مشابهة ضد إيران الطامحة في منافسة الدول الغربية على الهيمنة وكسب مناطق النفوذ في دول الوطن العربي. المنطقة العربية، وخاصة منطقة الخليج العربي، غنية بمواد الطاقة الطبيعية، والعالم الغربي الصناعي يعتبر هذه

المنطقة المجال الحيوي لوجوده وتطور اقتصاده، ولا يقبل المنافسة من أي طرف كان على النفوذ في هذه المنطقة، "المحمية".

ترفض دول الجوار الإيراني إمكانية امتلاك إيران للسلاح النووي. تتوخى الدول العربية والدول الإسلامية الحذر والحيطة من البرامج التسليحية الإيرانية الطموحة. التجارب السلبية الطويلة مع إيران ودورها المؤذي للعالم الإسلامي جعل دول الجوار الإيراني تتوجس من برامج إيران العسكرية. على النقيض من ذلك، لقد قوبل برنامج التسليح النووي الباكستاني بارتياح رسمي وشعبي في الدول العربية والإسلامية.

القاسم المشترك في مواد هذا البحث ظل الدور الإيراني في المشاركة في صنع تلك الأحداث، ولم يتم الاسترسال في طرح أدوار الأطراف العربية في الأحداث، على أهميتها القصوى، رغبة في التركيز على الدور الإيراني وتجنباً للوقوع في لعبة خلط الأوراق وتشتيت الأفكار والوقائع.

خرجت نتائج البحث في كثير من الأمكنة عن الشائع والمألوف عن الدور الإيراني، والذي تم الترويج له عبر قوى وأجهزة الإعلام لأكثر من ثلاثة عقود. جاءت الأحداث الأخيرة المتسارعة لتأكد حقيقة الموقف الإيراني المغاير لما كان مألوف وشائع ويراد تسويقه.

القصد من خلال التطرق إلى علاقة إيران مع بعض الدول العربية، ومع بعض الأحزاب والحركات السياسية في الساحة العربية، كان إعطاء بعض الأمثلة وتبيان الأسس والقواعد التي تبني إيران علاقاتها مع هذه الدول، وتلك الحركات، والتعرف على الفلسفة التي تقف خلف اتخاذ القرار في مراكز اتخاذ القرار في العاصمة الإيرانية "طهران"، وفي المدن الدينية الإيرانية في "قم" و"مشهد". وهو بالتأكيد ليس مسحاً شاملاً لعلاقة إيران مع كل القوى داخل وخارج المنطقة وهو خارج القصد والنية.

تم التطرق إلى الديانات التي انتشرت في الهضبة الإيرانية قبل نشوء وانتشار الإسلام في محاولة لفهم طبيعة الأسس النظرية والدينية للقومية الفارسية، وكذلك العلاقة المباشرة وغير المباشرة بين هذه الديانات ونشأة ومضامين المذاهب والفرق الدينية في العالم الإسلامي. تلك المحاولة كانت ضرورية لأن ملامحها وآثار فعل هذه السمات التراثية والدينية يمكن ملاحظتها بكل وضوح في التشكيلات الإجتماعية في إيران والمنطقة العربية.

يختار كل كاتب، عند الشروع في تناول أحد المواضيع في البحث والتمحيص، ومن ثم إيصال النتائج للقارئ من خلال صفحات كتاب أو مخطوطة، أحد المناهج البحثية في توصيل الفكرة والنتيجة التي توصل إليها. المتوفر من المناهج العلمية في الكتابة متعددة، لكنها تتلخص بشكل عام في الطرق التالية من البحث:

الطريقة العلمية الأكاديمية، وهي الطريقة والمنهج حيث يتقيد فيها الكاتب بقواعد ثابتة عند صياغة الفكرة واستخلاص النتيجة. وأهم قواعد المنهج الأكاديمي هو إسناد الحكم والرأي عند صياغته بمستندات وتأكيدات تدعم صحة هذه الفكرة من مصادر ومراجع أخرى، وإثبات أن وجهه النظر هذه ليست جديدة وغريبة، لكن لها من يناصرها في الأوساط العلمية في هذا وذاك المجال. هذا المنهج يعفي، إلى حد كبير المؤلف من إبداء وجهة نظر صريحة ويحرره من اتخاذ مواقف محددة من القضايا المطروحة للبحث، ويحد هذ المنهج من إمكانيات طرح أفكار جديدة أو غير المألوفة. هذا المنهج مرهق للقارئ وتتطلب من القارئ معرفة مسبقة في العناصر العامة المكونة للموضوع، وتتطلب قدرة كبيرة على الربط بين الفكرة المستنتجة والشواهد على صحة هذه الفكرة، والتمييز في نفس الوقت بينهما. غالباً ما يكون جمهور القراء لهذا الكتاب، الذي صيغ على أسس المنهج العلمي الأكاديمي، من جمهور المختصين والأكاديميين ومن ألفوا هذه الطريقة من خلال ممارسة مهنة الكتابة والعمل الأكاديمي.

الطريقة الثانية في تناول مشروع بحث في قضية من القضايا هو المنهج العلمي السلس والمباشر والذي يجمع صاحبه أفكار من المراجع والمصادر الأخرى ومن الأحداث والمعطيات التي حدثت ويقوم بإعادة صياغتها من جديد حتى تصبح سهلة الفهم على القارئ. يتخلى الباحث في هذا المنهج عن ذكر المصادر والشواهد التي تؤكد الاستنتاجات الذاتية المستجدة. هذا المنهج يعطي للكاتب هامش واسع من الحرية لطرح أفكاره ومعتقداته، وفي طرح ترابط عناصر موضوع البحث. ومن وميزات هذا النوع من المناهج في البحث والكتابة هي إيصال الفكرة للقارئ بسهولة وبشكل مباشر دون الدخول في متاهات البراهين والشواهد والمصادر، والتي تحتوي بالإضافة إلى تأكيد الفكرة المطروحة للبحث، أيضاً إضافة معلومات جديدة تتضمنها بالغالب نصوص الشواهد التي لا تخلو من الغموض في بعض الأحيان.

المنهج الثالث، هو الذي أخذ به المؤلف في هذا البحث، وهو المزج بين المنهجين السالفي الذكر، طمعاً في إشراك الناقد الأكاديمي في النقاش الجاد حول بعض الآراء غير المألوفة عن طبيعة الدور الإيراني في المنطقة، ورغبة في الوصول إلى القارئ العربي المهتم بالشأن السياسي في المنطقة العربية، ممن ليسو بالضرورة من فئة الأكاديميين المتخصصة. لقد تم الجمع بين المنهج الأكاديمي للبحث وبين المنهج السياسي للوقائع وصياغة الأحداث في تناول مواد هذا الكتاب. يعود السبب في اعتماد هذا المنهج في البحث إلى رغبة عند الكاتب في إيصال النتيجة والاستنتاج إلى اكبر عدد ممكن من الناس على اختلاف مشاربهم الثقافية والعلمية، ودعوة كل من يهمه الأمر للمشاركة في النقاش والبحث عن الحقيقة. كذلك أملت الضرورة الموضوعية المتمثلة

بتسارع الأحداث في المنطقة العربية، والتي لا زالت جوانب أساسية من فصولها غير المدروسة ولم يتم البحث بها، ولم تتراكم بعد حولها مراجع بحثية ونصوص معتمدة.

بوخوم ألمانيا في أكتوبر من عام 2010

خالد المسالمة

والله ولي التوفيق

مقـــدمـــــة

بقيت المنطقة العربية، التي تعتبر مهد الحضارة الإنسانية، التي نشأت على ضفاف نهر النيل والفرات ودجلة ونهر الكارون ونهر الأردن وفي جنبات هضاب اليمن السعيد، العامل الحاسم في رسم مستقبل العالم عبر العصور البشرية الطويلة. قامت دول وكيانات وزالت أخرى، وعبرت المنطقة شعوب وأقوام، وسادت أمم وثقافات، لكن العنصر الثقافي والعرقي المعروف بالسامي ـ العربي بقي السائد في ربوع هذه المنطقة الشاسعة.

ظلت هذه المنطقة عبر القرون اللامتناهية في القدم الموطن الأصلي والمجال الحيوي لحركة الشعوب والأقوام والقبائل التي تعرف اليوم بالشعوب السامية ـ الحامية. هذه الشعوب التي تنتمي بأغلبيتها إلى جذور لغوية وعرقية وثقافية مشتركة خلقت تمازج وانسجام ثقافي وحضاري شديد الانسجام، ونسجت صفات اثنيه وثقافية مشتركة حددت الهوية القومية لسكان هذه المنطقة. تنامت وتواصلت هذه الصيرورة التاريخية وتبلورت واستمرت حتى وصلت للعصر الحاضر. فالهوية الثقافية والإثنية لسكان المنطقة العربية هي نتاج عملية تكون تمتد إلى آلاف السنين في عمق التاريخ البشري. هي صيرورة متشعبة الأبعاد بخصائصها المتميزة. ومتراكمة المنابع والروافد. لقد تشكلت منظومة من القيم والعادات والتقاليد، بالإضافة إلى توحد اللغة وسيادتها، في كل أجزاء ومكونات المنطقة العربية الحالية. لقد تشكلت بين أبناء تلك المنطقة ذاكرة جمعية للتاريخ بما يحتويه من رموز ثقافية وسياسية، وانتصارات وهزائم سياسية وعسكرية. وتوحدت إلى حد كبير السيكولوجية الجمعية لمجتمعات سكان هذه المنطقة، حتى باتت كتلة بشرية متوحدة مع المكان الذي تعيش فيه. يطلق على هذا التجمع البشري الكبير اسم "الأمة العربية". وتعرف جغرافية المكان الذي تسكنه هذه الأمة "بالوطن العربي". تلك هي المصطلحات الرسمية والشعبية السائدة والمتعارف عليها بين الأغلبية الساحقة من مواطني هذه المنطقة.

على الرغم من أن أغلب شعوب العالم وأغلب دول العالم تطلق تعبير "العرب" على سكان هذه المنطقة قي المعاملات اليومية غير الرسمية، لكن ظل جزء كبير من حكومات الدول الغربية تقحم في معاملاتها الرسمية وفي أدبياتها السياسية والثقافية

تعابير وأسماء أخرى غير تلك المألوفة في المنطقة العربية. ربما يدل هذا المنحى على رغبة عند هذه الأطراف في رؤية هذه الأمة وهذا الوطن ممزقاً ومشتتاً. يدلل على ذلك إصرار أغلب الحكومات الغربية على إطلاق مسميات مثل "الشرق الأوسط" و " شمال أفريقيا" و " الشرق الأوسط الكبير" و"الشرق الإسلامي" تجنباً للإعتراف بهوية الشعب والوطن العربيين.

يعيش بالجوار من المنطقة العربية، وبالجوار من هذا التجمع البشري الكبير والذي أصبح يعرف بالوطن العربي والأمة العربية، شعوب وأقوام وكيانات سياسية شتى. يمتد الوطن العربي من المغرب على المحيط الأطلسي إلى عمان على بحر العرب و الأحواز على الخليج العربي في الشرق، ويعيش في هذا الوطن ما يقارب 370 مليون مواطن، موزعين على اثنا وعشرون دولة عربية. تتجمع هذه الدول في كيان سياسي فضفاض يعرف في "بيت العرب" جامعة الدول العربية. وهناك أجزاء من هذه الأمة لازالت خارج إطار جامعة الدول العربية مثل إقليم الأحواز ولواء اسكندرون وهضبة الجولان السورية، وجمهورية تشاد ودولة إريتريا، ومدن سبته ومليلة المغربيتين، وغيرها من المناطق في جمهورية النيجر وجمهورية نيجيريا في وسط أفريقيا. تقدر أعداد العرب في هذه المناطق والبلدان بقرابة 60 مليون مواطن. قامت عبر العصور علاقات سياسية واقتصادية مع دول وشعوب الجوار، ونشأت علاقات تبادل ثقافي وعلاقات مصاهرة واختلاط وتمازج اثني وعرقي. لم تكن العلاقات عبر القرون مع شعوب الجوار دائماً ودية وحميمة، بل في كثير من الأحيان كانت تغلب على تلك العلاقات صفة العداء والنزاع والحروب.

أهم تلك الدول والشعوب التي تجاور العرب في عصرنا الحاضر هي أسبانيا في الغرب، وتركيا في الشمال، وأثيوبيا في الجنوب، وإيران في شرق الوطن العربي. وقبل ستون عاماً أضيف إلى المنطقة، على أرض فلسطين العربية، وفي قلب الوطن العربي، الكيان الصهيوني. بين هذه الدول الخمسة، التي تجاور الوطن العربي، قامت خلال النصف قرن الأخير علاقات تنسيق سياسية وعمل مشترك في أكثر من مجال بهدف إضعاف ومحاصرة واستنزاف المنطقة العربية. لكن بقي مستوى التنسيق بين هذه الدول بدرجات متفاوتة. التنسيق بين هذه الدول كان يسير بتشجيع ومشاركة الدول الإمبريالية الغربية. كل طرف من تلك الأطراف الخمسة كانت له أسبابه الخاصة، وكانت له أهدافه القومية من وراء هذا التنسيق والعمل المشترك. بين الدول الخمسة التي تجاور العرب في الجغرافيا قواسم مشتركة تجمعها، وتحدد أشكال علاقتها مع العرب.

- كل دولة من هذه الدول تحتل أرضاً عربية وتحتل شعباً عربياً.
- كل دولة من هذه الدول وكل شعب من هذه الشعوب يجمعه مع العرب تاريخ مشترك طويل يمتد إلى مئات السنين.

- وكل طرف من تلك الأطراف طامح بالحصول على المزيد من الأرض والمكاسب على حساب العرب.

مع مرور الزمن خرجت إثيوبيا من هذا الحلف غير المعلن بعد أن حصلت إرتيريا على استقلالها عام 1991 واقتربت كثيراً مع دول الوطن العربي بشكل عام وارتبطت بعلاقات إيجابية مع بعضها، مثل اليمن والسودان ومصر. لكن أثيوبيا عادت إلى ممارسة العدوان على العرب في تدخلها السافر في الصومال واحتلال العاصمة "مقديشو" وأجزاء أخرى من هذا البلد العربي المنكوب. وأثيوبيا تحتل منذ عقود أرض صومالية أخرى المعروفة "بإقليم أغادين". حول هذا الإقليم الصومالي دارت في عام 1975 معارك طاحنة بين جمهورية الصومال وأثيوبيا.

نحت تركيا خلال الخمسة أعوام الأخيرة، منحاً تصالحياً مع بعض الدول العربية التي كانت تغلب على علاقتها معها صفة التوتر والعداء كسوريا ولبنان والعراق. وسارت تركيا في طريق تعزيز علاقاتها السياسية والاقتصادية مع بقية الدول العربية. فالموقف الإستراتيجي الأوروبي بعدم قبول الجمهورية التركية في مشروع الوحدة الأوروبية كان من أهم العوامل التي فرضت على تركيا إعادة التفكير في علاقتها مع الدول العربية، ومع دول العالم الإسلامي، التي أدارت تركيا لها الظهر منذ أن وصل "كمال أتاتورك" إلى السلطة قبل اكثر من ثمانين عاماً مضت. وكذلك وصول القوى الدينية في عام 2000 بقيادة "رجب طيب أردوغان" إلى مواقع قيادة الدولة التركية، التي تتميز عن التيارات القومية العلمانية "الأتاتوركية" التركية التي عادت الشرق والثقافة الشرقية، بميول صريحة إلى تمتين العلاقات التركية مع العالم الإسلامي والجوار العربي.

العلاقات العربية الإسبانية تتراوح بين الشد والجزر، وهي مرتبطة بالظروف والشروط السياسية الدولية، وهي مرتبطة أيضاً بالجهة الحزبية التي تقود البلد في حينه. فقادة الحزب المسيحي الديمقراطي لازالوا مشحونين بالحقد الكاثوليكي الموروث على العصر الأندلسي الإسلامي العربي، ويعبر عن هذا الحقد بين الفينة والأخرى بمواقف سياسية فجه بعدائها للعرب. كان أحد تعبيرات ذلك الحقد الدفين عند أصحاب هذا التيار الإسباني المتعصب والمناوئ للعرب والإسلام الموقف الأسباني وموقف رئيس وزرائها السابق "خوسيه أذنار" في الحرب العدوانية على العراق عام 2003. كان أذنار من أكثر القادة الأوروبيين تحريضاً على العراق والمطالبة بإشعال الحرب. وكان واحداً من ثلاثة قادة غربيين إلى جانب جورج بوش وتوني بلير ممن أعلنوا الحرب على العراق في مؤتمر لهم في إسبانيا قبل اندلاع المعارك بعدة أيام. وشاركت إسبانيا بقوات الغزو بشكل فعال. أما الحزب الاشتراكي الإسباني، المنفتح على الشعوب ظلت فترات حكمة تمتاز بالروية والتقارب مع الوطن العربي ونهج سياسة التفاهم مع الدول العربية وخاصة مع دول الجوار في المغرب العربي.

لازال الصراع العربي ـ الصهيوني على أشده. سيستمر هذا الصراع على أغلب التقديرات ويتصاعد في المستقبل المنظور والبعيد، وان أوحي للبعض بقرب حل هذا الصراع والوصول إلى تسوية معقولة مع هذا الكيان الغاصب من خلال ما سمي تجاوزاً "مسيرة السلام". فالصراع العربي ـ الصهيوني هو كلمة السر في الصراع العربي ـ الغربي الذي لن ينتهي بتنازل هنا من هذا الطرف أو تنازل هناك من ذاك الطرف، فحل هذا الصراع المستفحل والمستمر لا يرتبط فقط بإرادة ونية الصهاينة في فلسطين المحتلة ونية وإرادة القوى السياسية الفلسطينية، بل يرتبط بميازين القوى على الساحة العربية والساحة الدولية، ويرتبط بمصالح وأهداف قوى استعمارية وعدوانية دولية ذات أبعاد إستراتيجية في المنطقة العربية.

أما إيران ودورها، موضوع هذا البحث، الجار الملازم للعرب منذ أكثر من ألفين وخمسمائة عام، لازالت تلعب أدواراً مهمة في رسم الخريطة السياسية والاجتماعية والثقافية للمنطقة، ولازالت علاقتها بجيرانها العرب موضع اهتمام المراقبين المحليين والدوليين لما لهذه العلاقة من تأثير على المستوى الإقليمي والعالمي.

ظلت إيران في الحاضر، كما كانت في الماضي، معبراً وصلة وصل بين بضائع وثقافات شعوب أواسط أسيا من جهة والمنطقة العربية من جهة أخرى. وعلى أساس تلك الميزة سكنت واستوطنت هذه المنطقة شعوب وأقوام شتى. قدمت هذه الشعوب والأقوام من الهند والصين وسهل الاورال ومناطق القوقاز، وكذلك من الجزيرة العربية والعراق ومصر وبلاد الشام وبلاد اليونان. لازالت الصفة المميزة لسكان الهضبة الإيرانية هي التعدد العرقي والثقافي.

لعب سكان هذه المنطقة، إيران، وكياناتها السياسية المختلفة أدواراً مهمة عبر العصور. وقد دخلت شعوب الهضبة الإيرانية مع الشعوب التي عاشت بالجوار منها بعملية تبادل ثقافي وديني ولغوي واسع. وتركت هذه العلاقة بصماتها على كثير من مجالات الحياة الثقافية، من فن العمارة والموسيقى والأدب واللغة والدين والفلسفة. كذلك كان الحال في مجال التمازج العرقي.

عند البحث في قضايا الوطن العربي يصبح من الضروري أخذ العامل الإيراني وتأثيراته المختلفة على المنطقة بالحسبان. وفي نفس الوقت فالبحث في الموضوع الإيراني يظل ناقصاً غير مكتمل إذا ما استبعد التأثير الثقافي والحضاري والسياسي للعرب على الهضبة الإيرانية وشعوبها، وعلى تشكل الكيانات السياسية فيها.

الجوار الجغرافي والتاريخ والتأثير الثقافي المتبادل هي من أهم العوامل التي تجعل من علاقة العرب بالفرس ذات طابع خاص وتغلب علية حالات التنافس والحساسية، وأيضاً التناحر والصراع.

لمحــة تاريخيــة

حفلت المنطقة العربية ومنطقة غرب آسيا عبر تاريخها الطويل بالأحداث الجسام، وعاشت هذه المنطقة عقود من الحروب والنزاعات المريرة. الشعوب الإيرانية ومن ضمنها الشعوب الفارسية هم من المكونات الأساسية للعالم الشرقي. هذا الوجود والحضور الفارسي ليس طارئ وحديث العهد في المنطقة بل هو قديم ويعود إلى عدة قرون خلت قبل ميلاد السيد المسيح عليه السلام.

كانت مناطق الهضبة الإيرانية الحالية تشكل جزءاً من ممتلكات الإمبراطورية الآشورية، وكانت الشعوب والقبائل التي تقطن هذه المناطق جزءاً من رعايا الإمبراطورية الآشورية. والقبائل التي عرفت لاحقاً بالفارسية كانت هي أيضاً من مواطني ورعايا الدولة الآشورية. لقرون طويلة ظلت حدود الإمبراطوريات السامية (العربية القديمة) تصل إلى حوافي نهر السند ونهر جيحون في أواسط أسيا. وهذا الوجود السامي في الهضبة الإيرانية سبق بقرون طويلة الوجود الفارسي والوجود الإيراني في تلك الهضبة.

إن أول ذكر لتشكل كيان سياسي للقبائل والأقوام المنسابة من سفوح جبال زاغروس، والمتحالفة مع القبائل التي سكنت إقليم فارس (ومن هنا جاءت تسمية الفرس وبلاد فارس) كان في منتصف القرن السادس قبل الميلاد. في هذه الفترة الزمنية شكلت في عام 556 قبل الميلاد أسرة الإخمينيين التي تسكن مناطق شمالية من إقليم فارس الحالي وفي الأطراف الغربية لجبال زاغروس إمارة وكيان سياسي متواضع المساحة والإمكانيات ضمن الدولة الآشورية. تلك كانت بداية الدولة الأخمينية (الفارسية) الأولى.

مع بداية تشكل الإمارة الأخمينية كان يحكم في عاصمة الأمبراطورية الكلدانية ـ الآشورية الملك "نبونيد". كان نبونيد آخر ملوك الدولة البابلية الكلدانية، حكم لمدة 16 سنة (من سنة 556 ـ 539 ق.م)، قضى عشر سنوات منها في شمالي الجزيرة العربية مقيماً في دومة الجندل محارباً قبائل الجزيرة العربية التي كانت تهاجم باستمرار حواضر الدولة وتهدد سلطانه، تاركاً عاصمته بابل تحت حكم ابنه "بلشازار". عاد نبونيذ إلى بابل ليدهمهم الملك الأخميني (الفارسي) "قورش" سنة 539 ق م وينهي دولتهم ويجعلها ولاية تابعة للإمارة الأخمينية الناشئة. وقد غزت جيوش الدولة الأخمينية

الفارسية القادمة من الجبال بقيادة "قورش" عام 539 ق.م العراق القديم واحتلت مدينة بابل بناءاً على طلب تقدمت به أحد أطراف الصراع السياسي الذي كان محتدماً في العاصمة بابل. لقد نشب صراع قبل الغزو الفارسي بقليل بين رجال الدين الكهنوت ورجال الحكم في العاصمة بابل، أفرزته سياسة "بلشازار" المتهورة والفاشلة أثناء غياب والده الملك عن عاصمة الأمبراطورية. عبر خيانة الكهنة البابليين وتآمرهم مع قورش الأخميني وجنده احتل الفرس بابل في زمن الملك الكلداني "نبونيد".

جاء من بعد قورش في حكم دولة الأخمينيين ابنه "قمبيز"، الذي استولى على سورية ومصر عام 522 ق. م ، وكان مستبداً وطاغية. وباحتلال بابل وضعت دولة الفرس الفتية حداً لاستمرا الإمبراطورية الآشورية ـ البابلية وحطمت بذلك حضارة بلاد ما بين النهرين، حضارة بابل وآشور وآكاد وسومر. تلك الحضارت العريقة التي دامت لأكثر من 3000 عام مضت وجدت نهايتها على يد جيوش الأخمينيين القادمين من إقليم فارس. إن الإمبراطورية والحضارة البابلية والتي أسس لها المشرع والملك البابلي الكبير "حمورابي"، مع بداية عام 1750 قبل ميلاد السيد المسيح، والتي دامت 1300 عام بشكل مستمر تم القضاء عليها باحتلال الأخمينين الفرس لعاصمة هذه الحضارة. لقد شكلت بلاد الرافدين إلى جانب الحضارة المصرية وبلاد الشام مهداً للحضارة والثقافة الإنسانية، ومركزاً للعالم القديم لعدة آلاف من السنين.

دخل الغازي الملك الفارسي "كورش" (قو رش) مدينة بابل بدون قتال يذكر بتواطؤ وخيانة كهنة المدينة. ووجد فيها الحضارة والعمران، وجد الحدائق المعلقة، إحدى عجائب الدنيا السبعة، التي بناها الملك البابلي العظيم "نبوخذ نصر" (604 - 568) لزوجته الملكة "سميره ميس". ووجد الغازي الفارسي في المدينة العالمية تتجمع في أسواقها وحواريها ومكاتبها كل ما أنتجته البشرية من صنائع وفنون وثقافة وأساطير أيضاً. بابل عاصمة الدنيا التي تلهج في شوارعها وأسواقها الجماعات والأقوام بكل لسان، سقطت، في غفلة من الزمان بدون قتال، في أيدي الغزاة القادمون من ما وراء جبال "زغروس". لم يصدق "قورش" أن بابل لم تقاوم قواته الغازية وأوشك في الهم على الرحيل عنها عندما أدرك أن له في هذه المدينة بين ساكنيها من السبايا اليهود أنصار. لقد قام قادة السبايا اليهود في مدينة بابل بالاتصال بقورش وبقادة جند الفرس عند دخولهم المدينة، وأدخلوه إلى حواري وأزقة العاصمة، وألحوا عليه بالبقاء في المدينة والاستمرار باحتلال بابل. وبقي قورش واستجاب لمشورة هؤلاء السبايا.

عندما تركت القبائل الفارسية الجبل الأجرد القاحل ونزلت إلى السهل العراقي الخصيب أثناء حكم السلالة الأخمينية (554 - 334 ق.م) قويت وتوسعت وتضاعفت رقعة هذه الدولة الجغرافية عدة مرات. لم تلعب الهضبة الإيرانية أي دور يذكر في التاريخ البشري قبل احتلال الأخمينين للعراق البابلي ـ الآشوري. والشعوب والأقوام التي

سكنت تلك الجبال والوديان الفقيرة، ومن ضمنهم القبائل الفارسية، كانت خارج حركة التاريخ، وغائبة عن المسرح الثقافي والسياسي للعالم القديم، وكانت تلك المناطق والقبائل التي تسكنها تابعاً لمركز الفعل السياسي والإقتصادي والحضاري في أرض الفرات ودجلة ونهر الكارون. في حين أن أقوام العراق واليمن والساحل السوري ووادي النيل كانت لأكثر من ألفي عام سلفت قبل ظهور الفرس على خارطة الأحداث، تصنع التاريخ وتأسس العناصر المكونة لصنع الحضارة الإنسانية.

"كان قيام الإمبراطورية الفارسية حدثاً مثيراً، فهي من صنع شعب لم يكن له ماض عريق كالعيلاميين، ولم تكن له حتى ذلك الحين ثقافة مميزة كالثقافات البابلية والمصرية والإغريقية والسورية ولكن هذه الإمبراطورية ورثت تراث كل الدول القديمة التي قامت على أرض إيران، فقد قامت إمارة أنشان الأخمينية على أرض مملكة عيلام وورثت أيضاً تقاليد دول الرافدين في الاستراتيجية وفي فن الإدارة ومنها فكرة الدولة العالمية."[1]

لم يجلب القادمون الجدد إلى أرض بابل وآشور معهم ثقافة أو حضارة أو ديانات جديدة ومتميزة عما وجدوه في البلاد المفتوحة. بل ورثوا كل شيء من علوم وفنون ولغة كانت منتشرة في الحضارة البابلية ـ الآشورية الخالدة. "لقد بلغت قوة العراقيين الحضارية أن فرضوا الكثير من ميراثهم وإبداعاتهم الثقافية على المحتلين أنفسهم. إذ تحولت اللغة الآرامية (الآشورية ـ السريانية) التي كانت منتشرة في سوريا و العراق، لغة الثقافة الأولى في الإمبراطورية البابلية ـ الآشورية، إلى اللغة الأكثر شيوعاً في المملكة الأخمينية (الإيرانية) الأولى نفسها، وانحصر تداول اللغة الفارسية (البهلوية) في البلاط الحاكم ورجال الدين المجوس. حتى أطلق على "دارا الأول" لقب "الملك الآرامي الكبير". بل أن الإيرانيين اقتبسوا الأبجدية السريانية لكتابة لغتهم البهلوية، بعد تخليهم عن الكتابة المسمارية العراقية أيضا. سيتكرر المنظر بعد قرون عندما يتبنى الغزاة المغول دين وثقافة أهل العراق العربية الإسلامية مرة أخرى.

بعد دخول الإخمينيين بابل قام ملك الفرس "كورش" بإعادة المجموعات اليهودية المقيمة في بابل عاصمة الإمبراطورية الآشورية منذ خمسون عاماً مضت إلى القدس. تلك المجموعات العبرانية التي سبيت من فلسطين على يد الملك البابلي ـ الآشوري نبوخذ نصر. خمسون عاماً قبل قدوم الإخمينيين إلى العراق كان الملك العربي الآشوري قد دخل فلسطين عام 572 قبل الميلاد وهدم بقايا وجود الكيان العبراني، وأخذ بقايا تجمعات اليهود هناك سبايا إلى عاصمته بابل. هذه الحادثة في تاريخ الشرق سيكون لها معناً في نسج العلاقات السياسية بين الكيان الصهيوني والدولة البهلوية والجمهورية

[1] محمد حرب فرزات تاريخ فارس القديم، جامعة دمشق 1990، نقلاً عن الموسوعة العربية، المجلد الأول، العلوم الإنسانية، الأخمينيون، دمشق سوريا 2005 .

الإسلامية في إيران في العصر الحديث لاحقاً وأحد مرتكزات الثقافة الفارسية والصهيونية في مواجهة العدو العربي المشترك.

استمرت دولة الفرس الأولى حتى قدوم "الكسندر المقدوني" في عام 334 قبل الميلاد والملقب" بالإكسندر الكبير" أو "ذو القرنين"، الذي أنهى وجود تلك الدولة الفارسية وأسس على أنقاضها وأنقاض عدد من دول الشرق لسيادة دولته وسيادة العصر الإغريقي في ذاك الزمان.

دب الضعف والتمزق في جسم الدولة التي أسسها الإسكندر المقدوني ونشأ على أنقاضها في القرن الأول قبل الميلاد مجموعة من الدويلات في الهضبة الإيرانية عرفت بدويلات "البارثيين". هذا التبعثر والتشتت استمر في هذه المنطقة حتى ظهرت من جديد مملكة فارسية عرفت بمملكة "الساسانيين".

أسست العائلة الساسانية في القرن الثالث الميلادي بزعامة أردشير(226 - 251 م) كياناً سياسياً في الهضبة الإيرانية. خلال المأتي عام التالية توسع نفوذ وتأثير دولة الساسانيين بعدما نزلوا من الجبل إلى السهل العراقي مرة أخرى. مدينة "سوس" (شوش) العراقية أصبحت عاصمة للدولة الساسانية الصاعدة ومن ثم اتخذوا من مدينة "المدائن" العراقية أيضا عاصمة لهم. أصبحت المملكة الساسانية بعد احتلالها ارض العراق وتثبيت سيطرتها هناك أحد اكبر المنافسين لنفوذ الإمبراطورية البيزنطية.

في بلاط العرش الساساني تجمعت عناصر الثقافة التي كانت سائدة في ذاك الوقت وأنتجت نوعاً من الثقافة المميزة في فن العمارة وفي فن إدارة وتنظيم الدولة وتنظيم الدواوين، والهرم الوظيفي وعلاقة المواطن بالدولة. نظمت أساليب الري والزراعة والتجارة. النظام السياسي في الدولة الساسانية وصل إلى مرتبة معتبرة ومتقدمة. استفاد الساسانيون من حضارات الشعوب والدول التي سبقتهم في المنطقة والدول والإمبراطوريات المحاذية والمعاصرة للدولة الساسانية.

في الفن المعماري استفاد الساسانيون من الفن المعماري البابلي والفن المعماري الآشوري الشائع والمنتشر منذ قرون في وادي الرافدين. واقتبس الفرس في فن العمارة من الإغريق، والذين تأثروا بدورهم من البابليين و اقتبسوا الكثير من فن العمارة عند المصريين. كذلك فن العمارة الروماني ظاهر في جنبات المدن الساسانية حتى اليوم. طرق الري التي سادت في الدولة الساسانية، دخل في تقنيتها العلوم الهندية والعلوم البابلية القديمة. لقد انتعشت وتطورت الإمبراطورية الساسانية وازدهرت على أرض بابل وعلى ضفاف أنهارها دجله والفرات الكارون الخالدة.

من الهنود اقتبس الفرس الساسانيون علم الفلك وعلم الحساب، وإلى البابليين يعود الفضل في القوانين المنظمة لعلاقات الناس ببعضها البعض، وعلاقة الحاكم وبالمحكوم.

في بلاد الرافدين وضع أول دستور وقانون للدولة التي عرفت "بتشريعات حمورابي"، التي اقتبس منها الساسانيون تشريعاتهم في الحكم وإدارة الدولة.

عرفت بلاد فارس في عصر الساسانيين بفن الزخرفة والرسم والنحت. ووصل هذا الفن مراتب متطورة. من هذه الفنون ما كان محلي الإنتاج والأخر المقتبس من الشعوب والحضارات الأخرى مثل المصريين والهنود.

نشأت وانتشرت في أرجاء الإمبراطورية الساسانية عدة ديانات وعبادات. من هذه الديانات كانت البوذية واليهودية والمسيحية والمانية والمزدكية والصابئة. لكن أهم هذه الديانات التي انتشرت على نطاق واسع بين رعايا الشعوب في الإمبراطورية الساسانية كانت بكل تأكيد الديانة الزردشتية (المجوسية)، والتي تعرف ايضاً بعبادة النار. الديانة الزردشتية أصبحت الديانة الوطنية في هذه الدولة المتباعدة الأطراف ودين الملوك الساسانيين والحاشية الملكية.

المجتمع في دولة الساسانيين كان يتكون من طبقات وظيفية متمايزة، وموقع كل طبقة من الطبقات الاجتماعية كان محدد في تسلسل هرمي من الأعلى إلى الأسفل، أملته على المجتمع التركيبة الهرمية للمؤسسة الدينية للدانة الزردشتية (المجوسية). ترتيب هذه الطبقات هو التالي:

طبقة رجال الدين

طبقة رجال الحرب

طبقة كتاب الدواوين

طبقة الشعب من الفلاحين والصناع

احتلت طبقة رجال الدين في المجتمعات الفارسية القديمة المرتبة الرفيعة وذات النفوذ على الدولة والمجتمع. من هذه الطبقة ومن هذه الفئة كانت تتكون النخبة السياسية والثقافية في المجتمعات الفارسية، ومنها كان ملوك فارس. الارتباط العضوي بين الدين والفئات المثقفة والنخب السياسية ظلت حتى العصور الحديثة من الصفات الملازمة لتركيبة المجتمعات الإيرانية. وظاهرة الخميني والخمينية ليست حالة شاذة في تاريخ الفرس وتاريخ الشعوب الإيرانية. كذلك ظاهرة تقديس الحاكم الفرد هي أيضا ظاهرة تعود إلى الموروث السياسي الديني للفرس والشعوب الإيرانية.

من الناحية السياسة كان نظام الحكم عند الفرس ملكي مطلق ووراثي وحاشية الملك كانت تنتمي إلى طبقات محددة مغلقة على ذاتها. الصراع على السلطة في الممالك الساسانية كان يغلب علية طابع الدموية المفرطة والتي تصل إلى قتل الولد الوريث وقتل الأب الحاكم. أغلب الحكام الساسانيون تمت إزاحتهم عن سدة الحكم بالقتل أو وصلوا

إلى السلطة بواسطة القتل والانقلاب على الحاكم السابق. النظام الملكي الساساني كان يسمح للأقاليم والشعوب المنضوية تحت لواء الإمبراطورية تعيين وتنصيب حكامها وملوكها الخاصة بهم مع تحديد الروابط في المركز والإمبراطور. هذا النوع من الحكم الذي يشبه نظام اللامركزية في عصرنا الحاضر كان هو النظام السائد والعملي لأغلب الدول والإمبراطوريات القديمة الشاسعة المساحة والمتعددة الأعراق والديانات.

عاصر الدولة الفارسية الساسانية دول وإمبراطوريات ودول قوية مجاورة أهمها الإمبراطورية الرومانية الشرقية والتي تعرف بالإمبراطورية البيزنطية، ومملكة الأنباط العربية في شمال الجزيرة العربية والأردن وجنوب سوريا. ودولة حمير في جنوب الجزيرة العربية. من داخل هاتين الإمبراطوريتين الكبيرتين، بيزنطة وساسان، نشأ وتكون عدد من الكيانات السياسية والممالك. من هذه الممالك والدول من عاد وضعف ثم غرب وأنتها تأثيرها، ومنها من استمر وتطور واتسع.

قام الإمبراطور الروماني "تراجانوس" عام 105 للميلاد في الاستيلاء على مملكة الأنباط العربية في الشام وشمال الجزيرة العربية وضمها إلى إمبراطوريته. لكن ممالك وكيانات سياسية عربية من داخل حدود الإمبراطورية الرومانية والإمبراطورية الساسانية بدأت تتشكل. نشأت المملكة التدمرية، التي وصلت إلى أوج قوتها في عصر الملكة زنوبيه (263 - 271 م)، التي أدخلت تحت سلطانها كل من بلاد الشام ومصر ونصف العراق. ومن ثم تشكلت مملكة الغساسنة العربية في بلاد الشام في القرن الخامس الميلادي. وفي العراق قامت مملكة المناذرة العرب في نهاية القرن الرابع الميلادي داخل إطار سيطرة الملوك الساسانيين. وفي قلب الجزيرة العربية وشمالها تشكلت مملكة كندا العربية التي انتهت بموت أخر ملوكها الشاعر المعروف أمرؤ القيس (335 - 343 م). واستمرت مملكة حمير العربية في اليمن حتى جاء الفتح الإسلامي المظفر.

مارست دولة الساسانيين ضغوطاً اقتصادية وعسكرية كبيرة على هذه الكيانات العربية الناشئة من ركام التشتت والانهيار الذي حدث للمجتمعات العربية أثناء الغزو الروماني للشرق العربي مع بداية القرن الأول للميلاد والغزو الفارسي الجديد في منتصف القرن الثالث الميلادي. مرة أخرى يهدد الشرق مع الغرب المنطقة العربية. أهي مفارقات القدر أم شروط الجغرافية أعادت تكرار المشهد التاريخي في أكثر من حقبة من حقب التاريخ.

لأكثر من ثلاثة قرون من الزمان عاش العرب في العراق وبلاد الشام والجزيرة العربية في صراع دامي ومرير مع الدولة الساسانية. اعترف الساسانيون خلالها بسلطة العرب المناذرة (اللخميين) ملوكاً على الحيرة في العراق لكسبهم إلى جانبهم في جهدهم المتواصل في صد الهجمات العربية المتكررة من الشام والجزيرة العربية على جيوش

ومراكز دولة بني ساسان. وكذلك فعل الروم البيزنطيين مع مملكة الغساسنه في بلاد الشام من أجل حماية إمبراطوريتهم من الهجمات العربية من العراق والجزيرة العربية.

قبيل الدعوة الإسلامية كانت الحرب بين الفرس والعرب سجال. فالمعارك والحروب كانت الغلبة فيها تارة إلى جانب الفرس وتارة أخرى كانت الغلبة فيها إلى جانب العرب. دخل الساسانيون اليمن قبل الدعوة المحمدية بسنين قليلة، وبدعوة من أحد حكامها المحليين، سيف بن ذي يزن، لمساعدته على منافسة على السلطة هناك، لكن الفرس بقوا هناك وأخضعوا اليمن والحاكم الذي دعاهم لسلطانهم. أما في العراق فقد مني الفرس في تلك الأثناء بهزيمة نكراء أمام الجيوش العربية من قبائل بني شيبان وقبائل بكر بن وائل في معركة "ذي قار" في وسط العراق بقيادة المثنى بن حارث الشيباني. معركة ذي قار التي وقعت عام 614 م، أي في بضع سنين قبل الفتح الإسلامي كانت واحدة من سلسلة معارك مع الساسانيين، لكنها تركت أثر خاص على مسار التاريخ ومستقبل المنطقة.

إن هذا الانتصار الكبير على الجيوش الفارسية في "ذي قار" ترك آثاراً كبيرة على سير العلاقات العربية ـ الفارسية القادمة، وفي نفس الوقت وضع بذور التفكك والتحلل في جسم الدولة الساسانية المنافس الأول للإمبراطورية الرومانية في السيطرة على الشرق وسواه. هذا الانتصار العسكري كان على ما يبدو المقدمة الضرورية لوضع حد لغطرسة الحكام الفرس في تعاملهم مع الشعوب التي يحكمونها ومع الشعوب المجاورة لهم مثل العرب.

في خلافة عمر بن الخطاب التي دامت لفترة عشرة أعوام، من عام 632 م حتى 642 م ميلادية، حصلت كبرى حروب الفتح والتحرير. من القادسية ونهاوند في العراق وفارس. تقهقرت الإمبراطورية الساسانية ومن ثم انهارت واندثرت وأصبحت اثر بعد عين خلال زمن قياسي قصير لم يتجاوز الأربعة أعوام.

توسعت الدولة العربية الإسلامية وقامت على أرض شاسعة امتدت من أطراف الصين شرقاً حتى حدود فرنسا في الغرب. ضمت دولة الخلافة العربية في ثناياها شعوب وأقوام شتى. من هذه الشعوب والأقوام كانت الشعوب الإيرانية التي اعتنقت في غالبيتها الدين الإسلامي.

أصبحت دولة الخلافة العربية ولعدة قرون لاحقة القوة العالمية العظمى الوحيدة في العالم. وأصبحت اللغة العربية لأكثر من خمسة قرون لغة عالمية في الأدب والعلم والتجارة بين شعوب العالم.

دامت دولة الخلافة العربية بعواصمها المتنقلة في المدينة المنورة ودمشق و بغداد والقاهرة وقرطبة مدة تسعة قرون (من عام 626 م حتى عام 1518 م) متواصلة دون

انقطاع. واستمرت الدولة العربية في الأندلس قرابة الثمانية قرون (من عام 711 م حتى عام 1492 م).

اجتاحت الجيوش المغولية القادمة من أواسط أسيا كل الحواضر الإسلامية في الشرق حتى وصلت إلى عاصمة الخلافة الإسلامية بغداد. تمكن هولاكو من دخول بغداد وتدميرها وإبادة سكانها. احتل المغول عاصمة الخلافة العباسية بغداد في العام 1258 وانتقلت عاصمة الخلافة والخليفة العباسي إلى القاهرة. استمرت الخلافة العباسية شكلياً بعد أن نصب أحد الخلفاء من بني العباس ممن نجوا من مذابح المغول في بغداد، وهو عم المعتصم والذي أحضره القائد والحاكم المملوكي الفعلي لمصر "الظاهر بيبرس" إلى القاهرة والذي قلده اسم "المستنصر". كان المتوكل هو آخر الخلفاء العباسين في القاهرة عندما دخل السلطان العثماني بجيوشه القاهرة عام 1518 منهياً بذلك الخلافة العربية الإسلامية الاسمية لتحل محلها السلطنة العثمانية لأربعة قرون قادمة.

تفككت الدولة والخلافة العربية الإسلامية بفعل عدة عوامل خارجية وعوامل داخلية اجتمعت وتكالبت على هذه الإمبراطورية العملاقة. من نتائج تفكك الدولة العربية الإسلامية قيام كيانات سياسية قومية ودينية أخرى على أنقاض دولة الخلافة العربية العباسية. من هذه الكيانات التي تشكلت كانت الدولة الصفوية في الهضبة الإيرانية.

الدولة الفارسية

أعيد في بداية القرن السادس عشر إحياء الكيان السياسي الفارسي على يد القبائل التركمانية. عرف هذا الكيان السياسي الذي قام بتأسيسه و بقيادته القائد التركماني "إسماعيل تقي الدين الصفوي"، بالدولة الصفوية. استمر حكم العائلة الصفوية من عام 1505م حتى عام 1724م. بعد سقوط الدولة الصفوية عاش الكيان السياسي في بلاد فارس قرابة النصف قرن حالة من الفوضى حكمت خلالها بعض العائلات الأفغانية هذه الدولة. خرجت أفغانستان في عام 1747م من دائرة الكيان السياسي الصفوي ـ الفارسي. في عام 1786 م استولت عائلة "القاجار" التركية على السلطة في الهضبة الإيرانية، واستمر حكم العائلة القاجارية حتى عام 1925.

أزيحت العائلة القاجارية عن السلطة عبر انقلاب عسكري قام به أحد ضباط الصف في الحرس الملكي القاجاري عام 1921 يدعى "رضا خان بهلوي"، مؤسس السلالة البهلوية في حكم إيران. في هذا العام أصبح رضا خان بهلوي هو الحاكم الفعلي للمملكة الفارسية بمساعدة بريطانيا الاستعمارية، وقام رضا خان بهلوي في عام 1925 بعزل الشاه محمد القاجاري ونصب نفسه شاهاً على بلاد فارس. بعد انتهاء الحرب العالمية الأولى أصبحت المملكة الفارسية عام 1919 تحت الحماية البريطانية، وكانت القوات البريطانية في بداية الحرب العالمية الأولى قد دخلت بلاد فارس من الجنوب وعبر الخليج العربي. وكانت الجيوش الروسية قد دخلت في نفس الوقت الأراضي الإيرانية من جهة الشمال عبر بحر قزوين.

خضعت إيران مرة أخرى للهيمنة البريطانية في أثناء الحرب العالمية الثانية ووقعت أجزاء من شمال إيران تحت سيطرة الجيوش السوفييتية. لقد خرجت القوات الأجنبية من إيران دون أي مقاومة عسكرية إيرانية تذكر، بل كان خروج القوات الأجنبية نتيجة لتوازنات القوى الدولية الجديدة التي خلقت أثناء الحربين العالميتين وبعدهما. قام الكيان الإيراني بلعب دور المكان والكتلة البشرية العازلة بين القوى الدولية الكبرى المتصارعة على المصالح والنفوذ في غرب ووسط أسيا.

قام رضا خان عندما أصبح وزيراً للدفاع ومن ثم شاه على المملكة الفارسية بتوسيع مساحة الدولة الفارسية باحتلاله خمس إمارات عربية على الساحل الشرقي للخليج العربي.أهم هذه الإمارات وأكبرها كانت إمارة المحمرة. هذه الإمارات العربية الخمسة المحتلة تعرف بإقليم الأحواز أو (عربستان). واحتل رضا خان في نفس الفترة الجزء الجنوبي من جمهورية أذربيجان وأخمد ثورات الكرد والتركمان وقاتل قبائل البلوش في الجنوب وأخمد ثوراتهم في بلاد بلوشستان وضم بلاد هذه الشعوب إلى دولة فارس. كل تلك الخطوات والمشاريع التوسعية الإيرانية التي قادها رضا خان كان من الصعب الإقدام عليها بدون التوافق الدولي الإمبريالي على تعزيز دور المملكة الفارسية في المنطقة وإضعاف دور الكيانات السياسية المجاورة لتلك المملكة. في نفس الوقت الذي عملت القوى الإمبريالية والاستعمارية على تفتيت الوطن العربي وإضعاف الدول والأمم الإسلامية الأخرى في وسط أسيا عبر احتلالها وإلحاقها بالاتحاد السوفييتي كانت تلك القوى الاستعمارية تعمل على تعزيز قوة إيران وتوسيع حدودها لتصل إلى بحر العرب والخليج العربي وبحر قزوين. ليس لتوسيع رقعة الدولة الفارسية أي مبرر تاريخي أو ثقافي أو ديني أو قومي لضم مناطق الجوار الفارسي لهذا الكيان السياسي. لكن خلق كيان سياسي متواصل جغرافياً يقسم العالم الإسلامي إلى شطرين له بالتأكيد مبرر سياسي بأبعاد دولية. تلك مفارقة حدثت في التاريخ القريب ولازالت نتائجها الإستراتيجية تتوالى وتتفاعل باستمرار.

بعد احتلال رضا خان بعض الأقاليم غير الفارسية من مناطق الجوار والقيام بضمها إلى المملكة الفارسية أقدم رضا خان عام 1935على إطلاق اسم "إيران" على الكيان السياسي الجديد الذي يحكمه بدل دولة فارس. في تغيير اسم الدولة أراد رضا خان بهلوي تأكيد عنصرية انتماء هذه الدولة العرقي إلى العالم الغربي والعالم الأوروبي. وخاصة التقرب من أدولف هتلر وحكومته في ألمانيا، والتنصل من الانتماء إلى عالم الشرق الإسلامي. كلمة إيران مشتقة من كلمة "أريا" اللاتينية والتي تعني العرق والشعوب "الآرية". لقد نجح السفير الفارسي في برلين بإقناع الشاه رضا بهلوي بفكرة تغيير اسم الدولة وتبني الفكر العنصري وأسطورة تفوق العرق الآري التي كان ينظر لها أدولف هتلر في تلك الفترة الزمنية. كانت خطوة تغيير اسم الدولة رسالة رمزية موجهة إلى الخارج والداخل، وكانت برنامجاً سياسياً يعبر عن تقديم الولاء للغرب الأوروبي، ويطرح مشرعاً ثقافياً مستقبلي يركز على نقاط الالتقاء مع الثقافة الأوروبية ونابذا في نفس الوقت لثقافة الشرق الإسلامي. تشابهت رغبات وأهداف الشاه رضا بهلوي في إيران، في تشجيعه وقيادة التعصب القومي الفارسي، ومحاولة التقرب والتماثل مع أوروبا، بمسيرة وتوجهات "مصطفى كمال" أتاتورك في تركيا. كلاهما كان يتلقى الدعم والتأييد المادي والمعنوي وكذلك السياسي من الدول الغربية. على اختلاف توجهات الحكومات الغربية السياسية ومسمياتها ومشاربها الأيديولوجية تبنت

دعم وتأييد مشاريع النخب الشرقية التي دعت إلى الابتعاد عن العالم الإسلامي والتنصل من الثقافة الشرقية والإسلامية.

ورث محمد رضا بهلوي السلطة عام 1941 عن والده رضا خان عندما أجبرته القوات البريطانية على الاستقالة والتنحي عن السلطة لصالح ابنه الوحيد محمد بعد ما حاول الشاه رضا في بداية الحرب العالمية الثانية التقرب من السوفييت والتغاضي عن وجود الجيوش السوفييتية في المناطق الشمالية من المملكة الإيرانية المطلة على بحر قزوين. ظل محمد رضا على رأس الدولة الإيرانية حتى أسقطته الجماهير الإيرانية بثورة عارمة في عام 1979 . سقط الشاه محمد رضا بهلوي عام 1979 عبر ثورة شعبية شاركت بها أغلب التيارات السياسية في إيران. شاركت في هذه الثورة قطاعات شعبية واسعة من كل المكونات العرقية والدينية في الدولة الإيرانية. بسقوط الشاه محمد رضا، الملك الثاني من العائلة البهلوية، تم إسدال الستار على دور العائلة البهلوية السياسي.

تحكم في إيران منذ عام 1979 حتى الوقت الحاضر فئات من التيار الديني الإيراني المتشدد، والذي يتبنى اطروحات سياسية مغالية واطروحات دينية أكثر غلواً في التعصب للطائفة والعمل على تصدير الثورة وتصديرالنموذج الإيراني في نوع الحكم. أطلق على الكيان السياسي الإيراني الجديد اسم الجمهورية الإسلامية الإيرانية.

بلغ عدد سكان إيران عام 2007 قرابة 70 مليون نسمة. يعيش أكثر من نصف عدد السكان في الريف والنصف الأخر يعيش في المدن أو على أطراف المدن، في أحياء الفقر المنتشرة حول المدن الكبرى مثل طهران وشيراز ومشهد. تتكون إيران من ثلاثين محافظة. تصل نسبة الشباب في إيران تحت سن العشرين عاماً إلى 40%.

مساحة الجمهورية الإسلامية الإيرانية تزيد عن المليون والنصف مليون كيلو متر مربع (1,640,000). تشكل الصحاري في الجنوب والجبال الجرداء في الوسط والشمال اكثر من 80% من مساحة الجمهورية. موقع هذا البلد الجغرافي نظراً لإطلالته على بحر العرب والخليج العربي وكذلك على بحر قزوين اكتسب أهمية استراتيجية كبيرة خلال القرن الأخير.

هذه الرقعة الجغرافية التي يطلق عليها حاليا اسم "الجمهورية الإسلامية الإيرانية" لم تكن دائماً موحدة سياسياً، بل خضعت هذه المنطقة ولفترات طويلة من الزمن لكيانات سياسية مختلفة المشارب والولاءات، وكانت الهضبة الإيرانية جزء من أجزاء دول وإمبراطوريات مجاورة وبعيدة.

تجاور إيران الحالية اثنا عشر دولة إسلامية. هي باكستان، أفغانستان، تركمانستان، أذربيجان، تركيا والعراق. كذلك تقابل وتجاور دول الخليج العربي، عمان ودولة الإمارات العربية المتحدة والبحرين وأمارة قطر وكذلك المملكة العربية السعودية

والكويت. سبعة دول عربية تجاور إيران ومع هذه الدول العربية السبع لإيران علاقات ثقافية وسياسية وتجارية ملحوظة.

بقيت إيران تعد من الدول الفقيرة ومن مجموعة الدول النامية على الرغم من المخزون والإنتاج الهائل من مواد الطاقة الطبيعية. تأتي إيران في المرتبة الثانية على قائمة مجموعة دول "الأوبيك" المنتجة للنفط، حيث يبلغ متوسط الإنتاج الإيراني الأربعة ملايين برميل يومياً. تزداد معدلات البطالة في إيران سنوياً حتى وصلت إلى نسبة ال 20%. والفقر متفش في الأرياف والمدن الإيرانية والتي بقيت خارج التطور العمراني والبشري العام . بلغت نسبة الإيرانيين الذين يعيشون تحت درجة الفقر حسب الأرقام الحكومية الإيرانية لعام 2007 13 % من مجموع عدد سكان إيران.2

تشكل طبقة التجار الصغار والمتوسطة (البازار) العمود الفقري في هيكل الإقتصاد الإيراني. هذه الفئة تهيمن في تحالفها مع رجال الدين على عصب الحياة الاقتصادية و السياسية وتتمتع بنفوذ كبير داخل المؤسسات الحكومية. وتعتبر هذه الطبقة من اكثر الطبقات الإيرانية نفوذاً وتأثيراً على الحياة العامة هناك. الجدير بالذكر في هذا المكان القول أن العناصر المتحدرة من أصول عرقية أذربيجانية هي الفئة التي تهيمن بدرجة ملفتة للانتباه على الإقتصاد الإيراني وعلى طبقة البازار. هذه الفئة التجارية الآذارية أكدت عبر العقود والقرون الأخيرة نفوذ وتأثير ملحوظ على القرار السياسي في الدولة الإيرانية. فمنذ العصر الصفوي مع بداية القرن السادس عشر ظلت العناصر ذات الأصول الآذارية التركية الفئة المهيمنة على الحياة الاقتصادية والسياسية في الكيانات السياسية في الدولة.

نجحت إيران في بناء بنية تحتية معقولة على مستوى الجمهورية، والتي بدء العمل فيها في فترة حكم الشاه محمد رضا بهلوي في أوائل أعوام السبعينات من القرن العشرين. كذلك تتمتع إيران في امتلاكها شبكة من الصناعات الغذائية والتحويلية المتوسطة وكذلك الصناعات البترولية المتطورة التي أشرف على بنائها البريطانيين ومن بعدهم الأمريكان في العقود الأخيرة من حكم الشاه. ومؤخراً أقيمت في إيران بعض الصناعات التحويلية كمعامل السكر وحفظ وتعليب الخضار وكذلك بناء مصانع تجميع الجرارات والسيارات في طهران وبعض المدن الإيرانية الأخرى. ونشطت في إيران في العقود الأخيرة صناعة إنتاج الأسلحة بمساعدة كوريا الشمالية وجمهورية روسيا الاتحادية والصين الشعبية. كان الشاه محمد رضا بهلوي قد بدأ سياسة التصنيع العسكري في أعوام الستينات بمساعدة الولايات المتحدة وألمانيا وبريطانيا والكيان الصهيوني رداً على محاولات التصنيع والتحديث التي بدأتها الجمهورية العربية المتحدة بقيادة الزعيم جمال عبد الناصر في نفس الفترة الزمنية. وكانت تجاوز الخطوط الحمر التي وضعها

[2] صحيفة الشرق الأوسط، لندن في 13. 8. 2007.

الغرب للشاه في هذا المجال من الأسباب والعوامل التي ساهمت بتخلي الغرب عن الشاه وخدماته والبحث عن بدائل أخرى تقبل بتطلعات الدول الغربية الإستراتيجية لهذه المنطقة.

التعليم في إيران قطع مراحل كبيرة، وبنيت المدارس في كل مدينة وفي أغلب القرى، ويستفيد من خدماتها ملايين الناس. لكن نسبة الأمية في إيران، على الرغم من إلزامية ومجانية التعليم حتى سن الخامسة عشر، لازالت تزيد هناك على ال30 %. الجامعات والمعاهد العليا، بالإضافة إلى المدارس والمعاهد الدينية، منتشرة في أغلب المدن الإيرانية الكبيرة، ويزيد عدد طلابها على المليون طالب وطالبة.

بقيت إيران بلد زراعي بالدرجة الأولى على الرغم من دخول الصناعة كأحد المكونات الأساسية للاقتصاد في إيران. فالهضبة الإيرانية التي تمتد من جنوب البلاد إلى شماله تقارب مساحتها 80% من مساحة إيران الحالية. في وسط الهضبة الإيرانية يعيش الشعب الفارسي في محافظة فارس وسيستان وخرسان وجيلان. الشعوب الإيرانية غير الفارسية والتي تشكل قرابة ال 65% من مجموع عدد السكان تعيش على أطراف الهضبة والسهول المحاذية للهضبة وفي المناطق الحدودية مع دول الجوار. فالطبيعة الجبلية الجافة للهضبة الإيرانية جعلت المناطق التي يقطنها الفرس من أكثر مناطق إيران فقراً وجدباً. هذا الواقع المناخي كان على مر العصور المحرك الأساسي للقبائل والشعوب من سكان هذه الهضبة على الهجرة من تلك المناطق إلى مناطق أكثر خصوبة ووفرة. في كثير من الأحيان كانت هذه الهجرات تأخذ شكل الغزوات والحروب على مناطق الجوار.

الهجرات والغزوات الإيرانية كانت تتجه في معظمها إلى الجوار الغربي لتلك الهضبة، إلى بلاد الرافدين الخصبة، صانعة الدول والحضارات. فالواقع الجغرافي والبيئي للهضبة الإيرانية يفسر عدم إمكانية نشأة دولة وحضارة متطورة عبر العصور في تلك البقاع. كل الدول التي تشكلت بقيادة عائلات فارسية وعائلات إيرانية كانت مدنها وحواضرها الأساسية وعواصمها الثقافية والاقتصادية والسياسية تقع على أرض العراق وأطراف العراق الخصيب. لم يذكر التاريخ الطويل لنشوء وأفول الكيانات السياسية في المنطقة غير تلك الحقيقة الثابتة. النخبة السياسية والاجتماعية الفارسية والإيرانية تعي هذه الحقيقة الجغرافية ـ التاريخية، وبين أوساطها شائع الاعتقاد بأن لا قيمة كبيرة وذات تأثير لدولة إيرانية أو فارسية في الهضبة الإيرانية الجرداء إذا لم تقترب مراكز هذه السلطة، وإدارة هذه الدولة، من العراق و بلاد الرافدين. الأطماع الفارسية في أرض العرب عموماً وأرض العراق على وجه الخصوص لها طبيعة سيكولوجية وقناعة سياسية هامة وجديرة بالاهتمام. تتلخص الخطوط العريضة للفكرة السائدة عند النخب السياسية والثقافية الفارسية الإيرانية المتعاقبة "باستحالة إقامة كيان

سياسي فارسي ذو قيمة تاريخية دون السيطرة على أجزاء من العراق والاقتراب من أنهره الخالدة دجلة والفرات ونهر الكارون في الأحواز". هذا الانطباع السائد عند الفرس يفسر في أحد جوانبه مواقف التيارات السياسية والدينية الفارسية المختلفة العدائية عبر العصور الماضية من العراق بشكل خاص والعرب بشكل عام.

إيــران
دولة متعددة الأعراق والثقافات

يعيش في الجمهورية الإسلامية الإيرانية عدد كبير من المجموعات القومية والعرقية والدينية والطائفية، تصل هذه المكونات إلى حد ال 30 مجموعة وأقلية.

الفرس يشكلون قرابة ال 35% من مجموع عدد السكان في إيران. يليهم في النسبة الإذاربيجان حيث تصل نسبتهم ال 22%. العرب يشكلون نسبة 19% من عدد السكان ويشكل الكرد 11% والتركمان نسبة ال 4% والبلوش من مجموع عدد السكان في كيان إيران. الأقليات الأخرى التي تعيش في إيران تبقى ممثلة في نسب أقل من ذلك. وعلى أساس تلك الحقيقة لتشكيلة المجتمعات السكانية في إيران جاءت تسمية الشعوب الإيرانية وليس الشعب الإيراني.

يعيش في إيران، إلى جانب المسلمين الذي تبلغ نسبتهم إلى مجموع عدد السكان ال 87 % ، أقليات دينية أخرى، مثل المسيحية واليهودية والزردشتية (المجوس) وديانات أخرى بنسب متواضعة.

مثلما هو التنوع العرقي والإثني يشكل الصفة السائدة في مجتمعات الدولة الإيرانية كان التنوع الديني والثقافي الصفة الملازمة لسكان الهضبة الإيرانية. على الرغم من أن الأغلبية الكبرى من مسلمي إيران هم من أتباع الطائفة (الشيعة الإثني عشرية) التيار الشيعي الصفوي، والذي يتميز في كثير من الممارسات عن التيار الشيعي الكلاسيكي (العربي) في فهم وتطبيق الشعائر الدينية المستمدة من المذهب، هناك أقلية إسلامية سنية تصل نسبتها إلى ال 25% من مجموع عدد السكان المسلمين في تلك الدولة. فغالبية المواطنون التركمان، الذين يقطنون المناطق الشمالية من إيران والأكراد في الغرب من إيران والبلوش في جنوب إيران هم من المسلمين السنة. وبين صفوف عرب الأحواز تتزايد نسبة المواطنين الذين يتخلون عن المذهب الشيعي وينتقلون للعبادة حسب المدارس المذهبية السنية.

ينص الدستور الإيراني على أن اللغة الفارسية هي اللغة الرسمية للدولة، لكن واقع الحال يؤكد تكلم الشعوب الإيرانية عدة لغات. ففي كل منطقة يغلب على سكانها الانتماء

إلى أحد القوميات وأحد الشعوب يتكلم سكان هذه المنطقة أيضاً لغة الشعب والقومية التي ينتمي إليها سكان تلك المنطقة. العرب في الجنوب والجنوب الغربي في إقليم الأحواز المحتل يتكلمون اللغة العربية، والأغلبية الساحقة منهم لا تجيد التحدث باللغة الفارسية. وخاصة كبار السن منهم يحتاجون أمام المؤسسات الحكومية والمؤسسات الاقتصادية إلى مترجمين حتى يستطيعون التفاهم مع الموظفين في هذه الدوائر. في الأرياف الأحوازية ظلت اللغة العربية هي اللغة الوحيدة المستعملة في حياة الناس اليومية ولغة المخاطبة والبيع والشراء.

في شمال غرب إيران ظلت لغة الناس في تلك المناطق هي اللغة الكردية "الصورانية" القريبة من لغة أكراد العراق. في الشمال من إيران تنتشر لغات الأذربيجانية التي تنتمي إلى أسرة اللغات التركية البعيدة كل البعد عن اللغات الفارسية القديمة منها والحديثة. في الجنوب من إيران كانت ولازالت عبر القرون اللغة البلوشية هي لغة القبائل التي تسكن تلك المناطق. وأخذت القبائل التي تسكن مناطق جنوب إيران وجنوب الباكستان اسمها من اسم تلك اللغة. اللغة البلوشية هي مزيج من اللغات الهندية واللغة العربية. يعتقد كثير من اللغويين والمؤرخين بالأصول والجذور العربية للقبائل البلوشية. لقرب مناطق سكن القبائل البلوشية من مناطق سكن وانتشار القبائل العربية وحصول اختلاط وتصاهر بينها وبين القبائل العربية من جهة واعتناق القبائل البلوشية الدين الإسلامي السني بشكل مبكر جعل الكثير يعتقدون بهذا الاعتقاد. القبائل التركمانية التي تنتشر في الشمال والوسط من إيران تتكلم هي ايضاً لغة غير الفارسية. فاللغة التركمانية هي أحد اللغات التركية المتأثرة إلى حد كبير باللغة العربية نظراً لاعتناق التركمان الدين الإسلامي السني.

في أراضي الدولة الإيرانية يتحدث الناس إحدى عشر لغة حية، وفي إيران تنتشر لهجات محلية تزيد عن الثلاثين لهجة. ففي إطار اللغة الواحدة تكاد بعض الجماعات البشرية التي تعيش في المناطق المغلقة والنائية، تجد صعوبة في التفاهم مع بعضها البعض.

أختلف المؤرخون والباحثون حول تحديد أصول القبائل الفارسية. فمنهم من أصر على أن هذه القبائل قادمة من ما وراء القوقاز وسهل الاورال، ومنهم من يعتقد بأن القبائل الفارسية إنساحت على الهضبة الإيرانية قادمة من شبة القارة الهندية من جهة الشرق ضمن مجموعات بشرية أخرى رحلت من تلك البقاع. والبعض الآخر ينفي هذين الاحتمالين ويقرر بأن موضوع الأصول العرقية للقبائل الفارسية من غير الممكن الجزم به ولا زال مبهماً حتى الآن.

مثلما هي الحال في تحديد المنطقة الجغرافية التي قدمت منها تلك القبائل الفارسية قبل استقرارها في تلك الهضبة الجرداء كذلك ظل تحديد الزمن لدخول تلك القبائل الهضبة

الإيرانية غير محدد. المؤكد أن تلك القبائل سكنت في القرن التاسع قبل الميلاد الهضبة الإيرانية ضمن مجموعة من قبائل وشعوب أخرى. المؤكد أيضاً أن هذه الشعوب وتلك القبائل التي استقرت في الهضبة الإيرانية لا تنتمي إلى عرق محدد بعينة آو إلى مجموعة بشرية بذاتها، بل يعود تكونها إلى عدة أعراق وجماعات بشرية متنوعة المشارب والأعراق مرت بتلك الهضبة عبر القرون السالفة. كان القاسم المشترك بين هذه الأقوام توطنها واستقرارها في هذه الهضبة التي صار يطلق عليها اسم "الهضبة الإيرانية".

في تلك المنطقة قامت دول وممالك سادت، وأخرى زالت واندثرت. لقد تداولت السلطة والنفوذ في هذه البقعة الجغرافية الجبلية الوعرة من العالم القديم أقوام وشعوب كثيرة. دخلت عام 650 قبل ميلاد السيد المسيح قبائل رحل، كانت تعرف بقبائل "فارس"، منطقة في الهضبة عرفت بنفس اسم تلك القبائل. تقع هذه المنطقة في والوسط الجنوب الغربي من الهضبة الإيرانية ولازالت هذه المنطقة تعرف بهذا الاسم، "ولاية فارس". شكلت هذه القبائل قوات محاربة ونزلت عام 554 قبل الميلاد من الجبل صوب الغرب قاصدة سهل ووادي بلاد العراق. في العام 539 ق.م احتل الفرس مدينة بابل العراقية، وهناك تشكلت أول دوله ذات معناً تحكمها عائلات فارسية عرفت بالعائلة "الأخمينية". استمرت هذه العائلة في الحكم قرابة القرنين من الزمان ثم سقطت على يد الإسكندر المقدوني عام 333 قبل ميلاد السيد المسيح.

في مسيرة الفرس التاريخية منذ كانوا قبائل هامشية على مسرح التاريخ إلى أن نجحوا في بناء أول كيان سياسي بين أعوام 554 و539 ق.م حدث خلط وتمازج عرقي وثقافي كبير بين الفرس والأقوام التي تشاركوا معها المكان. وخاصة مع الشعوب السامية ـ العروبية في أرض بابل التي كان يطغى العنصر البشري السامي ـ العروبي على سكانه. وطول تواجد العصر "الأخميني" و "الهيليني" و "البارثي" و العصر "الساساني" ظل يغلب على سكان أرض العراق العنصر السامي ـ العروبي. خلقت حالة جديدة من المزج والتفاعل طال كل نواحي الحياة بين سكان الهضبة الإيرانية والقبائل العربية بعد الفتح العربي الإسلامي، وإسقاط العروش الفارسية في القرن السابع. إن إخلاء بلاد العراق من المجاميع الفارسية، ودخول القبائل العربية الهضبة الإيرانية، والاستقرار بها أربعة عشر قرناً متواصلة شكل حالة وواقع جديد من الناحية العرقية والإثنية.

من الصعب التحدث عن شعوب إيرانية وشعوب فارسية في أقاليم الهضبة الإيرانية دون النظر إلى المكون العربي في أعراق وثقافة وديانات ولغات شعوب تلك الأقاليم. لا زالت حتى عصرنا الحاضر تسكن مناطق عدة في إيران قبائل وتجمعات بشرية عربية كبيرة. ففي محافظة "فارس" في وسط وجنوب غرب إيران تنتشر قبائل "عرب

الباصريين" المتحالفون مع قبائل التركمان هناك، ويعرف هذا التحالف "بإلات العرب الخمسة" أي تحالف العشائر العربية الخمسة. رقعة انتشار أبناء هذه القبائل العربية الخمسة في محافظة فارس تزيد عن مساحة القطر اللبناني. يقدر عدد أبناء القبائل العربية في تلك المنطقة بأكثر من 350 ألف مواطن.

ففي طهران العاصمة يعيش قرابة 350 إلى 400 ألف مواطن عربي. ففي مدينة "كرج" بالقرب من العاصمة طهران والتي أصبحت تعتبر من أحد ضواحي مدينة طهران، يعيش قرابة 200 ألف مواطن عربي هجروا من مناطقهم الأصلية في إقليم الأحواز في أعوام الثمانينات من القرن العشرين أثناء فترة الحرب العراقية الإيرانية.

وفي محافظة خرسان في شرق إيران يعيش العرب في ثلاثة مناطق في تلك المحافظة. في منطقة "ساراخ" إلى الشرق من مدينة مشهد. ويقدر عدد العرب في مدينة مشهد وبالقرب من مشهد 350 ألف مواطن عربي. وفي منطقة "أراب خانه"، واسم المنطقة يدل على هوية سكانها، في جنوب مدينة بيرجند، يقدر عدد المواطنين العرب هناك بأكثر من 300 ألف مواطن.

في منطقة "زيكوة" على الحدود الأفغانية يعيش قرابة 200 ألف مواطن عربي. في تلك المنطقة من خرسان تنتشر مجموعة من القبائل العربية الكبرى. من أهم القبائل العربية الكبرى في مناطق خرسان الوسطى هي: بني شيبان، بني زنغاني، بني خزامة، بني مشماسة وقبيلة الأزد. كانت هذه القبائل تشكل مع غيراها من القبائل العربية الأخرى في نهاية العصر العباسي وحتى بداية العصر الصفوي في القرن السادس عشر أكثر من نصف عدد سكان خرسان الغربية. وخرسان الغربية هي الثلاثة محافظات خرسان الواقعة داخل حدود الدولة الإيرانية الحالية. كانت اللغة العربية هي اللغة السائدة في أغلب مناطق خرسان المختلفة. يسكن بني خزامة مدينة مشهد عاصمة خرسان الشمالية وفي أكثر من خمسين قرية بالقرب من مدينة مشهد.

يعيش في أطراف الصحراء الإيرانية في وسط البلاد عدد من التجمعات العربية تتبع في إدارتها إلى محافظات خرسان وسستان يقدر عدد مواطنيها ب 200 ألف مواطن عربي.

وفي محافظة اصفهان لازال يشكل سكان منطقة "عربستان" في هذه المحافظة أغلبية سكان تلك المنطقة. وظلت هذه المنطقة محتفظة باسمها القديم "عربستان".

يبلغ عدد المواطنين العرب الذين يعيشون خارج أرض إقليم الأحواز التاريخي، في المحافظات الإيرانية الشرقية والوسطى والشمالية، قرابة المليوني مواطن عربي ويزيد. هذا بالإضافة إلى منطقة الأحواز وساحل الخليج العربي الشرقي ذو الغالبية السكانية العربية الساحقة الذي سيأتي التطرق إليه لاحقاً. فالشعوب التي تستوطن إيران اليوم هي المحصلة النهائية لعملية تمازج واختلاط لشعوب شبه القارة الهندية وشعوب شبه

الجزيرة العربية والعراق بشكل أساسي. والواقع الاجتماعي والثقافي في إيران المعاصرة يعكس بشكل جلي هذه الحقيقة التاريخية.

ثقافة هذه الشعوب هي ايضاً محصلة تراكم من الثقافات التي عاشت وانتشرت في وادي الفرات ودجله ووادي الغنج والسند وكذلك سهل الاورال.

اللغات الفارسية هي مزيج من تأثير لغات شتى، لكن حسب علماء اللغة فإن اللغات الإيرانية ومن ضمنها اللغات الفارسية تنتمي إلى عائلة اللغات الهندو ـ أوروبية. فاللغة الفارسية الساسانية تشترك مع بعض اللغات الهندية، كاللغةً السنسكريتية على سبيل المثال، في كثير من الصفات اللغوية. تشترك اللغات الفارسة مع بعض اللغات الهندية واللغات الأوروبية في تركيبة الجملة اللغوية، وكذلك بكم كبير من المفردات المشتركة. واللغة "البهلوية القديمة" والتي شاعت وانتشرت في القرون الأولى قبل الميلاد كانت بالدرجة الأولى أحد اللهجات الآشورية والخط الذي كانت تكتب به كان الخط ا الآرامي الشمالي (الخط السرياني). لكن اللغة المستعملة حالياً في إيران والتي يطلق عليها اللغة "البهلوية الجديدة"، على الرغم من أنها حافظت على شكل صياغة الجملة إلى حد ما والتي لازالت تحتفظ "بالفعل المساعد" غير الموجود في اللغة العربية مثلاً، والموجود في اغلب اللغات الأوروبية، هذه اللغة استبدلت كم هائل من الأسماء والأفعال الفارسية القديمة بمفردات من الأسماء والأفعال العربية، بالإضافة إلى المفردات الآرامية (السريانية) التي انتقلت إليها من اللغة البهلوية القديمة. المفردات العربية في اللغة الفارسية (البهلوية الجديدة) تقارب، حتى بعد محاولات رضا بهلوي الفاشلة بإزالة وإزاحة المفردات العربية من اللغة الفارسية، نسبة 60 % من مجموع مفردات هذه اللغة. واللغة البهلوية المعاصرة تكتب بالخط العربي وأبجديتها عربية ما عدى ثلاثة حروف فقط غير عربية.

التوزع القومي للسكان في الجمهورية الإسلامية الإيرانية.

التيارات السياسية في إيران

اللغات الفارسية هي مزيج من تأثير لغات شتى، لكن حسب علماء اللغة فإن اللغات الإيرانية ومن ضمنها اللغات الفارسية تنتمي إلى عائلة اللغات الهندو ـ أوروبية. فاللغة الفارسية الساسانية تشترك

على امتداد العقود العشر الأخيرة مرت إيران بمراحل مختلفة من التوترات السياسية والهدوء النسبية. ايضاً عاشت إيران إشكالا من التدخلات الدولية. التدخل البريطاني والروسي ومن بعده التدخل السوفيتي والأمريكي وكانت تدخل القوى الخارجية وخاصة الغربية منها في شؤون هذه الدولة من العلامات البارزة في الحياة السياسية في إيران خلال القرن المنصرم. ايضاً لم تبقى إيران مغلقة في وجه رياح الأفكار وأيديولوجيات العصر التي انتشرت بين الشعوب المجاورة. الشعوب الإيرانية تأثرت وتفاعلت مع تلك النظريات والأفكار وترجمت هذه الأفكار والأيديولوجيات على شكل أحزاب ومنظمات سياسية وغيرها لتدلي بدلوها في معترك الحياة السياسية في هذا البلد.

على الرغم من تداخل الأفكار والبرامج السياسية للأحزاب والحركات السياسية يمكن تصنيف تلك الأحزاب والحركات السياسية في هذا البلد إلى ثلاثة تيارات رئيسية.

التيار القومي

التيار اليساري

التيار الديني.

هذه التيارات السياسية والفكرية الثلاثة تشكل الخريطة السياسية للمجتمعات الإيرانية المختلفة. على الرغم من تمايز هذه التيارات من حيث المنطلقات والأهداف لكنها أيضاً متداخلة ومتشابه في أكثر من جانب وهدف من الأهداف السياسية، والحدود بين هذه التيارات الثلاثة شفافة وتكاد تكون وهمية.

التيار القومي الفارسي

ضمت الدول والإمبراطوريات في العصور القديمة شعوبا وقوميات مختلفة. كذلك كان شأن دولة الأكاسرة قبل الإسلام. كان الشاه أو "الكسرى" هو رمز الدولة والهوية القومية. سقط "كسرى" وسقطت معه الهوية القومية الفارسية. بعد الفتوحات العربية اصبح الإسلام عند الشعوب الإيرانية هو الرمز في الانتماء للدولة والإمبراطورية العربية الإسلامية. بعدما تفككت الدولة العربية الإسلامية العباسية تأسست الدولة الصفوية وتبنا مؤسسوها المذهب الشيعي وقاموا بفرضه على الشعب ونظام الدولة. اكتسب هذا المذهب القيمة الرمزية للقومية الفارسية في صراعها مع الدولة العثمانية السنية. لمدة أربعة قرون، من بداية القرن السادس عشر حتى نهاية حكم الأسرة القاجارية في عام 1925، ظل المذهب هو الركن الأساسي للتعبير عن الحس القومي الفارسي في الدولة. كانت الدول تعرف باسم القائمين عليها ولم تعرف الدولة التي نشأت بالدولة الفارسية. كانت هي الدولة الصفوية، ومن ثم أصبحت تعرف بالدولة القاجارية، وكذلك الدولة البهلوية. العالم الخارجي هو من كان يطلق صفة الفارسية على الكيانات التي تنشأ في تلك المنطقة من العالم. فإيران لم تتخذ صفة الدولة الفارسية إلا قبيل الحرب العالمية الأولى

أحد الأسباب الأساسية التي جعلت الشاه رضا يعيد النظر في صياغة الخطاب القومي في فارس هو زيادة الوعي القومي عند أبناء القوميات والشعوب في الدولة الفارسية. منذ مطلع القرن العشرين انتشر الوعي القومي عند الشعوب التي تقطن الهضبة الإيرانية وما حولها. كثير من المثقفين في أوساط الشعوب الت تخضع تحت الإحتلال الفارسي، كالاتراك الاذريين والاكراد والعرب والتركمان والبلوش، اطلعوا على تجارب الشعوب في أوروبا الغربية والبلقان والمنطقة العربية من اجل الإنعتاق من جور القوى المستعمرة الفارسية. في العشرينيات من القرن العشرين غدت الدولة الفارسية، مع تعاظم الحركات القومية، مهددة بالتفكك والزوال. فالخطاب القومي عند أبناء الشعوب غير الفارسية أخذ طابع الانتفاضات الشعبية والعصيان المسلح المنظم أو على شكل الهبات العشائرية كما حصل في منطقة الأحواز العربية بعد احتلالها عام 1925 ومناطق الأكراد في الشمال الغربي وفي مشهد في إقليم خرسان وفي بلاد الأذربيجان.

الشاه رضا خان البهلوي عمل وبمساعدة بريطانية على تكوين كيان سياسي إقليمي من خلا إعادة صياغة الخطاب القومي في دولة فارس. في محاولة منة لتلافي خطر تمزق كيان دولة فارس، التي تحتل وتحكم بعض الشعوب المجاورة، تحت ضغط الوعي القومي للشعوب غير الفارسيةالتي يحكمها الشاه، قام الشاه رضا خان بإطلاق اسم مملكة إيران بدل من مملكة فارس على دولته، في محاولة منه لإشعار أبناء هذه الشعوب بأنهم أيضاً معنيين في هذه الدولة وليست دولة للفرس وحدهم. وحد الشاه بين الأمة ككيان اجتماعي والدولة ككيان سياسي. حدد الشاه بناء الدولة الحاضن السياسي للكيان الاجتماعي بثلاثة ركائز أساسية:

- وحدة اللغة
- وحدود جغرافية معروفة
- وبناء جيش قوي يحمي تلك الدولة.

إن فرض اللغة الفارسية على جميع سكان الدولة الإيرانية المزمع بنائها، على الرغم من النسبة الكبيرة من مواطني إيران الذين يتكلمون لغات أخرى غير فارسية، قرابة 65 % ، كان أحد المؤشرات العنصرية والقمعية في مشروع بناء الدولة الإيرانية الحديثة. "أعاد الشاه رضا البهلوي تدشين هذه "الأمة الدولة" التي وصفها بالأمة الإيرانية، أو دولة إيران بدلاً من الأمة الفارسية أو الدولة الفارسية. والسبب في هذه التسمية الجديدة التي أصبحت رسمية دولياً منذ الثلاثينات من القرن المنصرم، انبثاق الوعي القومي ليس لدى الفرس فحسب بل لدى شعوب وقوميات غير فارسية أخرى كالاتراك الاذريين والاكراد والعرب والتركمان والبلوش."[3]

التسمية الجديدة التي أطلقها الشاة رضا على الدولة هي أيضاً غير موفقة ولا تعبر عن الواقع الحقيقي للتركيبة السكانية لهذه الدولة. فكلمة إيران مشتقة من كلمة "أريا"، والتي تعني العرق الآري، والشعوب الآرية. وفقط الفرس والأكراد في الدولة الإيرانية يعتبرون أنفسهم من سلالات الشعوب الهندو ـ آرية. لكن بقية الشعوب الأخرى داخل حدود الدولة الإيرانية، والتي تشكل نصف عدد سكان إيران ينتمون إلى أمم وثقافات عربية وتركية غير هندو ـ آرية. كالعرب والبلوش والتركمان والأذربيجان.

بعد قدوم رضا بهلوي إلى سدة الحكم بمساعدة الإنجليز طرح تعريف جديد للقومية، فأضاف إلى ركن المذهب(الشيعي) اللغة (الفارسية) والعودة إلى الثقافة التي كانت سائدة في إيران قبل قدوم الإسلام إلى هناك وإحياء التراث الساساني. فأصبحت مع بداية العصر البهلوي اللغة الفارسية والثقافة الزرادشتية والطائفية الشيعية الصفوية هي المكونات الأساسية للقومية الإيرانية. وبقي طرح رضا بهلوي والنخبة الفارسية في

[3] بني طرف، عزيز، صحيفة الحياة بيروت 5.1.2005

تعريفهم في التركيز على إحياء التراث الفارسي وتنقيح اللغة الفارسية من مفردات اللغة العربية شكل نوعاً من أنواع العداء مع العرب، كتراث وفكر وتاريخ وأيضا كدين.

ظل التركيز على التوحد بين المذهب الشيعي الصفوي والقومية الفارسية محاولة مستمرة منذ عدة قرون للتنصل من التراث الإسلامي بوجهه العربي، والتنظير للفصل بين العرب والدين الإسلامي والتركيز على أهمية الفصل بين اللغة العربية والتراث العربي وبين اللغة الفارسية الخالية من المفردات العربية. لقد بذلت الجهود الكبيرة في زمن الشاه رضا خان لبلورة الشخصية الفارسية والشخصية الإيرانية المستقلة والمتميزة عن الشخصية الإسلامية العربية، وتم استحضار لهذه المهمة المعتقدات الفارسية المندثرة واللغة الفارسية المتنحية والقيم والعادات الساسانية المنسية، والعمل على وإحلالها مكان اللغة والثقافة والقيم العربية المنتشرة في الأوساط الإيرانية. يعتبر عصر حكم رضا بهلوي في التاريخ الإيراني عصر إحياء القومية الفارسية، وعصر تجديد الهوية الفارسية للدولة الإيرانية. مرة أخرى تعرف الهوية القومية الفارسية وتقاس درجة ثباتها ودرجة وجودها في درجة تمايزها وتباينها عن الثقافة العربية. لقد حاولت الحركات الشعوبية قبل سبعة قرون في زمن العصر العباسي الثاني صياغة وتطبيق هذا المنهج. في عصر رضا بهلوي كانت انطلاقة جديدة للفكر السياسي للنخبة القومية الفارسية وتجديد للفكر الصفوي الديني والثقافي و السياسي.

رضا بهلوي وضع الركائز الأساسية لبناء الأمة والدولة، وحدد ملامح وصفات هذه الأمة في كيان الدولة. وتبنت القوى السياسية القومية الفارسية التعريف والأسس البهلوية وجعلته دستوراً ومنهجاً سياسياً لها. التعريف البهلوي للقومية الفارسية اعتمد بالدرجة الأولى المكون العرقي، وتم التركيز على أهمية الانتماء العنصري للشعوب الإيرانية إلى مجموعة الشعوب "الآرية". هذا البعد ظهر جلياً من خلال إعادة تسمية الدولة وانعكاس البعد العنصري وثقافة تفوق العرق "الآري" على الشعوب والأعراق الأخرى من خلال البرامج التعليمية في المدارس والجامعات الإيرانية. وتزامن هذا التركيز على العنصر الآري للفرس مع صعود التيار القومي العنصر المتطرف في ألمانيا النازية في بداية أعوام الثلاثينات من القرن العشرين، الذي قسم شعوب العالم على أسس عرقية ووضع العنصر الآري ـ الجرماني فوق كل الشعوب.

لقد تأثر القوميون الفرس باطروحات غلاة النازيين الألمان إلى حد كبير. اعتمد رضا بهلوي وسائل التربية والتعليم وعبر وسائل الإعلام لتوصيل برنامجه القومي ومفهومه للأمة الفارسية والأمة الإيرانية. ظل المفهوم البهلوي سائد في برامج التربية والتعليم والمؤسسات الحكومية زمن الشاه محمد رضا، وبقي هذا المفهوم مستمراً في زمن حكم الخميني ورجال الدين. الثقافة العنصرية في مفهوم تكون الأمم اندحرت وتقهقرت وخفت بريقها في كل زوايا الكرة الأرضية، لكنها لازالت المكون الأساس في فهم الهوية

القومية بين صفوف الناس في إيران المعاصرة. هذا الفهم العنصري المتعجرف يبتعد كثيراً عن روح القرآن الكريم في تعريف الأمم والشعوب (ولقد خلقناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم.).

نجح الشاه رضا بهلوي بأن يكون، في نظر مواطنيه الفرس التجسيد الحي للقومية الفارسية في الدولة الإيرانية الحديثة، وحاول تجسيد صورة اكاسرة الفرس وما مثلوه في الدولة الساسانية القديمة.

عزز الشاه رضا بهلوي مكانته عند الشعب الفارسي كمجدد وصانع الأمة الإيرانية الحديثة بتحقيق انتصارات عسكرية في الساحل الشرقي للخليج العربي في احتلال أكبر وأقوى الإمارات العربية المطلة على الخليج. بعد احتلال إمارة القواسم والعبادي وإمارة آل علي اقدم رضا بهلوي في 20. 4. 1925 على احتلال إمارة الأحواز الشمالية العربية (إمارة المحمرة)، وقام بإخماد ثورة عشائر البلوش والكرد وإعادة احتلال جزء كبير من جنوب دولة أذربيجان. توج رضا بهلوي مكانته ونفوذه عند الفرس بادعائه التحدر من عائلة فارسية. يصبح لهذا الإدعاء غير المؤكد قيمة معنوية وسياسية إذا ما عرف أن الشاه رضا البهلوي هو أول حاكم لبلاد فارس وإيران ، منذ الفتح العربي للهضبة الإيرانية في العام 634 ، الذي يدعي تحدره من أصول فارسية.

كل الأمراء والحكام الذين حكموا بلاد فارس منذ الفتح العربي لم تكن أصولهم فارسية. ولم يدعي أحد منهم هذا الانتماء. لقد تبنى حكام الكيانات السياسية في الهضبة الإيرانية اللغة والثقافة الفارسية، لكن انتماءاتهم العرقية ظلت غير فارسية. وظل هؤلاء ينتمون إلى شعوبهم وأعراقهم التي انحدروا منها. فالحكام الصفويون ينحدرون من عشائر تركية. والعائلات التي حكمت الدويلات التي تشكلت في الهضبة الإيرانية بعد سقوط وتفتت الدولة الصفوية، ولمدة تقارب المائة عام، كانت عائلات أفشارية أفغانية وليست فارسية. كذلك العائلة القاجارية التي جمعت الشتات والتشرذم السياسي في الهضبة الإيرانية في دولة واحدة مركزية والتي أطلق عليها بمملكة فارس واتخذوا من طهران لأول مرة عاصمة لمملكتهم هم من القبائل التركمانية أيضاً.

أصبح رضا بهلوي، الرقيب بقوات الحرس الملكي (الكوزاك) في دولة القاجار، الرجل القوي والحاكم المطلق التي أوكلت إليه، منذ عام 1921 مهمة لملمة الكيان الفارسي المنهار. كان الرجل المناسب لحكومة بريطانيا العظمى في تحقيق مصالحها الإستراتيجية في المنطقة. اختارت المؤسسة العسكرية البريطانية رضا خان عبر إحياء الحس القومي الفارسي المتلاشي ليكون ملكاً على فارس. الحس القومي الفارسي الذي استمر بعدائه الشديد والمستمر للإسلام وثقافة الشرق. يتزامن انبعاث الأمة الفارسية وإحياء القومية الفارسية مع إحياء القومية التركية على يد كمال أتاتورك. وعلى أنقاض وبقايا الخلافة العثمانية. عملت فرنسا وبريطانيا الاستعماريتين على دعم وتثبيت

أتاتورك أمام منافسيه في هضبة الأناضول في أيام الحرب الأهلية التركية في عام 1923 . وفعلت تلك الدول الإستعمارية الغربية في نفس الوقت على دعم رضا خان في توجهاته المعادية للشرق.

استقطب البلاط الملكي حوله الجزء الأكبر من العناصر القومية الفارسية الشابة وكذلك العناصر الأذربيجانية الطامحة بالسلطة والنفوذ. تلك العناصر الأذربيجانية التي لم تجد حرجاً في تبني اللغة والثقافة الفارسية بدلاً من اللغة والثقافة الأذربيجانية الأم. لقد حملت النخبة الأذربيجانية علم اللغة والثقافة الفارسية بكل جد وقوة، وحمتها مرة أخرى من النسيان والضياع، كما حمل الصفويون الترك راية إعادة بناء دولة الفرس في بداية القرن السادس عشر. مقابل هذه الخدمة الكبيرة التي قدمها الأذربيجان للغة والثقافة الفارسية، حظيت العناصر الآذرية (الأتراك) على حصة الأسد من النفوذ السياسي والاقتصادي في هذه الدولة الفارسية. هذا النفوذ الأذربيجاني لازال قائماً حتى يومنا هذا. فرأس الدولة الإيرانية الحالية المرشد الأعلى للدولة علي خامنئي هو أيضاً ينحدر من أصول أذربيجانية.

زادت حدة الضغوط الخارجية على إيران وتضاعف حجم التدخلات والضغوط البريطانية على الشاه في أجواء الحرب العالمي الثانية. اجبر الشاه رضا بهلوي على التنحي عن العرش في طهران بعد أن وقع في خطيئة الاتفاق مع الاتحاد السوفيتي في السماح للقوات السوفيتية بدخول الأراض الإيرانية الشمالية المحاذية لأراض جمهورية أذربيجان السوفيتية. وأفسح المجال في العام 1941 أمام ابنه محمد رضا بهلوي، ذو الأعوام الواحد والعشرين، للجلوس على كرسي العرش. منذ الأيام الأولى لتسلم الشاه محمد رضا مقاليد الحكم نظرت إليه القوى السياسية في إيران، وفي المقدمة منها القوى القومية، كصنيعه من صنائع بريطانيا والقوى الخارجية الغربية الاستعمارية.

من هذه الأجواء الداخلية والتدخلات الخارجية السافرة في عزل وتنصيب الملوك والحكام بدأت تتشكل في إيران معارضة التيار القومي للقصر. تجمعت الفئات والشخصيات القومية في إيران في رحلة صراعها مع القصر حول الشخصية المعروفة المهندس "محمد مصدق". مثل الحزب الوطني الذي يقوده مصدق العمود الفقري للتيار القومي في تلك الحقبة في إيران. عين مصدق تحت تأثير قوى التيار القومي رئيساً للوزراء في عام 1952 وقام في خطوة جريئة عام 1954 بالشروع وبمحاولة تجريد القصر من كثير من المهام والامتيازات المطلقة التي كان يتمتع بها. وقام مصدق بتأميم النفط في إيران، وطرد شركات النفط الغربية من هناك. على إثر هذه التغيرات هرب الشاه محمد إلى روما.

تدخلت الشركات الغربية والمخابرات الأمريكية CIA والبريطانية بالتعاون مع بعض قادة الجيش واسقط الإنقلابيون حكومة مصدق، واعتقل رئيس الوزراء محمد مصدق

وحوكم بتهمة الخيانة والتآمر على العرش والدولة. أودع مصدق السجن حتى مات فيه عام 1967. أعيد الشاه محمد رضا إلى السلطة بجهد أنجلو- أمريكي وبقي هذا الشاه أسير السياسات الأمريكية حتى طرد من طهران مرة أخرى على يد ثورة الشعوب الإيرانية بغير رجعة عام 1979 . قام الشاه أثناء فترة حكمه، التي قاربت الثلاثة عقود، بمطاردة أعضاء وأنصار الحزب الوطني وشتت شملهم، وعطل العمل بالدستور، وحكم الشعوب الإيرانية بيد من حديد.

يتكون التيار القومي الفارسي المعاصر بالدرجة الأساسية من الحزب الوطني والجبهة القومية، ومن القوى الملكية التي فقدت السلطة، بعد نجاح التيار الديني في الوصول إلى السلطة عام 1979 . وكذلك من بعض الأوساط المنضوية داخل بعض الأحزاب اليسارية والدينية، مثل منظمة مجاهدي خلق. جزء كبير من القوى القومية الفارسية في إيران تتجمع أيضاً داخل التيارات الدينية الحاكمة في إيران. أغلب الرموز السياسية الإيرانية في دوائر السلطة الإيرانية جاءت من أوساط التيارات القومية الفارسية، وهي تمارس في مهامها السياسية والعملية اليومية بأبعاد وخلفيات قومية أكثر منها دينية. لقد أصبحت الصفة الدينية ضرورة رمزية، وسطحية، تزكي من أراد العمل في الحقل السياسي والوظيفي الرسمي في الدولة الإيرانية. لقد اعيدت صياغة النظرية القومية الفارسية مرة اخرى واسدل عليها غطاء ولمسة دينية مذهبية. في إطار التعريف الجديد للقومية في إيران تم استيعاب رجال الدين والقوميون الفرس في أجهزة الدولة وفي مراكز قيادة الدولة والمؤسسات الحكومية من جديد. ففي دولة إيران الدينية يتربع عتاة القوى والرموز القومية الفارسية المتعصبة.

تجمع القوى القومية الفارسية، على الرغم من الخلافات السياسية التي تفرقها، بالإضافة إلى الأبعاد النظرية المكونة "للأمة الإيرانية" في اللغة الفارسية وإحياء التراث الفارسي قبل الإسلام، والتمسك بالمذهب الشيعي الصفوي، أيضا التمسك بحدود الدولة الإيرانية القائمة والتمسك بوحدة الكيان السياسي الإيراني القائم. هذا الاتفاق الضمني بين التيارات السياسية الفارسية القومية متفقة فيه على عدم الاعتراف بحقوق الشعوب غير الفارسيةفي تقرير مصيرها، والاستمرار في الاستيلاء على أراض الغير بقوة القمع وكبت حريات الشعوب وتفريسها.

التيارات القومية غير الفارسية

يوجد في إيران ونظراً للتنوع العرقي والقومي، حركات وأحزاب قومية غير فارسية. الحركات القومية للشعوب غير الفارسيةفي الدولة الفارسية نشأت في أعوام العشرينات من القرن العشرين، وجاء رد النخبة الفارسية على مطالب الشعوب المحكومة من قبل الفرس في حينه بالقمع والشدة من جهة وتطوير شكل الدولة الفارسية كمحاولة لإشعار تلك الشعوب بأنهم معنيون في جسم هذه الدولة الجديدة من جهة ثانية. إطلاق اسم إيران على هذه الدولة كان أحد الأدوات في هذا التغير. لم يحل مشروع رضا بهلوي مشاكل القوميات غير الفارسيةفي المملكة الإيرانية ولم تستطع الحكومات الإيرانية المتعاقبة على صهر هذه القوميات في بوتقة القومية الفارسية، بل تفاقمت المشاكل وهددت وحدة الكيان الإيراني اكثر من مرة. بعد انتهاء الحرب العالمية الثانية شكل الكرد في عام 1946 جمهورية "مهاباد" في القسم الغربي الشمالي لإيران وتم القضاء عليها بعد عام من تأسيسها. وقد ثار العرب والأذربيجان وتم إخماد ثوراتهم بالقوة العسكرية ايضاً.

من أهم الأسباب التي ساهمت في تأجيج الثورات في الثلاثينات والأربعينات من القرن العشرين ضد السلطة المركزية والهيمنة الفارسية على الدولة ومؤسساتها كان منع تعلم اللغات القومية على الشعوب غير الفارسيةوفرض اللغة الفارسية كلغة رسمية وحيدة على كل الشعوب التي تعيش داخل إطار الدولة الإيرانية.

ترافق ازدياد الوعي القومي عند الشعوب غير الفارسية في إيران مع ازدياد الحركات التحررية في مناطق المستعمرات في إفريقيا واسيا في الخمسينات والستينات من القرن العشرين. الثورة الجزائرية العملاقة كانت أحد المنارات العالية التي ألهبت مشاعر الملايين من أبناء الشعوب المضطهدة في كل مكان من العالم. وانطلاقة الثورة الفلسطينية عززت ثقة الشعوب والأمم الضعيفة بذاتها وقدراتها وزرعت نور الأمل في الخلاص من نير المحتل والمستعمر.

أكثر من عشرين حزباً ومنظمة سياسية تعمل على الساحة الإيرانية تجمعها قواسم مشتركة وأهداف سياسية متقاربة. هذه الأحزاب والحركات السياسية التي تمثل الشعوب والأقليات غير الفارسية في الدولة الإيرانية عبرت بمجملها عن طموح أبناء تلك الشعوب في التحرر من الهيمنة الفارسية وتقرير المصير وبل الاستقلال عن الدولة الإيرانية.

بعض هذه الأحزاب ذات التوجه القومي غير الفارسي يزيد عمرها عن النصف قرن، والبعض الأخر حديث العهد والتجربة بالعمل السياسي. فحركات التحرر القومي التركمانية والكردية والعربية قدمت خلال عشرات السنين المنصرمة الكثير من التضحيات على طريق الخلاص من الهيمنة والاحتلال الفارسي. في الأعوام الأخيرة زادت حركة الشعوب غير الفارسية في إيران قوة وتأثيراً وانضمت إلى صفوفها قطاعات جديدة كانت في الماضي جزء من القوى المساندة للفرس والمتبنية للأهداف السياسية للحركات السياسية القومية الفارسية.

في مقدمة تلك القطاعات ظهرت الحركات القومية الأذربيجانية، التي نشأت وتوسع نشاطها بعد سقوط الاتحاد السوفييتي وانفصال الجمهوريات الإسلامية في أسيا الوسطى واستقلالها عن الاتحاد الروسي. فاستقلال جمهورية أذربيجان السوفييتية بعث الآمال عند ملايين الأذاريين في إيران والذين يشكلون قرابة ثلث سكان الجمهورية الإسلامية الإيرانية بتشكيل دولة موحدة لكل أبناء الأمة الآذارية. بانضمام الحركة القومية الآذارية إلى صفوف الحركات القومية الأخرى والمناهضة للسياسة الرسمية للحكومة في طهران يصبح شعار المحافظة على وحدة أراض الدولة الإيرانية القائمة، والذي تطرحه القوى السياسية الفارسية، غير مؤكد إمكانية الاستمرار بطرحه طويلاً، ويفتح احتمالات شتى حول مصير الدولة الإيرانية الحالية. في هذا السياق يذكر أن محافظات أذربيجان الشرقية و الغربية و أردبيل و زنجان ذات الأغلبية التركية الآذرية شهدت عام 2006 مظاهرات واسعة احتجاجاً على رسوم نشرتها صحيفة إيران الرسمية تستهزئ بالأتراك في إيران حيث تحولت تلك الاحتجاجات إلى المطالبة بحقوقهم القومية كتدريس اللغة الآذرية في المدارس واعتبارها لغة رسمية إلى جانب اللغة الفارسية.

عقدت عدة لقاءات بين مختلف الأحزاب والحركات القومية المناهضة للهيمنة الفارسية في إيران وخارج إيران،بقصد التنسيق في ما بينها، والاتفاق على بعض الخطوط العريضة والقواسم المشتركة التي تجمع هذه الأطراف في مطالبها السياسية والثقافية ومصلحة شعوبها. على الرغم من محاولات الحكومة الإيرانية من منع هذه القوى القومية من الوصول إلى أي اتفاق من خلال ضرب هذه القوى والحركات ببعضها البعض إلا أن هذه الفصائل السياسية توصلت إلى بعض النقاط المشتركة قامت بصياغتها في بيانات سياسية مشتركة تخرج بعد كل لقاء مشترك بين تلك القوى. ففي "استوكهولم" و"لندن" اتفقت القوى التالية على التضامن بين شعوبها وتنسيق خطواتها السياسية:

الجبهة الوطنية الآذربيجانية

منظمة الاتحاد الوطني الآذربيجاني

حزب الاستقلال في أذربيجان

الجبهة الديمقراطية الشعبية للشعب العربي الأحوازي

حزب التضامن الديمقراطي الأحوازي

المركز الثقافي للشعب العربي الأحوازي

الحزب الديمقراطي الكردستاني

المنظمة الديمقراطية للشعب البلوشي

جبهة بلوشستان الموحدة

المركز الثقافي التركماني

منظمة الدفاع عن حقوق الشعب التركماني

قسم لا يستهان به من هذه القوى والحركات القومية للشعوب والقوميات في إيران تتواجد في الخارج ودول الجوار الإيراني وتستطيع هذه القوى أن تأمن الدعم السياسي والمادي لمشاريعها بحكم الارتباط الثقافي والعرقي لتلك الحركات بشعوب تلك الدول. فالتركمان والكرد والأذربيجان والعرب والبلوش هم امتداد طبيعي لشعوب دول الجوار وهنا يكمن خطر تدخل الحكومات الإيرانية في شؤون دول الجوار المفرط. سياسة الاستفزاز وتخريب الدول المجاورة لإيران سيكون له آثار مدمرة على الكيان الإيراني إذا ما قررت بعض دول الجوار الإيراني التعامل بسياسة الند للند مع إيران وعملت على دعم الشعوب والقوميات داخل الكيان الإيراني والدولة الإيرانية. فالكيان الإيراني لم يستطع تشكيل هوية مشتركة بين الشعوب المكونة لإيران، ولم يستطع صهر هذه الشعوب في بوتقة الشعب الفارسي. ولم تستطع حتى الآن النخبة الفارسية إقناع النخب من الشعوب الأخرى في إيران في تبني اللغة الفارسية كلغة للثقافة والأدب.

التيار اليساري

نظراً للجوار الجغرافي لإيران مع الاتحاد السوفييتي كان نشوء الحركة اليسارية في إيران مبكراً. توزع الشعب الآذاري على جانبي الحدود السوفييتية ـ الإيرانية كان هو ايضاً عامل من عوامل العلاقة المبكرة بالحركية اليسارية الروسية، ومن ثم العلاقة المبكرة بالحزب الشيوعي السوفييتي والدولة السوفييتية.

من خلال مجموعة الطلاب الآذاريين الذين كانوا يدرسون في مدارس وجامعات مدينة "باكو" السوفييتية انتقلت الأفكار اليسارية والأفكار الماركسية إلى إيران. تشكلت أول منظمة يسارية في إيران تحت اسم الحزب الشيوعي الإيراني (حزب كمونيست إيران) بإيعاز من "الكومينترن" (اتحاد الأحزاب الشيوعية العالمي) في العام 1921 في مدينة "انزلي" شمال إيران. لم يدم الشكل العلني للحزب الشيوعي الإيراني طويلاً حيث قام الشاه رضا بهلوي بعد وصوله إلى السلطة عام 1924 وتحالفه مع البريطانيين ضد النفوذ السوفييتي في إيران، في قمع كل الحركات السياسية التي تظهر نوعاً من الاستقلالية عن حكمه وتبدي ميولاً وتعاطفاً مع الدولة السوفييتية. طوردت الحركة اليسارية وقمعت في عهد الشاه رضا وأودعت قياداتها السجون.

بعد عزل الشاه رضا عن الحكم في عام 1941 وتنصيب ابنة محمد ملكاً على إيران شاعت فترة من الانفراج والحريات السياسية في إيران في تلك الفترة التي امتدت حتى عام 1953. في هذه الفترة تشكل عام 1942 حزب "تودة" من عناصر وأعضاء الحزب الشيوعي القديم الذي تم حله تحت ظروف المطاردة . شارك حزب "تودة" في النشاطات العمالية والنشاطات السياسية ودخل الحكومة المشكلة عام 1946 بثلاث حقائب وزارية.

بعد إسقاط حكومة مصدق وزج رئيسها "محمد مصدق" في السجن عام 1953 دخلت إيران مرحلة سياسية مظلمة، صودرت فيها الحريات السياسية، وكممت الأفواه وطوردت القوى السياسية من جديد. ونظراً للتوجه الغربي للشاه وهيمنة الولايات المتحدة على صانع القرار في طهران كان نصيب الشخصيات اليسارية وحزب تودة من القمع والمطاردة كبير. عاد حزب تودة إلى العمل السري ودار نقاش حاد في صفوفه حول الخط السياسي والموقف من نظام الشاه، والأساليب الناجعة في مواجهه هذا

النظام. تبلورت عدة تيارات داخل حزب تودة. من هذه التيارات كانت فئات تطرح الكفاح المسلح لإسقاط الشاه. وكانت فئات شبابية في المدارس والجامعات الإيرانية قد بدأت تفكر أيضاً بأساليب أكثر جدوى في مواجهة الشاه ونظامه.

في منتصف الستينات تشكلت منظمة "فدائي خلق" الإيرانية (فدائيي الشعب) متأثرة بثورة الجزائر والثورة الفلسطينية والثورة الكوبية. هذه المنظمة اليسارية رأت أن الأسلوب الوحيد القادر على إسقاط الشاه وإنجاز مرحلة التحرر الوطني والتحرر الاجتماعي للشعوب الإيرانية هو خيار الكفاح المسلح. حسب منطلقات هذه الحركة السياسية المسلحة فان الشعب المقاتل والمسلح هو الشعب القادر على إتمام مسيرة الإصلاح، والقادر على حماية مكاسب الشعب من الأعداء الطبقيين والأعداء الخارجيين، وإقامة العدالة الاجتماعية. جمعت هذه المنظمة اليسارية الإيرانية علاقات قوية متميزة مع الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين، ومع الجبهة الديمقراطية لتحرير فلسطين، والى هذه الفصائل الفلسطينية يعود الفضل في وصول منظمة فدائيي خلق إلى المسرح الدولي وربطها بحركات التحرر الوطني العالمية في أسيا وأمريكا اللاتينية وإفريقيا في عقد السبعينات من القرن العشرين.

جاءت منظمة "مجاهدي خلق" (مجاهدي الشعب) في المرتبة الثانية من حيث الأهمية بعد منظمة فدائي الشعب من الأحزاب والحركات السياسية المعارضة لحكم الشاه محمد رضا بهلوي. هذه الحركة السياسية المعارضة مزجت في منطلقاتها النظرية بين المبادئ والقيم الدينية الإسلامية والأفكار والمبادئ الماركسية، واعتمدت أسلوب الكفاح المسلح، مثل منظمة فدائيي الشعب، كوسيلة لإسقاط نظام الشاه وتحرير إيران من هيمنة ونفوذ الولايات المتحدة الأمريكية. لقد تأثر قادة منظمة مجاهدي الشعب الإيرانية إلى حد كبير في تجربة حركة فتح الفلسطينية وجبهة التحرير الوطني الجزائرية في منطلقاتها النظرية، وكانت تقيم مع هذه الحركات العربية علاقات جيدة ومتطورة، بالإضافة إلى الدعم الكبير التي كانت تتلقاه هذه المنظمة من ليبيا والجزائر واليمن الجنوبي.

شاركت الحركات اليسارية الثلاثة، حزب تودة ومنظمة فدائي الشعب ومنظمة مجاهدي الشعب، مشاركة فعالة في التصدي لقوات أمن الشاه، ودعمت هذه الحركات الثورة الشعبية في إيران بالسلاح، وساهمت في حماية الجماهير الثائرة في شوارع المدن الإيرانية من بطش قوات الحكومة والأجهزة الأمنية السرية لنظام الشاه. فقد كان عمل ونشاط المنظمات اليسارية في المجتمع الإيراني خلال عقد السبعينات له الأثر الكبير في تعبئة الفئات المتعلمة القادرة على قيادة الحركة الجماهيرية ضد نظام الشاه الفردي. كانت الحركات السياسية المسلحة، فدائيي الشعب و مجاهدي الشعب، القوى الأساسية التي ساهمت في رفع حاجز الخوف من سطوة النظام وأجهزته القمعية المتعددة و

زرعت روح التحدي عند قطاعات شاسعة من الشعوب الإيرانية المنتفضة، والتي أدت في تحديها العالي للأجهزة الأمنية إلى إسقاط الشاه ونظامه في نهاية المطاف.

لقد تعاظم وجود الحركات اليسارية في المدارس والجامعات الإيرانية، وكسبت هذه الحركات السياسية تعاطف قطاعات شعبية واسعة في المدن الإيرانية لما قدمته هذه الحركات المسلحة من خدمات في ردع قوات الشاه وأجهزتها الأمنية أثناء الثورة التي أخذ زخمها يتصاعد مع نهاية عام 1977 .

كانت القوى الدينية التي شاركت في الثورة والحركات الإحتجاجية تضمر الخداع والشر لبقية القوى السياسية الفارسية وغير الفارسية من أبناء الشعوب التي شاركت مشاركة فعالة في عملية اسقاط نظام الشاة. وقبل سقوط الشاه بعدة أشهر عقدت قيادات القوى الدينية تحالفاتها الدولية من مقر إقامتها في باريس. بعد اقل من ثلاثة اشهر على سقوط الشاه عام 1979 ، وهيمنة القوى الدينية على السلطة، قامت القوى الدينية في السلطة الجديدة بإقصاء ومطاردة القوى اليسارية والقومية التي شاركت التيار الديني في الثورة. تفجرت الصدامات بين المنظمات اليسارية وحكومة الخميني، ووصلت عام 1981 إلى ما يشبه الحرب الأهلية وحرب الشوارع. طورد اليساريين ومنعت منظماتهم من العمل في إيران، وقتل الآلاف منهم على يد الأجهزة الأمنية والجيش الجديدة، وهرب الكثير منهم إلى الخارج وهم يشكلون حتى اليوم أحد المظاهر الرئيسية للمعارضة الإيرانية خارج إيران. وفي الداخل يغلب على عمل المنظمات اليسارية والعلمانية، طابع السرية التامة في محاولة منهم لتجنب أله القمع المسلطة على رؤوسهم.

التيار الديني

التيار الديني السياسي في إيران كانت رموزه متواجدة بكثافة في أوساط الأحزاب القومية الفارسية وغير الفارسية. لكن هذا التيار لم يشكل حركة سياسية منظمة مميزة تعبر عن مصالح القوى الدينية في المجتمع الإيراني. كانت الأطر العامة المنظمة لهذا التيار تتجسد إلى حد كبير في "الحوزات العلمية" ومؤسسات الوقف الشيعي الذي تشرف عليه الدولة والحكومة المركزية. عملت الحكومة في طهران على استيعاب القوى والعناصر المتدينة وعملت على تبني ثقافة المذهب ورجال المذهب وتعبئتهم وتجنيدهم في خدمة المشاريع القومية الفارسية، ومشروع الدولة القومية الفارسية الحريصة على إبراز المكانة لدور المذهب الجعفري (الشيعي) في تكوين البناء الفوقي للمجتمع في الدولة الفارسية وفي الدولة الإيرانية.

بقيت اللغة الفارسية والثقافة الزرادشتية والطائفية الشيعية الصفوية حتى وصول التيار الديني إلى السلطة عام 1979هي المكونات الأساسية لمفهوم القومية الفارسية (القومية الإيرانية). لقد انسجم التيار الديني، المتمثل في جمهرة رجال الدين الشيعة، إلى حد كبير مع التيار القومي الفارسي. وهذه خاصية تميز التيارات السياسية القومية والدينية في إيران عن غيرها من دول الشرق الإسلامي. وخاصة في الوطن العربي، فقد افتعلت الخلافات بين التيار القومي العروبي والتيار الديني وتأجج الصراع بينهما بدون مبررات حقيقية. لقد استمرت التيارات السياسية القومية والدينية في الوطن العربي في الإبداع بخلق الفروق والتمايزات الوهمية بين الثقافة العربية والثقافة الإسلامية في المجتمع العربي على الرغم من استحالة تحديد هذه الفروق والتمايزات نظراً لحقيقة تداخلهما. على الرغم من أن الواقع اليومي المعاش يؤكد حالة الانسجام إلى حد التطابق بين العروبة والإسلام، لكن النخب العربية بقيت عاجزة حتى الآن عن حل هذا الإشكال المصطنع بين العروبة والدين الإسلامي.

يعود الانسجام بين التيار الديني والتيار القومي في إيران إلى عدة أسباب ذاتية وموضوعية من أهمها التالي:

الفقه الإسلامي الشيعي لا يجيز تدخل رجال الدين في إدارة الحكم والأمور السياسية بعد غيبة الإمام الثاني عشر المنتظر (المهدي المنتظر). الإمام المنتظر هو وحده من يملك الحق في قيادة الأمة وإقامة دولة العدل على الأرض. تحريم تدخل رجال الدين بالشأن

السياسي بشكل مباشر قبل عودة المهدي ساعد على اقتراب هذه القيادات من الزعامات السياسية القومية التي تتبنى الدفاع عن المذهب ومصالح القيادات الدينية. تدخل القيادات الدينية المباشر بالشأن السياسي هو حديث العهد من الناحية النظرية. الإمام الخميني هو من أوائل العلماء الشيعة الذين شرعوا وأجازوا لرجال الدين التدخل في الشؤون السياسة وقيادة المجتمع. من خلال خطب ألقاها في الأعوام 1971 و1972 وضع الخميني الإطار النظري الفقهي الجديد في جواز ووجوب تقديم رجال الدين أنفسهم لقيادة المجتمع والدولة حتى قبل ظهور المهدي المنتظر. هذه النظرية عرفت بنظرية "ولاية الفقيه"، التي من خلالها تحكم إيران وأصبحت مصدر التشريع في الدولة الإيرانية. قام الخميني بتطويرها وتطبيقها في السنوات اللاحقة أثناء قيادته للدولة الإيرانية في أعوام الثمانينات من القرن العشرين. نظرية ولاية الفقيه هذه تقول بأن صفات الإمام الغائب المنتظر في العصمة والصدق والأمانة تنتقل إلى الإمام الفقيه الذي يحق له قيادة الأمة بالنيابة عن الإمام الغائب المنتظر (المهدي) حتى يعود من غيبته. وعلى القادة الدينيين عدم الانتظار والاتفاق على الإمام الفقيه من بينهم الذي تتوفر فيه الصفات والقدرات والمعرفة بالدين والدنيا تشابه صفات المهدي المنتظر.

والسبب الآخر يكمن باختلاط التيار القومي الفارسي بالتيار الديني الشيعي في صيرورة التاريخ الإيراني. فالكيان الفارسي تشكل في القرن السادس عشر على أيدي القبائل التركية الصفوية. تلك القبائل التي تبنت المذهب الشيعي كدين للدولة، وعمل الصفويون على فرض المذهب الشيعي على سكان إيران بقوة السلاح. والصفويون تبنوا فكرة إحياء اللغة الفارسية الحديثة على حساب اللغة العربية التي كانت سائدة في الهضبة الإيرانية بالإضافة إلى الفارسية واللغة التركية. كذلك يعود الفضل للصفويين في الربط بين استمرار الكيان السياسي في إيران واللغة الفارسية من جانب والمذهب الشيعي من جانب أخر، خلال حقبة حكمهم في القرنين السادس عشر والسابع عشر. نجح الصفويون في تمييز دولتهم عن الدولة العثمانية، من خلال فرض المذهب الشيعي من ناحية وتشجيع انتشار اللغة الفارسية من ناحية أخرى. فالتيار الديني في إيران كان إلى وقت قريب الشكل الرديف للتيارات القومية الفارسية في الهضبة الإيرانية.

في أعوام الستينات من القرن العشرين بدأت تظهر بوادر تمايز بين تيار قومي علماني وتيار قومي فارسي غير علماني ديني. فبعد الخلاف الذي نشب بين "محمد مصدق" وأنصاره من جهة وحجة الإسلام "أبو القاسم الكاشاني" وانصاره من جهة أخرى أثناء حكومة مصدق، على خلفية تساهله مع حزب "توده" الشيوعي، وإدخاله خمسة وزراء منهم في حكومته بدأ التمايز بين التيارين القوميين الفارسيين. وساعد على نشوء هذا التمايز الأسلوب القاسي الذي انتهجه الشاه ضد معارضيه في تلك الحقبة من الزمن.

نمت الحركات السياسية الإيرانية في الداخل والخارج وتأثرت هذه الحركات بالأفكار السائدة والمنتشرة في المنطقة وخارج المنطقة، ومنها التيار الديني الذي توزع على عدة منظمات وتيارات سياسية.

أهم هذه الحركات السياسية الدينية هي حركة العلماء ورجال الدين الشيعة في قم ومشهد والنجف والموالية لزعامة الخميني الذي عاش بالمنفى في العراق لمدة ستة عشر عاماً.

وثاني هذه الحركات الدينية الإيرانية هي حركة "مجاهدي خلق" التي يتزعمها "مسعود رجوي" وزوجته "مريم رجوي" المتأثرة بتجربة حركة فتح الفلسطينية وجبهة التحرير الوطني الجزائرية اللتان قاربتا بين الإسلام والكفاح المسلح في مسيرتهما الكفاحية.

هذان التياران الدينيان تبلورا على شكل حركات سياسية في نهاية الستينات وبداية السبعينات من القرن الماضي. الأول هش وفضفاض تحكمه قواعد تنظيمية مستمدة من التراث الديني الفارسي المانوي و المزدكي القديم، والتيار الأخر، أي حركة مجاهدي خلق، مبنية على اسس وقواعد تنظيمية حزبية صارمة قريبة من نموذج الأحزاب الشيوعية والماركسية في التنظيم. في حين كان تيار الخميني أكثر اتساعا وشعبية داخل إيران كان تيار "رجوي" أكثر فعالية في تعبئة الحركات الطلابية والشباب في الحركات الاحتجاجية على حكم الشاه والتي تصاعدت منذ منتصف السبعينات من القرن العشرين.

أغلب القوى السياسية الإيرانية المعارضة لحكم الشاه ساهمت في تحريك الجماهير إلى الشوارع وتحييد الجيش الإيراني في الصراع على السلطة. فالتيار القومي والأحزاب والمنظمات اليسارية و الاشتراكية وكذلك الأحزاب والتكتلات الدينية كانت فعالة ونشطة في صنع الثورة على الشاه ونظامه الفاسد منذ ساعاتها وأيامها الأولى من عام 1979، لكن تيار الملالي بقيادة الخميني هو الذي تمكن من الإمساك بزمام السلطة وتحييد وإبعاد بقية القوى المشاركة في الثورة والتغيير. هناك بعض الأسباب يمكن طرحها في محاولة للإجابة على نجاح هذا التيار في الوصول إلى السلطة وإخفاق القوى السياسية الأخرى في ذلك على الرغم من تفوقها تنظيمياً وتجربة:

من تلك الأسباب هي الرعاية التي أولتها القيادة العراقية للقيادات والرموز الدينية الإيرانية المقيمة في النجف وكربلاء والمناهضة لحكم الشاه من أمثال الخميني وغيرة بهدف زعزعة نظام الشاه من خلال هذه الرموز الدينية وأنصارها في إيران.

من أهم هذه الأسباب هو تقديم الدعم الأمريكي لهذه القوى لشعور الإدارة الأمريكية بعزلة نظام الشاه الشديدة في الأوساط الإيرانية الشعبية والسياسية، وعلمها بمرض الشاه القاتل، ومعرفتها المسبقة بخطورة الموقف بعد زوال الشاه عن المسرح السياسي الإيراني. وخوف الإدارة الأمريكية من إمكانية وصول القوى اليسارية، الأكثر تنظيماً والمدعومة من قبل الاتحاد السوفييتي، والمدعومة من قبل المنظمات الفدائية العربية،

وخاصة منظمة التحرير الفلسطينية وبعض الدول العربية كالحكومة الليبية والجزائر واليمن الجنوبي، إلى السلطة في طهران. حتى لا تقع إيران تحت تأثير الطرف الدولي المنافس في المنطقة إختارت الإدارة الأمريكية دعم القوى الإيرانية الدينية على غيرها من القوى.

وهناك عامل آخر ساعد على وصول القوى الدينية الإيرانية إلى سدة الحكم في طهران وهو رغبة الدول الأوروبية، وعلى وجه الخصوص فرنسا، في لعب دوراً ما في ترتيب الوضع المتفجر في إيران في دعم أحد القوى الفاعلة في الساحة الإيرانية والمرشحة للوصول إلى السلطة. لقد اختارت فرنسا التيار الديني وبدأت بتقديم العون والمساعدات المادية والإعلامية لرموز هذا التيار الذي احتضنته، وسمحت لرموزه في الإقامة والعمل على الأرض الفرنسية. الموقف الفرنسي كان له الأثر الكبير في وصول التيار الديني إلى سدة الحكم من خلال الفرصة التي منحها الإعلام الفرنسي والغربي في التعريف في هذا التيار ووصول توجيهاته ونداءاته إلى أوسع القطاعات الجماهيرية في إيران. نجحت السياسة الفرنسية في الرهان ووصل مرشحوها إلى سدة الحكم وبقيت العلاقات لفرنسية ـ الإيرانية جيدة ومتطورة إلى وقتنا الحاضر على الرغم من الخلاف بين الدولتين حول البرنامج النووي الإيراني.

تم استدعاء الخميني إلى باريس وتمت إجراءات ترحيلة من العراق إلى باريس خلف الكواليس بين البلدين المعنيين دون ضجيج إعلامي، وشاركت في التحضير لوصول الخميني ونقل المسرح السياسي إلى باريس بعض الرموز السياسية الإيرانية في المعارضة والمقيمة في باريس وألمانيا الاتحادية، مثل أبو الحسن بني صدر في فرنسا، والذي أصبح في ما بعد رئيس للجمهورية في إيران، وصادق الطباطبائي في ألمانيا الذي كان يشغل منصب رئيس اتحاد الطلبة المسلمين الإيراني في أوروبا الذي اصبح المستشار السياسي للخميني للشؤون الخارجية ومسؤول ملف العلاقات مع العالم الغربي في السلطة الإيرانية الجديدة .

وصل الخميني إلى باريس قبل ثلاثة اشهر فقط من بدء التحركات الجماهيرية الكبيرة في شوارع طهران والمدن الإيرانية الأخرى. هذه التحركات الثورية والتي أجبرت الشاه على ترك البلاد متوجهاً إلى مصر لم تكن الأولى من نوعها في إيران لكنها كانت الأكبر والأهم. ففي السنين العشر التي سبقت سقوط الشاه. تناما الرفض الشعبي لحكم الشاه وتشكلت حركات سياسية وشبه عسكرية تعمل على الإطاحة بنظام الشاه وتطرح الكفاح المسلح وتمارسه كأسلوب من أساليب إزالة الظلم عن الجماهير الإيرانية وإزالة حكم الشاه البغيض. من أبرز تلك الحركات السياسية كانت حركة "فدائيي خلق" وحركة "مجاهدي خلق" الإيرانيتين.

منذ اللحظات الأولى في مسيرة تزايد الضغوط الشعبية الإيرانية على الشاه وقرب إمكانية إسقاطه ورحيله ظهرت مؤشرات على نسج علاقات غربية مع القوى المرشحة لقيادة إيران بعد سقوط الشاه. ونشطت الدوائر الغربية في البحث عن البدائل المناسبة والأقل ضرراً على المصالح الغربية في المنطقة. من هذه المؤشرات كانت:

رفض الإدارة الأمريكية السماح للشاه في دخول أراضيها حتى ولو كانت بقصد العلاج. هذا الموقف الأمريكي من الشاه كان أحد المؤشرات من طرف هذه الإدارة على قبول التغيير السياسي الذي يجري في طهران. وكانت هذه الإدارة قد رضيت بل ونسقت مع فرنسا حول آلية وشكل إقامة الخميني ومساعديه إلى باريس ومزاولة نشاطه السياسي الهجومي والنشط ضد الشاه وحكومته والمفترض أن تكون حليفة للولايات المتحدة الأمريكية وإدارة جمي كارتر. وكان هذا مؤشر آخر مبكر في نية الإدارة الأمريكية للتقارب مع هذا التيار الديني.

استقبال الحكومة الفرنسية قيادات التيار الديني على أراضيها والسماح لهذا التيار أن ينشط سياسياً، وأن ويلتقي بوسائل الإعلام ويوجه حركة الجماهير الثائرة في شوارع طهران والمدن الإيرانية الأخرى من باريس والعواصم الأوروبية الأخرى.

كشفت الأحداث المتتالية أن القيادات السياسية الدينية قد قامت بعقد اتفاقات سرية مع المخابرات الأمريكية في ضواحي باريس تنظم العلاقات في المستقبل وتضمن مصالح الطرفين. وكان أحد ثمرات هذا الاتفاق احتجاز الرهائن الأمريكان في السفارة الأمريكية في طهران ووصول "رولاند ريغان" إلى سدة الحكم في واشنطن. وهذا هو مؤشر آخر على الاستعداد المبدئي للقوى الدينية للعمل مع الإدارات الأمريكية والحكومات الغربية منذ الأيام الأولى لوصولها إلى مواقع القيادة في طهران.

كان من الصعب على أي قوة سياسية في إيران الجهر في علاقة إيجابية مع الولايات المتحدة الأمريكية في أعوام السبعينات من القرن المنصرم، وفي أجواء الثورة على نظام الشاه الفاسد والمدعوم من الإدارات الأمريكية. في تلك الأعوام كان الاحتقان شديد على الشاه وأعوانه وكذلك على الأمريكان وحلفائهم في المنطقة، كالكيان الصهيوني. وأجواء العداء للسياسات الأمريكية في المنطقة وللكيان الصهيوني هي السائدة، وهي أحد الأوراق القوية في عملية تعبئة الجماهير وتجميع الأنصار من حوله.

شعارات الإسلام السياسي وبناء الدولة الإسلامية على أسس الشريعة الإسلامية وكذلك شعارات العداء لأمريكا وإسرائيل كانت ولا زالت هي أكثر الشعارات المتداولة في الإعلام الإيراني، وعلى أفواه الساسة والمسؤولين الإيرانيين. "لا شرقية ولا غربية هي دولة إسلامية" و"الشيطان الأكبر والشيطان الأصغر" هي مجرد أمثلة عما أنتجته آلة الدعاية الإيرانية والخطاب السياسي الإيراني العلني.

لم يمر زمن طويل على تسلم هذا التيار زمام الأمور في طهران حتى بدأت أطراف هذا التيار تفصح عن مقاصدها في شعاراتها التي دأبت على طرحها باستمرار. التوجه الديني كان يعني لهم ليس أبعد من حدود طائفة بعينها وليس عموم المسلمين. "وفي أعقاب الثورة الإسلامية ركز الخطاب الجديد على العنصر الشيعي ووضع اللغة والثقافة الفارسيتين في الأولوية الثانية، بل عارض الخطاب الديني في أعوامه الأولى الداعين للثقافة الفارسية قبل الإسلام. غير أن الحرب العراقية - الإيرانية وما تبعها من تعزيز للشعور القومي "الفارسي" الناجم عن انحسار الايديولوجية الدينية زادا من اهتمام السلطة الإسلامية باللغة والثقافة الفارسيتين."[4] هذا التوجه القومي الفارسي في الدولة الإيرانية، وعلى الرغم من الطرح الإعلامي الديني بقي هو المهيمن والسائد في الجمهورية الإسلامية. تبنت المجموعات الدينية الحاكمة في طهران مجمل اطروحات التيار القومي، وعلى لسان زعيمها الراحل آية الله الخميني تم في مطلع الثورة الإسلامية تدشين وتأكيد مرة أخرى الخطاب الديني الطائفي وربطه بالحس القومي الفارسي الذي أسس له قبل أكثر من سبعين عاماً الشاه رضا بهلوي وجعل المذهب الشيعي أساس لدين وثقافة الدولة والمجتمع.

[4] بني طرف، عزيز، صحيفة الحياة بيروت 5. 1. 2005 .

القوى السياسية التي تحكم
في الجمهورية الإسلامية الإيرانية

تبلورت منذ الأيام الأولى لصعود القوى القومية الدينية إلى سدة الحكم في إيران عدد من التيارات والأجنحة داخل هذه القوى. وبرزت العناصر التي تمثل التطرف الديني والعناصر التي تمثل شرائح من هذه القوى التي تمتلك تصوراً اكثر انفتاحاً على التيارات السياسية الأخرى في الداخل وعلى التيارات السياسية في الخارج.

لا بد من ملاحظة أن قوى وعناصر من مختلف المشارب والتيارات السياسية المنتشرة في المجتمعات الإيرانية المختلفة دخلت إلى صفوف المنتصرين الجدد. إما طمعاً وتقرباً من السلطة بغية الحصول على مكاسب ذاتية، أو حباً في المشاركة في عملية التغيير تحت اعتبارات حزبية أيديولوجية وسياسية تعتقد بحلول الفرصة المناسبة للتأثير على سير الأحداث ورسم خطوط المستقبل.

لم يكن التيار الديني الإيراني في يوم من الأيام منسجماً وذو مرجعية فكرية موحدة، بل كان هذا التيار أشبه في التقاء مجاميع توحدت تحت عنوان واحد لكن المضامين كانت شتى.

بعد صعود نجم الخميني وتربعه على قمة الهرم في الدولة حاول الخميني إزالة كل من يقف في طريق تياره من المعارضين ومن الرموز السياسية الدينية، التي شكلت حالات بارزة في تاريخ الحركات السياسية الدينية الإيرانية في معارضة حكم الشاة وتحدي سلطاته. "آيات الله طالقاني" أحد الرموز الدينية التي تتمتع باحترام قطاعات شاسعة في إيران، والذي كان يطالب بالمساواة بالحقوق والواجبات بين أبناء القوميات المختلفة في الدولة الإيرانية ، تمت تصفيته. "آيات الله منتظري"، أحد المشرعين المعروفين وأحد الرموز الدينية التي ناهضت الشاه وحكمه وضع تحت الإقامة الجبرية لسنوات طويلة. وتفجيرات عنيفة اغتالت "رجائي" و"بهشتي" وغيرهم من الشخصيات الدينية والسياسية التي كانت تتمتع باحترام كبير داخل الأوساط الشعبية والسياسية . جل الشخصيات المثقفة المختلفة مع الخميني وتياره تم التخلص منها بعدة طرق. اغلب هذه الرموز انتهت إما باغتيال وتصفية جسدية مباشرة ومعروفة أو بطرق غامضة.

حتى الرموز السياسية التي كانت قريبة جداً من الخميني ونالت ثقته ورضاه، وعينت بمباركته في مناصب رفيعة في مؤسسات الدولة والحكومة، كالرئيس "أبو الحسن بني صدر"، لم تسلم من سطوة الخميني عليها. لقد تم عزل بني صدر وتمت مطاردته عندما حاول أن يمارس استقلاليته عن إرادة الخميني. لقد هرب أبو الحسن بني صدر وقام بترك إيران والانتقال إلى باريس لحماية نفسه من غضب الخميني وبطشه. خلف "محمد علي رجائي" أبو الحسن بني صدر في رئاسة الجمهورية، ومن بعده جاء منصب الرئيس "علي خمنئي". رضي هؤلاء، في ظل قيادة الخميني وحكومة رئيس الوزراء المعين من قبل الخميني أيضا، بنصب رئاسة الجمهورية الصوري والشرفي. تخلى خامنئي عن حقه الدستوري في تعين رئيس الوزراء، كما تخلى مجلس الشورى عن حقه في رفض رئيس الوزراء، والتخلي عن حق مناقشته ومحاسبته في القضايا المهمة في سياسة ومشاريع الدولة ومستقبل الجمهورية. لقد جمدت، في حقبة الخميني، وألغيت كثير من بنود الدستور الإيراني، التي أشرف الخميني بنفسه على صياغتها وتثبيتها في بداية أيام الثورة.

ألغي منصب رئيس الوزراء بعد موت الخميني عام 1989 وألحقت مهامه في منصب رئيس الجمهورية.

النظام الإيراني السياسي له سحنة خاصة، ويتميز عن بقية الأنظمة السياسية في العالم. فالسلطات الثلاثة في الدولة الإيرانية هي مستقلة ومقيدة في نفس الوقت. لقد نشأ هذا النظام السياسي كحل وسط بين الفكر السياسي الإسلامي الموروث وبين النظام الديمقراطي الغربي.

يتألف النظام الجمهوري الإسلامي الإيراني من أربعة أركان هي:

- ولاية الفقيه الممثلة بمرشد الجمهورية، أو الإمام الذي يفترض أن يكون وأحداً من مراجع التقليد (المجتهدين) في الفقه الشيعي.
- رئاسة الجمهورية.
- مجلس الشورى الإسلامي.
- القضاء.

لقد تبلور في أوساط القوى السياسية الدينية تياران رئيسيان:

- التيار المحافظ تقليدي يسعى إلى إقامة دولة إسلامية يحكمها مرجع تقليدي (مجتهد) ويعاونه مستشارون ومساعدون تنفيذيون
- والتيار الإصلاحي الذي يطالب بإقامة جمهورية إسلامية يحكمها رئيس جمهورية منتخب ومجلس برلمان منتخب أيضاً من الشعب، ولا يُمانع هذا

التيار بإعطاء مراجع الدين الشيعة دوراً توجيهياً روحياً مشرفاً ومحافظاً على الطابع الإسلامي للدولة. أبدى هذا التيار رغبة في الانفتاح على العالم وبدأ علاقات مع بعض الدول التي لم تقم معها الحكومات الإيرانية السابقة علاقات ودية مثل مصر والمملكة العربية السعودية.

استمر الصراع بين التيارين في إيران ولم يك باستطاعة أحد التيارين حسم الصراع الدائر حول شكل الدولة وشكل النظام في إيران، لذلك تم إقرار صيغة توفيقية بين تصورات هذين التيارين الرأسيين المنتشرين في أجهزة الدولة الإيرانية على الشكل التالي:

لقد تمت إقامة سلطة عليا باسم ولاية الفقيه، لها صلاحية قيادة القوات المسلحة والإشراف على القضاء والمصادقة على انتخاب رئيس الجمهورية،

وإقامة سلطة تنفيذية عبر انتخاب رئيس الجمهورية من قبل الشعب وسلطة تشريعية تتمثل في مجلس شورى مستقل ومنتخب من الشعب أيضاً.

وعلى رغم أن النظام الإيراني جعل "الولي الفقيه" أعلى مرتبة من رئيس الجمهورية ومنحه سلطة قيادة القوات المسلحة، إلا أنه حرمه في نفس الوقت من حق الإشراف أو التدخل في شؤون السلطتين التشريعية والتنفيذية، وهو ما كان يخالف نظرية ولاية الفقيه في تطويرها الأخير على يد الخميني.

بقي التيار المحافظ هو التيار الأكثر نفوذاً في أجهزة الدولة الإيرانية وفي أوساط الجماهير في هذه الدولة حتى عام 1997 حيث شهد هذا العام صعود التيار الإصلاحي بقيادة محمد خاتمي الذي اصبح في 23. 5. 1997 رئيساً للجمهورية من خلال نتائج الانتخابات التشريعية التي حدثت في ذلك العام. لقد عادت وتفجرت الصراعات بين التيارين في مؤسسة الحكم في إيران مرة أخرى أثناء وبعد الإنتخابات الرأسية عام 2009 بشكل دموي وراح ضحية الصراعات عدد كبير من القتلى والجرحى والمعتقلين.

يتكون التيار الإصلاحي في إيران من عدد من الأطياف السياسية. نظراً لطبيعة النظام السياسي الإيراني لا يعني فوز أحد التيارات السياسية في اغلبية المقاعد البرلمانية في الانتخابات الدستورية يعني إتمام سيطرة هذا التيار على مقاليد الحكومة وحرية اتخاذ القرار كما هو الحال في اغلبية البرلمانات والنظم الدستورية الأخرى. فالنظام السياسي الإيراني لتركيبته الهيكلية طابع خاص يختلف عن شكل النظم السياسية المألوفة في العالم.

لقد ابتدعت في إيران عدة هيئات ومؤسسات تنفيذية واستشارية متفاوتة النفوذ والتأثير. أهم هذه الدوائر هي هيئة أطلق عليها اسم (مجلس مراقبة الدستور) أو (مجلس تشخيص

مصلحة الدستور) لمراقبة أعمال البرلمان وقراراته. ويمتلك هذا المجلس حق إقرار أو رفض أياً من القرارات التي اتخذها البرلمان إذا ما رأى هذا المجلس أن هذه القرارات تتعارض مع المفاهيم الإسلامية. فموافقة هذا المجلس ضرورية وصلاحياته فوق صلاحيات البرلمان. من يسيطر على مجلس مراقب الدستور يستطيع أن يحد من نتائج الانتخابات التشريعية ومن نفوذ القوى الفائزة في هذه الانتخابات. يتألف هذا المجلس من 12 عضواً يتم تعيين نصفهم من قبل المرشد الأعلى علي الخامنئي.

التيار الإصلاحي يسعى إلى الوصول إلى بناء دولة القانون وإقامة المجتمع المدني. وهي الأهداف التي يمكن أن يطلق عليها تعبير ولاية الجمهور، باعتباره التعبير الشرقي الأقرب لتلك المفاهيم، في مقابل ولاية الفقيه، التي هي اقرب لدكتاتورية حكم الفرد، التي تسيطر علي مقاليد الأمور في إيران منذ قيام الثورة الإسلامية، وتتمحور حولها شرعية النظام السياسي بمؤسساته وأجنحة حكمه.

يؤخذ على نظام الحكم في الجمهورية الإسلامية في إيران ملاحظتان تمس شرعية نظام الحكم كممثل للشعوب الإيرانية:

ففي إيران لا يحكم الدولة ويقرر في أمور الشعب من انتخب من قبل الشعب، كرئيس للجمهورية، أو من انتخب من قبل ممثلي الشعب كرئيس للبرلمان، وإنما بقيت القرارات الحاسمة، التي تمس سيادة الدولة ومصير شعوب الدولة الإيرانية بيد من هو غير منتخب من الشعب والبرلمان. تتجمع السلطات في إيران بيد المرشد الأعلى للجمهورية، "علي خامنئي"، الذي يحكم البلاد بشرعية "ولاية الفقيه". ويشارك المرشد الأعلى للجمهورية في الحكم مؤسسة "مجلس تشخيص مصلحة الدستور" غير المنتخبة من الشعب أيضاً، والتي يتم تعيين جل أعضائها من خارج مؤسسات الدولة المنتخبة. فالسلطات الحقيقية في الدولة هي بيد أفراد ومؤسسات غير منتخبة، ويتم تسميتها في مناصبها في قمة هرم الدولة من خلال دوائر صنع القرار ومراكز القوى في المؤسسة الدينية في إيران.

والملاحظة الثانية تخص آلية تداول السلطة في الجمهورية الإسلامية الإيرانية. صحيح إن تياران سياسيان أساسيان قد تبلورا في السلطة وحول السلطة، لكن هذان التياران يعودان إلى جذور مشتركة، والتباينات التي تنشأ بين هذين التيارين لا تتعدى التباين بين أجنحة تيار سياسي وأيديولوجي ديني مشترك. النظام السياسي الإيراني اغلق الأبواب في وجه التيارات السياسية الأخرى التي تمثل ألوان الطيف السياسية في المجتمعات الإيرانية. التنافس في الوصول إلى السلطة بقي محصوراً بين أفراد وأجنحة من داخل التيار الديني، ومنعت وأقصيت كل التيارات السياسية الفكرية الإيرانية الأخرى من الترشيح للانتخابات البرلمانية والرئاسية العامة. ايضاً غير مسموح للقوميين واليساريين والعلمانيين. منعت من الترشيح لقيادة مؤسسات الدولة القوى

السياسية من القوميات الإيرانية الأخرى غير الفارسية، وحرمت من المشاركة في العملية السياسية. الانتخابات العامة في إيران هي أشبه وأقرب إلى الاستفتاءات التي تحصل في الدول التي يحكمها الحزب الواحد، وفي احسن الأحوال بتعددية الترشيح والمشاركة للأشخاص من داخل التيار الفكري والسياسي الواحد.

الانتخابات على رئاسة الجمهورية التي جرت في إيران في 24. 6. 2005 جلبت إلى سدة الرئاسة رئيس بلدية طهران السابق "محمود احمدي نجاد"، الذي فاز على منافسة "علي اكبر رفسنجاني" بنسبة زادت على 61 % من مجموع الأصوات التي شاركت في الانتخابات. لقد أظهرت هذه الإنتخابات عمق التصدع في جسم الكيان السياسي الإيراني وهيكل النظام السياسي في إيران. هذه النتيجة كانت مفاجئة بالنسبة إلى كثير من المراقبين، فرفسنجاني المرشح المعتدل والإصلاحي والمخضرم وصاحب الخبرة الطويلة في السياسة الخارجية والاقتصاد ينهزم أمام المرشح نجاد المحافظ المتشدد وقليل الخبرة في السياسة الخارجية، في ظرف سياسي دقيق تعيشه إيران، والتي تحتاج إلى قادة سياسيين محنكين لإخراجها من مأزقها السياسي والاقتصادي الخانق. تكررت حالة تباعد المسافة بين التيارين الحاكمين في إيران في إنتخابات رئاسة الجمهورية في عام 2009 ، حيث فاز أحمدي نجاد المدعوم من المرشد الأعلى للدولة الإيرانية والمدعوم بقوة من قبل الأجهزة الأمنية والعسكرية المختلفة وتفوق على مرشح التيار الإصلاحي في الحكم مير حسين موسوي الذي نال استحسان وتأييد قطاعات واسعة من أبناء الشعوب في الدولة الإيرانية الحالية، وخاصة من قبل الشباب وجماهير القوى السياسيى غير الممثلة في السلطة. التف حول موسوي كم كبير من قادة النظام السابقين مثل رئيس الجمهورية السابق رفسنجاني وخاتمي وكم كبير من رجال الدين الذين لا يوافقون على استمرار باسم ولاية الفقيه. وأهم من ذلك أغلب القوى السياسية والشعبية التي أصبح جل النظام السياسي القائم في إيران عالة على المجتمع وخطر يجر البلاد إلى متاهات خطرة وعداوات غير ضرورية مع دول الجوار ومع أغلبية دول العالم. فالوضع في العراق المتورطة إيران في تفاصيله وغارقة في مستنقعه لا ينذر بالخير بالنسبة إلى إيران، ومستقبل علاقتها في هذا القطر العربي الجار ينذر بكثير من المفاجئات. وأزمة المشروع النووي الإيراني مع الدول الغربية تصبح كل يوم اكثر تعقيداً. والمشاكل الاجتماعية في المجتمع الإيراني تتراكم وتنتظر الحلول. والحركات القومية غير الفارسية تنشط في اكثر من جانب وتهدد تماسك ووحدة الكيان السياسية. والقوى السياسية الإيرانية المعارضة في الداخل والخارج تتربص وتتحين الفرص لإسقاط نظام الأئمة والملالي والتيار الديني برمته.

إن إعلان فوز أحمدي نجاد على موسوي بفارق أصوات كبير تجاوز 12 مليون صوت، حيث حصل نجاد حسب النتائج التي أعلنها وزير الداخلية الإيرانية، على نسبة 62%

وحسين موسوي على أقل من 21% من مجموع الأصوات، شكل خيبة أمل غير متوقعة عند موسوي وأنصاره. لقد اتهم موسوي وكروبي وخاتمي الحكومة وأحمد نجاد وأنصارة بالتزوير الفاضح لنتيجة الإنتخابات. ومما زاد الطين بلة مسارعة مرشد الدولة علي خامنئي على تأيد أحمد نجاد وتثبيت النتيجة المعلنة للإنتخابات ضارباً بذلك عرض الحائط بمواقف ومشاعر ملايين الناس الذين خرجوا للشوارع منددين بتلك النتيجة الإنتخابية، وضارب بعرض الحائط مواقف زعماء التيار الإصلاحي المشككة بمسيرة سير الإنتخابات وعدم نزاهتها.

لقد انشق المجتمع الإيراني عمودياً والأحداث التي تلت الإنتخابات الرءاسية الأخيرة سوف لن تكون نهاية المطاف ونهاية مسيرة التفكك في جسم النظام السياسي الإيراني الذي ركب وشكل بعد سقوط الشاه رضا بهلوي قبل ثلاثين عاماً مضت. فالأوضاع في إيران تنذر بتطورات كبيرة وهامة داخل إيران وعلى القوى السياسية في المحيط الجغرافي الإيراني. وسيكون تأثير التغيرات الجارية في الدولة الإيرانية على المستوى السياسي والإجتماعي ربما كارثي على القوى التي ربطت مصيرها بعجلات مؤسسات النظام السياسي الإيراني، فعندما تغرق السفينة فأول من تتساقط في عباب البحر الأحمال المتراكمة على أطراف السفينة الآيلة للسقوط والغرق.

القيم الثقافية السائدة
في المجتمعات الإيرانية

عند كل مجتمع من المجتمعات البشرية تبرز بعض القيم العامة التي تتحكم بتصرفات أفراد هذا المجتمع اليومية. هذه السلوكيات الشائعة عند أغلب أفراد المجتمع تكونت عبر التاريخ وتحت تأثير التجارب والظروف الإنسانية التي مر بها هذا المجتمع. أهم الأطر التي تحتوي و تشرع أخلاقيات الناس، وتضبط علاقات الأفراد اليومية ببعضها البعض. تلك القيم متأتية من الدين والفلسفة العامة السائدة عند أبناء تلك المجتمعات. إن منظومة القيم المتعارف عليها والعادات والتقاليد المتوارثة تفرض، ما يعرف في علم الأنثرو بيولوجيا، بالسلوكية الجماعية، أو الجمعية، والسيكولوجيا الجماعية عند الشعوب والمجتمعات البشرية.

إن منظومة القيم الأخلاقية والعادات والتقاليد التي تأثر على تصرفات الناس اليومية وتحدد طبيعة علاقات الناس مع بعضهم البعض مصادرها متنوعة وتأثيراتها على الأفراد مركبة وشديدة الامتزاج. أهم هذه المصادر هو الموروث الثقافي للشعوب. هذا الموروث الذي يتم تناقله بطرق تلقائية من جيل إلى جيل ويظل حاضراً يؤثر ويترك بصماته على الناس عبر القرون ومن خلال أدوات ووسائل عدة. أهم تلك الوسائل التي تكفلت في نقل الموروث الثقافي عبر الأجيال يمكن إجمالها بالتالي:

- اللغة هي أهم واسطة لنقل الأفكار والموروث الشعبي عبر الأجيال لشعب من الشعوب. واللغة هي الخزان الحقيقي الذي يحتفظ عبر المفردات اللغوية وصياغة الجملة بعناصر الأعراف والقيم والتقاليد الإنسانية.
- الأمثال الشعبية تحتوي هي أيضاً على كم هائل من نصوص القيم الموروثة. وفي كل يوم يعاد ذكر هذه الأمثال بما تحتويه من معانٍ وقيم في الأحاديث العابرة والهادفة من كم كبير وعلى مسمع كم أكبر من الناس. فهي دستور ثقافي متنقل عبر الأجيال وعبر القرون، وبين أوساط كل طبقات المجتمع.
- الأساطير والحكايات الشعبية هي ايضاً من أهم المصادر التي تأثر على أمزجة الناس وترسم الخطوط العريضة في سيكولوجية أفراد مجتمع من المجتمعات البشرية. يتعاظم تأثير القصص الشعبية والأساطير الموروثة إذا ما عرف أن

الأجيال تستمع إلى تلك القصص و الأساطير عادةً في سني الطفولة. هذا ما يعني أن تلك القيم والمفاهيم التي يتعلمها الطفل ستترك بصماتها العميقة على سلوكيات هذا الفرد طوال سني عمره. عبد الرحمن الكواكبي سطر في كتابة طبائع الاستبداد قبل قرن مضى هذا الاستنتاج حول سيكولوجية الشعوب من خلال المفردات والنصوص التي تكتبها تلك الشعوب. واعتبر الكواكبي التأمل في المفردات اللغوية لأي أمة من الأمم أمرا ضروريا لتقدير المستوى الحضاري والأخلاقي الذي وصلت إليه هذه الشعوب حيث كتب: "يستدل على الأمة في الاستبداد والحرية باستنطاق لغتها هل هي كثيرة ألفاظ التعظيم، غنية في عبارات الخضوع كالفارسية مثلا، أم هي فقيرة في هذا الباب كالعربية مثلا."[5]

- الدين والعقيدة هما الشكل المنظم الذي من خلالهما يقنن كم هائل من القيم والقوانين التي يراد بها التشريع لآفاق تفكير الناس وأساليب حياتهم اليومية. فالديانة "الزردشتية" (المجوسية أو عبادة النار) والعقيدة "المانية" اللتان كانتا منتشرتان عند الشعوب الإيرانية قبل الإسلام، ظلتا إلى يومنا هذا أحد المصادر الثقافية المكونة لمنظومة القيم والعادات والتقاليد في المجتمع الإيراني.

على الرغم من سيادة وانتصار الدين الإسلامي في الهضبة الإيرانية منذ أربعة عشر قرناً، إلا أن بعض القيم والتقاليد التي كانت سائدة قبل الإسلام أخذت طريقها إلى نصوص تراث الدين الإسلامي الجديد، وتقولبت في قوالب إسلامية، وارتدت رداءاً إسلاميا. منذ العقود الأولى لانتصار الإسلام نشطت بعض الفئات من النخب الفارسية بمحاربة الإسلام، وعندما عجزت هذه الفئات على مواجهة هذا الدين بشكل مباشر، بما يحمل هذا الدين من قيم وقوانين تشريع، وعجزت في التغلب على المسلمين الظافرين المنتصرين عسكرياً، حاولت تلك القوى الالتفاف على مبادئ الدين وبذل الجهد باختراق شرائعه وتسريب نصوص زردشتية ومانية ومزدكية إلى نصوص التراث الإسلامي. فالكم الهائل من النصوص والأحاديث الموضوعة على لسان الرسول الكريم وصحابته وآل بيته الكرام أصبحت معروفة في الأوساط العلمية.

لقد نشطت في العصر العباسي الثاني دوائر وجماعات الحركات الشعوبية في تدوين الأحاديث ونسبها إلى الرسول الكريم و الصحابة رضي الله عنهم. زرع ووضع الأحاديث المزورة داخل التراث الديني أدخلت المجتمعات الإسلامية في حالة من البلبلة وعدم الثقة بصحة جوانب من هذا التراث. لا زال الفقه الإسلامي يعاني من الآثار السلبية لنشاط الرموز الشعوبية ومحاولاتها تزوير الفقه والتراث الإسلامي. وفي نفس

[5] نقلاً عن يوسف مكي في مقالة نشرت على موقع التجديد العربي على شبكة الإنتر نيت العالمية تحت عنوان " في الانتماء والتواصل والوحدة".

تلك الحقبة الزمنية من العصر العباسي الثاني وفي أجواء حمى النشاط السياسي للحركات السياسية جرت عملية إعادة أحياء الفتن الطائفية البغيضة وإشاعة مرض التعصب المذهبي. محاولات تحريف التراث الإسلامي، والفتن الطائفية، والتعصب المذهبي كانت من أهم إنجازات الحركات الشعوبية السلبية على المجتمع الإسلامي، والتي أدخلت العالم الإسلامي في متاهات غير مجدية لازالت المجتمعات الإسلامية تعاني من شرورها حتى وقتنا الحاضر.

في الجمهورية الإسلامية في إيران أعيد من جديد إحياء بعض القيم والتقاليد الفارسية الموروثة من عصور ما قبل الإسلام. على الرغم من تعارض هذه المعتقدات الصريح مع مبادئ الدين الإسلامي ومفاهيمه، تمارس بشكل علني بعض الطقوس والعبادات واحتفالات هذه المعتقدات والديانات في الجمهورية الإسلامية الإيرانية وتتلقى الدعم الحكومي الرسمي. يحتفل الفرس في 21 .آذار(مارس) بعيد "النيروز" من كل عام. في هذا العيد الذي تقدس في طقوسه عبادة النار، كجزء أساسي من عبادات الدين الزردشتي (المجوسية). لقد اصبح الاحتفال في هذا العيد، والذي يصادف بداية السنة في التقويم الفارسي القديم، في عصر الجمهورية الإسلامية، من أهم الأعياد في الدولة.

تقام في إيران الاحتفالات في هذه المناسبة في الساحات العامة في كل المدن والقرى الإيرانية. تعطل المدارس والدوائر الرسمية في إيران بمناسبة عيد النيروز هذا مدة خمسة عشر يوماً من كل عام. لقد خصصت بلدية مدينة طهران، التي يقودها المحافظون من التيار الإسلامي الحاكم، أربعين مكاناً في الساحات العامة للاحتفالات بعيد نيروز في شهر مارس من عام 2007 . في حين لا تلقى الاحتفالات في الأعياد الإسلامية مثل هذا التقدير وهذا الاهتمام الرسمي والشعبي. فبمناسبة حلول عيد الأضحى المبارك تعطل المدارس والدوائر الحكومية يوماً واحداً فقط لا غير. وكذلك الحال بمناسبة حلول عيد الفطر المبارك من كل عام. وتغيب في أيام عيد الفطر وعيد الأضحى الإسلاميين أي من مظاهر الفرح والبهجة، ولا تقام الاحتفال الدينية أو الشعبية في هذين العيدين الإسلاميين. تعليقاً على الاحتفالات الإيرانية في أعياد نيروز كجزء ورمز أساسي من رموز الدين الزردشتي قال أحد أبرز قادة التيار الديني الإصلاحي في إيران، علي أبطحي، مساعد رئيس الجمهورية الإيرانية "لا يمكن أن يتصور إيران من دون زرادشت ولا زرادشت من دون إيران،"[6].

أجاز الإسلام للمؤمن بأن يتجاوز القوانين في حال تعرضت حياته للخطر الحقيقي، حسب مبدأ (ولا ترموا بأنفسكم إلى التهلكة) أو (الضرورات تبيح المحذورات) وبقصد تسهيل الحياة على الناس. لكن الفقه الشيعي الصفوي يفرض على المؤمنين ممارسة

[6] نقلاً عن مقال للكاتب العراقي ـ الإيراني محمد صادق الحسيني ، تحت عنوان "نيروز الشرق تحت المجهر" في القدس العربي، لندن في تاريخ 2. 4. 2007 .

"التقية" ووضع هذه الممارسة في مرتبة أولويات العبادة. الدعوة لممارسة "التقية"، بسبب أو بغير سبب، وهي موضع انتقاد، أصبحت هي القاعدة وهي القيمة والعادة الإجتماعية. الإمام علي بن إبراهيم القمي، أحد اشهر المشرعين في الفقه الشيعي الصفوي، في كتابة "الاعتقادات" يقول: "والتقية واجبة ولا يجوز رفعها إلى أن يخرج القائم (أي الإمام المهدي الغائب) فمن تركها قبل خروجه فقد خرج من دين الله تعالى وعن دين الإمامية، وخالف الله ورسوله والأئمة".[7]

يضاف إلى ممارسة التقية ممارسة الخطاب المزدوج في المعاملات اليومية. ففي الفقه الشيعي الصفوي والمستمد مواده وبعض مبادئه من فلسفة الدين الزردشتي بدرجة أساسية، هذه الفلسفة تجيز الخطاب المزدوج حيث تسود ثقافة الظاهر والباطن. وربما يعاكس وينقض الباطن كل مضمون وممارسة لفعل وفهم الظاهر في الفقه الشيعي.

لقد تركت ممارسة "التقية" وممارسة الخطاب المزدوج آثار اجتماعية سلوكية كبيرة على المجتمعات وعلى أفراد المجتمعات التي تعتقد بصحة ممارسة وتطبيق مبدأ التقية و ممارسة وتطبيق مبدأ الخطاب المزدوج. فأهم الظواهر المتفشية في المجتمعات الإيرانية هي:

المشرع الديني في المذهب الشيعي الصفوي أسهب وغالى في تعداد ظروف إباحة اللجوء إلى "التقية" حتى انقلب المفهوم وقصده وأصبح سافلة أعلاه.

المذهب الشيعي الصفوي اتخذ من مبدأ التقية عماد من أعمدة التشيع وركناً أساسياً من أركان العلاقات الاجتماعية اليومية بين الأفراد. حتى أصبحت ممارسة هذا المبدأ، مع مرور الزمن، أحد أهم الظواهر البارزة في المجتمع الإيراني.

وقد أصبحت التقية النهج السائد عند الناس، العامة والخاصة. ولأبسط الأسباب وأصغرها قيمة يلجأ الناس إلى ممارسة التقية هذه. عممت هذه الممارسة حتى طالت كل مجالات الحياة في التخاطب والتعامل. ودخلت أيضا في آلية اتخاذ القرارات، الكبيرة منها والصغيرة، العامة والخاصة، الداخلية والخارجية، السياسية والاجتماعية. لقد أصبحت أحد المكونات السيكولوجية للفرد في المجتمعات الإيرانية. فهي جزء أساسي من مكونات الشخصية الإيرانية.

تميل المجتمعات التي تسود فيها ممارسة التقية إلى التعايش مع صفة الخنوع وانتظار الفرص المناسبة لالتقاطها لرفع الظلم الواقع. وربما يطول الانتظار كثيراً ولم تأتي الفرصة المناسبة. وإن أتت الفرصة يصبح هدف رفع الحيف و الظلم انتقاما وخرابا، ومقدمة وسبباً لظلم لاحق أكثر قسوة و إيلاما. وهذا ما يفسر الدموية المفرطة في سلوك الإيرانيين في حربهم ضد أعدائهم عبر القرون التي مرت، ولا زالت كذلك في الحاضر.

---

[7] نقلاً عن عبد اله بن سعيد الجنيد، حوار هادئ بين السنة والشيعة، ص 97 ،

ومن سلوكيات أفراد هذه المجتمعات التي تتعامل بالتقية، ومبدأ الظاهر والباطن، الابتعاد عن المواجهة والدفاع عن الحقوق بطرق مباشرة، واللجوء إلى المكر والخديعة للوصول إلى الأهداف. تصبح صفة المواربة هي السلوكية السائدة عند من يمارس مبدأ التقية والخطاب المزدوج. هذا السلوك المتفشي في المجتمعات الإيرانية يوقع أصحابه بشكل دائم في علاقاتهم الاجتماعية مع أبناء الشعوب الأخرى بإشكاليات سلوكية سلبية، أقلها حده هي تكرار وقوع حالات سوء الفهم ومروراً إلى فقدان الثقة ووصولاً إشعال الفتن والحروب المدمرة.

تلك الصفات والسلوكيات السالفة الذكر إذا ما تفشت في مجتمع من المجتمعات تفرز بدورها ظاهرة اجتماعية جمعية مألوفة، تسمى في علم السياسة وعلم الاجتماع بظاهرة "التعايش النفسي مع حالة التناقض الدائمة". والتي تعني استمرار حالة التصالح النفسي عند الشخص، والتعايش مع حاله التناقض العقلي والنفسي الناشئ عن المواقف والتصريحات والممارسات المتناقضة الصادرة عن هذا الشخص في الحياة اليومية وممارسة "الخطاب المزدوج" مع الآخرين. الطبيعي والمألوف عند الشخص والنفس البشرية في حالة وقوع التناقض العمل على حل هذا التناقض بأسرع وقت من خلال البحث عن الحلول المناسبة لهذه المشكلة النفسية للوصول إلى حالة التوازن النفسي، والإستقرار النفسي من خلال حل حالة التناقض الناشئة والطارئة في نفس الوقت. والبحث عن مخرج من حالة التناقض التي يمكن أن تقع بها النفس البشرية بفعل عوامل خارجية أو داخلية طارئة هي حاجة وضرورة بشرية سيكولوجية لصنع الإستقرار والتناسق المنطقي للعقل البشري. البحث عن أجوبة وحلول مقنعة لإنهاء حالة التناقض القائمة تظل قائمة طالما بقيت حالة التناقض في الأفعال أو الأقوال والممارسات لازالت قائمة.

الكائن البشري ميال في طبعة إلى خلق الانسجام مع الذات من خلال الممارسات والمواقف النظرية والعملية التي يتخذها ويفكر بها في لحظة من اللحظات. كلما حصل تناقض في ممارسات الإنسان يخلق عند هذا الإنسان اضطراب نفسي. تظل النفس البشرية مضطربة وتبحث عن حلول من أجل رفع هذا التناقض كلما حصل. لكن عندما يتعايش الشخص مع هذا التناقض النفسي والعقلي، ويتوقف عن البحث عن حلول لهذه المعضلة النفسية، ويتكرر التعايش مع حالة التناقض تلك، يتم الحديث عن ظاهرة "الخطاب المزدوج" و"السلوك المزدوج" أو أكثر. أو حسب التعبير الشعبي "الظهور بعدة وجوه" بعلاقات الفرد الإنسانية مع الآخرين. لمن لم يتدرب على التعايش مع تلك الحالة في سن مبكرة يعيش حالات اضطراب نفسي ربما تصل في شدتها إلى مرحلة مرضية خطيرة وصعبة.

ممارسة عادة "التقية" تساهم بشكل مباشر في خلق وتفشي ظاهرة "الخطاب المزدوج" عند فرد من الأفراد، وتبرر له التعايش مع التناقض، وتضفي هذه التقية على هذا التبرير مسحة دينية، تخفف من حدة الصراع النفسي الداخلي وتقلل من حدة عملية تأنيب الضمير وتشوه صفاء وجدان الإنسان. السمة الدينية للتقية تساعد الإنسان في إراحة النفس من الشعور بالذنب أو الخطأ من جراء الخطاب المزدوج والعيش بشكل متكرر مع التناقضات. تفشي هذه الظاهرة في مجتمع من المجتمعات يترتب عليها أثار اجتماعية سلبية كبيرة، وتخلق سلوكيات صعبة الفهم عند الفرد والمجتمع الذي يعاني من هذه الظاهرة وتلك السلوكيات.

في إيران سائد مبدأ الخطاب المزدوج في تصرفات الفرد اليومية. ومنبع هذه الظاهرة هو ديني. وجذور هذه الظاهرة مقتبسة من الفكر والثقافة الدينية الزردشتية والمزدكية. حتى وإن غلفت هذه المعتقدات برداء ديني إسلامي شيعي تظل جذور هذه الممارسات قد تواترت واستمرت في المجتمع الإيراني من تلك الأصول الفارسية القديمة والدين الإسلامي من هذه الممارسات والمفاهيم براء.

مبدأ التقية يجيز للفرد التصريح بالشيء والتصرف بغيرة أو حتى عكسه. هذه السلوكيات شائعة ومنتشرة بين صفوف المواطنين في إيران. ويوصف من يمتاز بإتقان هذه الممارسة وهذا التصرف بامتلاكه نوع من الحنكة والذكاء، وتعتبر ممارسة هذا السلوك الاجتماعي ضرورة مسلكية تساعد صاحبها في التغلب على المعضلات والصعاب في الحياة اليومية. لكن شعوب ومجتمعات أخرى تنظر إلى ممارسة الخطاب المزدوج على أنه نوع من الكذب والخداع المعيب، وترى بالشخص الذي يجيز هذه الممارسة في تعامله مع الآخرين بالكاذب والمخادع وصاحبه بعيد عن الاستقامة والصدق في الحياة.

تشارك المجتمع الإيراني بهذه الصفة بعض التجمعات الدينية والعرقية المختلفة التي تعيش حاله الرعب والخوف والاضطهاد والجنوح إلى العزلة، وتأخذ بسلوك عدم المجاهرة بما تعتقد وتفكر به، في محاولة لتجنب الضرر والعقاب، وحفاظاً على الحياة والمصالح.

عدد غير قليل من المجتمعات الدينية غير الإسلامية والأقليات العرقية المنغلقة على ذاتها في أكثر من مكان في العالم تتفشى بين صفوفها ظاهرة "الخطاب المزدوج" أو حالة التعايش مع تعدد المواقف وتعدد الشخصيات السلوكية عند الفرد الواحد. الانعزال والبعد الجغرافي عن التجمعات البشرية الأخرى هي أسباب تؤدي إلى العزلة والانزواء على الذات وتنمي الشعور بالخوف والحذر الشديدين. تتفشى بين أفراد تلك المجموعات البشرية ظاهرة المغالاة بالشك والظنون السلبية بالآخرين.

الاضطهاد السياسي والاجتماعي لبعض الأقليات الدينية والعرقية عبر مراحل تكونها التاريخي وصيرورتها الثقافية كانت من الأسباب الأخرى التي ساهمت ايضاً في انعزال بعض الأقليات وتقوقعها على الذات. الخوف من المحيط والرغبة في حماية الذات من أخطار محتملة تدفع الفرد والجماعة إلى اللجوء إلى ممارسة الخطاب المزدوج وتدفع بالخائف ومن لديه شعور بالظلم إلى الغموض والحذر المفرطين عند التعامل مع الآخرين. تلك الممارسات وتلك السلوكيات مع الآخرين هي عوامل اجتماعية ونفسية وسياسية إضافية تساهم في إشاعة أجواء الشك وعدم الثقة بين أفراد المجتمعات ،وتترك صاحبها في حالة قلق دائم وعدم الشعور بالأمان والاطمئنان.

الانتماء إلى أقلية دينية أو عرقية لا تعني حتمية اتباع نهج الانعزال والتقوقع عن بقية المجتمع الذي تعيش في وسطه هذه أو تلك الأقلية. ولم يكن هذا الانتماء سبباً سيؤدي حتماً إلى تفشي ظواهر وسلوكيات الشك وعدم الثقة وممارسة "التقية". كثير من الأقليات لا تعيش وتمارس تلك الممارسات ولا تمتلك صفات الانعزال والانزواء. فمسيحي بلاد الشام وأقباط مصر على الرغم من كونهم أقلية من الناحية العددية مقارنة بعدد السكان من المسلمين في هذه الأوطان، يغلب على سلوكهم اليومي صفة الانفتاح على بقية شرائح المجتمع والاندماج في حياة المجتمعات التي يشاركونها المكان والوطن، وغير متفشية عندهم ممارسات التقية والسرية والشك في الآخرين. الثقة بالنفس والانفتاح على الآخرين هي الصفة المميزة للمسيحيين العرب، والمشاركة الفعالة في النشاطات الاجتماعية العامة والنشاطات السياسية ظلت الصفات الغالبة على سلوكيات مواطني تلك الأقليات الدينية العربية. وكذلك الأقلية القومية الكردية لا تسود بين أوساط أفرادها سمة التقية وممارسة الخطاب المزدوج.

بعض التجمعات الهندية المعزولة في مناطق "التيبت" و"الهيملايا" وكذلك التجمعات اليهودية المنعزلة والمنغلقة في ما يعرف بتجمعات "الغيتو" المنتشرة في مختلف دول العالم تشترك على سبيل المثال مع المجتمعات الإيرانية في ظاهرة التقوقع والشك المفرط في المجتمعات والشعوب التي يعيشون بين ظهرانيها، وتنتشر عندهم ظاهرة "الخطاب المزدوج" الاجتماعية والسلوكيات الإنسانية غير المألوفة في المجتمعات الأخرى المستقرة.

دخول الدين الإسلامي

بلاد فارس

الدين الإسلامي الحنيف جاء رحمة للعالمين، ولكل الشعوب والأقوام، على اختلاف ألسنتهم وعلى اختلاف ألوانهم. شعار الإسلام كان منذ اللحظة الأولى للدعوة الإسلامية، "لا فرق بين عربي وأعجمي ولا بين اسود وابيض إلا بالتقوى". دين عالمي يتجاوز كل الحدود الجغرافية والعرقية والثقافية. لم تنحصر الدعوة الإسلامية في شعب معين بحد ذاته ولا ببقعة جغرافية. انطلقت مسيرة الفتح العربي الإسلامي من الجزيرة العربية إلى الأقاليم العربية الأخرى المجاورة لشبه الجزيرة العربية. كانت أرض الشام ومصر والعراق المحتلة الهدف المباشر لجيوش الفتح العربي في مراحلها الأولى.

على ارض العراق جرت عدة معارك التحرير ضد جيوش المملكة الساسانية المحتلة. تلك المملكة التي نقلت مركز ثقلها من المناطق الفارسية الجبلية إلى سهل ومدن بلاد ما بين النهرين الخصبة. لقد نقل ملوك الفرس عاصمة دولتهم الساسانية إلى مدينة "ديسفول" الأحوازية ومن ثم إلى مدينة "المدائن" في العراق، وتمادوا لأكثر من ثلاثة قرون باضطهادهم لعرب العراق. لقد انظم عرب العراق (عرب العراق والأحواز حالياً) قبل أن يعلنوا إسلامهم إلى جيوش الفتح العربي.

معارك الفتح الإسلامي الأساسية في العراق وبلاد فارس، والتي كان النصر فيها حليف العرب المسلمين كانت في عهد الخليفة الراشد عمر بن الخطاب. كانت معركة القادسية عام 636 م بقيادة الصحابي الجليل سعد بن أبي وقاص من أهم المعارك على الجبهة الشرقية في دولة الخلافة. ومن ثم تلتها معركة المدائن عام 637 م التي شكلت الضربة القاصمة لدولة الساسانيين لما لها من تأثير معنوي كعاصمة سياسية للدولة الساسانية، تلتها معركة "نهاوند" في عام 642 م التي كانت أخر المعارك الكبيرة التي فتحت الطريق لوصول قوات الفتح العربي الإسلامي إلى بلاد السند والهند وبلاد الأفغان.

بلاد فارس كانت واحدة من المناطق التي دخلها الفاتحون العرب ومعهم دخل الإسلام إلى تلك المناطق التي كانت تقطنها شعوب وأقوام شتى، تدين بديانات شتى وتلهج بلغات والسن شتى ايضاً. من هذه الشعوب كان جزء من العرب يعيشون داخل الكيان السياسي

الساساني ويتمتعون بكيانات سياسية شبه مستقلة. التواجد العربي تحت سيطرة الساسانيين لم يقتصر على العراق والساحل الشرقي للخليج العربي بل انتشار العنصر العربي وحركة القبائل العربية في الهضبة الإيرانية وصل إلى أطراف منطقة الري وشيراز في قرون ما قبل الفتح الإسلامي. فالشعوب التي كانت منضوية تحت حكم الساسانيين لم تكن فقط فارسية اللغة والملة بل هي خليط من الأقوام متعددة المشارب والثقافات ومتعددي الكيانات السياسية. فملك الفرس كان يدعي نفسه "بالشاه شاه" أي ملك الملوك. ومملكة الساسانيين كانت عبارة عن كيان سياسي يتكون من عدد من الممالك الشبه مستقلة. وعلى رأس كل مملكة من تلك الممالك ملك يديرها ويقدم الطاعة والضرائب للملك الساساني.

بعد تحرير الأرض العربية من يد الفرس والروم في العراق والشام ومصر تابعت الدعوة الإسلامية تقدمها وانتشارها بين الشعوب والأمصار في مشرق الأرض ومغربها. وأضحت دولة الخلافة العربية الإسلامية الناشئة أكبر وأوسع مساحةً وأكثر سكاناً من أي إمبراطورية عرفها التاريخ من قبل.

لم تتوقف الفتوحات العربية الإسلامية عند حدود أوطان العرب، ولم يكن هدف المسلمين العرب تحرير أبناء جلدتهم من العرب من جور الحاكم الفارسي والروماني الأجنبي فقط، بل إيصال الرسالة المحمدية إلى كل شعوب الأرض أينما وجدوا وإلى أي أمة وعرق ولون ينتمون.

دخلت الشعوب الإيرانية في بوتقة الدولة الإسلامية واصبح الدين الإسلامي بعد اقل من عقدين من الزمان دين الناس ودين المجتمع. لم يمض نصف قرن على نشأة الدين الإسلامي ووصوله إلى الهضبة الإيرانية حتى سادت اللغة العربية والثقافة العربية والأسماء العربية واستوطنت قبائل عربية الهضبة الإيرانية وفتحت في وجه الشعوب الإيرانية بلاد الخلافة العربية الإسلامية التي انتشرت ايضاً قبائل الشعوب الإيرانية في أصقاعها.

لقد تفردت الفتوحات الإسلامية بعدة صفات ميزتها عن غيرها من الفتوحات العسكرية التي رافقت نشأة وتوسع الدول والإمبراطوريات عبر حقب التاريخ. تلك الصفات التي لم تعشها البشرية من قبل ولم تتكرر في صيرورة تكون الدول وتطورها من بعد. على الرغم من التطور والتقدم التقني والثقافي والعلم العسكري التي وصلت إليه البشرية بقيت ظاهرة نشأة الدولة الإسلامية فريدة في سماتها حتى يومنا هذا. أهم تلك السمات المميزة لنشأة تلك الدولة هي التالية:

سرعة تقدم جيوش الفتح في البلدان المفتوحة.

مواجهة أقوى قوتين عظيمتين في ذاك العالم في آن معاً والانتصار في تلك المواجهات الحربية الشاملة.

تقبل أعداد كبيرة من شعوب البلدان المفتوحة لدين الفاتحين وثقافة الفاتحين العرب بالسرعة النادرة الحدوث.

نشر التسامح والمساواة بين الناس وإشراك أبناء الشعوب المغلوبة في مراكز الفعل والقرار والقيادة السياسية والعسكرية والدينية.

احترام ثقافات وديانات الشعوب والأقوام المغلوبة وعدم المساس بمقدسات تلك الشعوب والأقوام والتعايش معها على أساس الأخوة الإنسانية.

ربما تشترك دولة أو إمبراطورية من الإمبراطوريات في صفة أو صفتين مع الدولة العربية الصاعدة في النشأة وكذلك مع فلسفة الحكم وثقافة القيادة، لكن بقيت الدولة العربية الناشئة متفردة في امتلاك هذه الصفات مجتمعةً في آنٍ معاً.

أن طرح بعض من الآراء التالية ربما يساهم في الإجابة على سرعة انتشار الإسلام وتجذره ورسوخه في نفوس الناس. أهم هذه الأسباب تعزى إلى:

جوهر الدين الإسلامي المتسامح والمتصالح مع الأخر ونشر المساواة بين الناس، كقول الخليفة الفاروق عمر بن الخطاب الشهير "متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحرارا"، كان له الأثر الكبير في نفوس الشعوب التي وصل إليها الإسلام. هذا المبدأ في المساواة بين الناس الذي طرحه الخليفة الفاروق، اصبح، بعد أربعة عشر قرناً من الزمان، شعاراً لمنظمة الأمم المتحدة في نيويورك لنشر العدل والمساواة بين الناس والشعوب، يعتبر من أهم المبادئ الإنسانية التي كرسها الإسلام في علاقات الناس مع بعضهم البعض اليومية.

الدرجة الإيمانية العالية التي كان يتمتع بها الصحابة وقادة الفتح الإسلامي.

مجموعة القيم والأعراف النبيلة التي كان يتمتع بها المجتمع العربي قبل الإسلام وجاء الإسلام وأكد هذه القيم والمبادئ وعززها وأضاف إليها من قيم الخير والتقوى، كقول الرسول الكريم " وما جئت إلا لأتمم مكارم الأخلاق".

كثافة تواجد العنصر العربي في العراق والشام ومصر وبلاد المغرب قبل الفتح الإسلامي، وتشابه أخلاقيات وثقافات سكان هذه الأقاليم مع أخلاقيات وقيم وثقافة القادمين الجدد من الجزيرة العربية.

الحجم الكبير من الظلم والجور الذي كانت ترزح تحته الشعوب والأقوام تحت حكم المحتلين من الفرس والرومان وغيرهم من الحكام المستبدين. فأهل الشام من النصارى (العرب المتنصرة) وأقباط مصر النصارى تقدموا وعقدوا تحالفاً مع المسلمين الفاتحين

ضد حكامهم الأجانب من الرومان الذين يحكمون باسم المسيح عليه السلام. وحمل العرب المتنصرة في بلاد الشام والأقباط في مصر السلاح إلى جانب المسلمين العرب المحررين من جور المستعمر الأجنبي. وحمل العرب المتنصرة والفلاحين النبط في العراق السلاح إلى جانب العرب الجدد القادمون من قلب جزيرة العرب تحت راية الإسلام هذه المرة وكافحوا جنباً إلى جنب لطرد المحتل الفارسي من ارض الرافدين.

بعد فترة وجيزة من وصول الإسلام إلى تلك الشعوب خرج من بين صفوف هذه الشعوب الفقيه والشاعر والقائد العسكري والمؤرخ واللغوي. كم هائل من الناس تبنى لغة العرب وثقافتهم وآمنوا بالدين الذي به يؤمنون، لكن نفر من الطبقة التي كانت حاكمة في بلاد فارس، وبالدرجة الأولى من كان لهم المكانة الدينية والسياسية في العصر الساساني البائد، ناصب الدين الإسلامي العداء، وناصب من حمل هذا الدين من العرب الشر والمكيدة والبلاء. طبقة دين الدولة الساسانية الزردشتية لم تستسلم للعرب وللإسلام وبقيت تقاوم هذا الدين وان اضطرت إلى تنويع شكل المقاومة وأساليب رفض هذا الدين. مرة بالمواجهة، ومرة بالمواربة، ومرة بالتقية والنفاق وأخرى بالمكر والخديعة.

الديانات عند الفرس والإيرانيين
قبل انتشار الإسلام

منذ فجر التاريخ عمل الإنسان في البحث عن أجوبة لأسئلة محيرة أملتها علية البيئة التي يعيش فيها، وأسئلة دارت في خلده حول الزرع والضرع والأرض والسماء والحيات والموت والكوارث الطبيعية التي تهدد حياته. وأسئلة دارت في مخيلته عن المعنى للحياة والزواج والتكاثر وأخرى غيرها تحتاج لفهم أو تفسير. هذه الأسئلة شغلت بال الشعوب الإيرانية والفارسية كما شغلت بال غيرهم من الشعوب قبل تواجدهم على مسرح الحياة ومن بعدهم، وبالقرب منهم وفي أصقاع بعيدة عنهم. الحكمة أو الفلسفة والدين كانت ولازالت الأسماء الشائعة التي تحت لوائها يبحث في الإجابة عن الأجوبة للأسئلة المحيرة التي لازال الإنسان يطرحها.

انتشرت في إيران القديمة ديانات شتى، فمن هذه الديانات ما هو قادم من مناطق مجاورة للهضبة الإيرانية وأخرى وصلت إلى هناك من أقوام ومناطق بعيدة، وديانات نشأت من داخل تلك المنطقة. البوذية والشامانية واليهودية والمسيحية كلها ديانات قدمت من مناطق الجوار إلى بلاد فارس وانتشرت هناك. لكن ديانات ثلاث نشأت وتطورت في نفس المنطقة التي يعيش بها الفرس. هي الديانة "الزردشتية" والديانة "المانية" والديانة "المزدكية". هذه الديانات نشأت وانتشرت بالأساس في البدء بين شعوب وأقوام غير فارسية. لكنها انتشرت بعد حين بين الفرس والطبقات الحاكمة الفارسية. هذه الديانات هي بالمحصلة النهائية من انتاجات كثير من الشعوب والأقوام التي عاشت تحت ظل سيطرة القوى الفارسية.

على الرغم من عدم دقة الاعتقاد بحقيقة الأصول الفارسية لتلك الديانات، يعتبر الفرس أن هذه الديانات الثلاثة هي إنتاج ثقافي حضاري فارسي، وبقيت النخب الثقافية الفارسية تتناول أسس ومبادئ تلك الديانات كمكونات أساسية من أهم أعمدة التاريخ الثقافي الفارسي الذي تعتز به الأجيال الفارسية. يميز الفرس أنفسهم وهويتهم القومية، على أساس هذا الإرث الموهوم، عن غيرهم من الأمم والشعوب الأخرى.

اهتم الفرس منذ القدم بالدين واحتل الدين عندهم مكانة رفيعة في حياتهم وممارستهم اليومية، وهذه الميول الدينية تركت بصماتها على حياة وطبائع الأجيال الفارسية المتعاقبة. هنا من المفيد التطرق بشكل موجز إلى هذه الديانات "الفارسية".

الديانة الزردشتية

مؤسس هذه الديانة هو الراهب الحكيم "زردشت بن يورشب" الذي يعتقد انه ولد في أذربيجان في حوالي العام 665 قبل ميلاد السيد المسيح عليه السلام. لزردشت كتاب اسمه "زند أوستا" يقسم العالم فيه إلى قسمين: "مينة" و"كيتي" ، يعني الروحاني والجسماني. حاول زردشت نشر تعاليمه بين قومه وأبناء جلدته في مكان مولده إلا أن قومه خذلوه ولم يستجيبوا لدعوته وتعاليمه فاضطر إلى ترك موطنة والذهاب إلى مدينة بلخ في مقاطعة خرسان في شمال أفغانستان الحالية. هناك في المهجر في مقاطعة بلخ وجدت دعوته آذان صاغية بعد أن اعتنق ملك بلخ "كتشاسب" هذه الديانة وانتشرت الدعوة من هناك إلى الأمصار والمناطق المجاورة في الهضبة الإيرانية. اعتنق جمهور كثير من الفرس الديانة الزردشتية وأصبحت هذه الديانة هي ديانة ملوك وقادة الدول الفارسية المتعاقبة لكنها لم تصبح دين للدولة إلا في العصر الساساني في القرن الثالث الميلادي. طوال القرون السالفة لم يظهر للديانة الزردشتية كبير الأثر على معتقاد الشعوب.

ادعى زردشت انه نبي بعث للعالمين من قبل إله الخير "اهورا مزدا": الزردشتية هو دين "ثنوياً" ويعترف بإلهين اثنين إحداهما للخير والأخر للشر وهما "أهورا مزدا" و"اهرمان". كذلك الأساس الفلسفي لهذه الديانة مبني على الثنائي المتضاد والمتصارع. الصراع في منطق هذه الديانة هو بين الخير والشر، بين الظاهر والمخفي، بين النور والظلمة، بين النار والماء، وهذين العنصرين من الطبيعة مقدسان عند اتباع الزردشتية. وخاصة النار التي يحافظ على استمرار اشتعالها في أمكنة العبادة على الدوام. والنار وتقديسها يدخل في أغلب الطقوس الدينية الزردشتية كمطهر للذنوب والخطايا، حتى أصبح الاسم المرادف للديانة الزردشتية اسم عبادة النار أو المجوسية. جزء من الطقوس الدينية للزردشتية لازال شائعاً في إيران حتى يومنا هذا وتجاوز مفهوم إحياء التراث إلي إعادة الاعتبار للديانة الزردشتية نفسها عند فئات شاسعة في المجتمع الإيراني في ظل الجمهورية الإسلامية.

في الديانة الزردشتية للإنسان حياة أولى وحياة أخرى وهناك جنة وهناك جهنم وصراط مستقيم. حياة أولى تحصى فيها أعمال الإنسان ، وحياة أخرى ينعم فيها الإنسان أو يشقى.

أتباع الزردشتية يقدسون الشمس والقمر ويعتقدون أن لهذين الكوكبين قوة إلهية يجب إن تحترم وحتى تعبد. والمؤسسة الدينية الزردشتية (المجوسية) هي جماعة منظمة ولها درجات ومراتب في السلم الهرمي لتلك المؤسسة وقد قسمت المجتمع الساساني الفئات الإجتماعية التالية:

1. طبقة رجال الدين
2. طبقة رجال الحرب
3. طبقة كتاب الدواوين
4. طبقة الشعب من الفلاحين والصناع

العناصر المكونة للديانة الزردشتية ليست جديدة على شعوب المنطقة. فكل تلك العناصر منفردة ومجتمعة كانت منتشرة في بلاد ما بين النهرين بقرون طويلة قبل قدوم الفرس إلى المنطقة. الصراع بين اله الخير واله الشر في ملحمة "جلجامش" تدور فصولها على أرض العراق قبل أكثر من ألفي عام من ظهور الفرس على مسرح الأحداث. وإبراهيم الخليل، أبو الأنبياء عليه السلام، وهو من ولد في مدينة "أور" العراقية على ضفاف الفرات، وكبر وترعرع هناك، وتوصل إلى معرفة الخالق الواحد القهار، والجنة والنار، والدنيا والآخرة والصراط المستقيم، والحساب والعذاب قبل 1200 عام من ولادة زردشت وظهور الفرس في ولاية فارس واقترابهم من أرض الرافدين. الديانة اليهودية والديانات الفرعونية وغيرها كان لها حضورها واتباعها في الشرق في زمن زردشت.

كان الجديد في هذا الدين هو شعور القبائل الفارسية أن هذا الدين يخصها فقط، واعتبار مبشر ومؤسس هذا الدين ينحدر من قبائل فارسية، وهو ما لم تؤكده الأبحاث التاريخية. كعامل تأكيد في خصوصية وملكية هذا الدين للفرس، وخاصة ملكيتة لبعض قبائلهم، عمل بعض رجال الدين الفرس المتأخرين على صياغة الدين الزردشتي حسب أهوائهم ورغباتهم القومية. تماماً كما فهم أحبار اليهود المتأخرين في الدين اليهودي وتعريف النبي موسى عليه السلم، والعمل على صياغة وربط الدين اليهودي وحصر انتشاره بعشائر بني إسرائيل. "كان رجال الدين الزردشتيون شديدي التعصب، ولكن مثار تعصبهم كان لأسباب سياسية خاصة بهم، ولم يكن الدين الزردشتي دين دعاية، فلم يكن رؤساؤه مملوئين بالحماس لبث سعادة الأرواح في العالم كافة، ولكنهم ادعوا السيادة

المطلقة في داخل حدود الدولة، وكانوا لا يطمئنون كثيراً إلى من يدينون بدين آخر، وخاصة إذا انتموا إلى دين دولة أجنبية قوية."[8]

إن تشبث بعض الأقوام الفارسية بالدين الزردشتي حتى هذا اليوم، والمحاولات المتكررة من قبل النخبة الفارسية في إعادة إحيائه مستندة على ذات القناعة والاعتقاد بأن هذا الدين دينهم، وبهذا الدين يستطيعون منافسة الشعوب الأخرى في إنتاجها الثقافي التاريخي.

ربما كانت الفكرة في عصور وقرون غابرة مفهومة ومبررة، لكنها في عصرنا الحاضر ستكون مدعاة للاستغراب ومؤشر على الرغبة والجنوح إلى الانعزالية والتعصب القومي غير المبرر والعنصرية أيضاً.

زادت قوة انتشار الديانة الزردشتية بعد أن اعتنق الملك "ازادشير الأول" وابنه "سابور" هذه الديانة واتخذوا منها ديناً لدولتهم. ولم يضعف انتشار الديانة الزردشتية بين قبائل الفرس إلا بقدوم الإسلام إلى تلك الديار وانتشاره بمعدلات لازالت تذهل رجال الفكر والتراث. كثير من القوميين الفرس حانقون على العرب وعلى الإسلام. ويرون في العرب والإسلام وجهان لعملة واحدة فيهما مكمن الخطر على الأمة الفارسية و على "التراث الفارسي" إن صح التعبير.

الديانة المانوية

الديانة المانوية هي ايضاً اكتسبت اسمها من اسم مؤسسها "ماني". وماني هذا ولد في ارض العراق في قرية "مسين" بالقرب من بابل، عاصمة الإمبراطورية البابلية العريقة، في عام 216 م، من أبوين إيرانيين من العائلة الأشكانية الحاكمة. بدأ "ماني" دعوته من الهند فكانت دعوته هي خليط من عناصر الديانة الزردشتية مع عناصر من الديانة المسيحية، التي انتشرت ايضاً بين شعوب المملكة الساسانية، ومتأثرة ايضاً ببعض ملامح الفلسفات الهندية، مثل الاعتقاد "بتناسخ الأرواح" على سبيل المثال.

أخذ ماني عن الزردشتية (المجوسية) قولهم بأن العالم مصنوع من أصلين: "نور" و"ظلمة". لكنه أختلف معهم في اعتقاده بأن النور والظلمة قديمان أزليان ،بينما يعتقد المجوس بان الظلام محدث وليس قديماً والنور وحدة الأزلي . وأخذ ماني عن النصرانية عقيدة التثليث أو الثالوث المقدس ، فالإله عنده: مزيج من "العظيم الأول"، و "الرجل القديم"، و "أم الحياة". لقد أدخلت كثير من النصوص والتعاليم المأخوذة من الأناجيل المسيحية إلى النصوص والتعاليم المانوية. لقد آمن اتباعه بنبوة عيسى عليه

[8] محمود شيت خطاب، قادة الفتح الإسلامي، قادة فتح بلاد فارس (إيران)، ص 74 ، دار الفتح بيروت 1965.

السلام وكذلك آمن اتباعه أيضاً بنبوة زردشت. يعتقد ماني واتباعه بأنه خاتم الأنبياء، وقد أرسل لتبليغ كلام الله إلى الناس كافة.

أطلق الفرس على ماني ومن تبعه من الناس ب "الزنادقة "، وسبب هذه التسمية أن زر دشت جاء الفرس بكتاب اسمه "البستاه" وعمل له تفسيراً أسماه " الزند" وجعل للتفسير شرحاً أسماه " البازند " . وكان من أورد في شريعتهم شيئاً بخلاف الكتاب الأصل الذي هو "البستاه" واخذ بتأويل ما هو وارد في نصوص البستاه اعتبر محرف للنصوص الأصلية وحلت علية اللعنة وأصابه الإثم. فلما جاءت العرب ودخلت الفتوحات الإسلامية إلى المناطق الفارسية في الهضبة الإيرانية، أخذت هذا المعنى عن الفرس وقالوا : "زنديق" ، أي المحرف والمغالي في التأويل، وعربت الكلمة وعرب المعنى أيضاً. واصبح عند العرب أهل الديانات الثنوية، أي اتباع الديانات التي تقول بازدواجية الألوهية (المجوسية)، هم الزنادقة وأهل الزندقة، وألحق، بمرور الوقت، بهؤلاء الزردشتية (المجوس) اتباع الديانة المزدكية والديانة المانوية. لقد أصبح التعبير الشائع والجامع عند العرب في وصف أتباع الديانات الفارسية الثلاثة "بالزناديق" أو المحرفين أو المغالين في التحريف.

المؤسسة الدينية عند أتباع الدين المانوي تنظيم هرمي دقيق. وعندهم المجتمع والمراتب الدينية تتكون من خمس مراتب متسلسلة من أعلى إلى أسفل كالتالي:

1. أبناء العلم
2. أبناء العقل
3. أبناء الفطنة
4. طبقة السماعون
5. طبقة سواد الناس

هذا التقسيم الطبقي للمجتمع في الديانة المانوية متأثر إلى حد كبير بأشكال التقسيمات الطبقية المنصوص عليها في معتقدات الديانة الزردشتية (المجوسية) بشكل جلي وتشابهها في الوظائف. لكل طبقة من هذه الطبقات وظائف اجتماعية وسياسية تخصها. وأفراد كل طبقة توكل إليهم مسؤوليات متمايزة عن مهام ومسؤوليات أفراد الطبقات الأخرى. أي أن المجتمع الماني كان طبقي وغير متساوي. النظام الطبقي والانعزال بين طبقات المجتمع نشأ وانتشر بقرون طويل قبل نشأة وتكون المجتمعات الفارسية في حوض نهر الغانج في الهند، وقد تبنته وحافظت على بقاءه الديانة "البراهمية" و"الهندوسية" في تلك البلاد. ولازال هذا النظام شائع ومنتشر في اكثر من مكان في شبه القارة الهندية حتى يومنا هذا.

نجح ماني في إدخال أخوين للملك الساساني "سابور" في تنظيمه الديني. نادى ماني بالزهد والتقشف ودعى للسلم ونبذ الحروب. هذا الموقف من ماني، الذي يدعو إلى التسامح، أزعج "بهرام" الملك الساساني المحارب الذي وصل إلى السلطة للتو بحد السيف والقتل والغدر، وهدد أعمدة إمبراطوريته القائمة على الحرب والبطش بالأعداء الداخليين والشعوب المجاورة. قتل الملك الساساني بهرام المصلح والمرشد "ماني" واتخذ أتباعه يوم قتله عيداً لهم أسموه "بيما" ذكرى لمقتل نبيهم الشهيد. لقي ماني مصرعه على يد "بهرام بن هرمز بن سابور" عام 279 م لكن الدعوة استمرت بشكل سري بعد اضطهاد الزردشتين الذين يقودون الدولة الساسانية لهم ومطاردتهم في أرجاء الدولة الساسانية الزردشتية الديانة. اضطر اتباع المانية إلى التستر على اعتقاداتهم اتقاء للأخطار التي تحيق بهم، واتقاء للبطش الذي يهددهم من قبل أجهزة الدولة الزردشتية في المملكة الساسانية. هذه الممارسة اليومية عند بعض الناس تعرف في أيامنا هذه بمبدأ "التقية" ، والتي تعني إظهار غير ما يعتقد الفرد، والتستر على المعتقدات وممارستها سراً. "فالتقية" كانت مبدأ ومعتقد شائع بين أوساط الشعوب الفارسية قبل انتشار الإسلام بين صفوفهم.

الديانة المزدكية

مؤسسها "مزدك بن بامداد" الذي ظهر أيام "قباذ والد كسرى انو شروان" في فارس عام 487 م، وبدأ دعوته كمؤمن بعقيدة ماني. لكن مزدك رفض الزهد والتصوف وغلب على عقيدته طابع الواقعية والنشاط في العمل في الحقل الاجتماعي ونادى بالعدالة الاجتماعية، لكنه مثل "ماني" نهى الناس عن المباغضة والقتال والحروب. وشرع مزدك في جواز الإباحية في حياة المجتمع. كان منطق مزدك في إجازة الإباحية يتلخص بالتالي: أن المرأة والمال، حسب مزدك، سبب من أسباب النزاعات وعدم المساواة، ولما كان عدم المساواة سبب من أسباب الحروب والنزاعات نادى بتقسيم الأرزاق بين الناس بالتساوي، وكذلك جعل الناس شركاء في الأرزاق والنساء كاشتراكهم في الماء والنار كاسلوب وطريق لمنع نشوء الحروب والنزاعات بين الناس.

ولأتباع مزدك فلسفة خاصة في الإباحية. فهم يرون أن العاديين من الناس لا يستطيعون التخلص من حب اللذات المادية إلا في اللحظة التي يستطيعون فيها إشباع هذه الحاجات بالاختيار الحر. وعلى أساس هذا الفهم وتلك الفلسفة نادوا بإباحة الرغبات الجنسية وإزالة القيود التي تعترض إشباع تلك الرغبات بحرية مطلقة. وبعد أن كانت المزدكية مذهبا دينيا صارت مذهباً اجتماعياً، وقوانين ثورية، ومبادئ شيوعية.

كثير من الحركات اليسارية الإيرانية الحالية ترى في الحركة المزدكية المثل الذي يحتذى به. فحركة "فدائي خلق" اليسارية الإيرانية والحزب الشيوعي الإيراني "تودة"، وغيرها من الأحزاب والمنظمات اليسارية الماركسية في إيران، ترى في أيديولوجيتها ومبادئها اليسارية أنها منسجمة مع المبادئ الاجتماعية المزدكية، وفي نفس الوقت متصالحة مع التراث الفارسي القديم. وتدعو هذه المنظمات اليسارية الفارسية إلى إحياء هذا التراث والتخلي عن مبادئ الدين الإسلامي الوافد إليهم من جزيرة العرب. وعلى أساس هذا المنطق وهذا الاعتقاد يلتقي اليساريون الفرس مع القوميين الكلاسيكيين الفرس في هدف العداء للتراث العربي الإسلامي، وفي هدف العودة إلى إحياء التراث الاجتماعي والثقافي الفارسي عبر احياء مشروع فارسي متحرر من كل التأثيرات العربية اللغوية والثقافية والدينية.

جاء كسرى الأول "انوشروان بن قباذ" وحارب هذه الدعوة الدينية، أو هذه الدعوة الاجتماعية الإصلاحية، حسب تعريف بعض الكتاب اليساريين الإيرانيين والعرب، وحد من انتشار دعوتهم في المجتمع الساساني، وطاردهم وانزل بهم اشد العقاب. كسرى انوشروان وجد في المزدكية خطر يهدد الديانة الزردشتية (المجوسية ـ عبدة النار) الحامي تاريخياً للعرش الملكي الساساني، والتي تبرر ظلم وجور الملوك ولا تترك مكان فيها للعدل والرحمة في الرعية. لقد تحدر قادة الديانة والحركة الاجتماعية المزدكية من صلب الطبقة الدينية الزردشتية الحاكمة وشكلت هذه الحركة تحدياً حقيقياً لسلطة الطبقة الحاكمة في عهد الملك "كسرى انوشروان" (531 - 578 م).

هذه الدعوة إلى الاشتراكية والشيوعية والإباحية المبكرة في التاريخ البشري، تكتسب أهمية خاصة في التاريخ العربي. التاريخ العربي الإسلامي يذكر حركة دينية شيعية نشأت في القرن التاسع والقرن العاشر في منطقة جنوب العراق والبحرين على الخليج العربي، والتي عرفت بحركة القرامطة. حركة تبنت نفس المبادئ المزدكية هذه دون زيادة ودون نقصان، وتكاد تكون هذه الحركة بمبادئها وشكل تنظيمها كرجع الصدى للحركة الدينية المزدكية.

لقد انتشرت الإباحية عند المزدكية وعند القرامطة، وأعاد الصفويون الاعتبار لهذا النوع من العلاقات الاجتماعية من خلال إجازة "زواج المتعة". ما هو مباح من زواج المتعة وممارس عند اتباع المذهب الشيعي الصفوي ترفضه المجتمعات العربية الشيعية الجعفرية (الإثني عشرية) العربية أو "العلية" التقليدية، وترفض ممارسة هذا النوع من الزواج. بل المجتمعات العربية الشيعية تدين هذا النوع من الزواج وتعتبره نوع من أنواع الفساد الاجتماعي والخلقي.

من الملفت للإنتباه ولكن من غير المستغرب استمرار بعض المعتقدات الدينية والممارسات الإجتماعية القديمة التي كانت منتشرة في محيط القيم والثقافات الشائعة في

الدولة الفارسية الساسانية. حيث تجد اسقاطات ومتشابهات هذه القيم والممارسات، بل نسخ عن ممارسات ومعتقدات بعض الجماعات البشرية القريبة من دوائر الدولة الفارسية الحالية تظهر وتمارس من جديد. وهنا لا بد من القول بأن لا مكان للصدف في هذه الظاهرة بل هي النية والمشروع عند بعض القوى والدوائر المعنية بإحياء القيم والديانات القديمة بقوالب وأثواب جديدة.

ملاحظات عامة

حول الديانات في بلاد فارس

دخل الدين في كل نواحي الحياة عند الإنسان في الدولة الفارسية. فالدين كان الناظم والمنظم لعلاقات الناس في المجتمعات التي دخلت في إطار حكم الملوك الفرس. قبيل الفتح العربي الإسلامي "كان الفرس من الناحية الدينية موزعين بين (رمزية) زردشت و (عدمية) ماني و (وجودية) مزدك."[9] من خلال التطور التاريخي والظروف الموضوعية التي نشأت بها الديانات التي اصطلح على تسميتها "بالديانات الفارسية" على الرغم من عدم دقة هذه التسمية لفقدان المبررات العلمية من حيث النشأة والمضمون، برزت بعض الصفات الأساسية في تكون وممارسة هذه الديانات " الفارسية"، أو الأصح الديانات التي اعتقد بها ومارستا الشعوب التي كانت تحكم من قبل العائلات الفارسية.

تأثرت الديانات الفارسية في الدين اليهودي وفي الدين المسيحي. في حين كان تأثير الدين اليهودي واضح على مبادئ الدين الزردشتي والدين "المزدكي". كان تأثير المسيحية كبيراً على الديانة المانوية. كذلك الديانة البوذية، ذلك بفعل الجوار والتداخل الجغرافي لانتشار الديانة "البوذية" بين الشعوب التي سيطرت عليها الممالك الفارسية.اختلط اليهود بالفرس عندما احتل الفرس مدينة بابل وسط العراق وعقد قورش ملك الفرس الغازي التحالف التاريخي الشهير معهم، والذي بموجبه سمح قورش لليهود العودة إلى القدس من بعد السبي البابلي. وصاهرهم ملوك الفرس ومرازبهم ودخل اليهود في النسيج السياسي والديني للمالك الفارسية. فزوجة الملك "قورش"، مؤسس أول دولة فارسية، الذي غزا بابل ومدمر الحضارة البابلية ـ الآشورية في القرن السادس قبل الميلاد، كانت يهودية واسمها "دينارد"، وكان هذا الزواج من أحد الأسباب التي ساهمت في السماح لليهود في العودة إلى بيت المقدس، وترسيخ ولاء اليهود إلى الملوك الفرس والدولة الفارسية القديمة (الدولة الأخمينية). وتأثرت ديانات الفرس باليهودية في اكثر من مجال. من أهمها التأثر بما عند اليهود من أشكال التنظيم والسرية في العمل واقتباس وممارسة مبدأ "التقية" منهم. وقد نظم اليهود أنفسهم منذ القرن الأول الميلادي ، واعترف بعض ملوك فارس بهم ، وقد أقاموا مدرسة (سورا) المشهورة في أوائل

[9] محمود شيت خطاب، قادة الفتح الإسلامي، قادة فتح بلاد فارس (إيران)، ص 78 ، دار الفتح بيروت 1965 .

القرن الثالث الميلادي، واستمر أثر اليهودية في معتقدات الفرس في مختلف حقب التاريخ ولم ينقطع هذا التأثير. كذلك تأثرت معتقدات الفرس بالديانات الأخرى التي انتشرت في المنطقة، مثل المسيحية والبوذية لكن بحدود أقل من تأثير اليهودية.

الزعامة الدينية في بلاد فارس كانت تتمثل في قبيلة من القبائل الفارسية، فالسيطرة الدينية قديماً كانت في قبيلة "ميديا"، وفي عصر الدولة الساسانية المتأخرة صارت السيطرة والقيادة الدينية للديانة الزردشتة (المجوسية) محصورة في قبيلة "المغان" الفارسية. وكان رجال القبيلة الدينية (الموبدان) هم ظل الإله في الأرض، وقد خلقوا حسب العرف الديني لخدمة الآلهة. كان رجل الدين (الموبد) يملك كل السلطة والنفوذ في البلاط الملكي الساساني وبيدة تتجمع صلاحيات اتخاذ القرارات المصيرية للمجتمع والدولة الساسانية. فهو الإمام الديني والحاكم الدنوي. والصفة الأخرى الجديرة بالإهتمام في هذا المجال هي وجوب أن يكون الحاكم السياسي والملك من بين صفوف أبناء تلك القبيلة المتخصصة بالقيام على نشر وقيادة المؤسسة الدينية.

إن حصر القيادة السياسية للدولة والقيادة الدينية (الكهنوت) للمجتمع في التراث الفارسي في قبيلة محددة بعينها كانت أحد المميزات الأساسية التي ميزت الدولة والمجتمعات التي قادها وسيطر عليها الفرس عبر تاريخهم. لقد تركت هذه الصفات بصماتها وأثارها المباشرة وغير المباشرة على طبيعة فهم الشعوب التي كانت تعتنق الديانة الزردشتية، وأثرت أيضاً بشكل غير مباشر على فهم الأفراد لممارسة الدين والسلطة السياسية عند الشعوب التي عاشت ردحاً من الزمن تحت سيطرة حكام الفرس القدامى. حسب الدين الزردشتي (المجوسي) فالحاكم، الملك، ورجل الدين يجب أن يكونا من نفس القبيلة، وبالحاكم تتجسد الذات الإلهية وتتولى طبقة سدنة بيت النار المقدسة من العائلة المقدسة شرف السهر على شؤون الدين. تلك المعادلة في الدولة الفارسية القديمة وعلاقتها بالدين ودور رجال الدين هذا تمت المحافظة على مضامينه حتى عصرنا الحاضر تحت عناوين ومسميات جديدة.

كان المجتمع الساساني الزردشتي مقسم طبقياً كالتالي:

1. العائلة الحاكمة من الموبدان (كهنة المجوس)
2. الموبدان (الكهنة)
3. رجالات الجيش
4. أصحاب الحرف المهنية والمزارعين
5. العمال وعامة الناس، وهي الشريحة التي تضم معظم الشعب وهي طبقة مسحوقة ومظلومة من قبل الفئات ذات النفوذ والسلطة.

إن عبادة الله عن طريق القبيلة وعبر تسمية قبيلة مقدسة هو الذي دفع الفرس إلى التشيع لآل بيت الرسول صلى الله عليه وسلم، لاحباً بآل البيت فقط ولكن انسجاماً مع التصور الزردشتي في علاقة الدين بالمجتمع. هذا التصور الذي يلائم وينسجم مع عقائد المجوس ويقترب من طبائعهم النفسية والاجتماعية في فهم الدين ومكانته في المجتمع، وفي فهم الحكم ونظام الدولة. هذا الفهم والتصور الجمعي الذي يختصر القيادة الدينية وقيادة المجتمع في قبيلة من القبائل، أو عشيرة من العشائر، كما كان عليه الدين الزردشتي في نظام الدولة الساسانية المندثرة وجد اسقاطاتها الجلية في مضامين الفرق الإسلامية الباطنية المتعددة. فقد استنسخت المبادئ والأعراف الزردشتية والمزدكية وأقحمت في اتون النصوص الدينية الشيعية. إنها محاولة لإعادة إنتاج الذات الديني والثقافي في قالب إسلامي يتجاوب مع الواقع السياسي والظروف الجديدة التي خلقت بعد انتصار الإسلام على منافسيه في الهضبة الإيرانية.و من هذه الحقائق والمقارنات يمكن فهم اصرار رجال الدين الشيعة الصفوية على تقديس آل بيت علي بن أبي طالب ومنحهم صفة العصمة المطلقة والقيادة السياسية.

والملاحظة الأساسية الثالثة في شكل ومضامين الديانات التي اعتنقها الفرس قبل دخول الإسلام إلى مجتمعاتهم هي تلك الصفة المرتبطة بالعمل السري والمبالغة الشديدة في ممارسة السرية في العمل الديني والإجتماعي. تأصلت مبادئ العمل السري وأصبحت السرية في العمل، في أوقات مبكرة من نشأة الديانة الزردشتية (المجوسية)، وأصبحت هذه الصفة من أصول عقائد الديانة المجوسية. استمر الزردشتيون في العمل والنشاط بكل سرية في الدوائر الضيقة المغلقة المتمثلة في سدنة الدين ودوائر الحكم والعرش الملكي على الرغم من سيادة السلطة السياسية وسيادة الدين الزردشتي بين أوساط رعايا الدولة الأخمينية والدولة الساسانية. على الرغم من توسع وانتشار أنصار واتباع الديانة الزردشتية في الدولة الأخمينية والدولة الساسانية إلا إن أسلوب العمل السري بقي المهيمن على أساليب رجال الدين والرموز القائمة على إدارة شؤون هذا الدين داخل المجتمع.

وكذلك انتقلت هذه الصفة إلى صفوف المبشرين ورجل الدين المانوي، هذا الدين الذي جاء كرد فعل وكحركة إصلاح على الدين الزردشتي الإنعزالي السائد. لقد اجبر أتباع الديانة المانوية على ممارسة عباداتهم في الخفاء، وبعيداً عن أنظار الحاكم الساساني " بهرام بن هرمز"، و تحولت هذه الديانة إلى حركة سياسية دينية سرية بعد أن بطش بهرام بن هرمز بأتباع الديانة المانوية وطاردهم في طول البلاد وعرضها.

ولقد كانت الديانة المزدكية، منذ بدايتها دعوة سرية، وخاصة بعد أن نكل الشاه الساساني القبل الأخير من الحكام الساسان "أنو شروان" بأتباع هذه الديانة، أو الدعوة الإصلاحية

المزدكية. لقد تعززت فكرة التنظيم السري ومبدأ "التقية" في الأوساط الدينية الفارسية على إختلاف مشاربها ودياناتها. وكانت الصفة السائدة في ممارسة العبادات الدينية في نهاية الدولة الساسنية سرية أوشبه سرية بشكل عام. وخاصة بعد حملات الإضطهاد الدموية المتكررة التي شنت على المزدكية واتباعها. لقد بدأت فكرة التنظيم السري ومبدأ "التقية"، والتي تعني عدم الجهر بالمعتقد وادعاء الاعتقاد بغيره، بفترة قبل الفتح الإسلاكي لبلاد فارس. وصارت ممارسة التقية في بلاد فارس في بداية القرن السابع السمة السائدة في الحياة اليومية بين أوساط الناس. كانت المؤسسات الدينية في المجتمعات الدينية تحت حكم الفرس منظمة تنظيماً هرميا دقيقاً، واصبحت السرية في ممارسة الطقوس الدينية و في الحياة العامة والخاصة أيضاً سائدة. وكانت التنظيمات الهرمية للمؤسسة الدينية قادرة على التعامل مع المستجدات الجديدة، وقادرة على امتصاص الأخطار المحدقة بأعضاء هذه المؤسسة.

مع انتصار الإسلام وانتشاره في الهضبة الإيرانية تعززت الحاجة عند اتباع الديانة الزردشتية والمزدكية للتعامل مع السلوك السري في العمل والتعامل مع مبدأ التقية والتملق في أساط جماهير الدين الإسلامي الجديد. كانت تنظيمات الفرس الزردشتيين والمزدكيين من القوة والدقة بحيث تمكنت من إيصال عناصرها إلى قصور الحكام الجدد في حالات ضعفهم ودون التخلي عن معتقداتهم الدينية القديمة. بل أصبح رجال الدين الزردشت والمزدكيين من قادة المناطق والحكام "المسلمين".

هذه الملاحظات تكتسب أهمية دينية واجتماعية وتاريخية وكذلك سياسية عند التطرق لانتشار الدين الإسلامي في الهضبة الإيرانية ودور بعض الدوائرالدينية الزردشتية والمزدكية التي ظلت تبذل الجهود لإعادة إحياء الديانات الفارسية القديمة كل ما سنحت الفرص بذلك. ولو كانت هذه المحاولات عبر تهريب وإلصاق وتسريب بعض القيم والمعتقدات الدينية الفارسية إلى داخل المبادئ والعبادات الإسلامية.

إن حصر القيادة الدينية في عائلة من العائلات أو عشيرة من العشائر، وممارسة مبدأ التقية والخطاب المزدوج، وممارسة العمل السياسي واثقافي والديني بأسايب شديدة السرية والتستر، وكذلك البناء الهرمي للمؤسسة الدينية كلها مجرد أمثلة تؤشر على تأثير الديانة الزردشتية (المجوسية) والديانة المزدكية على صياغة وشكل بعض المذاهب الإسلامية.

الدولة الإيرانية

كيان سياسي متعدد القوميات والأعراق

تتكون الدولة الإيرانية من ثلاثين محافظة. سكان هذه المحافظات متعددي الأعراق والشعوب. أهم القوميات التي تقطن الدولة الإيرانية بالإضافة للقومية الفارسية الأذربيجان والتركمان والأفشار من القبائل والشعوب التركية. وكذلك الكرد والبلوش واللور بالإضافة إلى عرب الأحواز وعرب خرسان.

تعتبر اللغة الفارسية من الناحية الرسمية اللغة الوحيدة المعمول بها في دوائر الدولة والمدارس والجامعات في إيران. في حين لا يشكل الفرس من مجموع سكان إيران البالغ قرابة 70 مليون نسمة عام 2007 ال 35%. قرابة 30 مليون مواطن من القومية الفارسية يفرضون لغتهم وثقافتهم وفهمهم لمسار التاريخ على بقية الشعوب الإيرانية الأخرى. في كلمة بمجمع التنمية الفكرية في 15. 12. 2009 أكد الوزيرحميدرضا حاجى بابايى وزير التعليم و التربية في حكومة احمدي نجاد "إن 70% من طلاب المدارس في إيران يتحدثون بلغتين قبل دخولهم المدرسة وحتى الصف الأول الإبتدائي، وأغلبهم لا يزالوا يتحدثون بلغة أمهم و لم يتغير لسانهم للغة الفارسية، ,أن هولاء الأطفال لا يمكن لهم إن ينافسوا إقرانهم من الفرس في كل مراحل التدريس."[10]

يعيش أكثر من نصف عدد سكان إيران في الريف، والنصف الأخر يعيش في المدن أو على أطراف المدن، في أحياء الفقر المنتشرة حول المدن الكبرى مثل طهران وشيراز ومشهد. تتكون إيران من ثلاثين محافظة إدارية مختلفة المساحات وعدد السكان. يتراوح عدد سكان المحافظات بين 12،400 مليون في محافظة طهران إلى 400 ألف نسمة في محافظة سنمان. تصل نسبة الشباب بين سكان إيران، ممن هم تحت سن العشرين عاماً إلى 40%. وتلك النسبة تؤشر على أن المجتمعات الإيرانية مجتمعات شابة. وتتفاوت نسبة النمو السكاني بين المدينة والريف وتختلف من مجتمع إلى آخر من منطقة إلى أخرى. لكن المتوسط العام لمعدل للنمو السكاني في إيران وصل عام 2006 إلى 2،4 %.

[10] وكالة الأنباء الإيرانية (إرنا) في 15. 12. 2009 .

يعاني المجتمع الإيراني من آفة تفشي حالات الإدمان على المخدرات. فحسب تقرير نشر على صفحة محطة الجزيرة الفضائية القطرية فإن عدد المدمنين على تعاطي المخدرات، مثل مادة الأفيون، في إيران يصل إلى سبعة ملايين مواطن إيراني، وهذا الرقم يعادل نسبة 10% من مجموع عدد السكان في إيران. حسب التقارير الدولية والتقارير الحكومية الإيرانية فإن نسبة استهلاك مادة الأفيون في إيران تصل إلى ثلث الاستهلاك العالمي. تلك المادة التي ينتج أكثر من 95% من الإنتاج العالمي من مادة الأفيون في جمهورية أفغانستان المجاورة لإيران. وعبر دولة إيران يتم توزيع هذه المادة المخدرة إلى بقية أنحاء العالم عبر شبكات تهريب محلية ودولية.[11]

مساحة إيران الحالية تزيد على المليون والنصف مليون كيلو متر مربع (1,640,000). تشكل الصحاري في الجنوب والجبال الجرداء في الوسط والشمال اكثر من 80% من مساحة الجمهورية. تشكل الأراضي الزراعية نسبة 9% من مجموع مساحة الأراضي الإيرانية والأراضي المروية منها تقارب 75620 كيلو متر مربع. والغابات، خاصة في المناطق الشمالية، تغطي نسبة 11% من مساحة الدولة الإيرانية.

هذه الرقعة الجغرافية التي يطلق عليها حاليا اسم "الجمهورية الإسلامية الإيرانية" لم تكن دائماً موحدة سياسياً، بل خضعت هذه المنطقة ولفترات طويلة من الزمن لكيانات سياسية مختلفة المشارب والولاءات، وكانت الهضبة الإيرانية جزء من أجزاء دول وإمبراطوريات مجاورة وبعيدة. كانت المناطق الإيرانية الحالية جزء من الدولة العربية لفترة تزيد على السبعة قرون.

موقع هذا البلد الجغرافي نظراً لإطلالته على بحر العرب والخليج العربي وكذلك على بحر قزوين اكتسب أهمية استراتيجية كبيرة خلال القرن الأخير. تجاور إيران الحالية اثنا عشر دولة إسلامية. هي باكستان، أفغانستان، تركمانستان، أذربيجان، تركيا والعراق. كذلك تقابل وتجاور دول الخليج العربي، عمان ودولة الإمارات العربية المتحدة والبحرين وأمارة قطر وكذلك المملكة العربية السعودية والكويت. سبعة دول عربية تجاور إيران ومع هذه الدول السبع لإيران علاقات ثقافية وسياسية وتجارية ملحوظة.

بقيت إيران تعد من الدول الفقيرة ومن مجموعة الدول النامية على الرغم من المخزون والإنتاج الهائل من مواد الطاقة الطبيعية. تأتي إيران في المرتبة الثانية على قائمة مجموعة دول "الأوبيك" المنتجة للنفط، حيث يبلغ متوسط الإنتاج الإيراني الأربعة ملايين برميل يومياً. تزداد معدلات البطالة في إيران سنوياً حتى وصلت إلى نسبة ال 20%. والفقر متفش في الأرياف والمدن الإيرانية والتي بقيت خارج التطور العمراني

[11] قارن فضائية الجزيرة في برنامج "عين على إيران" بث من طهرا في تاريخ 14 . 1. 2008 .

والبشري العام . بلغت نسبة الإيرانيين الذين يعيشون تحت درجة الفقر حسب الأرقام الحكومية الإيرانية لعام 2007 إلى 13% من مجموع عدد سكان إيران.[12]

تشكل طبقة التجار الصغار والمتوسطة (البازار) العمود الفقري في هيكل الإقتصاد الإيراني. هذه الفئة تهيمن في تحالفها مع رجال الدين على عصب الحياة الاقتصادية و السياسية، وتتمتع هذه الفئة بنفوذ كبير داخل المؤسسات الحكومية. وتعتبر هذه الطبقة من اكثر الطبقات الإيرانية نفوذاً وتأثيراً على الحياة العامة هناك. الجدير بالذكر في هذا المكان القول أن العناصر المتحدرة من أصول عرقية أذربيجانية هي الفئة التي تهيمن بدرجة ملفتة للانتباه على الاقتصاد الإيراني وعلى طبقة البازار. هذه الفئة التجارية الآذارية أكدت عبر العقود والقرون الأخيرة نفوذ وتأثير ملحوظ على القرار السياسي في الدولة الإيرانية. فمنذ العصر الصفوي مع بداية القرن السادس عشر ظلت العناصر ذات الأصول الآذارية التركية الفئة المهيمنة على الحياة الاقتصادية والسياسية في الكيانات السياسية المتعاقبة في الدولة الفارسية والدولة الإيرانية لاحقاً.

نجحت إيران في بناء بنية تحتية معقولة على مستوى الجمهورية، والتي بدء العمل فيها في فترة حكم الشاه محمد رضا بهلوي في أوائل أعوام السبعينات من القرن العشرين. كذلك تتمتع إيران في امتلاكها شبكة من الصناعات الغذائية والتحويلية المتوسطة وكذلك الصناعات البترولية المتطورة التي أشرف على بنائها البريطانيين ومن بعدهم الأمريكان في العقود الأخيرة من حكم الشاه. ومؤخراً أقيمت في إيران بعض الصناعات التحويلية كمعامل السكر وحفظ وتعليب الخضار وكذلك بناء مصانع تجميع الجرارات والسيارات في طهران وبعض المدن الإيرانية الأخرى. ونشطت في إيران في العقود الأخيرة صناعة إنتاج الأسلحة بمساعدة كوريا الشمالية وجمهورية روسيا الاتحادية والصين الشعبية. كان الشاه محمد رضا بهلوي قد بدأ سياسة التصنيع العسكري في أعوام الستينات بمساعدة الولايات المتحدة وألمانيا وبريطانيا والكيان الصهيوني رداً على محاولات التصنيع والتحديث التي بدأتها الجمهورية العربية المتحدة في نفس الفترة الزمنية. وكانت سياسة تجاوز الخطوط الحمراء التي وضعها الغرب للشاه في هذا المجال من الأسباب والعوامل التي ساهمت بتخلي الغرب عن الشاه وخدماته والبحث عن بدائل أخرى تقبل بتطلعات الدول الغربية الإستراتيجية لهذه المنطقة من العالم.

التعليم في إيران قطع مراحل كبيرة، وبنيت المدارس في كل مدينة وفي أغلب القرى، ويستفيد من خدماتها ملايين الناس. لكن نسبة الأمية في إيران، على الرغم من إلزامية ومجانية التعليم حتى سن الخامسة عشر، لازالت تزيد هناك على 30%. الجامعات والمعاهد العليا، بالإضافة إلى المدارس والمعاهد الدينية، منتشرة في أغلب المدن الإيرانية الكبيرة، ويزيد عدد طلابها على المليون طالب وطالبة.

[12] صحيفة الشرق الأوسط، لندن في 13. 8. 2007.

تشكلت الدولة الإيرانية بحدودها الجغرافية الحالية مع وصول مؤسس العائلة البهلوية، رضا خان، إلى سدة الحكم في طهران في عام 1925. كانت حدود دولة فارس أثناء الحرب العالمية الأولى غير تلك الحدود القائمة حالياً. أثناء الحرب الكونية الأولى كان الثلث الشمالي من إيران الحالية محتل من قبل القوات الروسية والثلث الجنوبي محتل من قبل القوات البريطانية والثلث الأخير في الوسط تحت سيطرة حكومة القاجار في طهران. بعد خروج الروس من الحرب، بعد الثورة البلشفية ووصول الحزب الشيوعي بقيادة لينين إلى الحكم في موسكو، وانسحاب القوات الروسية من المناطق الشمالية انسحبت القوات البريطانية إلى مناطق الخليج العربي وعملت على تسليم تلك المناطق الواحدة تلو الأخرى إلى دولة فارس.

لقد أضيفت مناطق وشعوب عدة غير فارسية للدولة الفارسية التي أصبح يقودها رضا خان البهلوي، الملتصق بالاستعمار البريطاني. في الأعوام التي تلت الحرب العالمية الأولى احتلت بلوشستان ومناطق الأكراد ومناطق الأحواز العربية، واحتلت نصف مملكة أذربيجان في الشمال الغربي ومناطق من مملكة أفغانستان في الشرق.

لقد زادت مساحة دولة فارس خلال العشرة أعوام الأولى من انتهاء الحرب العالمية الأولى إلى أكثر من ثلث مساحة مملكة فارس القاجارية.

في حين عملت الدول الاستعمارية الغربية بشكل منهجي على تقسيم الدول الشرقية والدول الإسلامية، وعملت على تقسيم الأمة العربية، عملت نفس تلك الدول الاستعمارية الغربية على تضخيم مساحة دولة فارس ومدها بعوامل القوة من خلال السماح لها باحتلال مناطق حيوية وغنية بالموارد الطبيعية كالأحواز وأذربيجان الشمالية. تلك مفارقة من مفارقات الزمن الاستعماري الغربي، التي ما كان لها أن تتم بدون تقديرات استعمارية موضوعية تصب في خدمة المشاريع الاستعمارية الغربية على المستوى الاستراتيجي المتوسط والبعيد المدى.

بدل رضا خان اسم الدولة التي يحكمها من الدولة الفارسية إلى الدولة الإيرانية. جاء هذا التغيير والتبديل لتلبية رغبات قومية استعلائية عند الشاه، ورغبة سياسية في التقارب مع الغرب الأوروبي ودغدغة طمزحات بعض الأوساط السياسية والأيدولوجية الغربية العنصرة الراغبة بالتوسع والتمدد باتجاه الشرق. فتعبير إيران، كما سوق له غلاة العنصريين الفرس والشاه رضا بهلوي، يعني الشعب الآري. ونشطت في نفس الوقت الأقلام في إيران في حتمية التحالف والتقارب الإيراني مع أوروبا على أسس عرقية وعنصرية.

أضيف إلى حدود الدولة الإيرانية ثلاثة جزر عربية أخرى قامت حكومة الشاه محمد رضا بهلوي باحتلالها عام 1972 . كانت الجزر الثلاثة الطنب الصغرى والطنب

الكبرى وأبو موسى، داخل حدود دولة الإمارات العربية المتحدة التي توحدت في منتصف الستينات من القرن العشرين.

سقط نظام الشاه عام 1979 وحلت مجموعات دينية مكانه في حكم دول إيران. طرح قادة الثورة الإيرانية شعارات معادية للصهيونية العالمية ومعادية لدولة إسرائيل وكذلك شعارات معادية للولايات المتحدة

الأمريكية التي عملت خلال عدة عقود على دعم الشاه وحماية سلطته من غضب الشعوب الإيرانية.

المحافظات الإيرانية

المواقف المعلنة للقوى الجديدة الحاكمة في طهران وجدت آذان صاغية ووجدت استحسان واسع وتأييد واسع عند الجماهير العربية وكذلك عن أغلب القوى السياسية العربية المعارضة. خاصة التيارات الإسلامية العربية. لقد شجع هذا الموقف الجماهيري العربي وموقف الأحزاب السياسية العربية المعارضة القوى الإيرانية الحاكمة على طرح سياسة توسعية وطرح برنامج سياسي يسعى إلى تصدير أفكار إيرانية فارسية بقالب ديني إسلامي. عرفت هذه الإستراتيجية بمشروع "تصدير الثورة" الإسلامية.

سوق حكام إيران شرعية احتلال الدول العربية والدول الإسلامية من خلال شعارات إسلامية وشعارات تحررية ومعادية لإسرائيل والولايات المتحدة، ومعادية للحكومات العربية، واستغلال حالة العجز والسلبية وحالة التقصير التي امتازت بها أغلب الحكومات العربية في فترة صعود التيار الثوري الإيراني.

الطريق إلى القدس يمر عبر بغداد وعمان. والطريق إلى القدس يمر عبر الرياض وصنعاء. بهذه الشعارات غلفت الأطماع الاستعمارية الفارسية بنوايا تحرير القدس من المحتل الصهيوني. صفق الكثيرون من المواطنين العرب وأخذوا هذه التصريحات على محمل الجد. وهتف الكثيرون من المثقفين العرب لتلك الاطروحات الخطيرة المضامين، وشديدة العدوانية تجاه الوطن العربي. لم يدرك الكثير من العرب أن الاحتلال الفارسي للبلدان العربية لا يقل بشاعةً وقسوة ومأساة عن الاحتلال الصهيوني أو الفرنسي والبريطاني للأرض العربية، ولم يدرك كثير من العرب لأكثر من عشرين عاماً مضت، أن بجعبة حكام طهران الجدد لا يوجد للعرب غير الاحتلال والدمار لبلادهم ونثر سموم التفرقة الطائفية المقيتة والمدمرة للمجتمعات العربية.

لم يقدم الحكام الجدد في طهران أي بادرة حسن نية تجاه العرب، بل عملوا منذ اليوم الأول لقدومهم إلى قمة السلطة، من الناحية العملية، بشدة عدوانيتهم ضد الأقطار العربية مدفوعين بأحقاد أوهام أطماع تاريخية. لقد افتتحوا بواكير مبادراتهم العدوانية بسلسلة من الحروب على العرب. وافتتحوها أيضاً بسلسلة من المشاريع الإعلامية الطائفية، وتشكيل الأحزاب والحركات السياسية، العلنية والسرية، لتعمل على تمزيق المجتمعات العربية ونشر الفوضى والحروب الأهلية في أكثر من قطر من أقطار العرب.

بقي الأحواز محتلاً، وبقيت الجزر الإماراتية محتلةً من قبل إيران أيضاً. وأضاف حكام إيران الجدد في الأشهر الأولى من قدومهم إلى السلطة باحتلال سبعة قرى عراقية جديدة، ومناوشات واستفزازات عسكرية متكررة على الحدود العراقية.

وكان آخر فصول مسرحية تحرير القدس المشاركة باحتلال كل العراق إلى جانب الولايات المتحدة الأمريكية وبريطانيا، وبمباركة ومشاركة صهيونية، والعمل بشكل منظم على تدمير هذا القطر العربي وإبادة أعداد كبيرة من سكانه، وتهجير الملايين منهم في أصقاع الأرض.

التوزع القومي واللغوي في كيان الدولة الإيرانية

الصراع العربي - الإيراني

العلاقات بين الدول والشعوب لا تسير بشكل دائم في حالة وفاق، وكذلك لا تسير هذه العلاقات عبر تاريخ الدول والشعوب، إلا ما ندر، بشكل دائم في حالة صراع. وهي كذلك تخضع لعدة اعتبارات وعوامل تتحكم باستمرارية تلك العلاقات أو تغيير أشكالها. تعبيرات تلك العلاقات بطابعها الودي تترجم بالتبادل التجاري والتضامن السياسي وفي الأزمات بالتحالفات السياسية والعسكرية. وفي جانبها العدائي تترجم تلك العلاقات بالتحريض الإعلامي والمقاطعة الاقتصادية وكذلك الحروب والصراعات المسلحة. وهناك مؤشرات تدلل على عمق الأزمات أو سطحيه تلك الأزمات.

الأزمات في العلاقات الدولية ترتب حسب شدتها في التدرج من معركة إلى حرب وإلى صراع. وهي تقاس بعدد الدول والقوى المشاركة في الأزمة، والزمن الذي تشاغله هذه الأزمة، والخلفيات الثقافية التي تغذي هذه الأزمة. هنا يمكن تصنيف الأزمات إلى ثلاثة أنواع:

تتجسد الأزمة على شكل "معركة". فالمعركة ممكن أن تحدث في زمن محدد وقصير يمتد من عدة ساعات إلى عدة أيام. وتخاض هذه المعارك بين الخصمين على العموم في جانب من الجوانب الأساسية. في الجانب العسكري أو الجانب الاقتصادي أو الجانب السياسي الدبلوماسي أو الجانب الإعلامي.

والشكل الآخر للأزمات هو "الحرب". لكن الحرب هي سلسلة من المعارك المتلاحقة والمتوازي حدوثها. يمكن أن تطول الحرب من أيام وأسابيع، وربما اشهر، وتخاض على عدة جبهات، سياسية عسكري واقتصادية وإعلامية وفي آنٍ معاً. والمألوف أن تدخل أطراف أخرى إلى دائرة الأزمة وتصبح شريكة في القرار والنتائج كما أصبحت شريكة في الحرب. في مثل تلك الأنواع من الأزمات يكون حل الأزمة اكثر تعقيداً وتحتاج إلى زمنٍ أطول لحلها. وتترك آثار سلبية على علاقة الأطراف المتحاربة لفترة طويلة بعد وقف تلك الحرب التي تفجرت.

النوع الثالث من الأزمات بين الدول والشعوب، وهو الأكثر تعقيداً وفتكاً، ويطول لعدة عقود، وبل يمكن أن يطول إلى عدة قرون. هذا النوع من الأزمات هو الذي يعرف "بالصراع" . في الصراع تصطف فيه عدة قوى مختلفة المشارب والأهداف الآنية

والطويلة المدى إلى كل طرف من أطراف النزاع . عوامل استمرار هذا النزاع هي متعددة ومركبة ايضاً. هذا الصراع الذي يخاض عبر عدة معارك وعدة حروب وعبر عدة أجيال ايضاً تتخلله بعض فترات من الهدوء والاسترخاء بين الأطراف المتصارعة، وربما تصل إلى حد عقد اتفاقيات صلح، لكن الأزمات تعود وتتفجر من جديد كل ما شعر طرف من الأطراف المتصارعة بأن الظروف والشروط الذاتية والظروف الموضوعية تميل لصالحه. تتفجر الخلافات من جديد ويصار إلى نسج تحالفات بين القوى وتفتح جبهات سياسية واقتصادية وإعلامية وكذلك عسكرية من جديد.

دخل العرب في مسيرة التاريخ مع الآخرين في معارك وحروب وأيضاً صراعات. ولازال العرب يعيشون في حالة صراع مع قوى ودول أخرى. على سبيل المثال الصراع العربي ـ الإفرنجي (الصليبي) الذي دام قرابة القرنين من الزمان. وكذلك الصراع العربي ـ الصهيوني الذي لازال مستمراً منذ مائة عام. وكذلك الصراع العربي ـ الغربي الاستعماري الذي لازالت ملامحه مستمرة حتى الوقت الحاضر. في هذا السياق فعندما دخل الغزاة الفرنسيون دمشق في عام 1920 بعد معركة "ميسلون" الشهيرة، والتي استشهد فيها القائد العربي ووزير الدفاع السوري في ذاك الحين، "يوسف العظمة"، ذهب الجنرال "غورو"، قائد الحملة الفرنسية على سوريا بعد انتصاره على الجيش العربي في معركة ميسلون، إلى قبر "صلاح الدين الأيوبي" ، القائد المعروف لمعارك التحرير ضد الأفرنج ، الواقع في المسجد الأموي الكبير. وقال هذا الرمز الاستعماري الفرنسي غورو على قبر صلاح الدين الأيوبي، وذكر العرب مرة أخرى بماهية وطبيعة الصراع مع الغرب وقال: "ها نحن قد عدنا يا صلاح الدين". وكان يرد بذلك على قول كان قد أطلقه القائد الكبير "صلاح الدين الأيوبي" بعد انتصار العرب على الفرنجة في معركة "حطين عام 1187 م على أرض فلسطين عندما قال: "لن يعود الإفرنج إلى الشرق بعد هذا اليوم".

العلاقات العربية ـ الإيرانية تصنف، نظراً لعدة اعتبارات وظروف تاريخية وجغرافية ومذهبية وثقافية، من فئة الصراع الطويل المدى من نوع خاص. نظراً لاعتبارات التاريخ واعتبارات الجغرافيا هناك عوامل تساعد على التنافر والتصارع. كذلك ولاعتبارات تاريخية وجغرافية وثقافية وعرقية و دينية أيضاً توجد مساحات واسعة للتقارب والعمل المشترك وخلق تضامن عربي ـ إيراني.

أبعاد الصراع العربي ـ الإيراني

تجاوز عمر الصراع ا العربي ـ لإيراني الألفين والخمس مائة عام، ولا زال هذا الصراع يتجدد جيل بعد جيل، ولا ينذر المستقبل المنظور بحل لهذا النزاع المزمن والمتكرر. كل صراع طويل الأمد بين طرفين أو أكثر يتميز بعمق الخلافات وتعدد أبعاد هذه الخلافات. والصراع العربي ـ الإيراني لا يشذ عن هذه القاعدة بل يؤكدها مرة أخرى. فأبعاد هذا الصراع هي أيضاً متشعبة ومركبة في نفس الوقت. يمكن إجمالها بثلاثة أبعاد أساسية.

- البعد التاريخي
- البعد الديني والمذهبي
- والبعد السياسي والصراع على الأرض

البعد التاريخي

1. الدولة الأخمينية واحتلال بابل

غزت القبائل الإيرانية العراق القديم واحتلت بابل وأنهت الإمبراطورية البابلية ـ الآشورية العريقة أثناء حكم السلالة الأخمينية (558 ـ 529 ق.م) لتلك القبائل. دخل الملك الأخميني بابل بمساعدة الجالية اليهودية التي كانت تقيم في مدينة بابل بعد السبي البابلي الأول عام 597 ق.م، والسبي البابلي الثاني عام 586 ق.م على يد الملك الآشوري ملك بابل نبوخذ نصر. بعد دخول الأخمينيين بابل قام ملك الفرس كورش بإعادة المجموعات اليهودية التي سبيت من فلسطين والمقيمة في تلك الأيام في مدينة بابل عاصمة الإمبراطورية الآشورية. قامت الدولة الأخمينية الفارسية الأولى على أنقاض الإمبراطورية العروبية البابلية ـ الآشورية. توسعت الدولة الفارسية الصاعدة واحتلت بقية العراق وسوريا حتى وصلت إلى مصر. لقد ارتبط بداية التاريخ السياسي للدولة الفارسية مع تدمير الدولة البابلية ـ الآشورية في العراق وسوريا ، وكذلك بتدمير الدولة والحضارة المصرية على ضفاف النيل. بنيت الدولة الفارسية الأولى على أنقاض الركام الحضاري في هذه المناطق السامية الحامية العروبية. وعلى المخزون الثقافي والعمراني والسياسي والديني لتلك الحضارات العملاقة بسطت القبائل الفارسية القادمة من الجبال الجرداء هيمنتها، ومن مخزون تلك الحضارات تكون ما يطلق علية الحضارة الأخمينية أو الفارسية الأولى. دامت الدولة الأخمينية فترة القرنين من الزمان. انتهت هذه الدولة على يد الجيوش الإغريقية بقيادة الكسندر المقدوني عام 333 قبل ميلاد السيد المسيح، الذي اجتاح الشرق وأنها دوله ممالكه المتعددة.

حكم الهضبة الإيرانية وبلاد ما بين النهرين والشام ومصر، من بعد موت الإسكندر المقدوني، قادة الجيوش الإغريقية. كانت الهضبة الإيرانية والعراق وسوريا من حصة القادة السلجوقيين ومصر من حصة القادة العسكريين البطالمة. ومن ثم استقل كل حاكم من الحكام الإغريق في ولاية من الولايات ومنطقة من المناطق، وشاركهم في ذلك بعض الزعامات المحلية. استمرت هذه الحال في الهضبة الإيرانية في حكم الزعامات المحلية وتشكل الإمارات القبلية قرابة الخمسة قرون متتالية، ولم تتشكل في خلال هذه القرون الطويلة أي هوية فارسية أو ثقافة فارسية في هذه الهضبة وما حولها. الإمارات

والكيانات السياسية الكثيرة التي تشكلت خلال هذه الحقبة التاريخية كان يغلب عليها طابع الثقافة "الهيلينية" (الإغريقية) ولم تدل واحدة منها، على عكس ما يدعيه الفرس في حقب زمنية متأخرة، على أي اثر فارسي.

2. الدولة الساسانية واحتلال العراق مرة أخرى

الدولة الثانية ذات الملامح الفارسية، والتي تمتلك قيمة حقيقية في التاريخ السياسي للشعوب، نشأت وتطورت في القرن الثالث للميلاد. هذه الدولة الصاعدة في الهضبة الإيرانية عرفت بالدولة الساسانية، نسبة للعائلة التي أسست و حكمت هذه الدولة. لقد أصبحت من القوة والمنعة حتى غدت تنافس الدولة البيزنطية الرومانية في القرن السادس الميلادي عندما بسطت هيمنتها على العراق من جديد وبدأت تناوش المناطق العربية الأخرى عبر السنين.

الدولة الساسانية كانت في صراع دامي ومرير مع العرب في العراق وبلاد الشام والجزيرة العربية. اعترف الساسانيون، لأكثر من قرنين من الزمان، بسلطة العرب المناذرة (اللخميين) ملوكاً على الحيرة في العراق. كانت من ضمن الأسباب التي دعت الساسانيين في الاعتراف بالمملكة العربية في العراق حتى تشكل هذه المملكة العربية سداً سياسياً وبشرياً وعسكريا لصد الهجمات العربية المتكررة من الشام والجزيرة العربية على المملكة الساسانية. قبيل الدعوة الإسلامية كانت الحرب بين الفرس والعرب سجال. فتارة كانت الغلبة فيها للفرس وتارة أخرى كانت الغلبة فيها للعرب. أحد تلك الحروب التي منيت بها الدولة الساسانية بهزيمة نكراء أمام الجيوش العربية، كانت معركة "ذي قار" الخالدة والمعروفة في التاريخ العربي، وكذلك في التاريخ الفارسي. هذه المعركة التي هزمت جيوش العرب، من قبائل بكر بن وائل وبني شيبان، جيوش الساسانيين الفرس على ارض العراق في عام 614 م. تزامنت هذه الحرب مع بداية بعثة النبي محمد عليه الصلاة والسلام في الحجاز. شكلت هذه الحرب حلقة مهمة من حلقات المواجهة والصراع بين العرب والفرس في تاريخ المنطقة.

إن هذا الانتصار الكبير على الجيوش الفارسية في "ذي قار" ترك آثاراً كبيرة على سير العلاقات العربية ـ الفارسية القادمة، وفي نفس الوقت وضع بذور التفكك والتحلل في جسم الكيان السياسي الساساني المنافس الأول للإمبراطورية الرومانية في السيطرة على الشرق وسواه. هذا الانتصار العسكري كان على ما يبدو المقدمة الضرورية لوضع حد نهائي لغطرسة الحكام الفرس في تعاملهم مع الشعوب التي يحكمونها ومع الشعوب المجاورة كالعرب.

"المثنى بن حارث بن سلمة الشيباني"، من عشائر "بكر بن وائل"، صحابي من كبار القادة العسكريين العرب، أسلم سنة تسع للهجرة الموافق 631 م. قاد المثنى بن حارث جيوش "بني شيبان" و"بكر بن وائل"في معركة "ذي قار" سنة 614 م وكان النصر على الفرس في هذه المعركة حليفه. قام الخليفة الأول أبو بكر الصديق بتكليفه و وجهه لفتح العراق. وكان بهذا التكليف أول قائد عربي مسلم يقود جيش للمسلمين لتحرير العراق من الفرس.أغار الحارث على الفرس بناحية "كسكر"، ثم أمده الخليفة أبو بكر بخالد بن الوليد. فكان بدء الفتوحات الإسلامية العربية في العراق العربي، ومن ثم الفتوحات العربية في الهضبة الإيرانية. هذا القائد العسكري الذي انتصر على الفرس في الجاهلية في معركة "ذي قار"، وانتصر على الفرس في الفتح الإسلامي المظفر، هو القائد الذي أطمع أبا بكر والمسلمين في الفرس وهون أمر الفرس عندهم.

الفتح الإسلامي
و دولة الخلافة العربية

لقد بدأت الدعوة الإسلامية في جزيرة العرب وانتصرت هناك، وتطلع قادة الدعوة الإسلامية العرب إلى البلدان العربية الأخرى، والتي كانت حتى ذاك الحين ترزح تحت نير الاستعمار الفارسي والاستعمار الروماني. توجهت جيوش الفتح العربي إلى بلاد الشام ومصر والعراق وحققت هذه الجيوش انتصارات باهرة فاقت كل التوقعات والحسابات في سرعة تقدمها وسحق الأعداء. خاصة في عصر الخليفة الراشدي الأول أبو بكر الصديق والخليفة الراشدي الثاني الفاروق عمر بن الخطاب.

في خلافة عمر بن الخطاب التي دامت لفترة عشرة أعوام، من عام 632 م حتى 642 م ميلادية، حصلت كبرى حروب الفتح والتحرير. من القادسية ونهاوند في العراق وفارس واليرموك وفتح القدس في الشام إلى الفسطاط في أرض الكنانة مصر. في هذه الفترة الوجيزة حررت مصرا والشام والعراق ووصلت جيوش الفتح العربي تونس وأطراف الهند. تحت تأثير ضربات الجيوش العربية الإسلامية ، تقهقرت الإمبراطورية الساسانية ومن ثم انهارت واندثرت وأصبحت اثر بعد عين خلال زمن قياسي قصير لم يتجاوز الأربعة أعوام.

في نفس الوقت انهزمت الإمبراطورية الرومانية أمام جيوش الفتح العربي وانكفأت إلى داخل المنطقة الغربية من آسيا الصغرى، وثم تداعت هذه الإمبراطورية وسقطت لكن بعد قرون على يد محمد الفاتح العثماني الذي فتح القسطنطينية في عام 1453.

منذ الأيام الأولى للدولة الإسلامية الناشئة ناصبت الطبقة السياسية والثقافية الدينية الفارسية الدولة العربية الإسلامية الفتية العداء. وانصب جام حقدهم على الخليفة أبوب بكر الصديق والخليفة عمر بن الخطاب وقادة الفتح العربي الأول.

توسعت الدولة العربية الإسلامية وقامت على أرض شاسعة امتدت من أطراف الصين شرقاً حتى حدود فرنسا في الغرب. ضمت هذه الإمبراطورية العربية في ثناياها شعوب

وأقوام شتى. من هذه الشعوب والأقوام كانت الشعوب الإيرانية التي اعتنقت في غالبيتها الدين الإسلامي.

أصبحت دولة الخلافة العربية ولعدة قرون لاحقة القوة العالمية العظمى الوحيدة في العالم. وأصبحت اللغة العربية لغة عالمية في الأدب والعلم والتجارة بين شعوب العالم.

نقلت إبداعات الحضارة العربية الإسلامية، في الشرق والأندلس، البشرية جمعاء إلى مراتب حضارية عالية جداً من التقدم والرقي. تلك الإنجازات الحضارية التي شكلت القاعدة الأساسية والضرورية للنهضة الأوروبية الحديثة و أسست للانعطاف الجديد للتقدم التقني في العالم. هذا ما أقرته العالمة والمستشرقة الألمانية "زيغريد هونكة" في كتابها تحت عنوان " شمس العرب تسطع على الغرب" و"إرثنا العربي".

دامت دولة الخلافة العربية بعواصمها المتنقلة في المدينة المنورة ودمشق و بغداد والقاهرة وقرطبة مدة تسعة قرون (من عام 626 م حتى عام 1518 م) متواصلة دون انقطاع. واستمرت الدولة العربية في الأندلس قرابة الثمانية قرون (من عام 711 م حتى عام 1492 م).

اجتاحت الجيوش المغولية القادمة من أواسط أسيا كل الحواضر الإسلامية في الشرق حتى وصلت إلى عاصمة الخلافة الإسلامية بغداد. دخل "هولاكو" بغداد بمساعدة وخيانة "ابن العلقمي"، وزير الخليفة العباسي "المستعصم". لقد اتفق مؤيد الدين ابن العلقمي مع الغزاة المغول سراً على فتح أبواب بغداد أمام الجيوش الغازية. وكذلك قضي على الخليفة العباسية وجهاز الدولة في بغداد بتشجيع ونصائح وفتاوى الشيخ "الإمام الطوسي".نصير الدين الطوسي مستشار الغازي هولاكو، الفارسي الأصل والهوى، أفتى بجواز قتل الخليفة واستباحة بغداد. تمكن هولاكو من دخول بغداد وتدميرها وإبادة سكانها التي تجاوز عدد الضحايا فيها قرابة المليون ونصف المليون ضحية. هذا المفتي للديار الإسلامية في مملكة هولاكو، الشيخ "نصير الدين الطوسي" أفتى في حينه بالخيانة وبفتح أبواب بغداد للغزاة المغول. تلك الفتوى الشهيرة التي جاء فيها: "إن حكم سلطانٍ عادل غير مسلم خير من حكم سلطان مسلم لكن غير عادل". ربما حفظ السيد علي السستاني، المرجع الشيعي الفارسي في النجف في هذه الأيام هذه الفتوى عن ظهر قلب، وأعاد طرحها مرة أخرى، دون تغير وإعادة صياغة، عندما برر الغزو البريطاني ـ الأمريكي على العراق ومهد لتقبل التعاون مع المحتل متذرعا بإزالة الظلم الذي وقع على الشعب العراقي. وأصدر فتوى أخرى طلب فيها من المؤمنين ومقلديه الركون إلى الهدوء والإقامة في المنازل وعدم تعطيل مهمة قوات الغزو الأجنبية للعراق.

كان هولاكو قد تردد في دخول بغداد نزولاً عند نصائح بعض المنجمين الذين نصحوا هولاكو بعدم اجتياح بغداد لأن المس بالخلافة العباسية "المقدسة" سيؤدي إلى حدوث

كوارث طبيعية وموت هولاكو نفسه. كاد الغازي هولاكو أن يقلع عن فكرة اجتياح بغداد نزولاً عند نصائح المنجمين. فاستدعى هولاكو الإمام نصير الدين الطوسي واستشاره الأمر. ومرة أخرى ينفي الطوسي إمكانية حدوث الكوارث و طمأن هولاكو وأكد عدم وجود موانع شرعية تحول دون إقدامه على الغزو. ولم يقف الطوسي عند هذا الحد في طمأنة الغازي وحثه على احتلال الوطن بل أصدر فتوى يؤيد فيها وجهة نظره بالأدلة العقلية والأدلة النقلية وأعطى أمثلة على أن كثيرا من أصحاب الرسول قتلوا ولم تقع الكارثة.

لم يستسلم المستعصم فقد أشار عليه البعض بأن ينزل بالسفينة إلى البصرة ويقيم في إحدى الجزر حتى تسنح الفرصة ويأتيه نصر الله لكن وزيره ابن العلقمي خدعه وأكد له بأن الأمور ستسير على ما يرام لو التقى بهولاكو وفاوضه على بغداد ولا داعي للنزول إلى نواحي البصرة والاستعداد للحرب من جديد. وبهذه النصيحة ساق الوزير، ابن العلقمي، ملكه إلى حتفه المخطط له سلفا والمتفق عليه مع هولاكو، وأوقع عاصمة الخلافة العربية الإسلامية تحت حوافر خيل الغزاة. من مفارقات القدر أن تتكرر الأحداث بعد قرون ويكون مصدر الخطر على بغداد والعراق والخيانة لهذا البلد متشابه إلى حد كبير.

احتل المغول عاصمة الخلافة العباسية بغداد في العام 1258 وانتقلت عاصمة الخلافة والخليفة العباسي إلى القاهرة. استمرت الخلافة العباسية شكلياً بعد أن نصب أحد الخلفاء من بني العباس ممن نجوا من مذابح المغول في بغداد وهو عم المعتصم والذي أحضره القائد والحاكم المملوكي الفعلي لمصر "الظاهر بيبرس" إلى القاهرة والذي قلده اسم "المستنصر". كان المتوكل هو آخر الخلفاء العباسين في القاهرة عندما دخل السلطان العثماني بجيوشه القاهرة عام 1518 منهياً بذلك الخلافة العربية الإسلامية الاسمية لتحل محلها السلطنة العثمانية لأربعة قرون قادمة.

عاشت الإنسانية واحدة من أعظم مراحل تطورها الخالدة والتي كانت عناوينها الحضارية وحواضرها السياسية والعلمية والثقافية تسمى "بغداد" "دمشق" "القاهرة" و"بخارى" و"طشقند" "القيروان" و"فاس" و"قرطبة" و"اشبيليا"و "تنبوكتو" و"شنقيط"، وغيرها الكثير من المدن ومراكز العلم والثقافة العربية والإسلامية. دور العلم، التي تعادل وتشابه الجامعات والمعاهد العليا في عصرنا الراهن كانت تملأ تلك المدن والحواضر وظلت هذه المنارات تشع على البشرية إبداعات العقل والفكر قرون طويلة. من بغداد العاصمة ابتدأت مسيرة بناء صروح الجامعات والمعاهد العليا عندما شيد الخليفة لعباسي، "المأمون" في القرن التاسع الميلادي "دار الحكمة"، أول مكتبة احتوت اكثر من مليون ونصف المليون كتاب ومخطوطة، وأصبحت جامعة عليا يتلقى فيها الطلاب والدارسين العلوم. لم ينقضي القرن السادس عشر حتى كانت الجامعات في

دمشق والأزهر في القاهرة والزيتونة في تونس والقيروان في المغرب الأقصى بالإضافة إلى جامعات قرطبة وغر ناطة تستقبل طلبة العلم من كل أنحاء العالم، وتبعث بنور المعرفة والعلم إلى كل بقاع الأرض. كان آلاف الطلبة يتلقون العلم في اكثر من خمسة عشر جامعة عربية عليا موزعة على مدن دولة الخلافة العربية من الأندلس في الغرب حتى بخارى في الشرق. لكن الضعف والوهن بدأ يدب في جسم دولة الخلافة العربية الإسلامية بشكل متدرج حتى أدى إلى انهيار هذه الدولة العتيدة، وتمزقت أوصالها وانتشرت الفوضى في أطرافها ومراكزها، وتشكل الكيانات الصغيرة والهشة على أنقاضها المبعثرة.

تفككت الدولة والخلافة العربية الإسلامية بفعل عدة عوامل خارجية وعوامل داخلية اجتمعت وتكالبت على هذه الإمبراطورية العملاقة. فالعوامل الخارجية تجسدت في الهجمات الأوروبية القادمة من الغرب، والتي عرفت بالحملات الإفرنجية أو"الصليبية" المتكررة، التي تواصلت على الأراضي العربية خلال القرن الحادي عشر والقرن الثاني عشر. عدد الحملات الصليبية وصل إلى إحدى عشر حمله متواصلة، متفاوتة الحجوم والقوة. تمكن "الصليبيون" أو "الإفرنج" من احتلال الساحل السوري واحتلال القدس الشريف. ثم من بعد تبعت الحملات الصليبية الهجمات الإسبانية والبرتغالية التي تواصلت على الديار العربية في مغربها وفي مشرقها حتى تمكن البرتغال من احتلال الخليج العربي في عام 1508 والأسبان سواحل المغرب العربي الأقصى بعد أن تمكنوا من إخراج العرب والمسلمين من الأندلس عام 1492.

كذلك هجمات المغول والتتار القادمة من الشرق التي استمرت قرابة المائة عام، تمكنت خلالها من اجتياح بلاد الرافدين وبلاد الشام، وتدمير المدن والأرياف وحرق الكتب ووقف التقدم وهدم الحضارة التي أنارت العالم بمعارفها وآدابها. هذه الهجمات البربرية العسكرية المدمرة استنزفت إلى حد كبير طاقات دولة الخلافة المادية والبشرية.

العوامل الخارجية التي تجسدت في كثافة الهجمات العسكرية الخارجية من القوى الغربية والهجمات العسكرية القادمة من الشرق والتي دامت لأكثر من ثلاثة قرون متواصلة استنزفت قدرات المنطقة العربية، وشجعت القوى الداخلية المتنافسة على زيادة حدة صراعاتها المتعددة الأهداف والاتجاهات. هذه العوامل الداخلية التي سارعت في تفتت دولة الخلافة وإعادة صياغة ميازين القوى الداخلية من جديد كان له الأثر الكبير بما آلت إليه الأوضاع لاحقاً.

تجسدت العوامل الداخلية في فساد الحكام وسوء الإدارة، وخاصة في إبعاد العناصر العربية من الجيوش ومراكز قيادتها، واستبدالهم بعناصر غير عربية، كالأتراك والفرس والكرد، من أبناء قوميات دولة الخلافة. لجأ الحكام العرب إلى ذلك لتأكيد سلطانهم بمساعدة الأقوام التي لم تكن بعد طامحة ومنافسة لهم على تلك السلطة، حتى أصبحت

القوات المسلحة وقادتها حكراً على أبناء القوميات غير العربية . هذا التطور الخطير أوصل الخليفة العباسي، في كثير من الأحيان، إلى أن يصبح دمية بيد أمراء جيوش الدولة الأعاجم، وأصبح بلا حول ولا قوة له ولا سلطان. هذا من جهة، ومن جهة ثانية هو تنامي أنشطة وتآمر الحركات الانفصالية والشعوبية في الأمصار وفي مركز الدولة العباسية في بغداد. أغلب تلك الحركات والنزاعات داخل حدود دولة الخلافة كانت تتزعمها عناصر فارسية تحن إلى التاريخ الساساني والدين الزردشتي (المجوسي).

كذلك الخلافات المذهبية التي تفشت وتفاقمت بين صفوف المسلمين والتي كانت للعناصر الفارسية أيضاً الباع الطويل في تأجيجها، كان لها الأثر الكبير تفكك الخلافة العباسية. العناصر الفارسية كانت هي المحرك الأساسي والأكثر تنظيما. بل النخبة الفارسية هي التي تربعت على قيادة وتوجيه أغلب تلك الحركات التي ساهمت في تفتيت الخلافة العربية الإسلامية مثل حركة القرامطة والحركة الإسماعيلية وحركة الحشاشين.

بعد الاجتياح المغولي لبغداد تمزقت دولة الخلافة العربية الإسلامية إلى كيانات متصارعة. وما أن أتم القرن الخامس عشر أعوامه الأخيرة حتى زالت دولة العرب ونشأت على أنقاضها عام 1518 دولة الأتراك العثمانيين، وكذلك قيام الدولة الصفوية عام 1506 في الجزء الشرقي من دولة الخلافة في الهضبة الإيرانية. وقبل ذلك بقليل كان العرب قد خسروا ولاية "غرناطة" وأخرج المسلمون العرب عام 1492 من كل الأرض الأندلسية واحتل الأسبان السواحل العربية في المغرب ووصل البرتغال إلى السواحل العربية في عمان والخليج العربي.

نشأت وتطورت داخل الإمبراطورية العربية العباسية حركات قومية وعرقية تعمل ضد الدولة العربية العباسية، وتعمل على إعادة إحياء لغات وتراث الشعوب المغلوبة. عرفت هذه الحركات السياسية القومية في التاريخ العربي بالحركات "الشعوبية". انشط وأهم تلك الحركات الشعوبية كانت الحركات الأعجمية الفارسية التي جعلت من العداء إلى العنصر العربي من أهم أهدافها السياسية. أهداف تلك الحركات الشعوبية في إحياء الهوية القومية الفارسية تمثلت في إحياء اللغة الفارسية، و إحياء التراث الفارسي والتعصب والعداء ضد العرب والدولة العربية، ومحاربة الدين والتراث الذي جاء به العرب. هذه الأهداف القومية الفارسية سيعاد صياغتها ويصار إلى تبنيها من جديد في مطلع القرن العشرين ليبقى هدف العداء للعرب وتراثهم وتاريخهم من أهم مكونات وأهداف حركة القومية الفارسية المعاصرة.

وحسب استنتاج الفيلسوف والمؤرخ العربي، ابن خلدون، في القرن الرابع عشر، في معرض تشخيصه لظاهرة انحلال الدول، الذي عزاه إلى ضعف العصبية القومية عند الأمم المهيمنة، فإن ضعف وتراجع العصبية القومية العربية كان السبب الثاني في انحلال دولة الخلافة العربية. إن إقدام بعض الأطراف العربية الطامحة في الوصول إلى

السلطة عبر التحالف مع أطراف غير عربية طامحة وراغبة أيضاً في المشاركة في السلطة والاقتراب من دوائر صنع القرار في دولة الخلافة، مهد الطريق لوصول القوى غير العربية إلى مواقع السلطة واتخاذ القرار وإزاحة العرب عن هذه المواقع .

من العوامل الداخلية التي ساهمت إلى حد كبير في إضعاف الدولة العربية الإسلامية هي بالتأكيد الإنشقاقات المذهبية والطائفية والعرقية في صفوف مواطني ورعايا دولة الخلافة. هذه الإنشقاقات، بالإضافة إلى دورها في إضعاف دولة الخلافة العربية، كانت من أهم الأسس التي قامت عليها بعض الإمارات والكيانات السياسية مع استمرار سلطة الخلفاء العباسيين المركزية في بغداد. الدولة الفاطمية في تونس ومصر والشام وكذلك دولة القرامطة في الخليج العربي واليمن والشام هي أمثلة على ذلك.

مرت الخلافة العربية الإسلامية بفترات ضعف وقوة لكنها بكل تأكيد أضافت هذه الخلافة لمخزون التراث البشري نوعاً راقياً من العلوم والثقافة والحضارة بقيم إسلامية سمحة وعربية نبيلة بشهادة معاصريهم وعلماء التاريخ والمجتمع والثقافة والعلوم الرياضية والفيزيائية والكيميائية وغيرها من العلوم في عصرنا الحاضر.

شارك كل أبناء شعوب الخلافة العربية الإسلامية في صنع ملحمة التطور الكبرى التي صنعها العصر العربي الإسلامي بما فيهم أبناء الشعوب الإيرانية والإسلامية الأخرى. وخاصةً الفرس لقرب تجمعاتهم البشرية من مركز وعاصمة الخلافة في بغداد.

كان في الدولة العربية الإسلامية الوزراء والساسة والأدباء والشعراء من الفرس. الفضل وخالد البرمكي كانوا وزراء وقادة في عهد "هارون الرشيد" ومن قبلهم كان "أبو مسلم الخرساني" الذراع الأيمن ل "أبو العباس السفاح" ومن بعده "أبو جعفر المنصور". صحيح أن جميع هؤلاء الوزراء والمستشارين قتلوا من قبل خلفاء بني العباس، لشعورهم بخيانة هؤلاء لهم، لكن ذلك لا يلغي حقيقة وصولهم إلى تلك المناصب الرفيعة في الدولة العباسية. بالإضافة إلى الكتاب والمفكرين والمبدعين العرب كان رهط كبير من عمل في الكتابة والأدب واللغة والفلسفة ممن تحدروا من أصول فارسية وتركية وغيرها من الشعوب التي دخلت في حومة الدين الإسلامي. وهنا لابد من ذكر أن إبداعات هذه النخب جلها كانت في اللغة العربية وبعد ما تعرب لسانها وثقافتها. من عظمة هذه الدولة أنها صهرت في بوتقتها شعوب وأقوام كثر، وفتحت الأبواب لكل ذي علم وطموح.

تفكك دولة العرب
ونشوء الدول والدويلات

بالتوازي مع الحملة المغولية وسقوط بغداد عام 1258 بدأت دولة العرب تتفكك وغاب معها سلطان العرب. وحلت مرحلة من الفوضى السياسية مكان الدولة المركزية العباسية، وأصبحت سرعة صعود واندثار الكيانات السياسية الصغيرة هي من سمات العصر، و تكاثرت الحروب العبثية المدمرة وعمقت الأحقاد. مع بداية القرن السادس عشر كانت تتقاسم دولة الخلافة العربية عدد من الدويلات، كان أهمها الدولة العثمانية والدولة الصفوية. بعد ثلاثة قرون من الفوضى والانفلات الأمني تمكن العثمانيون من السيطرة على الجزء الأكبر من العالم الإسلامي وأصبحت أغلب البلدان العربية خاضعة تحت سلطانهم. استمرت الخلافة العثمانية قائمة مدة أربع قرون حتى سقطت وتم حلها بعد الحرب العالمية الأولى، وأقيم على أنقاضها عام 1924 الجمهورية التركية المعاصرة. وفي الشرق من مناطق الدولة العربية العباسية تمكنت القبائل التركمانية (الصفوية) من إحياء دولة الفرس التي نشأ عنها الكيان السياسي الفارسي عام 1925 ومن ثم عام 1979 الجمهورية الإسلامية الإيرانية الراهنة.

بعد أربعة قرون من حكم الأتراك في أرض العرب كان الانحطاط والجهل والتخلف قد أطبق على سماء المنطقة، وسيطر على عقول الناس الجمود الفكري واضمحلت وزالت كل ظواهر التقدم والحضارة التي نشأت وتطورت في دول العرب قبل سقوطها في القرن الثالث عشر. في دوله بني عثمان سادت ثقافة الأساطير والخرافات، وأصبحت ثقافة الجهل الأداة الأساسية في محاولة فهم الدين والدنيا، واختصرت رغبة تحصيل العلم والمعرفة على حفظ أبيات من الشعر النبطي ومقاطع من الأساطير والروايات الشعبية التي شاع تداولها في الأوساط الشعبية وغير الشعبية. لقد حلت، عبر قرون العصر العثماني، الكتاتيب والزوايا وممارسة التصوف والدروشة وانتشار أصناف الشعوذة وتقديس الأوابد والقبور مكان المدارس والجامعات والبحث الديني والدنيوي في مدن وحواضر السلطنة. عندما هزمت الإمبراطورية العثمانية في الحرب العالمية الأولى كانت المنطقة العربية تعيش في ظلام دامس وجهل متفش وجوع وفقر ثقيل

الظل، أرهق وأزهق أرواح الملايين من المواطنين في المنطقة العربية، ولم يعد هناك أثر يذكر للمدارس ودور العلم في تلك البقاع.

قامت الدول التي ورثت دولة الخلافة العربية على أسس الأبعاد المذهبية و الطائفية . الدولة الصفوية والدولة العثمانية جعلتا من الانتماء إلى أحد المذاهب الإسلامية ضرورة سياسية لا بد منها في مشروع بناء الدولة. إبراز الوجه المذهبي للدولة تجلت حدته في الدولة الصفوية في الهضبة الإيرانية وظل التأكيد على البعد الطائفي في بناء الدولة الإيرانية مستمراً إلى عصر الجمهورية الإسلامية الحالية، التي جعلت من المذهب الشيعي والطائفية السياسية مشروعاً نضالياً وبرنامجاً سياسياً تواجه به خصومها السياسيين في الداخل والخارج. في حين تلاشى وتوقف المشروع الطائفي والمذهبي في بناء الدول في المناطق التي كانت ضمن دولة السلطنة العثمانية بعد هزيمتها وتفككها بعد الحرب العالمية الأولى، استمر المشروع الطائفي في مناطق الدولة الإيرانية. ترك مشروع الطائفية السياسية أثاره الخطيرة على العالم الإسلامي وعلى علاقة إيران بالوطن العربي وبقية دول العالم الإسلامي.

لقد بدأت الدعوة الإسلامية في جزيرة العرب وانتصرت هناك وتطلع قادة الدعوة الإسلامية العرب إلى البلدان العربية الأخرى والتي كانت حتى ذاك الحين ترزح تحت نير الاستعمار الفارسي والروماني. توجهت جيوش الفتح العربي إلى بلاد الشام ومصر والعراق وحققت هذه الجيوش انتصارات باهرة فاقت كل التوقعات والحسابات في سرعة التقدم وسحق الأعداء. خاصة في عصر الخلفاء الراشدين الأول أبو بكر الصديق والثاني الفاروق عمر بن الخطاب. في خلافة عمر التي دامت لفترة عشرة أعوام من عام 632 حتى 642 ميلادية حصلت كبرى حروب الفتح والتحرير. من "القادسية" و"المدائن" و"نهاوند" في العراق وفارس و"اليرموك" وفتح "القدس" في الشام إلى "الفسطاط" في أرض الكنانة مصر. في هذه الفترة الوجيزة حررت مصر والشام والعراق، ووصلت جيوش الفتح العربي تونس وأطراف الهند. في نفس الوقت انكفأت الإمبراطورية الرمانية وتداعت، و انهارت الإمبراطورية الساسانية واندثرت.

عندما كان للبابليين والآشوريين والفينيقيين والمصريين دور في التاريخ كان الفرس لم يتواجدوا بعد على المسرح الحضاري والسياسي للبشرية. وبضعف تلك الإمبراطوريات نزلت القبائل الجائعة من الهضبة الإيرانية الجافة إلى السهول والوديان الخصبة في العراق والشام ووادي النيل. وعندما لملم العرب قواهم من جديد تحت رايات الإسلام كان النصر سهلاً ومبين، وكان الأهل وأبناء العشيرة والعمومة هناك في الانتظار ليوم موعود. أعيد الفرس إلى هضبتهم التي أتوا منها، وهي ديارهم التي استقروا فيها بعد رحيلهم إليها من مناطق القفقاس أو شبه القارة الهندية، وأعيدوا إلى حجمهم السياسي

والحضاري الحقيقي كمجموعة بشرية من أحد مكونات الهضبة إلى الشرق من جبال زغروس..

لم ينسى الفرس هذه الوثبة العربية الصاعقة والمدمرة للكيان الفارسي الساساني المهزوم. أنصب حقد الطبقة السياسية والفئة الدينية، الزردشتية والمزدكية، الفارسية على قادة الفتح الإسلامي العربي، ونال الخلفاء الراشدين، أبا بكر الصديق والفاروق عمر ابن الخطاب، حصة الأسد من هذا الحقد والكراهية الفارسية الدفينين. هذان الصحابيان الجليلان والقادة البواسل، ممن يذكر لهم التاريخ الإسلامي والتاريخ البشري فضلهما ومساهماتهما العظيمة في ترسيخ دعائم الدين الإسلامي، وترسيخ بناء دولة الخلافة الإسلامية، يحتلون في نفوس ملايين المسلمين والمنصفين من غير المسلمين كل الحب والاحترام والتقدير. يشذ عن هذا الإجماع من التقدير والاعتراف التاريخي بأهمية هذين الصحابيين أنصار الفقه الشيعي الصفوي. لهؤلاء القادة وصحابة رسول الله يساء إليهم في الثقافة الفارسية وفي التراث الشيعي الصفوي بشكل مخزي وظالم، وتلفق ضد الخليفة الأول والخليفة الثاني القصص والروايات والأحاديث الكاذبة بقصد الإساءة.

الحضور المؤثر للعناصر
الزردشتية والمزدكية
في الثورة العباسية

فمنذ الأيام الأولى للدولة الإسلامية الناشئة ناصبت الطبقة السياسية والدينية الزردشتية الفارسية هذه الدولة الفتية العداء. فتارة أخذ هذا العداء شكل المواجهة المفتوحة والتي تجلت في ظاهرة الحركات الشعوبية، التي تكاثرت وانتشرت في العصر العباسي الأول، وتارة أخذت الشكل المبطن والمتواري في التحريض على إثارة النزاعات المذهبية في المجتمع العباسي، وقيادة هذه الحركات الإنعزالية داخل الدولة العربية الإسلامية. قبل قدوم العباسيون إلى سدة الحكم ناصبت بعض القوى الفارسية الدولة الأموية العداء، وكانت ترى في شكل وفلسفة الحكم الأموي ضرب من أنواع التعصب القومي العربي، وكانت تتهم الحكام الأمويين بالأبتعاد عن مبدأ الأخوة الإسلامية. هذه الانتقادات للدولة العربية الأموية وجدت لها آذان صاغية وأنصار من بعض القبائل العربية، ومن كثير من المسلمين من القوميات غير العربية .

كان أحفاد العباس وأحفاد أبو طالب، أعمام الرسول الكريم، ومن والاهم من العرب من اكثر الأطراف العربية طموحا في الوصول إلى الحكم والسلطة في دولة الخلافة، والأكثر ونشاطاً وحماساً في العمل على إزالة حكم الأمويين.

تبرعت بعض القبائل الخرسانية في دعم العباسيين والطالبيين في محاولتهم إزالة حكم الأمويين. ونشأ عن هذا الطموح تحالف التيار السياسي العشائري الطالبي والعباسي مع بعض القبائل الفارسية في إقليم خرسان. ومن جهة أخرى استغلت الرموز الزردشتية والمزدكية الصراع المرير بين القبائل العربية القيسية واليمنية الدائر في إقليم خرسان. أثمر تحالف بني العباس مع القيسة والخرسانيين بقيادة أبو مسلم الخرساني عن نجاح الثورة العباسية والقضاء على الدولة الأموية. ونقلت عاصمة الدولة الإسلامية من دمشق إلى بغداد.

وصول العباسيون إلى سدة الحكم في بغداد اعتبرته بعض القبائل الفارسية الخرسانية انتصاراً لها وسعت إلى مشاركة العباسيين في السلطة وفي إدارة الدولة. التحالف العباسي ـ الخرساني السياسي والعسكري قرب عدد كبير من الشخصيات الفارسية من دوائر الحكم، وأوصل في عهد هارون الرشيد عائلة "البرامكة" الفارسية إلى مراكز وزارية في قمة هرم السلطة. لقد أنتها نفوذ عائلة البرامكة بكارثة حقيقية وفاجعة حلت بهم عرفت بالتاريخ العباسي "بنكبة البرامكة"، تلك التي أوقعها هارون الرشيد بوزيره الأول ومستشاره السياسي "خالد برمك" ووالده "يحيى برمك"، بعد أن شعر الخليفة هارون أن عرش العباسيين مهدد من قبل المنظمات السرية الشعوبية. وكاد الموالي الخرسانيين الفرس من إحكام سيطرتهم على مقاليد الحكم في الدولة من خلال نفوذ العائلة البرمكية في بلاط القصر العباسي. الوزير الأول، يحيى برمك وابنه الفضل، اللذان عملا على تجاوز سلطه الخليفة هارون، عملا بجد وحماس على تنظيم حركات سرية فارسية تعمل على تقوية نفوذها داخل الدولة العباسية. كانا بشكل واضح رأس الحربة لتلك الحركات الشعوبية في الدولة العباسية.

جذور العائلة البرمكية كانت فارسية زردشتية. كان مؤسس وجد العائلة البرمكية أحد سدنة المعبد الزردشتي في مدينة "بخارى"، وأعلن إسلامه في زمن الخليفة الراشدي الثالث، عثمان بن عفان رضي الله عنه. لكن العائلة البرمكية لم تتخلى بشكل نهائي عن التراث الديني الساساني الزردشتي، حيث كانت هذه العائلة تحتل مكانة دينية رفيعة في السلم الهرمي للديانة الزردشتية قبل الإسلام. وكلمة "برمك" تتكون من كلمتين فارسيتين وهما "بر" و"مق" واللتان تعنيان بالفارسية "رجل الدين الأعلى"، أو "الإمام الأعلى". وهذه المرتبة الدينية في المؤسسة الدينية الزردشتية (المجوسية) كانت تشكل أعلى سلطة دينية في الدولة الساسانية، وذات نفوذ كبير على السلطة السياسية وعلى الملك في الدولة الساسانية. هذه المكانة الدينية والسياسية التي كان يتمتع بها " بر مق" أو البرمكي، تشابه وتوازي إلى حد كبير سلطة ومكانة المرشد الأعلى وآيات الله العظمى في الدولة الإيرانية الحالية.

حالة البرامكة لم تكن الإستثناء بل كانت هذه الظاهرة في الأزمنة الأولى للإسلام مألوفة. كثير من رجال الدين الزردشتي (المجوسي) الفرس أعلنوا إسلامهم، لكنهم ظلوا يتحينون الفرص للانقضاض على الدولة الإسلامية. من أهم هذه العائلات والشخصيات المعروفة في التاريخ العربي كانت، بالإضافة إلى عائلة "برمك" المعروفة في الأوساط الزردشتية قبل أسلامها، كانت شخصية "أبو مسلم الخرساني". كان والد أبو مسلم الخرساني أحد سدنة بيت النار المقدس في الديانة الزردشتية (المجوسية) في مدين بلخ. و ظل والده مجوسياً حتى مقتلة في زمن آخر خلفاء بني أمية. كان الصبي الشاب حاقداً على الحاكم الأموي الذي قتل أباه وحتى عندما كبر وأعلن اسلامه وغير اسمه إلى أبو

مسلم لم يغفر لمن قتل أباه جريمته وقد أراد الإنتقام على طريقته وقاد الجيوش مساهماًفي تمير دولة بني أمية.

بعد نكبة البرامكة نشطت الحركات السرية في تجمعات الموالي الفرس، وبدأت تنظيمات الحركات الشعوبية التي أشرف على تأسيسها البرامكة تنتشر في بغداد وأمصار الدولة العربية العباسية. كان لتلك النكبة أكبر الأثر في إثارة شجون القومية الفارسية، فعمدت عناصر هذه الحركات إلى تشويه صورة هارون الرشيد ووصفه بأقذع الأوصاف. وشنت حملات التشويه ضد العرب والقومية العربية. لم يسلم رمز من رموز المسلمين العرب من حملات التشويه التي كان يقودها الزردشت والمزدك. النصوص والأشعار التي أنتجتها الحركات الشعوبية في العصر العباسي والتي تحط من قيمة العرب وتحظ على العداء والكراهية للعرب، لازالت تردد وتنشد في دوائر العلم والمعرفة والثقافة، وفي المدارس الإيرانية في أيامنا هذه.

كان "أبو حامد الفردوسي" الذي عاش في نهاية القرن العاشر وبداية القرن الحادي عشر الميلادي من اكثر الشعراء والمؤرخين الفرس تعبيراً عن ثقافة إثارة الأحقاد المجوسية على العرب. صاحب كتاب " شاه نامة" أي "سيرة الملوك" والذي يعتبر مرجع أساسي، بل المرجع الأول للثقافة وللتاريخ السياسي الفارسي على الإطلاق. على الرغم أن الكم الهائل من الأساطير والخرافات التي تحتويه مجلدات "الشاه نامة"، وبإعتراف مؤلف هذه المجلدات، ظلت محتويات هذه المجلدات المرجع والمعين الذي يروي الحلم القومي الفارسي عبر القرون الطويلة. في دور التربية والتعليم الإيرانية، ومن معين ثقافته وتاريخه يشرب ويتربى ملايين التلاميذ والطلاب الإيرانيين وترسم قصورة القومية الفارسية المبنية على تراث الأساطير. يقول الفردوسي في بيتين من الشعر عن العرب

زشير و شتر خوردن و سوسمار عرب را به جايي رسيده است كار

كــه ملك كيـاني كــند آرزو تفو بر تو أي چرخ گردن تــفو

في هذه الأبيات يصف الفردوسي العرب بأنهم ليسوا إلاّ آكلة الضب، فكيف لهم أن يتمنوا الملك و الحكم و المكانة الرفيعة. في ملحمته المطولة، يصب الفردوسي، الذي عاش في القرن العاشر الميلادي، وشاعر الفرس المفضل، جام حقدة على العرب ولم يترك صفة سيئة إلا ويلصقها بالعرب وبثقافتهم وبتراثهم.

لا ينكر المعاصرون الفرس بأن الأدب الفارسي الذي نشأ وتطور في حضن الحركات الشعوبية في العصر العباسي يشكل القاعدة الثقافية الأساسية للأدب الفارسي المعاصر. هذا الأدب الذي أنتج رموز وشخصيات شعوبية "كالفردوسي" ظل محتفظ بمكانته الرفيعة في المناهج التعليمية الرسمية عبر الأجيال. المثقفون والمسؤولون الفرس

يفخرون بمحتويات هذا الأدب العنصري المعادي للعرب، والأغلبية الساحقة منهم تتبنى مضامين هذا الأدب. يؤكد الكاتب الأحوازي والشخصية السياسية المعروفة، صباح الموسوي، في دراسته حول الشعوبية التي نشرت في 28. 4. 2004 استمرار النظام السياسي في إيران تثقيف الأجيال الإيرانية على كره العرب وحسب منهج الفردوسي في الحقد. "وضع الفردوسي ملحمته التي تخلوا من أي شاعرية واسماها الشاهنامه (كتاب سير الملوك) حيث وضع جلها في شتم العرب وتحقيرهم وتمجيد الفرس وملوكهم، وراح العنصريون الفرس يحفظّون أبنائهم ويغذونهم بهذه القصائد وغيرها من الأشعار العدائية."[13]

محمد عياش الكبيسي الكاتب العراقي وعضو هيئة العلماء المسلمين في العراق يحدد أهم أهداف وسلوكيات أعضاء الحركات الشعوبية الفارسية القديمة في كتابة "فقه المقاومة" في أربعة نقاط أساسية:

تصفية قادة الفتح الإسلامي ، حيث تم الانتقام من الخليفة الثاني عمر بن الخطاب ثم الخليفة الثالث عثمان بن عفان ثم الخليفة الرابع علي بن أبي طالب - رضي الله عنهم.

تشويه العرب والحط من شأنهم وتأليب الشعوب الإسلامية الأخرى على العرب ودعوتهم للثأر والانتقام.

وإمعانا في الكيد حاولت الشعوبية أن تربط نفسها بآل بيت النبوة حتى لا يبدو عداؤها للإسلام واضحاً ، ولكي تزيد من الهوة بين الطوائف والمذاهب الإسلامية.

التحالف مع القوى الأجنبية المعادية للإسلام والمسلمين، كتحالف الطوسي وابن العلقمي مع هولاكو والمغول.[14]

لا زالت استراتيجية التعرض للرموز السياسية والثقافية العربية التاريخية والمعاصرة الممنهجة الثابت المستمر في السياسة الإعلامية الرسمية والشعبية الإيرانية. وأصبح من السهل رؤية وملاحظة وجه الشبه والمقارنة بين تصرفات ومبادئ الشعوبية القديمة والشعوبية المعاصرة. نظرة سريعة على تطور الأحداث في العراق ومشاركة القوى والحركات الشعوبية هناك في السعي لتدمير القطر العراقي وتقسيمه والهجوم المنظم على عروبة العراق وهوية شعبه، والنهج الإعلامي الفج المعادي والمشوه لكل ماهو عربي، والتهكم على الرموز التاريخية والثقافية العربية في العراق وفي خارج العراق، والذي تقودة القوى المرتبطة بإيران، تذكر بأدوار مشابهة لتلك التي قامت بها في الأزمنة الغابرة حركات شعوبية في نفس هذا البلد العربي.

---

[13] صباح الموسوي في مقال تحت عنوان (العروبة والعرب في ادبيات الشعوبية) على موقع التجديد العربي على شبكة الإنتر نيت العالمية

[14] قارن الكبيسي محمد عياش ، في فقه المقاومة، على موقع البصرة على شبكة الإنتر نيت العالمية في 17. 5. 2005

صدر في عام 2008 كتاب تحت عنوان "صورة العرب في الأدب الفارسي الحديث"، من إصدارات دار قدمس للنشر والتوزيع في دمشق، وهو كتاب من تأليف الأمريكية جويا بلندل سعد, وترجمه عن الإنجليزية صخر الحاج حسين. في هذا الكتاب تتحدث الكاتبة الأمريكية عن الصور النمطية السلبية عن العرب التي يعتقد بها الكتاب والشعراء الإيرانيون من رجال ونساء في عصرنا الراهن. فالعرب عند هؤلاء المثقفين الفرس هم أكلة سحالي متخلفون وهمج وأقل حضارة من الفرس، والعربي في كتابات وأشعار هؤلاء مخادع، جشع، غشاش. من هؤلاء الأدباء على سبيل المثال: محمد علي جمال زاده، صادق هدايت، صادق جوبك، مهدي أخوان ثالث، ونادر نادربور. والأدبيات الفارسيات: فروغ فرخ زاد، وطاهره صفار زاده ، والروائية سيمين دانشوار. يعلق الناشر الإيراني، ناصر بوربيرار، في مقدمة النسخة الإيرانية، على محتوى الدراسة التي قدمتها الباحثة الأمريكية انتقاداً لاذعاً للمثقفين الإيرانيين في عدائهم للعرب بالقول: "هذا الكتاب يوضح لنا مدى ارتباك مثقفينا في تبيين هويتنا القومية ويبحث عن فجاجة معاداة العرب المنتشرة والتي أصابت تقريبا كل الأدب الإيراني المعاصر بالاعتلال ونخرته حتى مستوياته العالية." [15]

المقارنة بين الصور النمطية عن العرب التي كانت سائدة عند النخبة المثقفة الفارسية في العصور الغابرة مع تلك الصور النمطية السائدة عند المثقفين الفرس والإيرانيين المعاصرين وعند أغلبية جموع الجماهير في الدولة الإيرانية لا بد من أن يلحظ المرأ وجه التماثل حتى التطابق في هذه المعتقدات. فالمنتج الثقافي الإيراني المعاصر تم، وبشكل نمطي وممنهج، استنساخه من التراث الفارسي الذي نشأ وتكون من جديد في القرون الأولى للخلافة العربية والحضارة العربية الإسلامية على شكل الحركات الشعوبية المبكرة.

[15] موقع العربية على الإنتر نيت في 21. 7. 2008 . جويا بلندل سعد، صورة العرب في الأدب الفارسي الحديث، وترجمه عن الإنجليزية صخر الحاج حسين، دار قدمس للنشر والتوزيع في دمشق عام 2008 .

الدولة الفارسية الصفوية

سيطرت العناصر الفارسية والتركية قي السنين الأخيرة من عمر الدولة العربية الإسلامية على أجهزة دولة الخلافة، وعلى وجهه الخصوص على مؤسسة الجيش في الدولة. كان نفوذ العنصر التركي في جيش الخلافة المنتشر في الولايات والأمصار خلال القرن الخامس عشر هو الطاغي و البارز في العدد والنفوذ. هذا الواقع مهد الطريق لجيوش سلطنة آل عثمان الناشئة في الأناضول من اجتياح المناطق العربية في سوريا بعد معركة "مرج دابق" عام1517 و بعد معركة الفسطاط عام 1518 في مصر، ومهدت الطريق لحكام سلطنة آل عثمان للسيطرة على تلك البلدان. وفي نفس السياق كانت قبل أعوام قليلة من هذه الأحداث القبائل التركمانية قد تمكنت في القسم الشرقي من دولة الخلافة العربية من بسط سيطرتها في عام 1505 بقيادة إسماعيل الصفوي على الهضبة الإيرانية والبدء في إنشاء الدولة الصفوية هناك.

في عصر الانحطاط نشأت وتكاثرت في القرنين الرابع عشر والخامس عشر المدارس والطرق الصوفية التي نحت بالمؤمنين منحاً بعيداً عن أصول وجوهر الدين الإسلامي وتعاليمه. الانحطاط شمل كل نواحي الحياة وطال أيضاً كيفية فهم الدين الإسلامي وفهم النصوص والفرائص وممارسة العبادات. الدخول في عصر التخلف والانحطاط خيم لحقب طويلة على الحياة السياسية والاجتماعية والثقافية والدينية للمجتمعات الإسلامية. هذا التطور السلبي الذي أصاب الشعوب الإسلامية يعود لأسباب عدة. أهم تلك الأسباب كانت انحلال شكل الدولة وسلطة الدولة المركزية وانتشار ظاهرة الحروب بين حكام الولايات والأمصار. الحروب العبثية المستمرة بين الزعامات المحلية والمناطقية ألحقت الضرر الكبير في المجتمعات الإسلامية وخلفت الجوع والفقر وأدت إلى انتشار الجهل والتخلف الفكري بين الناس، واغلق أبواب المعرفة والعلم في وجه أغلبية الناس. لقد أغلقت كثير من أبواب المعرفة في الدين وأصوله وتناقص عدد الفقهاء والعارفين في شؤون الدين والدنيا، مما أفسح المجال أمام أنصاف وأشباه الشيوخ والأئمة، الذين عملوا على كسب الأنصار والمريدين عن طريق تعليم هؤلاء الأشياع والمريدين والأتباع مفاهيم دينية محشوة بالخرافات والأساطير وبعيدة كل البعد عن الدين الإسلامي الحنيف

وأصوله. ادخل هؤلاء الشيوخ وأشباه الفقهاء ممارسات غريبة وسطحية في العبادة كانت في صدر الإسلام وعصور النهضة والتنوير غير مألوفة. في التعبد وممارسة شعائر الدين الإسلامي أدخلت بقصد أو غير قصد شعائر وممارسات دينية مقتبسة من شعائر وعبادات الشعوب من عصور سبقت انتشار الدين الإسلامي. استعاضت هذه القيادات الدينية الجاهلة في أصول الدين والدنيا بمجموعة من الرموز والإشارات والحركات المبهمة للتغطية على عجزها في فهم الدين وأصوله. لقد حلت ما عرف في التراث الإسلامي "الطرق" و"الزوايا" والتقليد مكان السنة النبوية والمدارس الفقهية. أكثر المناطق التي تكاثرت فيها هذه الطرق والزوايا هي المناطق البعيدة عن المدن الأساسية ومراكز الحضارة الإسلامية و في مناطق الشعوب التي بقي انتشار اللغة العربية بين صفوف أبنائها محدوداً. فهم اللغة العربية ظل شرطاً أساسيا لفهم الإسلام واستيعاب نصوص القرآن الكريم.

بعد سقوط عاصمة دولة الخلافة بغداد كان انتشار الطرق والجماعات الدينية والفلسفية في أطراف العالم الإسلامي هي السمة البارزة والشكل الطاغي في الحضور الديني وممارسة العبادات. تشكلت بين القبائل التركية في الأناضول وجنوب "بحر قزوين" عدد من تلك الفرق والجماعات الدينية. أحد تلك المجموعات كانت فرقة "القزل باش" (الطرابيش الحمر). أسست هذه الفرقة في القرن الرابع عشر من قبل داعية دينية تركي اسمه الشيخ صفي الدين الأردبيلي. نشأة هذه الفرقة الدينية كانت إسلامية سنية المذهب تقدس الأولياء والصالحين وتغالي بدور الأئمة والولاء والتقرب منهم وتمارس العبادة عند اتباع هذه الفرقة بطقوس وقواعد وفرائض تشكل مزيج بين الموروث الثقافي لشعوب تلك المنطقة مع قواعد وفروض من تعاليم الدين الإسلامي.

استولى الحفيد السادس لمؤسس هذه الطريقة "إسماعيل الصفوي" عام 1502 على السلطة في "تبريز"، أحد المدن في الأناضول الشرقية أو الهضبة الإيرانية حالياً. تحت اعتبارات سياسية غيرت فرقة القزل باش اتجاهاتها المذهبية من المذهب السني إلى المذهب الشيعي بعد أن اصبحوا في مركز قيادة إمارة مركزها مدينة تبريز. لقد غير القائمون على الفرقة الدينية اسم الفرقة والتحول في الولاء من مذهب إلى مذهب آخر لكن المضامين الحقيقية التي بنيت عليها هذه الفرقة بقيت قائمة ومستمرة في تعاليم وممارسات الأتباع الدينية والمغالاة في التبعية للإمام والقائد والخروج عن المألوف في ممارسة الطقوس الدينية. "أما القزلباشية (أو ذوي الطاقية الحمراء) فقد بدأت كحركة تفرعت من البكداشية الصوفية التابعة للدولة العثمانية (السنية) ليحولها "حميد بن جنيد بن إبراهيم بن صفي الدين"، والد الشاه إسماعيل الصفوي، من حركة صوفية بحيثيات باطنية إلى حركة سياسية طائفية متطرفة ومغالية في معتقداتها وفي تأويلها الباطنية، متعصبة في الولاء للقائد أو الوالي أو المرجع إلى درجة التقديس والعبادة، وإلى هذه

الحركة ترجع معتقدات التقديس المفرط للمراجع الدينية الشيعية، خلافاً للمنظور الجعفري."[16]

تغير عنوان المذهب حيث اصبح شيعياً لكن بقي المضمون الشكلي والسطحي للدين، وكذلك المغالاة في التعامل مع الرمزية في فهم الدين بقيت الصفة السائدة، وممارسة العبادات في التركيز على المظاهر الشكلية ظلت مرافقة للمراسيم الدينية ايضاً. وأضيف إلى هذا الشكل المغالي في الرمزية في العبادة صفة المغالاة في حب آل البيت والإمام علي كرم الله وجهه.

هاتان الصفتان في المغالاة في الرمزية ومراسيم الاحتفالات الدينية، والمغالاة في حب آل البيت بقيتا ملازمتان للمذهب الشيعي الصفوي إلى يومنا هذا. احتفالات عاشورا هي من أوضح الأمثلة على الإرث الصفوي في المراسيم الدينية عند الشيعة.

التشيع الصفوي السائد في إيران و"الحوزات العلمية" الدينية في مدن قم ومشهد وغيرهما من المراكز الدينية الصفوية الاتجاه لا زالت تعبر بوضوح عن استمرارية هيمنة هاتين الصفتين وتجد إسقاطاتها في الأدبيات، والعبادات، والممارسات الدينية، وتشكل أهم العلامات لفلسفة التيار الديني الشيعي الصفوي، أو المعروف "بالتشيع الصفوي" و " التشيع العجمي"، الذي اخذ اسمه من اسم مؤسسه الشيخ "صفي الدين" . وهو يتميز في كثير من أركانه الأساسية عن "التشيع الجعفري" والمعروف أيضاً "بالتشيع العربي".

على الرغم من أن الصفويين هم من القبائل التركمانية وأبناء عمومة للعثمانيين الأتراك وكانوا أيضا مسلمون سنة مثل أبناء عمومتهم العثمانيون لكنهم اختاروا التحول وتبني المذهب الشيعي والتعصب له لتمييز أنفسهم كأسلوب من أساليب صراعهم السياسي على السلطة وعلى النفوذ مع نظرائهم العثمانيين، وكأداة من أدوات تعبئة الأنصار والمريدين في صفوفهم وإلى جانبهم.

وكان لهذا التشيع مبرراته السياسية فحسب. حيث أراد مقاومة الدولة العثمانية وتثبيت سلطانه بخلق فروق وحدود بين المناطق التي سيطرت عليها الجيوش الصفوية والمناطق التي سيطرت عليها الجيوش العثمانية. هذا التنافس بين القبائل التركية المحاربة تمخض عنة قيام دولتين متجاورتين على أنقاض الدولة العربية الإسلامية لعب الاختلاف المذهبي فيما بينهما أحد العناصر المكونة للكيان السياسي القائم ويؤكد مشروعية استمراره.

كانت أغلبية الشعوب الإيرانية في عهد الخلفاء الأمويين والعباسيين وحتى قدوم الصفويين على السلطة تتبع المذاهب السنية. حتى في السنين الأولى لحكم الصفويين

[16] سميرة رجب، البحرين، موقع المحرر على شبكة الإنتر نيت

بقيت اغلبية الشعوب الإيرانية تعتقد بالدين الإسلامي السني وشافعية المذهب. لكن سياسة الحديد والنار والبطش التي مارسها الحكام الصفويون ضد أبناء الشعب من السنة أجبرت الناس على تغيير مذاهبها واتباع المذهب الشيعي، أي مذهب السلطة تجنباً للقتل الذي يتهددهم باستمرار. على وجه الخصوص في عهد الشاه عباس، الشاه الخامس من السلالة الصفوية، الذي اتصف عهده بالدموية المنفلتة، وتطبيق سياسة الإبادة الجماعية التي اقترفها جيشه بحق قبائل ومدن وقرى لم تستجيب لدعواته في التشيع. وتم في عهده تعميم المذهب الشيعي الصفوي كدين للشعب والدولة في إيران والمناطق المجاورة لإيران.

الشاه عباس غزا أيضا العراق ودخل بغداد عام 1623 م وقتل فيها قرابة ال 75 ألف مواطن. وغزا في عام 1624 م الخليج العربي وعمان واليمن، وهو في التاريخ الإيراني المكتوب بطل من أبطال التاريخ الإيراني، تحرس الحكومات الإيرانية المتعاقبة على ابراز دوره في قهر العرب في حقبة من حقب الزمن الغابر. الشاه عباس الصفوي يعرف في التاريخ الفارسي و التاريخ الإيراني "بعباس الكبير" تقديراً منهم لدوره في أعمال المذابح والدمار التي أشاعها في ديار العرب أثناء فترة حكمة القاتمة السواد، والتي يخجل من ذكرها بعض المنصفين من الفرس والإيرانيين.

خلال الفترة الأولى من الحكم الصفوي في إيران جلب عدد كبير من الشيوخ والعلماء الشيعة العرب من العراق وجبل عامل في جنوب لبنان إلى إيران، بقصد تعليم الرعية مبادئ المذهب الشيعي الدينية الجديد عليهم. هذا التشيع الصفوي اصبح مذهباً دينياً خاصاً بهم وعنصراً من عناصر مكونات الدولة والقومية الفارسية، وعاملاً يستعمل لخدمة الوطنية الإيرانية والمحافظة على الكيان السياسي الإيراني من خطر الذوبان والإندماج بالثقافة وحتى الأمة العربية. يعتر مثقفي الفرس المذهب الشيعي الصفوي القلعة الرئيسة التي تنتصب أمام نفوذ الثقافة العربية.

البعد المذهبي

منذ أن أجبرت الشعوب الإيرانية بحد السيف على اتباع مذهب الحكام الصفويين وترك المذهب السني الشافعي، الذي كانت الشعوب الإيرانية تتبعه قبل قدوم الصفويين إلى سدة الحكم، ظل التشيع هو العمود الفقري الجامع للدولة الفارسية ومن بعدها الدولة الإيرانية. كان التمايز المذهبي أحد أوجه الصراع السياسي الذي كان يدور بين الدولة الصفوية والدولة العثمانية الجارتين لزمن زاد عن الأربعة قرون. كانت ورقة الطائفية أحد العناصر الأساسية في تعبئة الجماهير خلف الحاكم والحكومة في كلتا الدولتين الجارتين. أغلب الشعوب العربية كانت حتى عام 1918 جزء من الدولة العثمانية. لقد أحدث هذا الإنشقاق السياسي ـ المذهبي في العالم الإسلامي آثار مأساوية لازالت فصوله تتفاعل.

لقد ورثت العلاقات العربية ـ الإيرانية أحد أبعاد الصراع من الحقبة التي ساد فيه التنافس بين الصفويين الشيعة والعثمانيين السنة. في حين أن الدول العربية والشعوب العربية بأغلبيتها المسلمة تركت عامل الانتماء للمذهب والانتماء للطائفة منذ عهود الاستقلال جانباً ولم تعطي النخب العربية أي وزن للانتماءات المذهبية والطائفية. لكن النخبة الإيرانية ونظام الدولة الإيرانية بقيت متمسكة بالهوية المذهبية كمكون أساسي للثقافة والفكر والتراث في المجتمعات الإيرانية ومؤسسات الدولة. ظل الفكر الصفوي لمفهوم الدولة والدين والمذهب هو السائد ويشكل البناء الفوقي في المجتمعات الإيرانية والأجيال الإيرانية المتعاقبة وأصبحت الهوية القومية الفارسية مرتبطة ارتباطاً وثيقاً بالهوية المذهبية الشيعية.

لا يتوقف مفهوم التشيع الإيراني عند حدود الإعجاب بالخليفة الراشدي الرابع الإمام علي بن أبي طالب كرم الله وجهه وحب أحفاده وآل بيته. هذا الحب والتقدير للخليفة علي بن أبي طالب وآل بيته، كما هو معروف، لا يختلف عليه اثنان من المسلمين في أرجاء المعمورة وعبر الأجيال الإسلامية المتعاقبة، بل يتعدى ذلك في الفكر المذهبي الصفوي إلى نفي التاريخ الإسلامي برمته، وعدم الاعتراف بالآخر، ونفي شرعيته الحضارية والتاريخية، ومحاربة هذه الشرعية. فالفهم التاريخي الإيراني الشيعي لا يعترف بشرعية عصر الخلفاء الراشدين، الأول والثاني والثالث، أبو بكر وعمر وعثمان رضي الله

عنهم. والشيعة الإيرانيون لا يعترفون بالحقبة الأموية برمتها، والتي دامت 89 عاماً، وأيضا يطعنون في مجمل عصر الخلافة العباسية التي دامت خمسة مائة عاماً متواصلة دون انقطاع. والشيعة الصفوية كانت الند والعدو السياسي والعدو المذهبي للدولة العثمانية ومسلمي الدولة العثمانية. ولازالت الدولة الإيرانية والقائمين على الدوائر الحكومية والدوائر الدينية يناصبون بقية المسلمين العداء.

تقر الشيعة الصفوية في فهم التاريخ وتطوره فقط بشرعية الأعوام العشرة من قيادة الرسول صلى الله عليه وسلم من بعد الهجرة حتى وفاته في عام 632 م مضافاً إليها الأعوام الأربعة ونصف العام من قيادة الخليفة الرابع علي بن أبي طالب رضي الله عنه للدولة الإسلامية.

جل التاريخ العربي الإسلامي عند الشيعة الصفوية غير شرعي. هذا التاريخ الذي دام تسعة قرون متواصلة حتى سقطت الشام ومصر بيد العثمانيين عام 1517 م وأربعة قرون عثمانية عند الصفوية في إيران ظلت غير غير شرعي وغير معترف بصيرورته التاريخية.

كل ما ترتب عن صيرورة هذه الحقب الزمنية الطويلة من عمر الإسلام السياسي والإسلام الثقافي والحضاري غير شرعي وباطل غير معترف بنتائجه عند ورثة الفكر الديني والسياسي الصفوي. من كل هذه القرون وتلك الحضارة العملاقة، والتي غيرت وجه التاريخ ووصلت بإشعاعها من نور العلم والمعرفة كل بقاع الأرض، يعترف الصفويون وأتباعهم، من تلك القرون الطويلة فقط بأربعة عشر عاماً ونصف العام. وينكر الصفويون الفرس كل ما ترتب عن مسيرة الدولة العربية الإسلامية والدولة العثمانية من نتائج.

التوعية والتثقيف حول التاريخ ومعرفة التراث يرتكز في الثقافة الفارسية على تسخيف وتقبيح التاريخ العربي الإسلامي المجيد. متواريةً خلف أغطية ومبررات دينية مذهبية واهية. تربت أجيال متعاقبة في بوتقة الدولة الصفوية الفارسية على رفض جل التاريخ الإسلامي العربي وغير العربي. المس بكل ما أنتجته الحضارة العربية من ثقافة وأدب، والتطاول على الرموز التاريخية وقادة الفتح العربي الإسلامي، واستحضار مقولات وأحاديث مزيفة عن التاريخ الإسلامي والرموز الإسلامية العربية، ظل المحور العام والناظم العام في اطروحات المدرسة الصفوية للتاريخ حتى يومنا الحاضر.

ينقل الكاتب الأحوازي صباح الموسوي مقولات متداولة على ألسنة قادة الفرس الدينيين:

عمر بشكست بشت هجبران عجم را برباد فنا داد رگ وريش جم را

اين عربده وخصم خلافة زعلي نسيت با آل عمر كينه قديم أست عجم را

وترجمتها : أن هذا الصراع والعداوة ليس دفاعا عن حق علي في الخلافة، لكنها البغضاء والعداوة لعمر الذي كسر ظهر العجم وهد حضارتهم." ويضيف الموسوي مؤكداً ما توصل اليه من نتائج في دراسة الأدب الفارسي،

"ومن الكتب الأخرى التي وضعت في هذا الشأن كتاب "مفاتيح الجنان" لصاحبه عباس القمي وهو أيضا الكتاب ذو التوجه الشعوبي المحُمل بالسباب والطعن بصحابة النبي (صلعم) والعرب عامة وذلك كله بحجة الدفاع عن أهل البيت."[17]

تحت غطاء ديني ومبررات فقهية، في غالبها جانبية وسطحية وليست من أساسيات الدين والتشريع، استطاع الفرس اختراق المجتمعات العربية وكسب أفراد وفئات عربية إلى دعواتهم وتأويلاتهم الدينية، في تبني الأطروحة الفارسية للتاريخ، التي تنفي شرعية التاريخ الإسلامي والتاريخ العربي، بحجة أن خلفائه وقادة هذا التاريخ ليسو من آل البيت ولم يكونوا من اتباع الإسلام "الصحيح".

الإساءة والتهكم على الخلفاء الراشدين، وصحابة الرسول عليه الصلاة والسلام، ووصفهم بأبذأ الأوصاف التي يندى لها الجبين، والتي لا تنم عن أخلاق إسلامية. والتهكم على الصحابة والإساءة لسيرتهم المشرفة أصبحت في التشيع الإيراني الصفوي جزء أساسي من مراسيم العبادة عند "المؤمنين" منهم. الاحتفال سنوياً بمقتل الخليفة الفاروق عمر بن الخطاب أصبحت من المميزات والمراسيم البارزة في المذهب الشيعي الصفوي المنتشر في إيران. والتقدير الذي يصل إلى حد تقديس "أبو لؤلؤة المجوسي"، قاتل الخليفة عمر بن الخطاب، يظهر الحقد القومي الفارسي والذي لبس رداءاً دينياً شيعياً.

"أثارت مناقشات مؤتمر الحوار بين المذاهب الإسلامية الذي شهدته العاصمة القطرية الدوحة السبت 20 – 1 – 2007 وحضرها علماء كبار من المذهبين السني والشيعي، عدة قضايا مثيرة للجدل. من أهمها دعوة قدمت من أعضاء المؤتمر موجهة إلى المراجع الشيعية الإيرانية لإزالة مشهد ومزار لقبر قاتل أمير المؤمنين عمر بن الخطاب، أبو لؤلوة المجوسي، المقام في مدينة كاشان بإيران. فقد وصفه البعض بأنه مبنى فخم له قبة عالية ومقام على قبر وهمي، يحمل اسم "مرقد بابا شجاع الدين أبو لؤلؤة فيروز"، ويزوره بعض الناس في ما يسمى "عيد فرحة الزهراء"، الذي يمثل عندهم ذكرى قتل أمير المؤمنين عمر بن الخطاب. آية الله محمد علي تسخيري رئيس مجمع التقريب بين المذاهب في طهران، والذي كان على رأس الوفد الإيراني الذي حضر المؤتمر، سخر من إثارة هذا الموضوع ووصفه بالسخافة. وقال في حوار مع "العربية.نت" إن أبا لؤلؤة رجل مجرم أقيم عليه الحد في المدينة المنورة ودفن فيها ولم

[17] صباح الموسوي، موقع إيلاف في 21. 3. 2006 .

تنقل جثته إلى إيران، والقبر الموجود في كاشان، مجرد مكان وهمي ليس له اعتبار ولا يزوره أحد."[18] الصحيح أن هذا القبر وهمي لكن الصحيح أيضاً أن هذا القبر أصبح مزاراً لألاف الناس في دولة إيران وتمت المحافظة على هذا المزار عبر مئات السنين ولازالت سلطات الدولة الإسلامية في إيران ترعى وتحافظ على قدسية هذا المكان عند زواره الكثر.

أغلب الفقهاء والمفكرين يعزون التحامل الفارسي والصفوي، والتحريض على الخليفة أبو بكر والخليفة عمر رضي الله عنهما، ينم على خلفية قومية عنصرية فارسية، تهدف بالدرجة الأولى، إلى الإساءة للدين الإسلامي وتحريف هذا الدين الحنيف من خلال خلق البلبلة والشكوك حول الرموز الدينية والسياسية التاريخية لهذا الدين العظيم، وصحابة الرسول الكريم رضي الله عنهم جميعاً. هؤلاء الصحابة الذي تحت قيادتهم وإشرافهم بنيت دعائم الدولة الإسلامية العتيدة، وحمي الدين الإسلامي من الضياع، ووصل الإسلام تحت راياتهم إلى كل أصقاع الأرض، ودخلت الأمم والشعوب في دين الله أفواجا، وحطمت الأصنام، وهدمت عروش الطواغيت والمتجبرين.

شكل نهج سياسة الحكام الإيرانيين، منذ عهد الصفويين إلى يومنا الحاضر، في التحريض على استعداء المذاهب الإسلامية الأخرى، ظاهرة عدوانية تأصلت في سيكولوجيا المجتمعات الإيرانية. نجح المنظرون الدينيون الفرس بتقديم مذهب الإمام جعفر الصادق كبديل لبقية المذاهب الإسلامية، وكبديل للدين الإسلامي برمته، وليس كمذهب متمم لبقية المذاهب الإسلامية في توضيح الدين للرعية. في كل طقس من طقوس العبادة في المذهب الصفوي تبرز صفة الحرب والعداء لبقية المسلمين. وتبرز نبرة الانتقام من الأجيال الإسلامية التي خلقت وعاشت بعد عدة قرون من موت أطراف الصراع السياسي الأول. وأصبح الوعي بتعريف الهوية المذهبية والميول الطائفية عند الفرد الشيعي، مع مرور الزمن، يوازي ويساوي حتمية العداء لأبناء المسلمين من أتباع المذاهب الإسلامية الأخرى. إنها مفارقة تبعث على التساؤل: يتعايش الفكر الصفوي مع الديانة اليهودية والمسيحية والمجوسية ومع ديانات أخرى منقرضة لكنه يظهر كل التشدد والعداء لبقية المسلمين في العالم !

هذه الظاهرة الشاذة في العالم الإسلامي بالسعي الدائم لخلق التوترات، مع اخوة الدين والتاريخ المشترك، يكتشف تفسيرها في المحاولات الدأوبة والمحمومة في ربط الهوية القومية الفارسية بمذهب ديني بعينه. والأسس الأولى التي قامت عليها الدولة الصفوية لازال هي الأسس والمسوغات التي تبرر إقامة الدولة الإيرانية الحالية وتبرر استمرارها.

---

[18] العربية - نيت في 24. 1. 2007 .

الرغبة الدائمة عند الإيرانيين في عدم إشراك قوى ودول أخرى في قيادة المسلمين الشيعة في العالم، والعمل المحموم على طمس القيادات غير الإيرانية التي تبرز بين الفينة والأخرى، هي من المسلمات الأساسية في السياسة الإيرانية المعهودة والمستمرة.

على الرغم من أن اغلب المواقع والأضرحة المقدسة عند المسلمين الشيعة لا تتواجد داخل الأراض الإيرانية، بل جلها، ولأسباب تاريخية، تقع داخل الأراض العراقية، في النجف وكربلاء وبغداد وسامراء، عملت ولازالت الحكومات الإيرانية المتعاقبة على خلق بدائل دينية وهمية لتقديسها عند الشيعة داخل أراضي الدولة الإيرانية مثل مدينة قم ومدينة مشهد الإيرانيتين. "ومما جعل صعود قم ممكناً تحويل الأموال الإيرانية كذلك إلى هذه المدينة فضلاً عن مدينة مشهد، على حساب النجف وكربلاء . وهي سياسة حرض على اتباعها رضا شاه منذ أواخر العشرينات."[19] هذا البعد الطائفي جيير واستعمل ولا زال يستعمل من قبل الحكومات الإيرانية المتعاقبة لتحقيق أهداف سياسية وبدوافع قومية فارسية على حساب دول الجوار وفي المقدمة منها دول الجوار العربي. الإصرار الإيراني على وحدانية تمثيل الشيعة في العالم لا يدل على شدة حرص على استمرارية المذهب الشيعي ومصالح الشيعة في العالم وفي إيران ذاتها بقدر ما يدل على مصالح قومية فارسية ضيقة تصل إلى حد التضحية بمن تدعي تمثيلهم والدفاع عنهم وعن مصالحهم من جماهير الشيعة.

كيف يفسر إذا اضطهاد الشيعة العرب في إقليم الأحواز(عربستان) لأكثر من ثمانين عاماً هي فترة الاحتلال الفارسي لتلك الإمارة العربية ومنعهم من تعلم لغتهم العربية، لغة القرآن الكريم، واللغة الأم لكل الأئمة الشيعة أحفاد الإمام علي بن أبي طالب رضي الله عنهم. وما السر في إصرار القيادات الفارسية عند الأقليات الشيعية في كل من العراق والبحرين والكويت على اتخاذ مواقف سياسية تمس بسيادة الأوطان ومصالح شعوب هذه البلدان. تلك السياسات والمواقف التي وضعت الأقليات الشيعية في أكثر من زمان في موقع تهمة خيانة الأوطان والعمالة لإيران. من المفيد التطرق لنشأة المذاهب في الإسلام وعلاقة هذه النشأة بالحركات السياسية والقومية في صدر الإسلام.

---

[19] اسحاق النقاش،شيعة العراق، ترجمة عبد الإله النعيمي، دار المدى للثقافة والنشرة، الطبعة العربية الأولى 1996 باريس صفحة 460 .

نشأة وتطور المدارس الفقهية في الإسلام
(المذاهب)

في بداية القرن الثاني الهجري الثامن الميلادي نشطت الحركة الفكرية في دولة الخلافة الإسلامية العربية على أكثر من صعيد. نشطت الحركة الفكرية في الكتابة والنشر، في التأليف والترجمة والشعر والأدب والموسيقى واللغة، وأيضاً في جمع الأحاديث النبوية الشريفة وتفسيرها، وجمع سير الصحابة وتجاربهم. في تلك الحقبة من الزمن كانت الحاجة إلى جمع الأحاديث الشريفة وجمع التراث الإسلامي، ووضع قواعد لتفسير الأحاديث والآيات الكريمة التي تحتاج إلى إيضاح، خلف حركة الاجتهاد والتفسير ونشأة المذاهب. عدة أسباب موضوعية مرتبطة في التطور الاجتماعي والسياسي العام للمجتمعات الإسلامية ساهمت في نشأت المذاهب الإسلامية. أهم هذه الأسباب تجمل بالتالي:

لطول الفترة الزمنية التي تجاوزت المائة عام من موت الرسول الكريم وموت أغلب الصحابة رضوان الله عليهم نشأت معضلة التحقق من صحة الأحاديث المنسوبة للرسول الكريم. لقد حددت قواعد في عملية جمع الحديث والتأكد من صحة الحديث المنسوب إلى الرسول. حدث اختلاف بين الأئمة والفقهاء حول تحديد الأسس والشروط التي يجب أن تتوفر في النص وتتوفر في الرواة وتحكيم العقل والمنطق، من حيث المكان والزمان، حتى يتم الإقرار في صحة الحديث من عدمه.

الجانب الأخر المهم الذي حدث التمايز والاختلاف حوله بين العلماء والفقهاء في الدين الإسلامي ليست فقط الشروط والقواعد الخارجية وإنما كان الاختلاف والتباين بما "ذهب إليه" الأئمة والمشرعين في تفسير الأحاديث وتأويلها، وشرح الفروض والسنن في العبادات. فمنهم من كان متشدداً، ومنهم من كان ليبيناً في تفسير نص من النصوص الدينية، وفي ممارسة فريضة من الفرائض وسنة من السنن، وفقيه آخر أخذ منحاً متوسطاً في تشريعه في مسألة فقهية ما.

عندما كان المسلمون يواجهون صعوبة في فهم آية كريمة، أو صعوبة في فهم أو تفسير حديث من الأحاديث الشريفة كانوا يستعينون في ما ذهب في فهمه وشرحه هذا الإمام أو ذاك العالم والفقيه.

ظهر في مجالات العلوم الدينية من العلم والمعرفة عدد كبير من الفقهاء والعلماء، ممن أدلى بدلوه في هذا المجال وممن لازال الفقه الإسلامي يحتفظ بأسمائهم وأعمالهم الجليلة. من هؤلاء الفقهاء كان الشيخ حسن البصري، الشيخ أبو حنيفة النعمان، الشيخ سفيان الثوري، الشيخ أنس بن مالك، الشيخ محمد بن إدريس الشافعي، الشيخ أبو عمرو الأوزاعي، الشيخ أحمد بن حنبل، الشيخ جعفر بن محمد (الصادق) وكثير غيرهم. لكن خمسة من هؤلاء العلماء تكونت لهم مدارس فقهية وصار لهم اتباع ومريدين، يذهبون مذهبهم في الفقه والاجتهاد والتفسير. من هنا جاءت كلمة مذاهب لتدل على الأخذ برأي أو اتباع رأي هذا الإمام العالم في قضية ما، أو شرح لنص قرآني وحديث شريف. اختلف الفقهاء في كيفية فهم تلك النصوص الدينية، وفي المستجدات الحياتية الجديدة والغامضة التفسير. لكن ظل هؤلاء العلماء والفقهاء على انسجام وتوافق مع أصول الدين وقواعده الأساسية. حول قواعد وأصول الدين والعبادات ظل الإتفاق والتوافق بين العلماء والأتباع هو سيد الموقف.

استقر الفقه الإسلامي على خمسة "مذاهب" (مدارس) فقهية. هذه المذاهب أخذت أسمائها من أسماء علمائها وفقهائها في الدين الإسلامي. المدارس الفقهية في الدين الإسلامية هي:

مذهب الأحناف من أبو حنيفة النعمان (80 - 150 ه) (699 - 767 م)

مذهب الجعفرية من جعفر بن محمد (جعفر الصادق) (80 - 148 ه) (699-765 م)

مذهب المالكية من أنس بن مالك (93 - 179 ه) (712 - 795 م)

مذهب الحنبلية من أحمد بن حنبل (146 - 241 ه) أو (780 - 855 م)

مذهب الشافعية من محمد بن إدريس الشافعي (150-204 ه) (767-820 م)

المسلمون ليسو ملزمون بالأخذ بأي من أراء وتفاسير هؤلاء الأئمة والعلماء. المسلم مخير بين الأخذ أو عدم الأخذ برأي أو"بما ذهب إليه" هذا العالم أو ذاك، وكذلك بعدم الأخذ بأي رأي ومذهب من تلك الآراء والمذاهب. فمهمة هؤلاء العلماء وتلك المدارس مساعدة المؤمنين على فهم شؤون دينهم لا غير. إن شاء المسلم أن يأخذ برأيه وفهمه الذاتي، إذا ما شعر أنه قادر على إدراك النصوص ومقاصدها ودون الرجوع لمشرع أو مجتهد وعالم، فهو جائز ولا ينتقص من إيمان الفرد عند الخالق شيئاً. "فالإسلام هو دين الفطرة" وينسجم مع طبائع البشر.

قال أبو حنيفة: "هذا الذي نحن فيه رأي، لا نجبر أحد عليه. إنه أحسن ما قدرنا عليه، ومن جاءنا بشيء أحسن منه قبلناه."

توحد المسلمون حول أصول الدين وأسسه، لكنهم اختلفوا حول الفروع. توحد المسلمون في فهم أدوار الأئمة في جمع الحديث وتفسير هذه الأحاديث الشريفة، وكذلك تفسير الآيات القرآنية الكريمة، كأعلام فقهية تساعد المؤمنين على فهم دينهم، وترشيد أساليب العبادة لمن لم تسعفه ظروف الحياة تعلم القراءة والكتابة. هؤلاء الأئمة الأجلاء وجهودهم المشكورة، بقيت عند الأغلبية الساحقة من المسلمين، مراجع فقهية يعود إليها المؤمنون كلما شعر المؤمن بالحاجة إلى حل لمعضلة دينية وتعبدية عجز بمفردة على حلها والتغلب عليها.

مع مرور السنين وتقدم العلم والمعرفة وانتشار التعليم بين أوسع الأوساط الشعبية اقتربت المذاهب من بعضها البعض وتقاربت المفاهيم والاجتهادات عند أربعة من المذاهب الخمسة المذكورة أعلاه والتي تشكل حالياً الأغلبية الساحقة من المسلمين في العالم تزيد على ال 95 % من مسلمي العالم والذين يطلقون عليهم بأهل "السنة والجماعة" أو اختصاراً بأهل "السنة".

لكن أتباع المدرسة الفقهية الخامسة، المدرسة الجعفرية من المسلمين، أخذت مع مرور الزمن تأخذ منحاً آخر في فهم دور هؤلاء الفقهاء والأئمة الكبار، وصل إلى حد التقديس والمغالاة في هذه القدسية الممنوحة لهم. وأضيفت مبادئ واجتهادات فقهية جديدة أخرى إلى هذه المدرسة، لم تك في القرون الأولى للإسلام بعد قد ظهرت، ساهمت في ابتعاد هذا المذهب وتلك المدرسة الفقهية عن بقية المدارس والمذاهب الأربع الأخرى.

تشكل الحركات السياسية والعشائرية
في الدولة الإسلامية الفتية

لا بد من التمييز بين المذهب في الدين كمدرسة من مدارس الفقه والتفسير والشرح وبين الطائفة كمجموعة بشرية ومكون اجتماعي، وإمكانية تطورها لتصبح كحزب من الأحزاب القبلية أو السياسية. أي التشيع لجماعة من الجماعات ولفرد من الأفراد وقائد من القادة. فالمذهب يمتلك الصفة الفقهية في قضية أو فكرة في دين أو فلسفة ورؤية، والطائفة هي حالة اجتماعية ذات طابع وفعل سياسي.

لقد حدثت فتنة في صدر الدولة الإسلامية بعد مقتل الخليفة الثالث عثمان بن عفان رضي الله عنه، وبويع من بعده الخليفة الراشدي الرابع علي بن أبي طالب رضي الله عنه كخليفة للمسلمين. لكن البيعة هذه المرة لم تكن من كل الصحابة والتابعين. فوالي الشام معاوية بن أبي سفيان الأموي رفض مبايعة الخليفة الرابع علي بن أبي طالب، إلا بعد أن يقوم الإمام علي بن أبي طالب كرم الله وجهه من الكشف عن الجناة في مقتل الخليفة عثمان بن عفان الأموي. عدد أخر من الصحابة في المدينة المنورة، من غير الأمويين، تأخر وامتنع عن مبايعة الخليفة علي بن أبي طالب قبل أن تتضح معالم جريمة قتل الخليفة عثمان وكشف الجناة فيها. لكن الخليفة علي أصر على أن يقدم الممتنعون عن المبايعة له بالخلافة وعلى الاعتراف له بشرعية خلافته على المسلمين، وكذلك على الاعتراف بشرعية قيادته للدولة وللأمة الإسلامية الناشئة.

انقسم الصحابة والناس بين مؤيد للإمام علي في خلافته على المسلمين، والإقرار بشرعية البيعة في قيادة الدولة الإسلامية العربية الفتية، وبين معارض لتلك الخلافة وطاعن بشرعية قيادته للأمة، وبين متهم للخليفة علي بالتقصير والتقاعس في البحث والكشف عن الجناة في حادث قتل الخليفة الثالث عثمان. تشيع[20] المسلمون إلى اكثر من حزب وأكثر من جماعة.

[20] تشيع الناس: تحزب الناس. القاموس

من تأثيرات الفتنة التي قادت إلى قتل الخليفة عثمان كان تشكل أربعة أطراف وأشياع سياسية في هذه الفترة الحرجة من تكون الدولة الإسلامية الفتية. هذه الأحزاب لم تخلو من أبعاد عشائرية وعائلية في نشأتها و تشكلها:

شيعة علي الهاشمي

شيعة معاوية الأموي

شيعة الزبير بن العوام

شيعة طلحة وغيرها من الشيع

نقل الخليفة علي مركز القيادة السياسية من المدينة المنورة في الحجاز إلى مدينة الكوفة في العراق، حيث يكثر هناك أنصاره ومشايعيه، وجعل من تلك المدينة الصغيرة والحديثة النشأة، التي أمر الخليفة عمر بن الخطاب في بناءها كقاعدة لجند العراق، عاصمة للدولة الإسلامية.

وقعت أول المعارك بين الخليفة علي بن أبي طالب وأنصاره من جهة وبين معارضيه بقيادة طلحة والزبير بن العوام وعائشة أم المؤمنين زوج الرسول رضي الله عنهم من جهة أخرى، في القرب من البصرة في جنوب العراق. جيش طلحة و الزبير وعائشة قدم من المدينة المنورة إلى العراق بقصد إزاحة الخليفة أمير المؤمنين علي عن قيادة الدولة بقوة السلاح. عرفت هذه المعركة التي انتصر فيها جيش الخليفة علي على مناهضيه بمعركة "الجمل" عام 656 م.

في 657 وقعت معركة بين أنصار أو شيعة الخليفة علي بن أبي طالب وأنصار أو شيعة والي الشام معاوية بن أبي سفيان على أرض تقع شمال سوريا بالقرب من قرية "صفين" على نهر الفرات، وعرفت هذه الموقعة بمعركة "صفين". نفس السبب الذي طرحته الجموع المتمردة في معركة الجمل، بالتقصير في الكشف عن قاتلي عثمان، يعاد طرحه مرة أخرى في تبرير هذه المواجهة في صفين. التوازن العسكري في هذه المعركة بين الطرفين المتحاربين فرض عليهما اللجوء إلى التحكيم لحسم الموقف. وافق الطرفان على تشكيل لجنة للتحكيم، لكن فئة من أنصار الخليفة علي بن أبي طالب رفضت فكرة التحكيم والحل السلمي ولم توافق على مبدأ التحكيم رافعة شعار «لا حكم إلا لله». خرجت هذه الفئة، والتي قدر عددها باثني عشر ألف مقاتل، عن طاعة الأمير الخليفة علي بن أبي طالب. عرفت تلك المجموعة بحزب أو شيعة "الخوارج". خروج هذه المجموعة من صفوف شيعة الخليفة علي سبب إحراجاً لفريق الخليفة وترك تأثيراً كبيراً على مسار التاريخ الإسلامي. لقد بررت هذه المجموعة المنشقة والخارجة عن طاعة الخليفة موقفها بالتالي:

الحق بيين والباطل بيين ولا مكان للمساومة على الحق من خلال لجنة تحكيم

شروط الإمامة والخلافة يجب أن لا تنحصر في البيت الهاشمي أو بيت آل الرسول بل هي حق لكل مسلم تتوفر فيه الأمانة والورع وصفات التدبير والقيادة

ادخل الخوارج، ولأول مرة، ولكن بشكل محدود، العامل الفقهي في مبدأ اختيار الولاة والخلفاء إلى جانب العوامل السياسية التي كانت سائدةً في هذا الصراع المندلع من خلال حركتهم في الخروج عن طاعة الخليفة. لقد تم تبرير الخروج عن طاعة الوالي على أسس فقهية هذه المرة. لقد أقحم الخوارج العامل الديني في الفعل والأهداف السياسية. اعترف الخوارج فقط بخلافة أبو بكر الصديق وعمر بن الخطاب وأنكروا خلافة عثمان بن عفان وعلي بن أبي طالب.

يتميز الخوارج عن الشيعة الإمامية، من حيث المبدأ، بإيمانهم بضرورة انتخاب الخليفة من بين عموم المسلمين ورفض حصر هذه الولاية في بيت علي بن أبي طالب. ويرون بأن أي مسلم تتوفر فيه الشروط الدينية في التقوى والعلم وصفات القيادة يمكن أن يكون إماماً وأميراً للمسلمين من خلال مبايعته على ذلك. هذه الفئة من المسلمين لازالت متواجدة في المجتمعات الإسلامية تحت اسم "الأباضية" في سلطنة عمان. ويتواجد الخوارج أيضاً في بعض مناطق المغرب العربي بأعداد قليلة.

قتل الخليفة الراشدي الرابع علي بن أبي طالب على يد "عبد الرحمن بن ملجم"، أحد رجال الخوارج، في رمضان سنة 40 هـ ، وعمره 63 سنة. وطلب الخليفة علي، وهو جريحاً ينزف من ابنه الحسن عدم الانتقام ممن قتله. دفن الإمام علي بن أبي طالب كرم الله وجهه في منطقة النجف في جنوب العراق في مكان غير معروف. لكن الخليفة العباسي المأمون قام في تحديد لمكان اعتقد بأنه قبر الخليفة علي بن أبي طالب المجهول وبنا عليه مقام ومسجد. هذا المكان هو نفس المقام الذي اتخذته طائفة الشيعة الجعفرية من بعد ذلك مزاراً يحج إليه ومكاناً مقدساً. أطلق على هذا المكان اسم "العتبات المقدسة" في مدينة النجف العراقية.

خذل الخليفة علي بن أبي طالب رضي الله عنة من قبل أنصاره ومشايعيه عدة مرات، وعبر الخليفة علي عن هذا الخذلان وتلك المرارة من مواقف أنصاره في كثير من الخطب والأحاديث الخاصة والعامة. كان الخليفة علي يكرر قوله في وصفه لشيعته من الفرس و أهل العراق: "من فاز بكم فاز بالسهم الأخيب" و قوله "و الله لوددت لو أني أقدر أن أصرفكم صرف الدينار بالدراهم عشرة منكم برجل من أهل الشام".

بعد مقتل الخليفة علي اصبح معاوية بن أبي سفيان والي الشام خليفة على المسلمين. نقل معاوية بدوره عاصمة دولة الخلافة من الكوفة إلى دمشق، المدينة العريقة في بلاد

الشام. وقف أهل الشام إلى جانب الأمير معاوية في الصراع السياسي مع الخليفة علي بن أبي طالب وأحسنوا مناصرته. لم يتوقف الصراع السياسي على السلطة بموت الخليفة علي، بل استمر بين شيعة الأمويين وشيعة الهاشميين أثناء الحكم الأموي،الذي استمر من عام 661 م حتى عام 750 م.

خلال فترة حكم الأمويين أخمدت العديد من الثورات والانتفاضات السياسية والعشائرية التي كانت تنشب في أطراف وحواضر الدولة الإسلامية الشاسعة والمترامية الأطراف. من أهم تلك الثورات كانت ثورة الحسين بن علي بن أبي طالب رضي الله عنه بالقرب من كربلاء في وسط العراق. ثورة الحسين بن علي نشبت أثناء حكم يزيد بن معاوية. قتل الحسين بن علي وثمانية من أشقائه وأنصاره السبعين ممن أصروا على البقاء إلى جانبه في معركة "الطف" بالقرب من كربلاء. في تلك المواجهة غير المتكافئة عسكرياً التي خاضها الإمام الحسين بن علي خذله أنصاره وتخلا عنة أغلب شيعته في حربة مع جيش الحاكم الأموي للعراق.

لقد كان هؤلاء المشايعون قد ألحوا على الإمام الحسين بالقدوم إلى العراق، حتى يقودهم في مقاتلة الأمويين وولاتهم هناك. وعندما قدم إليهم الإمام الحسين انفضوا من حوله، ليلقى مصيره المروع مع أهله وعدد محدود ممن بقي معه على العهد. لقد تكررت مأساة الحسين مع مشايعيه كما حدث لوالده علي بن أبي طالب مع مشايعيه من قبل، عندما خذلوه وأدخلوه، لأكثر من مرة، في ظروف حرجة وصعبة.

سيخلد التاريخ موقعة كربلاء وصمود الحسين مع أهلة في مواجهة غير متكافئة في العدد والعدة. وسيأتي نفر من الناس بعد اكثر من قرن ونصف القرن سيتخذ من هذه الحادثة منطلقاً لمذهب رسم له ملامح دينية وعقدية من جديد، بعد أن كان مجرد صراع سياسي خالص سار في طريقة إلى التلاشي والنسيان، كتلك الانتفاضات والثورات العديدة الأخرى التي نشبت في تلك الحقبة من الزمن والتي طويت صفحاتها وتناساها الزمن.

لكن حزب من الهاشميين من أحفاد العباس بن عبد المطلب، عم الرسول الكريم، تمكن بمساعدة قبائل أعجمية بقيادة أبو مسلم الخرساني، من الثورة على الأمويين والانتصار عليهم في موقعة على نهر الخابور في شمال العراق وتأسيس الخلافة العباسية ونقل مركز الدولة الإسلامية إلى العراق بدل الشام وتأسيس العاصمة الجديدة بغداد.

لقد استمر الصراع السياسي في الدولة العباسية على السلطة، فبالإضافة إلى الأطراف العربية، من" أموية" نسبة إلى بني أمية و"طالبية" نسبة إلى أبي طالب عم الرسول (أو علوية) وأخرى "عباسية" نسبة إلى العباس عم الرسول، دخلت سوق التنافس والصراع على السلطة السياسية قوى وفئات غير عربية. الصراع على السلطة في قيادة الدولة

المترامية الأطراف، والتي أصبحت تضم في أرجائها أقوام وشعوب عديدة من غير العرب، أفرزت الحركات السياسية غير العربية ، التي تطمح هي أيضاً في الوصول والمشاركة في السلطة السياسية للدولة الإسلامية. في خضم حدة الصراع السياسي برزت فئات أخرى غير عربية متطرفة كانت تعمل على إزاحة العرب من مواقع قيادة الدولة والسلطة، ومن ثم إلغاء دولة الخلافة العربية الإسلامية شكلاً ومضموناً. تلك الفئات والأحزاب المتطرفة عرفت في التاريخ العربي "بالحركات الشعوبية". هذه الحركات الشعوبية استمر حضورها عبر العصور والقرون التالية في التاريخ الإسلامي والعربي وأخذت أشكال متنوعة من التنظيم، السرية والعلنية، وتبنت شعارات دينية ودنيوية في التعبير عن طموحاتها السياسية والاجتماعية تتناسب مع طبيعة المرحلة ومع ميازين القوى في كل حقبة من الحقب الزمنية المتعاقبة.

إنتقال الطوائف
من حركات سياسية إلى فرق اجتماعية دينية

توافق العصر العباسي الأول، عصر انتشار الحركة الفكرية والفلسفية والفقه الديني، مع مشاريع جمع وتفسير الحديث النبوي الشريف، مع انتشار الحركات الشعوبية (القومية) المناوئة للعرب. العصر العباسي الأول الذي يعرف بعصر التنوير وعصر الإبداع العربي كان أحد معالمه التنويرية الأساسية حركة الكتابة والترجمة والبحث العلمي و الحوار الفقهي في أصول الدين وشرح الآيات والحديث والتبصر في الأمور الفلسفية.

لم يكن الأمام جعفر الصادق هو أول من بدأ علم جمع الحديث عن الرسول العربي وصحابته الكرام لكنه كان أحد الأعلام الأفذاذ الذين كان لهم باع طويل في شرح وتفسير الأحاديث النبوية، والتي تتلمذ على يديه عدد من الشيوخ والأئمة أصحاب المدارس في مذاهب الفقه الإسلامي المعروفة مثل الإمام أنس بن مالك والإمام أبو حنيفة رضي الله عنهم.

الإمام جعفر الصادق هو الحفيد من الجيل الخامس للإمام علي بن أبي طالب كرم الله وجهه، ولم يعرف عنه في يوم من الأيام أن طالب في حق في الخلافة أو كان قد تحيز لفئة إسلامية ضد أخرى، ولم يكن عنده طموح سياسي وطمع في منصب حكومي، بل كان علمه وورعة محل تقدير عند أغلب معاصريه من ذوي العلم والسياسة. بعد موت هذا العالم والإمام الجليل انبرت بعض الفئات الطامحة إلى السلطة إلى تبني هذا العالم وتبني فقهه وعلمه، واستغلال نسبه إلى الإمام علي والسيدة فاطمة الزهراء بنت الرسول الكريم، لتقوية أوراقها السياسية في حلبة الصراع السياسي والفلسفي الدائرة في ذاك الزمان. أعيد إحياء الحزب العلوي من جديد، وفي هذه المرة أضيفت الصبغة الدينية على مشروعية تولي الخلافة لمن هم من أحفاد الإمام علي بن أبي طالب، وبالتالي أحفاد الرسول.

بذلت جهود كبيرة في استحضار أحاديث نسبت للرسول العربي صلى الله عليه وسلم. فسرت وأولت بعض هذه الأحاديث المنسوبة للرسول بأنها وصية من الرسول إلى المسلمين بخلافة الإمام علي من بعده. في حديث "غدير خم" المشهور عند الشيعة الجعفرية (الإمامية) يصر بعض الرواة على أن الرسول الكريم كان قد ذكر في خطبة الوداع عند غدير خم، جملة تقول "من كنت مولاه فعلياً مولاه".

هذه الجملة هي المستند الفقهي الوحيد التي يعتمدها أنصار الإمامية في أحقية الخلافة في بيت علي بن أبي طالب. في حين يقول فقهاء المذاهب الإسلامية الأخرى بأن المقصود من كلمة مولاه ليست القيادة السياسية أو القيادة الدينية بل الحب والاحترام والتقدير، وقد قال الرسول مثل ذلك بحق اكثر من صحابي عبر أعوام الدعوة الإسلامية الطويلة التي عاشها الرسول صلى الله عليه وسلم . وان الإمام علي لم يدعي هذا الحق قط، ولم يذكره بحياته و في أثناء زمن خلافته الطويلة والتي دامت أربعة أعوام ونصف العام. ولم يقدم الإمام علي هذا الحديث المزعوم كحجة وسند شرعي على خصومة أثناء خلافة وصراعه السياسي مع معاوية بن أبي سفيان ومع الزبير بن العوام، وخلافة مع طلحة وشيعته. كذلك أحفاد الخليفة علي، الحسن والحسين وزيد وعمر وأبو بكر رضي الله عنهم لم يطرحوا قط شرعية تولي الخلافة على المسلمين على أساس تلك الوصية المزعومة. وإذا كانت هذه الوصية قد قيلت أمام 120 ألف حاج كانوا يرافقون الرسول في حجة الوداع كيف تصمت كل هذه الجموع عن حق في وصية سمعوها من الرسول في خطبته أمام الجموع في غدير خم؟ لماذا صمت عليها الخليفة علي نفسه وصمت أحفاده من بعده كل هذه السنين الطوال ولم تذكر هذه "الوصية" ولو مرة واحدة ويأتي جماعة من الفرس بعد قرن ونصف القرن من الزمان ويكتشفون ويتذكرن تلك الوصية المفقودة ! تلك هي بعض الأسئلة والتساؤلات التي يطرحها الفقهاء وعلماء التاريخ حول مشروعية حصر الخلافة في بيت علي بن أبي طالب كما تعتقد به بعض الفرق الشيعية.

لقد نشطت الدعوة الإمامية بعد اكثر من قرن ونصف القرن من وفاة الرسول، وبعد مرور عدة سنين على وفاة الإمام جعفر الصادق. هذه الدعوة التي رسمت مشروع حصر الخلافة في آل بيت علي بن أبي طالب وعملت على الدعوة لأحد أحفاد جعفر الصادق، موسى بن جعفر بن محمد، الملقب (بالكاظم)، تحت مبررات دينية مدعومة بحديث "الغدير" المنقول عن الرسول، وتفاسير لبعض الآيات القرآنية يعتقد أصحابها أنها تدعم وجهة نظرهم.

تلك كانت بداية التشيع السياسي موصولاً بجانبه الديني، الذي اصبح السمة السائدة على مفهوم التشيع (التشيع الصفوي) المنتشر عند الشيعة العجم، بعد ما كان قبل ذلك مجرد تحزب سياسي إلى آل البيت وحب آل البيت (التشيع العلوي)، المنتشرة عند الشيعة العرب.

البحث عن مبررات دينية في إثبات شرعية الدعوة لأحفاد جعفر الصادق واستمرار الدعوة لخلفة من بعده أكسب تلك الطائفة اسم الشيعة الجعفرية. وهناك تسمية أخرى لهذه الطائفة الإسلامية تعرف بها الشيعة "الإثني عشرية" التي تعتمد اثنا عشر إماما في سلسلة الأئمة المعتمدين من سلالة الخليفة علي بن أبي طالب مروراً بجعفر الصادق وصولاً بالإمام الثاني عشر محمد "الغائب" المعروف "بالمهدي المنتظر".

الشرعية السياسية والشرعية الدينية في تولي الخلافة على المسلمين من بعد الرسول محمد صلى الله عليه وسلم هي جوهر المذهب الذي يعرف في عصرنا الحاضر بالمذهب الشيعي.

تعود جذور تشعب الفرق الشيعية إلى الأيام الأولى من زمن إعادة إحياء فكرة التحزب للإمام علي. وهي الفترة الزمنية التي تلت موت الإمام جعفر الصادق بعدة سنين. بعد موت جعفر الصادق في منتصف القرن الثامن الميلادي (765 م)، منتصف القرن الثاني الهجري (148 ه) اختلف مريدي وأنصار الإمام جعفر الصادق على شرعية ووراثة الإمامة في أبناء جعفر الصادق. فمنهم من قال بأن الشرعية في الإمامة تعود إلى إسماعيل الابن البكر لجعفر الصادق. هذه الفرقة عرفت بالشيعة "الإسماعيلية" أو"السبعية"، والتي اعتبرت إسماعيل ابن جعفر الصادق هو الإمام السابع والإمام الأخير في سلسلة الأئمة الشرعية. لكن فرقة أخرى من أنصار ومريدي الإمام جعفر الصادق رأت بموسى، الابن الثاني لجعفر الصادق، الأحقية في الإمامة من بعده في ذريته، تلك الشرعية في الإمامة، التي استمرت في خلفه، حتى الإمام الثاني عشر، محمد المنتظر "المهدي". ذلك الإمام من أحفاد جعفر الصادق الذي بلغ من العمر سن الخامسة ومن ثم اختفى حسب روايات مؤرخي الشيعة الجعفرية. يعتقد الشيعة الإثني عشرية أن هذا الطفل الإمام قد اختفى في العام 878 م في أحد الكهوف والسراديب المنتشرة في مدينة "سامراء" شمال شرق بغداد.

لقد حدث تطوير وتغيير في الإطار الديني والسياسي لهذا المذهب عبر السنين، وأضيفت إليه مبادئ وممارسات عدة، لم تكن موجودة في زمن إعادة الأحياء بعد موت جعفر الصادق. الطائفة الجعفرية ربطت بين فقه الإمام جعفر وبين خلاف سياسي حدث قبل أكثر من قرن من حينه بين خليفة المسلمين الرابع علي بن أبي طالب ومعاوية بن أبي سفيان والي الشام. ربط أتباع هذه المدرسة الفقهية الرائدة التراث الفكري للإمام جعفر الصادق بحزب سياسي محدد. كاد هذا الحزب السياسي الذي نشأ ضد قيادة بني أمية لدولة الخلافة الإسلامية أن يتلاشى وينتهي مع مرور الزمن. هذا الربط الجديد بين السياسة والفقه انتج طائفة سياسية ـ دينية. وتم حصر القيادة الدينية والقيادة السياسية للدين الإسلامي والدولة الإسلامية في أحفاد الإمام علي وجعفر الصادق. هذا التطور كان من اخطر التحديات التي لازالت تواجه الأمة الإسلامية وهددت في اكثر من حقبة من الحقب وحدة الأمة الإسلامية. جزء كبير من المواقف الشاذة للدولة الفارسية والدولة الإيرانية والخارجة عن إجماع العالم الإسلامي تعود إلى هذه الخلفية المذهبية.

فقهاء الشيعة يأخذون بالكتب الجامعة للحديث الشريف الصادرة عن أهل البيت ، وينظرون لكتب الرواية والتراث الأخرى، كالصحيحين، صحيح بخاري وصحيح مسلم، من كتب الحديث والرواية نظرة ثانوية، ولا ترقى إلى مستوى التصديق والأخذ بها.

ظهرت على يد ثلاثة من الفقهاء الفرس في العصر البويهي، من بداية عام 1055 م، عندما استولى البويهيين الفرس على بغداد وبتشجيع منهم، حركة التشيع الفقهية "الدينية"، ورسمت هذه الحركة السياسية ـ الدينية قواعد التشيع الحالي. أهم تلك الرموز لتلك الحركة كانت:

الشيخ المفيد محمد بن النعمان 948 - 1022م الرائد الأول لمدرسة الاجتهاد عند الشيعة.

الشريف المرتضي 965 - 1046 م.

الشيخ الطوسي 995 - 1068 م.

لا زالت هذه الرموز وأعمال هذه الرموز الفقهية من المراجع الهامة لأنصار المذهب الشيعي الجعفري. جمعت أربعمائة مصنف ومخطوطة للرعيل الأول من المؤسسين للفكر الشيعي، تسمى " الأصول الأربعمائة" في أربعة كتب. هذه الكتب الأربعة تعتبر المراجع الأساسية للفقه الشيعي وهي:

- كتاب "الكافي في أصول الدين" لمحمد بن يعقوب الكيليني الرازي البغدادي المتوفى في سنة 339 هجري في بغداد.
- كتاب "من لا يحضر الفقيه" لمحمد بن بابويه الرازي القمي والملقب بالصدوق والمتوفى في سنة 381 هجري في الري قرب طهران.
- كتاب "تهذيب الأحكام" لمحمد بن الحسين الطوسي والملقب بشيخ الطائفة المتوفى في 460 هجري في النجف في العراق.
- والكتاب الرابع "الاستبصار" ايضاً للشيخ محمد الطوسي.

والشيوخ الثلاثة أصحاب هذه الكتب هم جميعاً من الفقهاء الفرس.

لقد حصلت عدة إنشقاقات في صفوف الطائفة الشيعية عبر السنين، وهي في ما بينها متصارعة ومتنافرة في كثير من المسائل الفقهية والمذهبية، وتصل إلى درجة تكفير كل طرف منهم الآخر. أهم هذه الفرق والطوائف هي:

الإثني عشرية: وهي تنقسم بدورها إلى

الشيعة العلية أو العربية

والشيعة الصفوية أو الفارسية

العلوية: العلوية هي فرقة إسلامية يعيش جزء من أفرادها في منطقة جبال الساحل السوري. وتوجد أعداد كبيرة من العلويين في تركيا يقدرون ببضعة ملايين ، ويسمون البكداشية ، ولكنهم مختلفون بشكل كبير مع علويي ساحل سوريا حيث تضم البكداشية

ممارسات لعبادات غير موجودة في الديانة الإسلامية ومختلفة مع عادات وممارسات الطائفة العلوية العربية في سوريا .كان الاسم الشائع للمذهب العلوي هو "النصيرية" و عرف أتباعه "بالنصيريين"، إلا أنه نظرا لتداعيات مذهبية في المنطقة أصبح اللقب "نصيري" من الألقاب غير المستحبة، واستبدل، مع نشأت الحكم الوطني في سوريا في منتصف القرن العشرين، بلقب "علوي" كناية عن الولاء لعلي بن أبي طالب. والنصيرية هي فرع منشق عن الشيعة الإمامية في القرن التاسع الميلادي، ويطرح العلويون نشأتهم على انهم امتداد للإمام الحادي عشر الحسن العسكري وتلميذه "محمد بن النصير النميري" أو الباب. "وقد ظهر العلويون في التاريخ السياسي للدولة العثمانية كمناصرين واتباع للدولة الصفوية في إيران، سواء لقربهم من الشيعة مذهبياً أو لأسباب سياسية، ولكن الثابت في هذه المعادلة انهم كانوا ضحية الصراع الصفوي ـ العثماني، وبخاصة بعد معركة جالديران عام 1514 م التي انتصرت فيها الدولة العثمانية على الصفوية حيث اتخذت بعد ذلك إجراءات قاسية ضد أبناء الطائفة العلوية، اضطر على أثرها معظم المعنيين بشئون الطائفة إلى الهرب إلى الجبال أو الانزواء في القرى وقسم كبير منهم هاجر إلى خارج تركيا وبخاصة إلى مدينة اللاذقية السورية، ولعل هذه هي العوامل التي مهدت لبروز ظاهرة الباطنية لدى الطائفة ومعتقداتها."[21]

الزيدية: يتواجد اتباع هذا المذهب الإسلامي فقط في جمهورية اليمن. يعود تاريخ المذهب الزيدي في اليمن إلى عام 897 م بدخول الإمام يحيى بن الحسين الحسني الرسي الذي لقب نفسه بـ(الهادي إلى الحق). الإمام يحيى قدم إلى اليمن من جبل الرس في المدينة المنورة (السعودية) بدعوة من عدد من قبائل صعده في مرتفعات اليمن الشمالية بقصد المساهمة في حل نزاعات قبلية نشبت بينها. أقام واستقر الإمام يحيى بن الحسن في تلك المنطقة، وقد استطاع خلال 12 عاما أن يؤسس الدولة الزيدية الأولى التي اتخذت من صعده عاصمة لها واستمرت حتى 1052 م. وتستند الزيدية في أصولها الفقهية إلى مذهب الإمام زيد الذي لا يعترف بعصمة الأئمة ونظرية المهدي المنتظر مثل بعض فرق الشيعة الأخرى وبخاصة الإثنا عشرية. ويشكل معتنقو المذهب الزيدي، الذين ينتسبون إلى اسر هاشمية أو إلى القبائل القحطانية، قرابة ربع سكان اليمن ال 21 مليون نسمة غالبيتهم من السنة . المذهب الزيدي هو اقرب المذاهب الشيعية إلى السنة وهذا ما يفسر حالة التعايش المذهبي بين الزيدية والسنة في اليمن على مدى قرون طويلة لم يشهد خلالها هذا البلد أي شكل من أشكال الصراعات أو الحروب المذهبية.

الدرزية: طائفة أخذت جل عقائدها عن الإسماعيلية. وهي تنتسب إلى نشتكين الدرزي الذي عاش في عصر الخليفة الفاطمي الحاكم بأمر الله في مصر في القرن الحادي عشر الميلادي . نشأت في مصر لكنها لم تلبث أن هاجرت إلى الشام. عقائدها خليط من عدة

[21] يوسف الجهماني، العلويون في تركيا، ص 12 ، دار الكنوز الأدبية، بيروت 2002 .

أديان وأفكار، كما أنها تؤمن بسرية أفكارها، فلا تنشرها على الناس، ولا تعلمها حتى لأبنائها إلا إذا بلغوا سن الأربعين. يؤمن اتباع الطائفة الدرزية بتناسخ الأرواح، وأن الثواب والعقاب يكون بانتقال الروح من جسد صاحبها إلى جسد أسعد أو أشقى. ينقسم المجتمع الدرزي المعاصر من الناحية الدينية إلى قسمين :

- الروحانيين : بيدهم أسرار الطائفة وينقسمون إلى : رؤساء وعقلا و أجاويد.
- الجثمانيين : الذين يعتنون بالأمور الدنيوية وهم قسمان : أمراء وجهال.

ينتشر أبناء الطائفة الدرزية في جبل لبنان والجليل في فلسطين وفي جبل العرب والهضبة السورية. يطلقون على أنفسهم بالموحدين ويعرفون ايضاً "ببني معروف" من القبائل العربية.

الإسماعيلية: التي تفرع عنها عدد من الطوائف والفرق في البلاد الإسلامية. ومن تلك الفرق والطوائف والحركات الشيعية المنتهية والبائدة والمنبثقة عن فرع الإسماعيلية كثيرة ومتشعبة وصلت إلى اكثر من خمسة عشر فرقة وطائفة، لكن أهمها:

- الفاطمية
- القرامطة
- الحشاشين

تعتمد فرق الإسماعيلية على ترتيب هرمي في تشكيل المؤسسة الدينية، و تتكون من عدة مراتب وهي:

1. الإمام،
2. الحجة أو الباب،
3. داعي الدعاة،
4. داعي البلاغ،
5. الداعي المطلق،
6. الداعي المأذون،
7. المكاسر،
8. المكالب،
9. المستجيب.

تشترك الطوائف والفرق الإسلامية "الشيعية" في خاصية البناء الهرمي للمؤسسة الدينية. المؤسسة الدينية عند الفرق الشيعية تتمتع ببناء تراتيبي صارم يغلب عليه شكل التنظيمات الحزبية التي تميل إلى الطابع السري. تنظيم تلك المؤسسات يشابه إلى حد كبير ذلك البناء السائد عند الحركة الإسماعيلية المذكورة أعلاه. هذه الظاهرة غير المألوفة في الدين الإسلامي، متأثرة إلى حد كبير بالتراث الديني المجوسي والمزدكي الذي نشأ وانتشر في الأزمنة الأخيرة من عمر الدولة الساسانية الفارسية.

تشترك الفرق والطوائف الشيعية أيضاً في خاصية فهم الظواهر والأحداث والنصوص الدينية فهماً ثنيوي (الفهم المزدوج) للأشياء. تقرأ النصوص الدينية عند أتباع هذه الفرق وتفسر مرة بشكل ظاهري ومرة أخرى بشكل باطني. حسب اعتقاد هذه الجماعات والطوائف يحتوي كل نص ديني معناً ظاهرياً، حسب رأي قادتهم وعلمائهم، يفهمه العوام والرعاع من الناس، ومعناً آخر باطنياً هو من اختصاصات الأئمة والنخبة الدينية، وهي حدها القادرة على فهم المعاني والمقاصد الخفية في تلك النصوص. من هنا جاءت تسمية الطوائف والفرق الشيعية المختلفة "بالفرق الباطنية"، كتسمية مرادفة للاسم المتداول بين الناس. النظرة الدينية والفلسفية الثنيوية (المزدوجة) ليست جديدة على المجتمعات البشرية، وجذورها مألوفة في التاريخ الإنساني. اقرب تلك الفلسفات والديانات التي تبنت هذه النظرة الازدواجية كانت الديانة أو الفلسفة الزردشتية المجوسية، التي كانت منتشرة في بلاد فارس قبل الإسلام.

الجذور الفارسية لمبدأ الباطنية والرمزية في فهم النصوص الدينية لم تعد مجالاً للشك وهي واضحة كل الوضوح. الديانة الفارسية القديمة الزردشتية (المجوسية) تقوم على أساس فلسفة الثنيوية (الإزدواجية) للكون، وازدواجية الألوهية، الليل والنهار، الماء والنار، الخير والشر، والظاهر والباطن وغيرها من أعمدة التقابل والثنائية. والثنائية ظلت على الدوام أحد الأعمدة الأساسية القائمة عليها فلسفة الديانة الزردشتية (والتي تعرف عند العرب أيضاً بعبادة النار) التي كانت سائدة في مناطق إيران قبل قدوم الإسلام إلى تلك الديار.

لقد نشأت عدة مدارس وجماعات فلسفية في العصر العباسي الأول تطرح مبدأ الشك كأساس للوصول إلى المعرفة واليقين. هذه المدارس والجماعات الفلسفية والتي ألبست لباساً دينياً سطحي ومزيف لم تكن جديدة المضمون على الفكر البشري، بل الجديد فيها كان الرداء الخارجي التي ظهرت به تماشياً مع الواقع الجديد. أحد تلك المدارس في التاريخ الإسلامي والعربي هي جماعة "إخوان الصفا". هذه الفرقة تبنت الفكر المجوسي الزردشتي وتقمصت أعمدته الأساسية. حاولت هذه الجماعة إعادة صياغة الفكر الفارسي المنهزم أمام الثقافة الإسلامية العربية بإخراج جديد على صفحات ما أصبح يعرف "رسائل إخوان الصفا". لقد تقاطعت مفاهيم ومضامين حركة "أخوان

الصفا" مع مفاهيم وأعمدة الفرق الشيعية المختلفة في حينه. لا عجب في سعة المساحة المشتركة بين مفاهيم الحركات الدينية الشيعية المختلفة ومفاهيم مدرسة (منظمة) "إخوان الصفا" الفكرية والتنظيمية، وأساليب العمل لهذه المنظمة السرية. أسباب هذا التلاقي في الفكر والمنهج يعود للعوامل والأسباب التالية:

- فالمنبع لمدرسة إخوان الصفا و لتلك الحركات المذهبية يكاد يكون واحد.
- زمن النشأة ومكان النشأة كان متقارب في بغداد وما حول بغداد.
- والرموز المنظرة والقيادات الأساسية لتلك المدرسة وكذلك الحركات المذهبية والفرق الشيعية الناشئة انحدرت بأغلبيتها، إن لم يكن جلها، من بيئة ثقافية فارسية مشتركة.

إن الفهم والتفسير الباطنيين للنصوص الدينية، والظواهر الكونية والأحداث اليومية مفعم ومليء بالرمزية، وينظر إلى مفردات وحروف النصوص الدينية كمجرد جمع من الرموز التي تخفي خلفها معان غير مرئية تحتاج إلى خبير يفك طلاسمها. شرح وتفسير النصوص الدينية حسب هذا الفهم وتلك الطريقة يفسح المجال واسعاً لتأويل المعنى بعيداً عن النص الحرفي، ويفتح المجال واسعاً لإدخال أفكار غريبة وبل متناقضة مع المحتوى المقصود من هذا النص القرآني الكريم أو ذاك الحديث النبوي الشريف. كثيراً ما تتم المغالاة بالرمزية و الباطنية في تفسير النصوص والذهاب بعيداً عن القصد من تلك النصوص. من خلال إعطاء أرقام حسابية ورموز ترادف حروف النص الديني والإدعاء في تكوين جمله ونص ديني ذات مضمون ديني يستدل على معانيها من خلال الجمع وترتيب تلك الرموز والأرقام لا يفهمه إلا الأئمة والمختصون و "الضالعون بالعلم" أحدث بلبلة وتشويش في العبادات والتشريعات الدينية. الفلسفة الباطنية في فهم وتأويل النصوص الدينية، وتفسير الظواهر الكونية والأحداث اليومية يعبر عنها في عصرنا الحاضر "بالاجتهاد الديني" المسرف في تحرره من قواعد المنطق العقلي، والاسترسال والغوص في علم الكلام في محاولة لإضفاء رداء "البحث العلمي" على هذا المنهج المشكوك في جدواه.

أغلب المستشرقون الغربيون يميلون في رؤياهم إلى المنهج الشيعي في فهم التراث الإسلامي وشرح النصوص الدينية الإسلامية. لما تمنحه هذه القراءة وما يعطيه هذا المنهج من هوامش كبيرة في الاسترسال والإسهاب في الاستنتاج، تصل إلى حد تغيير المفاهيم الدينية. ظلت هذه القراءة وهذا المنهج الأقرب إلى العقل الغربي وموقفه المعروف من الدين ودوره الاجتماعي. في حين بقيت النظرة الاستشراقية مهيمن عليها صفة النقد والتحفظ على المدارس السنية في طرح الإسلام، وتفسير مبادئه، واتهام هذه المدارس بالمحافظة والتزمت والجمود وممانعة التطوير. لازال الترحيب والتفهم

للمدارس الفقهية الشيعية هو السائد عند جمهور المستشرقين الغربيين. لقد ساهمت كتابات وأعمال المستشرق المتطرف في عدائه للعرب، وصاحب المواقف السياسية المتصهينة المعروفة، "برنارد لويس"، المعروف بقربه من تيار المحافظين الجدد الأمريكيين، ساهمت مساهمة كبيرة في تغذية هذا التوجه في فهم المذاهب الإسلامية.

جمهور المستشرقون الغربيون، كما عبر عن ذلك المفكر العربي "ادوارد سعيد" في كتابه "الاستشراق"، يعانون من تأثير النظرة الغربية الأوروبية المتعجرفة والقاصرة عن رؤية الثقافات والحضارات العالمية الأخرى، إلى جانب الثقافات الأوروبية، وبقي موقفهم يقترب أو يبتعد من الآخر بقدر قرب أو بعد هذا الأخر من الثقافة الغربية. ينطلق المستشرقون الغربيون في نظرتهم للإسلام والمسلمين بالدرجة الأولى من واقع التجربة التاريخية الأوروبية مع الدين المسيحي، الذي طرأ على نصوصه وعلى فهم هذا الدين ، خلال القرون الماضية، تغيير وتطور كبيرين. إن إسقاط التجربة الأوربية مع الدين المسيحي على الدين الإسلامي مشكوك، ولأكثر من سبب، بصحتها وعلميتها. واقتباس هذه التجربة والعمل على تطبيقها في الشرق والعالم الإسلامي من غير المؤكد نجاعتها. وهي في جوهرها تتضمن النية المبيتة لتزوير التاريخ بما تحتويه من آلية في تحريف أصول الأديان حتى تصبح موافقة لمصالح وأهواء جيل من الأجيال، وطبقة من الطبقات، وفئة من الفئات الاجتماعية في كل عصر من العصور. هذه الرغبة الجامحة عند المستشرق الغربي في رؤية دين إسلامي وفقه إسلامي متماثل ومتشابه إلى حد التطابق مع مفاهيم دينية مألوفة في المجتمعات الغربية، تخفي بين ثناياها بعض الأسباب في إعطاء الفقه الشيعي مكانة الصدارة والتفضيل عند تناول تاريخ وحاضر العالم الشرقي والعالم الإسلامي. وتفسر جزءاً من إعطاء أنصار ومروجي هذا المذهب الإسلامي التشجيع والدعم للإدلاء بدلوهم في النقاش الدائر حول الإسلام في الجامعات ومراكز البحث الغربية، لما يوفر، في حضور اطروحات هذا التيار، وظيفة شاهد حي وشاهد زور عما يطمحون.

لقد عانا العالم الإسلامي ولا زال يعاني من أثار الإنشقاقات الطائفية، والتي كانت في اكثر من عصر وزمان، هي أحد الثغرات الاجتماعية والسياسية التي دخل من خلالها الأجنبي إلى قلب الشرق. العدو المتربص بأوطان وشعوب العالم الإسلامي لم يتوانى في استغلال هذه الثغرة القاتلة في اكثر من مكان وزمان عبر مسيرة التاريخ الإسلامي.

التشيع العربي والتشيع الصفوي

عبرالقرون حدث تطور وتبدل على المدارس الفقهية المختلفة، وحدثت تباينات بين الأصول والفروع في أوساط تلك المدارس الفقهية. لقد حدث الشئ نفسه على أصول فقه التشيع الجعفري المعروف "بالتشيع العربي". لقد أدخل فقهاء الفرس الصفويون عدد من المبادئ والمراسيم والطقوس الدينية على المذهب وعلى حياة الطائفة. لقد تم تكريس منظومة المعتقدات الفقهية التي أضيفت إلى المذهب الشيعي العربي حتى أصبحت تشكل تياراً ومذهباً قائم بحد ذاته ومتميزاً وبعيداً كل البعد عن الأصول التي تأسس عليه المذهب الشيعي الجعفري. هذا المذهب يعرف بالمذهب الشيعي "الصفوي".

سعت الحركة السياسية المذهبية الصفوية إلى إضفاء الطابع الديني على مكونات التشيع العربي الذي يقترب إلى الفطرة وعدم المغالاة في الاعتقاد وحب آل البيت. وسعت الحركة السياسية الصفوية إلى الدخول من باب القربى والنسب من الرسول العربي ومن آل بيته، وإلى تأكيد الجانب الديني في هذه الحركة، إمعاناً في تظليل الناس عن حقيقة الطابع القومي الفارسي العنصري المعادي للعرب، والذي عبر عنه في اطروحات قادتها المكثفة في أفضلية الدم الفارسي على الدم العربي. هذا النوع من الشعوبية العنصرية تجسد بشكل جلي وواضح في السعي المحموم من القوى المنضوية تحت رداء الحركة الصفوية السياسية ـ الدينية المتقمصة التشييع وحب آل البيت من الكتاب ورجال الدين منهم.

المشروع الصفوي الذي دأب على ربط و إقحام صلة القربى والنسب مع الرسول وآل بيت الإمام علي بن آبي طالب اختلقت قصة ملفقة عن زواج الإمام الحسين بن علي رضي الله عنه من "شهربانو" بنت الملك الفارسي (يزدجرد)، والتي جئ بها حسب تلك الرواية، أسيرة من المدائن (عروس المدائن) في عهد الخليفة الراشد عمر بن الخطاب رضي الله عنه. حسب الرواية قد اعجب بها الحسين وتزوجها وانجب منها ولداً واحداً اسمه الإمام السجاد.

علي شريعتي يقول : "نحن نعلم أن الإمام السجاد (ع) ولد عام 38هجرية أي بعد عشرين عاما من زواج أمه من الإمام الحسين ؛ وقد صرحت القصة بأن (شهربانو) كانت من أسرى فتح المدائن وان عمر كان ينوي قتلها ولكن الإمام علي (ع) هو الذي

أنجاها من الموت وواضح جدا أن واضعي هذه القصة هم من أنصار الشعوبية الإيرانية وأنهم أرادوا من ذلك إظهار أن عليا (ع) كان يساند الساسانيين ويدافع عنهم وذلك في مقابل عمر الذي كان عدوهم وهازم جيوشهم! غير أن هؤلاء " ولازال الكلام للدكتور شريعتي" فاتهم أنهم حينما أرادوا إثبات أن الإمام السجاد هو حفيد يزدجرد وأمه شهربانو أوقعوا انفسهم في إشكال تأريخي عويص وهو لزوم أن يكون الإمام الحسين (ع) تزوج في عام 18 للهجرة وعمره حينها 15 سنة بينما الإمام السجاد ولد 38 للهجرة ومن المنصوص عليه أنه لم يولد له من شهربانو سوى الإمام السجاد (ع) وهذا يعني إنها لم تلد من الإمام الحسين (ع) إلا بعد مضي عشرين عاما؛ غير أن العلامة المجلسي عندما تنبّه إلى هذه المشكلة بالرواية حاول ترقيعها بالقول أنه ليس من المستبعد أن كلمة (عمر) الواردة في الرواية تصحيفا لكلمة عثمان فيكون الزواج قد تّم في عهد عثمان لا في عهد عمر."[22] تأكيداً لما أشار إليه علي شريعتي فإن الحسين بن علي عندما سقطت عاصمة كسرى بيد العرب المسلمين في عهد الخليفة عمر لم يتجاوز الثانية عشر عام من عمره وحسب كل المصادر التاريخية المعروفة لا تشير إلى زواج الحسين بن علي في سن مبكرة.

ألحقت هذه الرواية المصطنعة عن شكل القربى بين الرسول وآل بيته من ذرية الإمام علي وفاطمة الزهراء بالفرس والعائلة الملكية الساسانية بعدد لا يحصى من القصص والروايات الواهية والملفقة يتداولها القوم في أحاديثهم وكتبهم الشائعة بينهم.

هذا التلفيق اصبح نهجاً ومدرسة معتمدة في صياغة الأحاديث والروايات التاريخية والدينية. وتحررت، في أحضان الدولة الصفوية، أعمال جمع التراث الإسلامي من الضوابط والقواعد العلمية التي تضمن صحة حديث أو قول ديني من عدم صحته، وصحة وقوع حدث ما من عدم وقوعه. من أهم ظواهر الفوضى التي نشأت في جهود جمع الأحاديث النبوية الشريفة كانت ولا زالت تعود إلى النية المبيتة في تحقيق مآرب سياسية وفئوية من خلال وضع الأحاديث ونسبها إلى الرسول الكريم من غير دليل علمي وإسناد تاريخي.

السعي المحموم في حصر المكارم في أحفاد الإمام علي بن آبي طالب وآل بيته، وإلصاق له قرابة دموية مفتعلة ومصطنعة مع الملوك الساسانيين، من خلال فبركة حالة زواج الحسين بن علي من أحد النساء الفارسيات غير المؤكدة، واقتراف من اجل ذلك أخطاء ومغالطات تاريخية دامغة وتزوير للحقائق، تنم عن رغبة قومية فارسية جامحة في تجريد "الأعداء" العرب من كل فضيلة. "التشيّع العلوي تشيّع الإنسانية أما التشيّع

[22] شبكة هجر الثقافية على شبكة الإنتر نيت

الصفوي تشيّع القومية،"[23] كلمة أطلقها المفكر الإيراني علي شريعتي قبل اكثر من ربع قرن من الآن قاصداً بذلك القومية الفارسية.

خلال الأربعة مائة عام الماضية أضيفت إلى مبادئ التشيع عند الدولة الصفوية والدول الفارسية المتعاقبة عدد من المبادئ وعدد من الممارسات التعبدية ميزت مذهب الطائفة الشيعية الجعفرية الصفوية عن الطائفة الشيعية الجعفرية العربية. أهم تلك المبادئ والطقوس التعبدية هي التالية:

- مبدأ التقية
- التراتيبية الهرمية
- ممارسة طقوس اللطم
- تكريس مبدأ العصمة
- ومبدأ ولاية الفقيه

الشيعة الصفوية ومبدأ التقية

هذا المبدأ ليس من اختراع الصفوية بشكل خاص ولا من إبداعات الشيعة بشكل عام، ونما هو إنتاج بشري تعاملت معه الأفراد والجماعات البشرية عندما يستشعر الفرد أو المجموعة البشرية بخطر ما يداهم ويهدد وجود الأفراد وتلك الجماعات، ولا تقدر هذه الجماعات على رد هذا الخطر في حينه. ربما تعرض لهذه التجربة الإنسانية كل إنسان، ولو مرة في حياته، إلى حالة من تلك الحالات واضطر إلى إخفاء هويته أو قناعته وحتى اسمه اتقاءً لخطر لا يستطيع رده بشكل مباشر أو فوري. اتقاء الشر والخطر ميزة إنسانية منحها الله للبشر من اجل استمرار الحياة. لكن أن تكرس هذه الميزة الإنسانية وتصبح مبدأ من مبادئ العبادة والدين يصبح له معناً آخر، ويترتب عنه آثار اجتماعية وسياسية ونفسية سلبية وخطيرة على الفرد والمجتمع. من أهمها تشريع الكذب وعدم الصدق وإشاعة سمات الخنوع والذل عند أفراد المجتمع. فالدين الإسلامي في جوهرة لا يشجع على إشاعة هذه الصفات السلبية ولم تقل نصوص الدين الإسلامي في اتباع وممارسة مبدأ "التقية". المذهب الشيعي الصفوي كرس هذه الصفة الإنسانية وأدخلت إلى مكونات المذهب وإلى أصول العبادة، واصبح يؤثر على علاقات أبناء الطائفة مع الغير من داخل وخارج الطائفة. وبدل أن يكون اللجوء إلى التقية في الحالة الشاذة، في الظروف غير الطبيعية، أصبحت القاعدة، ومبدأ من مبادئ المذهب الشيعي الصفوي

[23] **علي شريعتي**، التشيع العلوي والتشيع الصفوي، ص 213 ، دار الأمير للثقافة والعلوم بيروت 2002 .

المنتشر في إيران والهند. لقد تحولت ممارسة التقية من فعل وممارسة فردية إلى فعل وممارسة جماعية تتحكم بسلوكيات الأفراد، وتحدد نوع من العلاقات الشاذة داخل المجتمع.

لم يكن مبدأ التقية منتشراً عند الشيعة العرب، لكنه دخل على المجتمعات العربية الشيعة في العقود والأزمنة الأخيرة، بفعل التأثير المباشر لرجال الدين الفرس على المؤسسات الدينية في كثير من الأقطار العربية. لكن بقيت، على الرغم من هذه السيطرة الشبه تامة لرجال الدين الفرس على مراكز قيادة المؤسسة الدينية في التجمعات الشيعية العربية، ممارسة مبدأ التقية في التعامل اليومي عند القطاعات الشيعية العربية الواسعة محدودة الانتشار.

ترجع جذور انتشار هذه الممارسة وشيوع هذا المبدأ عند الفرس والشعوب الإيرانية إلى القرون الأولى في تكون المجتمعات والكيان السياسي الإيراني في القرن الخامس قبل الميلاد. وهذه الممارسة أملتها طبيعة التقسيم الوظيفي في المجتمع والكيان السياسي الأول الفارسي. مع نشأت الديانة الزردشتية التي كانت تنحصر القيادات الدينية والمسؤولية الدينية في أحد القبائل فقط، وكانت القبيلة المتكفلة بالدين الزردشتي والإشراف على أسراره من داخل القبيلة والعائلة المعنية، سعت هذه الفئة وهذه القبيلة الدينية بالتعاون مع العائلة الحاكمة في الحفاظ على سرية تفاصيل الدين، وتفاصيل فلسفة الدين، وعدم الإفشاء بهذه الأسرار لبقية الناس من الرعية.

لقد نشأت مع مرور الزمن والقرون الطويلة، وتكونت في مراكز الحكم ومراكز دور العبادة الزردشتية تراث من المعرفة المتميزة في التعامل مع الكتمان والسرية في العلاقات الاجتماعية. هذا الإرث في التنظيم، وفي العمل السري، انتقل وتأثرت به قطاعات كبيرة من النخب الإيرانية عبر القرون الطويلة. تراكمت عند كم كبير من الفرس عبر القرون خبرات كبيرة في إنشاء التنظيمات السرية، والقدرة على التعايش مع الظروف الصعبة، من خلال كتم وعدم الإفصاح عن الأحاسيس والمشاعر الإنسانية، وكذلك القدرة الكبيرة على التورية وإخفاء النوايا والأهداف الحقيقية. في هذه الصفات، من حيث وظيفة الإشراف على الدين، والقيام عليه، وقيادته، في قبيلة أو عائلة بعينها من بين فئات المجتمع، وصفة هيمنة السرية والكتمان في العمل الدعوي، وعلاقة الدين، بالقبيلة يشترك المجتمع والتاريخ الإيراني مع مجتمع وتاريخ بني إسرائيل.

"التقية" التي أدخلت إلى ثقافة المذهب الشيعي تعود في أصولها إلى تلك الجذور في الثقافة الفارسية، من حيث علاقة فئة القائمين على الدين المجوسي ببقية فئات الشعب . لقد تعززت هذه السلوكية في المجتمع الفارسي في القرنين الأخيرين من عمر الدولة الساسانية. عندما نشأت الديانة المانوية والديانة المزدكية وانتشرتا بين صفوف رعايا المملكة الساسانية في القرن السادس والسابع تم منع هاتين الديانتين من قبل الحكام

الساسانيين الزردشتيين (المجوس) وتمت ملاحقة اتباع هاتين الديانتين بكل قسوة وجبروت، وبمساعدة وتحريض من قبل سدنة الديانة الزردشتية في الدولة الساسانية، الذين كانوا يهيمنون على مقاليد الحياة في الدولة الساسانية.

تحت ضغط الملاحقة والخوف من العقاب الشديد الذي كان يتهدد كل من تثبت عليه تهمة الانتماء إلى هاتين الحركتين أو هاتين الديانتين الممنوعتين لجأ الرعايا الفرس والإيرانيين من غير الزردشتيين إلى إخفاء معتقداتهم والتظاهر أمام الملأ في اعتناق الديانة الزردشتية. إن طول فترة ملاحقة الخارجين عن طاعة الحاكم وشدة بطش المجوس لأعدائهم خلق جو من عدم الثقة والتملق في صفوف الناس في الدولة الساسانية في القرن الأخير من عمرها، وأصبحت هذه الصفة من أهم مكونات العلاقات الاجتماعية في مجتمعات الدولة الساسانية في الحقبة التي سبقت انتشار الإسلام في تلك الديار.

حافظت النخبة الفارسية، حتى بعد دخول الشعوب الإيرانية في ربوع الدين الإسلامي الحنيف، على صفة التكتم والسرية وممارسة "التقية" في الحياة اليومية. التملق والمبالغة في احترام الآخرين شكلت أحد الصفات البارزة في السيكولوجيا الفردية والجماعية عند الشعوب الإيرانية، وترسخت كعادة من عادات وتقاليد هذه الشعوب. في العهد الصفوي تم إحياء هذه الصفة، غير امحمودة، من جديد وكرست كمبدأ من مبادئ التشيع. لازالت هذه الصفة في عصرنا الحاضر متفشية في أوساط الشيعة الصفوية في إيران والهند.

تجدر الملاحظة هنا أيضاً بأن فلسفة حصر الولاية الدينية و الخلافة السياسية في عائلة أو عشيرة بعينها كما تنص علية كتب الفقه عند الشيعة، وحصرها بآل البيت الهاشمي وأحفاد الإمام علي كرم الله وجهه، والمبالغة والتعصب لولاية الأئمة عند الإثني عشرية من أحفاد الإمام علي والإمام محمد جعفر الصادق، ليست بعيدة عن تأثير التراث الديني الفارسي. ومحاولة لخلق تماثل مع هذا التراث في أوساط الشيعة ليست بريئة. وهي بالتالي اسقاطة من اسقاطات الوعي بالتراث والتاريخ الفارسي عند النخبة الفارسية المتحمسة لهذا التاريخ وهذا التراث. وهي تشكل حالة وعي قومي فارسي برداء ديني يمكن تسويقه.

التراتيبية الهرمية للمؤسسة الدينية عند الشيعة الصفوية

التراتيبية والنظام الهرمي في الفقه الإسلامي غير معروف. لا توجد درجات وطبقات وظيفية وكهنوتية في المؤسسة الدينية الإسلامية. ولم يعثر على نص قرأني أو حديث نبوي يدل على أي نوع من أنواع التراتيبية الدينية الهرمية بين أوساط جمهرة رجال الدين الإسلامي. لكن المؤسسة الدينية الشيعية الصفوية ابتدعت النظام الهرمي وخلقت

لرجال الدين الشيعة نظام المراتب والطبقات. يتكون السلم الهرمي عند رجال الدين الشيعة من خمسة درجات في العلم والمعرفة، وفي درجات الفقه، والتقوى أيضاً، وعلى المؤمنين احترام هذه التراتيبية في جسم المؤسسة الدينية. تتشكل هذه التراتيبية من الأعلى إلى الأسفل كالتالي:

1. الإمام أو (نائب الإمام الغائب)
2. آيات الله العظمى
3. آيات الله
4. حجة الإسلام
5. ثقة الإسلام

هذا النوع من التراتيبية في المؤسسة الدينية الشعية الصفوية غير معروف عند الشيعة العرب. فعند الشيعة العرب مصطلح "الشيخ" أو "العالم" أو "الإمام" أسماء تدل على نفس المكانة الدينية للدلالة على انسان فقيه في أمور الدين. وهم في ذلك يشتركون في تعريف رجل الدين ومكانته الاجتماعية مع إخوانهم من أتباع المذاهب السنية الأخرى.

لقد سبق هذا الشكل التنظيمي لجهاز المؤسسة الدينية عند الشيعة الصفوية التنظيم السري لمنظمة "إخوان الصفا" الإسماعيلية. نشأت حركة أو منظمة إخوان الصفا في مدينة "السلمية" ومن ثم مدينة "صافيتا" السوريتين. ومن ثم، ومن هناك، انتشرت هذه المنظمة في بلاد فارس وخرسان. كان مؤسسوا هذه المنظمة السرية أيضاً من أصول فارسية، وكان لتلك المنظمة هيكل هرمي ينظم علاقة ونشاط أعضاء هذا التنظيم السري حسب تراتيبية هرمية محددة كالتالي:

1. مرتبة "ذوي الصنائع" من الشبان، الذين أتموا الخامسة عشرة؛ ويُدْعَوْن الأبرار الرحماء
2. مرتبة "الرؤساء ذوي السياسات"، الذين أتموا الثلاثين؛ ويُدعون الأخيار الفضلاء.
3. مرتبة "الملوك ذوي السلطان"، ويُدعون الفضلاء الكرام؛ وهم ممن أتموا الأربعين.
4. مرتبة الإمام، المرتبة العليا ممن أتموا الخمسين، وتشبَّهوا بالملائكة، بقبول التأييد ومشاهدة الحقِّ.

بناء الهيكل التنظيمي للمؤسسة الدينية على هذا الشكل السابق الذكر عند حركة إخوان الصفا الإسماعيلية، ومن بعدها حركة التشيع الصفوي، لم تك إنجازاً تفردت بهما هاتين الحركتين الدينيتين. فالديانة الزردشتية (المجوسية) التي كانت هي دين الدولة الرسمي في المملكة الساسانية، وديانة أغلب الشعوب تحت حكم الساسانيين، تمتلك هذه التراتيبية وهذا النظام في المؤسسة الدينية.

كان المجتمع الساساني الزردشتي مقسم طبقياً كالتالي:

1. العائلة الحاكمة من الموبدان (كهنة المجوس)
2. الموبدان (الكهنة)
3. رجالات الجيش
4. أصحاب الحرف المهنية والمزارعين
5. العمال وعامة الناس، وهي الشريحة السكانية من الناس التي تشكل الغالبية العظمى من الشعب في الدولة الساسانية، الفقيرة والمسحوقة من قبل الفئات الدينية السياسية ذات السلطة والنفوذ.

وكذلك كانت الديانة المانية التي نشأت من امتزاج الديانة الزردشتية مع مبادئ مقتبسة من الديانة المسيحية والديانة اليهودية، حيث تمتلك هذه الديانة أيضاً هيكيلية هرمية في جهاز الكهنوت الديني متأثرة بالتقسيم الطبقي للمجتمع في الدولة الساسانية. كان للديانة المانوية ما يشبه ذلك من البناء الهرمي للمؤسسة الدينية. تلك الديانة التي نشأت وترعرعت في القصور الساسانية في القرن الخامس الميلادي إلى جوار الديانة المجوسية. كل الديانات التي عرفت وانتشرت في المجتمع الفارسي تشابهت فيها أشكال بنا هياكل مؤسساتها الدينية. ففي الديانة المانوية ينظم رجال الدين حسب سلم هرمي محدد يتكون من خمسة مراتب أساسية هي:

1. فئة أبناء العلم
2. فئة أبناء العقل
3. طبقة أبناء الفطنة
4. طبقة السماعون
5. طبقة سواد الناس

المقارنة بين هذه الأشكال من التراتيبية الدينية المشار إليها سالفاً في المؤسسات الدينية للدين الزردشتي (المجوسي) والدين الماني وحركة إخوان الصفا والتشيع الصفوي يلحظ المرء وجه التشابه الكبير بين مؤسسات هذه الديانات، والذي يصل فيه هذا التشابه إلى

حد التطابق بين هذه الأشكال من النظم والتراتيبية الدينية. لا عجب في ذلك إذا ما عرف السبب وأن المصدر هو واحد، ويعود إلى الديانة الزردشتية ومن بعدها الديانة المانوية. وكانت أغلب العناصر المبادرة في تأسيس هذه الفرق والطوائف الدينية الإسلامية تنحدر ايضاً من أصول فارسية، تلك التي كانت قبل إسلامها، أو قبل إعلان اسلامها، نشطة في مؤسسات دينية زردشتية ومانوية ومزدكية، والتي لازالت أسيرة تأثير تراثها الديني القديم. والتي لم تستطع بعد التحرر من آثار هذا التراث.

من المفيد في هذا السياق ذكر غياب وعدم وجود أي شكل من أشكال التراتيبية والهيكيلية في بناء المؤسسات الدينية الإسلامية منذ عهد الرسول مروراً بكل الحقب التاريخية حتى الوقت الحاضر في بقية المذاهب الإسلامية السنية السائدة والتي ظلت بعيدة عن تأثير ثقافات الفرس الدينية.

ممارسة طقوس اللطم عند الشيعة الصفوية

أول من ابتدع ممارسة الحزن على مقتل الحسين بن علي بن أبي طالب هم الفرس من بني بويه عندما دخلوا بغداد في القرن الحادي عشر الميلادي، وفرضوا هيمنتهم على عاصمة دولة بني العباس. لقد جعل البويهيون من الخليفة العباسي في بغداد في فترة نفوذهم، مجرد دمية وصورة في جنبات القصر العباسي. لقد فرض البويهيون المذهب الشيعي على سكان بغداد، وطلبوا من المؤمنين إظهار الحزن في ذكرى مقتل الحسين على شكل كطأطأة الرأس عند السير في الطريق ولو بتكلف وتصنع. قبل هذ التاريخ لم يعرف أي أثر لممارسة طقوس الحزن والندب على مقتل الحسين ورفاقة في حادثة كربلاء.

تلاشت هذه العادة وهذه البدعة الفارسية بعد تلاشي نفوذ البويهيون الفرس على السلطة العباسية وخروجهم من بغداد. ولم يعد من أثر لهذه البدعة التي جلبها البويهيون معهم إلى المجتمع العراقي الشيعي. لكن عندما تمكن الصفويون في القرن السادس عشر الميلادي من بناء دولتهم في إيران أعاد الصفويون الفرس هذه البدعة من جديد إلى المجتمعات الشيعية وأضافوا إليها عادة وبدعة ضرب الرأس واللطم على الخدود وشق الثياب والتظاهر بالبكاء والمغالاة في إظهار الحزن. لقد ظلت هذه الممارسات الشاذة جزء من الطقوس الدينية عند المواطنيين الشيعة في الدولة الفارسية منذ استيلاء العائلة الصفوية على مقاليد السلطة في بلاد فارس. لم يتأثر الشيعة العرب بهذه البدعة ولم تمارسها التجمعات الشيعية العربية عبر القرون الطويلة.

لقد دخلت هذه البدعة الفارسية المنشأ صفوف المؤمنين الشيعة العرب بشكل تدريجي فقط خلال أعوام الخمسينات من القرن العشرين. منذ خمسين عاماً فقط أدخل الصفويون

الفرس إلى العراق من جديد مراسيم أحياء ذكرى عاشورا. هي ذكرى مقتل الحسين بن علي عبرالضرب بالجنازير على الأكتاف والظهر، والضرب بالسيوف والخناجر على الرؤوس حتى يسيل الدم من تلك الرؤوس. تلك العادة التي أصبحت تعرف "بمراسيم التطبير". نوع من أنواع المغالاة في التعبير عن شدة الحزن والأسى على مقتل الحسين في كربلاء قبل 1400 عام من الآن. تلك العادة والممارسة ليست حديثة العهد في أوساط شيعة إيران لكنها حديثة على الأوساط الشيعية العربية. "يُذكَر عن الشيعة الصفوية القزلباشية أنهم من ابتدع مظاهر إحياءَ ذكرى وفاة ومقتل آل البيت بالممارسات التي نجدها في الوقت الحاضر، إذ لم تكن معروفة قبل ذلك التاريخ ما بين الشيعة الأصليين في العراق أو في جبل عامل في لبنان. تلك المظاهر تعد حالة دخيلة على المذهب الشيعي الجعفري في العراق، وتعد حالة لا يوجد لها ما يقابلها في التاريخ العراقي."[24]
لقد أصبحت هذه الطقوس الصفوية المبتدعة جزءاً أساسياً من الممارسات الدينية عند الشيعة العرب في العراق والخليج ولبنان بفعل النشاط الممنهج والمنظم للمؤسسات الدينية والخيرية الإيرانية في أوساط الشيعة العرب في كل أماكن تواجدهم. من خلال انتشار ممارسة طقوس اللطم والتطبير بين شيعة العراق ولبنان تكون إيران الدولة القومية حققت انتصاراً ملحوظاً على التيار العربي للتشيع، وصبغت مذهب التشيع لآل البيت العلوي بالطابع الصفوي الفارسي بما فيه من بدع مضافة على أصول التشيع الأولي العربي الفطري.

الشيعة الصفوية وتكريس مبدأ العصمة

مبدأ العصمة هو أحد الركائز الأساسية التي بني عليها فقه الإسلام الشيعي في العصر الحاضر. لقد بدأ التنظير لهذا المبدأ في العصر العباسي الأول من قبل عدد من الكتاب والفقهاء المسلمين الفرس في دولة الخلافة العباسية. وبقيت هذه الأقاويل والمغالاة في حب آل البيت وذرية الخليفة الراشدي علي بن آبي طالب محصورة في دوائر دينية ضيقة والتي كان يطغى على أعضائها العنصر الفارسي. لكن بعد تسعة قرون من وفاة الرسول والخلفاء الراشدين، عندما استولى الصفويون على الحكم في الهضبة الإيرانية، تم فرض هذا المبدأ على المؤمنين من قبل الحكام الصفويين، وتم تكريس صفة عصمة الأئمة الإثني عشر عن الخطأ. لقد تجاوز انتشار الاعتقاد في عصمة الأئمة من آل بيت علي حدود الدولة الصفوية، والحدود الجغرافية لإنتشار التشيع الصفوي حتى كاد أن يصبح من أهم المبادئ المشتركة عند عموم الفرق الشيعة المختلفة.

[24] سميره رجب، البحرين، موقع المحرر على شبكة الإنتر نيت

وفكرة مبدأ العصمة تقول أن الأئمة الإثني عشر من آل بيت رسول الله، ابتداء من الخليفة علي بن أبي طالب وانتهاء بمحمد المهدي، الغائب، هم معصومين عن ارتكاب الخطأ، وعن ارتكاب الزلات والمعاصي. وهذه العصمة، حسب فقهاء الشيعة، ورثها الأئمة عن الإمام علي بن أبي طالب كرم الله وجهه. والإمام علي ورثها بدوره عن الرسول علية الصلاة والسلام بحكم قرابة الدم التي تربطه بالرسول، فهو ابن عم الرسول وزوج ابنة الرسول فاطمة الزهراء.

في حين أن الله عز وجل عرف صفات الرسول الكريم وحدد صفة العصمة عنده في تلقيه كلام الله عز وجل عن طريق نزول عليه، كما جاء في قوله تعالى: "واتل ما أوحي إليك من كتاب ربك..."[25] .فالرسول معصوم فقط في ما أوحى إليه "وما ينطق عن الهوى إنْ هو إلا وحيٌ يوحى"[26]. في غير ذلك من أمور الدنيا فالرسول الكريم هو بشر يخطئ ويصيب "قل إنما أنا بشر مثلكم يوحى إليَّ إنما إلهكم إله وأحد..."[27]. لقد توقف الوحي برحيل الرسول العربي إلى جوار ربه الأعلى عز وجل، ولم تعد عصمة عند بشر قائمة بعد ختام الدعوة وإتمام القرآن الكريم دستورا للإسلام، دين للبشرية، دين الفطرة الإنسانية. والعصمة ربطها الله عز وجل برسائل الوحي على الرسول فهي لا تورث ولا تكتسب، فهي منحة من الله عز جلالة يخص بها أنبيائه ورسله عليهم السلام. ولم تمنح هذه العصمة للخلفاء الراشدين و لأئمة الدين مهما علت مكانتهم وقدراتهم.

إن مبدأ عصمة الأئمة عن ارتكاب الخطأ والمعصية، المقصودة أو غير المقصودة، من الإعتقادات الخاطئة والشائعة عند أغلب الفرق الشيعية. إن هذه الإعتقادات تتناقض تناقضاً صارخاً مع تعاليم الإسلام، ومع سيرة الرسول العربي الكريم وأحاديثه الشريفة. والاعتقاد بعصمة الأئمة تتجاوز منطق الإجتهاد والتفسير وتصل إلى مستوى الشرك، ومنح صفات الله وقدرات الله العزيز الحكيم لمخلوق وبشر يحيى ويموت، وهناك ضرورة ملحة إلى إعادة النظر في هذا المعتقد المغالي والمجانب لحقائق البعثة النبوية.

الصفوية في إيران ومبدأ ولاية الفقيه

عاش الشيعة الجعفرية (الإثني عشرية) لقرون وهم يرفضون المشاركة في الحياة السياسية العامة ويكفرون من يشارك في المسؤولية السياسية في الدولة. فالقيادة والإمامة الدينية والدنيوية لا تكون إلا للمهدي الغائب المنتظر حسب التعاليم التي ابتدعت في القرن العاشر الميلادي بعد "غيبة المهدي". المهدي الغائب، الإمام الثاني

---

25 القرأن الكريم، سورة العنكبوت الأية 45 .
26 القرأن الكريم، سورة الكهف الأية 110 .
27 القرأن الكريم، سورة النجم الأية 3- 4 .

عشر، الذي فقد وهو طفل صغير في القرن الثالث الهجري التاسع الميلادي، في مدينة سامراء العراقية يعتبر حسب أتباع المذهب الإثني عشري هو المخلص الذي سيقيم العدل والحق على الأرض عندما يعود إلى الدنيا من جديد.

على الرغم من المشاركة النشطة الكبيرة والواسعة للطوائف الشيعية من الناحية العملية في الحياة السياسية عبر التاريخ، والتي كان أنصار الطوائف الشيعية المختلفة مادتها الأساسية، والتي ساهمت في انهدام ممالك وزوال أمم وقيام كيانات سياسية جديدة على أنقاضها، ظل الفقه الديني الرسمي الشائع يدعي تحريم مشاركة الشيعة في الحياة السياسية الدنيوية المملوءة بالفجر والظلم والجور. الحركة القرمطية والدولة الفاطمية والحركة البويهية وحركة الحشاشين والدولة الصفوية وكذلك الدولة القاجارية هي مجرد أمثلة تدل على تناقض الممارسة العملية مع النص الديني في المذهب الشيعي. فهذه الدول قامت وتأسست على أسس المذاهب الشيعية وقادتها حكموا باسم الشيعة والتشيع ولم ينتظروا قدوم المهدي لقيادة الأمة.

جرت العديد من المحاولات لإعادة النظر في هذا الموقف الديني النظري في تشريع المشاركة في الحكم والسياسة اليومية في إدارة المجتمع إلا إنها فشلت جميعها. فلا قيادة إلا لقيادة المهدي المنتظر. وحاربت القيادات الدينية الشيعية في العراق في سنين الأربعينات والخمسينيات من القرن العشرين القوى والرموز الشيعية التي شاركت في السلطة العراقية وفي مؤسسات الدولة العراقية، تحت مبررات وفتاوى دينية تحرم المشاركة السياسية طالما المهدي المنتظر لم يعود من غيبته. واخذوا بمبدأ "التقية" وهي عدم التعرض للحاكم القائم.

برزت أسماء عدة تقلدت مرتبة الإمام في المؤسسة الدينية حسب الفقه الشيعي في العقود الأخيرة. ففي أعوام الستينيات، كان الإمام محسن الطباطبائي الحكيم، وهو والد كل من محمد باقر الحكيم الذي اغتيل في العام 2003 وعبد العزيز الحكيم الذي اصبح رئيس مجلس الثورة الإسلامية في العراق، وجاء من بعده موسى الصدر الذي اختفى في ليبيا، ثم الخميني. ولا يوجد في الوقت الحاضر إمام للشيعة. وكل تلك الشخصيات الدينية هي من أصول إيرانية. ويعد الإمام في التراتيبية الدينية عند الشيعة وكيلا في القيادة الدينية والدنيوية عن المهدي المنتظر.

وفكرة المهدي المنتظر ليست غريبة عن أساطير التراث الديني الفارسي الزردشتي. حسب الأساطير الفارسية المروية عن سيرة حياة زردشت مؤسس الديانة الزردشتية بأن يكون خلاص العالم في نهايته على يد أحد أبناء زردشت من زوجته الثالثة "هفوفي بنت فراشا اوشترا"، وهو المسمى "اشيزريكا"، والذي سيملأ الارض عدلا مثلما ملئت ظلما وجورا. ففكرة المهدي المنتظر في المذهب الشيعي استحضرت بشكل مباشر من بين أساطير التراث الفارسي على أغلب التقديرات.

وبعد مجيء الخميني ومشاركته الفعالة في الحياة السياسية وقيادة إيران كان لابد من كسر هذا الطوق الفقهي وإيجاد مخرج نظري وحل التناقض الحاصل بين النظرية والممارسة للقيادات الدينية الشيعية ولولوج منعطف السياسة لا بد من شروح وفتاوى دينية تسمح في قيادة المجتمع. فعمد الخميني على وضع نظرية متكاملة أطلق عليها اسم "ولاية الفقيه". وأصدر كتابا بهذا المعنى. مضمون هذه النظرية هو:

- ضرورة قيام الدولة الشيعية،
- وان الإمام الأعلى أو المرشد الأعلى أو الفقيه هو الذي يمثل الإمام المهدي المنتظر وينوب عنة في غيبته.
- وهذا الإمام الفقيه يتمتع بصفات المهدي المنتظر وحقوقه على الرعية. ومن أهم صفات هذا الإمام الفقيه، ولي أمر المسلمين، تمتعه بالعصمة عن ارتكاب الخطأ. تلك العصمة التي نالها من الإمام المهدي الغائب الذي ينوبه في القيادة أثناء غيبته،
- وعلى الرعية طاعة هذا الإمام الفقيه طاعة مطلقة.

تمكن الخميني من إقامة نظام الحكم في إيران على أساس هذه المبادئ وتم تعيين مرشداً أعلى للدولة الإيرانية الإسلامية، ونص دستور هذه الدولة على أنها دولة تتبع المذهب الجعفري. ومن هذا الباب أدخلت نصوص شرعية إلى تعاليم المذهب الشيعي الإيراني يسمح ويجيز ممارسة السياسة وقيادة الدولة .

وقد انتقلت هذه الأفكار للمذهب الشيعي للعراق بحكم التواجد الإيراني في مدن العراق المقدسة عند الشيعة مثل النجف وكربلاء. ومن خلال الأحزاب السياسية الشيعية التي استوردت أفكارها من الحوزات الإيرانية والتي تجعل من مصلحة الطائفة برنامجها السياسي. ودخلت فكرة ولاية الفقيه إلى العراق من خلال رجالات الحوزة العلمية في النجف التي يسيطر عليها رجال دين إيرانيون، وعراقيون من أصول إيرانية، حافظوا على علاقاتهم التقليدية مع المراكز الدينية والسياسية الإيرانية. لقد اصبح من المألوف تزعم الإمام والمرجع الديني لقيادة الحركة السياسية والحزب السياسي، وأصبح الإمام هو الموجه والقائد في المجتمع والدولة، بالإضافة إلى تمتعه بالقيادة الدينية .

لا تكمن خطورة هذه النظرية وهذا التوجه في تدخل رجل الدين في السياسة، فهذا الأمر في الممارسة هو تحصيل حاصل عند كل الشعوب، وفي كل المجتمعات، بصرف النظر عن الدين والمذهب الذي تدين به تلك الشعوب والمجتمعات، وإنما تكمن خطورة هذا التشريع وهذا المبدأ بوضع "الولي الفقيه" فوق القانون وفوق المحاسبة لأن هذا "الفقيه" الحاكم المطلق "معصوم عن الخطأ" وورث صفات "إمام الزمان" المهدي في "العصمة" حسب الفقه الشيعي الصفوي. المرشد الأعلى، بنص شرعي في الدولة

الإيرانية، هو أعلى سلطة في الدولة ، ورأيه غير قابل للرد أو التصحيح. الولي الفقيه غير قابل للعزل، وبقاء سلطانه المطلق مقرر بفترة مدى الحياة. إن هذا الشكل من الحكم الممارس في الدولة الإيرانية لا يمت بصلة من قريب أو بعيد للفهم الإسلامي في اختيار الحاكم. ذلك الاختيار الذي يتمحور حول مبدأ (وأمرهم شورا بينهم). وهذا النظام السياسي في طهران بعيد أيضاً كل البعد عن النظم السياسية الديمقراطية ذات النمط الغربي. بل يقترب من نمط أشكال الحكم المطلقة التفرد في السلطة التي سادت في عصور الظلام في التاريخ البشري.

من خلال بروز وهيمنة المجتهدين الفرس بشكل خاص والإيرانيين بشكل عام على مراكز الفقه الشيعي في النجف وكربلاء وقم ومشهد حصل طغيان للفهم الصفوي والتشريع الصفوي للتشيع، وأدى في نفس الوقت إلى انحسار الفقه العربي في التشييع. هذا التطور داخل الطوائف الشيعية الجعفرية خلق، بالإضافة إلى التباينات الكبيرة، التي أصبحت جلية وواضحة بين التيار الشيعي العربي والتيار الشيعي الصفوي، فجوة سياسية وفجوة فقهية كبيرة بين المذاهب السنية والمذاهب الشيعية، وأدت إلى تباعد وانعزال الطائفة الشيعية الإسلامية أكثر فأكثر عن بقية المدارس الفقهية الإسلامية الأخرى.

مدرسة العرب (العليين) أو(العلويين) في التشييع المنتشرة بين صفوف العرب الشيعة في العراق والأحواز ولبنان وغيرها من دول الخليج العربي تم اختراقها بعد انتصار الثورة الإسلامية في إيران عام 1979 من خلال سياسة تصدير الثورة، وتصدير التجربة الإيرانية المستمرة بشكلها المنظم. الشيعة العرب يعيشون حاله إرباك شديدة ويمر التشيع العربي أمام التشيع الصفوي الفارسي في حالة تقهقر دائمة. فالمراقب لمراسيم "العزاء الحسينية" ومراسيم اللطم والبكاء التي تدار في المناسبات الدينية يلحظ الشكل المنظم والمدروس والملقن للمجموعات التي تقود هذه المراسيم. الطابع والشكل الفارسي هو المهيمن على تلك المراسيم، بداية من الخط الذي يستعمل في كتابة الشعارات السياسية والدينية، أي الخط الفارسي، مرورا، وعبر النغمات والألحان المستعملة في أناشيد الحزن على مقتل الحسين، وصولاً إلى شكل ومضمون المراسيم التي يغلب عليها التراث الفارسي، واسقاطات التاريخ الفارسي.

بعض الكتاب والمفكرون العرب يعتقدون بأن الاجتهادات القديمة والجديدة في المذهب الشيعي الصفوي هي محاولات مقصودة من قبل غلاة الفرس لإفراغ الإسلام من محتواه الحضاري، وزرع حواجز عقدية بين المسلمين يصعب على هذه الأجيال والأجيال القادمة تجاوزها لتبق جرح نازف في جسم الأمة لا يندمل.

أشكال الطائفية المعاصرة

الطائفة هي كائن اجتماعي حي، وهي ظاهره يساوى وجودها وظهورها بين المجتمعات البشرية زمن استقرار الجماعات البشرية في الحواضر والمدن. تتشكل الطوائف عبر تبني أفراد ومجموعات بشرية فكرة أو مذهب من المذاهب الدينية بعد حصول تمايز واختلاف في فهم أسس وقواعد دين من الأديان. الإنشقاق في المؤسسة الدينية ينتج عنه في أغلب الأحيان انشقاق في القواعد الشعبية لهذه أو تلك الديانة. الطائفة ظاهرة اجتماعية محايدة ولا تحمل الصفات الإيجابية ولا الصفات السلبية. لكن هذه الظاهرة، وهذا المكون الاجتماعي، يمكن أن يحرك ويستغل من أجل فرض وتحقيق مكاسب لبعض الأطراف. يمكن أن تكون هذه الأطراف جزء من الطائفة أو غير ذلك.

عندما تحرك وتثار مشاعر الانتماء إلى الطائفة، وتصبح أعداد متزايدة تهتم في إبراز هذه المشاعر، بقصد التمييز عن الجماعات البشرية الأخرى، ومصحوبة بمشاعر العداء للطوائف والمجموعات البشرية الأخرى، يصبح المجتمع يعيش أجواء من الطائفية. الاهتمام في تعبئة وشحن الناس لمجر انتمائهم إلى طائفة من الطوائف، وجرهم لاتخاذ مواقف حول قضية متداولة في المجتمع حسب انتماءاتهم المذهبية، تكون الطائفية بتأثيراتها السلبية قد طلت برأسها. الطائفية هي ظاهرة من ظواهر انقسام المجتمعات وتحمل في طياتها عوامل النزاع وعوامل التنافر والأحقاد والصراع.

هناك نوعان من الظواهر الطائفية المنتشرة في اكثر من مكان في العالم:

"الطائفية الاجتماعية"

"الطائفية السياسية" .

هاتين الظاهرتين من أشكال الطائفية مترابطتان ومتلازمتان، وكل منهما يصبح سبب لنشوء وشيوع الآخر. الطائفية الاجتماعية هي الأكثر شيوعاً بين الناس ولها حضور في اكثر من ثلاثين دولة من دول العالم. في حين أن الطائفية السياسية غير مكرسة إلا في بلد وحيد في العالم وهو لبنان العربي. ويجري العمل الحثيث على تكريس هذا النوع من الطائفية في قطر عربي آخر هو العراق العربي المحتل.

الطائفية الاجتماعية

عندما يبدأ بعض الأفراد في تجميع الأنصار والمريدين على أساس الوحدة الدينية وعلى أساس الوحدة المذهبية، ويصبح من المألوف تحديد علاقات الأفراد داخل المجتمع، وفي الممارسات اليومية في السكن والبيع والشراء والزواج ...الخ، عبر مقاييس الانتماء إلى هذا الدين وذاك المذهب، وإذا ما ظهرت حالات الفرز في مناطق السكن والانعزال بين الجماعات الدينية، يكون المجتمع قد وقع في وباء الطائفية الاجتماعية.

الطائفية الاجتماعية ظاهرة ليست ثابتة الحدة، بل متحركة وتمر في مراحل الشدة والتلاشي، وتتأثر في اكثر من عامل من العوامل، سلباً وإيجابا. فحدة بروز وانتشار الطائفية الاجتماعية يرتبط ويتأثر في جملة من العوامل الداخلية يعيشها المجتمع.

الوضع الاقتصادي للفرد والمجتمع،

انتشار التعليم والوعي العام

سيادة القانون والعدالة الاجتماعية

الخبرة التاريخية لمكونات المجتمع مع التعددية الدينية والعرقية

مضامين الديانات والمذاهب من تعاليم ومبادئ

كل هذه العوامل تؤثر في تمدد أو انحسار الطائفية الاجتماعية في عصر من العصور وفي ظرف من الظروف.

وكذلك تتأثر وتتفاعل ظاهرة الطائفية الاجتماعية بعوامل خارجية تفرض نفسها بشكل دائم أو بشكل طارئ ومؤقت على مجتمع من المجتمعات، وتتولد عبر شروط هذه العوامل الخارجية ظاهرة الطائفية. أهم التغيرات الخارجية التي تؤثر في تأجيج الطائفية هي التالي:

التغيرات السياسية في مناطق الجوار، كالحروب، والشعور بالخوف والخطر من حدوث تطورات سلبية تنعكس على المجتمع.

الغزو الخارجي الذي يحمل معه أدوات التفرقة وشق صفوف المجتمع المقصود بالغزو

الكوارث الطبيعية التي تسبب في إفقار المجتمع وتعقد أساليب العيش على الناس

الطائفية الاجتماعية عاشتها وتعايشت معها أغلب المجتمعات البشرية، ويكاد لا يخلو مجتمعاً من آثار الطائفية الاجتماعية. وهذه الظاهرة هي المسؤولة في اغلب الأحيان عن نسج قوالب جاهزة وصياغة أحكام مسبقة في وصف الأفراد والجماعات لمجرد انتمائهم

إلى هذا الدين وذاك المذهب. يساعد على استمرار هذه الأحكام المسبقة والتي تكون في اغلب الأحيان مجافية للحقيقة والواقع، طول انعزال الجماعات البشرية عن بعضها البعض، وعدم الانفتاح والتعرف على هموم ومعتقدات الآخرين.

مناخات انتشار الطائفية الاجتماعية ظلت على الدوام أحد المرتكزات الأساسية التي يتم استغلالها من قبل بعض القوى وبعض الأفراد والعناصر ذات الميول العدوانية، والفاقدة للاحترام والتقدير داخل المجتمعات التي تعيش بين أوساطها. الطائفية الاجتماعية هي استعداء أو اضطهاد أبناء طائفة أو دين ضد أخرى. الانقسام والانعزال وشيوع أجواء الشك وعدم الثقة بين فئات المجتمع والشعب الواحد، والانقسام الاجتماعي على أساس الانتماء الديني والانتماء الطائفي، هي بالتأكيد ظاهرة من ظواهر الطائفية الاجتماعية.

تظهر الطائفية الاجتماعية في كثير من المجتمعات الإنسانية وفي كل الحقب الزمنية عبر مسيرة الشعوب الطويلة. تعمل الحكومات الوطنية والحكومات القومية، في اغلب دول العالم، على تخفيف حدة الطائفية الاجتماعية داخل مجتمعاتها. القوى الحاكمة في الدولة تعمل على نشر السلم الاجتماعي، ورفع درجة الانسجام بين مكونات المجتمع، كضرورة من أجل الحفاظ على شكل وكينونة الكيان والنظام السياسي الذي تقوده تلك القوى. بالمقابل تسعى القوى الداخلية والقوى الخارجية المعادية لهذه الدولة، وذاك الشعب، إلى تأجيج الصراعات الطائفية والدينية داخل المجتمع لغايات وأهداف لا يمكن أن تصب في مصلحة الشعب والمجتمع المستهدف.

الطائفية الاجتماعية مرض من أمراض الإجتماعية التي تعمل على إرهاق المجتمعات، ويعطل قدرات أبنائه المادية والثقافية، بالإضافة إلى فتح أبواب ونوافذ للاختراقات السياسية، التي تسهل للقوى الخارجية الطامعة في التدخل في الشؤون الداخلية لهذه الدولة وذاك الشعب. من خلال تكريس الانشقاق الاجتماعي، وخلق النصوص والقوانين والدساتير التي تشرع هذا الانشقاق، يتم نقل هذه الظاهرة إلى حالة أخرى، وإلى مرتبة أعلى في الخطورة على المجتمع. من خلال تكريس الطائفية الإجتماعية في الجهاز التنظيمي للدولة يتم إنتاج وصنع الطائفية السياسية.

الطائفية السياسية

الطائفية السياسية هي في أغلب الأحيان، تفاقم لظاهرة الطائفية الإجتماعية. وهاتان الظاهرتان من الطائفية مرتبطتان عضوياً وجدلياً ببعضهما البعض. وتساهم الواحدة بنشوء الأخرى وتغذيها. الطائفية السياسية هي تعبير سياسي متداول في أجهزة الإعلام ويمارس داخل وخارج الأروقة السياسية. هذا النوع من الطائفية يعني بالدرجة الأساسية:

تكوين الأحزاب والمنظمات السياسية ومنظمات المجتمع المدني لتستوعب الأعضاء من طائفة أو دينٍ معين دون غيره، وتحجب العضوية، من خلال الصياغات الصريحة والمبطنة في شروط العضوية لهذه الأحزاب وتلك المنظمات. يمارس هذا الحجب من خلال الأهداف المعلنة وغير المعلنة لتلك المنظمات السياسية.

الأهداف السياسية والاجتماعية التي تصيغها تلك الأحزاب والمنظمات الطائفية تحصر، بالغالب، في حدود امتداد أحد الطوائف المعنية بتلك المنظمة.

تعمل تلك الأحزاب التي تتبنى الطائفية في العمل السياسي على تعميم هذا الشكل من العمل السياسي داخل المجتمعات، وعلى فرض النظام السياسي في مؤسسات الدولة والحكومة، وكذلك طريقة الحكم، التي تتم حسب التوزيعات الطائفية والدينية داخل المجتمع، وليس حسب الانتماء للوطن وحق المواطنة الطبيعي.

الصراع والتنافس السياسي يغلب عليه الصراع والتنافس الطائفي والديني، بدل التنافس والصراع الأيديولوجي والفكري والطبقي.

الوعي والانتماء الطائفي ينمو ويتعزز على حساب الوعي والانتماء الوطني والقومي. تتراجع وتطمس مصلحة الوطن العليا أمام مصلحة الطائفة العليا، ويصبح فهم الخيانة الوطنية قضية نسبية وربما وجهة نظر أيضاً. ما يحدث في العراق ولبنان واليمن من الشواهد الحية على ذلك.

الوحدة الوطنية في العمل السياسي الطائفي تعني طائفة زائد طائفة زائد طائفة... الخ ولا تعني الشعب والأمة وهي قابلة للتفتت مرة أخرى مع كل أزمة سياسية مهما كانت بسيطة.

يعني أن النظام السياسي قائم في إدارة شؤون المجتمع على أسس المحاصصة حسب نسب الطوائف وممثلي هذه الطوائف، وليس حسب الكفأة والقدرة المهنية أو السياسية، والتنظيمية للمسئولين في الدولة. فالحكومة وكل المؤسسات الحكومية في الدولة تصبح إنعاسا وتكريساً لانقسام المجتمع والشعب، بدل أن تكون جهاز ربط وتوحد بين مكونات الأمة والشعب والمجتمع.

التاريخ البشري أكد حقائق غير قابلة للرد والنفي، بأن إقرار نظام الطائفية السياسية في بلد من البلدان إما أن يكون ثمرة حرب أهلية ضروس أو سيكون هذا النظام مقدمة لحرب أهلية قادمة لا محال. المجتمعات التي تبتلي بهذا النوع من العمل السياسي كتب عليها أن لا تنعم بالاستقرار، وهي عرضة للعواصف السياسية الكبيرة والمدمرة في كل لحظة من لحظات الزمن.

في أغلب الأحوال تفرض الطائفية السياسية على مجتمع من المجتمعات فرضاً، وقل ما تختار النخب الوطنية هذا الشكل من العمل السياسي. على الأغلب، تفرض القوى والدول القوية المنتصرة، بعد صراع في حروب، الطائفية السياسية على المجتمعات الضعيفة والدول المهزومة هذا النوع من النظم السياسية. حسب استراتيجية "فرق تسد" تختار الدول والمجتمعات الكبيرة هذا الشكل من الحياة والنظام السياسي للدول والمجتمعات المهزومة حتى تبقى هذه الدول والمجتمعات مشتتة وضعيفة وقابلة للابتزاز في كل زمن.

نظام الطائفية السياسية يحدد إملاء المواقع القيادية في الدولة على أساس اتفاق الأحزاب الطائفية فيما بينها، ويحدد عدد المقاعد لكل طائفة وجماعة دينية في المؤسسات التمثيلية للدولة، مثل البرلمان والمجالس الاستشارية إن وجدت وفي أغلب مؤسسات الدولة.

إن تثبيت المحاصصة الطائفية في الحكومة ومؤسسات المجتمع المدني، هي وضع اللبنات الأساسية لمجتمع ذو نزعة طائفية، وبذلك بدلاً من أن تلغي النعرة الطائفية في الممارسة الاجتماعية، تكون قد عملت على تكريس الطائفية السياسية أيضا في مؤسسات المجتمع المدني، وستساهم مساهمة مباشرة في تكريس عملي للطائفية بشقيها السياسي والاجتماعي.

عبد المالك سالمان يصف الحال اللبناني مع الطائفية السياسية في مقال تحت عنوان (كيف يتجنب لبنان خطر الانزلاق إلى الحرب الأهلية) بالتالي: "ولقد كان شعور طوائف معينة بأنها محرومة أو مغبونة سواء سياسيا أم اقتصاديا أم تنمويا أم إداريا، وان النظام السياسي منحاز لطوائف معينة على حساب أخرى، هو الباب الذي يقود إلى خلق أجواء الأزمة في لبنان. فشعور طائفة معينة بأن حقوقها مهدورة يقود إلى شعورها بالظلم الاجتماعي والسياسي، فتتجه إلى التمرد والعصيان، ومن ثم تتجه إلى البحث عن حلفاء لها سواء في الداخل للتكتل معها ضد النظام السياسي، أم في الخارج عبر الاستقواء بقوة إقليمية أو دولية تساند مطالب وشكاوى هذه الطائفة أو تلك. ومع الوقت تتحول المساندة الخارجية لهذه الطائفة أو تلك إلى ورقة ضغط ضد الطائفة ذاتها وضد الواقع السياسي في النظام السياسي ذاته، لانه يضيف إليه عوامل توتر وعدم استقرار سرعان ما تقود إلى الاحتقان والتأزم السياسي"[28]

الطائفية، بشقيها السياسي والاجتماعي، لا تنسجم مع طبيعة مهام الحكومة المهنية. في الحكومة المهنية يسود مبدأ الكفاءة والخبرة المهنية في إدارة شؤون الدولة. وفيه تغلب روح القيادية الجماعية والتخطيط والإخلاص في خدمة المجتمع والدولة. لكن القيادة، في أي مؤسسة من مؤسسات الدولة، المبنية على أسس المحاصصة الطائفية، لا يمكن

[28] موقع التجديد العربي على شبكة الإنتر نيت الدولية.

أن تكون ممثلة لمصلحة المجتمع والمؤسسة التي تعمل بها، بل ستظل المؤسسة مكان وإمكانية للتعبير عن المصالح الفئوية والطائفية المتصارعة والمتباغضة.

البعد السياسي والصراع على الأرض
الاحتلال الفارسي للساحل الشرقي للخليج العربي

الجوار الجغرافي بين بلاد العرب وبلاد الفرس كان دائما أحد العوامل الأساسية التي ساهمت في تحديد شكل العلاقات العربية ـ الفارسية. فالتوغل الفارسي في أرض العرب خلال المائة عام الأخيرة لم يكن حدث طارئ غير مألوف وفريد على تاريخ وحاضر هذه المنطقة. فالاجتياح الأخميني لبلاد بابل والشام ومصر في عهد الملك قورش وقمبيز، في القرن السادس قبل الميلاد، مروراً في احتلال الأرض العربية في العراق والشام واليمن في عهد الملك الساساني "كسرى أنو شيروان" قبيل البعثة النبوية الشريفة بزمن قليل، هي أحداث تاريخية تشكل محطات مهمة تساهم في رسم الذاكرة الجماعية للشعوب، وتترك بصماتها على الأطراف في تحديد نوع العلاقات المستقبلية بين الأطراف. حقبة من الزمن قريبة ومتصلة في حاضرنا المعاش لابد من التذكير بها ورسم بعض من ملامحها، لما لهذه الحقبة من تأثير مباشر على العلاقات السياسية العربية ـ الإيرانية. هذه الحقبة تزامنت مع نشأة الدولة الصفوية ـ الفارسية. تلك هي فترة الغزو الأوروبي للخليج العربي في بداية القرن السادس عشر.

بدأ الغزو الأوروبي للخليج العربي بصورة فعلية عام 1507م، حين تمكن الأسطول البرتغالي بقيادة "الفونسو البوكيورك" من تثبيت تواجده في مداخل الخليج العربي، كما لعبت شركة الهند الشرقية دوراً كبيراً في تمكين الدول الغربية من دخول منطقة الخليج العربي. وقد تنافس الأوروبيون فيما بينهم على نهب خيرات المنطقة والاستيلاء على مواقعها الاستراتيجية. كما لعبت شركة الهند الشرقية (البريطانية) والأسطول الحربي البريطاني دورا خطيرا في التنافس والسيطرة على المنطقة. لقد تزامن وصول الغزاة الغربيين إلى الخليج العربي مع تشكيل الدولة الصفوية في بلاد فارس، وانتقال هذه الدولة من مرحلة التكون إلى مرحلة الهجوم على الأطراف والتوسع باتجاه الجنوب والغرب العربية. قدوم الإنجليز إلى منطقة الخليج العربي والتنافس مع البرتغاليين على مناطق النفوذ مهد للصفويين في إيران من إمكانية التدخل في الخليج العربي في عام 1602م. تحالف الإنجليز والفرس الصفويين ضد الوجود البرتغالي من جهة، ومن جهة أخرى ضد الإمارات العربية المنتشرة على سواحل الخليج الشرقية والغربية.

احتل الفرس الصفويون جزر البحرين على الساحل الغربي للخليج العربي في عام 1602م وتم إخراجهم منها بعد فترة وجيزة على يد القبائل العربية في الخليج بقيادة حاكم

"عمان". ومرة أخرى هاجمت القوات الفارسية البحرين عام 1736 في زمن "نادر شاه" ملك بلاد فارس، وأخرجت القوات الفارسية من جزيرة البحرين مرة أخرى بعد فترة وجيزة من احتلالها مباشرة بعد موت "نادر شاه".

تمكن الهولنديون والفرنسيون من دخول الميدان ليزاحموا الأوروبيين الآخرين على النفوذ. حاول البريطانيون ترتيب الأمور مع الغزاة الأوروبيين الجدد عام 1756م ومنعهم من كسب موطئ قدم هناك، لكن الفرنسيين تمكنوا من احتلال ميناء "جرون"، وهو جمع كلمة "جرن" أي حوض الماء المصنوع من الصخر، الذي كانت تديره قبائل القواسم العربية في عام 1758م (مينا بندر عباس) الحالي.

لعبت إمارات ساحل الأحواز الجنوبي إلى جانب إمارة كعب آل بوناصر في الساحل الشمالي للخليج دورا بارزا في صد هجمات الغزاة الأوروبيين لفترة طويلة من الزمن. لقد تم دحر البرتغاليين من منطقة الخليج العربي في نهائيا عام 1622م وبقيت الإمارات العربية منفردة في مواجه البريطانيين والدولة الفارسية الصفوية. وحافظت الإمارات العربية في الساحل الشمالي والشرقي للخليج العربي على استقلالها، المطلق والنسبي، لعدة قرون.

وفي عام 1763م اتفق البريطانيون مع حاكم "أبو شهر" العربي "سعدون بن ناصر آل مذكور" واتخذوا من أبو شهر مركزا لهم ومقرا للمقيم السياسي البريطاني في منطقة الخليج العربي ممثلا عن الحاكم البريطاني في بومباي في الهند.

تمكن البريطانيون في عام 1904 م من الاستيلاء على ساحلي الخليج العربي الشرقي والغربي. وخرجت فرنسا نهائياً من منطقة الخليج العربي، وشهد نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين ذروة الانتصارات العسكرية والسياسية البريطانية، وتمت السيطرة البريطانية الشبه كاملة على منطقة الخليج العربي بضفتيه الشرقية والغربية.

بعد التكالب بين الدول الاستعمارية على خيرات المنطقة ومواقعها الاستراتيجية، ولكونها بجانب ذلك موردا للمواد الغذائية وأسواقا رائجة للصناعات الأوروبية، سارت الأمور في صالح الاستعمار البريطاني، خاصة مع تدفق النفط في المنطقة، ولهذا سعت بريطانيا من أجل الاستحواذ على هذه الإمارة بشكل فعال أن تقيم تحالفا بينها وبين الأمير "خزعل الكعبي" حاكم إمارة المحمرة (أكبر إمارات الأحواز)، الأمر الذي جعلها تتعهد للشيخ خزعل بحماية حكمه من أي اعتداء أجنبي. ولكن بريطانيا، وبعد الاستيلاء على منطقة الأحواز العربية في شمال وشرق الخليج قام الإنجليز بمساومة حكام فارس على تلك الإمارة، وذلك لقاء ضمان مصالحهم واستثماراتهم النفطية في تلك المنطقة . بعد عدة معارك خاضتها الجيوش الفارسية لاحتلال إمارة الأحواز استطاع جيش الأمير العربي خزعل من صد تلك الهجمات وكاد الفرس يتراجعون ويسلمون باستحالة

احتلال تلك الإمارة العربية الباسلة. لجأ الفرس إلى الخديعة وبتوسط بريطاني استدعي الأمير خزعل الكعبي حاكم الأمارة إلى يخت رضا خان ملك فارس الراسي في شط العرب بالقرب من مدينة المحمرة عاصمة إمارة الأحواز في حينه لتناول العشاء وللتوقيع على صك الاعتراف الفارسي باستقلالية الإمارة العربية، وعقد اتفاقيات متبادلة بين دولتين ذات سيادة مستقلة عن بعضها البعض. تنحت بريطانيا جانباً وأخلت بتعهداتها وتخلت عن دور الوساطة بين رضا خان والأمير خزعل. لقد مهدت بريطانيا الطريق أمام رضا خان بهلوي للاحتيال على الأمير خزعل للتمكن من أسره ومن بعد ذلك احتلال المنطقة عسكريا في ليلة 19 على 20 من شهر نيسان عام 1925 م. كانت هذه هي بداية الهيمنة الإيرانية على الأحواز. ولكن الشعب العربي الأحوازي واجه سلطات الاغتصاب الفارسي بالرفض والمقاومة.

الإمارات العربية المحتلة
على الساحل الشرقي للخليج العربي

سكنت القبائل العربية الساحل الشرقي للخليج العربي منذ فجر التاريخ. فالخليج العربي بساحليه الشرقي والغربي كان المجال الحيوي لحركة القبائل العربية بقرون طويلة قبل ظهور الدعوة الإسلامية. الآثار والحفريات تؤكد حقيقة تواجد إنسان الجزيرة العربية واستقراره على الساحل الشرقي للخليج منذ عصور وحقب موغلة في القدم. لقد سبق تواجد القبائل العربية السامية، العيلامية والآكادية والآشورية، في الهضبة للشرق من جبال زاغاروس، التواجد الفارسي بأكثر من 1800 عام. كان الساحل الشرقي للخليج العربي (الأحواز) والهضبة جزء أساسي من أجزاء الدولة البابلية والآشورية لأكثر من ألف عام قبل وصل الفرس إلى تلك الديار.

لقد كان الساحل الشرقي ايضاً منطلقاً للعرب للتنقل والانتشار إلى مناطق قريبة ومناطق بعيدة من جبال البختيار وبلاد فارس. كثير من قبائل "البختيارية" يعرفون انفسهم بالعرب ويفتخرون في أصولهم العربية. إن وصول بعض الهجرات العربية إلى وسط الهضبة الإيرانية وأطراف أفغانستان في العصور التي سبقت الدعوة الإسلامية والإقامة في تلك البلدان قادمة من شبه الجزيرة العربية واليمن هي ايضاً من المسلمات التاريخية.

سيطرت قوى سياسية متعددة على هذا الساحل لكن الطابع العربي لسكان هذا الإقليم لم ينقطع أبداً وظل ملازماً لهوية سكان هذه المنطقة، وبقي مستمراً حتى يومنا هذا. لم ينحسر الحضور العربي السكاني والسياسي على الساحل الشرقي للخليج العربي، بل تعدى ذلك التواجد إلى تشكيل الكيانات السياسية الصغيرة والكبيرة. وإلى بناء الدول والإمارات التي عمرت وسيطرت على مساحات شاسعة وبنت الموانئ والأساطيل البحرية التي تحدت القوى الغازية القريبة والبعيدة لقرون طويلة وهزمتها أحيانا وتراجعت أمامها تارة أخرى.

بدأ تشكل الكيانات السياسية العربية في الخليج العربي بعد انحسار قوة دولة الخلافة العربية ومع بداية دخول القوى الأجنبية الغربية إلى المنطقة. مع بداية ظهور القوى الأوروبية الغازية على شواطئ جنوب الجزيرة العربية، وفوق مياه الخليج العربي، بدأت القبائل والعشائر العربية تتجمع وتشكل كيانات وإمارات سياسية من جديد، وتتحالف في ما بينها لصد الأخطار التي تلوح في الأفق. الخطر الأوروبي الذي اصبح يقيم القواعد ويجتاح الموانئ على ضفاف الخليج، وسفنه الحربية تمارس أعمال القرصنة البحرية وتعطيل التجارة والصيد، أصبح أمراً واقعاً وقوة تهدد المنطقة.

الإمارات والكيانات العربية التي قامت وتشكلت علي ضفتي وشمال الخليج كان لها مساهمة فعاله، في غياب الدولة العربية المركزية القوية، في صد كثير من الهجمات الخارجية على المنطقة والحفاظ على الهوية العربية للشعب والأرض. ففي الساحل الشرقي الجنوبي يعود تشكيل الإمارات العربية فيه إلى بداية القرن السادس عشر متزامنة مع نشأة الإمارات على الساحل الغربي للخليج. وقد أنشأت القبائل العربية على الساحل الشرقي كيانات سياسية مكملة للإمارات العربية على الساحل الغربي للخليج ومتشابه في تكويناتها الاجتماعية مع تلك الإمارات.

إقليم الأحواز المحتل

(عر بستان)

قضية الأحواز (عربستان) هي أحد القضايا الأساسية في العلاقات العربية الإيرانية المتوترة. وعلى أرض الأحواز، وحول الأحواز، دارت عبر التاريخ عدة معارك وحروب بين العرب والفرس. آخر هذه المعارك والحروب كانت المعارك العسكرية بين الجيش العراقي والجيش الإيراني عام 1980 في بداية الحرب العراقية ـ الإيرانية التي دامت ثمانية أعوام متتالية.

الأحواز هو ذاك الإقليم العربي الواقع في شمال وشرق الخليج العربي وإلى الشرق من شط العرب. يحد هذا الإقليم من الشرق جبال زاغروس ومن الجنوب جبال البختياري. مساحة هذا الإقليم العربي تقارب ال 324 ألف كم مربع. يسكن هذا البلد العربي قرابة الإثنا عشر مليون مواطن عربي. يتكون مجتمع الأحواز بالدرجة الأولى من مجموعات قبلية وعشائرية. فقبائل "بني كعب" و "بني طرف" و "بني طي" و "بني عامر" و "شمر طوقة" و "بني كثير" وقبيلة "الزرقان" هي من أهم القبائل القاطنة مدن وأرياف الأحواز(عربستان). وقد أحصيت أكثر من ثلاثة مئة وخمسون قبيلة وعشيرة عربية تقطن في هذا الإقليم في الوقت الحاضر. بعض هذه القبائل يزيد عدد أفرادها على النصف مليون فرد.

سكن العرب الضفة الشرقية للخليج العربي منذ فجر التاريخ. الوجود العربي في تلك الديار استمر إلى يومنا هذا، على الرغم من تغير العصور والأزمان والظروف السياسية في المنطقة ومحيطها، ظل طابعها عربي. لقد كانت منطقة جنوب العراق ومنطقة الأحواز مغمورة بمياه الخليج ومياه الأنهر الكثيرة التي تنقل مياه الجبال إلى الخليج. عندما بدأت المياه تنحسر رويداً رويداً عن تلك المناطق بفعل ترسب التربة والطمي من مياه الأنهر في الألف الثالثة قبل الميلاد، سكنت تلك الأرض مجموعات بشرية سامية قادمة من الجزيرة العربية والعراق. فمنذ العصر البابلي الأول، 2800 عام قبل الميلاد عرف تواجد للقبائل العربية (القبائل السامية) على ضفاف نهر الكارون في تلك الديار. لقد عرفت هذه القبائل والمجموعات البشرية السامية التي استوطنت الأحواز بالقبائل "العيلامية" التي كانت خاضعة من الناحية السياسية إلى سلطة الدول الآكادية في العراق وعاصمتها "أور" في وسط العراق. ومن ثم سيطر العيلاميون في عام 2320 ق.م على العراق والساحل الشرقي للخليج العربي. وفي عهد الملك البابلي

حمورابي عام 2094 ق.م أصبحت العراق و"عيلام" تحت السيطرة البابلية بعد ما كان نفوذ المملكة البابلية مختصراً على عراق ما بين النهرين. قويت مملكة آشور وسيطرت على مملكة بابل وحواضرها من عيلام (الأحواز اليوم) وقضت بالتالي على المملكة العيلامية في عام 646 ق.م .

تكونت الدولة الفارسية الأولى في عهد الملك قورش من القبائل الأخمينية في العام 546 ق.م. استولت المملكة الأخمينية على مملكة بابل الثانية في عام 539 ق.م وكذلك على الأحواز في نفس العام. ثم وقعت الأحواز تحت حكم الإكسندر الكبير الذي غزا الشرق واحتل المنطقة وقضى على الدولة الفارسية الأولى (الأخمينية) عام 333. ق.م. عاشت العراق والأحواز وكل الساحل الشرقي للخليج العربي حالات اضطراب وعدم استقرار بعد تمزق دولة الإسكندر الكبير (الدولة الإغريقية).

كانت الأحواز جزء من مملكة العرب المناذرة عندما بدأت الدولة الساسانية بالتشكل في القرن الثالث بعد ميلاد السيد المسيح عليه السلام، وظلت الأحواز كذلك حتى الفتح الإسلامي المظفر عام 635 ميلادي. بقيت هذه البلاد كجزء من دولة الخلافة العربية الإسلامية إلى أن انهارت دولة الخلافة العباسية بعد اجتياح جحافل الزحف المغولي عاصمة الخلافة بغداد في العام 1258 م. وقعت الأحواز وبقية مناطق الشرق العربي والإسلامي تحت هيمنة سلطات الاحتلال المغولي ومن ثم نشأت إمارات عشائرية ومحلية في إقليم الأحواز تتسع أو تنحسر مناطق نفوذها حسب الظروف وحسب ميازين القوى المحلية والإقليمية المحيطة لتلك الإمارات.

تمكنت عشائر تركمانية في الهضبة الإيرانية من تكوين دولة ذات ملامح فارسية في العام 1506 ، وكذلك تمكن الترك العثمانيين في العام 1518 من تأسيس دوله لهم انطلاقاً من هضبة الأناضول على أنقاض دولة الخلافة العربية. في تلك الأثناء صعد نجم حاكم عربي في الأحواز، وأسس لقيام كيان عربي عتيد في شمال شرق الخليج العربي. الشخصية العربية، "محمد بن فلاح المشعشي"، شيد في القرن الخامس عشر إمارة الأحواز، وأسس لحكم عائلة المشعشعين. في هذا الوقت وفي تلك الظروف وقعت الأحواز على خط التماس بين الدولة الصفوية والدولة العثمانية المتنافستين والمتصارعتين.

لعبت دولة الأحواز العربية، في اغلب الأحوال، دور المنطقة العازلة والقوة الثالثة في التوازنات السياسية الإقليمية. "ذكر المؤرخ البرتغالي بيدرو تاسكيرا الذي زار منطقة شط العرب سنة 1604 بان جميع من في المنطقة الواقعة إلى شرق شط العرب كانت تؤلف إمارة عربية يحكمها مبارك بن عبد المطلب وكانت هذه الإمارة مستقلة عن

الفرس والأتراك الذين يحكمون العراق"[29] وفي كثير من الأوقات كان حكام إيران يخضعون تحت هيمنة وتأثير حكام الأحواز. وخاصة في زمن الحاكم الكعبي القوي من عائلة "آل ناصر"، وحلول عائلة آل ناصر مكان عائلة المشعشعين في السلطة إبتداءاً من العام 1724، التي قادت هذه الدولة العربية في شمال وشرق الخليج العربي.

في فترة حكم "الشيخ سلمان آل ناصر" بني أسطول بحري عظيم، تحدى هذا الأمير العربي وهذا الأسطول العربي، في طول الخليج وعرضة، أساطيل الغزاة الغربيين لأكثر من مائة عام متواصلة. تعتبر فترة حكم الأمير العربي، سلمان آل ناصر، الفترة الذهبية لسلطة وقوة نفوذ إمارة الأحواز العربية. لقد توسعت حدود إمارة الأحواز حتى شملت كل الأرض الممتدة من شط العرب غرباً إلى جبال زاغروس وجبال البختياري شرقاً وإلى الجنوب حتى خليج عمان. تجاوز نفوذ إمارة سلمان الكعبي مضيق هرمز وخليج عمان، وأصبح حضور أساطيل الأحوازيين القوي مسيطراً على التجارة البحرية في الخليج العربي وبحر العرب.

في هذا الوقت من الزمن كان قد بدأ التواجد الغربي في منطقة الخليج العربي. كثف الغزاة البرتغال والإنجليز والفرنسيين هجماتهم على الحواضر والموانئ العربية على شواطئ الخليج العربي الغربية منها والشرقية. "يؤكد الرحالة الإنجليزي استوكلر قوة ومنعة إمارة الأحواز التي يقودها بني كعب شرق وشمال الخليج العربي ويذكر بالقوة العسكرية التي أُعدت لصد هجمات الدول الطامعة في إمارتهم وشاهد المدافع المنصوبة في ميدان الفلاحية وعدد الجيش العربي الكعبي كان قد بلغ تعداده خمسة عشر ألفاً من المشاة وسبعة آلاف فارس."[30] استمرت هذه الإمارة العربية بقيادة بني كعب لمدة خمسة قرون متواصلة حتى عام 1925 م.

مرت هذه الإمارة في هذا الجزء من الوطن العربي بحالات مد وجزر. خضعت إمارة الأحواز في فترات من الزمن تحت النفوذ العثماني وفي أخرى تحت النفوذ الفارسي وكذلك دخلت هذه الإمارة في سنين الحرب العالمية الأولى والأعوام التي تلتها في دائرة النفوذ البريطاني. لكن هذه الإمارة بقيت محافظة على كيانها السياسي طوال القرون الخمسة المنصرمة حتى يوم احتلالها في 20. 4. 1925 من قبل جيوش الأسرة البهلوية، التي اعتلت سدة الحكم في طهران في نفس العام الذي أتمت به احتلال الأحواز والساحل الشرقي للخليج العربي.

لعبت هذه الإمارة العربية الواقعة على شرق وشمال الخليج العربي، وفي أكثر من حقبة زمنية، دور الدولة الرائدة والمهيمنة والكيان السياسي المؤثر في المحيط ودول الجوار.

---

[29] عبد الله خلف، امارة بني كعب،وقع عربستان على شبكة الإنتر نت

[30] عبد الله خلف، امارة بني كعب،وقع عربستان على شبكة الإنتر نت

خاصة في حقبة الغزو البرتغالي حيث شكلت هذه الإمارة في المنطقة القلعة الصامدة والقوة العربية المقاتلة في صد الأعداء عن منطقة العراق والخليج العربي.

دخلت جيوش الشاه رضا بهلوي عام 1925 وبتواطؤ إنجليزي مكشوف مع الفرس مدينة المحمرة، عاصمة هذه الإمارة العربية، وأسرت آخر أمرائها من بني كعب الأمير الشيخ "خزعل الكعبي"، وأودعته السجن حتى مات فيه مسموماً عام 1936. هذا الأمير العربي كان مرشحاً لارتقاء عرش العراق والأحواز بدل الأمير فيصل ابن الشريف حسين، الذي أصبح ملكاً على العراق بعد أن احتل الفرنسيون سوريا وأسقطت حكومة فيصل ملك البلاد السورية وتم نفيه من هناك إلى العراق. لقد وصف الرحالة اللبناني المعروف "نجيب الريحاني"، بعد زيارته للإمارة العربية على الساحل الشمالي للخليج العربي، ولقائه الأمير خزعل في مدينة "المحمرة" عاصمة الإمارة في العشرينات من القرن العشرين، "بالعربي الأبي".

التواطؤ البريطاني مع الحاكم الجديد في طهران، رضا خان بهلوي والسماح له باحتلال الساحل الشرقي للخليج وإمارة المحمرة في شمال الخليج كان يهدف إلى:

عدم إعطاء العرب ميزة السيطرة الكاملة على الخليج العربي من كل أطرافه وسواحله والذي تسكن مدنه وقراه وواحاته، وجزره وموانئه، الممتدة على سواحل الخليج الشرقية والشمالية والغربية مواطنون عرب من قبائل عربية تربطها ببعضها البعض وشائج القربى الثقافية والعرقية.

تعزيز النفوذ البريطاني داخل الدولة الفارسية مقابل النفوذ الروسي المتزايد في المناطق الإيرانية الشمالية بعد انتصار الثورة البلشفية الروسية في عام 1917 وبناء الاتحاد السوفييتي في بداية أعوام العشرينات من القرن العشرين.

عرفت إمارة الأحواز عند الفرس ب "عربستان" والتي تعني باللغة الفارسية " بلاد العرب". وعربستان تعني كل الساحل الشرقي والشمالي للخليج العربي، والذي تشكلت فيه عدد من الإمارات العربية أخرها وأكبرها، إمارة الأحواز، وكانت عاصمتها في يوم احتلالها مدينة "المحمرة" الواقعة على رأس الخليج العربي. ذكرت المنطقة العربية لأول مرة بهذا الاسم، "عربستان"، في سجلات الشاه عباس الكبير (1590 - 1616) الصفوي وهو يتحدث عن حملة على بلاد العرب.

بقيت تعرف المنطقة بهذا الاسم عند الفرس حتى أقدمت السلطات الإيرانية، بعد احتلال الإمارة العربية في العام 1925 ، في محاولة من قبل تلك السلطات لمحو أي اثر يدل على عروبة تلك المنطقة، على إطلاق اسم "خوزستان" (أي بلاد الجنوب أو بلاد القلاع بالفارسية) على المنطقة العربية. عرفت المنطقة باسم الأحواز لفترة تفوق الألفي عام.

وكلمة "الأحواز" هي جمع لكلمة "حوز" أو "حوزة" والتي تعني الحاضرة والقرية أو المنطقة المملوكة والمسكونة.

سياسة التفريس ومحو الهوية العربية للمنطقة كانت على رأس جدول أعمال الشاه رضا خان بهلوي، وعلى رأس جدول أعمال الحكومات الإيرانية المتعاقبة، ولا زالت هي كذلك حتى الوقت الحاضر. أطلقت أسماء فارسية بدل العربية على اغلب المدن والقرى في إمارة الأحواز. فمدينة المحمرة اصبح اسمها "خرمشهر" ومدينة الأحواز عاصمة الإقليم اصبح اسمها "أهواز" الحويزة "دشت ميشان" و الخفاجية "سوسنكرد". الصالحية " اندميشك" و تستر "شوشتر" ومدينة الفلاحية "شادكان" وعبادان " آبادان" ومدينة رامز " رامهرمز" و معشور " بندر ماه شهر". كذلك اعطيت اسماء فارسية لكل القرى العربية واطلقت اسماء فارسية على الشوارع والساحات العامة وعلى الوديان والأنهر. إيغالا في سياسة التفريس ومحاربة الهوية العربية لهذا الإقليم وهذا الشعب منع المواطنين الأحوازيين من إطلاق اسماء بعض الصحابة والصحابيات على أبنائهم وبناتهم. لكن هذه السياسة فشلت فشلاً ذريعاً وتمسك العرب الأحوازيون بهويتهم وانتمائهم الثقافي والحضاري إلى الثقافة والأمة العربية، ولم يتجاوب أبناء الشعب الأحوازي مع سياسة التفريس وظلوا يتحدثون عن مدنهم وقراهم وأنهرهم ووديانهم بأسمائها العربية كما كان آبائهم وأجدادهم يدعونها ويعرفونها.

ظل الناس يطلقون اسم المحمرة على مدينة المحمرة ومن النادر والمعيب أن يذكر أحدهم الاسم الفارسي لتلك المدينة. والشئ نفسه مع أسماء الأنهار. والأهوار بقيت عربية ومتداولة بأسمائها الحقيقية منذ فجر التاريخ رغم المراسيم الرسمية التي أصدرتها الحكومات الفارسية المتعاقبة بتغييرها إلى الفارسية. نهر "الكارون" بقي اسمه الكارون ومثله "الجراحي" و"شطيط"، وهور "عبدالله" والهور "الكبير" أسماء عربية خالصة متداولة وشائعة بين الناس تسمع من كان به صمم.

لازالت قضية الأحواز(عربستان)، البلد العربي الغني بالبترول والمياه أحد القضايا المهمة في العلاقات العربية الإيرانية الساخنة والمتوترة. بين الفينة والأخرى تطفو هذه القضية على السطح وتتصدر قائمة الأولويات في العلاقات العربية ـ الإيرانية.

والحركة الوطنية في الأحواز واكبت كل التطورات التي مرت بها المنطقة العربية وتفاعلت معها. القضية الفلسطينية حاضرة في وجدان وضمير الشعب العربي الأحوازي كحضورها في ضمير ووجدان عرب سوريا ومصر والمغرب والسودان. وتفاعل الشعب في الأحواز مع ثورة الجزائر وانحاز إلى جانب أحرار الجزائر مثلما انحاز بقية أبناء الأمة العربية. الأفكار والتيارات السياسية المنتشرة في الوطن العربي لها صدى وانعكاس مباشر بين عرب الأحواز. بعد شهرين من تأسيس جامعة الدول العربية في عام 1945 بعث أكثر من خمسين شيخ عشيرة عربية أحوازية، يمثلون

الأغلبية الساحقة من عرب الأحواز، رسالة وطلب انضمام إلى الجامعة العربية. هذا الطلب الموقع من ممثلي الأحواز المحتل يظهر الحس الفطري والوعي السياسي الطبيعي بانتماء هذا الشعب إلى هذه الأمة. تكرر هذا الطلب عدة مرات ، والذي كان أخرها في مؤتمر القمة العربية المنعقد في الخرطوم في 28. 3. 2006 .

أغلب الحركات السياسية في البلاد العربية الأخرى كان لها انعكاس وتأثير وانتشار بين عرب الأحواز (عربستان). وجد أغلبية شباب عرب الأحواز في التيار القومي العربي ضالتهم، لما يعانيه هذا الشعب من تعسف وغطرسة سلطات الشاه العنصرية بحقهم وبحق انتمائهم إلى الهوية العربية. إن توجهات وأهداف ومبادئ الحركة الناصرية وحزب البعث العربي الاشتراكي وحركة "القوميين العرب" في التحرر من المستعمر والحرية الفردية والوحدة العربية والعدالة الاجتماعية هي مبادئ وأهداف مألوفة ومحترمة عند أبناء الشعب العربي في الأحواز. رموز حركة التحرر الوطني العربي، وفي المقدمة منها الزعيم العربي جمال عبد الناصر، أصبحت في عيون وعقول عرب الأحواز، المثل الكفاحي الذي يحتذى به في مسيرة تحرر هذا الشعب من المحتل الفارسي.

لقد تشكلت في الأحواز في بداية الستينات من القرن العشرين أحزاب وحركات سياسية عدة، ونالت هذه الأحزاب والحركات الدعم المعنوي والمادي من قبل الدول العربية ذات التوجه القومي مثل مصر وسوريا والعراق. هذا الموقف من بعض الدول لعربية كان مثار خوف ورعب عند حكام إيران. فانتعاش الحركة القومية العربية في إقليم الأحواز يعني بالنسبة لإيران بداية تفكك الدولة الإيرانية والكيان السياسي الذي عمل الشاه رضا على بنائه. وفي انتصار حركة التحرر الأحوازية في الحرية والتحرر والاستقلال سيعني وأد حلم القوميين الفرس في إعادة إحياء دولة الأكاسرة البائدة. هذه الدولة التي لن تقوم وتكبر، كما كانت عبر التاريخ، إلا على حساب شعوب المنطقة العربية، على حساب العراق ودول الخليج العربي على وجه الخصوص.

أهمية الأحواز بالنسب للكيان الإيراني تعود إلى عدد من الأسباب والحقائق. أهم هذه الحقائق:

نظراً لامتداد إقليم الأحواز على طول الساحل الشرقي والشمالي للخليج العربي حتى مضيق هرمز في الجنوب وإطلاله على شط العرب في الشمال اكسبه أهمية جيو ـ سياسية وأهمية اقتصادية لوقوع اغلب الموانئ والمنافذ البحرية على العالم الخارجي لدولة إيران داخل حدود أراضي هذا الإقليم.

احتواء ارض الأحواز على كميات كبيرة من النفط والغاز الطبيعي جعلها من أهم بقاع الأرض ذات أهمية دولية. أرض الأحواز تعتبر من اكثر مناطق العالم إنتاجا لهاتين

المادتين الحيويتين لتوليد الطاقة. المادة المستخرجة من حقول النفط والغاز الطبيعي على أراض الأحواز تساوي نسبة 85 % من مجموع الإنتاج الإيراني من النفط والغاز.

خصوبة الأرض الزراعية واحتواء الأرض الأحوازية كميات كبيرة من المياه، جعل أهمية هذه المنطقة تتعاظم، وتشكل بالنسبة إلى إيران أحد المكونات الأساسية في الإقتصاد الإيراني. تجري في ارض الأحواز خمسة انهر كبيرة تنبع من جبال "زاغررس" وجبال "البختياري" وتصب في الخليج العربي. أهم هذه الأنهر هو نهر الكارون ونهر الكرخة ونهر الجراحي.

إن معرفة السياسيين الفرس بحقيقة أهمية الموقع الجغرافي وأهمية مواد الخام والمياه الأحوازية تزيد من صعوبات القضية الأحوازية، وتنقل هذه القضية من قضية إقليمية وقومية إلى قضية دولية وعالمية الأبعاد. فالعرب مدعوون إلى الوقوف بكل جدية إلى جانب الشعب الأحوازي لمواجهة الأخطار التي تحيط بقضيتهم. من الناحية الإستراتيجية تشكل الأحواز مفتاح الضعف والقوة للكيان الإيراني، وهي في نفس الوقت تشكل بالنسبة لدول الخليج العربي والعراق السد المنيع في وجه الأطماع العدوانية الإيرانية في تلك الدول. وفي دعم وتبني قضية العرب الأحوازيين مصلحة قومية عربية تساوي في أهميتها القضية الفلسطينية. فحجم الخطر الإيراني لا يقل عن حجم الخطر الإسرائيلي على المنطقة العربية. إضعاف إيران من خلال إعادة الأحواز إلى المحيط العربي سيكون عاملاً أساسيا في درء الأخطار المتأتية من قبل إيران. دعم كفاح شعب الأحواز العربي هو بالدرجة الأولى واجب قومي وثانيا مصلحة قومية تسهم في لجم غطرسة العدوان الفارسي ووقف التدخل الإيراني الفج في شؤون أكثر من قطر عربي وزعزعة الأمن والاستقرار في الوطن العربي.

على الرغم من فترة الثمانية عقود التي مرت على الاحتلال الإيراني لإقليم الأحواز العربي، وممارسة سلطات الإحتلال الفارسي أبشع أنواع القمع والتفريس والتجويع والتجهيل ضد أبناء هذا الشعب الأبي، فشلت الحكومات الإيرانية المتعاقبة في كسر إرادة هذا الشعب في تصميمه على نيل حريته، والتصاقه الشديد في انتمائه إلى أمته العربية.

إن انتشار الوعي القومي العربي في أساط الشعب الأحزازي شكل تحدٍ كبير وصارخ للمجموعات الدينية الحاكمة في طهران، والتي تحكم باسم المذهب الشيعي، المنصوص علية في دستور الدولة الإيرانية. على الرغم من أن غالبية المواطنون العرب في إقليم الأحواز يتبعون المذهب الشيعي الجعفري، وهم يشتركون مع الفرس في هذه الرابطة المذهبية، لكن هذه الرابطة لم تشفع لهم ولم تحميهم من الاضطهاد القومي من قبل من يدعي تمثيل وحماية الشيعة. هذا الواقع وهذا العامل سيكون لهما اكثر من تأثيرٍ على إيران وعلى عموم المنطقة. كلما اتسعت دوائر المعرفة عن هذا الشعب والتعرف على

أبعاد قضية هذا الشعب العربي وعن ظروف معيشة المواطنين العرب في الأحواز كلما افتضحت أكثر حقيقة السياسات الإيرانية في المنطقة.

مقاومة الشعب العربي الأحوازي

الإحتلال الإيراني

منذ الأيام الأولى للاحتلال الفارسي في 20. 4 .1925 للإمارة العربية في شمال وشرق الخليج العربي قام أبناء الشعب العربي في هذه الإمارة في الدفاع عن أرضهم وممتلكاتهم وعرضهم بالطرق المتاحة وبالأسلحة المتوفرة لديهم. في العقود الأولى للاحتلال كان يغلب على شكل المقاومة الطابع العشائري والقبلي. ومنذ احتلال الإقليم تفجرت ثورات وحركات مقاومة "أحوازية"، وكانت البداية بعد 3 أشهر فقط من بداية الاحتلال بثورة شعبية سميت بـ (ثورة الغلمان)، وتوالت الانتفاضات والثورات مثل ثورة الحويزة 1928، وثورة بني طرف 1936، ومعركة الشيخ عبد الله بن الشيخ خزعل 1944، وثورة عشيرة النصار 1946، وغيرها من الثورات التي تجاوزت الثلاثة عشر ثورة دامية. طبيعة هذه الثورات العشائرية سمحت للمحتل الفارسي في اللعب على التناقضات العشائرية والعائلية في كسب أطراف من العشائر والتحريض ضد القبائل الأخرى، مما اضعف وأرهق الحركات الوطنية العربية في هذا القطر واكسب النظام الإيراني الفرصة والقدرة على المناورة وكسب الوقت.

تكون أول حزب سياسي منظم عام 1946 عرف باسم حزب السعادة، وبعدها تشكلت حركات سياسية ومنظمات جماهيرية أخذت على عاتقها مقاومة المحتل وتنظيم صفوف الشعب العربي الأحوازي. من هذه المنظمات: منظمة الجماهير الثورية الأحوازية، وحركة التحرير الوطني الأحوازي، والاتحاد العام لطلبة وشباب الأحواز، والمجلس الوطني الأحوازي.

مع نشوء حركة التحرر العربية في مصر وسوريا والجزائر والعراق والخليج العربي مع بداية أعوام الخمسينات من القرن الماضي هبت رياح التغيير أيضا على عرب الأحواز، وبدأ الشباب العربي هناك يحذو حذو إخوانهم في الجزائر واليمن وفلسطين في تنظيم صفوفهم للبدء في الكفاح المسلح من أجل تحرير بلدهم من المحتل الإيراني. تشكلت لهذه الغاية عدد من المنظمات والأحزاب الشبه عسكرية. أهم هذه المنظمات المدعومة من بعض الدول العربية وخاصة مصر عبد الناصر وسوريا والعراق بالإضافة إلى فصائل منظمة التحرير الفلسطينية مثل فتح والجبهة الشعبية لتحرير فلسطين كانت:

جبهة تحرير عربستان.

الجبهة الشعبية لتحرير الأحواز.

الجبهة العربية لتحرير الأحواز.

باشرت جبهة تحرير عربستان العمل داخل الأوساط الشعبية الأحوازية منذ أواسط الستينات. لقد تميزت هذه الحركة الثورية الأحوازية الجديدة باتباع وسائل حديثة وعصرية في اسلوب قيادة النضال الشعبي الأحوازي، وبنيت المنظمة الجديدة حسب قواعد التنظيمات السياسية والعسكرية المتطورة. قادة هذه المنظمة كانوا من الشباب الواعي بما يدور من حول وطنهم من عوامل القوة والضعف وعرفوا حقيقة العمق الإستراتيجي العربي لقضيتهم. لقد تنبه الشاه وحكومته لخطورة هذه الظاهرة الكفاحية من بين عرب الأحواز، التي شكلت تطوراً نوعياً على أكثر من صعيد. بتعاون بين أجهزة المخابرات الإسرائيلية، الموساد، وجهاز المخابرات الإيراني السافاك تمكنت الأجهزة الإيرانية من إلقاء القبض على أهم رموز هذه الحركة الثورية العربية الأحوازية.

ألقي القبض على قادة "جبهة تحرير عربستان" بعد عودتهم بفترة وجيزة من زيارة قاموا بها إلى مصر، البلد العربي الأساسي الداعم لحركات التحرر العربية وللحركة الوطنية الأحوازية في أعوام الستينات من القرن العشرين. لقد تم القبض، وبمساعدة إسرائيل على القادة الأحوازيين العرب "محي الدين حميدان آل ناصر الكعبي" مع رفاقه "عيسى ودهراب" و مناضلون أحوازيون آخرون في 25. 11. 1963، ثم قامت السلطات الإيرانية بإعدامهم رميا بالرصاص في مدينة الأحواز مع 81 مناضلاً عربياً أحوازياً صبيحـــة يوم 13. 6. 1964. أستشهد قادة جبهة تحرير عربستان لكن تجربتهم الكفاحية أصبحت مدرسة للأجيال الأحوازية القادمة. وزرع هؤلاء القادة باستشهادهم وتحديهم البطولي لسلطات الاحتلال الإيرانية عزيمة وطاقة جديدة ألهبت مشاعر الآلاف من الشباب الأحوازي ودفعتهم للسير على طريق هؤلاء الرموز الوطنية الخالدة في وجدان شعب عرب الأحواز.

لازال عرب الأحواز ينضمون الأشعار والأغاني الحماسية بأسماء هؤلاء القادة الشهداء، ويمثل محي الدين حميدان آل ناصر الكعبي و رفاقه ،عيسى ودهراب، مكانة عزالدين القسام عند شعب فلسطين في مسيرة كفاحه العادلة.

كانت الجبهة الشعبية لتحرير الأهواز قد بدأت العمل في السبعينات من القرن الماضي، والجبهة العربية لتحرير الأحواز نشطت في منتصف أعوام الثمانينات في موازاة الحرب العراقية الإيرانية. تشعبت مجالات عمل هذه المنظمات الثورية. فبالإضافة إلى العمل الاجتماعي والعمل الثقافي، من خلال بناء النوادي والاتحادات الثقافية والرياضية، بادرت هذه المنظمات إلى الكفاح المسلح الموجهة ضد وحدات الجيش والأمن الإيرانية في إقليم الأحواز.

بالتوازي مع العمل السياسي والعسكري المنظم توالت الانتفاضات الجماهيرية الأحوازية في المدن والأرياف الأحوازية. كان من أهم تلك الانتفاضات الجماهيرية في هذا الإقليم العربي المنسي وأكثرها دموية، هي انتفاضة 1979 بعد وصول القوى الدينية بقيادة الخميني إلى السلطة. خرجت الجماهير العربية في مظاهرات سلمية، تطالب بإعطائها حقوقها المدنية التي وعدوا بها من قبل القادة والساسة الفرس الجدد. تلك الحقوق التي حرموا منها طوال فترة الحكم البهلوي. هذه الجماهير وقواها السياسية التي ساهمت مساهمة كبيرة في إسقاط الشاه ونظامه الجائر من خلال الإضراب العام الذي قام به عمال حقول النفط وعمال مصفاة عبادان في الإقليم العربي، والتي شلت مظاهر الحياة في كل إيران، أجبرت الشاه محمد رضا على الموافقة على الخروج من طهران وسارعت بإسقاط نظامه باعتراف مجمل القوى السياسية الإيرانية.

اعتقدت الجماهير العربية بأن القوى الدينية الثورية الجديدة في طهران ستقدر موقف ونضال الجماهير العربية في إقليم الأحواز ضد نظام الشاه البائد، وستتجاوب مع مطالب ابنا الأحواز العادلة في إعطائهم حقوقهم السياسية والاجتماعية المسلوبة منذ عقود، وأثناء حكم العائلة البهلوية، ومساواتهم ببقية الشعوب الأخرى في إيران. خاب ضن هذه الجماهير وهي تواجه الرصاص والدبابات، وهي تحصد الأرواح في الشوارع والساحات.

لقد أوقعت مجزرة المحمرة في 5/29/ 1979 والتي عرفت بالأربعاء الأسود، والتي قادها الاميرال أحمد مدني، الحاكم العسكري الفارسي المفروض على الأحواز ، في يوم واحد فقط، مئات الشهداء من الشباب والأطفال والنساء والشيوخ بالإضافة إلى من الجرحى والأسرى. لقد كانت هذه المذابح ضد عرب الأحواز المحتل المؤشر الأول على سمات وصفات شكل الحكم وأهداف الحكام الفرس الجدد.

توالت الثورات والانتفاضات الشعبية لعرب الأحواز ضد سلطات الاحتلال الإيرانية. انتفاضة 15. 4. 2005 كانت أحد تلك الثورات العارمة، والتي دامت لعدة أسابيع وشاركت بها أغلب المدن والقرى العربية في إقليم الأحواز العربي. لم تستطع قوات الاحتلال إخماد حركة الجماهير العربية الأحوازية على الرغم من قساوة سياسة القمع والإرهاب التي تمارسها الأجهزة الأمنية الإيرانية ضد أبناء الأحواز. لقد تطورت هذه الثورة الشعبية وأخذت الشكل المسلح وحرب التحرير الشعبية بعد أن بدأت بشكل سلمي احتجاجاً على سياسة التفريس والتوطين التي قررتها حكومة الرئيس الإيراني "خاتمي". لا زالت هذه الانتفاضة ـ الثورة مستمرة ومفتوحة على كل الاحتمالات والنتائج. لقد شكلت فصول انتفاضة عرب الأحواز في عام 2005 الإنطلاقة الثانية والولادة الجديدة لحركة التحرر الوطني الأحوازية في العصر الحديث.

الإمارات العربية الأخرى التي تحتلها إيران
على الساحل الشرقي للخليج

إمارة المحمرة على رأس الخليج العربي كانت آخر إمارة عربية من إمارات إقليم الأحواز احتلتها إيران بتواطؤ ومساعدة بريطانية على الجانب الشرقي للخليج العربي. هذه الإمارة كانت لأهم والأكبر مساحة، والأكثر سكاناً، والأقوى اقتصاداً، بين الإمارات العربية على هذا الساحل الشرقي للخليج. لكن هذه الإمارة لم تكن الإمارة العربية الوحيدة التي كانت قائمة على هذا الساحل قبل احتلالها. بل هناك عدد من الإمارات العربية كانت قائمة على طول الساحل الشرقي للخليج العربي، توازي وتشابه تلك الإمارات العربية القائمة على طول الطرف الغربي للخليج العربي. بل أن أنساب سكان هذه الإمارات العربية في اقليم الأحواز الجنوبي، من نفس أنساب قبائل السكان العرب على الساحل الغربي للخليج. وهم أبناء عمومة وذوي قربى. من تلك الإمارات العربية المحتلة على الساحل الشرقي للخليج العربي التالي.

إمارة القواسم

قبائل القواسم التي تعيش وتسكن دولة الإمارات العربية المتحدة هي نفس القبائل العربية التي كان ولازال جزء منها يعيش على الساحل الشرقي للخليج العربي. قبالة دولة الإمارات العربية المتحدة الحالية شكلت قبائـل القواسم العربية إمارة عربية في مطلع القرن السادس عشر. فرضت هذه الإمارة العربية سيطرتها على جانبي الخليج ردحا مـن الزمن، وأرهبت بقوتها العسكرية أساطيل الدول الأوروبية الغازية. لإمارة القواسم مـواقـف خالدة في الدفاع عن الأرض العربية بوجه البرتغاليين والإنجليز، كما صدوا كثير من هجمات الفرس في محاولتهم للسيطرة على مناطق الخليج، وقد تعاون أسطول القواسم في منتصف القرن الثامن عشر الميـلادي مع أسطول أمارة كعب البو ناصر حكام المناطق الشمالية من اقليم الأحواز العربية الواقعة في شمال الخليج. كما تحالف في نفس الحقبة الزمنية الإنجليز مع العثمانيـين في محاولة منهم لدحر القوا سم والبو ناصر الكعبية ولكـن دون جدوى. ويعتبر ميناء "لنجة" مركزا وعاصمة لإمارتهم العتيدة.

امتد نفوذهـم إمارة القواسم ليشمل غالبية الجزر الواقعة بيـــن الساحلين ومنها جزيـرة "قاسم" اكبر جزيـرة في الخليج العربي والتي سميت باسمهم. وقد بلغت قوتهم أوجها فيما بين 1770 – 1820 وامتد سلطانهم حتى المحيط الهندي، يعتبر الأمير خليفة القاسمي من اشهر أمراء القوا سم في تلك الإمارة العربية.

بعد أن فرضت بريطانية هيمنتها على منطقة الخليج العربي وعلى إمارة القواسم في الساحل الشرقي والساحل الغربي للخليج، وعملت بريطانيا على تدمير القلاع وأسطول القواسم البحري، تمكنت قوات الغزو الفارسي بقيادة ميرزا احمد خان سنة 1887م على احتلال إمارة القواسم على الساحل الشرقي للخليج وتدمير مركز الإمارة هناك (لنجة)، ونكلت بأبناء الإمارة العربية وشردت أعداد كبيرة منهم. ينتشر القواسم في ساحل عمان ودولة الإمارات العربية المتحدة، وبصورة رئيسية في مدينتي الشارقة وراس الخيمة وهم حكام هاتين الإمارتين على الساحل الغربي للخليج العربي. لازال يعيش على الساحل الشرقي للخليج العربي في مناطق إقليم الأحواز الجنوبية أعداد كبيرة من القواسم في الأرياف والموانئ والجزر.

إمارة المنصور

بتحالف عدد من القبائل العربية على الساحل الشرقي الجنوبي للخليج بقيادة قبيلة المنصور تشكلت إمارة عربية قوية. وقد تحالفوا مـع بني تميـم، وبني مالك و الحرم، ليشكلوا إمارة عربية قويـة تواجه هجمات الغـزو الأجنبي للأراضي العربية، وتعتبر مدنية " القابندية" مركز إمارة المنصور. وفي عهد الأمير "مذكور جبارة المنصوري" الذي عاصر عهد حكم العائلة القاجارية لبلاد فارس، كانت الأمارة قد فرضت سيطرتها على مساحات واسعة من الخليج، وبلغت أوج عظمتها كأمارة عربية قوية واسعة. احتل الإنجليز الإمارة العربية، وقامت سلطة الإحتلال البريطاني بعقد صفقة مع حكومة القاجار, حكام فارس،تم بموجبها السماح للسلطات القاجارية من السيطرة على إمارة المنصور. بعد احتلال الإمارة قامت الحكومة القاجارية بضم الأمارة العربية إلى الدولة الفارسية.

إمارة آل علي

استمرت هذه الإمارة العربية قرابة المأتي عام، ولعبت هذه الأمارة دورا كبيرا في تاريخ منطقة الخليج. ومنذ دخول المستعمر البريطاني منطقة الخليج العربي دخلت إمارة "آل علي" في صراع دموي مع القوة المستعمرة الغربية. في كثير من معاركها

البحرية مع الغزاة الإنكليز كان للإمارة اليد الطولى. ففي عام 1820م شاركت في غارة على السفن و الأساطيل البحريـة الأوروبية في الخليج العربي ودمرت أعداد كبيرة منها. مما أستدعى القوى الأجنبية إلى تشكيل قوة بحريـة موحدة مـن البريطانيين والهنود والعثمانيين لمهاجمة مقر الأمارة. ولكن جيش الأمارة العربية تمكن من دحر القوات المتحالفة والانتصار عليها مجتمعة. أهم مراكز هذه الأمارة هي بلدات "نخل الأمير"، و "الرستمي"، و "أبو عسكر"، و"ديـوان العــرب"، ومن أهم الجزر التابعة لهذه الإمارة هي جزيرة "قيس" ذات التاريــخ العربي العريـق.

من الشخصيات الهامة في تاريخ هـذه الأمارة هـو الأمير محمد بن حسن المتوفى عام 1893م وكان شجاعا وزعيما قويا للأمارة وقـد تحالف آل على ومع آل بشري الذيـن يسكنون "الطاحونة " ومن اشهر رجالاتهم الشيخ محمد بن رحمة البشري. وقد انتهت هذه الإمارة وذلك بعد إن جهزت بريطانيا عام 1921 م حملة قوية من بومباي وهاجمت مع حلفائها مقر الأمارة وقد دافع مقاتلو الإمارة دفاعا مستميتا عن إمارتهم ولكن دون جدوى، وسقطت الإمارة بيد الغزاة ونقل كثير من رجالات آل علي وحلفائهم أسرى إلى بومباي في الهند، وسلمت هذه الإمارة العربية على الساحل الشرقي للخليج العربي إلى الفرس حسب اتفاق عقدة البريطانيون عام 1924 م مع وزير الدفاع الإيراني رضا بهلوي الذي اصبح ملكاً بمساعدة بريطانيا على فارس. عشائر آل علي ينتشرون في الأحواز وفي المملكة العربية السعودية وفي دولة الإمارات العربية المتحدة. وحكام أم لقوين، أحد إمارات دولة الإمارات العربية المتحدة، هم من عشائر آل علي.

إمارة المرازيق

تأسست هذه الإمارة العربية على الساحل الشرقي للخليج على يد الأمير "عبد الله بن محمد الحمادي" عام 1863 . قبائل المرازيق من القبائـل العربية الكبيرة المنتشرة على ضفتي الخليج، ويقع مركز إمارتهم في " مرفأ الحسينية " وكذلك في " مسلّم". وهم بطن من قبيلة لواتيه العربية . أهم مراكز هذه الإمارة العربية "النخيلة" و "المكاحيل" و" القلعة " وهي من المناطق التاريخية وقد ساهمت هذه الإمارة في صد هجمات الغزاة الأجانب على منطقة الخليج. ظلت هذه الإمارة بين حالة حرب وسلم مع بعض العشائر والإمارات العربية المجاورة لسنين طويلة. قوي نفوذ الإمارة على شاطئ الخليج في أعوام ثمانينات القرن التاسع عشر. مثل بقية الإمارات العربية على الساحل الشرقي للخليج العربي، اعطت الحكومة البريطانية، التي كانت تهيمن على منطقة الخليج العربي بعد الحرب العالمية الأولى، الضوء الأخضر للحكام القاجاريين ووزير دفاعهم رضا بهلوي باحتلال الإمارة العربية عام 1922 وضمها إلى الدولة الفارسية. شعب هذه

الإمارة لازال يحافظ على تقاليده العربية وعلاقاته الاجتماعية على الرغم من سياسات الحكومات الفارسية المتعاقبة المحمومة باتباع سياسة التفريس وطمس الهوية العربية لسكان هذه المناطق.

إمارة العبادلة

ومركز إمارتهم " بين الجبلين" و" العرمكي" و"الرميلة"، ومن اشهر رجالات الإمارة، الأمير "عبد الله بن محمد العبدلي"، وكان رجلا أديبا وشاعرا ومهاب عند القبائل العربية. ويتبع إمارة العبادلة "آل مللا سعيد" و"آل رميزان" و"آل بوناصر". جرت حروب بين إمارة العبادلة وبين حاكم شيراز الفارسي المدعو (قوام الملك) وذلك في عام1919 م. احتلت الإمارة العربية من قبل الجيوش الفارسية في عام 1923 م بموافقة ورضا ممثلي الدولة البريطانية صاحبة النفوذ الكبير بعد الحرب العالمية الأولى في منطقة الخليج العربي. مارس النظام البهلوي شتى ضروب الاضطهاد والقتل والتجويع لحمل أبناء هذه الإمارة العربية على الهجرة إلى الساحل الغربي من الخليج العربي. فروع من عشائر العبادلة تقطن إمارة الشارقة في دولة الإمارات العربية المتحدة. لكن بقي العدد الأكبر من عرب العبادلة يعيشون في مناطق الأحواز الجنوبية على الساحل الشرقي للخليج.

وبجانب الإمارات السالفة الذكر كانت هناك على الساحل الشرقي للخليج من أرض الأحواز مشيخات عديدة "لبني كعب" و"السودان" و"بني لام"، كما هو الحال في الشمال من إقليم الأحواز، حيث مشيخات "بني طرف" و"آل كثير" والعديد من القبائل العربية الأخرى. ومن أهم الأسباب التي أدت إلى سقوط الساحل الشرقي الجنوبي من الأحواز هو تعدد الإمارات و التطاحنات فيما بينها، الأمر الذي أدى إلى أضعافها وتقهقرها أمام قوات الغزو الأوروبي، حيث تمكنت هذه القوات من السيطرة على الإمارات الوحدة بعد الأخرى. وقد خضعت هذه الإمارات للسيطرة الإنجليزية فترة من الزمن إلى إن تلاقت المصالح الفارسية والمصالح البريطانية، وساومت بريطانيا صاحبة النفوذ والسيادة الاستعمارية، على المنطقة وسلمتها لقمة سائغة لفارس لقاء بعض الامتيازات البترولية والنفوذ في إدارة الحكم في طهران ضد النفوذ السوفييتي المتنامي في الدولة الفارسية جنوب بحر قزوين.

تعد قضية الأحواز وتاريخ شعب الأحواز المأساوي مع الإحتلال الفارسي وصمة عار بجبين من تسبب في هذه المأساة ووصمة عار في جبين التاريخ الفارسي والإنجليزي المتواطئ في وضع هذا الشعب العربي وهذه الدولة العربية تحت وطأة الإحتلال الفارسي الظالم.

الأطماع الإيرانية في الأرض العربية
على الساحل الغربي للخليج العربي

مع وصول الرئيس الإيراني "محمود نجاد" إلى سدة الحكم تتكاثر وتكاثرت وتناثرت تصريحات التهديد والوعيد الإيرانية إلى دول الخليج العربي. "نجاد" "المحافظ المؤمن" يمثل الواقع الأمثل لطبيعة التراث السياسي في مؤسسة الدولة الإيرانية منذ وصول الخميني إلى سدة الحكم. أعاد محمود نجاد إلى الأذهان اللغة الفجة التي اعتاد الفرس مخاطبة الدول العربية المجاورة بها، وخاصة دول الخليج العربي. الوعي القومي الفارسي غلف، لاعتبارات سياسية وتكتيكية بثوب ديني مذهبي حتى يكون تذكرة دخول لاختراق جزء من المجتمعات الإسلامية العربية المجاورة والتدخل في شؤونها الداخلية.

بعد احتلال العراق اعتقد الإيرانيون بأن دول الخليج العربي أصبحت في متناول اليد وقابلة للابتزاز اكثر من أي وقت مضى. الناطق باسم وزارة الخارجية الإيرانية حميد رضا آصفي حذر وهدد دول المنطقة "إذا قللت من احترام أقطاب النظام الإيراني"، قائلاً: "قدراتنا تفوق بأشواط قدراتهم... عليهم أن يكونوا أكثر حذراً،"[31] هذه الغطرسة الإيرانية وكل هذه الحدة في التهديدات والتلميح باستخدام القوة ضد دول وشعوب الخليج العربي أتت في معرض رد أصفي على نشر رسم كاريكاتير في أحد الصحف البحرينية في شهر أيلول عام 2005 اعتبرته طهران مسيء لمرشد الجمهورية الإيرانية. الموقف الإيراني من دول الخليج العربي ليس إلا استمرار للنهج الإيراني المعتمد منذ عقود وهو يشكل جزء من استراتيجية إيرانية تسعى إلى استفزاز الأقطار العربية وإشاعة أجواء عدم الاستقرار والتوسع على حساب أراض تلك الأقطار.

لقد بدأت بريطانيا مع بداية ستينات القرن الماضي بالرحيل عن منطقة الخليج العربي. عملت الدولة الاستعمارية على عدم إخلاء المنطقة العربية في زمن واحد، بل عملت على ترك المنطقة على دفعات وفي فترات زمنية متباعدة، بقصد خلق كيانات سياسية مستقلة عن المناطق العربية الأخرى من كل منطقة يتم إخلائها. وتكوين في هذه الكيانات الجديدة فئات اجتماعية لها مصلحة في البقاء على استقلالية كل كيان من هذه الكيانات. الإبقاء على ضعف كل هذه الكيانات السياسية كان ولا زال الهدف الرئيس

[31] موقع مركز الإمارات للدراسات والبحوث الإستراتيجية على شبكة الإنتر نيت العالمية 14. 7. 1005.

للقوى الطامعة في السيطرة على هذه الدول وقدراتها. لم تعمل بريطانيا الإستعمارية على ذم الإمارات العربية الصغيرة على الساحل الغربي للخليج العربي للدولة العربية الكبيرة على هذا الجانب، المملكة العربية السعودية، كما فعلت في ذم امارات إقليم الأحواز على الساحل الشرقي لدولة فارس. بل عملت بريطانيا الإستعمارية على تقوية الدولة الفارسية بضم اقليم الأحواز الخصب والغني بالنفط والغاز الطبيعيين، وكذلك المياه الحلوة، وعملت نفس هذه الدولة الإستعمارية على إضعاف الجانب العربي بكل السبل، من خلال خلق إمارات وكيانات سياسية صغيرة وضعيفة متناحرة ومرتبطة مباشرة بإدارتها. السؤل الملح في هذا المقام لماذا عملت بريطانيا على تقوية الكيان الفارسي على حساب العرب وغير العرب من الشعوب غير الفارسية، وعملت في نفس الوقت على إضعاف الكيان العربي في الجزيرة العربية والعراق؟

احتلال جزر الإمارات العربية
على مدخل الخليج العربي

أقدمت إيران على احتلال ثلاث جزر عربية في مدخل خليج العرب. تقطن هذه الجزر منذ قرون طويلة قبائل عربية. ولازال سكان هذه الجزر الثلاثة "الطنب الصغرى و"الطنب الكبرى" و"أبو موسى" من المواطنين العرب. تتبع هذه الجزر دولة الإمارات العربية المتحدة. لم تتجرأ إيران الشاه من الإقدام على احتلال الجزر العربية في الخليج، أثناء وجود المستعمر البريطاني هناك، بل استغلت إيران حالة ضعف إمارات الخليج العربي حديثة الاستقلال، وحالة الضعف العربي العام بعد الخسارة العسكرية في حرب 5 حزيران عام 1967.

اظهرت الوثائق البريطانية عن معاودة "الإيرانيون اتصالاتهم مع البريطانيين ولوحوا لأول مرة بوضوح في 9. 7. 1969 إلى انهم في حالة عدم التوصل إلى التسوية التي يريدونها، قد يحتلون الجزر بعد عام 1971. أي بعد رحيل القوات البريطانية من المنطقة."[32]

أقدمت حكومة الشاه على احتلال الجزر العربية التابعة لدولة الإمارات العربية المتحدة في 30. 12. 1971. واجهت إيران انتقادات عربية ودولية واسعة بسبب إقدامها على احتلال الجزر العربية في مدخل الخليج العربي. لكن حكومة الشاه كانت غير مكترثة وغير آبه بتلك الانتقادات العربية والدولية، لما تلقته من ضمانات بريطانية وأمريكية بعدم القيام بضغوط عليها وإفشال كل محاولة جادة بفرض أي ضغوط أو عقوبات تجبرها على إخلاء تلك الجزر العربية التابعة للإمارات العربية، التي كانت لإنزال تحت السيطرة البريطانية.

وثائق الحكومة البريطانية السرية التي افرج عنها، والتي تتعلق في موضوع الجزر العربية في الخليج تتحدث عن أن السفير البريطاني في طهران زار في يوم 9. 11. 1969 م المدير العام لدائرة أوروبا وأمريكا في الخارجية الإيرانية "منوشهر ظلي" الذي بلغ السفير البريطاني بضرورة تسوية مسألة البحرين بأسرع ما يمكن، وان تسوية الجزر المتنازع عليها لا تقل أهمية أيضا عن مشكلة البحرين.

---

[32] صحيفة الخليج، الإمارات العربية المتحدة 16. 1. 2000

ويقول السفير في هذه الوثيقة "يعتبر الإيرانيون الجزر من ممتلكاتهم، ويرون انه يجب الاعتراف بذلك".

ويرد السفير على "منوشهر" قائلاً "أن الجزر ليست ملكنا لكي نهبها، وقد حثثنا حاكمي رأس الخيمة والشارقة على التوصل مع الإيرانيين إلى اتفاق قبل نهاية عام 1971".

وتكشف البرقية أن سفير بريطانيا ابلغ منوشهر أن رد حاكم الشارقة كان عنيفاً وانه أعلن صراحة أن أبو موسى ارض عربية.

ويرى السفير انه من الضروري إيجاد صيغة لا تطالب الحاكمين بالتخلي عن المطالبة بسيادتهما على الجزر.

ويرى السفير انه إذا كان تحرك الحاكمين غير مرجح في المستقبل القريب "يصبح من الأهمية بمكان وأكثر من أي وقت مضى، مواصلة الضغط في هذا الاتجاه"، أي الضغط على حكام إمارة الشارقة ورأس الخيمة لإجبارهم على التنازل عن الجزر لصالح إيران.[33]

"نلاحظ في برقية سفير بريطانيا في طهران أمرين جديدين أولهما، انه لم يتحدث للإيرانيين هذه المرة باللغة التي اعتاد البريطانيون التحدث بها في شأن إقرارهم بأن الجزر عربية وتابعة لإمارتي رأس الخيمة والشارقة، وثانيهما أن تفاهما بريطانياً - إيرانياً قد حدث خلال زيارة وزير خارجية بريطانيا إلى طهران في شهر مايو 1969 ."[34] لابد من التأكيد أن بريطانيا مرة أخرى تتواطأ مع إيران على حساب العرب وتمنح ما لا تملك وتعطي ضوء اخضر لاحتلال الجزر العربية الثلاثة كما اعطت من قبل الضوء الأخضر لرضا بهلوي في احتلال إمارة المحمرة وخمسة إمارات عربية أخرى من أرض اقليم الأحوازعلى الضفة الشرقية للخليج العربي قبل خمسة عقود من ذاك التاريخ.

منحت الإمارات العربية السبعة على الساحل الغربي للخليج العربي، هي إمارة أبو ظبي، دبي، الشارقة، عجمان، الفجيرة، أم القوين، وإمارة رأس الخيمة الاستقلال في 2 . 12. 1971 م. بعد 28 يوماً فقط من هذا التاريخ تم احتلال جزر الطنب الصغرى والطنب الكبرى وأبو موسى من قبل إيران. شكلت الإمارات السبع في ما بينها دولة الإمارات العربية المتحدة وانضمت إلى جامعة الدول العربية ومنظمة الأمم المتحدة، ولكن بقيت إيران محتلة للجزر العربية التابعة لدولة الإمارات العربية المتحدة.

لم تتوقف دولة الإمارات العربية عن المطالبة بحقها في عودة الجزر المحتلة إلى سيادتها في المحافل الدولية والإقليمية وكانت تتلقى الدعم السياسي أثناء حكم الشاه محمد

---

33 قارن نفس المصدر

34 نفس المصدر

رضا من كل الدول العربية. لم يتغير الموقف العربي العام من قضية الجزر العربية الإماراتية الثلاثة ايضاً بعد زوال حكم الشاه. في مؤتمرات القمة العربية كانت ولا زالت قضية جزر الإمارات العربية المحتلة البند الدائم على جدول أعمال تلك المؤتمرات. سقط الشاه ولازالت الجزر العربية الثلاثة في مدخل الخليج العربي محتلة من قبل إيران. وكانت دولة الإمارات العربية المتحدة قد تقدمت بعدد من الاقتراحات لحل هذه القضية مع إيران. آخر تلك الاقتراحات والحلول جاءت على لسان وزير خارجية الإمارات عبدالله بن زايد آل نهيان عندما دعا الوزير الإماراتي في 6. 9. 2006 من الرياض في المملكة العربية السعودية إيران إلى القبول بالتحكيم الدولي لحل مشكلة الجزر. "إيران يمكن أن تستفيد مثل دول المنطقة لو نجحنا في حل الخلافات التي بيننا وبينها.وانه ينبغي لها قبول التحكيم الدولي لحل النزاع حول هذه الجزر."[35]

لم تقدم حكومة الجمهورية الإسلامية بقيادة الخميني على تصحيح الخطأ وإزالة أثار الجريمة التي اقترفها الشاه بحق العرب والإمارات العربية المتحدة في إعادة الحقوق لأصحابها وإخلاء الجزر العربية وإعادتها إلى أصحابها الشرعيين. بل العكس من ذلك هو الذي تأكد. كريم سنجابي مستشار الخميني يعلن موقف الحكومة الإيرانية الجديدة بقوله: "إن إيران لن تتخلى ولن تسحب قواتها من الجزر الثلاث، إن هذه الجزر إيرانية"[36] .

حكومة الخميني وعلى لسان وزير خارجيتها ومستشار الخميني الشخصي تفصح وتؤكد على الأطماع الاستعمارية الإيرانية في الخليج العربي. في مقابلة لوزير الخارجية الإيراني "قطب زادة" أجراها مع راديو "منتي كارلو" في 15. 5. 1980 قال أول وزير خارجية لحكومة الخميني الجديدة "كل بلاد الخليج تشكل تاريخياً جزءاً من الأراضي الإيرانية."[37] قطب زادة أحد خريجي المدرسة الدينية القومية وأحد رموز التيار القومي الفارسي ليس الوحيد في حكومة الخميني الذي يكن العداء لدول الخليج العربي، بل هو يمثل الثقافة السائدة في الأوساط السياسية لتيار الخميني.

تقع الجزر العربية الثلاثة في مدخل الخليج على بحر العرب عند مضيق السلام (مضيق هرمز)، وهي بهذا الموقع الجغرافي تتمتع بأهمية استراتيجية كبرى تتحكم في هذا الممر المائي المهم. عبر هذا الممر تعبر يومياً مئات السفن المحملة بالبضائع والبترول من وإلى الأسواق العالمية. السؤال الذي يطرح نفسه هو كيف سمحت تلك الدول الغربية العظمى بأن تحتل إيران، ذات المساحة الواسعة والإمكانيات المادية الكثيرة والقوة الإقليمية الكبيرة، باحتلال هذه الجزر العربية، وما السبب من عدم خشية تلك الدول من

---

[35] صحيفة العرب، لندن في 7. 9. 2006 .
[36] صحيفة لوموند باريس،11. 3. 1979
[37] عباس عساكرة، القضية الأحوازية صفحة 64، تونس 2004

تمرد إيران والإقدام على إغلاق هذا الممر الإستراتيجي في وجه السفن الغربية، وهي التي تسيطر على الضفة الشرقية من المضيق؟

على الرغم من أن دول الخليج العربي، ومن ضمنها دولة الإمارات العربية المتحدة، ونظراً لعدة اعتبارات، لم تشكل في أي وقت من الأوقات تهديداً للمصالح الغربية في حال بقيت الجزر العربية تحت السيادة الإماراتية. لم تعمل بريطانيا، وهي صاحبة القوة والنفوذ والمسؤولية المباشرة على منطقة الخليج في حينه، على ردع ايران وثنيها عن الإقدام على إجتياح الجزر الإماراتية. بريطانيا والولايات المتحدة الأمريكية تواطأتا مع حكومة الشاه على احتلال الجزر العربية. كما تواطأت بريطانيا من قبل مع الشاه رضا خان ومكنته من احتلال إمارات إقليم الأحواز على الساحل الشرقي للخليج العربي. هذا التواطؤ لازال مستمراً بصم الآذان عن المطالب المشروعة والدائمة لدولة الإمارات العربية المتحدة، والمدعومة من الجامعة العربية، بإنهاء الاحتلال الإيراني للجزر العربية.

ربما يكون جزء من الجواب ضمن الاستنتاج القائل: أن الدولة الإيرانية والحكومات الإيرانية في المستقبل، واعتماداً على التجربة التاريخية، واعتماداً على الوعي السياسي والقومي السائد في إيران، لا يمكن أن تكون في الطرف المعادي للمصالح الغربية. وهي ستبقى، كما كانت عبر القرون الخمسة الماضية، الرديف الإستراتيجي للقوى الغربية في منطقة الخليج العربي والشرق الإسلامي. وبقاء هذه الجزر العربية تحت السيادة الإيرانية في مدخل الخليج اكثر ضماناً لمصالح الدول الغربية الإمبريالية من السيادة العربية على تلك الجزر. فالعرب كانوا عبر التاريخ الطويل السد المنيع الذي حمى الشرق من الذوبان والزوال، وظلوا على الدوام القوى الحريصة على حماية مصالح الشعوب الإسلامية. على العكس من دولة فارس ومن بعدها دولة إيران. والدوائر السياسية الغربية الإستراتيجية تعتبر حالة التشرذم والتمزق في الجسم العربي هي حالة طارئة ولن تدوم طويلاً وسيأتي اليوم الذي يتمكن العرب من لملمة أجزاء الوطن المبعثر وسيكون فيه الجزء قوياً ومنيعاً بالكل العربي المتضامن.

من المفترض أن تكون الولايات المتحدة الأمريكية وبريطانيا من الدول "الصديقة" لدولة الإمارات العربية المتحدة، ومعادية، حسب ادعائهم في نفس الوقت، للحكومة الإيرانية، والتي صنفت، حسب التعبير الأمريكي، من دول محور الشر، إلى جانب كورية الشمالية والعراق. لم تلتقط الدول الغربية ورقة الجزر العربية وتهدد باحتمال استعمالها في حالة عدم استجابة إيران لطلبات الدول الغربية بالتخلي عن مشرعها النووي. لقد شاهد العالم كيف تصرفت الإدارة الأمريكية في العراق أثناء التحضير للعدوان عبر تلفيق التهم والادعاءات الكاذبة، مثل امتلاك أسلحة الدمار الشامل والدفاع عن حقوق الإنسان المهانة في هذا البلد العربي وتجنيد أبناء الأقليات العرقية والطائفية

لصالح مشروع العدوان. لم تتطرق الإدارة الأمريكية لا من قريب ولا من بعيد لموضوع الجزر المحتلة منذ خمسة وثلاثون عاماً، حتى ولو بهدف الاستهلاك والتحريض السياسي والإعلامي على إيران، في حين استثمرت الإدارة الأمريكية كل الأوراق، الصحيحة والملفقة ضد حكومة العراق أثناء وجود لجان التفتيش على السلاح النووي العراقي المزعوم في أعوام التسعينيات.

من المؤكد أن في العلاقات الدولية فرق بين المصلحة الظرفية والصداقات الآنية بين الحكومات وبين الأهداف والمسلمات الإستراتيجية الثابتة التي تتحكم بعلاقات الدول والأمم على المستوى البعيد. ربما لن يقبل العالم الغربي بان يتخذ من إيران حليفاً استراتيجياً له، لكن من الصعب ايضاً تصور حكومة إيرانية، في العقل الغربي، حليفة للعرب في يوم من الأيام. فالغرب قانع بهذا الاستنتاج المكتسب عبر تجارب التاريخ وعوامل ثقافة المجتمعات وحقائق السياسة.

التدخل الإيراني في البحرين
ومحاولة احتلالها

المداخل والمبررات الإيرانية للتدخل في الشؤون الداخلية لدول الجوار تكاد تكون متكررة ومتشابهة. تتلخص هذه المبررات في حماية الشيعة وحماية مصالح الشيعة في هذه الدول. وإذا لم تفلح تلك الحجة وذاك الإدعاء تفصح إيران عن مطامعها التوسعية بشكل فج ومباشر تدعي ملكية هذه الدول ومشروعية إحتلالها كما يتكرر مع دولة البحرين العربية.

في زمن الشاة كانت جزيرة البحرين أحد البلدان التي كان الإيرانيون يعلنون عن أطماعهم فيها ويعملون على تعبئة الرأي العام المحلي والعالمي حول شرعية ملكية جزيرة البحرين.

العلاقات البحرينية ـ الإيرانية لم تكن جيدة وعادية منذ أول يوم لاستقلال هذه الدولة العربية على الساحل الغربي للخليج العربي. التعدي الإيراني على حقوق العرب في هذه المنطقة سبق استقلال هذه الإمارة (المملكة) بزمن طويل. استمراراً لسعي إيران في الاستيلاء على اكبر مساحة ممكنة من الأرض العربية كان أرخبيل البحرين أحد الأهداف التالية للاستعمار الفارسي للخليج العربي. وتكملة لمسيرة رضا بهلوي في إتمام احتلال الساحل الشرقي للخليج العربي ابتداء باحتلال إمارة القواسم وإمارة أولاد علي واحتلال إمارة المحمرة من إقليم الأحواز في عام 1925 مروراً باحتلال جزر الإمارات عام 1971 في مدخل الخليج عمل الشاه محمد رضا على ضم البحرين لمملكته. كان الشاه يمهد للانتقال إلى الضفة الغربية للخليج العربي وجعل البحرين رأس الجسر لأهدافهة الإستعمارية على هذه الضفة من الخليج . لم يخفي الشاه رضا بهلوي أطماعه في العراق وعمان والبحرين ودولة الإمارات العربية المتحدة.

إثارة موضوع البحرين كان رأس السهم الفارسي الموجهة إلى صدر الوطن العربي في الخليج. في نوفمبر عام 1927 م . أثارت إيران مشكلة حول البحرين وادعت أن هذه الجزيرة العربية في الخليج تابع إلى الإدارة الفارسية. قدمت إيران مذكرة إلى عصبة الأمم المتحدة تشرح شرعية امتلاكها للبحرين.الإدعاء الإيراني في ملكية البحرين اعتمد على قاعدتين من الحجج:

- أن البحرين كانت تابعة للإدارة الفارسية قبل التواجد الغربي في الخليج
- أن هناك أغلبية شيعية تعيش في البحرين

بخصوص الإدعاء الأول لم يذكر التاريخ منذ ألف عام أن البحرين كانت خاضعة للإدارة الفارسية. احتلت البحرين من قبل الفرس في عام 1602 وتم إخراجهم منها بعد فترة وجيزة على يد القبائل العربية في الخليج بقيادة حاكم عمان. ومرة أخرى هاجمت القوات الفارسية البحرين عام 1736 في زمن "نادر شاه"، ملك إيران، وأخرجت القوات الفارسية بعد موت "نادر شاه" من البحرين ولم يدم احتلال هذه الجزيرة العربية في الخليج إلا عدة أعوام. منذ الفتح الإسلامي الظافر قبل أربعة عشر قرنا لم يتجاوز عدد أعوام الاحتلال الفارسي لجزيرة البحرين الخمسة عشر عاماً. ومنذ اكثر من قرنين من الزمان، أي منذ عام 1782 ، إلى يومنا هذا تحكم البحرين عائلة "آل خليفة" المتحدرة من قبيلة العتوب العربية دون انقطاع.

وأما عن الإدعاء الثاني الذي يسوقه حكام إيران، "الأغلبية الشيعية"، فهو أقل هشاشة ومدعاة للسخرية مثل الإدعاء الأول. لا يعرف أحد في هذا العالم بتفويض منح للفرس وللدولة الفارسية، ومن بعدها لإيران، بتمثيل إيران للشيعة في العالم. ولم تصدر المؤسسات الدولية حتى هذه الساعة مرسوماً يقضي بأن كل مواطن مسلم من الطائفة الشيعية يجب أن يكون بشكل تلقائي مواطناً إيرانياً. الشيعة في البحرين بأغلبيتهم الساحقة منحدرين من قبائل وعشائر عربية، وثقافتهم عربية ولسانهم عربي وكل شيء فيهم عربي.

وكذلك موضوع الأكثرية والأقلية بين المذاهب الإسلامية لم يكن في يوم من الأيام مكان اهتمام إلا من قبل المستعمر البريطاني و الحكومات الإيرانية المتعاقبة. "لا يعرف الآن بالتحديد من يشكل الأغلبية العددية بين مواطني البحرين، حيث انه قد امتنع لأسباب سياسية عن اخذ بيانات التعداد العام حول المذهب الذي ينتمي إليه الفرد، إلا أن الإحصاء الوحيد الذي اجري على أساس مذهبي كان هو الإحصاء الأول سنة 1941 . والذي كان فيه الشيعة اكثر عدداً من السنة بقليل، إذ بلغ تعدادهم 46359 في حين عدد السنة 41984 ."[38] وشكلت نسبة الإيرانيون في البحرين إلى مجموع عدد السكان 8،4 % ، 6،3 % ، 2،6 % ، 4،0 % ، 2،9 % في الأعوام 1941 ، 1950 ، 1959 ، 1965 ، 1971 على التوالي.[39] هذا الإحصاء الوحيد التي أجرته السلطات البريطانية يؤشر على نسبة الإيرانيين، التي وصلت عام 1950 ، ما يقارب 3 % لمجموع عدد سكان البحرين.

[38] محمد الرميحي، البحرين، مشكلات التغيير السياسي والإجتماعي، ص 35 ، دار ابن خلدون بيروت 1976 .
[39] قارن محمد الرميحي، البحرين، ص 33 .

تصاعدت بعد الحرب العالمية الثانية المطالب الإيرانية في السيادة على البحرين. واتخذت الحكومة الإيرانية آنذاك عدد من الإجراءات التي تساهم في خلق أمر واقع تحضيراً للاستيلاء على هذه الجزيرة العربية. ابرز هذه الإجراءات كانت:

إصدار وزارة التربية والتعليم في عام 1946 قرارًا يقضي بتدريس تبعية البحرين لإيران في المدارس الإيرانية.

إصدار مجلس الوزراء الإيراني في أبريل عام 1946 مرسومًا يقضي بأن يخضع إنتاج الحقول النفطية في البحرين والذي يتم تصديره إلى الخارج لنفس الإجراءات المتبعة بحق شركة البترول الأنجلو ـ فارسية.

عدم اعتراف الحكومة الإيرانية بجوازات السفر البحرينية الخاصة بالأشخاص الذين يزورونها من البحرين.

أصدر مجلس الوزراء الإيراني في عام 1957 قرارًا يقضي بضم البحرين وذلك ردًا على قيام المنامة بإدخال تعديلات على قانون الجيش الذي صدر في عام 1938 نصت على عدم جواز منح الجنسية البحرينية إلا لمن تكون لديه ملكيات غير منقولة بشرط إجادته اللغة العربية وأن يكون مقيمًا في البلاد بصفة مستمرة لما لا يقل عن عشر سنوات.

أعلن البرلمان الإيراني عام 1958 ضم البحرين إلى السيادة الإيرانية، لكن لم تستطع الحكومة الإيرانية تنفيذ ذلك.

رفضت إيران اتفاقية التعاون الاقتصادي الموقعة بين المملكة العربية السعودية والبحرين عام 1958، وفي هذا الاتجاه اعتبرت إيران المشروع السعودي بإقامة جسر يربط بين المملكة والبحرين بمنزلة إجراء تتخذه السعودية لإحباط أي محاولة تقوم بها إيران لضم البحرين.

خلال فترة التقارب التي قامت بين الملكة العربية السعودية وشاه إيران على قاعدة التعاون على وقف المد القومي العربي والذي وصل إلى دول الخليج استجابت إيران إلى فكرة التحكيم الدولي بشأن موضوع البحرين. وقد ساهمت في هذا التقارب والتفاهم السعودي ـ الإيراني كل من الولايات المتحدة الأمريكية وبريطانيا لتعزيز الحلف المعادي لعبد الناصر والقوى الثوري العربية التي يتزايد تأثيرها على الشعوب العربية في الجزيرة العربية والخليج العربي. في يناير عام 1969 قبل الشاه مبدأ حق تقرير المصير بالشأن البحريني. من الوثائق السرية البريطانية التي افرج عنها. يتحدث السفير البريطاني عن قلق الإيرانيين من أن (يشجع نموذج البحرين ـ في الحصول على الاستقلال ـ الحاكمين على التصلب). والمقصود بالحاكمين، هما حاكم إمارة الشارقة

وحاكم إمارة رأس الخيمة. وهذا الحديث يعني أن الإيرانيين باتوا متيقنين في سبتمبر 1969 من أن مزاعمهم في البحرين في طريقها إلى التبدد النهائي.[40]

الأمر الذي ترتب عليه قيام كل من إيران وبريطانيا بموافقة البحرين في أواخر مارس عام 1970 بتقديم طلب إلى السكرتير العام للأمم المتحدة "يوثانت" لإرسال لجنة أو مبعوث من قبله لتقصي الحقائق في جزر البحرين لمعرفة رغبات سكانها وما إذا كانوا يفضلون أن تكون بلادهم دولة عربية مستقلة أم تنضم لإيران، وقد جاءت رغبة الغالبية من السكان في صالح إعلان البحرين دولة مستقلة ذات سيادة، مما دفع إيران إلى الموافقة على هذه النتيجة، ومع صدور قرار مجلس الأمن في 11 مايو 1970 الذي قضي بحق شعب البحرين في الانتماء لدولة مستقلة ذات سيادة وبادرت البحرين بإعلان استقلالها في 14 أغسطس 1971.

بعد قيام الثورة الإسلامية في إيران عام 1979 حاولت إيران أن تمد نفوذها في الخليج العربي عن طريق ما سُمي بمحاولات تصدير الثورة الإسلامية، التي ساهمت إلى حد كبير في تحفيز عوامل عدم الاستقرار في بعض البلاد التي تعيش بها تجمعات شيعية معتبرة كالبحرين، وهو الأمر الذي ساهم في ترسيخ مخاوف دول الخليج العربية من التدخل الإيراني في شؤون هذه الدول. ومما زاد من تلك المخاوف إعلان الخميني أن الإسلام لا يتفق مع النظام الملكي، إضافة إلى الخطب الحماسية التي كان يشجب فيها بعض المسئولين الإيرانيين جميع النظم السياسية في الخليج العربي. لم يدخر الإيرانيون في عهد الخميني والجمهورية الإسلامية جهداً على تحريض المواطنين البحرانيين للتمرد على الحكومة والدولة في البحرين. قال صادق روحاني في تصريح لوكالة الصحافة الفرنسية :"إن شعب البحرين يريد إقامة جمهورية إسلامية على النموذج الإيراني ، وان البحرانيين سيشهرون السلاح إذا أصر النظام على الاستمرار في سياسته الراهنة"[41] .

منذ الأيام الأولى لوصول القوى الإسلامية إلى السلطة ظلت حكومات الثورة الإسلامية طيلة العقدين والنصف العقد الأخيرة تسير في سياستها الخارجية في مشروعين أساسيين في آن, واحد. أحدهما سياسي يمثل الدولة ومؤسساتها، والآخر مذهبي وأيديولوجي يمثل قوى ومؤسسات سياسية داخل المؤسسة الدينية الحاكمة مثل "حزب الله" و"منظمة الارتباطات الثقافية والإسلامية" التي أخذت على عاتقها المسؤولية في المقام الأول عن تصدير الثورة وتسلم قيادة ما سُمي بـ الإسلام الشعبوي في دول الجوار في الخليج العربي والعراق وبقية أنحاء العالم الإسلامي.

---

[40] صحيفة الخليج،الإمارات العربية المتحدة 16. 1. 2000
[41] صحيفة العرب، لندن،17. 9. 1979

في بداية أعوام الثمانينات أعلنت الحكومة البحرانية إلقاء القبض على مجموعة من المخربين تلقوا تدريباتهم العسكرية في إيران، متهمة الحكومة الإيرانية العمل على قلب نظام الحكم في البحرين. "لا يوجد في البحرين خطر داخلي، وأن الخطر الخارجي هو إيران.. مؤكدا النظام في إيران يثير الشيعة في البحرين والخليج، ويشجع روابطهم السياسية مع آيات الله الحاكمين في طهران ويقوم بتدريبهم على استخدام الأسلحة ويرسلهم إلى أقطارهم لإثارة الفوضى وزعزعة الاستقرار"[42] هذا ما صرح به الشيخ خليفة بن سلمان آل خليفة رئيس الوزراء في حينه.

عاشت البحرين أعوام التسعينيات حالة من الفوضى السياسية، واستمرت هذه الفوضى حتى عام 1996. الحكومة البحرينية أصرت على وصم هذه الاحتجاجات بالطائفية الموجهة، والتي أشارت اكثر من مرة إلى الأصابع الإيرانية التي تحرك هذه الاحتجاجات الشيعية الطائفية.

" ووجهت المنامة اتهامًا رسميًا إلى طهران بالتورط في تمويل تنظيمات سرية تهدف إلى قلب نظام الحكم وإقامة الجمهورية الإسلامية على النمط الإيراني، وأقدمت البحرين في مطلع شهر فبراير عام 1996على إبعاد السكرتير الثالث في السفارة الإيرانية معتبرة أنه شخص غير مرغوب فيه ويقوم بأعمال تتنافى ومهمته الدبلوماسية، وردت إيران بالمثل فطردت دبلوماسيًا بحرينيًا بعد يوم واحد من الإجراء البحريني."[43]

بدأت العلاقات الإيرانية ـ البحرانية بالتحسن النسبي من منتصف عام 1996 بعد الزيارة التي قام بها الرئيس الإيراني علي هاشمي رفسنجاني للسعودية ومن ثم للبحرين، حيث التقى آنذاك الشيخ "عيسى بن سلمان آل خليفة" أمير البحرين. استمرت العلاقة الإيرانية ـ البحرانية بحالة من الانفراج حتى عام 2001 بعدما وجهت البحرين اتهاماً مباشراً في 10. 7. 2001 للحكومة الإيرانية في العمل على زعزعة الأمن والسلم في البحرين والتدخل في شؤون البلاد الداخلية. التدخل الإيراني جاء عبر الإذاعة الرسمية في طهران حين أذاعت أن السلطات البحرينية تدخلت في النزاع الدائر حول إدارة مكان تجمع للطائفة الشيعية. هذا التدخل المباشر في شؤون المجتمع البحراني من قبل النظام الإيراني فهم في المنامة كتهديد إيراني سافر لأمن وسلامة البحرين. عملت إيران عبر هذه الأساليب من زمنٍ طويل على اختراق المجتمع البحريني وتهديد وحدته واستقراره.

بعد تأسيس حزب الدعوة في إيران في عام 1958 وسعت إيران مجال عمل هذا الحزب حتى شمل العراق ولبنان والبحرين والكويت. "بالنسبة لحزب الدعوة ـ فرع البحرين، فقد كانت البذرة الأولى هي مجموعة من الطلاب الجامعيين الذين درسوا في الجامعات العراقية، وعدد من طلاب العلوم الدينية الذين درسوا في الحوزة العلمية في النجف

---

42 موجز حول الحركة الإسلامية البحرينية على شبطة الإنتير نيت الدولية

43 المصدر السابق

الإشراف في الستينات. ومع عودة عدد من هؤلاء إلى البحرين تم تأسيس الفرع في نهاية الستينات في العام 1968. واستطاع حزب الدعوة ضم نخبة من الطلاب الجامعيين وعلماء الدين الشيعة وتنظيم صفوفهم في إطار العمل المرحلي الداعي لتشكيل القاعدة الاجتماعية المطلوبة"[44]. بعد استقلال البحرين وإعلان نتيجة الاستفتاء التي أشرفت عليها هيئة الأمم المتحدة التي أقرت باستقلال البحرين بنسبة عالية من أصوات المواطنين البحرانيين، تماشت الأحزاب الموالية لإيران مع الواقع الجديد مثل حزب الدعوة البحراني، ولو إلى حين.

في أعوام التسعينيات من القرن العشرين دخل إلى الساحة البحرينية قوى وأحزاب جديدة. ففي 3. 1. 1996 أعلنت الحكومة البحرانية عن اكتشاف حزب موالي لإيران يعمل تحت اسم "حزب الله البحراني"، والذي يعد أحد فروع "حزب الله الإيراني" واتخذ من طهران مقراً له. اتهم هذا الحزب في العمل على قلب نظام الحكم في البحرين. وفي نفس العام أعلن في المنامة الكشف عن وجود "الجبهة الإسلامية لتحرير البحرين"، وهي حركة شيعية معارضة في البحرين، و تتخذ من طهران مقراً لها. على ضوء ذلك سحبت البحرين سفيرها من طهران احتجاجاً على هذا العبث والتدخل الإيراني السافر في الشؤون البحرانية.

لم تكن فقط الأحزاب الدينية ذات الأسس والمبادئ الطائفية هي الركائز التي بنت الحكومات الإيرانية سياساتها في البحرين وحول البحرين، بل ايضاً بعض المنظمات اليسارية كانت ساحات عمل وقوى رديفة في المشروع الفارسي التوسعي في البحرين، وفي منطقة الخليج العربي. الجبهة الديمقراطية لتحرير البحرين كانت ولازالت حزب سياسي جل عناصره من أبناء الجاليات الإيرانية في البحرين. وهذه المنظمة الماركسية تنسق بالدرجة الأولى مع الأحزاب والمنظمات الماركسية الإيرانية وليس مع المنظمات الماركسية العربية. وتعتبر هذه المنظمة في الأوساط السياسية اليسارية الإيرانية كفرع من فروع " حزب تودة" (الحزب الشيوعي) الإيراني.

الاختراقات الإيرانية للجسم الاجتماعي وللحياة السياسية في البحرين وفي وبقية دول الخليج العربي على الشاطئ الغربي للخليج أخذت أبعاد خطيرة في الآونة الأخيرة، وتهدد بكل جدية عروبة الخليج، إذا ما استمر الوضع يتطور بنفس الوتيرة التي سار عليها الوضع هناك خلال العشرين عاماً الأخيرة. الحكومة الإيرانية تعمل ليلاً نهاراً وتسير حسب برامج محددة ومدروسة لتغيير الواقع الديمغرافي لصالح التواجد الفارسي في هذه الدول من خلال دفع اكبر عدد ممكن من العمال الإيرانيين للعيش والإقامة الدائمة هناك. المسؤولين في دول الخليج العربي يبدو وكأنهم غير مبالون في ما آلت إليه

[44] المصدر السابق

الأمور في بلدانهم حيث اصبح العنصر الأجنبي والعنصر الإيراني يزداد عدداً ونفوذاً في هذه الدول.

تناقلت وكالات الأنباء العربية والعالمية موضوعاً مفاده "أن دول الخليج العربي حصلت على استقلالها من بريطانيا مرفق بشروط تخص قوانين العمل والإقامة والتجنيس، حيث اشترطت الحكومة البريطانية على قادة وحكام تلك الإمارات بعدم الإقدام على منح الجنسية للمقيمين من العمال العرب، ووجوب تحديد نسبة العمالة العربية الوافدة إلى ثلث الكمية التي تحتاجها هذه الدول والثلث الثاني من حملة الجنسية الإيرانية والجنسيات الآسيوية الأخرى، ويتم استقطاب الثلث الباقي من حاجتها لليد العملة والخبرات الفنية من الدول الغربية وبقية دول العالم."[45] هذا الشرط الذي وضعته بريطانيا مقابل منح الاستقلال لدول الخليج العربي لازالت حكومات الخليج ملتزمة في نصه وروحة ولم تقدم هذه الحكومات على حل مسألة عروبة المنطقة المستفحلة من خلال منح العرب المقيمين على أراض هذه الدول منذ اكثر من أربعين عاماً الجنسية وحق المواطنة.

بطلب من "جمعية الوفاق الوطني الإسلامية" في البحرين التي تدور في فلك الحكومة الإيرانية، قدم رئيس مجلس اللوردات البريطاني في نهاية شهر حزيران من عام 2005 احتجاجاً رسمياً إلى حكومة البحرين لمنحها الجنسية البحرينية لبضع آلاف من العرب اليمنيين والسوريين والسعوديين المقيمين على أراضيها إقامة دائمة لمدة تزيد على العشرين عاماً، علماً أن الدستور البحريني ينص على منح الجنسية البحرينية للمقيمين على أراضيها من العرب إقامة دائمة لمدة خمسة عشر سنة. وفي نص الاحتجاج البريطاني أن هذا التجنيس يخل في التوازن الديمغرافي في مملكة البحرين بين الشيعة والسنة. وفك طلاسم هذه الشيفرة في منح الجنسية للعرب يعني رفع نسبة العرب على نسبة الفرس المختبئين خلف كلمة الشيعة. وهذا ما لا تريده وترضاه الحكومة الإيرانية والحكومة البريطانية وأطراف طائفية محلية في البحرين.

لم تستسلم إيران لحقيقة أن البحرين بلد عربي وعضو في جامعة الدول العربية، وأن الأغلبية الساحقة من سكان البحرين السنة والشيعة هم من العرب الأقحاح، وان العرب بدأوا يفيقوا من غفوتهم، وبدأوا بالتنبه للدور الإيراني في المنطقة العربية. "حسين شريعتمداري"، وهو المدير العام لصحيفة كيهان الإيرانية الرسمية الذي يعينه مرشد الثورة علي خامنئي في هذا المنصب، كتب في 12. 7. 2007 في صحيفة كيهان: "أن البحرين جزء من الأراضي الإيرانية وقد انفصلت عن إيران اثر تسوية غير قانونية بين الشاه المعدوم وحكومتي الولايات المتحدة الأمريكية وبريطانيا. وأن المطلب الأساسي

[45] وكالات الأنباء العربية والعالمية.

للشعب البحريني حاليا هو إعادة هذه المحافظة التي تم فصلها عن إيران إلي الوطن الأم إلى الدولة الإسلامية الإيرانية."[46]

تجددت الإستفزات الإيرانية لدولة البحرين وللعرب عندما صرح حجة الاسلام علي اكبر ناطق نوري رئيس التفتيش العام في مكتب المرشد العام علي خامنئي في الكلمة التي القاها في الذكرى السنوية لانتصار الثورة الاسلامية الإيرانية في جامع الامام الرضا بمدينة مشهد في 10. 2. 2009 والتي تمس سيادة واستقلال مملكة البحرين، والتي تطرق فيها الى إدعاء "تبعية البحرين لايران" واصفا اياها بانها كانت في الاساس المحافظة الايرانية الرابعة عشرة. الإصرار لإيراني على بث الفوضى وعدم الاستقرار في البحرين اصبح جزء من استراتيجية إيرانية متكاملة ومحددة المعالم. وصارت حكزمات إيران تزداد أكثر شراسة وغطرسة.

إذا أخذت تصريحات علي شمخاني وتصريحات حسين شريعتمداري وتصريحات ناطق نوري وكذلك التهديدات العسكرية والسياسية التي سبقتها على لسان أكثر من مسؤول إيراني تجاه البحرين ودول الخليج العربي يؤكد أن حكام إيران ماضون على الطريق التي رسمها رضا خان وعاد وأحياها الخميني والتي تتلخص بالهيمنة واحتلال جانبي الخليج العربي.وموضوع شيعة البحرين في القاموس الإيراني يمثل "مسمار جحا" بالعلاقات الدولية.

[46] صحيفة القدس العربي، لندن في 14. 7. 2007 .

التدخل الإيراني
في شؤون المجتمع والدولة العراقية

تمتد حدود العراق مع إيران على مسافة تقارب 1300 كم. العراق هو من أهم البلدان التي تجاور إيران. عبر القرون الطويلة غلبت على العلاقة بين هذين البلدين سمة التنافر والحروب والصراع. خلال الخمسة قرون الأخيرة كان المحرك للتوترات والنزاعات، في اغلب الأحيان بسبب عدوان أو إعلان حرب قادم من الشرق الفارسي والهضبة الإيرانية. التناقض بين السهل والجبل وبين الشح والوفرة، ترك أثاره عبر العصور على العلاقة بين هاتين المنطقتين، إيران والعراق. ورسمت هذه العلاقة المتميزة بحدة قساوتها أخاديد عميقة في ذاكرة الأجيال المتعاقبة. في كل مرة يقترب الغزاة من دجلة والفرات كانت المذابح والدمار والخراب ثمرة هذا الاقتراب.

أربعة مرات احتلت بغداد من قوى وجيوش قادمة من الشرق، في كل مرة يقتل مئات الآلاف في مدينة السلام عاصمة الرشيد، ويموت الملايين على ضفاف دجلة والفرات العظيمين. لكن في كل مرة يزول الغزاة ويتلاشوا وتبقى بغداد ويستمر تدفق مياه النهرين إلى شط العرب.

منذ قرون عديدة والعلاقات الإيرانية ـ العراقية تعاني من التوتر والنزاعات والحروب. الوفاق الإيراني العراقي لم يتحقق بعد. العلاقة بين هذين البلدين الجارين المسلمين معقدة وتتأثر في اكثر من عامل وأبعادها متشعبة. الجغرافية والتاريخ والدين والاقتصاد والفروق القومية تركت بصماتها على طبيعة العلاقة بين الشعبين الجارين. عاصمة الإمبراطورية البابلية (مدينة بابل) تقع في قلب العراق. ومن بابل تعرف العالم على الفرس أول مرة عندما احتلت قبائل فارسية تلك المدينة أول مرة. بعد احتلال بابل قامت أول دولة للفرس (الأخمينيين) في القرن السادس قبل الميلاد ومن عاصمة الحضارة العراقية البابلية العظيمة اتخذ الفرس عاصمة لدولتهم الأولى على أنقاض إمبراطورية آشور وبابل العراقيتين. نقل الفرس مركز دولتهم السياسي إلى ارض العراق.

ومرة أخرى يعود الفرس بعد قرون من طردهم من العراق وسقوط دولتهم على يد الكسندر المقدوني في عام 333 قبل الميلاد إلى احتلال العراق في القرن الثالث الميلادي. الدولة الفارسية الثانية (الدولة الساسانية) في القرن الثالث الميلادي احتلت العراق ونقلت ايضاً ثقلها السياسي والاقتصادي إلى أرض الرافدين، واتخذت من مدينة

المدائن العراقية عاصمة صيفية لتلك الدولة الفارسية. واتخذ كسرى ملك الساسانيين مدينة "المدائن" في شرق العراق عاصمة لدولته مقراً لسلطته بعدما كانت مدينة ديسفول (بيرزو بوليس) الأحوازية.

قبل قدوم الغزو الفارسي لتلك الديار بنت الشعوب العروبية في وادي الرافدين الحضارات العملاقة. أجداد العرب البابليون والآكاديون والعيلاميون والآشوريون والكلدان عاشوا وحكموا بلاد العراق لأكثر من ثلاثة آلاف عام دون انقطاع. وبنوا في تلك الديار الحضارات والعمران. وعندما حل الفرس القدامى في أرض العراق أول مرة دمرت معالم الحضارة والعمران في تلك الديار، وغربت شمس الشعوب السامية ـ العروبية لقرون عدة.

احتل الأخمينين والإغريق والرومان ومن ثم الساسانين الفرس مرة أخرى أرض العراق لكن ظل السواد الأعظم لشعب بلاد ما بين النهرين سامي ـ عروبي الهوية والثقافة دون انقطاع. عادت أرض بابل وآشور وآكاد من جديد إلى الفعل الحضاري مع دخول جيوش الفتح العربي الإسلامي أرض الرافدين. بغداد التي بناها أبو جعفر المنصور ثاني الخلفاء العباسيون، ظلت عاصمة العرب لأكثر من خمسة قرون متتالية.

مرة أخرى يحل الخراب في أرض الرافدين مع قدوم قبائل "بني بويه" الفارسية عاصمة دار الخلافة في منتصف القرن العاشر الميلادي. يجمع المؤرخون على أن عصر البويهيين كان عصراً مظلماً بعيداً عن قيم الإنسانية والإسلام وتعاليمه. وخاصة في عهد معز الدولة. لقد كان وجود هذا الطاغية في بغداد كله شر ودمار ،وقد خربت العراق بوجود البوهيين بعد أن كانت جنة الدنيا. يعود هؤلاء الغزاة إلى حيث أتوا بالقرب من بحر قزوين ويعاد بناء العراق من بعد خراب.

عاد الدمار والخراب إلى أرض الرافدين بعودة الغزاة من الهضبة الإيرانية من جديد. احتل شاه فارس، "الشاه عباس الصفوي"، بغداد عام 1623م، وقتل من أهلها في ظرف ثلاثة أسابيع 75 ألف مواطن عراقي، وأحال الكثير من أحياء المدينة المنكوبة إلى أطلال قبل أن يغادرها في السنة القادمة عام 1624م . لقد تجاوز عدد القتلى في العراق على يد الغزاة الصفويين في فترة عام الاحتلال المليون ونصف المليون قتيل.

الملفت للانتباه في كل مرة دخل فيها الفرس أرض العراق هو ارتفاع حجم الخسائر البشرية بشكل لا تبرره الضرورات العسكرية والقتالية. ولم يستطع المراقب والمحلل السياسي تفسير هذه الظاهرة المتمثلة في حجم الخسائر البشرية التي يمنى بها العراق بعد كل غزو يشارك به الفرس على هذا البلد. وخاصة عندما تقع البلاد تحت الاحتلال المباشر. إن هدف إيقاع أكبر عدد ممكن من الخسائر البشرية في صفوف المواطنين العراقيين ظل الصفة المرادفة لكل غزو فارسي لأرض العراق خلال الألف عام التي

خلت. تلك الصفة تتأكد مرة أخرى في المشاركة الإيرانية الفعالة في احتلال العراق الحالي، وهي التركيز على سحق أكبر عدد ممكن من السكان العراقيين، واتباع سياسة الإبادة الجماعية.

إن ظاهرة فرق الموت التي أشرف على بنائها جبر صولاغ الإيراني وأدخلها في وزارة الداخلية وحجم القسوة التي تظهرها قوات فيلق بدر وميليشيات جيش المهدي التي تقودها الأجهزة الأمنية الإيرانية وجيش القدس الإيراني، غير مألوفة في التاريخ البشري. قتل المعتقلين والأسرى وتعذيب هؤلاء ورميهم في الشوارع بالآلاف شهرياً ليس له تفسير بمنطق الضرورة السياسية والعسكرية. القراءة الأولية لتلك الظاهرة من الناحية الاجتماعية ومن ناحية السكلوجيا الجمعية والمجتمعية عند الشعوب تدل على مخزون نفسي من الأحقاد المتراكمة والمتعددة الأوجه تبرر الرغبة في الانتقام من عدو مفترض، وتجد في فعل القتل الجماعي متنفس لرغبة جماعية مكبوتة منذ زمن بعيد وغير مرئي وملموس عند أفراد تلك الجماعات. إن في ارتكاب الأفعال الإجرامية المشينة تتصور تلك الجماعات حل لأزمات نفسية متأصلة في وجدان أفرادها. وهذا ما تأكده الأحداث في العراق اليوم حيث يقتل الناس الأبرياء دون طائل ودون أسباب مرئية وملموسة. ومبررات سياسية أو عسكرية أو إقتصادية.

الصراع العثماني ـ الصفوي دار حول ضفاف شط العرب ولم تتوقف الغزوات الإيرانية على السهل والوادي العراقي طيلة القرون التالية. صمد العراق على الضفة الغربية من شط العرب، وصمد العراق على الضفة الشرقية من شط العرب. كانت إمارة المحمرة في إقليم الأحواز، الواقع إلى الشرق من شط العرب، الدولة العربية الفتية المرابطة على رأس الخليج العربي، تشكل السد المنيع في وجه جحافل الغزاة القادمة من الشرق. تكسرت على أبواب الأحواز طموحات الفرس العدوانية في التوسع أربعة قرون متتالية. لكن الظرف الدولي والمساومات الفارسية مع القوى المنتصرة في الحرب العالمية الأولى وتواطؤ المستعمر الإنجليزي مع صنيعتها "رضا خان" في طهران أسقطت إمارة الأحواز بيد الاحتلال الفارسي في عام 1925 وتم ضم الإمارة العربية للكيان الإيراني عام 1936 .

إقليم الأحواز العربي كان ولازال الامتداد الطبيعي للعراق من الناحية المناخية والناحية الجغرافية وكذلك تداخل وترابط سكان هذا الإقليم العربي مع النسيج الاجتماعي العراقي القبلي والعرقي والثقافي. وشط العرب كان عبر العصور قلب العراق وليس حدوده الشرقية. دورة البناء والخراب استمرت مع استمرار الصراع العربي الفارسي عبر القرون والعصور، ولم تشذ أحوالنا الحاضرة عن تلك القدرية المأساوية. لقد رافق الخراب والسوء حضور الفرس بأي شكل من الأشكال فوق أرض العراق.

الإيرانيون في العراق

نظراً للجوار الجغرافي كذلك للعامل الديني المذهبي كانت تتواجد عبر العصور جالية إيرانية على أرض العراق. أهم تجمعات هذه الجالية كانت ولازالت حول وبالقرب من المراقد الدينية عند الشيعة، خاصة في مدينتي النجف وكربلاء العراقيتين، حيث مرقد الخليفة الراشدي الرابع الإمام علي بن أبي طالب كرم الله وجهه في النجف ومرقد الإمام الحسين علية السلام في الكوفة.

عند زيارة المناطق المقدسة الرغبة في الإقامة إلى جوار المناطق المقدسة، عند المؤمنين كان سبب أساسي من أسباب هذا التواجد الفارسي في تلك المدن والمناطق العراقية.

على الرغم من هذه الأسباب لم يتجاوز عدد الفرس والإيرانيون في العراق عشرات الآلاف. ففي بداية القرن العشرين وصلت أعدادهم الخمسين أف إيراني. لكن هذا الرقم آخذ بالارتفاع حتى إلى ما يقارب ال 400 ألف في نهاية سنين السبعينات من القرن العشرين. لقد تراجعت أعداد الجالية الإيرانية خلال سني الحرب الإيرانية-العراقية من عام 1980 حتى 1988 بسب ظروف الحرب الاجتماعية التي تساعد على الهجرة من جهة ومن جهة أخرى نظرة التشكك وعدم الثقة من قبل السلطات العراقية بل وجزء من الشغب العراقي بعدم الوطنية والوقوف إلى جانب العدو الإيراني في هذه الحرب، ومما حدا بالحكومة العراقية بطرد عدة آلاف ممن يحملون الجنسية الإيرانية من أبناء تلك الجالية إلى خارج الحدود.

لقد تناقص عدد العراقيين من أصول إيرانية في العراق حتى استقر على عدد يقارب ال 200 وال 250 ألف فقط.

هذه الأعداد ونظراً لتعداد سكان العراق البالغ ال27 مليون نسمة في عام 2004 تعتبر ضئيلة جداً لكن تأثيرها هائل على المجتمع العراقي ومستقبلة السياسي ولا يتناسب مع حجمها بأي مقياس من المقاييس.

هناك ثلاثة فئات من الإيرانيين متواجدة على أرض العراق:

- الفئة الإيرانية التي تملك الجنسية العراقية وتعربت
- الفئة الإيرانية التي تملك الجنسية العراقية لكنها بقيت فارسية الثقافة والانتماء
- الفئة الإيرانية التي تحتفظ بالجنسية الإيرانية وحافظت على انتمائها الثقافي والسياسي الإيراني

لاعتبارات سياسية تجلت بسعي الحكومات الإيرانية المتعاقبة في إيصال العناصر الفارسية لاحتلال مواقع قيادية في المجتمعات الشيعية في العراق. منذ قدوم الشاه رضا إلى سدة الحكم، تمكنت هذه الفئة القليلة العدد من الفرس في العراق من تزعم قيادة الجماهير الشيعية في العراق. على وجه الخصوص الفئة الثالثة والثانية من الإيرانيين في العراق، نجحت بالسيطرة على مقدرات الشيعة في العراق اقتصاديا ودينيا وسياسيا. هذه الشريحة كان لها حصة الأسد في التربع على قمة الهرم القيادي الديني والسياسي للطائفة الشيعية.

يهيمن الفرس في العراق بشكل مطلق على مراكز اتخاذ القرار الديني عند الطائفة الشيعية العراقيين.

الحوزة العلمية (القيادة الدينية للمسلمين الشيعة في العراق) في مدينة النجف بقيت تتكون من علماء الدين الشيعة غير العرب. أغلبية القيادات الدينية الفارسية القادمة من إيران وأفغانستان وباكستان لا تمتلك الجنسية العراقية وكثير من هؤلاء لا يتقن اللغة العربية، لغة الشعب ولغة لمؤمنين ولغة القرآن . في مقدمة هؤلاء القادة الدينيين في مرتبة "آية الله" علي السستاني وعبد المجيد الخوئي ومحمد باقر الحكيم الطبطبائي والجزائري وجميعهم من أصول إيرانية، وبشير النجفي من باكستان وإسحاق فياض من أفغانستان. في الحوزة العلمية في النجف لا يوجد عربي واحد بدرجة آية الله أو آية الله العظمى.

كذلك يهيمن الفرس هيمنة شبة مطلقة على الأحزاب السياسية العراقية ذات التوجه الطائفي في الوسط الشيعي. فهذا النفوذ وتلك الهيمنة السياسية لها جذور تاريخية وتعود إلى سنين العشرينات من القرن العشرين، عندما قرر رضا بهلوي وعندما كان رئيساً للوزراء ووزيراً للدفاع في حكومة الملك القاجاري "محمد شاه" عام 1924 في إيران أن يهيمن على قيادة الشيعة في العراق ولبنان ودول الخليج العربي. هذا العسكري والسياسي المغمور الذي أصبح ملكا على إيران من خلال انقلاب عسكري قادة ضد أسياده القاجار، نظم وأشرف بنفسه على إستراتيجية اختراق النسيج الاجتماعي والسياسي العراقي. وهو صاحب مبادرات وسياسات "التأثير المباشر" على الهياكل والتشكيلات الحزبية السياسية للعراق من خلال تصدير الأفكار والنظم، وكذلك الأفراد والعناصر الإيرانية المدربة إلى العراق ودول الجوار.

لقد بوشر في زرع العناصر الفارسية في الهياكل والمؤسسات الدينية والسياسية العراقية في نهاية العشرينات وبداية الثلاثينات من القرن العشرين. بعدما قضى على إمارة المحمرة (إمارة الآحواز) وقام باعتقال وسجن أخر أمراء هذه الدولة العربية، الأمير "الشيخ خزعل الكعبي" عام 1925، بعد احتلال الطرف الشرقي للخليج العربي، قرر هذا الشاة متابعة سياسة التوسع والنفوذ على حساب المنطقة العربية.

في السنين الأولى لحكم رضا خان نشطت حركة قدوم المعممين الإيرانيين إلى منطقة الخليج العربي وإلى أرض العراق، وكذلك إلى جبل عامل في جنوب لبنان. "ففي كربلاء حيث كان أغلبية الطلبة من الفارسيين لم يشكل العرب إلا نسبة ضئيلة من عدد الطلاب."[47] كما اثبت ذلك "إسحاق النقاش" في كتابه "شيعة العراق". وكانت في تلك الحقبة التي تحدث عنها النقاش، أي أعوام الأربعينات من القرن العشرين، تدار المراكز الدينية العراقية الشيعية في مدينة النجف وكربلاء من قبل الدولة الإيرانية. هذه الإدارة الإيرانية لتلك المراكز الدينية الشيعية تم الاتفاق عليها بين السلطنة العثمانية والدولة القاجارية وتم تجديدها بناءاً على اتفاق تم عقده مع حكومة الملك فيصل في العراق.

ما أن شارفت أعوام الأربعينات من القرن العشرين على الانتهاء حتى أكمل حكام إيران بناء شبكة واسعة من التنظيمات التابعة لهم بشكل مباشر، ويتم الإشراف عليها وإدارتها من قبل أجهزة الدولة الإيرانية الأمنية، ومن قبل وزارة الخارجية والسفارات والممثليات القنصلية التابعة لها المتواجدة في كل دول الخليج العربي والعراق ولبنان. أعمدة هذه الشبكة هم من رجال الدين والتجار الإيرانيين. هذه النخبة المدربة القادمة من المدارس الدينية العليا في مدن "قم" و"مشهد" و"طهران" وكذلك مدارس النجف الدينية الخاضعة بشكل مباشر لإشراف الدولة الإيرانية، أسست لقيام أحزاب ومؤسسات اجتماعية قائمة على أسس ومبادئ مذهبية، وتمايزات طائفية.

قامت هذه الشخصيات وتلك الرموز في تأسيس وقيادة التشكيلات السياسية والدينية التي أنشأتها وعملت هذه الشخصيات على الإمساك بمراكز اتخاذ القرار فيها. لقد تشكلت منظمات دينية بقيت العضوية فيها حصرا على أبناء طائفة بعينها وتربعت على مواقع قيادتها (الحوزات العلمية) عناصر حكومية إيرانية، وتشرف عليها مؤسسات حكومية إيرانية دينية وأمنية. كان المشروع الإيراني في الدول العربية منذ البداية طائفي الملامح، وظل كذلك لأكثر من ثمانين عاماً، ولا زالت هذه الصفة هي السائدة في شكل ومضمون هذا المشروع.

ورث الشاه محمد رضا بهلوي الحكم عن أبيه في طهران، وورث أيضا توجيه المنظمات الحزبية والدينية في دول الجوار المرتبطة عضويا بالدولة الإيرانية، وتسير على هدي السياسة الإيرانية. تلك السياسة التي تخدم بالدرجة الأولى المصلحة القومية الفارسية. عشرات من المنظمات والأحزاب السياسية ومئات من المنظمات الاجتماعية الخيرية الممولة من الميزانية الحكومية الإيرانية والصناديق الشبه حكومية والمشرف على إدارتها من قبل الأجهزة الرسمية الإيرانية، انتشرت في عدد من الدول لعربية. أهم

[47] إسحاق النقاش، شيعة العراق، ترجمة عبد الإله النعيمي، صفحة 456 دار المدى للثقافة والنشرة، الطبعة العربية الأولى 1996 دمشق.

هذه الأحزاب والمنظمات كان حزب الدعوة الإسلامي في العراق وحركة أمل في لبنان. يقول إسحاق النقاش: "وهكذا، وعلى امتداد أربعة عشر عاماً بين 1947 و 1961 كانت الشخصية المحركة وراء النشاط الأكاديمي الشيعي في مدارس العراق هي المجتهد الأكبر المقيم في إيران"[48].

ظلت المؤسسة الدينية الحكومية في إيران الممسك الحقيقي والمتحكم في إدارة المدارس والمراكز الدينية بين أبناء المذهب الجعفري في العراق إلى وقتنا الحاضر، ولم تقدم الحكومات العراقية المتتالية على القيام بوقف هذه الوصاية الإيرانية على الشيعة العرب في العراق. لقد خلقت أجواء مناسبة لاختراق المجتمع العربي في جنوب العراق، وظلت الأجهزة الأمنية الإيرانية نشيطة في أوساط المواطنين العراقيين من أبناء المذهب الجعفري تحت غطاء الأخوة المذهبية. كلف الشاة محمد رضا بهلوي جهاز المخابرات الإيراني، السافاك، في الإشراف على تنظيم عمل الأشخاص والمؤسسات والأحزاب الموالية إلى إيران حتى يوم سقوطه في عام 1979 على يد أتباع الخميني.

الخميني ورفاقه في الجمهورية الإسلامية الإيرانية الجديدة تنصلوا من كثير من المبادئ والمعاهدات التي عقدها الشاه مع الأطراف الدولية، وتبرأ القادة الجدد من السياسات التي مارسها نظام الشاه المخلوع في الماضي، لكن هذه القيادة الجديدة لم تبتعد عن الأذرع والامتدادات الإيرانية داخل دول الجوار. ولم تتنصل من الالتزامات التي قطعها الشاه على نفسه ونظامه لتلك الأذرع والجيوب الموالية لدولة الفرس بالدعم والرعاية.

لم تكف القيادات الجديدة عن ممارسة سياسة بث سموم الطائفية المقيتة في دول الجوار الإسلامي. لقد تبنت القيادة الإيرانية الجديدة مبدأ التدخل في شؤون دول الجوار وأضافت إليه مبدأ مشروعية هذا التدخل بأغطية دينية وشعارات ثورية في تصدير تجربة الثورة "الإسلامية الإيرانية" إلى الدول الإسلامية الأخرى. الشاه كان قومي فارسي علماني وكان تدخله في شؤون دول الجوار يعتمد بالدرجة الأولى على شرعية غطرسة القوة والدعم الغربي له في لعب دور الشرطي في المنطقة. لكن الخميني ومجموعته جاءت بالإضافة إلى شرعية غطرسة القوة بالشرعية الدينية للتدخل بالشؤون الداخلية لدول الجوار العربي.

الحفاظ على إدارة شبكة الأحزاب والمنظمات المذهبية والطائفية التي بادر ببنائها الشاه رضا بهلوي ووسع دائرة فعلها ونشاطها الشاه محمد رضا بهلوي كان من أولويات السياسة الإيرانية الخارجية، وظل ركناً أساسياً من أركان العلاقات الدولية للحكام الجدد في طهران. سياسة العبور إلى المجتمعات واختراق سيادة الدول العربية، من خلال التشديد على ربط الأحزاب والقوى الطائفية العاملة في الدول العربية بأجهزة الدولة

[48] اسحاق النقاش، شيعة العراق، ترجمة عبد الإله النعيمي، صفحة 461 دار المدى للثقافة والنشرة، الطبعة العربية الأولى 1996 دمشق.

الإيرانية من جديد، عملت السلطات الإيرانية في حكومات الجمهورية الإسلامية على المحافظة على المكاسب التي تحققت في عهد الشاه المتمثلة في التأثير على المجتمعات العربية. وتكرس من جديد المشروع الإيراني العدواني والتفتيتي في المنطقة العربية، وأصبح، كما كان في عهد الشاه، مبدأ من مبادئ الدولة والثورة العليا. التمسك بالمشروع الفارسي الاستعماري القديم أصبح في ظل الدولة الدينية الإيرانية بالإضافة للواجب القومي والوطني الذي كان سائداً في عصر الشاه المخلوع واجباً دينياً ملزماً للمؤمنين يتقربون به لله وللأولياء الصالحين.

الشيعة والتشيع في العراق

تمتد جذور التشيع في العراق إلى أيام الخلافة الأموية وعهد الخلافة العباسية. المذهب الشيعي في العراق يتبع إلى الأمام جعفر الصادق وهو من نسب الأمام علي بن أبي طالب كرم الله وجهه و فاطمة الزهراء رضي الله عنها. ويطلق علي هذا المذهب أيضاً بالمذهب "الإثني عشري". أي تلك العقيدة الإسلامية التي تؤمن بإمامة اثنا عشر إماماً من نسل علي بن أبي طالب وفاطمة الزهراء. الإمام علي بن أبي طالب يمثل أولى الأئمة في هذه السلسلة، وتنتهي تلك بالإمام الثاني عشر، الذي يعرف بالإمام المهدي الغائب. اختفى هذا الإمام وهو في سن الخامسة من العمر في مدينة سامراء العراقية. يعرف عند الشيعة بالمهدي المنتظر الذي يحق له وحده قيادة الشيعة وإقامة الدولة بعد ظهوره وعودته مرة أخرى إلى الحياة الدنيا من جديد.

بقي الشيعة في العراق يشكلون أقلية عددية متواضعة عبر العصور والقرون المتتالية. لم يحصل صراع حقيقي بين العرب السنة و الشيعة العرب على مدى الثلاثة قرون الأخيرة. على الرغم من أن العرب المسلمون السنة كانوا دائماً ولازالوا يشكلون نسبة 90% من سكان الوطن العربي ظلت الأقليات الشيعية تعيش وتمارس حياتها الطبيعية بسلام في أوطانها. لم يعيش الشيعة العرب وعلى مدى القرون الطويلة حالة خطر تهددهم وبقيت الخلافات المذهبية بين العرب الشيعة والعرب السنة في العراق وفي غيرها من أقطار الوطن العربي في حدودها الدنيا، وكثيراً ما كان ينظر إليها كقضية جانبية في مسيرة الناس الاجتماعية وحياة الناس اليومية.

كان العراق هو مهد تكون ونشأة المذهب الشيعي منذ القرون الأولى للإسلام، لكن أعداد أبنا الطائفة الشيعية ظل لقرون طويلة محدود ويتجه إلى الانحسار. أخذت أعداد المتشيعين في التوسع والانتشار بين أوساط القبائل العربية في جنوب العراق في بداية العقد الثالث من القرن التاسع عشر. هذا الانتشار والتوسع المفاجئ حدث بالتوازي مع إقدام الحكومة العثمانية السنية على طرح قوانين الإصلاح في الدولة العثمانية المتخلفة في نهاية أعوام الثلاثينات من القرن التاسع عشر. في عام 1836 طرح السلطان سليم مشروعه الإصلاحي. عرف هذا المشروع بقوانين "التنظيمات"، الذي كان الهدف منه إعادة بناء الدولة العثمانية على أسس وطرق عصرية حديثة، مستفيدين من تجارب وخبرات الدول الغربية المنافسة لهم في ذلك العصر. هذا المشروع الذي يفرض، في أحد بنوده، التجنيد الإجباري على المواطنين العثمانيين في الجيش السلطاني لمن أتم

منهم سن العشرين عاما. وفي أحد بنود هذا القانون، قانون التجنيد الإلزامي، بند ينص على إعفاء أبناء الأقليات المذهبية والدينية من واجب الخدمة العسكرية الإلزامية في الجيش السلطاني.

كان العامل الأول الذي ساهم في اتساع رقعة التشيع العربي في العراق هو الظرف السياسي وتعميم التجنيد الإجباري. إقدام أعداد من أبناء القبائل العربية سنية المذهب، وبتشجيع من آبائهم وأمهاتهم، من الذين بلغوا سن التجنيد الإلزامي، بتسجيل أسمائهم عند السلطات العثمانية كأفراد ممن ينتمون إلى الطائفة الشيعية. كان مجرد اشهار ورقة موقعة من شيخ عشيرة أو إمام مسجد تثبت إنتماء الشخص للطائفة الشيعية أو التبعية الإيرانية كافية لإعفائه من الخدمة العسكرية الإلزامية.

رغبة هؤلاء الشباب وتلك العائلات من إعفائهم من الجندية الإلزامية ساهمت، في بداية الأمر خلق حالة من التشيع المصلحي والسطحي. هذه الحالة التي استمرت قرابة الثلاثون عاماً ساهمت مساهمة مباشرة في اتساع دائرة أعداد الشيعة العرب في جنوب العراق. ففي العراق حالة اجتماعية منتشرة ومعروفة وفريدة أيضاً من نوعها وهي أن تتواجد العائلات السنية والعائلات الشيعية في نفس المكان وتنتمي إلى نفس القبيلة وإلى نفس العشيرة وهم أبناء عمومة. تعززت هذه الظاهرة بانتشار حالات الزواج والمصاهرة بين العائلات السنية والعائلات الشيعية وطغيان عامل القرابة الدموية على الفوارق المذهبية.

العامل الثاني في اتساع حالة التشيع بين أبناء القبائل العربية في وسط وجنوب العراق في تلك الحقبة الزمنية كان تزامن طرح مشروع التجنيد الإلزامي العثماني مع حصول حالة من القحط أصابت المحاصيل الزراعية في العراق أوصلت الناس إلى حافة الفقر والجوع لعدة أعوام متتالية. منذ منتصف الثلاثينات من القرن التاسع عشر توالت سنين الجفاف وتكررت الكوارث البيئية على أرض العراق. من زحف الجراد القادم من الصحراء والخليج العربي وكذلك فيضان النهرين الزائد عن المألوف تسببا في إتلاف وتدمير المحاصيل الزراعية في مناطق الفرات الأوسط وجنوب العراق.

طمعاً في إيجاد مخرج من الأوضاع الاقتصادية التي وجدوا أنفسهم فيها من فقر وعوز ناتجة عن الكوارث الطبيعية والبيئية، أقدم بعض شيوخ العشائر والقبائل العراقية في الجنوب العراقي والفرات الأوسط من المسلمين السنة على الاقتراب من الحوزات العلمية الشيعية الغنية والموفورة الحال. ومن خلال هذا التقارب وضغط الحاجة ونشاط رجال الدين الفرس العاملين في العراق لكسب المؤيدين بين القبائل العربية، لحساب المؤسسة الدينية الإيرانية، دخلت بعض الرموز القبلية في المذهب الشيعي، ودخل مع شيوخ العشائر والقبائل أعداد كبيرة من أفراد تلك العشائر وذويهم إلى دائرة الأئمة والحوزات الدينية الشيعية. الأئمة والحوزات الدينية الشيعية كانت ولا زالت موفورة

الحال، وصاحبة مال وأملاك لما تحصل عليه وتتقاضاه من الرعية من ضريبة الخمس أو "خمس الإمام". طمعاً في تخفيف الضائقة المالية التي عاشها جنوب العراق والبحث عن مخرجاً لهذه الأزمة الاقتصادية التي حلت بالمنطقة كان من أهم الأسباب التي ساهمت بتزايد أعداد الشيعة في جنوب العراق في حقبة بداية الثلاثينات حتى الخمسينات من القرن التاسع عشر. فهناك الكثير من العشائر والبطون تشيعت بهذه الطريقة بعد أن كانت على مذهب أهل السنة. فمنهم على سبيل المثال بنو ربيعة، بنو تميم، الخزاعل، والزبيدات وغيرهم الكثير.

توقفت عملية انتشار حالة التشيع في العراق في منتصف الطريق. توقفت هذه الحالة عندما زالت الأسباب التي دفعت بقطاعات عراقية سنية كبيرة للتشيع والانضواء تحت قيادة الرموز الدينية الشيعية والحوزات الدينية في النجف. توقفت حالة التشيع لكنها لم تحدث انشقاقاً إجتماعياً، وظل المجتمع العراقي منسجماً يعزز من تماسكه ووحدته وحدة الدين والوطن والعشيرة أيضاً.

كان تشيع الناس طبيعي، يتخذ من حب آل بيت الرسول الكريم أساساً، ولا يعتمد على أسس موغلة في التعصب المذهبي والعدوانية ضد المذاهب الإسلامية الأخرى. كان التعايش بين أبناء المذهبين العرب هو السمة السائدة في حياة الناس وعلاقاتهم اليومية، وظل هذا المناخ الإنساني والاجتماعي سائداً في العراق إلى أعوام قليلة قبل غزو المذهب الصفوي وانتشار مفرداته بين أوساط الشيعة العرب، وطغيان مبادئه الانعزالية مع بداية أعوام الستينات من القرن العشرين. حقيقة التعايش السلمي بين أبناء المذاهب في العراق لعقود طويلة يكشف التأثير السلبي الذي جلبته النسخة الصفوية للتشيع وتعكس عمق الاختلاف بين التشيع العربي والتشيع الصفوي القادم من إيران.

يؤكد الكاتب الأحوازي رائد الأدهمي في أحد مقالته تحت عنوان (هل بدأ تحرير الأحواز) عن الدور الذي تضطلع به إيران في شق وحدة المسلمين وعلى وجهه الخصوص شق المجتمعات العربية. "إن التعصب الفارسي حاول كل ما يستطيع منذ قرون على شق وحدة المسلمين وجعلهم شيعة مقابل السنة، وهذا أكبر نصر حققه التعصب الفارسي منذ الفتح المظفر للعرب على الدولة الفارسية إبان أمير المؤمنين عمر بن الخطاب. وهنا على الاحوازيين من الشيعة أن يدركوا أن التشيع لعلي بن أبي طالب(ر) لا يعني مطلقا أن يصبحوا صفويين وعليهم أن يعرفوا أن أهل السنة هم أيضا من شيعة آل البيت، وهنا وكرد عنيف على التعصب الشوفيني لملالي قم وطهران سيكون من مصلحة الاحوازيين العودة إلى الحوار المثمر مع جميع المذاهب الدينية لتقريبهم من بعضهم."[49] الكاتب الأحوازي رائد الأدهمي يقترب جداً من صلب السياسة الإيرانية اتجاه المذاهب الإسلامية في إثارة النعرات الطائفية ودورها في المشروع

[49] رائد الأدهمي، موقع المحمرة في 24. 4. 2005.

القومي الفارسي عندما يقرر "إن مثل هذا التحرك بين المسلمين هدف عزيز على الجميع ولكن حكام طهران لن يسكتوا على مثل هذا التقارب وسيعملون حتى مع الشيطان لوقف مثل هذه المبادرات.إن تقاربا بين الشيعة والسنة سيحرم إيران الشوفينية من نفوذ كبير داخل الوطن العربي وخاصة العراق ولبنان." الأدهمي من أبناء شعب عربي عرف السياسة الإيرانية عن كثب ونابعة من تجربة عمر في إطار الدولة الإيرانية.

غالبية الشيعة العرب يعيشون في وسط وجنوب العراق وشرق السعودية وجنوب لبنان، ويطلق عليهم بالجعفرية نسبة للإمام جعفر الصادق عليه السلام. وهم الشيعة الاثنى عشرية. الزيدية في اليمن، نسبة لزيد بن علي بن الحسين عليهم السلام جميعا، لا يعتقدون في بإمامية الإثنا عشر إماماً، ولا يعتقدون بعصمة الأئمة، وهم بذلك لا يعتبرون أنفسهم جزء من الطائفة الشيعية المنتشرة في العراق وإيران.

الأكراد في العراق
حلفاء لأعداء العراق

الجمهورية العراقية عضو مؤسس في جامعة الدول العربية. والشعب العراقي يتكون بأغلبيته الساحقة من المواطنين العرب، حيث تصل نسبتهم فوق 85 % من مجموع عدد السكان. وفي العراق تعيش إلى جانب الأغلبية العربية أقليات عرقية أخرى. وفي العراق يدين أغلب سكانه بالدين الإسلامي والتي تصل نسبتهم إلى 94% من مجموع عدد سكان العراق. إلى جانب المسلمين يعيش في العراق مواطنون يعتقدون بديانات أخرى أهمها أتباع الديانة المسيحية والتي تصل نسبتهم إلى عدد السكان 3%. الشعب العراقي شعب شاب وتصل نسبة 60% من هم تحت سن العشرين.

يعيش أكثر من نصف سكان العراق في المدن. وتغلب على المكونات الاجتماعية للشعب العراقي المكونات القبلية والعشائرية. هذه الظاهرة تبرز بشكل كبير في الريف العراقي، وتتدخل النظم والقوانين العشائرية، إلى جانب القوانين والنظم الحكومية، في تنظيم حياة الناس وفي المحافظة على القيم والتقاليد الموروثة من التراث العربي والإسلامي. الشعب العراقي من أكثر الشعوب الإسلامية اعتزازاً بموروثه الحضاري ويميل المزاج الجماهيري إلى المحافظة في ممارسة الحياة اليومية. لكن التنوع الثقافي والعرقي في العراق، بالإضافة إلى الثراء الفكري والثقافي التي اكتسبه شعب العراق من هذا التنوع، ونظراً لتأثير العوامل الإقليمية والخارجية لازال هذا التنوع يشكل عامل من عوامل عدم الاستقرار الاجتماعي والسياسي في هذا البلد.

يعيش إلى جانب الشعب العربي في العراق، الذي يشكل الأغلبية الساحقة من سكان العراق، أقليات عرقية أخرى. لا تتجاوز نسبة الأقليات الأخرى غير العربية في العراق مجتمعة 17%. أهم هذه الأقليات هي الأقلية القومية الكردية والتركمانية. تتراوح نسبة الأكراد في العراق بين 12 إلى 13 % من مجموع عدد السكان وتصل نسبة التركمان 3% . تعيش الأقلية الكردية في المناطق الجبلية في شمال العراق على أطراف الهضبة الإيرانية وهضبة الأناضول. حيث تمددت بعض القبائل الكردية ونزلت من الجبل إلى السهل وسكنت بعض القرى والمدن المجاورة للمناطق الجبلية في العراق وفي سوريا وشرق تركيا. حالة الإنسياح والتمدد السكاني الكردي حصلت بشكل واسع في عقود القرن العاشر والحادي عشر الميلادي، عندما انضمت أعداد كبيرة من العناصر الكردية إلى الجيوش الإسلامية في دولة الخلافة العباسية ونزلت بعض العائلات والعشائر من الجبل إلى السهل وجاورت بعض المدن الكبرى في أسيا الصغرى والعراق مثل مدينة "ديار بكر" و"الموصل العربيتين".

اشترك الكرد في النشاط السياسي للدولة الإسلامية العباسية والعثمانية وخاصة في المجال العسكري وكانوا مكون أساسي من مكونات مجتمعات الخلافة العباسية.

لقد ظلم التاريخ الأكراد كثيراً ولم ينشأ أي كيان سياسي معتبر عبر مراحل التاريخ يعبر عن الشخصية القومية الكردية، على الغم من تشكل إمارات ومناطق نفوذ تسيطر عليها وعلى قيادتها بعض العائلات الكردية أو من أصول كردية. أهمها كانت الإمارات الأويوبية في مصر والشام التي تشكلت بعد موت صلاح الدين الأيوبي وتفتت دولته إلى كيانات وإقطاعيات يغلب عليها الطابع العسكري.

وقد ظلم الأكراد مرة أخرى بعد إنتهاء الحرب العالمية الأولى البدء في تشكل الشرق الأسلامي على أسس قومية بمبادرة وتوجهات غربية إستعمارية أصبحت معروفة. كان هذا الحظ العاثر قد رسمت خطوطه العريضة الدول التي كانت قائمة ومؤثرة في تلك الحقبة من الزمن. وهذه الدول هي بالدرجة الأولى الدول الإستعمارية الغربية المنتصرة في الحرب الكونية الأولى، حيث وضعت هذه الدول فرنسا وبريطانيا مشروع سايكس ـ بيكو لتقاسم المنطقة عبر إقامة الكيانات السياسية ورسم الحدود بين هذه الكيانات حسب مصالحها هي وليس حسب مصالح الشعوب التي تعيش في تلك المنطقة. لقد تواطأت مع المشروع الغربي في تلك الحقبة كل من دولة إيران وبقايا الدولة العثمانية التي أصبحت تعرف بالجمهورية التركية. وكان ضحية هذه المخططات الإستعمارية الغربية وتواطؤ دولة فارس وجمهورية تركيا كل من العرب والكرد على حد سواء. لقد قسم العرب إلى دويلات صغيرة غير ذات قيمة سياسية وحرم الأكراد من أي كيان سياسي يمثل هويتهم الثقافية والسياسية.

لقد كان في الإمكان، وبدون أكبر عناء إنشاء كيان سياسي كردي يمثل الشعب الكردي والقومية الكردية كبقية شعوب المنطقة الإسلامية، لكن الضغوط والرغبة الإيرانية والتركية حالت دون تحقيق هذه الإمكانية وتم توزيع وضم المناطق التي يسكنها الأكراد إلى دولة تركيا والعراق وإيران. ففي مثلث الحدود الإيرانية العراقية التركية يعيش أكثر من 90% من أبناء القومية الكردية. منذ قرابة القرن من الزمان ظلت المسالة الكردية جرح نازف يلقي بظلالة على الحياة السياسية السلبية على دول وشعوب المنطقة.

في إيران تشكلت في شمال غرب إيران عام 1946 حكومة كردية برئاسة الشخصية السياسية الكردية الإيرانية "قاضي محمد"، واحتل أحد المتطوعين العسكريين الأكراد العراقيين مصطفى البرزاني، نسبة إلى "بارزان" أحد القرى في شمال العراق، منصب وزير الدفاع في هذه الجمهورية الفتية في مدينة "مهاباد". انهارت هذه الحكومة واعدم رئيسها في إيران وهرب وزير دفاعها إلى العراق مرة أخرى، وهناك شكل مصطفى البرزاني في 16. 8. 1946 حزب كردي أطلق علية اسم "الحزب الديمقراطي الكردستاني". وطرح هذا الحزب في برنامجه العمل المسلح ضد السلطة المركزية في

العراق. عاش العراق منذ ذلك التاريخ ظروف حرب أهلية وحرب استنزاف كانت تتصاعد أحيانا وتتلاشى أحياناً أخرى، لكن هذه الحرب المدمرة كانت الهاجس الذي اشغل العراقيين لأكثر من نصف قرن.

حصلت داخل هذا الحزب عدة إنشقاقات وخرجت عدة قيادات من هذا الحزب التي كانت تتهم قيادته بالعشائرية والفساد والرجعية. جلال الطلباني كان من بين تلك القيادات التي انشقت وأسس عام 1964 في سوريا مع عدد من الهاربين الأكراد "الحزب الوطني الكردستاني" ذو التوجهات اليسارية، والذي دخل في عدة تحالفات مع الأحزاب القومية العربية، التي كانت تحكم في العراق في أعوام الستينات. كان في مقدمة هذه الأحزاب حزب البعث العربي الاشتراكي.

توصلت الحكومة القومية العربية لحزب البعث في العراق مع الأحزاب الكردية الأساسية، الحزب الديمقراطي الكردستاني بقيادة مصطفى البرزاني والاتحاد الوطني الكردستاني بقيادة جلال الطلباني، إلى اتفاق عام 1970 لحل المشكلة الكردية في شمال العراق. نص هذا الاتفاق فيما نص على منح الحكم الذاتي لكردستان العراق ضمن إطار الدولة العراقية الموحدة في مقابل توقيف الأحزاب الكردية لحرب الاستنزاف التي كانوا يخوضونها ضد الحكومة المركزية والجيش العراقي في شمال العراق.

دخلت منذ زمن طويل ساحة التأثير في هذه الحرب أطراف إقليمية ودولية عدة. أهم هذه الأطراف كانت إيران وإسرائيل والولايات المتحدة الأمريكية. هدأت الحرب لعدة أعوام قليلة ومن ثم تجددت المعارك عام 1974 من جديد. بعد عقد العراق اتفاقية الجزائر مع إيران عام 1975 التي تنازل فيها العراق عن بعض المواقع الإستراتيجية في جنوبه لإيران، مقابل أن تقوم إيران بوقف دعمها للأحزاب والميليشيات المسلحة الكردية. بعد توقيع هذا الإتفاق بأقل من 48 ساعة انهارت حركة التمرد الكردية في الشمال، وهربت قياداتها إلى الخارج وإلى دول الجوار.

مرة أخرى وبمساعدة إيران بعد سقوط الشاه وقدوم القوى الدينية الإيرانية إلى السلطة، وبمساعدة إسرائيل والولايات المتحدة الأمريكية، أعادت الأحزاب الكردية تنظيم صفوفها من جديد وأعيد تسليحها وباشرت خوض معاركها العسكرية إلى جانب الجيش الإيراني ضد الجيش العراقي أثناء الحرب العراقية ـ الإيرانية في الثمانينات من القرن الماضي.

عاشت الحركات السياسية الكردية واحدة من اكثر الفترات قوة بعد الحرب الغربية على العراق عام 1991، وخاصة بعد أن قامت القوات الفرنسية والبريطانية والأمريكية بفرض حضر جوي للطيران العراقي فوق منطقة الجنوب والشمال العراقيتين، وجعل هاتين المنطقتين من التراب العراقي مناطق "محمية" من قبل قوات تلك الدول الغازية.

تمتعت المنطقة الشمالية من العراق باستقلال شبه تام عن السلطة المركزية في بغداد لمدة تزيد على العشرة أعوام. لكن الحزبين الكرديين الرئيسيين، الحزب الديمقراطي الكردستاني والاتحاد الوطني الكردستاني، لم يستطيعا استغلال هذه الفرصة في بناء دولة كردية في الشمال العراقي، ودخلوا في صراع مسلح دامي في ما بينهم دام ستة أعوام متواصلة راح ضحيته أكثر من عشرين ألف قتيل وجريح.

كان الحزبان الكرديان يتبادلان الإتهامات، أثناء الصراعات الدامية التي كانت تدور بينهما في أعوام التسعينات، بالعمالة للدول الأجنبية المعادية للعراق والعرب. في كتابه "قبل أن يغادرنا التاريخ" يذكر القائد في الحرس الجمهوري العراقي، الفريق الركن رعد مجيد الحمداني هذه الإتهامات. كان "الفصيلين الكرديين يتبادلان الاتهامات حيث يري أتباع البارزاني أن حزب الطالباني يتسم بالنفاق السياسي والعمالة لايران أما حزب الطالباني فيتهم البارزانيين بالعشائرية والعمالة المباشرة لاسرائيل."[50]

أكدت تجربة العشرة أعوام أن المنطقة الجغرافية في شمال العراق، ونظراً لعدة اعتبارات مناخية وسياسية لا تحتمل إقامة دولة مستقلة قابلة للحياة والدوام. من هذه الأسباب:

- العزلة الجغرافية وعدم إمكانية تواصل المنطقة مع العالم الخارجي عبر ميناء بحري.
- فقر الموارد الطبيعية وقلة الأراض الزراعية.
- غياب الرغبة السياسية لدول الإقليم المجاور لتلك المنطقة بإقامة دولة كردية.

تكررت التجربة وتأكدت مرة أخرى حقيقة الواقع الكردي بعد الاحتلال الأمريكي للعراق، في وقوف الأحزاب الكردية القومية إلى جانب قوات الاحتلال. فقوات البشمركة الكردية شاركت قوات الاحتلال في المعارك على المدن العراقية وفي عمليات المداهمة الليلية والنهارية على بيوت المواطنين العراقيين، وكذلك مرافقة العناصر الكردية قوات الاحتلال كأدلاء ومترجمين، وتواجد هذه العناصر المكثف في المكاتب والمواقع العسكرية والمدنية التابعة لقوات الاحتلال الأمريكي والبريطانية. القادة الكرد كانوا خير حليف لقوات الغزو، بالإضافة إلى قادة الأحزاب الطائفية في الجنوب العراقي. عملت هذه القيادات على تبرير احتلال العراق من خلال التصريحات والمواقف المعلنة عبر وسائل الإعلام، وعملت هذه القيادات جاهدة على إعطاء صفة ما من الشرعية للغزو الأجنبي على بلدهم.

---

[50] نقلاً عن صحيفة الزمان، لندن عدد 9. 4. 2008 .

القيادات الكردية التي احتلت مناصب قيادية في الدولة العراقية في ظل قوات الاحتلال طرحت نفسها كممثل للشعب العراقي وأخذت في التحدث باسم الشعب وتكرر المطالبة ببقاء قوات الاحتلال على أرضه بمعزل عن إرادة شعبه. المحتل الأجنبي نصب قادة الأحزاب الكردية في المواقع الحكومية العالية، وعين منهم وزراء ورؤساء حتى يتمكن من خلالهم تنفيذ مخططاته الاستعمارية في العراق والمنطقة العربية. لكن كل هذه الخدمات التي قدمتها ولازالت تقدمها القوى الانفصالية الكردية لقوات الاحتلال وسلطات الاحتلال الأمريكي في العراق، وبعد مرور اكثر من خمسة أعوام على الاحتلال لم يستطع الكرد إقامة الدولة الكردية في الشمال. ولم توافق الإدارة الأمريكية على إعطاء الأكراد دولة مستقلة في شمال الوطن العراقي. لقد أقر جلال الطلباني أخيراً بصعوبة واستحالة إقامة الدولة الكردية المنشودة. جلال الطالباني قال في حوار مع وكالة أنباء الإمارات (وام): "إن إمكانية قيام دولة كردية حلم مستحيل وغير قابل للتطبيق نظرا لتركيبة المجتمع الكردستاني وللظروف الجغرافية لكردستان."[51]

الولايات المتحدة الأمريكية ليست بوارد حل القضية الكردية بأي شكل من الأشكال، بل الهدف هو إبقاء هذه القضية مفتوحة حتى تتمكن الإدارات الأمريكية من استعمال الورقة الكردية كلما استدعت الحاجة والمصلحة الأمريكية إلى ذلك. قوات الاحتلال بأمس الحاجة إلى الخدمات التي تقدمها بعض القوى السياسية الكردية في السلطة المركزية في بغداد. تلك الرموز والشخصيات التي تنفذ البرنامج الأمريكي في إدارة الدولة العراقية أثناء الاحتلال بكل تفاصيله، وسيكون من الصعب على قوات الاحتلال تنفيذ البرامج السياسية والعسكرية في العراق في حال انكفاء الأكراد إلى المنطقة الشمالية وإقامة كيان هزيل يحتاج دائما إلى مساعدات الغير ويعيش عالة اقتصادية وسياسية وعسكرية على الدول التي تدعي التحالف مع الشعب الكردي.

الولايات المتحدة الأمريكية وبريطانيا تلتقيا مع إيران وتركيا وسوريا في شأن القضية الكردية، ومصالح هذه الدول تتقاطع في هدف عدم إقامة كيان سياسي للأكراد. لكل دولة من تلك الدول أسبابها الخاصة بالعمل على عدم تأسيس كيان سياسي للأكراد في شمال العراق، لكن المحصلة النهائية واحدة، تقضي بعدم الوصول إلى تشكيل هذا الكيان. تركيا وسوريا وإيران ترفض مبدأ إنشاء كيان كردي في شمال العراق لخشية هذه الدول من انتقال العدوى الكردية إلى تلك الدول التي يعيش بين مواطنيها مواطنين من أصول كردية. إيران وتركيا، على وجه الخصوص، من أكثر الأطراف ممانعة لقيام أي كيان سياسي كردي نظراً للتواجد الكثيف للمواطنين الكرد في هاتين الدولتين، والمساحات الشاسعة التي يشكل فيها الكرد الأغلبية الساحقة من مناطق إيران وتركيا. يبلغ عدد السكان الأكراد في تركيا 18 مليون مواطن تزداد كثافة تواجدهم في المنطقة الشرقية

[51] صحيفة الخليج الإماراتية، في 22. 1. 2007 .

والجنوبية من الأناضول. في إيران يبلغ عدد المواطنين الأكراد قرابة ال 10 ملايين مواطن يشكلون الأغلبية في ولايات إيران الشمالية الغربية وخاصة في ولاية كردستان وولاية لورستان الإيرانيتين.

التيارات السياسية الكردية لا تختصر على التيارات القومية، بل تنشط بين صفوف الأكراد منذ عقود حركات سياسية أخرى ذات توجهات يسارية ودينية. التيار اليساري المتمثل في الحزب الشيوعي العراقي، وبعض التيارات الماركسية، الصغيرة الحجم وقليلة الوزن والتأثير السياسي والاجتماعي. الحزب الشيوعي الكردستاني نشأ بعد الإنشقاق في الحزب الشيوعي العراقي في أول التسعينات من القرن العشرين. انفصل الأكراد في عام 1993 عن الحزب الشيوعي العراقي وشكلوا الحزب الشيوعي الكردستاني. تضائل وزن الشيوعيين الأكراد في الحياة السياسية بعد انفصالهم عن الحزب الشيوعي العراقي ولم يبقى للحزب أي أثر يذكر بعد ما زال الاتحاد السوفييتي والتحاق الشيوعيين الأكراد في الحزب الوطني والحزب الديمقراطي الكردستاني.

التيار الديني في المنطقة الشمالية من العراق والتي يغلب على عضويتها العنصر الكردي هي جماعة "أنصار الإسلام" بقيادة "فاتح كريكار". يميز هذه الحركة عدائها الشديد للاحتلال الغربي للعراق وهي تشكل مع حركات مسلحة عراقية أخرى أحد القوى التي تقاوم قوات الاحتلال وتأتي بالمرتبة الثالثة من حيث حجم الانتشار وعدد الأعضاء والأنصار من أبناء الشمال العراقي من الأكراد بعد الحزب الديمقراطي والحزب الوطني الكرديين. من المتوقع أن يزداد نفوذ هذا التيار في صفوف الأقلية الكردية العراقية عندما يتم انسحاب القوات الأجنبية من العراق ويتم تحرير الوطن العراقي.

النفوذ الإسرائيلي
في شمال العراق

العلاقات الكردية الإسرائيلية كانت قائمة منذ بداية أعوام الستينات من القرن العشرين. هذه العلاقة تستند من الطرف الإسرائيلي على استراتيجية ثابتة وواضحة المعالم. أصاغت القيادات الصهيونية قواعد هذه الإستراتيجية قبل تأسيس الدولة الإسرائيلية على تراب فلسطين العربية في العام 1948 بزمن بعيد. الإطار العام لهذه الإستراتيجية الصهيونية تقول ببناء منطقة الشرق الأوسط (المعني المنطقة العربية) على أسس عرقية وأخرى دينية وعلى أسس طائفية. أي تفتيت المنطقة العربية لدويلات ضعيفة وهامشية حسب التواجد الطائفي والعرقي والديني حتى يسهل السيطرة عليها أولاً، وحتى تبرر طبيعة الكيان الصهيوني العنصري الديني والطائفي ثانياً. وزير خارجية الكيان الصهيوني موسى شاريت افصح عن مضمون هذه الإستراتيجية عام 1954. ترتكز الإستراتيجية الأسرائيلية التي أعلنها شاريت في تعاملها مع المنطقة العربية على أربعة قواعد استراتيجية أساسية هي:

1. بناء قدرة عسكرية كفيلة بالتفوق على كل القدرات العسكرية العربية
2. التعامل مع القوى الإقليمية المجاورة للوطن العربي وتحريضها على الدول العربية
3. التقارب مع الأقليات العرقية والدينية في المنطقة العربية وحثها ودعمها في طموحها على تأكيد هويتها الخاصة والعمل على إنفصال هذه الأقليات عن الدول التي يعيشون فيها في كيانات سياسية خاصة بهم.
4. التعامل مع كل دول الجوار العربي التي لها مشالكل مع الدول العربية المجاورة كتركيا وأثيوبيا وإيران، ما عرف بسياسة شد الأطراف العربية.

هذه الإستراتيجية عرفت وكتب عنها الكثير خلال العقود المنصرمة وقد أصاغها أحد الضباط الإسرائيلين، موشى فرجي، في كتاب صادر عن مركز ديان لأبحاث الشرق الأوسط وإفريقيا عام 2003، التابع لجامعة تل أبيب. عنوان الكتاب هو: "إسرائيل وحركة تحرير جنوب السودان نقطة البداية ومرحلة الانطلاق".

اهتم حكام إسرائيل بإقامة علاقات خاصة مع الأقليات في المنطقة العربية، لا سيما في تلك الأقطار المحاطة بدول غير عربية (العراق وسوريا والسودان). وقد رسم هذه السياسة في بداية الخمسينات فريق الخبراء الذي شكله دافيد بن جوريون أول رئيس وزراء لدولة اسرائيل، حيث استهدفت العمل على تشتيت الطاقات العربية إما عن طريق افتعال المشاكل للدول العربية مع دول الجوار غير العربية، كإيران وتركية وأثيوبيا، أو من خلال التحالف مع الأقليات الدينية أو المذهبية والعرقية التي تعيش في تلك الأقطار العربية، كالأكراد في العراق، وسكان جنوب السودان، والموارنة في لبنان، والدروز والأكراد في سوريا، والأقباط في مصر، وأقليات أخرى في دول عربية مختلفة.

العلاقة مع الأكراد في شمال العراق كان ولا زال مطلب ومصلحة إسرائيلية بالدرجة الأولى وهي منسجمة مع الأهداف الصهيونية في المنطقة العربية. كان قادة الكيان الصهيوني هم المبادرون والساعون للعلاقة مع العناصر السياسية والعسكرية الكردية، كما كان هذا الكيان مبادراً في الوصول إلى غيرهم من الأقليات في المنطقة العربية. ليس حباً وتعاطفاً مع تلك الأقليات، بل كرهاً للعرب وغير العرب في المنطقة، وطمعاً في استعمال وتسخير هذه الأقليات وقواها السياسية والعسكرية في خدمة المشروع السياسي الإسرائيلي والصهيوني للمنطقة العربية. الصحافي الإسرائيلي "شلومو نكديمون" بين في كتابة الذي نشره تحت عنوان "الموساد في العراق ودول الجوار" طول وقدم العلاقات الإسرائيلية مع قيادات الأحزاب الكردية الأساسية.

مصطفى البرزاني زعيم الحزب الديمقراطي الكردستاني قام بزيارة إسرائيل عام 1963 . في هذا الكتاب يوضح "نكديمون" حجم العمل المشترك بين الأحزاب الكردية وأجهزة المخابرات الخارجية الإسرائيلية "الموساد" من عام 1963 حتى عام 1975 التي كانت تسير بشكل منظم وبشكل واسع. مقابل تسهيل عمل الأجهزة الأمنية الصهيونية في شمال العراق كانت إسرائيل تقوم في تدريب ميليشيات البشمركة الكردية ومدها بالسلاح الذي تحتاجه هذه المليشيات. تخرج عدد كبير من المقاتلين الأكراد من المدارس الحربية الإسرائيلية، وحسب الكاتب الإسرائيلي منح مصطفى البرزاني رتبة لواء فخرية من الجيش الإسرائيلي تقديراً لخدماته التي قدمها حزبه لدولة إسرائيل.

ظافر العاني الكاتب والسياسي في جبهة التوافق العراقية يؤكد في مقابلة مع صحيفة الشروق العراقية في 5. 5. 2005 العلاقة الإسرائيلية ـ الكردية المبكرة. "للأكراد علاقات تاريخية معروفة مع إسرائيل، وهم لا ينكرونها، وقد ازداد نفوذ إسرائيل خلال فترة التسعينيات حينما انفصل الأكراد في شبه دولة مستقلة، وهناك اليوم مكاتب علنية في المنطقة الكردية، وللموساد الإسرائيلي نفوذ سواء عبر الأكراد أو عبر القوات الأمريكية نفسها، والقيادات الكردية نفسها تم الضغط عليها بحيث يكون لإسرائيل نفوذ

واسع في العراق، إلا أن العراقيين يستهجنون، وسيقفون ضد أي محاولة للتقارب مع إسرائيل."

الزيارات التي تقوم بها بعض الرموز السياسية الكردية إلى الكيان الصهيوني أصبحت متكررة وشبه علنية. جلال الطلباني الذي عين في زمن الاحتلال الأمريكي رئيساً للعراق زار إسرائيل والتقى بالمسؤولين الصهاينة عدة مرات في عام 2004 ، واطلع رئيس وزراء الكيان الصهيوني ارئيل شارون على الأوضاع في العراق وربما نسق الخطوات المستقبلية مع المسؤولين الإسرائيليين.

لقد احتضنت حركات التحرر العربية الحركة السياسية الكردية، ووقفت إلى جانب الأحزاب الكردية المختلفة سياسياً وإعلاميا. فصائل منظمة التحرير الفلسطينية المختلفة تعاملت مع الأحزاب الكردية، وفتحت لها قواعدها العسكرية ومكاتبها السياسية وتركت مساحات واسعة في أجهزة أعلامها المتعددة أمام الأقلام العربية والكردية للتعريف بقضايا الأكراد. كذلك عدد من الحكومات العربية تعاملت بشكل إيجابي مع الحركات السياسية الكردية، وفتحت أراضيها أمام العناصر السياسية الكردية من مختلف الأطياف والتيارات. ففي سوريا تأسس الحزب الوطني الكردستاني العراقي الذي يتزعمه جلال الطلباني. وفي سوريا والبقاع اللبناني أقام حزب العمال الكردستاني التركي قواعده ومكاتبة السرية والعلنية. وليبيا ساعدت اغلب الأحزاب الكردية مادياً وسياسياً.

الانفتاح العربي على القضية الكردية كان مبكراً واتخذت كثير من القيادات العربية مواقف متفهمة لقضايا الأكراد. التيارات القومية العربية كانت، على العكس مما يشاع، السباقة إلى التعاطي الإيجابي والتفهم للمطالب الكردية. الزعيم جمال عبد الناصر كان أول زعيم سياسي في العالم الإسلامي يستقبل وفداً كردياً بقيادة الملا مصطفى البرزاني في القاهرة عام 1960 ويعلن تأييده للمطالب الكردية في المساواة والعدالة في العراق الموحد. حزب البعث في العراق هو أيضاً الحزب السياسي القومي العربي الذي عقد اتفاقية الحكم الذاتي للمنطقة الشمالية من العراق مع الحزب الديمقراطي الكردستاني بزعامة مصطفى البرزاني عام 1972 وساعد على إحياء اللغة الكردية من خلال تعليم هذه اللغة في المدارس العراقية الحكومية في المناطق العراقية ذات الأغلبية الكردية في الشمال من البلاد. وفي جامعة السليمانية تدرس أغلب المواد بأحد اللغات الكردية وهي الصورانية الشائعة في شمال العراق.

المنطقة العربية التي تعتبر من اكثر المناطق الملتهبة والمتفجرة في العالم، وتعتبر من اكثر مناطق العالم تعقيداً، لكثرة المشاركين في الصيرورة السياسية والتفاعلات المحلية والدولية، من نسج للتحالفات والإقدام على المواجهات السياسية والعسكرية. في هذه المنطقة تعمل وتصنع المفارقات في العلاقات السياسية ايضاً. حركات التحرر العربية تقف إلى جانب الأكراد في المطالبة في حقوقهم وتدعم القوى السياسية الكردية، والقوى

السياسية الكردية هذه تفتح علاقات واسعة مع العدو اللدود لحركات التحرر العربي المتمثل بالكيان الصهيوني.

لم يعد خافياً على أحد أن اصبح شمال العراق المرتع الخصب لعمل أجهزة التخريب الإسرائيلية المختلفة، واصبح شمال العراق وبمساعدة القوى الكردية الرئيسية، البوابة الواسعة التي تنفذ منها إسرائيل بأجهزتها التجسسية والتخريبية إلى العراق وتركيا ودول الجوار الأخرى. الحضور الإسرائيلي في شمال العراق كان موازي ومتزامن مع الحضور الإيراني في شمال العراق. على أرض شمال العراق كان التحالف الكردي ـ الإسرائيلي ـ الإيراني يتجسد بكل أبعاده. العلاقة الإيرانية ـ الإسرائيلية لم تكن سرية وخافية على أحد في زمن الشاه محمد رضا بهلوي، والتنسيق بين الأطراف الثلاثة لإطالة زمن استنزاف الوطن العراقي، من خلال استخدام الورقة الكردية، تركت بصماتها وأثارها السياسية والاقتصادية والاجتماعية وجلبت للعراق وشعب العراق الكثير من المآسي والآلام.

الكاتب العراقي "عوني القلمجي" يصف دور القيادات الكردية في شمال العراق معلقاً على دعوة جلال الطلباني، رئيس حزب الاتحاد الوطني الكردستاني ورئيس العراق في زمن الاحتلال، دعوة قوات الاحتلال الأمريكي بالاحتفاظ بقوات عسكرية أمريكية في قواعد في شمال العراق لفترة طويلة بالتالي: " أن تصرف القيادة الكردية بهذه الطريقة المشينة، إنما أضاف جريمة أخري إلي سجلها الأسود.

كان المسلحون الأكراد طرفا رئيسيا في الحرب التي دارت رحاها بين العراق وإيران، وتحولت إلي حرب شاملة باتت تهدد وحدة العراق ووجوده، فتارة لعبوا دور الطابور الخامس، وتارة أخري قاتلوا بإمرة القوات الإيرانية. وفي العدوان الثلاثيني علي العراق وجهت قيادة مسعود وجلال طعنة في ظهر الجيش العراقي، بعد انسحابه من إمارة الكويت وقد أنهكت قواه جراء حمم النار التي ألقتها الطائرات الأمريكية فوق رأسه، وذلك بالقيام بتمرد واسع في شمال العراق، إلي جانب تمرد أخر قامت به إيران عبر أحزابها العراقية في الجنوب. ثم بعدها بررت إلي جانب قوي أخري الحصار الجائر الذي فرضته أمريكا علي العراق، ولاحقا تقدمت صفوف العملاء من العراقيين، لتصبح الواجهة الرئيسية لاحتلال العراق، ومشارك فعال في تدميره وفي محاولات إلغاء وجوده. لقد تجاوزت القيادة الكردية كل الخطوط الحمراء، وها هي تستعد إلي تقديم كل ما من شأنه مساعدة المحتلين علي تنفيذ جريمة تقسيم العراق إلي دويلات طائفية وعرقية، لإنقاذ قواته"[52]

[52] صحيفة القدس العربي، لندن 3. 10. 2006 .

في حال خرج الأمريكان من العراق، بخسارة سياسية أو عسكرية، سيكون مصير الأحزاب الكردية مجهول ويهدد بخسارة القضية الكردية كل المكاسب تحققت خلال الأربعين عاماً المنصرمة. فالعلاقة المكشوفة مع قوات الاحتلال الأمريكي، ومع الكيان الصهيوني، دمرت كل إمكانية نسج أي علاقة من قبل الأحزاب والقوى العربية والتركية وحتى الإيرانية مع الأحزاب والقوى السياسية الكردية. من غير المستبعد أن تعيش الأحزاب الكردية بعد رحيل قوات الاحتلال الأمريكي عن العراق، حاله عزلة تامة تؤدي إلى اضمحلالها وانتهاء تأثيرها السياسي والاجتماعي. لقد خسرت القضية الكردية التعاطف الكبير بين صفوف العرب والأحزاب التركية وفي أوساط دولية شاسعة.

اصبح ينظر إلى الحركة الكردية بين أبناء شعوب المنطقة وشعوب أوروبا وشعوب العالم الثالث كقوى رجعية، وقوى رديفة للقوى الإمبريالية والقوى الغازية للشعوب الفقيرة والشعوب في عالم الجنوب. في التاريخ البشري البعيد والحديث يؤكد زوال وتبخر قوى سياسية واجتماعية كان لها نفوذ وسطوة أقدمت على العمالة مع الغازي والمستعمر الأجنبي طمعاً في زيادة النفوذ واستغلال الفرص.

بعد خروج القوات الأمريكية منهزمة من جمهورية فيتنام سقطت واندثرت قوات عملاء الغازي الأمريكي، التي كانت تحكم جنوب فيتنام بمساعدة القوات الأمريكية، بعد عدة أشهر من مغادرة القوات الأمريكية المهزومة أرض فيتنام. وحركة تحرير أنغولا (حركة سافيمبي) سقطت واندثرت بعد سقوط نظام جنوب أفريقيا العنصري في بريتوريا وتخلي الغرب عن دعم هذه الحركة العميلة، التي كانت تسيطر على أكثر من نصف "جمهورية أنغولا". ونفس المصير حدث مع قوات "الكونترا" في نيكاراغوا بعد تغير قواعد اللعبة السياسية بين الشرق والغرب وانتهاء الحرب الباردة واستغناء الولايات المتحدة الأمريكية عن خدمات تلك العصابات التي كانت تسيطر على أكثر من نصف مساحة جمهورية نيكاراغوا. والحركة السياسية الكردية عاشت هذا المصير في بداية أعوام السبعينات عندما تخلى شاه إيران وتوقف عن دعم الحزب الديمقراطي الكردستاني حسب الاتفاق الذي وقع بين الشاه والحكومة العراقية عام 1975 في الجزائر. خلال أقل من يومين من إعلان الاتفاق العراقي ـ الإيراني سقطت كل المواقع التي كانت تسيطر عليها المليشيات الكردية والحزب الديمقراطي الكردستاني. من المؤكد أن القوى المحلية التي ساهمت في مأساة الشعب العراقي لن تكون بعيدة عن التأثيرات السلبية بعد خروج قوات الإحتلال. ومن المؤكد أن الأحزاب الكردية ستكون ضمن قائمة تلك القوى التي سيطاله الضرر بعد رحيل المحتل.

الدور الإيراني في العراق
في زمن حكم الشاه محمد رضا

أهم القضايا التي كانت تشغل بال المواطن العراقي في أعوام الخمسينات والستينات من القرن الماضي هي التحرر السياسي من التبعية لبريطانيا والغرب، وكذلك مشكلة التمرد الكردي المسلح في شمال البلاد. هذا التمرد الذي استمر لأكثر من عشرة أعوام أرهق الحكومات العراقية المتعاقبة، وأرهق خزينة الدولة العراقية، بالإضافة للخسائر المادية والمعنوية والاجتماعية التي أحدثتها هذه الحرب الأهلية في المجتمع العراقي. من فترة مبكرة تحمست حكومة الشاه، إلى جانب إسرائيل والولايات المتحدة الأمريكية، إلى تسليح وتدريب مليشيات الحزب الديمقراطي الكردستاني. سمحت إيران الشاه للميليشيات الكردية بإقامة قواعد عسكرية لها على الأراض الإيرانية وبناء مواقع تخزين السلاح القادم من إسرائيل والولايات المتحدة الأمريكية. على الأرض الإيرانية أقيمت مراكز القيادة العسكرية والسياسية للحزب الديمقراطي الكردستاني.

لم تنتهي الحرب الأهلية التي استنزفت الشعب العراقي بكل فئاته إلا بعد أن وقع العراق في 6. 3. 1975 اتفاقية الجزائر مع إيران، التي إستحوذت السلطة الإيرانية من خلالها على نصف شط العرب وعلى أراضٍ تقدر مساحتها بأربعة آلاف كيلو متر مربع من ارض الجمهورية العراقية. لقد تشرذمت التشكيلات العسكرية الكردية وتشتت شملها في اقل من 48 ساعة بعد توقيع هذه الاتفاقية، ومن ثم توقفت الحرب الأهلية في العراق. هذا التطور المفاجئ في انهيار قوات البشمركة الكردية اظهر حقيقة الدور الإيراني الأساسي في استمرار الحرب الأهلية في العراق، وأكد حقيقة استغلال إيران ورقة القضية الكردية الدموية في شمال العراق، وانفضح الشكل الفج للتدخل المباشر الإيراني في الشؤون العراقية الداخلية.

تعامل الشاه بقسوة مع الأكراد ومع الحركات الكردية السياسية في إيران، ولم يسمح بإنشاء أي مؤسسة كردية أو الاعتراف بوجود لغة كردية في دولة إيران. على الرغم من اتساع المنطقة التي يسكنها الأكراد في إيران وأعدادهم التي تتجاوز ضعف أعداد المواطنين الأكراد في العراق إلا أن الأكراد ظلوا مجردين من الحقوق السياسية والثقافية ولم يسمح لهم في المشاركة في الحياة السياسية في دولة الشاه. تركت المناطق الكردية بدون بنى تحتية وحجبت عن هذه المناطق مشاريع التطور والعمران. وظلت

صفات التخلف والفقر هي الصفات السائدة في وصف المناطق الكردية في إيران. لكن الشاه وحكوماته كان من اكثر دول العالم إلى جانب الكيان الصهيوني في دعم وإثارة أكراد العراق على الحكومة المركزية في بغداد.

المحور الثاني التي دأبت الحكومات الإيرانية في زمن حكم الشاه على استغلاله واستعماله عند الحاجة، بقصد إضعاف وزعزعة الاستقرار في العراق، هو التدخل في شؤون العرب الشيعة. في كل مرة كان يشعر الشاه أن العراق يتجه نحو الاستقرار والانسجام الاجتماعي، تتدخل حكومات الشاه لإعادة خلط الأوراق من جديد وإثارة النزاعات الطائفية. من منتصف خمسينيات القرن العشرين بدأت حالة الانعزال والتوتر التي أفرزتها ظروف الصراع الفارسي ـ التركي أثناء حقبة الاستعمار العثماني للوطن العربي بالإنحسار، والتي عملت على اعتبار الطائفية خير سلاح لتعبئة الجماهير والقوى السياسية والاجتماعية خلف الحكومات على جانبي خطوط التماس في ذلك العصر. لقد عملت الحكومات العربية في زمن الملك فيصل الأول إلى إشراك كل فئات الشعب العراقي في عملية الإنتاج والتطور وإفساح المجال لكل أبنائه للمشاركة في الحركة السياسية في حكم العراق.

نجحت الحكومات المتتالية في بغداد في كسر كثير من القيود التي صنعها الأجنبي العثماني والأجنبي الإنجليزي والأجنبي الفارسي لمنع التواصل بين أبناء الشعب الواحد والأمة الواحدة. تشكلت الأحزاب والحركات السياسية العراقية على أسس جديدة. فاصبح مع مطلع الأربعينات وبداية الخمسينات القرن الماضي، من المألوف أن يكون المسلم والمسيحي والسني والشيعي والكردي والعربي يلتقيان في عضوية حزب واحد. ويلتقيان في مؤسسة اجتماعية أو نقابة للحوار حول برنامج سياسي وبرنامج اجتماعي فوق الديانات والمذاهب. واصبح المألوف أن يلتقي ويعمل ممثلو الأطياف العراقية السياسية ومن كل المناطق في حكومة واحدة تهتم بإدارة شؤون الوطن العراقي.

هذه الصيرورة في التلاقي على أساس الوطنية العراقية، اصبح مع مرور الزمن يتكاثر أنصارها وتتسع الدوائر والقطاعات الاجتماعية التي تدخل في بوتقة الوطن والهوية الوطنية. لم يرق لحكام إيران أن يقدم الشباب العربي الشيعي على الانخراط في العمل الوطني والانخراط في العمل القومي العربي، ويصبحوا قادة لتلك الأحزاب والمنظمات السياسية الثورية العربية. فقد كانت الطلائع المؤسسة لحزب البعث العربي الاشتراكي في العراق من الشباب والشخصيات العربية من أبناء الطائفة الشيعية. في المقدمة من تلك النخبة كان مؤسس الحزب "فؤاد الركابي" من مدينة الناصرية.

قليل من المواطنين العراقيين كان يهتم بالانتماء الطائفي والديني لهذا القائد أو ذاك الرئيس. لم يلتفت أحد إلى انتماءات الضباط الأحرار الذين أطاحوا بالنظام الملكي وبحكومة نور السعيد في عام 1958، ولم يلتفت أحد لإنتماءات الرئيس الأول للعراق

عبد الكريم قاسم إن كان شيعياً أم سنياً. الضباط الأحرار الذين تأثروا بتجربة الضباط الأحرار في مصر وأطروحتها وأهدافها القومية والتحررية افتتحوا مشروعاً نهضوياً في القطر العراقي على اكثر من صعيد. هذا المشروع في جانبه الاجتماعي كان مرشح للقضاء وإنهاء الطائفية الاجتماعية، الموروثة عن زمن حكم الأجنبي الإنجليزي والعثماني والفارسي، التي لازالت بقاياها منتشرة في اكثر من مكان في العراق.

لم يرق لحكام إيران وقوى أخرى عالمية وإقليمية استمرار السير في خط التحرر ومحو الطائفية الاجتماعية. عملت حكومة الشاه في أوقات مبكرة على اختراق المجتمع العراقي. نجح نظام الشاه في كسب القوى الشيعية الفارسية وبعض القوى الشيعية العربية داخل العراق إلى جانب مشروعه الطائفي التقسيمي. وعمل نظام الشاه من خلال تلك القوى المرتبطة في أجهزة الدولة الإيرانية على إعادة شق المجتمع العراقي على أسس طائفية، وكانت أهم هذه الخطوات هي المبادرة في تأسيس "حزب الدعوة" على أسس طائفية. إن نقل حالة الطائفية الاجتماعية إلى مؤسسة سياسية طائفية كان اكبر إنجاز سلبي ورجعي يقوم به شاه إيران في زمن التحرر من التخلف الاجتماعي والتبعية السياسية. كانت خطوة الشاه هذه ضربة تحت الحزام لعملية إعادة اللحمة إلى الشعب العراقي وتجاوز معضلات وسلبيات الإنشقاق الطائفي في المجتمعات الإسلامية.

مشروع تشكيل الدولة العراقية على أسس طائفية وعرقية لم يبدأ مع الاحتلال الأجنبي للعراق عام 2003 ، بل كانت الخطوات الأولى قد بدأت عام 1958 بمبادرة من الشاه محمد رضا بهلوي في خلق الأحزاب والمنظمات السياسية على أسس طائفية في العراق.

المساهمة الإيرانية
في إنشاء الأحزاب الطائفية في العراق

شق وتمزيق المجتمع العراقي ظل الهم الدائم لنظام الشاه. لتحقيق هذا الهدف ولتعزيز الشقوق الاجتماعية ساهمت إيران في إنشاء الأحزاب والمنظمات السياسية في العراق على أرضية طائفية وعلى أساس برامج سياسية طائفية التوجه. عملت إيران منذ البداية على إنشاء منظمات سياسية في العراق مرتبطة ارتباطاً وثيقاً بأجهزتها الأمنية في إيران. التشكيلات الحزبية الأساسية التي أشرفت الحكومات الإيرانية على تأسيسها ودعمها بالمال والرجال والعمل على انتشارها داخل الأراض العراقية هي "حزب الدعوة الإسلامي" و"المجلس الأعلى للثورة الإسلامية"، و مليشيات "فيلق بدر" و "منظمة العمل الإسلامي" و"حزب الله" العراقي.

لا ينكر قادة إيران رعايتهم لهذه الأحزاب والمشاركة في تأسيس هذه الكيانات الحزبية من على الأراض الإيرانية. تولت هذه الأحزاب منذ لأيام الأولى لنشأتها الترويج للطائفية. وقامت في اكثر من مناسبة بالإفصاح عن الميول الثقافية إلى القومية الفارسية وفي نفس الوقت ناصبت القومية العربية العداء.

نشأت هذه الأحزاب على دفعتين وفي فترتين زمنيتين متباعدتين. أقدم هذه الأحزاب كان حزب الدعوة الإسلامي الذي تأسس في العام 1958 في العاصمة الإيرانية طهران من مواطنين إيرانيين يعيشون في إيران ومواطنين إيرانيين يعيشون في العراق. كان الأسم الأول لهذا الحزب هو "الحزب الفاطمي"، وقد تم تغيير الأسم وطلق في عام 1968 على الحزب أسم "حزب الدعوة". إن خمسة عناصر من اصل سبعة هم مؤسسي حزب الدعوة الشيعي، الذي يشكل السلطة في العراق تحت ظل الاحتلال ، هم من الإيرانيين، كما تؤكده أدبيات الحزب. وهم: مهدي آصفي وعلي كوراني وكاظم حائري ومرتضي عسكري ومهدي طباطبائي، أما الاثنان الآخران العرب فهما فقيه الحزب محمد باقر الصدر الذي انسحب من الحزب مبكراً، والثاني عبد الصاحب دخيل الذي اعدم في عام 1978. لقد وضعت بعض الشخصيات الدينية العربية في واجهة حزب الدعوة في مرحلة التأسيس الأولى، لكن هذه الشخصيات العربية العراقية، عندما اكتشفت الدور المناط بها هو منح العناصر الفارسية، المحركة والفاعلة الحقيقية في الحزب، الغطاء المناسب في إدارة ورسم سياسة هذا الحزب، كالشيخ محمد باقر الصدر، خرجت هذه العناصر وتلك الشخصيات العربية من عضوية هذا الحزب الفارسي النشأة والأهداف.

كان يعيش في تلك الأيام في مدن العتبات المقدسة عند الشيعة في العراق عدة آلاف من العائلات الإيرانية وفي أوساط هذه الجاليات نشط هذا الحزب. ظل، ومنذ أول أيام التأسيس، الأساس الفكري والتنظيمي لهذا الحزب قائم على أسس طائفية. يتناول البرنامج السياسي لهذا الحزب مصالح طائفة بعينها ويختصر جل اهتماماته عند حدود تواجد أعضاء الطائفة الشيعية. و شروط العضوية في هذا الحزب كانت منذ البداية مصاغة لفئة محددة من المجتمع العراقي وهي محصورة في أبناء الطائفة الشيعية. حتى الشخصيات الدينية العراقية المؤثرة كان ولائها إلى إيران الدولة والكيان السياسي بحجج وخلفيات طائفية. يقول نائب **الخميني** آيات الله حسين منتظري في مذكراته في هذا الصدد:" وأتذكر أن آية الله الراحل السيد محسن الحكيم كان يقول رداً على انتقادات البعض لعلاقاته مع الشاه ودعمه للحكومة الإيرانية، ان هناك دولة شيعية واحدة وملكها شيعي ونحن مضطرون لدعمه."[53] ومحسن الحكيم هذا، هو والد محمد باقر الحكيم وعبد العزيز الحكيم قادة ومؤسسي حزب المجلس الأعلى الإسلامي وحركة بد في العراق، وكان أحد المراجع الأساسية للشيعة في العراق وهو قطب من أقطاب الشيعة في العالم .

بقيت عضوية هذا الحزب لأعوام طويلة مقتصرة على الشيعة الفرس المقيمين والوافدين على ارض العراق. كان يجب أن يمر اكثر من عشرين عاماً حتى يسمح من الناحية العملية للعرب العراقيين الشيعة في الانتساب لهذا الحزب. لكن المناصب القيادية في هذا الحزب بقيت حتى الوقت الحاضر حكراً على العناصر الفارسية. الأمين العام لحزب الدعوة العراقي، إبراهيم الجعفري، الذي عين رئيساً للوزراء بمباركة من قوات الاحتلال الأمريكي، ينحدر من أصول فارسية قادمة من الباكستان. والاسم الحقيقي لتلك الشخصية هو "إبراهيم اشيقر".

عندما كثرت أعداد العرب الشيعة في حزب الدعوة ظهرت رغبة ومحاولات من العناصر والقيادات الفارسية في هذا الحزب إلى إبقاء العناصر العربية خارج مراكز الفعل والتأثير على برامج الحزب السياسية والتنظيمية. كان هذا التوجه يلقى التأييد والدعم من قبل السلطات لإيرانية في طهران. وكان الصراع يدور داخل حزب الدعوة حول نقاط الخلاف التالية:

حول النفوذ والمساواة في الحقوق والواجبات في داخل هذا الحزب.

والنقطة الأخرى التي كانت محور حوار وصراع بين العرب والفرس في حزب الدعوة الإسلامي هي الموقف من الحرب بين العراق وإيران في أعوام الثمانينات. فالعناصر العربية كانت تميل إلى عدم المشاركة في هذه الحرب إلى جانب الجيش الإيراني ضد

---

[53] نقلاً عن مجلة الشراع اللبنانية، عدد 1429، في 12. 02. 2010 ، بيروت.

الجيش العراقي، في حين كانت العناصر والقيادات الفارسية تبدي حماساً كبيراً لمشاركة أعضاء حزب الدعوة في هذه الحرب إلى جانب الجيش الإيراني على الجبهة وفي القيام بأعمال التخريب في العمق العراقي.

كل المحاولات التي بذلت لتقريب وجهات النظر بين الأطراف المتنافسة للوصول إلى المراكز القيادية في الحزب، وكذلك وحول الموقف من الحرب ومشاركة أعضاء الحزب إلى جانب الطرف الإيراني بائت بالفشل، وانشق حزب الدعوة إلى ثلاثة أحزاب كل منهم يدعي تمثيله للخط السياسي الصحيح لهذا الحزب.

الدفعة الثانية من إنشاء الأحزاب والمنظمات السياسية الطائفية في العراق والمرتبطة بإيران وتدور في فلكها كانت مع قدوم القوى السياسية الدينية إلى سدة الحكم في إيران بعد سقوط الشاه. "في صيف عام 1979 شكّل حزب الدعوة لجنة قيادةٍ جهاديةٍ من ثلاثة أعضاء، ضمّت الشيخ صبحي الطّفيلي، الذي أصبح لاحقاً أوّل أمينٍ عامٍّ لحزب الله. وفي خريف ذلك العام، وعقب اغتيال محمد باقر الصدر على يد نظام صدام حسين، شكّل حزب الدعوة قيادةً جديدةً من خمسة أعضاء ضمّت رجل دينٍ لبنانيّ هو الشيخ حسين كوراني الّذي تبوّأ فيما بعد موقعاً رسميّاً في حزب الله."[54] وبدأت إعادة صياغة حزب الدعوة من جديد حتى ينسجم مع التغيرات التي حدثت في إيران بعد رحيل الشاه وقدوم الخميني إلى سدة الحكم في طهران. "شكلت إيران في عام 1981 وبرغبة من الخميني (المجلس الأعلى للثورة الإسلامية في العراق) أناطت رئاسته بآية الله الإيراني الجنسية (محمود الهاشمي)، فيما كان المرحوم السيد محمد باقر الحكيم في موقع (الناطق الرسمي) قبل أن يكون فيما بعد رئيسا للمجلس ، والمجلس المذكور هو مؤسسة إيرانية بالكامل مرتبط بمجلس الوزراء الإيراني وهو الوعاء التنظيمي للأحزاب الإسلامية العراقية ومنه ومن خلاله تشكل (فيلق بدر) كذراع عسكري لذلك المجلس وقد ضم عناصر متطوعة لمساندة الجهد العسكري الإيراني وكذلك استعين بخدمات ضباط سابقون في الجيش العراقي كانوا في الاسر الإيراني عرفوا باسم (التوابين)."[55]

تبنت القيادة السياسية الإيرانية دعم كل الأحزاب والمنظمات التي شكلها ودعمها نظام الشاة على أسس طائفية في الدول العربية ودول الجوار الإيراني. لكن هذه القيادة السياسية الدينية في طهران سعت في نفس الوقت إلى تشكيل منظمات وأحزاب في تلك البلدان مبنية على نفس الأسس الطائفية لكن تدور في فلكها ومرتبطة مباشرة بأجهزتها الحزبية والحكومية بدل الارتباط بعناصر وأجهزة نظام الشاه. أصبحت هذه الأحزاب

---

[54] هيثم مزاحم،على موقع المرصد في شبكة الإنتر نيت العالمية

[55] داوود البصري في مقالة تحت عنوان "شيعة العراق وسنوات العذاب الإيراني" في موقع الأحواز على شبكة الإنتير نيت العالمية.

والمنظمات الجديدة مرادفة ومكملة للمنظمات السياسية التي شكلها نظام الشاه البائد في دول الجوار.

"اثر الثورة الإيرانية في شباط 1979 اقترب المسلمون الشيعة العراقيون واللبنانيون من الجمهوريّة الإسلاميّة بقيادة آية الله روح الله الخميني. وبعد سنة من ذلك، شنّ النظام البعثي العراقي حربه ضد إيران التي استمرت ثماني سنوات، وغادر آلافُ من رجال الدين الشيعة العراقيين إلى إيران أو لبنان، بينما حافظوا على علاقاتهم مع إخوانهم الشيعة الذين ظلوا في الوطن. في الواقع اعتمدت المعارضة الشيعية في العراق على الدعم الإيرانيّ في صراعها ضدّ النظام العراقي."[56] المعارضة العراقية ذات التوجه الطائفي ذهبت إلى إيران لكن قوى سياسية عراقية أخرى ومن كل الطوائف والديانات من المجتمع العراقي ذهبت إلى الأقطار العربية كسوريا والكويت والسعودية ولبنان بحكم اللغة والقربا والانتماء إلى الأمة العربية.

الكاتب اللبناني هيثم مزاحم يذكر في مقالة له في 21. 7. 2004 عن المبادرة الإيرانية في تشكيل المجلس الأعلى للثورة الإسلامية في العراق. "أمّا بالنسبة للعراق، فقد ساندت طهران عام 1983 تكوين مظلّةٍ تنظيميّةٍ جديدةٍ تجمع الأحزاب الشيعية العراقية، بما في ذلك حزب الدعوة، هي المجلس الأعلى للثورة الإسلامية في العراق، بقيادة الرّاحل محمد باقر الحكيم. كان حزب الله والمجلس الأعلى للثورة الإسلامية متقاربين، لأنّ كلاهما كان يؤيّد مفهوم ولاية الفقيه الذي طوره الخميني، والممثّل حالياً في القائد الإيراني الأعلى آية الله علي خامنئي."[57] لقد ترأس المجلس الأعلى للثورة الإسلامية أثناء فترة التأسيس نهاية عام 1982 إيراني فارسي هو "محمود هاشمي" وشغل لسنوات طويلة رئيس القضاة في مدينة طهران. وكان جميع أعضاء قيادة هذا المجلس من الإيرانيين. من الواضح من ملاحظة هيثم مزاحم أن الاصطفاف داخل التيارات السياسية الشيعية كان خلف التيار الصفوي المتمثل في القيادة الإيرانية والتي تبذل الجهد لتعميم هذا التيار وفرضه على بقية التيارات الشيعية الأخرى.

توالت سلسلة الأحزاب والمنظمات السياسي التي عملت الأجهزة الحكومية الإيرانية على تأسيسها على أسس مذهبية وطائفية ونشرها في العراق حتى تجاوزت العشرةِ أحزابٍ وتنظيماتٍ سياسيةٍ. وزاد هذا الكم في زمن الاحتلال الأمريكي ـ الإيراني المشترك وبالتنسيق المشترك بين الأجهزة الأمنية الإيرانية في العراق مع الأجهزة الأمنية الأمريكية هناك حتى وصل عدد تلك الأحزاب والمنظمات الأربعين حزباً ومنظمة.

---

[56] هيثم مزاحم، المصدر السابق
[57] المصدر السابق

سلسلة الحروب التي ساهمت حكومات
الجمهورية الإسلامية الإيرانية بشنها على العراق

يمتد التدخل الفارسي في العراق إلى بداية التواجد الفارسي في الهضبة الإيرانية قبل ألفين وخمس مائة عام مضت. ولا تكاد سلسلة الحروب التي شنت على العراق وشعبه طوال الحقب التاريخية المتعاقبة تنقطع حتى تبدأ أخرى أكثر فتكاً ودماراً. هذه الحروب التي ساهم فيها الفرس لازالت من أكبر المصائب التي ابتليت بها بلاد ما بين النهرين عبر تاريخها الطويل. ويمكن للمرء أن يكتب تاريخ العراق بتتبع الحروب والهجمات التي شنت من الجار الشرقي على هذا البلد وعلى شعب هذه البلاد.

العودة إلى ما صنعته القوى الغازية عبر التاريخ ضروري، والنظر والتبصر فيه يساعد في استيعاب دروس الحاضر واستقراء المستقبل، لكن في هذا المكان سيتم التطرق فقط لقائمة الحروب التي شنت على العراق في حقبة الجمهورية الإسلامية الإيرانية. وتلك الحروب التي ساهمت حكومات القوى الدينية الإيرانية في إشعالها والتأثير مباشر وغير مباشر على مسارات وأحداثها. لم تك هذه الحقبة من الزمن الحالة الشاذة في العلاقات بين العراق وإيران، البلدين الجارين، بل هي القاعدة المألوفة والسائدة عبر الحقب الزمنية المتتالية. أنها النموذج الحي لعلاقات هذين البلدين.

خلال الخمسة والعشرون عاماً الأخيرة شنت سلسلة من الحروب على العراق، وعبر هذه الحروب عم الدمار والخراب والموت والجوع، و زرعت الأحقاد والكراهية ايضاً. هذه الحروب ستكون عينة عن تلك الحروب والهجمات التي شنت على العراق عبر القرون، والتي وصلت إلى اكثر من مأتي حرب وهجوم وستة مرات من الاحتلال. افتتحها قورش أول ملك فارسي لأول كيان سياسي فارسي في احتلاله بابل عام 539 قبل الميلاد واختتمها خامنئي و خاتمي وأحمدي نجاد عام 2003 م وحتى يومنا الراهن.

منذ الأيام الأولى لوصول التيار الديني إلى السلطة في إيران رفعت رايات تصدير الثورة إلى خارج الحدود. وهم في ذلك يجاهرون بنواياهم وأهدافهم السياسية في نقل الثورة إلى الدول العربية ودول الجوار. صرح الخميني بعد عدة أسابيع من وصوله إلى السلطة في طهران "عندي جيش أوله في بغداد وآخره في قم والطريق إلى تحرير القدس يتم عبر تحرير بغداد وعمان". لم يخفي الخميني أبداً نواياه العدوانية ضد العراق، بل كان يفاخر بها في كل فرصة تسنح له بذلك. لكن كم كبير من العرب،

مسئولين وجماهير لم تستوعب مقاصد حكام إيران الجدد. وطوال الربع قرن من حكم القوى الدينية بمختلف أطيافها عانا العراق من التدخل الدموي لحكام إيران في شؤونه الداخلية، والتحرش على طول حدوده وشن الحروب المدمرة على شعبة وكيانه السياسي.

واجه العراق منذ عام 1980 خمسة موجات كبيرة من الهجمات والحروب على سيادته وعلى أراضيه وعلى سلامة وأمن شعبه، وكان لإيران في كل هذه الحروب والهجمات نصيب وفي بعضها حصة الأسد. لقد تفاوت حجم الدور الإيراني في كل حرب من تلك الحروب التي شنت على العراق.

الحرب العراقية ـ الإيرانية
(حرب الخليج الأولى)

أولى هذه الهجمات امتدت من عام 1980 حتى 1988 والتي عرفت بالحرب العراقية ـ الإيرانية، أو حرب الخليج الأولى. في هذه الحرب كانت إيران الطرف الأساسي في إشعال هذه الحرب الضروس. أبدت الرموز الأساسية للتيارات الدينية ـ القومية، منذ الأيام الأولى للثورة على حكم الشاه رغبة جامحة في مناوشة العراق واستفزازه على طول الحدود المشتركة. ترافقت الإستفزازات العسكرية بالتهديدات الإعلامية والسياسية. هذه الرغبة في الإعتداء تبدت في التصريحات المتتالية لرموز وأقطاب هذا النظام الجديد، وكذلك بالترجمة الفعلية لتلك المواقف والتصريحات.

جاء القادة الجدد إلى سدة الحكم وهم يحملون موقفاً يضمر العداء للعرب بكل وضوح ويحمل رسالة ثأر لتاريخ مزعوم. بعد عدة أسابيع من وصول هذه التيارات المتشنجة للسلطة في طهران هاجم "صادق روحاني"، المستشار الشخصي للخميني، في 9. 3. 1979 القومية العربية بشدة، وأشاد بالمذهبية ودور الطائفية في الحفاظ على الدولة الفارسية. بعد أسابيع قليلة من وصول الخميني إلى السلطة صرح صادق روحاني: "أن الشيعة هي الأمة وهي التي قادت نضالاتنا في الاستقلال ضد السلالات العربية والتركية وهي التي حركت أمس مقاومتنا للنزعة العروبية".[58] هذا التعريف للدولة المزمع بنائها في إيران، في ظل القيادة الجديدة، تتضمن في أعمدتها الأساسية إبراز البعد الطائفي (المذهب الشيعي) لهذه الدولة العتيدة، وكذلك البعد العنصري المعادي للعرب بالدرجة الأساسية، والمعادي للأتراك من بعدهم. صادق روحاني رسم بكل وضوح السياسة الإيرانية المستقبلية تجاه المنطقة العربية، ودول الجوار، والتي توحي بالتفرقة الطائفية في المنطقة بين الشعوب الإسلامية والتحريض وإثارة الأحقاد العرقية والقومية، والتحريض على النزاعات العسكرية بين دول المنطقة. الأتراك والعرب هم، حسب صادق روحاني، الخطر المحدق بالفرس والواجب حذرة واتقائه ومحاربته. كان الرجل صريحاً ولم يخفي نواياه ونوايا رفاقه ومشايعيه المستقبلية.

[58] مجلة باري ماتش، باريس 9. 2. 1979

عند صادق روحاني الشيعة هي الأمة. لكنه لم يفصح عن ماهية الأمة المقصودة في ذلك، أهي الأمة ببعدها الديني الإسلامي أم ببعدها القومي الفارسي. ربما الاثنين معا، فهو يعلن في نفس الجملة، عن حرب شعواء على الترك والعرب وعلى بقية العالم الإسلامي، ويعلن إنعزالية الأمة ـ الدولة ـ الإيرانية عن بقية الشعوب المسلمة، على اعتبار أن الأمة عند روحاني هي الشيعية التي لا يتجاوز نسبتها ال 5% من مجموع أعداد المسلمين في العالم. على الرغم من الادعاءات المتكررة والمستمرة من قبل القادة الدينيون بضرورة وحدة الصف الإسلامي، ووحدة الشعوب الإسلامية، إلا أن الواقع ومواقف القادات الإيرانية يكشف عن حقائق أخرى غير تلك الادعاءات.

تطاول "صادق زاده" أحد الرموز الأساسية في رأس السلطة الجديدة في طهران، على القومية العربية ووصفها بالعدوانية قائلا:" أننا لن نقبل القومية العدوانية التي تمارس من قبل المعتدين كالبعث العراقي."[59] لم تغيب لهجة التهديد والوعيد في تصريحات المسؤولين الإيرانيين منذ الساعات الأولى لوصولهم إلى السلطة. لم يخفوا القادة الجدد في طهران خطوط توجهاتهم السياسية، وعن اتجاهات سياساتهم الخارجية. وافصحوا لأكثر من مرة عن أبعاد توجهاتهم الإستراتيجية في لعب دور المحرض على النزاعات المذهبية والطائفية.

بدأت المناوشات العسكرية على الحدود العراقية الإيرانية بعد ثلاثة أسابيع من انتصار الخميني على الشاه. ورصد أكثر من 549 اعتداء عسكري قامت به القوات الإيرانية على طول الحدود خلال الأشهر الثلاث التي سبقت الحرب، وقامت الحكومة العراقية بتوجيه 147 مذكرة احتجاج على تلك الاعتداءات وسلمت نسخ من تلك الاحتجاجات إلى الأمم المتحدة. لم ينسحب الجيش الإيراني من منطقة الحدود التي يرابط فيها منذ اكثر من ثلاثين عاماً، بل احتل ثمانية قرى عراقية جديدة، مثل قرية "سيف سعد" وقرية "زرباطيه" من محافظة العمارة. ولم تتأثر أو تتغير عقيدة الجيش الإيراني بعد قدوم القوى الدينية الجديدة إلى السلطة في إيران. "وعندما سئل صدام عما إذا كانت محاولات الاغتيال الإيرانية ضد مسؤولي الحكومة العراقية قبل نشوب الحرب على يد جماعات مدعومة من طهران بما في ذلك محاولة اغتيال طارق عزيز ولطيف جاسم، أثرت في قرار بغداد الذهاب إلى الحرب ضد طهران، قال صدام إن هناك 540 هجوما إيرانيا على العراق قبل الحرب، منها 249 اختراقا جويا أو غارات. وقدم العراق هذه المعلومات إلى الأمم المتحدة بينما أغلقت إيران شط العرب وأغرقت سفنا عراقية وأجنبية .وقال صدام قبل 29 سبتمبر (أيلول) 1980 قصفت إيران مصافي عراقية في

[59] صحيفة أبو ظبي في دولة الإمارات العربية المتحدة في 1. 5. 1980 .

البصرة ومدن أخرى جنوبية. وكانت محاولات الاغتيال ضد طارق عزيز وجاسم وآخرين ضمن الأشياء التي قادت إلى الحرب."[60]

عقيدة محاربة العراق "العدو الأول"، تلك العقيدة التي سادت وتمت تعبئة الجيش الإيراني على أساسها طوال العقود الماضية من عمر الدولة الإيرانية. ظل التدريب والحشد المعنوي في الجيش والقوات المسلحة الإيرانية موجهاً إلى العدو العراقي والعدو العربي. لا زالت العقيدة العسكرية السائدة في الجيش الإيراني وقوات حرس الثورة وبقية الأجهزة الأمنية الإيرانية، إلى يومنا هذا، تلك العقيدة، التي وضع أسسها وقواعدها الشاه رضا خان في أعوام العشرينات من القرن العشرين، ولا زالت على أساسه تشحذ الهمم في صفوف الجيش الإيراني، العداء للعراق وللعرب.

عقدت اتفاقية في الجزائر عام 1975 م بين الحكومة العراقية وحكومة إيران الشاه تم بموجبها تنازل العراق عن نصف شط العرب مقابل توقف إيران عن دعم المتمردين الأكراد في شمال البلاد على الحكومة المركزية في بغداد. بعد تخلي الشاه عن دعم المتمردين الأكراد في الشمال العراقي عاش العراق حالة هدوء نسبي استمرت حتى عام 1979 ، إلى أن قدم الخميني إلى السلطة في طهران. على خلفية توقيع هذه الاتفاقية وجهت للحكومة العراقية من أطراف عراقية وأطراف عربية عدة انتقادات شديدة. اتهمت الحكومة العراقية في هذه الإنتقادات في التفريط والتنازل لإيران عن الحقوق العربية في شط العرب وفي إقليم الأحواز (عربستان) المحتل.

كادت الحكومة العراقية تعيش حالة عزلة سياسية عربية جراء التوقيع على هذه الاتفاقية الجائرة بحق العراق وحق العرب. لكن حكومة الخميني وعلى لسان المسؤولين في تلك الحكومة رفضت التقيد في هذه الاتفاقية المبرمة بين حكومة الشاه والحكومة العراقية بما فيها من مكاسب حصلت عليها إيران تحت ظروف حالة التمرد القاسية في شمال العراق بدعم إيراني وأمريكي وإسرائيلي مشترك. القوى الدينية ـ القومية الجديدة في طهران تطمح وتعمل للحصول على أكثر من ذلك بكثير من المكاسب على حساب العراق والعرب. صادق الطباطبائي المستشار الشخصي الخميني للشؤون الخارجية صرح في جريدة اطلاعات الإيرانية في 19 .6 .1979 حول هذه الاتفاقية بالتالي: "بما يخص اتفاق الجزائر كان هذا الاتفاق قد عقد بين العراق وإيران في زمن الشاه، لكن الظروف الآن قد تغيرت والحكومة المركزية في إيران لن تتمسك في هذا الاتفاق طويلاً".

كانت حكومة الخميني قد عملت على إلغاء هذه الاتفاقية وخرقها من الناحية العملية قبل عدة شهور من موعد هذا التصريح. من خلال المناوشات العسكرية على الحدود واحتلال بعض القرى العراقية الحدودية، ومن خلال التهديدات المباشرة في احتلال

[60] صحيفة الشرق الأوسط، في تقرير حول تحقيقات رجال المخابرات الأمريكية الفدرالية مع الرئيس صدام حسين أثناء فترة إعتقاله عام 2204 ، لندن، عدد 3. 7. 2009 .

العراق والدخول إلى بغداد، والتحريض على الثورة بدعم القوى الموالية لها هناك كانت اتفاقية الجزائر قد أصبحت بحكم المنتهية. "الطريق إلى القدس يمر عبر بغداد وعمان"، بهذه الكلمات كان الخميني يعلن أهدافه السياسية في أغلب خطبه الدينية والسياسية ومقابلاته الصحفية.

لم يخفي الخميني وجماعته في الحكم رغباتهم الجامحة في إسقاط الحكومة الوطنية في العراق ذات التوجه القومي العربي والإتيان بحكومة موالية لإيران في حكم العراق. لقد تبنت حكومة الخميني سياسة التحريض الطائفي والمذهبي داخل المجتمع العراقي، وجهرت بسياسة تحريض بعض فئات الشعب العراقي على التمرد على الحكومة المركزية، ونشر الفوضى في البلاد. وعملت حكومة الخميني في الحرب على العراق على تجنيد الشباب العراقي في الجيش الإيراني على أسس ودعاوى طائفية، وزجت بهم في أتون المعارك الطاحنة ضد جيش وطنهم العراق. وكان "فيلق بدر" أحد هذه الفيالق العراقية المجندة في الجيش الإيراني. لقد خلقت من آلاف العراقيين خونة لشعبهم ووطنهم و أمتهم العربية، مستغلة في ذلك حاله الفقر والعوز الذي أصاب هذا الشباب في المنافي. "كان تجنيد العراقيين لمساندة الجهد العسكري الإيراني يتم من خلال الأحزاب والجماعات الشيعية العراقية وبين أوساط الشباب العراقي المقيم في إيران أو ذلك الذي يعاني ظروف الحرمان والعوز في سوريه، وفي دمشق بالذات من خلال مكاتب السيد الحكيم ومنظمة العمل الإسلامي (شيرازية) في حي الأمين الدمشقي وفي (السيدة زينب) في ريف دمشق ، وانضم الكثير من الشباب العراقي الضائع والمحروم والمشرد ليقتل على جبهات الحرب المجنونة."[61]

في مقال للسيد عبد الله الحوراني في تاريخ 29 آب 2004 يتحدث عن مضمون لقاء جمعه مع الرئيس العراقي صدام حسين عام 1981، يلخص الأجواء السياسية لتي كانت سائدة بعد قدوم القوى الدينية إلى سدة الحكم في طهران، والتقييم العراقي لهذه التغيرات على أساس المعطيات التاريخية والتجارب الحاضرة الحية مع الجارة إيران والقوى السياسية هناك. حول العلاقة مع الحكام الجدد في طهران قال الرئيس صدام حسين: "لقد تفاءَلنا بهذا التغيير، وأمَّلنا أن يسود الاحترام المتبادل والحرص على حسن الجوار والمصالح المشتركة في علاقاتنا مع إيران، خاصة وأن أرض العراق استضافت لأكثر من عشرين سنة السيد الخميني، ووفرنا له كل أسباب الأمان والحماية من نظام الشاه، وساعدناه في دعوته، حتى أن الأحاديث التي وجهها للشعوب الإيرانية كانت أشرطتها المسجلة تنطلق من العراق. ولتأكيد نوايانا الطيبة بادرت منذ الأيام الأولى لعودة الخميني بتهنئته في رسالة رسمية بعثتها إليه. لكن يبدو أن النظام الجديد جاء

[61] داود البصري، في مقالة صحفية تحت عنوان "شيعة العراق وسنوات العذاب الإيرانية" ، نشرت على موقع الأحواز في شبكة الإنتر نيت العالمية.

حاملاً نفس المشروع ونفس النوايا الشاهنشاهية، ولكن بلبوس دينية وشعارات ثورية، عنوانها تصدير الثورة، وتكريس مفهوم جديد وغريب على المذهب الشيعي/ الجعفري هو ولاية الفقيه، بما يعني تنصيب نفسه مسؤولاً دينياً ودنيوياً عن أصحاب المذهب داخل وخارج إيران، وقام بممارسات تدخله في الشؤون العراقية تؤكد هذا التوجه. ومع ذلك واصلنا مساعينا لتطبيع علاقاتنا مع إيران، ووجهت دعوة رسمية لرئيس الوزراء الإيراني الجديد مهدي بازركان لزيارة العراق لتسوية الخلافات، وأرسلنا مبعوثين رسميين إلى إيران للغرض نفسه، ووجهنا مذكرات للحكومة الإيرانية تشرح الانتهاكات الإيرانية لحدودنا ومياهنا وأجوائنا، مطالبين بوقفها. ولكن كل مساعينا قوبلت بعدم التجاوب والرفض والتحدي. بل صعد النظام الإيراني من مواقفه العدائية والاستفزازية ضد العراق، وأعلن صراحة، وعلى لسان أكثر من مسؤول، أن هدفهم هو إسقاط النظام القومي في العراق. وعندما حاول السيد ياسر عرفات (ويفترض أنك تعرف ذلك) التوسط بيننا لحل الخلافات بناء على طلب من رئيس الوزراء التركي رفضت إيران هذه الوساطة، وعندما طالبناهم بتنفيذ بنود اتفاقية الجزائر (لعام 1975) التي ترسم العلاقة والحدود بين البلدين، والانسحاب من أراض رفضوا ذلك."[62] أن تثبيت هذا الاقتباس المطول من كلام الرئيس صدام حسين يبين ويكشف هواجس واستنتاجات عدد من الساسة والمسؤولين العرب في منطقة الخليج العربي من الخطر الإيراني. هذه الانطباعات وهذه التجارب عند حكام ومسئولي دول الخليج العربي والعراق تكتسب أهمية خاصة بكونها كانت موجودة وظاهرة على السطح في أعوام السبعينات وأوائل الثمانينات في حين المواطن والمثقف العربي خارج دول الجوار الإيراني كان هائم في أحلام رومانسية وأسير مقولات وشعارات "الإسلام الثوري". تلك الشعارات والأوهام التي نجحت القوى الدينية في إيران في تسويقها في المنطقة العربية، وساعدهم في تسويق هذا الوهم وهذا الخداع فساد وتقاعس الكثير من الحكام والمسئولين في الدول العربية في تحمل مسؤولياتهم الوطنية.

ويضيف عبد الله الحوراني، أحد السياسيين والمثقفين العرب وأحد القادة الفلسطينيين، عضو الهيئة التنفيذية لمنظمة التحرير الفلسطينية، معلقاً على قناعاته الذاتية حول إيران ودورها في المنطقة: "حين اطلعت على تلك الوثائق، اكتشفت كم من الحقائق كانت غائبة عني، وعن كل الذين وقعوا في وهم الثورة الإيرانية ."

لقد كان للحرب على الجبهات في الحدود حروب أخرى مكملة لتلك الحرب تخاض في قلب المدن والشوارع العراقية. استعملت إيران لهذه الحرب بعض الجماعات العراقية ذات الأصول الفارسية، وممن والاهم من العرب المنضويين في حزبي "الدعوة" بقيادة إبراهيم الجعفري و"المجلس الأعلى للثورة الإسلامية" بقيادة محمد باقر الحكيم، في

---

[62] المصدر السابق

تخريب المنشآت العراقية وتصفية بعض الضباط والمسؤولين العراقيين. وحادثة اغتيال رئيس الدولة العراقية، صدام حسين أثناء الحرب المستعرة عام 1982 في قرية "الدجيل" شمال بغداد، للتأثير على معنويات الشعب العراقي، وخلق البلبلة في صفوفه، كانت أكبر الخدمات التي حاولت هذه المجموعات تقديمها إلى إيران في حربها على العراق. لقد ثبت تورط حزب الدعوة بالتعاون مع المخابرات الإيرانية في محاول الاغتيال هذه.

المحاكمات التي جرت في ظل الاحتلال والسيطرة الإيرانية على مقدرات الأمور في العراق للرئيس العراقي صدام حسين وسبعة مسؤولين حكوميين في الحكومة العراقية في حينه تعتبر واحدة من أشهر عمليات تصفية الحساب التي تقوم بها إيران وأمريكا والأحزاب العراقية الكردية والأحزاب الطائفية الموالية إلى إيران مع نظام الحكم العربي أثناء الحرب لعراقية ـ الإيرانية في عقد الثمانينات. لم تكن محاولة اغتيال الرئيس العراقي صدام حسين المحاولة الوحيدة التي قامت بها أجهزة الاستخبارات الإيرانية وعملائها في العراق، بل وصلت تلك المحاولات الناجحة والفاشلة ضد المسؤولين العراقيين إلى أكثر من خمسين محاولة اغتيال.

كتب الصحفي العراقي دجلة وحيد مقالا حول دور الأحزاب السياسية الطائفية في العراق أثناء الحرب العراقية الإيرانية في أعوام الثمانينات من القرن الماضي التالي: "أثناء الحرب العراقية الإيرانية وما قبلها حينما أصبحت كوادر الأحزاب الشيعية جواسيس وطابور خامس تخدم مصالح النظم الإيرانية المتعاقبة وتعمل بصورة غير مباشرة في خدمة الموساد الإسرائيلي ووكالات المخابرات الأمريكية والبريطانية."[63] هذه الأحزاب والجماعات تأسست وتدربت بأغلبيتها على الأرض الإيرانية، ومولت وجهزت هذه الأحزاب من قبل الحكومات الإيرانية المتعاقبة. افتتحت ثلاثة معسكرات لتدريب هؤلاء في مناطق الأحواز العربي المحتل، والمناطق الإيرانية الحدودية المحاذية للعراق بالقرب من مدينة العمارة العراقية.

اندلعت الحرب في 22 .9. 1980 بشكلها الرسمي المتزامن مع دخول وحدات الجيش العراقي خطوط التماس واختراق خطوط الجبهة الإيرانية. لكن الفريق الركن "رعد الحمداني" أحد القادة العسكريين العراقيين الذين شاركوا بالحرب وقاد فيها بعض وحداتها العسكرية قال في مقابلة تلفزيونية لفضائية البغدادية: "إن خطاب الساسة الإيرانيون نحو العراق كان خطاباً عدوانياً، وكانوا يعتقدون بأن الوضع الطائفي في العراق سيخدمهم كثيراً في عملية اجتياح العراق عسكرياً والاستيلاء عليه، وقد بدأت الاستعدادات العسكرية الإيرانية من الناحية الميدانية العسكرية لاجتياح العراق في يوم 4. 9. 1980 . معلوماتنا العسكرية كانت تؤكد أن إيران ستهاجم العراق عسكرياً بهجوم

[63] موقع البصرة على شبكة الإنتر نيت العالمية 11. 8. 2003.

كاسح في منتصف الشهر الأول من عام 1981 . وأنا أعتبر أن الحرب بدأت فعلياً في يوم 4. 9. 1980 عندما قامت وحدات من الجيش الإيراني والطائرات الإيرانية بقصف مواقعنا على الجبهة بهدف إرباكنا والتحضير للهجوم الشامل على بلدنا."[64] وكذلك في المناطق الإيرانية المحاذية لمدينة السليمانية العراقية.

كانت ردود فعل الحكومة العراقية على الاستفزازات الإيرانية لم تكن في أغلب الأحيان موفقةً. ووقعت الحكومات العراقية في كثير من الأخطاء والممارسات الضارة في تعاملها مع الاستفزازات الإيرانية التي سبقت اندلاع الحرب مع إيران. لقد انجرت القيادة والحكومة العراقية إلى حرب مدمرة، ربما كان بالإمكان تجنبها. في حين يؤكد كثير من المراقبين باستحالة تجنب هذه الحرب لأن القيادة الثورية في طهران قررت نقل الثورة واحتلال العراق والكويت.

دامت هذه الحرب ثمانية أعوام كان الطرف الإيراني المصر بشكل دائم على إطالتها، والاستمرار في خوضها، دون مبررات عسكرية أو أخلاقية تستدعي الاستمرار في خوض وإطالة زمن هذه الحرب المجنونة.

رغم المبادرات المتكررة من أكثر من طرف عربي وإسلامي ودولي من أجل إيقاف هذه الحرب أصر الخميني على الاستمرار في خوض الحرب. تقدمت منظمة المؤتمر الإسلامي باقتراحات ومبادرات لوقف الحرب بين الطرفين، وتبعتها منظمة دول عدم الانحياز وكذلك تقدمت الأمم المتحدة بعدد من المبادرات تصب في نفس الاتجاه. لقد وافق العراق على اقتراح وقف إطلاق النار بعد مضي اقل من أسبوع على بداية تلك الحرب، ووافق العراق على كل المبادرات الإقليمية والدولية للتوصل إلى وقف لإطلاق النار على الجبهات. لكن الخميني والنظام الإيراني رفض هذه العروض وهذه الاقتراحات، وأصر الخميني، بكل شدة، على الاستمرار ومتابعة خوض المعارك وإزهاق الأرواح العراقية والإيرانية بدون طائل. الإصرار الإيراني على إطالة الحرب يؤكد ما صرح به القائد العسكري العراقي رعد الحمداني بأن إيران اتخذت قرار الحرب وبدأت المعركة من الناحية الفعلية في يوم 4. 9. 1980 .

تحقق التوازن العسكري بين الأطراف المتحاربة بعد مضي عام ونصف العام على سير الحرب العراقية ـ الإيرانية، وكان بالإمكان بعد صيف عام 1981 أن تتوقف الحرب عند الحدود الدنيا من الخسائر المادية والبشرية والسياسية التي خلقتها الحرب، لكن القادة السياسيين والدينيين في طهران وجدوا في اندلاع هذه الحرب فرصتهم التاريخية في اختراق الجسم العربي من خلال البوابة العراقية. برر القادة الإيرانيون استمرار حربهم ضد العراق بدعاوى مراوغة ومخادعة من نوع "النية لتحرير فلسطين" بعد

---

[64] فضائية البغدادية العراقية بتاريخ 25. 7. 2007 .

"تحرير العراق"، وإقامة أنظمة إسلامية ثورية في العراق والدول العربية المجاورة للعراق، بعد اسقاط الأنظمة القومية والعلمانية والعشائرية المتخلفة و"الكافرة"، حسب مفردات الخطاب السياسي للقوى الجديدة الحاكمة في طهران.

كان حكام طهران يظهرون ثقة عالية بالنفس، والقدرة على اجتياح العراق وغير العراق. مستندين في ذلك على فيض المساعدات العسكرية الأمريكية والغربية والإسرائيلية، التي بدأت بالوصول إليهم مع بداية عام 1981. في نفس الوقت، وجد القادة في طهران باستمرار هذه الحرب فرصتهم الذهبية، التي لا تعوض، في تصفية معارضيهم السياسيين في الداخل، وإنهاء كل القوى السياسية المنافسة لهذا التيار، الذي لا زال يتربع على سدة الحكم في طهران، متذرعاً في استمرار حاله الحرب وأولويات الدفاع عن الوطن من الخطر العراقي والعربي. لقد تحقق للقوى الدينية في إيران ما أرادت الوصول إليه في تصفية كل القوى السياسية المنافسة لها في الداخل، واستطاع تيار الخميني تدمير الحركة الوطنية الإيرانية. تمكن تيار الخميني من إرغام كل القوى السياسية الإيرانية على الصمت على سياسة متابعة الحرب وفرض على أغلب كوادر وأعضاء الحركات السياسية القومية واليسارية والدينية الإيرانية المنافسة لتياره الهروب إلى المنافي خوفاً من الموت أو المعتقل. أثناء الحرب قام تيار الخميني بأكبر حملة تفيات جسدية لكل القوى السياسية الإيرانية الأخرى على إختلاف إنتماءاتها السياسية.

على الجانب العربي انقسمت الأمة العربية في هذه الحرب والموقف من إيران إلى ثلاثة أطراف.

الطرف العربي الأكبر هو الطرف الذي وقف إلى جانب العراق في هذه الحرب وكان أهمها مصر والسودان والأردن واليمن ودول الخليج العربي.

وطرف عربي ثانٍ تمثل حصراً في سوريا وليبيا وقف إلى جانب إيران وقدم مساعدات عسكرية واقتصادية ودعم الموقف السياسي الإيراني من هذه الحرب. توقفت ليبيا عن دعم إيران بعد عام 1982 وخرجت من هذا المحور إلى غير رجعة.

والطرف العربي الثالث اتخذ موقف المحايد من تلك الحرب ولعب دور الوساطة بين القوى المتصارعة، أو تلك الدول والحكومات العربية التي اتخذت موقف غير المبالي في سير واستمرار هذه الحرب. هذه المجموعة من الدول العربية احتوت أغلب دول المغرب العربي والقرن الإفريقي.

الانشقاق في الساحة العربية حول الموقف من الحرب على شط العرب والخليج العربي بين إيران والعراق، والموقف من سياسة القوى الدينية الصاعدة إلى سدة الحكم في طهران طال ايضاً الأحزاب والحركات السياسية العربية من مختلف التيارات السياسية والفكرية. تباينت المواقف بين الأحزاب والحركات السياسية العربية على اتساع مساحة

الوطن العربي، وفي كل قطر من أقطاره. فمنهم من يرى أن لا مبرر لاندلاع واستمرار هذه الحرب ويحمل العراق مسؤولية بدئها. وطرف يحمل إيران مسؤولية تفجير الحرب ويرفض استمرارها. وطرف اعتقد أن خوض الحرب ضد هذا العدو الطامع والمتغطرس على الحدود الشرقية للوطن العربي شر لابد منه واعتبر الحرب تعبيرا أخر عن أطماع الفرس القديمة الجديدة في العراق والوطن العربي. وهناك طرف يرى أن إيران والعراق وقع في الفخ الصهيوني ـ الأمريكي ـ الغربي القاضي باستنزاف هذين البلدين المسلمين ويدعو إلى وقف الحرب فوراً ودون أي تأخير ومماطلة. ومنهم من استبشر خيراً في قدوم قوى دينية إلى سدة الحكم في طهران، والأخر وجد في هذه القوى نذير شؤم ونذير خراب على العالم الإسلامي والدين الإسلامي.

تعددت المواقف والآراء، وخلطت الأوراق في المنطقة من جديد، وسيطرت حالة من الفوضى الفكرية وفقدان الاتجاهات. ساعدت هذه الفوضى السياسية والفكرية والموقف من استمرار الحرب والموقف من الأطراف المتحاربة إيران على اختراق صفوف الحركات السياسية العربية والمجتمعات العربية على حدٍ سواء بجدارة. من خلال تلك الفوضى التي سادت الساحة العربية الرسمية والشعبية في عقد الثمانينات تمكنت إيران من كسب بعض القوى السياسية داخل صفوف قوى المعارضة العربية إلى جانبها. وسمحت هذه الأجواء المرتبكة من إعطاء غطاءٍ سياسي وأخلاقي وجماهيري لعمل المنظمات والأحزاب الطائفية في عدد من الأقطار العربية. لقد ركبت الأحزاب الطائفية المرتبطة في إيران موجة مهاجمة الحكومات العربية المتخاذلة والعاجزة والأقل تخاذلاً بحجج ومبررات دينية.

تحولت الحرب العراقية ـ الإيرانية، بالإضافة لاستنزاف البلدين المتحاربين، أيضاً استنزافاً للوطن العربي على أكثر من مستوى واكثر من صعيد. إطالة عمر هذه الحرب يعني وبشكل مباشر إطالة وتعميق الانشقاقات العربية الداخلية، والتي كان فيها الاصطفاف حول العلاقة مع إيران والموقف من الحرب الدائرة على جانبي شط العرب من أهم مبررات تلك الإنشقاقات، وأحد أعمدتها الأساسية. تبهيت مشروع التضامن العربي ومشروع الأمة العربية في الوحدة في أعين الجيل العربي الحالي كان من أهم الأثار السلبية التي نتجت عن استمرار الحرب واستمرار معها تعميق حالات الإنشقاق السياسي واسقاطاته على الوعي الجماهيري. استمرار الحرب كان يعني ايضاً مزيداً من استنزاف للطاقات المادية لأغلب الدول العربية المتورطة في هذه الحرب على كل من الجبهتين المتقابلتين في الحرب.

الولايات المتحدة الأمريكية والدول الغربية وإسرائيل لم تكن بعيدة عن ساحة الصراع والمعارك. كانت الأطراف الغربية متفقة من حيث المبدأ على إطالة عمر الحرب إلى أبعد زمنٍ ممكن. فهي بذلك تحقق أكثر من هدف في آنٍ معاً:

- بالإضافة إلى استنزاف العراق وإيران
- استنزاف الدول العربية
- وشل حركة العالم الإسلامي في أي عمل تضامني نظراً للخلاف حول حرب الخليج الدائرة،
- تحقق الدول الغربية وإسرائيل باستمرار تلك الحرب أرباحاً مادية من خلال بيع السلاح والمعدات الأخرى على الأطراف المتحاربة،
- وكذلك تأمن هذه الحرب حقل تجارب مفتوح لأسلحتها المختلفة.

كان باستطاعة الدول الغربية والاتحاد السوفييتي سابقاً، وعن طريق فرض حضر على توريد السلاح على الأطراف المتحاربة، فرض وقف لإطلاق النار والبدء في إجراء مفاوضات سياسية حول القضايا المتنازع عليها. لكن مثل هذا الشيء لم يحصل. بل العكس هو الذي ساد في علاقات هذه الدول مع البلدين المتحاربين. هذه الدول الصناعية الغربية والشرقية قامت في تصدير السلاح للجيوش المتقابلة كلما نقصت مخازنها من العتاد والذخيرة. مؤامرة دولية كبرى كانت تتابع فصولها في منطقة الخليج العربي هدفها إطالة أمد الحرب لما فيه استنزاف طاقات دول المنطقة.

ظلت حكومة الخميني في إيران مصرة على الانخراط والاستمرار في هذا النهج التدميري، ورفض القادة الإيرانيون كل المساعي والعروض العراقية، وغير العراقية في إيقاف هذه الحرب. كان للحرب أن تنتهي بعد اقل من عام على اندلاعها، لكن إيران كانت معتمدة على الدعم الأمريكي والإسرائيلي السخي والذي لم يتوقف يوماً، وهذا الذي أثار في نفوس القادة الفرس أحلام وأوهام الانتقام والتوسع والاستعمار. من هنا كان الإصرار الشديد على تمديد زمن الحرب رغبة في تحقيق النصر على العراق .

لم تتوقف الحرب المدمرة عبر إرادة دولية أو وساطة دولية. ولم تتوقف الحرب بفعل ضغوط ووساطات إقليمية. ولم تتوقف الحرب بين العراق وإيران بإرادة ونية إيرانية، ورغبة بوقف نزيف الدم والدمار الواقع على البلدين الجارين. بل العراق هو الطرف الذي فرض وقف إطلاق النار على الطرف الإيراني، واجبر حكام إيران على القبول باقتراح وقف إطلاق النار المقدم منذ سبعة أعوام مضت. في تصرح للرئيس صدام حسين أمام المحققين الأمركان أثناء فترة إعتقاله في عام 2004 كشف عن حقيقة الموقف العراقي من استمرار الحرب. "حسين قال ان العراق وافق على قرار الامم المتحدة في 28 سبتمبر 1980 داعياً الى ايقاف الاعمال العدائية مع ايران، لكن ايران لم توافق على هذا القرار.

حسين اضاف ان العراق وافق على قرار الامم المتحدة بالرقم 598 في 1987 من اجل انهاء الحرب، لكن ايران مرة اخرى رفضت الموافقة على هذا القرار. العراق في الحقيقة حاول عدة مرات خلال الحرب من اجل استمالة ايران لفتح نقاش من اجل ايقاف الحرب، وقال حسين فعلنا ذلك حينما لم يكن علينا فعل ذلك من اجل الشعب والانسانية، لكن ايران لم تقبل بوقف اطلاق النار الا في1988 بعد ان خسروا الحرب."[65] العراق هو الطرف الذي أجبر إيران إلى السعي لإنهاء الحرب الدائرة في منطقة الخليج. لقد فاجأ العراق حكام إيران، و فاجأ العالم من خلال تطويره منظومته التسليحية، بعيداً عن أنظار إيران والغرب وإسرائيل. وخاصة تطويره لمنظومته الصاروخية التي تجاوزت كل التوقعات المحلية والدولية. هدد العراق بقصف كل المرافق الحيوية في المدن الإيرانية إذا لم توقف إيران الحرب فوراً. وأكد العراق هذه التهديدات العسكرية بقصف طهران ومرافقها الحيوية في يوم 28. 7. 1988 في 113 صاروخاً من نوع الحسين متوسط المدى. هذا التطور العسكري المفاجئ وضع إيران في موقف حرج من الناحية العسكرية ولم يترك لقادة إيران خيارات أخرى غير الموافقة على اقتراح وقف إطلاق النار المقدم من قبل الحكومة العراقية.

توصلت القيادة السياسية والعسكرية والدينية الإيرانية إلى القناعة بجدية التهديدات العراقية، وتأكد القادة العسكريون الإيرانيون إلى حقيقة استحالة الانتصار على الجيش العراقي. وإلى استحالة اختراق العراق واحتلال أراضيه بعد تلك التطورات العسكرية المستجدة. هذه القناعة عند القيادة الإيرانية دفعت بالخميني للموافقة على وقف إطلاق النار مع العراق مرغماً. لم تعبر موافقة القيادة الإيرانية عن طمعٍ وحب بالسلام بين هذين الشعبين المسلمين الجارين، ومرضاة لوجه الله في حقن دماء المسلمين. أعلن الخميني على الموافقة على وقف إطلاق النار وبرر ذلك وقال: "وبعد اعتراف نائب القائد الأعلى للقوات المسلحة وقائد الحرس الثوري والمعني بتهيئة ما تحتاجه الحرب، وكذا المعني بإفادة القدرة للاستمرار فيها، وبعد الاطلاع على استخدام العدو الكثيف للسلاح الكيماوي، وعدم قدرتنا لمواجهتها فقد اتخذنا قرارنا بوقف إطلاق النار، ومن أجل إيضاح ملابسات هذا القرار الذي أعتبره كتجرع كأس السم، فمن المفيد الإشارة إلى بعض النقاط الواردة برسالة قائد قوات الحرس الثوري المؤرخة بتاريخ 21 يونيو 1988م، حيث قد أعلن فيها أن القوات المسلحة الإيرانية قد باتت عاجزة عن تحقيق أي تقدم في الحرب فإيران بحاجة إلى 350 لواء مدرعًا ومشاة و2500 دبابة، 3000 مدفع، إضافة إلى 300 طائرة مقاتلة، وكذا 300 طائرة هيلكوبتر خلال الخمس سنوات القادمة، أي حتى عام 1993 م، كما يجب أن نصبح قادرين على إنتاج الأسلحة الليزرية والنووية خلال الفترة القادمة، وكذلك إضافة أن الشيء اللافت للنظر هنا، هو ضرورة

[65] صحيفة إيلاف الألكترونية في 4.7.2009 ، محضر جلسات التحقيق مع الرئيس صدام حسين في المعتقل.

زيادة قدرات الحرس الثوري سبعة أضعاف وقدرات الجيش الضعفين لكي يمكننا مواصلة الحرب."[66] وأكد الخميني أكثر من مرة " أن تجرع كأس السم أهون علي من أن أوافق على وقف الحرب مع هذا الشيطان لكنني مجبر الآن على ذلك"[67] .

يلخص الكاتب والسياسي العراقي مصطفى العاني حالة الانكسار التي أصابت القيادة الإيرانية عشية وقف إطلاق النار على الجبهات في 21. 3. 2006 تحت عنوان "الشجرة الغبية" بالتالي: "وقد شهد عام 1988 نهاية حرب الخليج الأولى ونهاية الإصرار الإيراني على إسقاط نظام البعث، وربما نهاية حلم إنشاء جمهورية إسلامية شيعية في العراق على غرار الجمهورية الإيرانية، وتبخر في ليلة وضحاها حلم احتلال بغداد وتحرير العتبات الشيعية المقدسة وغيرها من الأحلام التي راودت القيادات الدينية والسياسية في إيران. فمنذ أواخر عام 1981 وحتى أواخر عام 1988، رفضت القيادة الإيرانية وبإصرار قاطع فكرة وقف إطلاق النار وإنهاء الحرب على أمل امتلاك القدرة على تحقيق انتصار عسكري على العراق يقود إلى تحقيق الأحلام جميعها أو أغلبها. من الناحية العملية، فقد خسرت إيران الدولة وإيران الثورة الحرب والرهان وربحها العراق والعرب وأمريكا والغرب عموماً، ولو بثمن غالٍ وباهظ. وقام آية الله الخميني في أغسطس 1988 باتخاذ قرار بقبول وقف إطلاق النار غير المشروط، وهو القرار الذي وصفه بكونه يماثل وقع تجرع قدح السم الزعاف كرهاً"[68] .

توقفت الحرب بين العراق وإيران في 8 .8 .1988 وكانت بذور حرب قادمة على العراق قد زرعت في نفوس وعقول أطراف عدة في المنطقة وخارج المنطقة. هذه الأطراف باشرت الإعداد والتحضير لحرب جديدة قادمة على هذا القطر العربي. القطر الذي تجاوز عتبة من مستوى التقدم العلمي والتطور الاقتصادي والقدرة العسكرية التي حددتها الدول الغربية للدول العربية. الدول الغربية الاستعمارية والكيان الصهيوني كانت معنية في إيقاف عجلة التقدم والتطور في هذا القطر. إيران كانت على الدوام جاهزة في الانضمام إلى أي حلف يعقد ضد العراق ومناهض لمصالح العرب. الانتقام من الجيش والشعب العراقيين والقيادة في بغداد ظل في مقدمة أولويات الحكومات الإيرانية وتنتظر الفرص المناسبة. لم يدم طويلاً انتظار إيران الفرص التاريخية. بعد ثلاثة أعوام من انتهاء حرب الخليج الأولى كانت الحرب الثانية على الأبواب.

---

[66] نقلاً عن موقع البصرة في 25. 02. 08 .
[67] وكالات الأنباء العالمية.
[68] القدس العربي، لندن، 21. 3. 2006 .

حرب الخليج الثانية

(حرب الكويت)

ثاني هذه الهجمات هي الحرب الانغلو ـ سكسونية على العراق عام 1991 والتي عرفت بحرب الخليج الثانية أو حرب "تحرير الكويت".

لم يكن دخول القوات العراقية إلى الكويت إلا حلقة من حلقات تتابع الأحداث في التحضير للحرب القادمة على العراق. ربما كان دخول الجيش العراقي الكويت سهل على القوى الضالعة في التحضير للحرب المهمة. وربما قرب اجتياح الجيش العراقي لإمارة الكويت إعلان الحرب على العراق لعدة من الأشهر أو عدة أعوام، لكن الأكيد أن قوى إقليمية وقوى دولية قررت، بعد فترة وجيزة من توقف الحرب بين العراق وإيران في 8. 8. 1988، السعي لإشعال حرب جديدة على هذا القطر العربي، والعمل على تدمير قدراته البشرية والصناعية والعسكرية بصرف النظر عن الأسباب المباشرة التي تساق لتبرير شن تلك الحرب.

إن المحصلة العامة التي خرج العراق فيها من الحرب العراقية ـ الإيرانية منتصرا عسكرياً، وتأثيرات هذا الانتصار الإستراتيجية على الوطن العربي والمنطقة، كانت سبب من أسباب افتعال الأزمات مع العراق. وكانت نتيجة الحرب مع إيران من أهم المحركات لهذه القوى الإقليمية والدولية في التخطيط لحرب على العراق يضعف هذا البلد العربي الأساسي. القدرة التسليحية والتصنيعية التي وصل إليها العراق في تلك الأعوام كانت سبب أساسي آخر من جملة الأسباب التي فجرت الحرب الثانية على العراق.

استنتجت القوى الغربية الإمبريالية من خلال نتائج هذه الحرب العراقية ـ الإيرانية عدم قدرة قوى إقليمية مثل إيران، تركيا أو إسرائيل على إيقاف هذا التطور المتسارع في إمكانيات العراق أحد الأقطار العربية الأساسية. واصبح إيقاف هذه التجربة المنفلتة من القيود التي وضعتها الدول الغربية ملحة ولا تحتمل الانتظار. لما لهذه الظاهرة من تأثير مادي وسياسي وسيكولوجي كبير على المحيط العربي، ينذر باتساع حالات التمرد، وتهديد بقاء واستمرار المشاريع الإستراتيجية التي صنعتها وترعاها الدول الغربية في المنطقة، كمشاريع التجزئة ومشروع الكيان الصهيوني.

نظراً لعدم قدرة القوة الإقليمية الصهيونية في القيام بمهمة إيقاف "الحالة العراقية"، كما سميت في لغة الدوائر الغربية، فلا بد من حشد كل القوى الممكن حشدها لهذه المهمة التي عرفت في حرب الخليج الثانية. مرة أخرى يقدم الغرب مجتمعاً على تدمير حالة نهوض في المنطقة العربية بعد أن جرب ذلك ضد مصر "محمد علي" عام 1839 وضد مصر "عبد الناصر" عام 1956 في العدوان الثلاثي.

بعد أيام معدودة من توقف الحرب العراقية ـ الإيرانية في 8 .8 .1988 بدأت التحرشات الإسرائيلية والأمريكية بالعراق. وبدأت معها الحملة الإعلامية المنسقة ضد العراق تدور وتحضر الرأي العام العالمي لعمل عدواني مبيت ضد هذا القطر العربي. إن خروج العراق منتصراً في الحرب العراقية ـ الإيرانية الضروس، التي دامت الثمانية أعوام لم تروق لأطراف كثيرة في المنطقة وخارج المنطقة. فالترويج للخطر المزعوم على دول المنطقة وعلى دول العالم من برنامج التسليح العراقي، وكذلك اكتشاف حقوق الإنسان المهدرة في العراق، كان المقصود منه تبرير العدوان على العراق وعلى المنطقة. إن حادثة القبض على العميل البريطاني من أصل إيراني "فارازات بازوفت" الذي أدين بتهمة التجسس ونفذ فيه حكم الإعدام في بغداد في 9 مارس من عام 1990 استعملت كأداة للترويج لحقوق الإنسان المهانة هناك، وللتشهير في النظام السياسي في العراق على نطاق واسع في أجهزة الإعلام الغربية بشكل ملفت للانتباه وخارج عن المألوف.

كان أحد مهندسي الحرب على العراق، وأحد أركان مجموعة المحافظين الجدد، المسؤول الأمريكي "زلماي خليل زاده". خليل زادة هذا الأفغاني الأصل وفارسي الثقافة والهوى، قدم بعد توقف الحرب العراقية ـ الإيرانية دراسة موسعة عن العراق وإيران، وقدم هذه الدراسة إلى الرئيس الأمريكي جورج بوش الأب والتي جاء فيها: "إن ضعف إيران سيمثل مشكلة لسياسات الولايات المتحدة الأمريكية في المنطقة". وطالب في هذه الدراسة بتقوية إيران وإضعاف العراق. في مقاله له نشرت في صحيفة لوس انجيلوس تايمز عام 1989 تحت عنوان (مستقبل إيران كبيدق شطرنج أو كقوة للخليج) طرح زلماي خليل زاد، الذي أصبح سفير للولايات المتحدة الأمريكية لمدة عامين في العراق المحتل حتى شهر أذار عام 2007 ، الأسباب الرئيسية التي على الولايات المتحدة الأخذ بها لشن حرب على العراق والتي من بينها حسبما ذكره في تلك المقالة: "إن خروج العراق منتصراً على إيران سيجعله القوة التي لا تنازع في المنطقة، ولذا يجب عمل شئ ما لعدم حدوث ذلك. كما أشار خليل زاده أن إيران قد عانت بعد الحرب مع العراق من قصور استراتيجي وأنها بحاجة إلى درجة من الحماية"[69].

وقصة "المدفع العراقي العملاق"، التي روجت لها أجهزة الإعلام الغربية، بعد أن ادعت أجهزة الجمارك البريطانية في 29 مارس عام 1990 أنها صادرت أنابيب

[69] من مقال لمحمد العبيدي على موقع المحمرة الإلكتروني، 5. 6. 2005

متوجه إلى العراق تعتقد أنها ستستعمل لصناعة المدفع العملاق في العراق وقد تبين أن هذه القصة ملفقة وغير صحيحة وكانت مجرد حلقة في سلسة من الأكاذيب والاتهامات ضد العراق هدفها الرئيسي تبرير الحرب والعدوان عليه.

شارك قادة الكيان الصهيوني في جوقة التهديد والوعيد والتحريض على العراق في تلك الحقبة من الزمن. تصريحات شامير رئيس وزراء الكيان الصهيوني الشهيرة في 30 آذار (مارس) عام 1990 أمام كمرات التلفزيون ووكالات الأنباء العالمية ساهمت في توتير الأجواء في المنطقة. قال شامير: "إن إسرائيل تفكر في القيام بضربة عسكرية وقائية ضد مراكز منشئات التسليح العسكري العراقي مثل ما فعلته عام 1981 ضد المفاعل النووي العراقي في بغداد"[70] . هذه التصريحات الاستفزازية من قبل شامير استدعت الرئيس العراقي صدام حسين في 4 نيسان (أبريل) عام 1990 في القيام بالرد على تلك الاستفزازات وتلك التهديدات الخطيرة في التصريح الصحفي الذي جاء فيه: "سنعمل على حرق نصف إسرائيل في حال تعرضت أحد المدن العراقية للهجوم والدمار من قبل إسرائيل."[71] لقد سبقت، كما هو معروف، تصريحات شامير والرد العراقي على هذه التصريحات الاستفزازية أربعة أشهر كاملة تاريخ اجتياح الجيش العراقي للكويت.

اتخذ الكونغرس الأمريكي قرارا في فرض الحصار الاقتصادي على العراق في شهر آذار (مارس) من عام 1990 أي قبل خمسة اشهر من دخول القوات العراقية ارض الكويت. في هذا القرار الأمريكي أدرجت لائحة طويلة يمنع تصديرها إلى العراق وافتتحت سلسلة القرارات التي اتخذت ضد العراق في مجلس الأمن بفعل الاملاءات الأمريكية ـ البريطانية.

بعد شهر من اتخاذ الكونغرس الأمريكي قرارة بعثت الإدارة الأمريكية في شهر نيسان (أبريل) من عام 1990 بوفد مشترك من الكونغرس الأمريكي يمثل الجمهوريين والديمقراطيين بقيادة زعيم الجمهوريين في الكونغرس الأمريكي "بوب دول" إلى العراق لمقابلة المسؤولين العراقيين. وقد التقى الوفد الأمريكي رئيس الجمهورية العراقية صدام حسين. طلب الوفد الأمريكي من القيادة العراقية تنفيذ قائمة من المطالب تتجاوز الثلاثين. من هذه المطالب والشروط الأمريكية:

تخفيض عدد القوات المسلحة العراقية من المليون جندي إلى مأتي ألف جندي فقط.

إغلاق كل المعامل والمصانع العراقية التي لها علاقة في التصنيع العسكري.

التوقف عن التحريض عل إسرائيل وتهديد أمنها.

---

[70] وكالات الأنباء العربية والعالمية

[71] التلفزيون العراقي.

مقابل تنفيذ هذه الطلبات وغيرها تقيم الولايات المتحدة الأمريكية علاقات طيبة مع العراق، وتتعهد بإمداد القوات المسلحة العراقية بما تحتاجه من السلاح الدفاعي الكافي للدفاع عن الحدود العراقية. أي تدمير كل المنجزات التي حققها العراق خلال العقود الأخيرة ووضعه في نفس الوقت تحت الوصاية الأمريكية.

تلك هي بعض الأمثلة عن الأساليب والأجواء التي افتعلت ضد العراق بأشهر كثيرة قبل دخول الجيش العراقي الكويت واحتلاله. فالقوات المسلحة العراقية دخلت الكويت في يوم 1 آب (أغسطس) 1990 .

في 17 كانون الثاني (يناير) عام 1991 بدأت الولايات المتحدة الأمريكية وبريطانيا وفرنسا وحلفائهم الحرب على العراق والتي استمرت 42 يوماً. اخرج العراق من الكويت وقتل ما يقارب النصف مليون مواطن عراقي وضعفهم جرح. هذا العدد من القتلى والجرحى العراقيين يقارب ضعف مجموع عدد سكان إمارة الكويت "المحررة". بالإضافة إلى تدمير الجيش العراقي والبنية التحتية للعراق والمراكز الاقتصادية في هذا البلد العربي.

إيران كانت حاضرة في هذه الحرب من خلال علاقتها بالقوى المعارضة العراقية. الأحزاب الطائفية التي تقيم في طهران وعلى الأراضي الإيرانية كانت تخوض في منطقة الأهوار في شرق وجنوب العراق حرب استنزاف ضد الجيش العراقي، وضد مؤسسات الدولة العراقية. توقفت الحرب العراقية ـ الإيرانية النظامية، لكن الحرب الإيرانية على العراق لم تتوقف واستمرت بكل ضراوة وشدة تدمير عبر دعم مجموعات المعارضة العسكرية "الشيعية"، فيلق بدر ومليشيات حزب الدعوة، في الأهوار والمستنقعات. تلك المليشيات التي تشكل العناصر الفارسية فيها اكثر من 60 % من مجموع أفرادها وشكل 90 % من قياداتها.

حاضرة كانت إيران في هذه الحرب من خلال دعم الأحزاب الكردية المتمردة في الشمال العراقي، والتي تقيم القواعد العسكرية على الأراضي الإيرانية وتخوض حرب استنزاف، بمشاركة خبراء عسكريين إسرائيليين، ضد الجيش العراقي والدولة العراقية. هذه الحروب وهذه الجبهات التي فتحتها إيران على العراق أثناء الحرب العراقية ـ الإيرانية السابقة لم تتوقف يوماً واحداً أثناء الحرب الغربية على العراق في يناير 1991 بل زادت حدة حرب الأستنزاف هذه واتساعا وشراسةً.

حتى مليشيات الحزب الشيوعي العراقي، "قوات الأنصار"، "الملحدة"، حسب المصطلحات الإيرانية الدينية، تلقت الدعم المادي والعسكري من إيران أثناء الحرب الغربية على العراق في عام 1991 . طالما أن عناصر هذا الحزب تقاتل ضد الجيش العراقي والدولة العراقية البعثية "الكافرة" فهي تستحق الدعم الإيراني المادي

والمعنوي، وتصبح صفة الإلحاد شيئ ثانوي وغير ذو قيمة. هذا ما أعلن عنة واعترف به القيادي الشيوعي العراقي البارز، "عبد الرزاق الصافي" في قناة المستقلة في سلسلة أحاديث معه في شهر نيسان عام 2005 في برنامج (مذكرات وأوراق شخصية) وقال: "قدمت إيران الدعم لقوات الأنصار التي كانت تقاتل قوات الجيش العراقي في مناطق الشمال."

كشفت مؤخراً الأحداث أن إيران والولايات المتحدة الأمريكية كانت تقيم علاقة سرية ولقاءات دورية في مدينة جنيف السويسرية للتباحث وتنسيق الأدوار حول القضايا في المنطقة منذ الأشهر الأولى لإنتهاء حرب الخليج الأولى عام 1988 . ومن غير المعقول أن تحضر الولايات المتحدة لحرب في المنطقة وفي الجوار من إيران، وعلى العدو التاريخي لإيران، ولا تشرك الولايات المتحدة إيران في التحضير لهذه الحرب وفي تنفيذ فصولها.

مع بداية الحرب اخرج العراق عدد من طائراته المدنية والعسكرية إلى الدول المجاورة، ومنها إيران، التي هبطت في مطاراتها 125 طائرة عسكرية، وعشرون طائرة مدنية من مختلف الحجوم. صادرت إيران تلك الطائرات وامتنعت عن إعادة تلك الطائرات إلى العراق.

دور إيران في حرب التمرد على السلطة المركزية في الجنوب وفي الشمال العراقي

بعد إعلان اتفاق وقف إطلاق النار في 29 شباط (فبراير) بين القوات العراقية والقوات الأمريكية عام 1991 وأثناء تحرك الوحدات العسكرية العراقية المنهكة من حرب ضروس من الكويت إلى داخل الأراض العراقية، عبرت الحدود العراقية الإيرانية وحدات شبه عسكرية قادمة من الأراض الإيرانية إلى قرى ومدن الجنوب العراقي. قدرت تلك القوات بين عشرين وخمسة وعشرين ألف مقاتل إيراني. هذه القوات دخلت المدن العراقية تحت غطاء ومسميات لأحزاب ومنظمات عراقية موالية وتابعة لإيران. لقد حملت هذه القوات شارات وأعلام حزب الدعوة وفيلق بدر "الشيعية". لقد عاثت هذه القوات فسادا وتخريبا داخل المدن العراقية الجنوبية، وأخذت تمارس القتل وسفك الدماء على كل شخص ينتمي إلى حزب البعث الحاكم في العراق، وطالت بالاعتداء والقتل كل موظف في الدولة العراقية، كبر أو صغر مركزه، وكل فرد وقع تحت قبضتهم لا ينتمي إلى الطائفة الشيعية.

تلك المجازر التي ارتكبتها القوات القادمة من إيران شاع قبحها في البلاد والأمصار. القتل على الهوية الحزبية والانتماء الطائفي، قد مهدت التربة من جديد لأجواء من الحساسية والأحقاد الطائفية في العراق وفي المنطقة العربية. وهذا ما كانت القيادة الإيرانية في طهران تسعى إليه في العراق بشكل خاص، كأحد الثوابت الأساسية في السياسة الإيرانية مع دول الجوار، حتى تظل التجمعات الشيعية في هذه الدول في حالة عدم تصالح مع بقية مواطنيهم، ويبقوا عرضة لابتزاز إيران لهم مقابل التعهد بحمايتهم من أخطار مصطنعة وموهومة تهددهم من قبل بقية شركائهم في الوطن.

كانت القوات القادمة من إيران بمختلف تشكيلاتها العسكرية ومسمياتها تقاد من قبل ضباط وعسكريين إيرانيين. ففي تمرد القوى الطائفية في الجنوب شاركت وحدات من الجيش الإيراني في هذا التمرد، وتم اعتقال أعداد منهم على أيدي وحدات الجيش العراقي التي شاركت في القتال. لقد بقي حتى عام 1998 مجموعة تتكون من 185 ضابط مخابرات إيراني في السجون العراقية، حيث تم إعادتهم إلى إيران بموجب اتفاقية مع الحكومة الإيرانية مقابل اطلاق سراح عدد من الجنود العراقيين الأسرى في السجون الإيرانية. كشفت اعترافات ضباط أجهزة الأمن الإيرانية الذين تم إلقاء القبض عليهم في مناطق الجنوب العراقي بأنهم كلفوا من قبل الحكومة الإيرانية في إدارة

المعارك في تمرد القوى الطائفية في مناطق الجنوب العراقي في شهر شباط من عام 1991.

لقد توافق وتزامن تمرد القوى الطائفية الموالية لإيران في الجنوب العراقي تمردت القوى الانعزالية في الشمال العراقي. بتشجيع ودعم مباشر من إسرائيل والولايات المتحدة الأمريكية وإيران. أعلنت الأحزاب الكردية التمرد على السلطة المركزية. تكفلت كل من إيران وإسرائيل بإمداد مليشيات الأحزاب الكردية بالمال والسلاح والمستشارين.

منذ الأيام الأولى لهذين التمردين في الشمال والجنوب كان واضحاً من التخطيط والتنسيق بين الأطراف الغربية وإيران مع القوى المحلية في الشمال والجنوب من البلاد. في نداء مفتوح عبر أجهزة الإعلام الأمريكية، وتناقلته أجهزة الإعلام العالمية دعا الرئيس بوش الأب مرتين متتاليتين في نفس اليوم الشعب العراقي في 15. 2. 1991 بالثورة والتمرد على الجيش العراقي، وذكر بالاسم الشيعة والأكراد. لم تكن هذه التمردات تحركت بفعل مصلحة وطنية ونزولاً عند قرارات قوى المعارضة الوطنية في الداخل. كانت هذه التمردات تتمة لحرب لم تحقق أهدافها بعد في إيصال قوى إلى سدة الحكم ترتضى الارتباط بالقوى والدول الأجنبية المجاورة والبعيدة. بإيعاز من إيران وواشنطن بدأ التمرد في الجنوب العراقي. بدأ التمرد في الشمال بدعم من هاتين الدولتين مضافاً إليهم الكيان الصهيوني الذي كان يحتفظ بعلاقات قوية مع حزب الطلباني وحزب البرزاني منذ عقود.

السياسي والكاتب العراقي "عبد الجبار الكبيسي" الأمين العام "للتجمع الوطني العراقي" الذي اعتقلته قوات الاحتلال الأمريكي في 30. 8. 2004 وأطلقت سراحه في شهر كانون الثاني عام 2006 كتب في مجلة "نداء الوطن" شخص فيها الدور والنفوذ الإيراني في شمال العراق. "إيران جعلت من منطقة السليمانية منطقة نفوذ لها حيث إنتشرت في المحافظة مراكز ومقرات للمخابرات الإيرانية والحرس الثوري الإيراني ومسلحي المجلس الأعلى التابع لإيران"[72].

في اقل من أسبوعين ساهمت إيران، من خلال دعم التمرد في الجنوب والتمرد في الشمال، من قتل أكثر من 40 ألف مواطن عراقي في تلك القرى والمدن العراقية ومن أفراد الجيش العراقي. وساهمت في تخريب وتدمير أكثر من عشرة مدن عراقية ومائتي قرية جراء تلك الفوضى التي حلت بالبلد.

---

72 عبد الجبار الكبيسي نداء الوطن ، العدد التاسع الصادر في تموز / آب 2001 ، ص 2 ، نقلاً عن باقر الصراف من مقالة " عبد الجبار الكبيسي الباسل الواعي السياسي" في موقع عربستان على شبكة الإنتر نيت الدولية بتاريخ 7. 9. 2005 .

أقدمت إيران على الزج في بعض من قواتها إلى جانب القوى الطائفية والانعزالية الموالية لها حسب اتفاق مسبق مع الإدارة الأمريكية كما أصبح معروفاً الآن. هذا الاتفاق المبرم بين الحكومة الإيرانية من جهة وبين الحكومة الأمريكية والبريطانية من جهة أخرى لم يكن مفاجئً لكثير من المراقبين، كذلك عقد هذا الاتفاق حول القيام بتمرد في مدن العراق الجنوبية بين تلك الأطراف لم يكن ابن اللحظة وهبة شعبية غير مخطط لها. بل هو ثمرة مباحثات ومشاورات طويلة ربما طالت لعدة أشهر سبقت الحرب على العراق عام 1991. اللقاءات التي بدأت تعقد وتنتظم بين ممثلي الحكومة الإيرانية و ممثلي الإدارة الأمريكية منذ عام 1988 في المدينة السويسرية جنيف، كانت تبحث بالإضافة للعلاقات الثنائية بين البلدين أيضا أوضاع منطقة الخليج العربي، والأزمة بين العراق والولايات المتحدة الأمريكية والكويت، وتنسيق السياسات والأدوار بين الأطراف المتحاورة هناك. ورسمت خطط وتصورات في إدارة الحرب على العراق وطرحت البدائل من الخطط العسكرية والاقتصادية في سبيل تركيع هذا البلد العربي الأساسي.

لقد تفاجأت الأطراف المشاركة في التمرد في الجنوب والشمال بالقدرة العسكري التي لازالت الحكومة العراقية تمتلكها، عكس كل التوقعات التي تصورتها هذه الأطراف. لذلك عادت القوى الغربية، فرنسا وبريطانيا وأمريكا، مرة أخرى للتدخل لإنقاذ الأطراف العراقية المتمردة المهزومة من الانهيار التام. فرضت القوى الغربية حضر الطيران على المناطق الجنوبية والشمالية من العراق. هذان التمردان في الشمال والجنوب نشبا بدعم مباشر من قبل الحكومة الإيرانية وأجهزتها الأمنية والعسكرية المختلفة، وأعطت المبررات الإعلامية والسياسية للولايات المتحدة الأمريكية وبريطانيا لفرض حضر جوي على الطائرات العراقية فوق مناطق الشمال والجنوب العراقي وبالتالي انتقاص من سيادة العراق الوطنية.

ترك هذين التمردين الباب مفتوحاً على مصراعيه لتشديد الحصار والعقوبات المفروضة على هذا البلد العربي، بحجة حماية الأقليات الطائفية والعرقية من عنف النظام في بغداد. وفتحت أبواب واسعة للقوى الغربية الغازية في استباحة سماء العراق والبدء في تدمير منشآت هذا البلد العربي الصناعية والزراعية والعسكرية من خلال الضربات الجوية والصاروخية التي استمرت ثلاثة عشر عاماً متواصلة، أزهقت فيها الآلاف من الأرواح ودمرت مئات المنشآت تحت حجج حماية الأقليات.

حرب الاستنزاف
العسكرية و الاقتصادية

الحرب الرابعة تمثلت في الحرب الاقتصادية التي فرضت على العراق لمدة 13 عاماً متواصلة من خلال الحصار الاقتصادي الذي فرض علي العراق من عام 1990 حتى عام 2003. هذا الحصار الذي كلف العراق أفدح الخسائر المادية والبشرية. فحسب تقديرات منظمة الصحة العالية ومنظمة اليونسكو التابعة للأمم المتحدة في نيويورك قدرت خسائر العراق البشرية بأكثر من مليون وسبع مائة ألف طفل عراقي ماتوا بسبب نقص الغذاء والدواء الناتج عن هذا الحصار الظالم. إيران البلد الجار كان لها دور أساسي، ليس فقط في تطبيق هذا الحصار، بل أشرفت إيران بشكل مباشر على تنظيم شبكات تهريب المواد الأساسية من العراق إلى خارج العراق. نظمت أجهزة أمنية إيرانية مختصة عملية تهريب المواد إلى داخل إيران، وذلك عن طريق المنطقة الشمالية الخاضعة لسيطرة ميليشيات الحزب الديمقراطي الكردستاني التابعة لمسعود البرزاني وميليشيات الحزب الوطني الكردستاني التابعة لجلال الطلباني (البشمركة). فتحت الحكومة الإيرانية عدة مراكز محاذية للحدود العراقية في منطقة الشمال. أشرف على عمل هذه المراكز رجال وموظفين من جهاز خاص تابع لجهاز الأمن الإيراني (إطلاعات). وعلى الطرف الأخر من الحدود كانت هناك شبكات للتهريب منتشرة في كل المحافظات العراقية.

عناصر من الحزب الديمقراطي والوطني الكردستاني وحزب الدعوة ذو القيادات الفارسية في العراق تكفلت في مهمة تنظيم جمع المواد وإيصالها إلى المنطقة الشمالية من العراق ومن ثم إدخالها الأراض الإيرانية. اشترت إيران كل شيء قادم من العراق، حتى وان أصبح غير قابل للاستعمال عند وصوله الأراض الإيرانية. كل شيء قادم من العراق، حتى وأن كان زجاج محطم ليس له أي قيمة مادية، كان يقبل ويشترى في تلك المراكز. لقد تم تهريب المواد الكهربائية التي تصنع في العراق، والتي تم استيرادها من خارج العراق. وتم نقل قطع الغيار الضرورية للمصانع والمعامل العراقية ومحطات إنتاج وضخ النفط العراقي، التي سمحت اللجنة الدولية المختصة باستيرادها. وكميات كبيرة من الأدوية التي تم التعاقد عليها مع الشركات الأجنبية وجدت طريقها إلى الأراضي الإيرانية بعد فترة وجيزة من وصولها الأرض العراقية.

كثير من المواد والمستوردات العراقية وصلت إلى إيران وبقيت هناك ولم تصل يوماً إلى الأرض العراقية. الهدف الإيراني في تلك المرحلة كان ولازال هو إفراغ العراق من المواد التي يمتلكها هذا البلد وإخراج اكبر كمية من المواد الضرورية يمكن أن تساهم بإعادة بنائه بعد الدمار الكبير التي أحدثته الحروب الأخيرة. كل شئ ربما يساهم في استقرار العراق سياسيا واجتماعيا كان هدفاً مشروعاً لقوات التحالف وشبكة التهريب التي تشرف على سير أعمالها الأجهزة الأمنية الإيرانية.

تجويع شعب العراق لإجباره على الثورة والتمرد على حكومته كان من أولى أهداف إيران. هذا الهدف كان أيضاً من أهم أهداف الإدارة الأمريكية في سياستها منع وصول المواد الغذائية والمواد الطبية إلى شعب العراقي. لقد قامرت الحكومات "الإسلامية" في طهران، من خلال سياسة تجويع الشعب العراقي، في قتل عشرات الآلاف من المواطنين العراقيين المسلمين الشيعة التي تدعي الوقوف إلى جانبهم والاهتمام بمصالحهم. لقد تضررت كل المدن العراقية من جراء هذه السياسة الإيرانية ـ الأمريكية. وتوقفت آلاف المؤسسات العامة والمستشفيات وتعطلت أجزاء كبيرة من البنية التحتية الضرورية للشعب العراقي من خلال المشروع الإيراني التخريبي في تهريب المواد الغذائية والمواد الضرورية لحياة المواطن العراقي.

تقديرات الأخصائيين العرب و الأجانب تتحدث عن أن ربع المواد التي اشتراها العراق من خلال برنامج "النفط مقابل الغذاء"، الذي عقدته الحكومة العراقية مع الأمم المتحدة عام 1992 ، تم إعادة إخراجها وتهريبها مرة أخرى إلى إيران خلال فترة الحصار والمقاطعة الاقتصادية نفسها. تسببت إيران، فقط خلال فترة الحصار هذه بخسارة اقتصادية للعراق وصلت على أقل تقدير إلى 40 (أربعين) مليار دولار أمريكي.

هذه الحرب الاقتصادية التي تشنها إيران على العراق بهدف تدميره لم تتوقف بعد احتلال العراق وسقوط نظام حزب البعث العروبي، الذي ناصبته الحكومات الإيرانية العداء، بل استمرت هذه الحرب وبأشكال أكثر وحشية وإصرار على تدمير العراق كوطن وككيان سياسي واحد. قامت القوى العراقية المرتبطة بإيران والقوى العراقية التي قدمت مع قوات الإحتلال بتفكيك أغلب المصانع والمعامل العراقية ونقل أجزاء ومكونات تلك المصانع والمعامل العراقية إلى إيران. وقد أشرف على عمليات تفكيك تلك المصانع والمعامل، وبمعرفة وتواطؤ قوات الاحتلال الأمريكي والبريطاني، فنيون ومهندسون إيرانيون. استطاع الإيرانيون في العام الأول للاحتلال من تفكيك ونقل أكثر من ثلاثة آلاف مصنع ومعمل عراقي إلى داخل الأراضي الإيرانية. بموافقة القوى الغربية الغازية ساهمت إيران مساهمة فعالة في توقيف عجلة الإنتاج في الدولة العراقية بشكل شبه كامل. صحيح أن الإدارة الأمريكية هي المسؤولة عن مجمل الخراب الذي

حل بالعراق وبشعبه لكن وتيرة التخريب المنظم ما كان لها أن تتم في هذه السرعة لولا المشاركة الإيرانية الممنهجة والمبيتة من أوقات سبقت الحرب وسبقت زمن الاحتلال.

لإيران أيضاً باع طويل في سرقة ونهب أسلحة وأجهزة الجيش العراقي الذي قام بحله الحاكم الأمريكي بول بريمير. لقد انتقلت آلاف الدبابات والعربات العسكرية العراقية، والتي زادت تكلفتها على 100 مليار $ ، إلى إيران وبيعت على أساس أنها بضاعة تالفة وخردة غير صالحة للاستعمال.

غزت البضائع الإيرانية الصناعية والزراعية الأسواق العراقية وأصبحت هذه البضائع في أسواق مناطق جنوب العراق وبغداد وشمال العراق الطاغية دون منافس. حتى الزراعة في بلد ممن علم شعوب العالم فن الزراعة تقهقرت ودخلت في عالم مجهول المصير. الشراكة الأمريكية ـ الإيرانية في احتلال العراق خلق الظروف المأساوية لهذا المصير الذي يعيشه الحقل الزراعي في الدولة العراقية.

الحرب الخامسة التي شاركت إيران في شنها على العراق كانت حرب عام 2003 وما تبعها من احتلال لهذا البلد العربي العريق الذي يحتل مكانة خاصة في نفوس وعقول الجماهير العربية.

الخلفيات القومية
في الحروب على العراق قبل احتلاله

يعيش في أقطار الوطن العربي الإثني والعشرين ما يقارب من 350 مليون مواطن. الأغلبية الساحقة والتي تصل إلى 90 % من مجموع عدد السكان هم من المواطنين العرب وال10 % الباقية تتوزع على أبناء الأقليات العرقية والإثنية الأخرى. انتماءات الموطنين الفكرية والسياسية في المنطقة العربية تتوزع على عدة تيارات سياسية وأيديولوجية. أهم تلك التيارات هو التيار القومي والتيار الديني، والتيار اليساري، وهو الأضعف من بين تلك التيارات الثلاثة.

في التيار القومي تتعايش أو تتصارع في المنطقة العربية ثلاثة أنواع أو ثلاثة اتجاهات. هذه الأشكال نشأت وتبلورت خلال المائة عام الأخيرة.

الاتجاه القومي الأول هو التيار القومي العربي وهو الأكبر ولأشمل بين الاتجاهات الثلاثة. التيار القومي العربي حدد هويته الثقافية والهوية التاريخية للمنطقة، وإلى حد ما، الهوية العرقية بالهوية العربية. وتتلخص أهداف هذا الاتجاه السياسية في التحرر من الاستعمار والهيمنة الأجنبية وإقامة دولة الوحدة العربية الشاملة التي تضم كل الأقطار العربية. أنصار هذا التيار يتواجدون في كل الطبقات الاجتماعية وفي الريف والمدينة، وساحات انتشار هذا التيار تعم مساحة الوطن العربي من المحيط إلى الخليج.

لقد وصل أنصار التيار القومي العربي عبر عدد من الأحزاب القومية إلى سدة الحكم، وقادوا بمفردهم أو شاركوا في السلطة في اغلب الدول العربية. أهم الأحزاب والحركات السياسية العربية التي تحسب على التيار القومي العربي هي الحركة الناصرية بكل أحزابها وتفرعاتها، وحزب البعث العربي الاشتراكي في كل فروعه في أقطار الوطن العربي بجناحيه السوري والعراقي، وحركة القوميين العرب التي خرج وتفرع منها عدد من الأحزاب والمنظمات السياسية والعسكرية في الجزيرة العربية وبلاد الشام والعراق وليبيا، وجبهة التحرير الوطني الجزائرية، والحزب الاشتراكي في المغرب وأغلب فصائل منظمة التحرير الفلسطينية، بالإضافة إلى عدد آخر من الأحزاب والمنظمات الصغيرة ذات التوجه القومي العربي.

وفي الساحة العربي تيار قومي ثاني. يعرف هذا التيار القومي بالتيار العربي الإقليمي، أو التيار العروبي القطري. هذا التيار يقر بانتمائه وانتماء الشعوب في أقطار جامعة الدول العربية إلى الأمة العربية، ويعتقد بحقيقة الروابط التي تجمع شعوب الأمة العربية، لكن يتمسك أصحاب التوجه الإقليمي في المحافظة على استمرارية الدولة

القطرية والمحافظة على الوضع القائم وعدم المساس بحدود الدولة القطرية. هذا التيار لا يسعى إلى بناء الكيان السياسي العربي الجامع، ويكتفي في تعزيز العمل المشترك العربي القائم على أسس المصلحة القطرية، والتي تسمى في كثير من الأحيان المصلحة الوطنية. تلتقي مصالح هذا التيار إلى حد كبير، بوعي أو بغير وعي، بقصد أو بمحض الصدفة، مع أهداف كل القوى الخارجية التي لا تريد لشعوب وأقطار هذه الأمة أن تتضامن وتتوحد. أنصار هذا التيار ينتشرون بالدرجة الأولى بين الفئات الاجتماعية التي ارتبطت مصالحها الاقتصادية والسياسية في بقاء الدولة القطرية، وكذلك بين أبناء الأقليات الدينية والطائفية العربية التي يعتقد جزء من مثقفيها في أن توحد الأقطار العربية سيضعف الدور السياسي والاقتصادي لأبناء هذه الأقلية أو تلك، وستتضاءل النسبة العددية لتواجد هذه الأقليات مقارنة بالأكثرية الساحقة من المسلمين العرب السنة الذين يشكلون بالصدفة الأغلبية الساحقة من أبناء الوطن العربي.

القومية الإنعزالية في الوطن العربي تشكل النوع الثالث من أنواع التوجهات القومية المتواجدة في الوطن العربي. هذا التيار يحارب بشدة التضامن العربي، ويحارب كل تقارب عربي ـ عربي، ويعمل على إفشال وتعطيل كل محاولة من محاولات الوحدة العربية. هذا التيار السياسي المنتشر بين أبناء الأقليات العرقية غير العربية ، من الأكراد في شمال العراق والأفارقة في جنوب السودان، وبأعداد قليلة بين أبنا بعض الطوائف الدينية التي تشترك الدولة الإيرانية في التأثير على بعض أوساطها، إلى جانب بعض المؤسسات الدينية الغربية، وبعض دوائر الحكم في الغرب يبدي أطرافه وعناصرة عداء سافر للتيارات القومية العربية وعداء سافر لفكرة الأمة العربية. اظهرت فصائل هذا التيار، في اكثر من مرة، عن إستعدادية عالية في مشاركة قوى خارجية عملت على تدمير الدولة القطرية التي تعيش فيها هذه الأقليات. وأبدت هذه الأطراف الانعزالية قابلية عالية لنسج تحالفات سياسية مع أطراف خارجية تقف بشكل صريح ضد مصالح الوطن التي تنتمي إليه هذه القوى. ينظر إلى عناصر هذا التيار عند أغلب مواطني الوطن العربي بعين الشك في الولاء للوطن والغدر والخيانة.

واجه العرب سلسلة من الحروب الخارجية والحروب الأهلية خلال نصف القرن الأخير. في كل حرب من تلك الحروب كان العامل القومي هو أحد أسباب إثارة تلك الحروب على الشعوب والدول العربية. فاختيار فلسطين لزرع كيان دخيل على المنطقة العربية لم يكن نابعا من حباً و شفقة على اليهود، وتكفيراً عن خطايا الحكومات الأوروبية التي اقترفتها ضد الأقليات اليهودية في بلدان القارة الأوروبية، بل مشروعاً غربياً تعود جذوره إلى أيام الحروب الإفرنجية (الحروب الصليبية) لشق الوطن العربي وفصل مشرقة عن مغربه لمنع إمكانية تواصله الجغرافي والإنساني والاقتصادي. لقد سعى نابليون بونابرت عندما حاصر عكا عام 1798 م إلى توطين اليهود هناك. وسعت

بريطانيا ايضاً من خلال تثبيت نص في معاهدة لندن عام 1842 م إلى استيطان فلسطين من قبل مهاجرين غربيين لفصل الجزء الأسيوي العربي عن الجزء الإفريقي العربي. المشروع الصهيوني في قلب الوطن العربي كان ولا زال المشروع البديل لتوحيد الأمة العربية، وأداة من أدوات إطالة أمد سنين التجزئة والتمزق العربي، وهو رأس الحربة في الهجمة الغربية المستمرة على المنطقة العربية.

العدوان الثلاثي على مصر عام 1956 م كان مشروعاً حربياً لتدمير مشروع التضامن العربي الصاعد الذي اختطته الثورة القومية المصرية بقيادة عبد الناصر من خلال النظرية والممارسة في الوقوف إلى جانب ثورة الجزائر في حرب الاستقلال عن الاستعمار الفرنسي، والوقوف إلى جانب سوريا أمام التهديدات الغربية المتكررة، وتبني شعار الوحدة العربية، والعمل الجاد في مشروع تحرير فلسطين.

حرب حزيران في عام 1967 التي شنتها إسرائيل على الدول العربية الثلاثة مصر وسوريا والأردن كان من أهم أهدافها هو ضرب التيار القومي العربي المتصاعد النمو، وتدمير مشروع التحرير الذي تبناه هذا التيار العروبي وحقق نتائج كبيرة على هذا الطريق، والتوسع الجغرافي في اكثر من قطر عربي.

والحروب الأهلية التي دارت على الأرض العربية في السودان والعراق ولبنان كانت تدور بين التيارات السياسية ذات التوجهات العروبية وبين التيارات السياسية ذات التوجهات الإقليمية والانعزالية الشعوبية والطائفية. الاصطفاف كان دائماً في هذه الحروب بين من هو مع عروبة البلد وبين من يطمح ويعمل على خلق هويات وتعاريف وانتماءات بديلة لعروبة الوطن والشعب. القوى الخارجية من دول الجوار، والقوى الغربية كانت على الدوام حاضرة في دعم الأطراف المعادية للهوية العربية وللثقافة العربية، ومعادية لوحدة الشعب والوطن. قواعد اللعبة السياسية اصطفاف القوى في المنطقة لم تتغير، ولازالت سارية المفعول في الأزمنة الحاضرة وتظهر بوضوح في الأزمات الحادة.

الحروب التي شنت على العراق خلال النصف قرن الأخير لم تشذ عن هذه القاعدة وعن هذه الحقيقة التاريخية. هناك عده اوجه في تناول خلفيات الحرب على العراق، بالإضافة إلى عامل السيطرة على مصادر الطاقة، وإلى الموقع الإستراتيجي الهام للعراق، وعامل البعد الثقافي والتاريخي لأرض الرافدين، وكذلك عامل الصراع مع الكيان الصهيوني ومشاركة العراق الفعالة في هذا الصراع أيضاً البعد والعمق القومي للعراق. كان ولازال العامل القومي والمصالح القومية والصراع القومي، بأطرافه الداخلية وأطرافه الخارجية، يحرك القوى في شن الحروب على العراق.

الحقائق تقول أن العراق، إلى جانب مصر وسوريا والمملكة العربية السعودية، هو أحد الدول العربية الأساسية في التأثير على صنع الأحداث في المنطقة، وهو أحد الركائز الأساسية التي تتكون منها الأمة العربية. وفي العراق تنتشر الأحزاب والمنظمات القومية العربية منذ قرون. وشكلت بغداد في ضمير وذهنية المواطن العربي قلعة من قلاع الوطن العربي، وظلت على الدوام حاضرة في الوعي التاريخي للمواطن العرب أينما وجد وفي كل العصور. فبغداد كانت عاصمة دولة العرب العباسية لأكثر من خمسة قرون متتالية ولازالت تمثل عنصراً هاماً من الصيرورة العربية.

نشطت التيارات والقوى السياسية القطرية في المنطقة العربية بعد رحيل الرئيس جمال عبد الناصر، كقائد لمرحلة نهوض قومي عربي عارم سميت تلك الحقبة باسمه (المرحلة الناصرية). إن قدوم طاقم جديد على رأس السلطة في اكبر دولة عربية، بقيادة الرئيس انور السادات، تميل إلى التقوقع القطري وذات توجهات قطرية، وتعج أجهزتها الإعلامية والسياسية والاقتصادية والعسكرية برموز الردة والصورة المضادة. تلك الرموز التي عمل السادات على إحضارها وزرعها في جسم المؤسسات الحكومية والمؤسسات الإعلامية المصرية كبديل للقوى السياسية القومية الآفاق والمنفتحة على بقية أقطار الوطن العربي والتي كانت سائدة في عصر جمال عبد الناصر. أسست هذه العناصر والرموز الحاقدة على الناصرية وقياداتها لمرحلة طغيان حالة الانطواء الإقليمي في مصر. وشجعت هذه الردة الإنعزالية لنظام السادات القوى والرموز الانعزالية في المنتشرة في كثير من دوائر الحكم في أقطار الوطن العربي، والتي كانت تنتظر الفرص المناسبة، على الإمعان في سلوك الأنانية والقطرية الضيقة. خلقت هذه الميول وتلك الأجواء المناخات المناسبة لكل الأهواء والعصبيات القبلية والجهوية والطائفية المتخلفة للبروز واحتلال مكانة الصدارة في دوائر صنع القرار في الأقطار العربية المختلفة.

التحول والردة في توجه القيادة المصرية الجديدة شجع القوى الإقليمية الانعزالية في الأقطار العربية الأخرى بالكشف عن أهدافهم الضيقة التي كانت تخفيها وأصبحت تجهر في توجهاتها الإقليمية، وأدارت الظهر للقضايا القومية المشتركة. لم يك صعود القوى الإقليمية في الأقطار العربية معزولاً عن تأثيرات القوى الخارجية، التي كانت تبذل الجهود الجبارة لمحاربة التيار القومي العربي، والعمل على إسقاط هذا التيار ومنعه من تحقيق أهدافه الكبيرة في لملمة أشلاء الأمة المبعثرة. عزل كل قطر عربي عن بقية الأقطار العربية الأخرى كان من أهم الأهداف الغربية والصهيونية والإيرانية. عزل مصر وإبعادها عن محيطها العربي كان ولا زال من أولويات عمل تلك القوى في المنطقة. تلك كانت هي النكسة الحقيقية للأمة العربية.

القوى والرموز السياسية والثقافية التي تضررت، بحق أو بغير حق من قبل ممارسات الأجهزة الحكومية في المرحلة الناصرية ترجمت حقدها الشخصي بحرب شعواء على التيار القومي العربي، وعلى مشروع القومية العربية المتمثل بالتضامن العربي والتنسيق العربي المشترك في حدوده الدنيا، وجمدت إلى حد كبير نشاط المؤسسات القومية كالجامعة العربية، وميثاق الدفاع العربي المشترك والأمن القومي العربي المشترك.

لقد أطلق تعريف "مرحلة النهوض العربي الشامل" على سنين الخمسينات والستينات من القرن العشرين، والتي تحققت في هذه المرحلة نتائج عظيمة للأمة العربية لا تقييم بثمن. في هذه الحقبة تم تحرير أغلب الأقطار العربية وأغلب الشعوب العربية من سيطرة الاستعمار الأجنبي. وفي تلك الحقبة الزمنية القصيرة تعاظم مستوى نشر العلم والمعرفة والتحرر الاجتماعي في المجتمعات العربية. وفي مرحلة النهوض القومي بنيت المشاريع الإقتصادية العملاقة في اكثر من قطر عربي، كالسد العالي وبناء مصانع الحديد والصلب في مصر وقطعت مراحل كبيرة في البناء الاقتصادي. وفي مرحلة النهوض القومية، والتي تعرف أيضاً بالمرحلة الناصرية، توسعت الخدمات الصحية العامة ووصلت إلى اغلب التجمعات السكنية في البلدان العربية. كذلك حسم موضوع الهوية القومية للوطن العربي. وتمت صياغة الأهداف القومية المشتركة في الحرية والتحرر والوحدة للأمة. وفي هذه المرحلة الخالدة من تاريخ الأمة العربية بنيت استراتيجية كاملة لأطراف الأمة وللقوى السياسية الفعالة على المستوى العالمي حددت بها قوى الصديق وقوى العدو. كان في تلك الحقبة من الزمن للأمة العربية مشروع استراتيجي تحرري ونهضوي تشمل عناصره كل مستلزمات الحياة الضرورية للتقدم والنهوض.

على الرغم من الفشل في إتمام مشاريع النهضة الاقتصادية، وعدم القدرة على تحرير بقية الأراض العربية المحتلة، فلسطين، واسكندرون، والأحواز وسبته ومليلة وأغادين، ظلت هذه الحقبة الزمنية من تاريخ وحاضر العرب من أغنى الحقب التي نقلت الأمة العربية من حالة الاستعمار المباشر وحالة التخلف والفقر المتقع والضياع الحضاري، إلى أمة تساهم في الأحداث الدولية بشكل فعال. اصبح صوت ناصر وصوت مصر التي تقود الأمة حاضراً في المحافل الدولية، واصبح من الصعب تجاوز الموقف العربي في الأزمات الدولية القائمة. وإلى هذه الحقبة من التاريخ العربي يعود الفضل فيها إلى تبلور الهوية الثقافية والسياسية لأبناء الأمة العربية، وترسيخها في وجدان أبناء الأمة على امتداد ساحة الوطن العربي.

في المقابل، أطلق على أعوام السبعينات والثمانينات والتسعينات من نفس القرن تعريف "مرحلة النزعة القطرية"، وإشاعة الأحقاد القطرية وانفراط عقد التضامن العربي،

ومرحلة غياب المشروع العربي الإستراتيجي الذي كان قائماً في المرحلة الناصرية. التيارات السياسية القطرية العربية التي في سدة الحكم، وتلك التي في صفوف المعارضة، وجدت فرصتها الذهبية في خروج مصر بثقلها الكبير من الصف القومي إلى الصف الذي يبشر بالإقليمية البغيضة، والاكتفاء في رسم مصالح الشعوب العربية عند الحدود التي وضعها ويريدها الأجنبي. لقد غير الانقلاب السياسي الذي قاده الرئيس أنور السادات في مصر من ميازين القوى في المنطقة وخلط الأوراق من جديد لصالح القوى المعادية للأمة العربية.

بهذا التغيير وهذا الانقلاب السياسي تم صياغة منظومة الأعداء وومنظومة الأصدقاء من جديد. وتم تعريف المصالح الوطنية والقومية على أسس جديدة عندما قلبت المعادلة وتساوت مصلحة الحكومة مع مصلحة القطر، التي وضعت فوق كل المصالح. نرجسية الحاكم والمسؤول في دوائر صنع القرار في أغلب الدول العربية فهم وعرف مكامن الخطر في هذه المرحلة الجديدة بجهتين رئيسيتين:

الأولى القوى الوطنية المعارضة والحركة الجماهيرية في القطر الذي يحكمه المسؤول

والخطر الثانية عرفه المسؤول العربي بالحكومات العربية الأخرى المجاورة والبعيدة.

للخطر الأول بنيت الأجهزة الأمنية والأجهزة القمعية والمعتقلات والسجون، التي استنزفت، بالإضافة إلى الطاقات المادية للبلد، الطاقات البشرية والعلمية والإبداعية عند المواطنين، واستعدت القطاعات الواسعة من الجماهير. في مرحلة القطرية المستمرة حتى وقتنا الحاضر، ظلت لعقود طويلة مشاريع بناء الأجهزة الأمنية القادرة على قمع الحركة الوطنية وإرهاب المواطنين في البلد العربي هي الهم الدائم لأغلب الحكومات العربية. لقد أبدعت هذه الحكومات القطرية في هذا المجال ابداعاً مشهوداً له على مستوى العالم.

لمواجهة الخطر الثاني افتعلت الحكومات القطرية سلسلة المشاكل الحدودية بين الأقطار العربية، وحيكت المؤامرات والمؤامرات المضادة بين الحكومات العربية المختلفة. وجندت لهذه المهمات فصائل وعناصر قوى المعارضة العربية في كل قطر من أقطارها، حتى استهلكت تلك القوى المعارضة وفقدت مصداقيتها وجماهيرها. أصبحت الأحزاب السياسية العربية التي تقف في موقع المعارضة للحاكم، من نوع الحاكم نفسه، وتقمصت صفاته في الفساد والابتعاد عن الجماهير، والتقوقع داخل أفكار باهتة غير قابلة للحياة أو التجديد. تعززت الإقليمية والفئوية عند الطبقات الحاكمة ووصل إلى الفئات والعناصر التي وصلت إلى السلطة، باسم الأهداف القومية والوحدوية كما أصبح معروف، وأصبحت هذه القوى والفئات من اكثر القوى قطرية وطائفية وعشائرية وشراسة في معاداة الأقطار العربية الأخرى، وبث روح الشقاق والتمزق في الساحة

العربية، متخفية خلف شعارات من المزايدة والمغالاة في التقدمية والتضامن القومي ومعاداة أعداء الأمة.

مع نهاية أعوام السبعينات كانت التيارات السياسية الإقليمية في أقطار الوطن العربي هي السائدة على المسرح السياسي العربي. وتوجت هذه الأعوام بعد توقيع اتفاقية كامب ـ ديفيد في عام 1979 مع الكيان الصهيوني بمباركة غربية بإبعاد مصر عن الساحة العربية وعزلها. لقد وقع النظام المصري في جريمة وخطأ استراتيجي عندما وقع على اتفاقية كامب ديفيد، لكن الحكام العرب الآخرون اقترفوا جريمة لا تغتفر عندما أقدموا على تجميد عضوية مصر في جامعة الدول العربية، والعمل على عزل، الدولة القائد والأكبر والأهم، عن محيطها الطبيعي العربي في مؤتمر القمة الذي عقد في بغداد عام 1979 .

الإقليميون العرب الذين كانوا يتربص كل منهم أخطاء وهفوات الآخر، لتصفية حساباتهم الخاصة والضيقة والتنافسية، غفلوا أو تغافلوا عن مصالح الشعب والأمة، والعمل على حماية الأمن القومي المهدد من اكثر من طرف في المنطقة ومن خارج المنطقة. آلاف السنين أكدت حقيقة غير قابلة للرد ملخصها أن "العمق الإستراتيجي لمصر هو المحيط العربي ولا قدرة للعرب بعيداً عن مصر". وقع الحكام العرب بالمحذور والممنوع وحاولوا وعملوا بجد ونشاط على عزل مصر عن الوطن العربي . منهم من كان يرى فرصة ذهبية بغياب مصر للظهور والبروز على المسرح السياسي، والبعض الأخر وجد بعزل مصر التملص من الواجبات والهموم القومية المفروضة عليه القيام بها لمصلحة الأمة. والبعض الآخر من جمهور الإقليميين وجد في غياب مصر عن دائرة الفعل العربي تحقيق لهدف أيديولوجي كان يسعى لتحقيقه منذ زمن بعيد.

مهما تكن الدوافع والأسباب لقد حلت لعنة الانعزال والإقليمية على الوطن العربي، ودفع المواطن العربي والشعوب والدول العربية الأثمان الباهظة لهذه التطورات المأساوية التي شارك الحكام العرب في خلقها وتعميمها، إلى جانب القوى الصهيونية، والقوى الغربية العدوانية، وإيران، المتربصة لاقتناص الفرص لتحقيق أحلاماً تاريخية مكبوتة.

بعد تفكك عقد التضامن العربي تجرأت إيران على تحدي العرب واستفزاز العراق والتهديد باحتلاله. وخاضت من أجل ذلك حرباً ضروس دامت ثمانية أعوام متتالية. واجتاحت إسرائيل لبنان واحتلت بيروت عام 1982 ودخلت القوات الأمريكية والإيطالية والفرنسية إلى بيروت "لحفظ السلام". وقصفت بغداد وطرابلس الغرب. وقصفت تونس. وتفكك الصومال.

مثلما كان تفجر الصراع والحرب بين إيران والعراق في عام 1980 قومي الطابع بالدرجة الأولى كانت الحرب التالية على هذا البلد العربي لها أيضاً أبعاد قومية. طبيعة وانتماءات القوى السياسية والدول التي كانت متحمسة لشن الحروب على العراق تفضح جانب من أسباب تلك الحروب. هذا لا يعني أن القيادات السياسية في هذا البلد العربي تصرفت دائماً بحكمة في الرد على المؤامرات والأفخاخ التي نصبت لافتعال تلك الحروب.

بعد انتهاء حرب الخليج الأولى بين العراق وإيران عام 1988 وخروج العراق منتصراً من هذه الحرب نشط العراق في العمل على المستوى القومي العربي. فمد يد العون لعدد من الدول العربية الضعيفة مثل موريتانيا والأردن وتونس والسودان وفلسطين. وساهم في صد الأخطار الحقيقية التي كانت تهدد بعض الأقطار العربية، كوقف التقدم العسكري الذي أحرزته قوات المتمردين في جنوب السودان على الخرطوم، بمساعدة الدول الغربية وإسرائيل، والمساهمة الفعالة في صد هجمات جيش السنغال على جنوب موريتانيا.

المساهمة العراقية الفعالة في تفعيل الجامعة العربية والتي عقدت في اقل من عام مؤتمرين للقمة، واحد في عمان والأخر في بغداد.

في تلك الأعوام القليلة بدا وان الوطن العربي يتجه إلى مرحلة جديدة في العمل العربي المشترك تبشر في مستقبل واعد ويساهم العراق في هذه الفترة من الزمن في دفع سياسة التقارب والتضامن العربي إلى الأمام. ربما اكتشف الحكام في بغداد بالحس والتجربة العملية أن سياسة التضامن العربي تظل أفضل من التفكك ووقوف بعض الدول العربية والجيوش العربية إلى جانب العراق في حربه الضروس ضد إيران بقدراتها البشرية والمادية والجغرافية التي تساوي ثلاثة أضعاف قدرات العراق، حمت العراق من خطر الاجتياح الإيراني وحققت له الانتصار العسكري.

لقد أعلن عام 1989 عن تشكيل مجلس التعاون العربي الذي يضم مصر والأردن واليمن والعراق. بعد عدة اشهر من هذا الإعلان أعلن عن تشكيل اتحاد المغرب العربي الذي يضم ليبيا وتونس والجزائر والمغرب وموريتانيا.

وكان منذ عام 1981 قد تشكل مجلس التعاون لدول الخليج العربي الذي ضم بالإضافة للمملكة العربية السعودية بقية دول الخليج العربي على الساحل الغربي للخليج، الكويت وقطر والبحرين والإمارات المتحدة وسلطنة عمان.

ساهم العراق في تقريب وجهات النظر بين اليمنيين في الجنوب والشمال حتى تم التوصل إلى توقيع ميثاق الوحدة بين شطري اليمن وإعلان هذه الوحدة في مؤتمر القمة في شهر أيار (مايو) عام 1990 في بغداد.

ولم يبقى خارج هذه التجمعات المناطقية إلا السودان ولبنان والصومال وجيبوتي وسوريا. وكانت تجري مفاوضات جادة لحل الخلافات والتوترات بين الدول العربية وخاصة لحل الخلافات المزمنة والمتشعبة بين سوريا والعراق. مع نهاية عام 1990 تجمع ما يقارب من 80% من سكان الوطن العربي متكتلين في ثلاثة تجمعات إقليمية في إطار جامعة الدول العربية، هي:

1. مجلس التعاون الخليجي
2. مجلس التعاون العربي
3. اتحاد المغرب العربي

تسارع التطورات التي حدثت على الساحة العربية في تلك الفترة الزمنية القصيرة، أوحى بان المنطقة العربية مقبلة على تعزيز التعاون في ما بين أقطارها، وتمهد إلى التوصل إلى تطبيق شكل من أشكال الوحدة العربية أو الاتحاد. وصياغة نظام عربي جديد مبني على أسس جديدة غير تلك الأسس الإقليمية والفئوية التي سادت طوال العقدين الأخيرين.

عززت من مصداقية هذا الاعتقاد دراسة مشروع "الاتحاد العربي" المقدم من ليبيا في مؤتمر القمة العربي المنعقد في بغداد بتاريخ 28. 5. 1990، والذي تسرب عنه موافقة الزعماء العرب المبدئية في إتمام مشروع الاتحاد العربي مع نهاية عام 1996. هذه الأجواء المفعمة بالتفاؤل عند المواطن والمثقف والسياسي العربي كانت تقابل عند بعض القوى والأطراف المحلية والإقليمية والدولية بخوف وحذر ومزيد من الاستعداد لإفشال هذه التطورات المحتملة على الساحة العربية. وكذلك الاستعداد والتحضير لإيقاف مسيرة التضامن والتوحد العربية.

وجدت الأطراف المعادية لهذه التطورات في المنطقة العربية، الولايات المتحدة الأمريكية، والدول الغربية، وإسرائيل، والحكومة الإيرانية، في اجتياح الكويت من قبل القوات العراقية، فرصتها الثمينة في وقف التطورات الجديدة على الساحة العربية، وسارعت إلى تجميع القوى وإعلان الحرب على العراق عام 1991.

من النتائج الكبيرة في الحرب على العراق عام 1991 هو توقف العمل العربي المشترك، وخلق أجواء توتر وعدم الثقة بين الحكومات العربية، وانتشار البلبلة والاتهامات المتبادلة. انشق العالم العربي من جديد ولم يستطع العرب اللقاء مرة أخرى إلا بعد مضي خمسة أعوام من الفوضى والضياع في الساحة العربية.

بعد اجتماع ثلاثة دول عربية، هي مصر وسوريا والسعودية، في مدينة الإسكندرية في مصر عام 1996 اتفقت الأطراف الثلاثة على إعادة تنشيط العمل العربي المشترك.

خلال الأربعة أعوام التالية لاجتماع الإسكندرية عقدت عدة لقاءات بين الأطراف العربية أعيدت من خلالها الحياة من جديد للعمل العربي المشترك، ونشطت مؤسسات الجامعة العربية في تنسيق هذا العمل بعد ما أرادت الولايات المتحدة الأمريكية وإسرائيل إيقافها ووأدها، من خلال طرح مشروع "المؤتمر الاقتصادي للشرق الأوسط وشمال إفريقيا" (MENA) كبديل لمؤسسة الجامعة العربية. شرعت الولايات المتحدة مباشرة بعد انتهاء الحرب على العراق بالضغط على الدول العربية للقبول بهذا المشروع المشبوه، والبديل للهوية العربية، الذي تجسده جامعة الدول العربية. كان الهدف طمس الهوية العربية، من خلال إطلاق اسماء لا توحي بشيء، وتشكيل أطر وهياكل سياسية ممسوخة لتحل محل الجامعة العربية "بيت العرب" ورمز الهوية العربية. لقد كان في تفعيل مؤتمرات القمة العربية وبقية مؤسسات جامعة الدول العربية هو بداية نهوض عربي، وفي نفس الوقت دحر ووأد للمشاريع البديلة للهوية العربية المتداولة في المنطقة والعالم في حينه.

مع حلول عام 2000 كانت المنطقة العربية قد أشرفت على بداية مرحلة جديدة مستفيدة من آثار التمزق التي أصابت الوطن العربي. وحصلت عدة من المصالحات العربية ـ العربية، وارتفع حجم التبادل التجاري بين الدول العربية من 3 % عام 1996 إلى 13% عام 2001 وتحسنت العلاقات المتوترة بين سوريا والعراق، وانفتحت الأسواق العراقية أمام المنتجات العربية وطويت صفحات كثيرة من النزاعات العربية ـ العربية. هذا التطور الإيجابي بين الدول العربية رافقة حنق وحقد من جديد من بعض الأطراف الإقليمية والدولية، خشية أن توصل الأجواء الإيجابية هذه المسؤولين العرب إلى عمل تضامني مشترك تؤدي إلى بناء مؤسسات قومية قادرة على أن تشكل بديل للمؤسسات العربية القطرية، وتخلق أمراً واقعاً يدفع بأمل الجماهير العربية بالوحدة خطوات إلى الأمام، وينهي حالة التشتت والتشرذم المريرة.

اتخذ قرار الحرب على العراق في الإدارة الأمريكية الجديدة، كما أصبح معروفاً، بعد قدوم جورج بوش الابن ومجموعته إلى سدة الحكم في البيت الأبيض مباشرة. اتخذ قرار الحرب على العراق في واشنطن في نهاية عام 2000 وبداية عام 2001 ولا زالت تفصل عن 11 سبتمبر تسعة شهور. كانوا ينتظرون فقط الفرصة المناسبة لتنفيذ مشروع الغزو ومشروع الاحتلال. "قال رئيس هيئة الأركان البريطانية السابق الأدميرال اللورد بويس، أن قادة الجيش البريطاني بدأوا يبحثون الخيارات العسكرية للمشاركة في الحرب الأمريكية ضد العراق، بعد حصول اللقاء الشهير بين رئيس الوزراء البريطاني توني بلير والرئيس الأمريكي جورج بوش في كراوفورد بتكساس، في إبريل (نيسان) عام 2002 ."[73]

[73] صحيفة الشرق الأوسط 4. 12. 2009 ، لندن.

إلى جانب الإدارة الأمريكية كانت أطراف دولية وأطراف إقليمية جاهزة للمشاركة في أي عدوان على العراق، والعدوان على العرب. بريطانيا البلد الاستعماري العريق بمهنة الاعتداء على الشعوب، وإسرائيل التي خلقت وصنعت كقاعدة ثابتة للمشاركة في كل عدوان على الشعوب العربية. وإيران، الدولة التي لم تستطع التخلص من أحقادها التاريخية والمذهبية على العرب وعلى الدول العربية رغم طول السنين وطول القرون. هذه الأطراف كانت حاضرة ومشاركة بفاعلية في التحضير للحرب على العراق، والشروع في احتلاله عام 2003. لازال اصطفاف هذه الأطراف يتكرر مع تتابع الأحداث على أرض العراق مهما اتخذت من تدابير ومواقف إعلامية توحي بعمق الخلاف في ما بين أطرافها. فالمباحثات الإيرانية الأمريكية حول العراق في بغداد تؤكد هذا الاصطفاف ولا تنفيه.

الصراع داخل العراق هو بالمحصلة النهائية اختزال للصراع القومي الدائر في المنطقة. حتى وان اتخذت بعض الأطراف والقوى السياسية في العراق أغطية طائفية وأخرى اجتماعية تختفي خلفها، فإن جوهر الصراع المحتدم على ارض العراق كان ولازال قومي الأبعاد. يجب أن لا تغيب العناوين والمسميات الحزبية التي يتخذها هذا الطرف أو ذاك، أو تطلق على هذا الطرف أو ذاك حقيقة الأهداف وتوجهات هذه القوى. فالمنظمات الكردية معلنة عن ماهيتها القومية وواضحة الأهداف في حربها المعلنة مع الأمة العربية والقومية العربية. وهذا الطرف العراقي شكل تحالفاته الإقليمية والدولية على قاعدة العداء المشترك لوحدة العراق ووحدة الدول العربية من زمنٍ مبكر. فالعلاقة مع الكيان الصهيوني على قاعدة "عدو عدوي صديقي" ومع إيران على قاعدة الانتماء إلى نفس الجذور اللغوية والعرقية الآرية والفارسية المشتركة، وفي نفس الوقت العداء المشترك لطموحات أبناء الأمة العربية في الوحدة والتحرر كانت على الدوام خلف المواقف السياسية للأحزاب الكردية الأساسية.

الطرف العراقي الذي اصبح يطلق علية العرب السنة هو أيضاً واضح الأهداف وواضح الانتماء وواضح التحالفات الإقليمية والعالمية. وهذا الطرف منسجم مع ذاته ومع انتمائه القومي كجزء من الأمة العربية، ومع أهدافه السياسية في وحدة العراق، وانتماء العراق العربي، كل العراق، للأمة العربية. وهذا الطرف رفض التعايش مع الاحتلال الغربي ـ الإيراني للعراق، وتبلورت في أوساطه المقاومة العراقية السياسية والمسلحة. العرب السنة في العراق يتمتعون بشكل واضح بدعم وتعاطف الشعوب العربية وحركات التحرر والأحزاب العربية المختلفة المشارب والاتجاهات السياسية والأيديولوجية، وهم محل احترام وتقدير عن أغلب شعوب العالم لما أبدوه من بسالة وما يقدونه من تضحيات في سبيل حرية العراق العربي المستقل الموحد.

الطرف الثالث على أرض العراق هو الطرف الذي أصبح يعرف بالطرف الشيعي. عند هذه المجموعة من العراقيين بعض الإشكاليات. يشيع بين أوساط هذه الفئة السياسية والاجتماعية المختلفة نوع من الإرباك والفوضى. المواطنين العراقيين من الشيعة تتكون أغلبيتهم الساحقة من القبائل العربية الأصيلة، وتصل نسبة العرب من الشيعة في العراق إلى ما يقارب 90 % من مجموع شيعة العراق. وهم يتمتعون بعلاقات نسب وقربا مع بقية العشائر العربية السنية في العراق وخارج العراق في الجزيرة العربية والأحواز وبلاد الشام. وثقافة ولغة هذه الفئة من العراقيين عربية، ومشاعر الناس العاديين، وهم الأغلبية الساحقة، منحازة إلى القضايا العربية. لكن بين أوساط هذه المجموعة من العراقيين من الرموز والقيادات الدينية تتعدد الولاءات عندها والميول والمشاعر. هناك عدد لا يستهان به من القيادات الدينية عند الشيعة تظهر ميول وتعاطف مع الدولة الإيرانية. وتنحاز أثناء الأزمات بين العرب وإيران إلى الموقف الإيرانية.

أصحاب هذه الميول يبررون حقيقة مشاعرهم بواقع الوحدة المذهبية مع الدولة والكيان الإيراني الشيعي المذهب. لكن الحقيقة الأخرى الأكثر تأثيراً هي تربع القيادات الإيرانية على قمة الهرم في المؤسسات والهياكل التنظيمية السياسية والدينية في الأوساط الشيعية العراقية. تتكون القيادات السياسية والقيادات الدينية لهذه الطائفة العربية في العراق بأغلبيتها الساحقة من عناصر ذات أصول إيرانية غير عربية. نظراً لعدة أسباب جغرافية وسياسية وتاريخية، من حيث قربها من إيران وتدفق الحجاج الإيرانيين إلى المدن المقدسة عند اتباع المذهب الإمامي الإثني عشري، واهتمام الحكومات الإيرانية المتعاقبة منذ قرون بتنصيب وإيصال العناصر الموالية إلى تلك الحكومات إلى مراكز قيادات الأقليات الشيعية في العراق وفي دول الجوار الإيراني، بقيت القيادة بيد العناصر الفارسية والعناصر ذات الوعي القومي الفارسي. حيث بقيت القاعدة الجماهيرية الشيعية عربية الانتماء والجذور الثقافة، في حين استمرت أغلب القيادات الدينية والقيادات السياسية لهذه الطائفة خلال القرن الماضي حتى اللحظة الراهنة فارسية العرق والوعي والثقافة والانتماء القومي.

هذه الحقيقة تركت بصماتها الواضحة على سيكولوجية ووعي أعداد غير قليلة بين أوساط الشيعة العرب. هذه الإشكالية التي نشهد فصولها على أرض العراق في زمن الاحتلال عند هذه الفئة العراقية، فتح المجال واسعاً لإيران وللقوى الغربية لاقتناص الفرصة، والنفاذ إلى العمق العراقي، والعمل على تخريب الوعي القومي العربي عند بعض الفئات الاجتماعية من أبناء هذه الطائفة العربية. لقد نجح حكام إيران من خلال الشخصيات والعناصر الفارسية المرتبطة بالأجهزة الأمنية والدينية الإيرانية من جر فئات عراقية عربية شيعية إلى مواقعها السياسية من خلال اللعب على وتر الإحساس بالمظلومية المتفشية والمنتشرة بين أوساط الشيعة في العراق وغير العراق.

لقد ساعد الحكومات الإيرانية في هذه المهمة الدائمة عدد من العوامل التاريخية والموضوعية السائدة في الدول العربية. أهم تلك العوامل:

- الفقر والجهل
- فقدان الشرعية التاريخية لنشأة الأقطار العربية مما ترتب عليها ضعف الوطنية القطرية واستمرار الولاء المذهبي والعشائري
- استمرار أشكال الحكم الفردي وتأخر شيوع الحريات الفردية والحريات السياسية والاجتماعية
- تتابع مراحل عدم الاستقرار ونشوب الحروب الطاحنة في المنطقة.
- عدم تبلور الهوية القومية العربية عند فئات كثيرة في الوطن العربي لقصر فترة مرحلة حالة النهوض العربية في أعوام الخمسينات والستينات من القرن العشرين.

إذا ما أخذت تلك الوقائع والأحداث التي سبقت اندلاع الحرب على العراق عام 2003 بعين الاعتبار، ونشاطات القوى المشاركة في الحرب قبل العدوان وأثناء الاحتلال، سيسهل فهم هذه الحرب في أحد أبعادها الأساسية. كان البعد القومي لتلك الأطراف، والبعد القومي لموقع العراق في الواقع والمستقبل العربي، كما كان في التاريخ والوجدان العربي أحد خلفيات الحروب على العراق. الحرب على العراق كانت محصلة لمشاعر ومحصلة لمصالح القوى الدولية القومية، ولمشاعر ولميول ومصالح القوى الإقليمية القومية. وكذلك كانت ولازالت المحصلة العامة لمشاعر وأهداف الأطراف والعناصر الداخلية القومية على أرض العراق.

العامل القومي كان المحرك والناظم في اصطفاف القوى في الحرب على العراق، وفي استمرار احتلال هذا البلد العربي ترك بصماته الواضحة ويعبر عنه بشكل جلي في اتخاذ المواقف من المحتل والموقف من هوية العراق، والموقف من مشروع المحاصصة السياسية، والموقف من وحدة أرض وشعب العراق. في كل هذه المفاصل الأساسية والأهداف السياسية في الصراع الدائر على أرض العراق تعبر الأطراف المشاركة في هذا الصراع عن البعد القومي والهوية المعلنة والمبطنة لأفرادها.

الدور الإيراني
في الحرب على العراق عام 2003

اندلعت الحرب على العراق في 18 . 3. عام 2003 . كانت ثلاثة أطراف رئيسية متحمسة لخوض تلك الحرب. لكل طرف من هذه الأطراف الثلاثة أسبابه ومبرراته، وكذلك أهدافه من إعلان الحرب ومن ثم احتلال العراق. ليست مشاريع تلك الأطراف الرئيسية الثلاثة متطابقة ودوافعها ليست كلها متشابه، لكنها التقت في عدد من الأهداف من مشروع احتلال العراق. القاسم المشترك في مشاريع الأطراف الفاعلة في الحرب كان ولازال إضعاف العراق وإضعاف الوطن العربي، وكسر شوكة المواطن العربي، وفرض حالة الإستسلام عليه. التقت مصالح تلك الأطراف في بعض الخطوط العريضة لكنها افترقت في التفاصيل.

هذه الأطراف الأساسية هي :

- الإدارة الأمريكية وتابعها الحكومة البريطانية،
- الحركة الصهيونية العالمية وركيزتها دولة إسرائيل،
- وإيران وإمتداداتها الطائفية والعرقية في العراق.

أهداف الإدارة الأمريكية من الحرب على العراق

من احتلال العراق هدفت الإدارة الأمريكية أن يكون العراق نقطة انطلاق حقيقية وقاعدة سياسية وعسكرية أساسية في المنطقة، ومغنم اقتصادي كبير سيساعدها على إتمام وإنجاز مراحل المشروع الأمريكي الكوني في الهيمنة على العالم، وبناء الإمبراطورية الأمريكية الموعودة، والمرسومة في أدمغة وعقول القادة الأمريكيين من المحافظين الجدد. الإدارة الأمريكية هدفت من احتلال العراق:

إضعاف وتركيع الوطن العربي، الذي يشكل النواة الصلبة في قلب ووعي شعوب العالم الإسلامي، وبالتالي سيكون مشروع احتلال العراق خطوة واسعة على طريق إضعاف العالم الإسلامي والهيمنة على مقدرات هذا العالم.

السيطرة على مصادر الطاقة الطبيعية. من خلال السيطرة على مصادر الطاقة المتوفرة في العراق والمنطقة العربية، ووسط آسيا ستتمكن الولايات المتحدة من إخضاع الدول الصناعية الكبرى لإرادة وشروط عجلة الإقتصاد الأمريكية، وستكون الولايات المتحدة أكثر قدرة على ابتزاز هذه الدول، والحصول منها على تنازلات سياسية اكثر في المستقبل.

ابتزاز الإنسان العربي للتسليم بوجود الكيان الصهيوني، وكسر حالة الممانعة والمقاومة عند المواطن العربي للمشاريع الاستعمارية الغربية، والمشروع الصهيوني الاستعماري بإشاعة روح اليأس والهزيمة من خلال احتلال العراق.

سلكت الإدارة الأمريكية كل السبل، من الكذب والخداع، وتلفيق القصص والأحداث لتبرير خوض الحرب. ونزل مستوى التزوير وخداع الرأي العام العالمي إلى مستويات متدنية وضحلة لا تليق بدولة عظمى كالولايات المتحدة الأمريكية. تساوى فيها أسلوب إخراج القصص والروايات الملفقة من قبل أقطاب الإدارة الأمريكية مع أساليب عصابات المتسكعين والبلطجية في شوارع نيويورك. تساوى فيها عرض البهلوان في مسارح السيرك مع عرض المسؤول السياسي الأمريكي في مجلس الأمن الدولي. تزييف وخداع الإدارة الأمريكية الفج أوصل فن وعلم صنع السياسة إلى الدرك الأسفل وأسقطه في أعين الناس عن صهوة المجد والاحترام.

كل العالم شاهد وزير الخارجية الأمريكي السابق " كولن باول" وهو يشرح للعالم، في الجلسة المفتوحة لمجلس الأمن الدولي أمام وسائل الإعلام العالمية عشية إعلان الحرب على العراق، كيف يصنع العراق في شاحنات نقل عادية أسلحة الدمار الشامل. أكد هذا الوزير وحاول إقناع الرأي العام العالمي كيف ينتج الخبراء العراقيون في الهواء الطلق وفي سهول العراق وعلى جنبات شوارعه العامة الأسلحة الخطيرة والضارة والمحرمة دولياً. هذا المستوى من الاستخفاف في عقل المشاهد العالمي كان من الصعب أن يحدث لو أن أقطاب الإدارة في واشنطن كانوا يقيمون أي اعتباراً وأي وزناً لأي قوة ودولة ومؤسسة في العالم . كان من المستبعد أن يحصل ذلك لو كان أقطاب الإدارة الأمريكية يقيمون وزناً لأي من المواثيق والمعاهدات الدولية.

لقد اعترف كولن باول بعد عامين من إعلان الحرب وعامين من احتلال العراق بخطأ تلك الادعاءات التي عمل على تسويقها لشن الحرب على العراق، وقال في معرض اعتذاره عن هذه الأخطاء "إنها معيبة وتمس كرامتي الشخصية"[74] . لكن الوزير الأمريكي ورئيس أركان الجيوش الأمريكية في حرب الكويت عام 1991، كعادة كل الذين خرجوا من مواقع المسؤولية الرسمية يكيل الاتهام إلى أشخاص ومؤسسات

[74] تلفزيون الجزيرة ووكالات الأنباء العالمية 17. 9. 2005 .

أمريكية أخرى، ويتهمها بتقديم تلك المعلومات المزيفة. أن كولن باول محق في ما صرح به في إلقاء اللوم على المؤسسات الأمريكية التي تنتج الأساطير وتمتهن نسج القصص المزيفة، وهي صاحبة الإرث المشهود لها في هذا المجال. فالعقلية والفلسفة السائدة خلف صنع القرار في هذه المؤسسات الأمريكية تحررت منذ زمن طويل من صفات العدل والحق والسلم والمساواة، ويسيطر عليها بكل جدارة نزوات الأصولية المفرطة في العدوانية والنهب وكره الشعوب.

اصبح من نافل القول أن كل الادعاءات التي أعلنت كمبرر لإعلان الحرب على العراق واحتلاله ثبت زيفها وبطلانها وباعترافات من شارك بصياغتها وتسويقها عبر العالم.

فلا أسلحة دمار شامل موجودة في العراق.

ولا علاقة مع القاعدة وطالبان أقامها العراق

ولا أخطار تهدد دول الجوار شكلها العراق قبل إعلان الحرب عليه.

بل كانت كل هذه الإتهامات الكاذبة ضد للعراق متوفرة في إيران وفي سياسات حكام إيران. فالمشروع النووي الإيراني كان قبيل الهجوم على العراق قد قطع مراحل متقدمة وبمعرفة الدوائر المختصة الأمريكية والغربية. واحتضان إيران للمئات من عناصر القاعدة ومجموعات "الأفغان العرب" على الأراضي الإيرانية والمعسكرات التي تديرها وتشرف عليها الأجهزة الأمنية الإيرانية في السودان والجزائر والبلقان كانت أيضاً معروفة لدوائر صنع القرار في الولايات المتحدة الأمريكية ودول الغرب، وتتحدث عن هذه العلاقة كثير من وسائل الإعلام الغربية. وكان في عشية الهجوم على العراق العربي غير خافي على حكومات الدول الغربية الخطر الذي تشكله إيران على دول الجوار العربي والإسلامي من خلال تدخلها المباشر في شؤون أكثر من بلد ودولة في دول الجوار في اثارة المشاكل الأمنية والنزاعات العرقية والطائفية. لكن الإدارة الأمريكية أصرت بالتعاون مع إيران على مهاجمة العراق.

رسمت الأطراف المتحمسة لخوض الحرب على العراق ومن ثم احتلاله صورة وردية عن سير الأحداث المتوقعة في الحرب واحتلال العراق. واعتقدت تلك الأطراف بسهولة تحقيق هذه المهمة ومن ثم الإنتقال إلى المرحلة التالية من المشروع الأمريكي الصهيوني الكبير توسيع دائرة العمليات العسكرية حتى تطال سوريا ومن ثم السعودية ومصر. أفصح أقطاب الإدارة الأمريكية عن جزء كبير من نواياهم وأهدافهم في المنطقة العربية. من خلال أحاديث متفرقة لأقطابها ورموزها السياسية والعسكرية لأجهزة الإعلام الأمريكية والدولية، من أمثال "ولفوفيتز" نائب وزير الدفاع الأمريكي، والجنرال "مايرز" رئيس الأركان وكذلك "ريتشارد بيرل" المستشار الأمني والسياسي لبوش، الذي كان وكيلاً لوزارة الدفاع. لقد باتت أهم المشاريع الأمريكية في المنطقة

العربية معروفة. أفصح هؤلاء عن حقيقة أهداف الإدارة الأمريكية من الحرب على العراق. ومن خلال جمع تصريحات أقطاب تلك الإدارة المتناثرة، يمكن استخلاص صورة متكاملة عن نوايا وتصورات الإدارة الأمريكية لسير الأحداث في هذه الحرب.

خطط و اعتقد أقطاب الإدارة الأمريكية أن الحرب في المنطقة ستمر في أربعة مراحل أساسية والعراق ليس إلا البداية في هذا المشروع الكبير:

في المرحلة الأولى

في المرحلة الأولى من المشروع الأمريكي الاستعماري يتم فيها احتلال العراق. المعارك على الجبهات سوف تسير في هذا البلد، كما كان مخطط ومتوقع لها، لن تطول لأكثر من أسبوعين أو ثلاثة على أطول تقدير. ستستسلم من ثم الوحدات العسكرية العراقية للقوات المهاجمة المتفوقة عدداً وعدة، الواحدة بعد الأخرى. بعد ذلك تفرض وثيقة الاستسلام على القيادة العسكرية والسياسية العراقية، وينصب حاكم عسكري للعراق لإدارة شؤون البلاد إلى أجل غير مسمى ويساعده في هذه المهمة عدد من المستشارين العراقيين، كان قد تم الاتفاق على أسمائهم من بين أحزاب المعارضة العراقية الطائفية والانعزالية.

بعد إعلان النصر على العراق، حسب الرؤيا الأمريكية، وتوقيع وثيقة الاستسلام تبدأ القيادة العسكرية الأمريكية بخفيض عدد القوات الأمريكية في العراق حتى تصل إلى عشرة آلاف عسكري. وكان المشروع الأمريكي في هذه المرحلة يتضمن إشراك الدول الحليفة في العدوان على العراق في نشر قواتها على الأرض العراقية وزيادة هذه القوات بالتدريج على غرار تلك الخطة التي عمل بها بعد احتلال جمهورية أفغانستان. وبالفعل انتشرت قوات كورية في الشمال العراقي، وقوات يابانية في الجنوب العراقي، وبولندية وبلجيكية وأسبانية هندوراسية وإيطالية وغيرها من الوحدات العسكرية، وقوات من المرتزقة جلبت من كل أنحاء العالم، إلى جانب القوات البريطانية والأمريكية الغازية. كانت الإدارة الأمريكية قد وضعت فترة ثلاثة أشهر لإتمام هذه المرحلة، ومن ثم يصار إلى خفض القوات الأمريكية إلى عشرة آلاف جندي أمريكي، تتمركز في العراق بشكل دائم. سيتم في هذه الفترة الزمنية المحددة من إدخال قوات عسكرية من الدول المتحالفة إلى أرض العراق لتحل مكان القوات الأمريكية المنسحبة إلى مناطق تجميع تحضيراً للقيام بالخطوة العسكرية التالية.

في هذه المرحلة تتجمع وترابط القوات الأمريكية والحليفة المتبقية في العراق والتي يتراوح تعدادها بين العشرين والخمسة والعشرين ألف عسكري في 12 قاعدة عسكرية ثابتة موزعة على خارطة العراق، بالإضافة إلى السيطرة على المطارات والموانئ العراقية الرئيسية.

المرحلة الثانية

بعد الانتهاء من تلك الترتيبات العسكرية والمدنية في إدارة العراق تنتقل القوات المسلحة الأمريكية إلى إنجاز المهمة التالية في إعلان الحرب على سوريا ومن ثم احتلالها. كان شهر حزيران من عام 2003 هو، على أكثر تقدير، شهر اجتياح سوريا. حسب التقديرات الأمريكية فإن احتلال سوريا لن يكلف الأمريكان اكثر من ثلاثة أشهر وما يعادل عشرة آلاف جندي أمريكي لإتمام السيطرة على الوضع في سوريا. من خلال القدرات العسكرية الأمريكية والقدرات العسكرية الإسرائيلية وكذلك من خلال إشراك بعض القوى العرقية والطائفية المحلية في سوريا وفي لبنان ستسقط سوريا في قبضتهم بأقل التكاليف. لقد كشفت الأحداث الدامية في مدينة القامشلي في شمال سوريا أن خطوات تحضيرية لإشراك القوى الإنفصالية في شمال شرق البلاد قد اتخذت بزمن طويل قبل احتلال العراق.

وبعد الانتهاء من المهمة على الجبهة السورية، التي ستكون، حسب التصور الأمريكي أقل صعوبة من المهمة على الجبهة العراقية، يتم الانتقال إلى الهدف الأخر في المشروع العسكري الأمريكي وهو احتلال المملكة العربية السعودية.

المرحلة الثالثة

احتلال المملكة العربية لسعودية التي ستأتي من خلال خلق أجواء حرب أهلية ذات طابع قبلي ومناطقي و طائفي تثار في ذلك البلد العربي. هذه الحروب التي ستحضر إلى دخول القوات الأمريكية كقوة صديقة لكل الأطراف المتصارعة على أرض المملكة، التي ستقوم في مهمة "حفظ الأمن" وحماية المنشآت النفطية والاقتصادية الأخرى التي تهم الإقتصاد الأمريكي وستقوم هذه القوات بدور العازل والقوة الرادعة التي تفصل بين القوى المتصارعة والمتحاربة، وبالتالي تحقق السيطرة على المملكة من خلال الإشراف على إدارة الصراعات بين الأطراف المتناحرة في البلد.

المرحلة الرابعة

بعد إنجاز المهمة في السعودية ستكون مصر قد سقطت بين أيديهم بدون قتال، بل سيكون دور القوى ومنظمات المجتمع المدني الصديقة للغرب والممولة من المؤسسات الغربية المناظرة الدور الأساسي في دعوة الولايات المتحدة الأمريكية لترتيب الوضع الاقتصادي والسياسي المتردي في مصر.

سقوط الدول العربية الأساسية في قبضة الولايات المتحدة الأمريكية كان دائما الحلم الذي يراود عتاة الصهيونية وعتاة المستعمرين في أمريكا والغرب بشكل عام.

حسب التصور الأمريكي للحرب على العراق، أن الفترة الزمنية للمعارك سوف تكون قصيرة وأن الخسائر البشرية ستكون في صفوف القوات الأمريكية والقوات الحليفة ستكون محدودة لن تتجاوز المائتي جندي، والتكلفة المادية للحرب يجب أن تبقى محصورة بين العشرة والخمسة عشر مليار دولار. المقياس والمقارنة لنتائج هذه الحرب عند صناع القرار الأمريكان كان بالطبع سير الأحداث في الحرب على يوغسلافيا والحرب على أفغانستان التي لم تتجاوز تكلفة كل منهما الثلاثة مليارات دولار والمائة جندي بين قتيل ومفقود لكل منهما.

في هاتين الحربين كانت النتائج واضحة، ومحسومة على الأرض، وأعلن النصر بعد وقف إطلاق النار واستتب الأمر بعد ذلك بوقت قصير. وكان الأكثر حماساً في الحرب على العراق والأكثر تفاؤلا من المسؤولين الأمريكان في نتائج إعلان الحرب يرى بأحاديث وتطمينات عناصر وقوى "المعارضة العراقية"، التي كانت تروج لأوهام وروايات كاذبة، أثناء اجتماع هذه العناصر مع ممثلي الإدارة الأمريكية، وممثلي الحكومة البريطانية، يرون فيها أوراق قوة إضافية بأيديهم، لدفع المترددين من المسؤولين الأمريكيين إلى الدخول في الحرب على العراق. روجت هذه العناصر، بأن النظام العراقي سيرفع راية الاستسلام بمجرد اقتراب الجيوش الأمريكية من الحدود العراقية، وسيخرج الشعب العراقي مستقبلاً "الفاتحين" بالورود والأهازيج فرحاً وبهجة بقدومهم وقدوم المحتلين مع قدوم "المحررين".

مشاريع الهيمنة واحتلال الدول العربية الأساسية، العراق وسوريا والمملكة العربية السعودية ومصر لم تعد سراً، ولم تناقش فقط في الخفاء ووراء الكواليس في الإدارة الأمريكية، بل بالعلن وفي وضح النهار. فهي مشاريع استعمار ومشاريع إمبريالية معلنة منذ سنين. الأهداف الأمريكية المعلنة والتي نشرتها ووزعتها وكالات الأنباء العالمية منذ عام 1996، والتي تنص على "أن الولايات المتحدة الأمريكية ستقدم، بعد إتمام احتلالها للعراق، على الانتقال إلى الخطوة التالية في احتلال سوريا ومن ثم السعودية ومن ثم مصر، التي ستسقط كهدية، حسب تعبيرهم، دون حرب في قبضة الولايات المتحدة الأمريكية." هذه المخططات التي نشرت لأول مرة في صحيفة بنيويورك تايمز في عام 1996، والتي عرفت في حينه "بوثيقة وولفوفيتز"، الذي اصبح نائب لوزير الدفاع في إدارة بوش الابن، عملت إدارة بوش عام 2003 ابتداء من العراق على تنفيذها. ورسمت هذه الإدارة خططها اليومية السياسية والعسكرية الميدانية حسب تلك التصورات والمخططات الإستراتيجية.

أهداف الطرف الصهيوني من الحرب على العراق

بالإضافة للطرف الأمريكي كانت هناك أطراف أخرى متحمسة لإشعال الحرب على العراق والعرب. إسرائيل والحركة الصهيونية كانتا من اكثر الأطراف والقوى

المتحمسة لجر الولايات المتحدة لإعلان الحرب على العراق. فهذا الطرف لم يكترث للخسائر المادية والبشرية والسياسية التي يمكن أن تصاب بها المنطقة والولايات المتحدة الأمريكية وبقية شعوب العالم. الأهم بالنسبة لهذه القوى أن يضرب وتدمر العراق. إن تدمير بيت في العراق أو قطع شجرة نخيل يعتبر في الرؤية الصهيونية وفي العقل الصهيوني مكسب وإنجاز يستحق التقييم. بصرف النظر عن الفاعل وكيف حصل ذلك، وأي الأطراف ستتضرر لاحقاً. ظل على الدوام تخريب العراق في الفكر الصهيوني مهمة مقدسة يجب السهر على إنجازها على أيدي أي قوة تستعد للقيام بهذه المهمة.

لقد بذلت العناصر الصهيونية في الإدارة الأمريكية كل ما تستطيع من أجل أن تصل الإدارة الأمريكية إلى اتخاذ قرار الحرب على العراق، وبذلت هذه العناصر الجهود الكبيرة واستعملت كل الطرق الممكنة في سبيل ذلك. صورت العناصر الصهيونية في الإدارة الأمريكية وخارج الإدارة الأمريكية، مهمة الحرب ومهمة احتلال العراق، وإسقاط الحزب الحاكم فيه، سهلة المنال، وقليلة الخسائر، وقليلة المخاطر السياسية، وذات مردود اقتصادي وسياسي كبير على الولايات المتحدة. لقد طور عتاة الصهيونية من أمثال "بول وولفو فيتز"، نائب وزير الدفاع الأمريكي، نظرية "حجار الدمينو" لوصف الوضع العربي إذا ما سقط العراق بين أيديهم. أي عندما يسقط النظام في العراق ستتساقط الدول العربية الواحدة تلو الأخرى كما تتساقط حجارة لعبة الدمينو عندما يسقط الحجر الأول. حسب هذه النظرية ستصبح منطقة الشرق الأوسط خلال فترة وجيزة لا تتجاوز الستة أشهر منطقة محتلة بالكامل وسيتم إعادة تركيبها من جديد حسب الرؤية الأمريكية ـ الإسرائيلية. لقد عرفت هذه الرؤية وهذه النظرية بنظرية "الفك والتركيب". أو إعادة تركيب الشرق الأوسط.

اقتنعت أطراف في الإدارة الأمريكية بتقارير مزيفة سربتها عناصر صهيونية عن الوضع الاجتماعي والسياسي العراقي، وعن الأوضاع العربية بشكل عام التي ستساعد على نجاح مشروع الغزو المبيت. وتتحدث هذه التقارير المزيفة عن أن العرب سيفتحون بيوتهم وصدورهم وأوطانهم لاستقبال القوات الغازية الأمريكية دون أدنى مقاومة تذكر. بل ستكون فئات كثيرة من المواطنين العرب، وغير العرب، في هذه البلدان إلى جانب القوات الأمريكية وتساعدها على إنجاز عملية الإحتلال. وكان هؤلاء يستشهدون على صحة وجهة نظرهم هذه بمواقف بعض القوى الطائفية والقوى الشعوبية في العراق. (عناصر وأحزاب المعارضة العراقية) من أمثال أحمد الجلبي وإبراهيم الجعفري وجلال الطلباني وغيرهم .

الصهاينة يعرفون جيدا أن شيئاً من هذا لن يحدث، وهم الذين يخوضون حرباً ضروس متواصلة منذ اكثر من ثمانين عاماً ضد الشعب العربي الفلسطيني،وهم أكثر الأطراف معرفة ويقيناً بأن الشعب الفلسطيني لا زال يقاوم بكل جسارة وبسالة هؤلاء الغزاة.

ويعرفون جيداً بأن الشعب العراقي ليس أقل بسالة ووطنية من الشعب الفلسطيني، وأن الشعب العراقي شعب ذو تاريخ نضالي حافل في كل ميادين الكفاح. وشعب العراق هذا طرد المستعمر الإنجليزي ومرغ أنف الغزاة بعار الهزيمة أكثر من مرة في تاريخة الطويل.

لقد نجح الشعب العربي الفلسطيني الأبي في إرباك وتعطيل، من خلال صموده الأسطوري، المشروع الصهيوني برمته. وحد من إمكانية توسع دائرة ضرر المشروع الصهيوني عند حدوده الدنيا، وأوقف تمدده إلى مناطق عربية أخرى على ساحة الوطن العربي. بل فرض نضال الشعب العربي الفلسطيني الباسل على العدو الصهيوني سياسة التقهقر الإستراتيجي، والتراجع عن بعض المكاسب التي حققها هذا العدو في العقود الأولى من تاريخ الصراع معه. الانسحاب من سيناء المصرية ومن بيروت ومن بقية الأراضي اللبنانية، والانسحاب من قطاع غزة وإخلاء المستوطنات الصهيونية من هناك، وإخلاء بعض هذه المستوطنات من الضفة الغربية تؤكد صيرورة تقهقر المشروع الصهيوني، وتظهر حقيقة صمود وبسالة المقاومة الفلسطينية والعربية.

أعادت مقاومة الشعب العربي الفلسطيني المشروع الصهيوني في المنطقة العربية إلى المربع الأول من الصراع، والأمر الواقع يظهر وكأن فلسطين للتو قد احتلت. الشعب الفلسطيني على ارض فلسطين التاريخية عاد يشكل الأغلبية السكانية، وهو في تزايد في معدلات عالية، والأجيال الفلسطينية الحالية اكثر وعياً واصلب عوداً من الأجيال الفلسطينية والعربية قبل نصف قرن من الزمان، والوطن العربي المحيط في فلسطين هو في كل المقاييس الإستراتيجية اكثر قوة ومنعة. كل هذا وغيره يشكل في المنظور الإستراتيجي مأزق المشروع الصهيوني على أرض فلسطين وفي المنطقة العربية. ويبشر باضمحلال وتلاشي هذا المشروع الغريب على المنطقة العربية والطارئ على مكوناته الثقافية والإجتماعية.

بعد انتهاء الحرب الباردة واستفراد الولايات المتحدة الأمريكية بالقوة والسطوة العسكرية على دول العالم، وظهور قوى طاغية معادية للعرب والمسلمين، تتربع على قمة القيادة في الإدارة الأمريكية من ناحية، ووصول المشروع الصهيوني في فلسطين إلى طريق مسدود، قرر الصهاينة استغلال هذه الفرصة التاريخية، التي لا تسنح إلا مرة في كل مائة عام. إقتناص الفرصة التاريخية إلى أقصى درجة من درجات الاستغلال كان محور تفكير العناصر والأحزاب السياسية الصهيونية في داخل الكيان الصهيوني وخارج هذا الكيان. قرر الصهاينة العمل على دفع القوى الغربية للقيام بالمهمة العسكرية الكبرى لتدمير اكبر عدد ممكن من أقطار الوطن العربي. كان أحتلال العراق نقطة انطلاق في مشروع الصهاينة التدميري لو كتب له النجاح لاسمح الله.

يعتقد الصهاينة أن هناك فرصة ذهبية قائمة، تسمح، بعد انتهاء الحرب الباردة، باستعمال القدرات العسكرية الأمريكية والغربية، تستطيع بها تدمير أكبر عدد ممكن من الدول العربية. فرصة تفرد الولايات المتحدة الأمريكية بالقوة والهيمنة على العالم، يجب استغلالها ودفع الولايات المتحدة الأمريكية وحلف الناتو العسكري بمهاجمة الدول العربية عبر تسويق الخوف والرعب من العالم الإسلامي والوطن العربي، الذي يشكل النواة الصلبة التي ظلت تقاوم المشاريع الاستعمارية من الناحية العملية، وبصرف النظر عن المواقف المتخاذلة لبعض حكام المنطقة العربية.

توافقت قوى الشر العالمية على أن تدمير الدول الأساسية العربية سوف يخلق أمرا واقعاً جديداً في المنطقة العربية وفي العالم، يصبح فيها الطريق سالكاً لتحقيق الهيمنة الإسرائيلية ـ الغربية على العالم، ويضمن استمرار وتوسع الكيان الصهيوني. لم يدخر الصهاينة في إسرائيل وفي الولايات المتحدة الأمريكية والعالم الغربي جهداً لجر واشنطن والعواصم الغربية إلى سلسلة من الحروب والصراعات المسلحة مع الدول العربية، وكان العراق باكورة هذه السلسلة المتفق عليها ووضعت عدد من الدول العربية تحت النار والتهديد بالدمار والاحتلال.

حسب اعتقاد القيادات الصهيونية، وهم محقون في ذلك الاعتقاد، أن إسرائيل أصبحت عاجزة عن القيام بالمهمة العسكرية الكلاسيكية الكبيرة في شن الحروب على الدول العربية الواحدة تلو الأخرى مثلما كانت عليه الحال في العقود الخمسة الماضية. نظراً للتطور المادي والبشري الذي حصل في مجمل المنطقة العربية أصبحت مهمة شن الحرب على العراق فوق طاقة الكيان الصهيوني. وإذا لم تقم الولايات المتحدة والدول الغربية في تنفيذ هذه المهمة الإستراتيجية الأبعاد، وفي هذه الأعوام القليلة المتبقية من استفراد الهيمنة الأمريكية على العالم ، فسوف يذوب وينتهي المشروع الصهيوني ومعه إسرائيل. وستفقد إسرائيل أي قيمة استراتيجية لوجودها في الشرق العربي والشرق الإسلامي، ولن تتوفر إمكانيات البقاء والاستمرار في المنطقة لفترة طويلة.

الصهاينة بمختلف أطيافهم ومواقعهم كان طموحهم كبير ايضاً من خلال احتلال العراق وتدميره، وطموحاتهم في جني المكاسب من هذه الحرب يمكن إجمالها بالتالي:

سيعني لهم سقوط بغداد واحتلال العراق بشكل مباشر توجيه ضربة قاضية للنضال الوطني الفلسطيني، وكسر حالة الصمود الأسطورية التي أظهرها هذا الشعب في وجه الغطرسة الصهيونية، وستساهم في إشاعة روح الهزيمة والعجز عند بقية الشعوب العربية، الحاضن الحقيقي لكفاح هذا الشعب الأبي.

تدمير العراق كمقدمة لتدمير بقية الدول العربية الأساسية، مصر وسوريا والسعودية سيعني إنهاء الأمة العربية من الوجود وخلق فرصة حقيقية في فرض الهيمنة الصهيونية على المنطقة العربية .

وتفتيت هذا التكتل الثقافي والسياسي الكبير الذي سيصبح مرتعاً لهم ولنفوذهم سيفتح لهم الأبواب واسعة للنفاذ إلى العالم الإسلامي والمشاركة في استغلاله.

وفي السيطرة على المنطقة العربية سيمتلكون ورقة قوية بأيديهم صالحة للاستعمال في المساومات الدولية في المستقبل، بما تمتلك هذه المنطقة من خيرات اقتصادية ويد عاملة رخيصة.

الأهداف الإيرانية من إحتلال العراق

الطرف الثالث الذي يعتقد بأن له مصلحة مباشرة في الحرب على العراق كان الطرف الإيراني. الإيرانيون لهم أهدافهم الخاصة بهم في الحرب على العراق تتشابه إلى حد كبير مع الأهداف الإسرائيلية والصهيونية.

إن العداء القومي المستحكم في سيكولوجيا وممارسات النخبة السياسية الفارسية، والمسؤولين الإيرانيين، للأمة العربية بشكل عام، وللعراق بشكل خاص، عبرت عنها سياسات الحكومات الإيرانية المتعاقبة اكثر من مرة في أزمنة وعقود قد خلت. لقد ربطت هذه النخبة المصلحة الوطنية الإيرانية والمصلحة القومية الفارسية، من زمن ليس بالقصير بشكل مباشر بضعف وتفتت العراق. فإن قوة وضعف العراق ظل البوصلة التي يرى فيها الفرس حاضر ومستقبل دولتهم ومصير كيانهم السياسي. اصبح في ذهنية ووعي النخبة السياسية والثقافية الفارسية معادلة الوجود القومي الفارسي مساوياً ومطابقاً لنفي معادلة وجود العراق السياسي. هذه الثنائية تأصلت وتوسعت عبر السنين الطويلة حتى طالت قطاعات واسعة من الشعب الفارسي والشعوب الإيرانية الأخرى أيضاً. كل ما كان العراق بخير وقوي عوده شعر الفرس بخطر يداهمهم، وكل وما ضعف العراق استبشر الفرس خيراً في قرب تحقيق طموحاتهم في التوسع باتجاه الغرب في الأرض والمياه العربية. إن الحرب على العراق واحتلاله قد فهمها الفرس فرصة ذهبية ستفتح للإيرانيين مجالات واسعة عدة أهمها:

- إحكام السيطرة على قطر الأحواز العربي المحتل والسيطرة التامة على شط العرب وإنهاء المطالبات العربية في استعادة الأرض العربية في الأحواز وجزر الإمارات المحتلة في مدخل الخليج العربي.

- الاستيلاء على المنطقة الجنوبية من العراق الغنية بالنفط.
- إدخال إيران كشريك للقوى الغربية في السيطرة على منطقة الخليج العربي والسير في ابتزاز الدول العربية في منطقة الخليج العربي التي كان العراق الرادع الأساسي للأطماع الإيرانية والغطرسة الفارسية في المنطقة.
- بانهيار العراق وتفتته إلى دويلات ضعيفة، على أسس طائفية وعرقية، سيلغي أحد القوى الإقليمية التي كانت تقف عائق أمام تحقيق الأهداف الفارسية في المنطقة العربية، وسيوسع دائرة التأثير الإيراني المباشر حتى يصل إلى الحدود المصرية.
- وكذلك الثأر وحب الانتقام القومي الفارسي من العراق وحكومة العراق العروبية، كرد على الهزيمة العسكرية والمعنوية النكراء التي مني بها الجيش الإيراني والمجتمع والنظام السياسي الإيراني في حرب الثماني سنوات. تلك الهزيمة التي نالت من القومية الفارسية وظلت تدفع بقطاعات واسعة من الفرس والإيرانيين للعمل وتحين الفرص لإيذاء العراق والإيقاع بشعبه، والوقوف إلى جانب أي قوة تتبرع بالقيام بهذه المهمة.
- وفي الحرب على العراق والتعاون مع الإدارة الأمريكية على احتلاله سيفسح مجال في أن تتغاضى الولايات المتحدة الأمريكية عن المشروع الإيراني النووي، أو على الأقل كسب الوقت اللازم ريثما تستكمل العناصر المكونة لذلك المشروع العسكري الإيراني.

عندما لوحت الإدارة الأمريكية في عام 2001 في الرغبة في التنسيق مع الإيرانيين لمشاريع مهاجمة العراق واحتلاله كانت الحكومة الإيرانية جاهزة للقيام بأي دور يناط بها، وكأن إيران كانت تنتظر هذه الفرصة للانتقام من العراق.

في كل المخططات الإيرانية والإسرائيلية والأمريكية حول العراق، في زمن السلم وفي زمن الحرب، كانت القوى السياسية المحلية الانعزالية الكردية والطائفية المرتبطة بطهران، ذات القيادات الشعوبية، مجرد أدوات لهذا الطرف أو ذاك. لم تخرج مهام وأدوار هذه القوى، خلال الأعوام الخمسة من تجربة الاحتلال المشترك، عن هذا الإطار من الأدوار والوظائف. بقيت هذه القوى الأدوات التنفيذية لأهداف الأجنبي في حلبة الصراع السياسي والعسكري الدائر في العراق وحول العراق. ولم تستطع هذه القوى تجاوز حدود هذه المهام الموكلة إليها في طرح برنامج وطني مستقل. هذه القوى في داخل العراق ظلت، خلال النصف قرن المنصرم، عندما تخلت عن انتماءاتها للوطن العراقي، قوة احتياط لمن أراد السوء بالوطن العراقي. السر في سلوك هذه القوى يكمن

في فقدان هذه المجموعات للهوية الوطنية واستبدالها بانتماءات طائفية وفئوية ضيقة لا مكان فيها للوطن والوطنية.

لقد كشفت المصادر الأمريكية المختلفة أن الوفود الإيرانية، والعملاء المزدوجين لإيران والولايات المتحدة الأمريكية، مثل "احمد الجلبي" و "عبد العزيز الحكيم"، كانوا بإيعاز إيراني، يوصلون معلومات خاطئة ومبالغ بها بشكل مقصود إلى الإدارة الأمريكية وأجهزتها المتخصصة عن برامج التسليح العسكرية العراقية. وكانت تلك الوفود والعناصر تطرح وترسم صور وردية ومزيفة عن الوضع الشعبي والجماهيري في العراق. أصبحت معروفة وما كشوفة الأدوار التي لعبها هذا الفريق من العراقيين في مرحلة التحضير للغزو، وكيف رسمت هذه الأطراف صور مغايرة عن طبيعة وحقيقة الشعب العراقي قوي الشكيمة والرافض لكل أنواع الهيمنة والسيطرة الأجنبية.

صورة الشعب المرحب المستعمر والغازي والمحتل "بالغار والورود" كانت من صنع خيال هؤلاء النفر من العراقيين فاقدي صفة الوطنية. كان هؤلاء الأشخاص وتلك الوفود تبالغ بشكل متعمد بتصوير أحجام وتأثير قوى "المعارضة العراقية"، لإغراء الولايات المتحدة الأمريكية للتسريع في دخول الحرب واحتلال العراق. لقد تشابه حتى التطابق دور رموز قوى المعارضة العراقية قبل الاحتلال مع أدوار رموز الحركة الصهيونية داخل وحول الإدارة الأمريكية. لا عجب في ذلك فالتنسيق بين هذه الرموز والأطراف كان على قدم وساق في الفترة الزمنية التي سبقت الحرب عام 2003 . لقد مثلت هذه القوى على الدوام دور الطابور الخامس الإيراني داخل العراق، وكانت جزء أساسي من أدوات الفعل الإيراني داخل المجتمع العراقي.

كذلك تطمينات الوفود الإيرانية التي كانت تلتقي الطرف الأمريكي من أجل ترتيب الوضع الداخلي العراقي لصالح قوات "التحالف" أثناء الحرب وفي الفترة التي ستلي الحرب كانت من أهم العوامل التي سرعت في اتخاذ قرار بدئ الحرب واحتلال العراق في أوساط الإدارة الأمريكية. لقد عملت الحكومة الإيرانية بكل وسعها لإقناع الأمريكان في إعلان الحرب على العراق. واستغل الفرس كل القنوات الممكنة، المباشرة وغير المباشرة. عبر عملائهم العراقيين وعبر وفودهم الرسمية وغير الرسمية من أجل إقناع الإدارة الأمريكية للإسراع في الإقدام على احتلال العراق قبل أن تتغير الظروف الدولية، ويصبح الإقدام على هذه الخطوة صعب التحقيق. كان الإيرانيون في عجلة من أمرهم.

عندما تحول مشروع "التحرير"، الاحتلال، إلى مأزق ومستنقع على اكثر من مستوى وأكثر من صعيد بدأت الأطراف الأساسية المشاركة والمتآمرة في مشروع الحرب على العراق واحتلاله تفضح بعضها البعض. بدأ كل طرف يتهم الأطراف الأخرى بالتقصير وارتكاب الأخطاء، وبدأت تتكشف أجزاء مما كان يطبخ خلف الكواليس. الحاكم المدني

الأمريكي، "بول بريمر" يلقي اللوم في فشل الإدارة المدنية للعراق على إسرائيل صاحبة اقتراح حل الجيش العراقي، وحل بقية مؤسسات الدولة العراقية. العناصر الصهيونية في الإدارة الأمريكية، كنائب وزير الدفاع الأمريكي "بول وولفوفيتز"، يتهم زملائه في الإدارة الأمريكية "الرخوين الذين لم يستجيبوا لاقتراحاته في عدم إشراك العراقيين في إدارة البلاد إلا بعد عامين من الاحتلال"، كما صرح بذلك لوكالات الأنباء العالمية.

الأمريكان والصهاينة يتهمون إيران والقوى التابعة لإيران في تزوير الحقائق عن العراق بهدف توريطهم في الحرب على العراق، من أمثال أحمد الجلبي، وهكذا دواليك. وسائل الإعلام العربية والعالمية أصبحت تعج بتلك المواقف والتصريحات التي تكشف طبيعة المباحثات التي كانت تدور خلف الكواليس بين تلك الأطراف الثلاثة المتورطة في الحرب على العراق واحتلال أراضيه. مدينة لندن كانت المركز الذي تمت بها المؤتمرات بين هذه الأطراف ذات المصلحة المباشرة في احتلال العراق. ومن لندن تفرعت اللجان المشتركة والمؤتمرات السرية والعلنية لأطراف الحلف المعتدي على العراق والعرب، التي عقدت في واشنطن وبيروت وشمال العراق وطهران وأيضاً تل أبيب.

الدور الإيراني
في مرحلة التحضير للحرب

في الحرب التي بدأها بوش وإدارته في 18 مارس 2003 على العراق وشعبة كان لإيران حصة كبيرة في التحضير لتلك الحرب، وكان لها باع طويل في حشد الأطراف المحلية للمشاركة في دعم قوات الاحتلال. لم تتوقف إيران أبداً عن عمليات شق وحدة الشعب العراقي وتقسيمه لشيع وطوائف. منذ اليوم الأول لإتخاذ الإدارة الأمريكية الجمهورية الجديدة قرار الحرب على العراق في عام 2000 والعمل على احتلاله كانت حكومة خاتمي في طهران في الصورة. منذ اليوم الأول جرت اتصالات بين الإدارة الأمريكية والحكومة الإيرانية وتم التفاوض حول الحرب ونتائجها المرتقبة، وتوزيع الأدوار والحصص أيضاً. هذه المفاوضات جرت على مدى عامين متواصلين في مدينة جنيف السويسرية. تلك اللقاءات التي عرفت بلقاءات "محطة جنيف" كانت ليست المحطة الوحيدة التي كان الإيرانيون يلتقون الأمريكان فيها للتباحث حول الحرب المزمع شنها على العراق العربي وتنسيق الأدوار حول مجرياتها. بل في أكثر من عاصمة أوروبية وفي شمال العراق أيضاً. وفي لندن كانت تتمحور اللقاءات بين الأطراف.

أصرت إيران الخمينية على انتهاج شتى الممارسات التي تعكس أرادتها وتصميمها على تجاهل مجمل الضوابط التي تمليها روابط الجوار مع العرب، وذلك في التدخل السافر في الشؤون الداخلية للبلدان العربية. في غمرة الأجواء المحمومة للتحضير للحرب العدوانية على العراق، القطر العربي المحاصر منذ ثلاثة عشر عاماً، نشطت الحكومة الإيرانية سياسياً على اكثر من صعيد ومع عدة أطراف في آن معاً. أهم سمات السياسة الإيرانية قبيل الحرب على العراق الجار للجمهورية الإسلامية ارتكزت على التكتيكات التالية:

إشعار الحكومة العراقية والأطراف العربية بأن إيران لا تحبذ الحرب على العراق لأن هذه الحرب ستشكل خطرا على الإسلام والمسلمين، وخاصة على النظام الإسلامي في إيران.

أن الحرب الغربية على العراق ستخلق حالة عدم استقرار في المنطقة، وربما تتوسع هذه الحرب وتفقد السيطرة عليها وتطال الأراض الإيرانية.

والنقطة الثالثة التي كان الإيرانيون يعيدون طرحها أمام نظرائهم العرب أن انتصار الأمريكان والبريطانيين في العراق يعني زيادة نفوذ إسرائيل وحلفائها في المنطقة وهو ما لم تقبل به إيران البتة.

هذه المواقف الإيرانية المعلنة في وسائل الإعلام، والمتداولة في أروقة الكواليس المغلقة، أوقعت عدد كبير من المسؤولين والمواطنين العرب في فخ خداع السياسة الإيرانية حتى وصل هذا الخداع إلى أوساط القيادة العراقية نفسها. عزز صدق نوايا الحكومة الإيرانية موافقة إيران على اتخاذ بعض الخطوات الإيجابية مع الحكومة العراقية وتجاوبها مع بعض الخطوات الإيجابية التي أقدمت عليها الحكومة العراقية مثل فتح الحدود أمام زوار الأضرحة في النجف وكربلاء وكذلك زيادة حجم التبادل التجاري بين البلدين.

أشاعت إيران في وسائل إعلامها إنها ستتخذ موقف الحياد في حالة إقدام الولايات المتحدة وبريطانيا على خوض الحرب على العراق.

لقد شاعت أجواء من التفاؤل حول الموقف الإيراني من الأزمة، بل جنح بعضهم إلى الاعتقاد بأن إيران ستتجاوز خلافاتها العميقة مع العراق وتتخذ موقفا داعما إلى جانب الجيش العراقي في حال أقدمت الإدارة الأمريكية على إشعال الحرب نظرا لما يشكله التواجد العسكري الغربي الكثيف على مقربة من الحدود والأرض الإيرانية من تهديد مباشر للأمن القومي الإيراني.

نجحت إيران في إشاعة أجواء مخاتلة ومخادعة في غمرة ترقب الحرب القادمة ووقع كثير من العرب في الفخ الإيراني ـ الأمريكي.

لكن لإيران كانت ساحات عمل سياسي أخرى. فعلى جبهة الدول الغربية التي تعمل بكل جد على تحضير وترتيب أجواء الحرب المقررة منذ عام 2000 مع وصول أجنحة اليمين البروتستانتي المتطرف والمتحالف مع رموز الحركة الصهيونية في الولايات المتحدة الأمريكية إلى سدة الحكم في واشنطن. عن طريق ممثلين دائمين كانت إيران على اتصال مباشر ومستمر مع الإدارة الأمريكية الجديدة. وهي كانت كذلك مع الإدارات الأمريكية السابقة. كانت الحكومة الإيرانية تطلع الإدارة الأمريكية على تطور الأوضاع داخل العراق وتزودها بالمعلومات، كما أصبح معروف، الصحيحة وكذلك بالمعلومات الخاطئة المتعمدة، عن المجتمع العراقي والجيش العراقي وقدراته التسليحية. باعتراف أغلب القادة الأمريكيين وعلى رأسهم رامسفيلد وزير الدفاع في البيت الأبيض، أعلن أن إيران زودت الولايات المتحدة بمعلومات خاطئة ومبالغ بها عن

البرنامج التسليحي النووي والكيميائي والبيولوجي العراقي، ومارست نوعا من التحريض للتسريع في شن الحرب على العراق، واتهمت أحد عملائها المدعو أحمد الجلبي بأنة عميل مزدوج لإيران أيضاً، وساهم مساهمة مباشرة في نقل المعلومات المظللة عن العراق.

تبادل المعلومات وتنسيق الخطوات بين إيران والولايات المتحدة في التحضير لشن الحرب على العراق كانت تجري على قدم وساق في المدينة السويسرية جنيف. هذه اللقاءات والتي عرفت "بمحطة جنيف"، والتي بدأت في العام 1988 مباشرة بعد انتهاء الحرب العراقية ـ الإيرانية، تجري بشكل دوري وحسب الحاجة. كونديليزا رايس مستشارة الأمن القومي الأمريكي في حينه أكدت في 24 أيار عام 2004 في صحيفة USA-Today حيث أعلنت "أن تنفيذ خطوات عملية في حرب أفغانستان تمت بالتنسيق بين الولايات المتحدة وإيران وبوساطة موظفين من الأمم المتحدة. اللقاءات بين الطرفين استمرت أثناء الحرب على العراق. نتج عن تلك اللقاءات ما دعي (Genever Operation) بغرفة عمليات جنيف. أيضاً لقاءات في أنقرة ونيقوسيا وفي شمال العراق تمت بين الإيرانيين والأمريكان للتنسيق والتحضير للحرب على العراق بين الشريكين.

أثمرت هذه اللقاءات، بالإضافة إلى تبادل المعلومات و تنسيق الأدوار في الحرب، وأيضا لتقاسم المصالح بين الطرفين في العراق ومنطقة الخليج بعد انتهاء الحرب، وخرجت اتفاقية عن تلك اللقاءات.

أهم نقاط الاتفاق الأمريكي ـ الإيراني في محطة جنيف والتي عرفت بتفاهمات جنيف في شهر شباط (فبراير) 2003 والتي سمحت للإيرانيين بالتدخل في الشؤون العراقية. نصت على التالي:

- تتكفل الولايات المتحدة الأمريكية في تحضير الأجواء الإعلامية والسياسية وحشد القوى حتى تصبح الحرب على العراق مقبولة ومطلوبة أمام الرأي العام العالمي والإسلامي.
- تتكفل الولايات المتحدة الأمريكية وحلفائها بالقسم الأكبر من المجهود الحربي اللازم لشن الحرب وإسقاط النظام العراقي في بغداد.
- تتكفل إيران بالقيام بالجهود اللازمة لإقناع القيادات الشيعية في العراق بمساندة القوات الأمريكية والبريطانية القادمة إلى العراق.
- تقوم إيران بمهمة التنسيق بين أطراف المعارضة العراقية قي الداخل والخارج وخاصة الأحزاب الشيعية والأحزاب الكردية، للوصول إلى قيام جبهة سياسية وعسكرية للمساهمة في إسقاط النظام الحاكم في العراق.

- تساهم إيران بدعم المجهود الحربي بإدخال خمسة عشر ألف عنصر من الأجهزة الأمنية الإيرانية إلى الأراض العراقية بالإضافة إلى تجهيز وتسليح عشرة آلاف عنصر من قوات بدر وحزب الدعوة ودفعها إلى داخل الأراض العراقية توقيتاً مع بداية الحرب.
- إعادة صياغة الدستور العراقي على أسس طائفية وعرقية وبناء الدولة العراقية على أساس مبدأ الديمقراطية العددية وليس المواطنة. أي تقسيم مناصب الحكومة والدولة حسب الأعداد المفترضة للمجاميع العرقية والطائفية في البلد،الذي يعني اعتماد مبدأ "الطائفية لسياسية" في نظام الحكم في العراق.
- يعمل الطرفان على إيصال القوى الموالية إلى إيران لسدة الحكم والهيمنة على الحكومة وقرراتها.
- توافق إيران على سيطرة الشركات الأمريكية المطلقة على مصادر الطاقة في العراق.
- تراعا مصالح إيران والولايات المتحدة في العراق عند تحديد مستقبل العراق، ويتم التنسيق بين الطرفين كل ما دعت الحاجة إلى ذلك لضمان استمرار تلك المصالح.

تلك كانت هي بعض الأدوار المناطة بالطرف الإيراني القيام بها في فترة التحضير للحرب كما تسرب عن مفاوضات الأطراف في جنيف في حينه.

عملت إيران قبل توقيع ورقة تفاهمات جنيف مع الطرف الأمريكي كل ما بوسعها جاهدة لإقناع الأطراف العراقية للقبول في العمل مع القوات الغازية. عقد ممثلو إيران مئات اللقاءات مع القوى السياسية العراقية في أكثر من مكان. لقد عقدوا المؤتمرات ومولوا الأفراد والجماعات التي تبدي أي تجاوب مع هذا الطرح الإيراني بضرورة التعامل مع الغزاة. لم تقتصر المساهمة الإيرانية في تمويل والتحضير لعقد مؤتمرات لندن وصلاح الدين في شمال العراق ومؤتمر بيروت وطهران، التي أطلق عليها "مؤتمرات المعارضة العراقية "، بل كان التواجد والحضور الإيراني الكبير والنشط في هذه المؤتمرات جلياً ومفضوح. الحضور الإيراني في تلك المؤتمرات كان ممثلاً في شكلين أساسيين:

الأول عبر المندوبين الحكوميين الإيرانيين بشكل مباشر

والثاني عبر العناصر العراقية الفارسية الأصل التي تربعت على قيادة المنظمات السياسية الشيعية المشاركة في تلك المؤتمرات، والتي تكون عادةً من أكثر العناصر حماساً لإشعال الحرب والعمل مع الغزاة ضد الوطن العراقي تحت غطاء شعارات

ومسوغات طائفية وعرقية واهية انكشف مع الأيام زيفها. كانت اللغة الفارسية هي لغة التفاهم والحوار في ساحات وممرات الكواليس في هذه المؤتمرات، حسب تصريحات بعض ممن شاركوا في هذه المؤتمرات على شاشة فضائية المستقلة.

ففي مؤتمر لندن للمعارضة العراقية الذي عقد في 14. 12. 2002 ، على سبيل المثال، جلب جل أعضاء المؤتمر إلى لندن على متن طائرتين اثنتين، الأولى قدمت من طهران والثانية قدمت من أحد مطارات شمال العراق الخاضعة لسيطرة المتمردين الأكراد. ما يقارب ال 80 % من الحضور كانوا من غير العرب، من الفرس والأكراد. ولم تضم اللجنة التحضيرية لهذا المؤتمر عراقياً عربيا واحداً، بل كان أغلبهم من الفرس العراقيين والإيرانيين. وكانت على تلك الشاكلة بقية المؤتمرات السابقة واللاحقة لتلك المعارضة المرتبطة بإيران والولايات المتحدة الأمريكية والكيان الصهيوني.

المفاوض الرئيسي الذي قام بالمباحثات والاتفاقات مع الإدارة الأميركية في واشنطن وطهران، إضافة إلى محمد باقر الحكيم، هو عبد العزيز الحكيم، وشارك معه حامد البياتي (وهو أسم حديث للتغطية على اسمه الإيراني الأصلي) الذي شغل منصب وكيل وزارة الخارجية العراقية. الجمهورية الإسلامية التي تصف الولايات المتحدة لفظيا بالشيطان الأكبر استضافت لقاءات احمد الجلبي والقادة الأكراد، جلال الطالباني ومسعود البارزاني، و محمد باقر الحكيم وعبد العزيز الحكيم ومسؤولين إيرانيين، للتنسيق معهم وحشد إمكانيات الأطراف لتسهيل الغزو الأميركي للعراق، والمساهمة الفعالة عسكريا وسياسيا وإعلاميا في احتلال هذا البلد.

لقد تحولت طهران إلى غرفة عمليات لإدارة الحرب على العراق بواسطة الأطراف العراقية المنضوية تحت عباءة الحكومة الإيرانية. "ستانلي ويس" السكرتير التنفيذي للأمن القومي الأمريكي كتب في صحيفة "هيرالد تربيون إنتر ناشنال" في عددها الصادر في 24. 1. 2005 الذي ذكر فيها "إنَّ إيران أوضحت رغبتها بأن تضع جانباً خلافاتها مع أمريكا، لكي يتمكن الطرفان من العمل سوية ضد صدام، ولذلك فإنَّ إيران قامت بخطوات مهمة على هذا الطريق، حيث سمحت بفتح مكتب للمؤتمر الوطني وبوشر بإنشاء محطة إذاعية لأحمد الجلبي في الأراضي الإيرانية، وقد قام الجلبي بعدة زيارات لطهران ، والتقى بأعضاء بارزين في القيادة الإيرانية، وأصبحت أموال الحكومة الأمريكية وال CIA توزع بحرية في إيران."[75]

كما كان "زلماي خليل زادة" أحد مهندسي الحرب على العراق عام 1991 وأحد أركان مجموعة المحافظين في عهد الرئيس الأمريكي جورج بوش الأب، كان الشخص نفسه زلماي خليل زادة مستشار الرئيس الأمريكي جورج بوش الابن لشؤون أفغانستان

[75] نقلاً من مقال للكاتب العراقي باقر الصراف تحت عنوان "عبد الجبار الكبيسي الباسل الواعي السياسي" عن موقع عربستان على شبكة الإنتر نيت الدولية بتاريخ 7. 9. 2005.

والعراق، المنسق بين الإدارة الأمريكية والحكومة الإيرانية من جديد. زلماي خليل زادة الأمريكي الأفغاني ذو الثقافة الفارسية، عمل بكل جد ونشاط مع زملائه الإيرانيين في التحضير لكل المؤتمرات واللقاءات لمجموعات ما سمي "بالمعارضة العراقية". كان زلماي خليل زادة يدير جلسات تلك المؤتمرات بشكل مباشر وأشرف على صياغة مقرراتها وخطها بخط يده.

هذه الشخصية، زلماي خليل زادة، التي يعتبرها الإيرانيون أحد جسورهم المباشرة إلى البيت الأبيض والإدارة الأمريكية، ويعتبر الأمريكان في نفس الوقت هذه الشخصية الشرقية جسرهم السالك إلى المطبخ السياسي الإيراني، وإلى تفرعات هذا المطبخ الطائفية في العراق وأفغانستان. لقد تم تعين زلماي خليل زادة في شهر حزيران (يونيو) من عام 2005 سفيراً للولايات المتحدة الأمريكية في بغداد حتى يرفع التكليف ويقصر المسافات الجغرافية في مهام التنسيق التي كان قد بدئها مع رئيس الوزراء في تلك الفترة، إبراهيم الجعفري، وغيرة من المسؤولين في العراق المحتل، والتي تربطه بهم صداقات وولاءات مشتركة لكل من الولايات المتحدة وإيران. وجلس بالقرب من السفارة الإيرانية في بغداد وشكلت غرفة عمليات مشتركة بين السفارة الإيرانية والسفارة الأمريكية في بغداد من أجل إدارة مشروع إحتلال العراق المشترك.

خليل زادة هو صاحب مشروع تقوية إيران وإضعاف العراق في الدراسة التي قدمها عام 1989 للرئيس جورج بوش الأب وهو من كان يحض أصدقائه من السياسيين الأمريكان بتحجيم قوة العراق بأي ثمن وبأي طريقة ممكنة.

في مفاوضاتها مع الإدارة الأمريكية حول العراق ومستقبل المعارضة العراقية تحولت الحكومة الإيرانية في طهران قبل الإحتلال إلى ناطق رسمي باسم تلك القوى المعارضة العراقية، وسمح الفرس الإيرانيون والعراقيون لأنفسهم بالتحدث باسم شعب العراق والتفاوض مع الغزاة بالنيابة عنه. تحدث صبحي الطفيلي، الأمين العام السابق وأحد مؤسسي حزب الله اللبناني، وكذلك العضو السابق في حزب الدعوة العراقي، بشكل واضح عن التواطؤ الإيراني مع أمريكا ضد العالم الإسلامي. في مقابلته مع محطة الجزيرة الفضائية في 25 .9 .2003 قال الطفيلي:"نحن بما نمثل من تشيع حقيقي نعلن صراحة وبوضوح أننا نرفض أي سياسة من إيران وغيرها بدعم الغزو الكافر لبلادنا. ونعتبر هذا الفعل عملا عدوانيا على امتنا."

تعددت الأدوار الإيرانية في الحرب على العراق والمساهمة في احتلاله. من الدور الإعلامي، إلى الدور العسكري والأمني مروراً عبر الدور الاجتماعي وصولاً إلى الدور السياسي.

كانت الآلة الإعلامية الإيرانية تتحرك في نفس النسق الذي رسمته الإدارة الأمريكية والدوائر الإعلامية الصهيونية لتسويغ وتسويق جريمة العدوان على العراق. إنها نفس الاطروحات والموضوعات التي يسمعها أو يقرؤها أو يشاهدها المرء عبر أجهزة الإعلام الغربية. تبنت أجهزة الإعلام الإيرانية والأجهزة التي تدور في فلكها طرح الإستراتيجية الغربية بحذافيرها في معرض تبريرها الحرب على العراق. لقد أضاف حكام إيران والأجهزة الإعلامية التابعة لهم ترويج مواضيع ذات طابع أخلاقي وسياسي سلبي ضد العراق وقادته إمعانا منهم في تبرير العدوان على القطر العراقي وعلى الشعب العراقي. دأبت كل الأجهزة الإعلامية التابعة لإيران، وحسب توجيهات مركزية صادرة عن رأس الدولة في طهران، تكرار، وبشكل يومي، تلك الافتراضات والإتهامات غير الدقيقة التالية:

- انتاج وتكرار تهمة المظلومية العرقية لغير العرب المزعومة التي ينتهجها النظام العروبي في بغداد
- انتاج وترويج المظلومية الطائفية التي يتعرض لها الشيعة في العراق على يد النظام البعثي "المنحاز" إلى غير الشيعة.
- والدكتاتورية السياسية التي ينهجها النظام العروبي في بغداد
- والمقابر "الجماعية" التي ارتكبها الحكم في بغداد كانت من الموضوعات الثابتة والدائمة في برامج تلك الأجهزة.

المقصود من هذا البرنامج الإعلامي الإيراني هو الترويج لمشروع تمزيق العراق على أسس عرقية وطائفية، وإلغاء عروبة العراق ومسخ انتماءات شعبه العربية. من ذلك تطمح الولايات المتحدة الأمريكية والحركة الصهيونية وإيران أن يصبح العراق أنموذجا لباقي الدول العربية في التمزق والشرذمة. لقد دعمت إيران دعواتها للتعامل مع الغازي بفتاوى دينية من قبل المراجع الدينية في إيران والنجف تحلل وتبرر الخيانة الوطنية لجزء من أبنائه. مثل هذه الفتاوى " سلطان حاكم عادل غير مسلم خير من سلطان مسلم جائر". هذه الفتوى كررها المرجع الديني علي السيستاني في اكثر من مناسبة أمام أجهزة الإعلام المختلفة وعبر عنها مساعديه ونوابه المنتدبين في القرى والمدن العراقية عبر البيانات ووسائل الإعلام المتعددة.

تكللت جهود إيران بنجاحات لا يستهان بها. ساعدهم في تحقيق هذه النجاحات عزلة النظام العراقي الخارجية، وكذلك سذاجة وسطحية قوى المعارضة الوطنية العراقية والعربية التي لم تتصدى لإطروحات وبرامج تلك الحركات الانعزالية والانفصالية المرتبطة بإيران وإسرائيل خوفاً من أن تتهم بموالاة النظام في بغداد.

المشاركة الإيرانية
في غزو العراق

لم تتوقف المشاركة الإيرانية عند حدود التحضير للحرب على العراق بل تجاوز الدور الإيراني مرحلة التحضير ودخلت إيران كشريك في الجهد الحربي والمشاركة الفعالة في جوانب من العمليات العسكرية داخل الأراضي العراقية. المشاركة العسكرية الإيرانية في الحرب كانت متشعبة من خلال الأدوار التي أنيطت بالطرف الإيراني.

بعد أسبوع من بداية المعارك في جنوب العراق حول البصرة دخلت العراق من الحدود الإيرانية قرب مدينة العمارة العراقية، قيل في حينه أنها قوات من المعارضة العراقية (الشيعية) قوامها خمسة آلاف عنصر من فيلق " بدر". تبين فيما بعد أنها عناصر من قوات الباستاران (الحرس الثوري) الإيرانية مدربة على رصد حركة القطاعات العسكرية العراقية تخفت بلباس عسكري عراقي وملامح شرقية عملت لصالح الغزاة في كشف تحركات الجيش العراقي أثناء الحرب. إن إقدام عدة آلاف من الجنود الإيرانيين المدربين على مهمة التجسس على الجيش العراقي، وتقديم هذه الخدمات الاستطلاعية عن تحركات الوحدات العسكرية العراقية للعدو المهاجم، يعتبر من الأدوار المهمة والحاسمة في الحروب. وقد كشف وزير الدفاع العراقي في حكومة أياد علاوي المعينة من قبل قوات الاحتلال، حازم الشعلان، كشف في مقابلة تلفزيونية في محطة ANB الفضائية اللبنانية في مساء 2. 10. 2005 عن هذا الدور العسكري الإيراني عندما أعلن" أن إيران أدخلت عدة آلاف من قواتها السرية والمخابراتية بأسبوع قبل دخول القوات السرية الأمريكية إلى الأراضي العراقية."[76] الشعلان أكد في نفس المقابلة العمليات العسكرية التخريبية ضد الأفراد والمنشئات الحكومية العراقية التي قامت بها هذه القوات أثناء الحرب.

فتحت إيران في الأسبوع الثاني للحرب أراضيها أمام القوات البريطانية والأمريكية التي حاصرت واحتلت مدينة البصرة ومدينة العمارة العراقيتين قادمة من الأراض الإيرانية. وقد وصلت تلك القوات الغازية الأمريكية، حسب شهود أعيان من أبناء المنطقة العرب في إقليم الأحواز، إلى مسافة أربعين كيلومتر داخل الأراض الأحوازية بالقرب من "معسكر حميد" الإيراني. وقامت القوات البريطانية بعملية إنزال لقوات المظليين تقدر بثلاثة كتائب فوق الأراض الإيرانية قبالة مدينة العمارة العراقية الحدودية بعلم ومعرفة

[76] تلفزيون ANB اللبنانية في 2. 10. 2005 .

وعلى مرأى القوات الإيرانية المتواجدة بكثافة في منطقة الحدود مع العراق. تلك كانت هي المهمة الثانية المناطة في الطرف الإيراني في الحرب كما تسرب عن مفاوضات الأطراف في جنيف، أي في فتح الأراض الإيرانية أمام القوات الغازية لتسهيل المهمة العسكرية لهذه القوات وإعطائها مجال واسع للمناورة والتحرك لضرب ومحاصرة القوات العراقية أثنا المعارك.

في الأيام الأولى لدخول القوات الأمريكية والقوات البريطانية المدن والقرى العراقية باشرت إيران في إخضاع المدن العراقية تحت سيطرة أجهزتها الأمنية وسيطرة الميليشيات التابعة كفيلق "بدر"، من خلال بث ونشر رجال المخابرات الإيرانية في الأحياء العراقية. وكان هذا العمل جاري على مرأى وبالتنسيق مع القوات العسكرية الأمريكية والبريطانية الغازية. هذه الصورة تجلت في المدن والقرى العراقية الجنوبية التي يغلب على سكانها الانتماء إلى المذهب الشيعي. سيطرة القوات الأمنية الإيرانية على هذه المدن العراقية الجنوبية لا زالت مستمرة حتى الآن. بهذا العمل أعفت الحكومة الإيرانية القوات البريطانية والقوات الأمريكية من مهمة حفظ الأمن والسيطرة على عشرات المدن والقرى العراقية، والتي تعد من أهم المساهمات العسكرية الشاقة في زمن الاحتلال، والتي تتطلب عشرات الآلاف من الجنود والآليات الإضافية من قوات الاحتلال حتى تستطيع إحكام السيطرة على هذه المناطق. "وقالت مصادر عسكرية بريطانية أن الحرس الثوري الإيراني يقيم معسكرات تدريب لمسلحين شيعة في إيران ودول مجاورة،"[77].

منذ الأيام الأولى للاحتلال باشرت قوات الأمن الإيرانية المنتشرة في العراق من ملاحقة واغتيال الضباط والمسؤولين والموظفين في الدولة العراقية، وكذلك مطاردة وتصفية العلماء والمثقفين العراقيين. اشترك في مهمة تصفية العلماء والكوادر العلمية العراقية جهاز اطلاعات (المخابرات) الإيراني وجهاز الموساد الإسرائيلي بالإضافة إلى ميليشيات "فيلق بدر" المتعاونة مع قوات الاحتلال. وزير الدفاع العراقي السابق حازم الشعلان قال في المقابلة التلفزيونية مع الفضائية اللبنانية في 2. 10. 2005. " لقد القي القبض على 150 عنصر إيراني من جهاز اطلاعات الإيراني في مدينة العمارة وما يقارب هذا الرقم تم إلقاء القبض عليه في كل من مدينة الحلة والناصرية والنجف وأعداد اكبر في كل من مدينة البصرة والعاصمة بغداد اتهموا في تنفيذ أعمال تخريبية وإجرامية داخل الأراض العراقية."[78]

في نفس السياق كشفت مصادر سعودية رسمية عن جانب من جوانب التدخل العسكري الإيراني المباشر في العراق في تقرير أمني صادر عن لجنة مشروع تقويم الأمن

---

[77] موقع العرب أونلاين على شبكة الإنترنيت العالمية في 12. 10. 2005 .
[78] تلفزيون ANB اللبنانية في 2. 10. 2005 .

القومي السعودي، وهي مجموعة استشارية، مطلعة على الأوضاع الميدانية في العراق. نشرت التقرير صحيفة "الواشنطن بوست" الأميركية وجاء فيه "أن القوات المسلحة الإيرانية تزوّد الميليشيات الشيعية بالأسلحة وتعمل على تدريبها، وان طهران تنشط في دعم السياسيين العراقيين المؤيدين للجمهورية الإسلامية. وأفاد أن عدد المتمردين السنّة في العراق يصل إلى نحو 77 ألف شخص، في حين أن عدد أفراد الميليشيات الشيعية يبلغ نحو 35 ألف رجل. وقال أن إيران تخترق العراق من خلال "قوات القدس" وهي الفرقة الخاصة من الحرس الثوري الإيراني المتخصصة في عمليات جمع المعلومات الاستخبارية خلال الصراعات الحربية غير التقليدية."[79] ويشرف على عمل قوات القدس الإيرانية في العراق عدد من الضباط والمسؤولين الإيرانيين الكبار وعلى رأسهم السفير الإيراني في بغداد. "اتهم قائد القوات الامريكية في العراق الجنرال ديفيد بترايوس في بيان سلمه الجيش الامريكي الاحد، سفير ايران في بغداد حسن كاظمي قمي بانه من اعضاء فيلق القدس. وقال الجنرال بترايوس خلال زيارة السبت لقاعدة عسكرية امريكية قرب الحدود الايرانية، ان السفير عضو في فيلق القدس."[80]

وفي نفس السياق أعلنت حركة مجاهدي خلق الإيرانية المعارضة في 26. 1. 2007 في برلين لائحة بأسماء اكثر من 31 ألف عراقي أكدت انهم عملاء لنظام الملالي الإيراني في العراق ويتقاضون أجورا من طهران. واتهم المتحدث باسم المجلس الوطني للمقاومة الإيرانية -الجناح السياسي لمجاهدي خلق- في ألمانيا "جواد دبيران" خلال مؤتمر صحافي إيران بإرسال ملايين الدولارات نقدا كل شهر إلى العراق وتهريب أسلحة إليه. وقال دبيران أن هؤلاء العملاء عناصر حاليا في فيلق القدس"، موضحا أن حركته حصلت على هذه اللائحة السرية من هذه القوة. وبحسب حركة المعارضة المسلحة الإيرانية، فان هذه اللائحة لا تتضمن سوى العناصر الذين جندهم فيلق القدس مباشرة في إيران، وفيلق القدس حركة قريبة من الحرس الثوري، الذراع المسلح للنظام الإسلامي الإيراني. وتعرض القائمة الاسمين العربي والإيراني لكل من هؤلاء العناصر فضلا عن اسمه السري في العمليات ورقم حسابه المصرفي وأجره الشهري بالريال الإيراني. وقال دبيران أن النظام الديني أقام شبكة من الإرهاب والقتل في العراق تنشط في بغداد كما في جنوب العراق وشماله ووسطه.

السياسي والأكاديمي العراقي المعروف ظافر العاني أجاب، في معرض رده على سؤال من صحيفة الشروق العراقية التي أجرت معه مقابلة صحفية في العاصمة المصرية القاهرة في 5 .5 .2005 عن الدور الإيراني في العراق في زمن الاحتلال، حيث قال: "صحيح أن أمريكا تحتل العراق عسكريا، لكن النفوذ الفعلي الآن هو لإيران حيث أن

---

[79] صحيفة النهار، بيروت عدد 19. 12. 2006 .
[80] صحيفة الفدس العربي، لندن في 8. 10. 2007 .

قوات الاحتلال محصورة في المنطقة الخضراء داخل دباباتها ذعرا من المقاومة في حين أن إيران هي التي تتحرك وتعمل على الأرض." لقد لخص الأكاديمي والسياسي العراقي واقع الحال وموقع إيران في المأساة العراقية في ظل الاحتلال الأجنبي لهذا البلد العربي.

لم تتوانى الحكومة الإيرانية في تصفية وإزاحة كل العناصر والقوى والقيادات التي تعارضت أو لم تتماها تماماً مع اجندتها وأهدافها القومية الفارسية في العراق. حتى تلك الرموز والشخصيات العراقية من أصول إيرانية، والتي كانت تعتبر من اشد الشخصيات الشيعية موالاة لإيران، وصنيعه من صنائع الأجهزة السياسية والأمنية الإيرانية، مثل المرجع الشيعي المعروف "عبد المجيد الخوئي"، والمرجع الشيعي ورئيس المجلس الأعلى للثورة الإسلامية محمد باقر الحكيم، شقيق عبد العزيز الحكيم، الذي يتزعم ميليشيات فيلق بدر ورئيس المجلس الأعلى للثورة الإسلامية، قامت الأجهزة الأمنية الإيرانية بتصفيتها. "صرح حاجم الحسني رئيس الجمعية الوطنية العراقية أمام نواب كويتيين إن إيران ضالعة في جريمة اغتيال كل من عبد المجيد الخوئي ومحمد باقر الحكيم لعدم توافق أجندة هذين القائدين الدينين والقائدين السياسيين مع أجندة إيران السياسية في العراق. وأكد الحسيني أن الحكومة العراقية تملك أدلة دامغة على تورط إيران في عملية تصفية هذين الرجلين."[81] قتل عبد المجيد الخوئي في مدينة النجف العراقية بعد دخوله الأراضي العراقية محمولاً بطائرة مروحية أمريكية، قادماً من لندن، في الأسبوع الأول للحرب في 2. 4. 2003 على يد مجهولين، واتهم في تنفيذ هذه الجريمة السياسية في حينه جماعة مقتدى الصدر. وقتل محمد باقر الحكيم في النجف بعد انتهاء صلاة الجمعة مع عدد من مستشاريه ومرافقيه وعدد كبير من المواطنين تجاوز المائة ضحية بواسطة سيارة مفخخة انفجرت بالجموع على باب المسجد في شهر أيار (مايو) عام 2003 ، بعد عودته من إيران التي كان يقيم فيها لأكثر من عشرين عاماً بشكل متواصل. لقد اتهم في حينه المتطرف الأردني "أبو مصعب الزرقاوي" وجماعته في تدبير هذا الاغتيال وهذا التفجير.

في كل هذه الجولات والحروب كانت إيران شريك وطرف أساسي مع أطراف رئيسية أخرى مثل الولايات المتحدة، بريطانية والصهيونية العالمية والكيان الصهيوني. في مقال للكاتب اللبناني علي نصار المطلع على الشؤون الإيرانية نشر على صفحة الجزيرة نيت القطرية في 20 .9 .2003 وتحت عنوان (المرجعيات الشيعية ومحنة المقاومة) كتب يصف الدور الإيراني في العراق بالتالي: "وعن دور حزب المجلس الأعلى للثورة الإسلامية في تغذية الشعور المذهبي لدى المسلمين الشيعة في العراق

[81] تلفزيون العربية وتلفزيون الفضائية اللبنانية ANB في 6. 10. 2005. بالإضافة إلى عدد من وكالات الأبباء العالمية.

ومسؤولية إيران في هذا الخصوص تعترف هذه المصادر بوجود مراكز قوى في النظام الإسلامي الإيراني تضمر عصبيات معادية للعروبة." ربما تشكل هذه الشهادة جزء من الحقيقة عن القوى الإيرانية الحاقدة على العراق وبقية العرب. المدقق في الشأن الإيراني سيلحظ أن هذه العناصر المعادية للعرب ليست هامشية وغير مؤثرة في السلطة في طهران، بل تتربع على سدة الحكم وتحتل جل المفاصل الأساسية في النظام السياسي و الاجتماعي والاقتصادي في إيران.

المشاركة الإيرانية
في احتلال العراق

في خطاب متلفز للرئيس الإيراني محمود أحمدي نجاد قدم فيه الرئيس الإيراني عرضاً سياسياً لحكومة المملكة العربية السعودية، كشف في هذا العرض عن النوايا الحقيقية والموقف الحقيقي للحكومة الإيرانية تجاه العراق ودولة العراق وشعب العراق. قال نجاد: "أدعو المملكة العربية السعودية للحوار من أجل مشاركة إيران بتعبئة الفراغ في العراق بعد رحيل القوات الأمريكية منهزمة منه."[82] في هذا التصريح تقدم الحكومة الإيرانية دعوة صريحة لاستعمار العراق بدل المستعمر الأمريكي، ولا تقيم أي اعتبار للحكومة والشعب العراقيين. ودعوة السعودية للمشاركة ليست أكثر من رش الرماد في العيون وإعطاء غطاء صوري للوجود وللأهداف الإيرانية الحقيقية في العراق. وقد رد وزير الخارجية السعودي، سعود الفيصل، على هذه الدعوة الإيرانية المتغطرسة بتصريح صحفي بالتالي: " مثل هذا الحديث خطير للغاية واعتقد أنه لم يكن من الحكمة الإدلاء بهذا البيان". وأضاف " أعتقد أن الإيرانيين يعرفون موقف جميع الدول العربية من تدخلهم في العراق أو في لبنان.. ذلك ليس شيئاً موضع تقدير في العالم العربي، والدول العربية ستعمل على حماية مصالحها."[83]

دخلت الأراضي العراقية مع قوات الاحتلال الغربية في الأيام الأولى للاحتلال مجاميع كبيرة من القوات العسكرية الإيرانية. العناوين والأسماء التي اختفت تحتها تلك القوات كانت متعددة. والاختصاصات والفروع لتلك القوات كانت أيضاً متفرعة.

لا يوجد أرقاما حقيقية لتعداد تلك القوات الإيرانية العاملة على أرض العراق. لكن ما أصبح معروفاً للمواطن العادي أن أحياء كاملة في بعض المدن، ومدن كاملة في المحافظات العراقية الجنوبية، تقوم في السيطرة على شوارعها ومداخلها قوات عسكرية إيرانية. وفي بعض المدن الجنوبية، كالنجف وكربلاء، أصبحت اللغة المستعملة بين الجنود العاملين في بعض المواقع الرئيسية من المدينة، اللغة الفارسية.

---

[82] فضائية الجزيرة القطرية في 27. 8. 2007 .
[83] صحيفة الوفاق ، لندن في 27 .9 . 2007 .

ما يقارب من الأربعين ألف إيراني يعمل باستمرار داخل الأراضي العراقية وهم يتقاسمون مع قوات الاحتلال البولونية والبريطانية والإيطالية المناطق الجنوبية من العراق، وقوات الاحتلال الأمريكية تقوم في محاولة منها للسيطرة على بغداد العاصمة وبقية مناطق شمال وغرب العراق. السفير الأمريكي زلماي خليل زادة صرح لوكالات الأنباء العالمية في معرض تعليقه على الأحداث الدامية في بغداد والمتزامنة مع الحرب الإسرائيلية على لبنان في تموز عام 2006 بقوله: "بعد انتشار حوالي سبعة آلاف جندي أميركي في بغداد لفرض خطة أمنية جديدة ووضع حد للميليشيات، ومنها «جيش المهدي» و «منظمة بدر» الشيعيتان اللتان تتهمهما الولايات المتحدة بالتعامل مع إيران. وأعرب السفير الأميركي في بغداد زلماي خليل زاد عن اعتقاده بأن طهران «ستستغل الحرب في لبنان لنشر المزيد من الفوضى في العراق»، مؤكداً أن لدى طهران قوات في هذا البلد."[84] خليل زادة هو سيد العارفين عن طبيعة التواجد العسكري الإيراني على الأرض العراقية، ليس لأنه يحتل منصب السفير الأمريكي في العراق فحسب بل لأن زادة كان رئيس الوفد الأمريكي في المفاوضات الإيرانية ـ الأمريكية في فترة التحضير للغزو، والمنسق العام بين القوات الأمريكية وقوات المليشيات القادمة من إيران والقوات الإيرانية التي شاركت في احتلال العراق.

تتوزع قوات الاحتلال الإيراني على ثلاث أصناف من القوات الأمنية:

مجموعات "الإطلاعات" أي مجموعات المخابرات العامة

مجموعات الحرس الثوري الإيرانية الخاضعة لإشراف رئيس الجمهورية الإيرانية بشكل مباشر

قوات الباسيج

قوات فرقة جيش القدس

بالإضافة إلى العناصر الفارسية المنضوية تحت منظمة فيلق بدر التي تضم في صفوفها أعداد كبيرة من العناصر العراقية من أصول فارسية. زاد تعداد منظمة بدر، حسب تقديرات المراقبين العراقيين والأجانب على 25 ألف عنصر.

يشارك الضباط العسكريين الإيرانيين في التنظيم والإشراف على الوحدات العسكرية في الجيش العراقي الجديد، والذي تشرف على إعداده وتسليحه قوات الاحتلال الأمريكية. وتشرف الأجهزة الأمنية الإيرانية على بناء الأجهزة الأمنية العراقية التابعة لوزارة الداخلية العراقية التي ترأس قيادتها في وزارة الداخلية بيان جبر صولاغ. استعانت الأجهزة الأمنية والعسكرية الإيرانية العاملة في العراق بخبرات قادة عسكريين في

[84] صحيفة الحياة البيروتية، في 9. 8. 2006 .

حزب الله اللبناني لتدريب عناصر عراقية لتنفيذ مهامها داخل العراق. قال المتحدث العسكري الأميركي البريغادير جنرال كيفن بيرغنر في مؤتمر صحفي " أن فيلق القدس ومعه خبراء من حزب الله يدربون نحو عشرين إلى ستين عراقيا في كلِّ مرة ثم يُعيدونهم إلى العراق منظَّمين في مجموعات خاصة. وكان هؤلاء يُدرَّبون على استخدام العبوات الناسفة غير التقليدية ومدافع الهاون والقذائف الصاروخية فضلا عن النشاطات الاستخباراتية والقنص وعمليات الخطف". وأشار المسؤول العسكري الأمريكي "إلى اعتقال قيادي في حزب الله اللبناني يُدعى علي موسى دقدوق في الـ 20 من آذار (مارس) 2007 في البصرة. وأن موسى دقوق كان حلقة الوصل بين فيلق القدس الإيراني العامل في العراق وجماعة جيش المهدي التي يقودها قيس الخزعلي، وهو متحدث سابق باسم رجل الدين مقتدى الصدر."[85]

شكلت الحكومة الإيرانية مجموعات عسكرية تعمل داخل قوات المغاوير التابع لوزارة الداخلية العراقية، التي يترأسها صولاغ بيان جبر العراقي الفارسي، والذي لا ينكر ولائه للجمهورية الإسلامية الإيرانية، وإعجابه بالنظام السياسي في هذا البلد. تقوم هذه المجموعات الإيرانية، والتي تدار من قبل ضباط أمنيين إيرانيين، بمهام تصفية الضباط والقادة العسكريين العراقيين الذين ساهموا في الحرب العراقية ـ الإيرانية في الثمانينات من القرن الماضي. وشكلت إيران بالتوازي مع إسرائيل مجموعات عسكرية تقوم في اغتيال وتصفية العلماء والخبراء المدنيين والعسكريين العراقيين. تمتع كثير من المجرمين والمطلوبين الإيرانيين بقضايا جنائية دولية بحصانة دبلوماسية عراقية وبمقاعد برلمانية عراقية في زمن الاحتلال الأمريكي والإيراني المزدوج. "نقلت محطة التلفزيون الأمريكية سي إن إن الثلاثاء عن أجهزة المخابرات العسكرية الأمريكية أن رجلا حكم عليه بالإعدام في الكويت لمشاركته في هجمات بسيارات مفخخة ضد سفارتي فرنسا والولايات المتحدة في مدينة الكويت عام 1983 هو عضو في البرلمان العراقي. وقالت المحطة أن جمال جعفر محمد النائب عن محافظة بابل بجنوب بغداد، يتمتع بالحصانة البرلمانية في وقت يتحرك فيه كعميل إيراني في العراق ويدعم الميليشيات الشيعة."[86]

المشاركة الإيرانية في الجهد العسكري في عملية احتلال العراق تفوق حجم أي دولة مشاركة في الاحتلال ما عدا الجهد الذي تبذله الولايات المتحدة الأمريكية، في تتحمل حصة الأسد في هذا المشروع السياسي والاقتصادي العسكري الكبير. وزير الدفاع العراقي السابق حازم الشعلان، وهو من أبناء العرب الشيعة، ومن الرموز المعارضة لحزب البعث وحكومة الرئيس صدام حسين، يكشف عن الدور الخطير التي تلعبه

---

[85] فضائية الجزيرة وفضائية العربية، وكالات الأنباء العربية والعالمية في 3. 7. 2007

[86] العرب نيت، وكالات الأنباء في 7, 2. 2007 .

الأجهزة الأمنية الإيرانية في العراق، ويؤكد من خلال الوثائق التي اطلع عليها أثناء توليه مسؤولية أحد الوزارات السيادية في حكومة أياد علاوي في تصريح خطير هو الأول من نوعه مع صحيفة "المحور" الأردنية، متهماً إيران بالوقوف خلف الأعمال الإرهابية في العراق. ويقول الشعلان: " قلت إن إيران هي مفتاح الإرهاب في العراق، وهنالك تعاون بينها وبين الزرقاوي، والزرقاوي لم يأت إلى العراق من الأردن، فقد جاء من خلال إيران، وتلقى تدريبات في إيران حينما جرح في العمليات الأخيرة في الرمادي.. لدينا معلومات أكيدة بأنه تداوى في مدينة إيرانية في إيران.. وهنالك أدلة قاطعه لدى الحكومة البريطانية إن كل المفخخات التي تقتل الأبرياء في شوارع بغداد مصنوعة في إيران.. واليوم ورد ما أقوله في مقالة بإحدى الصحف الإيرانية.. وهذا دليل واضح على كلامي حيث بدأ الأمريكيون يعودون إلى مقالاتي وإلى الملفات التي فتحتها مع البريطانيين، والجميع يشعر بأن إيران خلف كل العمليات، وإذا كان العراقيون الموجودون في الحكم الآن هم أصدقاء إيران ويدافعون عن إيران وهم بهذه الإساءة لشعبهم، ماذا نقول عنهم ، فهل نصفهم بالوطنيين أم نقول أشياء أخرى وهو ما نقوله بكل تأكيد لمن يريد الحقيقة."[87]

نقلت وكالة الأسشيوتيد برس في يوم 16. 3. 2006 عن المتحدث باسم البيت الأبيض سكوت مكليلان قوله: "إن السفير الأمريكي في العراق زلماي خليل زاد مخول بإجراء محادثات مع إيران بشأن العراق، مثلما أجرت واشنطن محادثات مع طهران بشأن أفغانستان"[88]. وقبل ذلك بساعات أعلن "علي لاريجاني" أمين المجلس الأعلى للأمن القومي في إيران عن استعداد الحكومة الإيرانية لهذه المباحثات حول العراق وقال: " نوافق على إجراء محادثات مع الولايات المتحدة لحل قضايا العراق وللمساعدة في إنشاء حكومة مستقلة في العراق. وسنعين فريقا تفاوضيا لبدء المحادثات قريبا"[89].

جاءت تصريحات لاريجاني ردا على دعوة كان وجهها، قبل يوم من ذلك التاريخ "عبد العزيز الحكيم" رئيس المجلس الأعلى في العراق لإيران كي تبدأ محادثات مع واشنطن بشأن العراق. وردت هيئة العلماء المسلمين في العراق على دعوة عبد العزيز الحكيم والتدخل الإيراني السافر في الشؤون العراقية في بيان رسمي جاء فيه: "تلقت الهيئة باستياء وامتعاض شديدين طلب جهات سياسية من دولة إيران الدخول مع قوات الاحتلال في مفاوضات حول العراق والاستجابة السريعة من هذه الدولة لها". وأضاف البيان، "التدخل الإيراني في الشأن العراقي ليس جديدا وقد بلغ الذروة في الأذى لكن

---

87 صحيفة المحرر الأردنية في 15. 10. 2005.
88 وكالات الأنباء العربية والعالمية.
89 وكالات الأنباء العربية والعالمية

الجديد سعي هذه الجهة إلى شرعنة هذا التدخل ومنحه غطاء دوليا في تجاهل تام للسيادة والإدارة العراقيتين."[90]

انتقلت إيران في زمن الاحتلال من الدولة الجارة التي تعيش حالة حرب مع العراق إلى الدولة الوصية تتفاوض نيابة عن أهل العراق لتحديد مستقبل ومصير هذا البلد العربي. يعلق الكاتب "محمد جميعان" في صحيفة القدس العربي على عرض عبد العزيز الحكيم وسرعة التجاوب الإيراني ـ الأمريكي هذا الطلب بالتالي: "والحقيقة تظهر أن عرضا مثل هذا وقبولا أسرع ليس بعيدا عن محادثات استخبارية مفصلة تواصل فيها الليل والنهار أقرت البنود ورسمت الخطط بما فيه سيناريو إخراجه."[91] لقد تكررت اللقاءات الأمريكية ـ الإيراني في بغداد وغير بغداد وعقدت من جديد جملة من الإتفاقيات السرية بين الطرفين. لقد أضافت كل من إيران وأمريكا اعترافاً جديداً بسير العلاقات السرية بين البلدين الجارية على قدم وساق، فرضتها الظروف السياسية المحيطة، رغم الخلافات الجوهرية حول المشروع النووي الإيراني. وهذا الاعتراف يشابه اعتراف وفضيحة "إيران ـ كونترآ ـ جيت" في منتصف الثمانينات أثناء الحرب العراقية ـ الإيرانية الأولى وعقد إيران صفقات شراء السلاح الإسرائيلي والأمريكي في تلك الأثناء.

كثير من القوى السياسية العراقية وقعت في فخ الأوهام والخداع الذي تم تداوله قبل الغزو للعراق. كثير من الأوهام تسربت إلى قطاعات كبيرة من الشعب العراقي حول دور إيران و طبيعة مواقفها الحقيقية. لعدة أسباب تاريخية ومذهبية وسياسة مستندة على مبادئ "الظاهرية" و"الباطنية" ومبدأ "التقية" برع الفرس في تسويق الوهم و تسويق الخداع على أوسع نطاق. كان العرب من أبناء جنوب العراق من اكثر المتضررين من سياسة الخداع هذه. فسياسة إثارة الحساسيات والأزمات التي تغذيها إيران في الوضع العراقي المتدهور، لتوظيفها بما يخدم توجهاتها وحساباتها القومية، أصبحت هذه المواقف الإيرانية تعبر لكثير من القطاعات العراقية الشعبية والسياسية عن حقيقة السياسة الإيرانية تجاه العراق والعرب، ولو بعد فوات الأوان، أو حسب المثل العراقي الشهير "بعد خراب البصرة".

التدخل الإيراني في تفاصيل السياسية العراقية وصل إلى مستويات كبيرة الأبعاد أصبحت تأثيراته خطيرة وموضوع مجالس الناس المتخصصة والعادية. وتتخذ إيران من العراق ساحة يتم عليها تصفية حسابات، وترتيب أوراق، ومشاريع للمنطقة، على حساب الشعب العراقي، وعلى حساب كيان هذا البلد السياسي، وبمشاركة جزء من

---

[90] ميديل است في 18. 3. 2006.
[91] القدس العربي لندن في 27. 3. 2006.

أبنائه في عملية الهدم الإيراني هذه. صار يستعمل العراق ومصير شعبه ساحة للمساومات الإقليمية والدولية بين إيران وإسرائيل والإدارة الأمريكية.

إعطاء الغطاء السياسي للقوى التي تعمل مع قوات الاحتلال، وفك العزلة الدولية التي تعاني منه هذه القوى المرتبطة بقوات الاحتلال، كانت باستمرار أحد المهام الدائمة للحكومة الإيرانية في العراق.

لم تتوانى إيران في إعطاء الشرعية للقوى السياسية العراقية التي نصبت من قبل قوات الاحتلال في المناصب الحكومية ومواقع المسؤولية في الدولة العراقية في زمن الاحتلال. كانت إيران الدولة الوحيدة في العالم من غير الولايات المتحدة وبريطانيا التي اعترفت في مجلس الحكم الذي عينه الحاكم المدني لسلطة الاحتلال في العراق "بول بريمر". وبقيت كذلك حتى حل هذا المجلس المعين واستبدل بالحكومة المؤقتة برئاسة أياد علاوي، الذي عيين ايضاً من قبل قوات الاحتلال وبقرار من الحاكم المدني الأمريكي "بول بريمر". كانت إيران الدولة الوحيدة التي اعترفت في هذه الحكومة رسمياً وبقيت كذلك حتى استبدلت بحكومة إبراهيم الجعفري رئيس "حزب الدعوة" الموالي لإيران. مع هذه الحكومة كانت إيران الدولة الأولى والوحيدة في العالم التي أقامت معها علاقات دبلوماسية كاملة. "كمال خرازي" وزير الخارجية الإيراني زار بغداد اقتداء بعادة المحتلين، كما فعلت وزيرة الخارجية الأمريكية "كوندليزا رايس" و "جاك سترو" وزير خارجية بريطانيا وكذلك كما فعل وزير خارجية استراليا وبولندا وإيطاليا، بالقيام بزيارة بغداد لتأكيد الدعم السياسي لحكومة الجعفري وتأكيد مشاركة التول المحتلة، وكانت حكومة إيران أول المؤيدين والداعمين لحكومة المالكي..

في كل هذه التشكيلات السياسية التي اخترعتها قوات الاحتلال خلال الأعوام المنصرمة لإدارة الوضع السياسي في العراق، وتسويق وتطبيق قوانين ومشاريع قوات الاحتلال في العراق، كانت إيران أول الدول المهنئة والداعمة للطاقم والتشكيلة الجديدة، وأول المودعة للطاقم القديم المستنفذ الصلاحية.

عندما انتخب جلال الطالباني رئيسا جديدا للعراق وعين نوري المالكي رئيساً للوزراء، كان الرئيس الإيراني محمد خاتمي أول المهنئين، وعرض استعداد بلاده للتعاون وفي دعم المسار السياسي في العراق، الذي اصبح يأخذ منحاً متصاعداً ينكر عروبة العراق. كما عبر خاتمي عن ارتياحه كون العملية "الديمقراطية" في العراق تأخذ مجراها "من دون أي تدخل خارجي" حسب قوله. الطلباني الذي وصفه الكاتب العراقي "هارون محمد" في القدس العربي في أحد مقالاته الصحفية بهذه الكلمات: "ولسنا هنا في معرض التشكيك بوطنية الأكراد أو ثلم عراقيتهم، لأن طالباني وبارزاني ونيجرفان وانوشيروان وكوسرت وموسرت ينتسبون إليهم، وإنما لأن هؤلاء ومن يتبعهم أناس عرفوا تاريخياً وسياسياً واستخبارياً بمعاداتهم للعراق وانخراطهم في مشاريع لتقسيم

العراق واقتطاع أجزاء منه إضافة إلى تعاملهم مع الأجنبي، ابتداء من الاتحاد السوفييتي السابق وانتهاء بإسرائيل والموساد وشاه إيران وهنري كيسنجر وحرس خميني وواشنطن، والمعلومات بهذا الصدد مفصلة بالوقائع والأرقام والأحداث والتواريخ، بل أن القياديين الأكراد يعترفون ويفاخرون بها،"[92] أصبح جلال الطلباني بقرار أمريكي ومباركة إيرانية رئيساً للعراق.

خاتمي قصد بالتدخل الخارجي في تصريحه الصحفي فقط التدخل الشعبي والرسمي العربي. فوجود قوات احتلال أمريكية وبريطانية وهولندية وإيطالية بمئات الآلاف على ارض العراق لا يعتبره الرئيس الإيراني محمد خاتمي تدخلا خارجياً. ووجود عشرات الآلاف من عناصر أجهزة الأمن الإيرانية من (جهاز اطلاعات) ولواء القدس الإيرانية على ارض العراق لا يعتبره تدخلاً خارجياً، وتواجد عشرات الآلاف من عناصر المرتزقة الدوليين الذين جندوا وجلبوا إلى ارض العراق من كل أصقاع العالم حسب فلسفة حكام إيران تأتي تحت بند وفتوى "الضرورات تبيح المحذورات".

من المؤكد أن "خاتمي" يعي جيداً أن في تصريحه هذا هو تدخل خارجي مباشر في الشأن العراقي، في تقوية طرف على حساب أطراف أخرى في البلد المنكوب. والرئيس الإيراني يعي تماماً أن الانتخابات المزعومة في العراق أجريت تحت حراب المحتل الأجنبي، وخضعت لعملية تزوير قامت بها أجهزة الأمن الإيرانية، من تحديد لأسماء المرشحين السرية مروراً بقوائم الناخبين وصولاً إلى نتائج تلك "الانتخابات".

يتكرر هذا العمل المشين عندما أقدمت أجهزة الأمن الإيرانية على تزوير إرادة الشعب العراقي. وتتمت عمليات تزوير واسعة النطاق في صناديق الاقتراع، وكذلك تزوير نتائج العملية الانتخابية التي جرت في 15. 12. 2005 بشكل مفضوح لصالح القوى الموالية لإيران في العراق على يد عناصر "اللجنة المستقلة" للإشراف على الانتخابات، وعلى يد عناصر المخابرات الإيرانية، وعناصر المليشيات التابعة لحزب الدعوة ومنظمة بدر. لقد وصل النشاط الإيراني في تدخله السافر في الشؤون العراقية إلى ممثل الأمين العام للأمم المتحدة في العراق. "وكانت يومية أردنية نقلت عن خلف العليان الأمين العام لمجلس الحوار الوطني قوله إن أشرف قاضي تلقى من إيران مبلغ خمسة ملايين دولار مقابل سكوته عن التزوير الذي طال الانتخابات العراقية."[93]

عندما جاء مسعود برزاني إلى بغداد وتحدث إلى الجمعية "الوطنية" وأكد أن الأكراد لا يوافقون على أن العراق بلد إسلامي ولا يوافقون على انتماء العراق إلى الأمة العربية كان من وقف إلى جانبه وأيده وشجعه في هذا الموقف والمسعى، بالصوت والصورة، هؤلاء "النواب" من أصول فارسية في هذه الجمعية المعينة، من أمثال عبد العزيز

---

[92] صحيفة القدس العربي، عدد 3. 1. 2006

[93] موقع القدس برس في 4. 1. 2006.

الحكيم وإبراهيم الجعفري وبيان جبرصولاغ وموفق الربيعي وغيرهم، الذي تجاوز عددهم 30 نائباً، من الذين أكدوا في اكثر من مكان ومناسبة عدائهم لكل ما يمت للعرب والعروبة بصلة.

كان الارتياح الذي عمّ التعليقات الصحافية الإيرانية بتسمية الطالباني رئيسا للعراق واضحاً ولا يقبل أي تأويل، إذ كتبت صحيفة "طهران تايمس" الشبه حكومية في اليوم التالي لهذا التعيين "إن بغداد حررت نفسها من المناخ العروبي الشوفيني وتخلصت من وهم القومية العربية وفكرة أن القومية العربية هي حجر الزاوية للوطنية". وشددت الصحيفة في تعليقها على التقارب ما بين الأكراد والشيعة كضحايا الأيديولوجية البعثية والقومية العربية.

صحيفة "إيران دايلي" الحكومية حيت بدورها الطلباني وأشادت به كأول رئيس غير عربي في العراق، واعتبرت التضامن الكردي ـ الشيعي تطورا مهما لصالح طهران.

تعيين رئيساً للعراق غير عربي ووزيراً للخارجية العراقية غير عربي وتعيين رئيساً لأركان الجيش العراقي الجديد ضابطاً غير عربياً. و تعيين رئيس الوزراء واكثر من نصف الوزراء الآخرين من الفرس من المقيمين في العراق ومن القادمين مع قوات الاحتلال من إيران ومن دول الغرب في حكومة الجعفري، على الرغم من أن العرب يشكلون نسبة 85 % من سكان العراق، هي خطوات متصلة في مشروع متكامل يسعى بكل وضوح لمحو هوية العراق العربية تلبية للرغبات السياسية للأطراف المشاركة في احتلال هذا البلد من غزاة أمريكا وغزاة إيرانيين وصهاينة.

وصل التغلغل الإيراني في العراق إلى جميع مرافق الدولة بما فيها المؤسسات العسكرية والأمنية. الأمر الذي دفع وزير الدفاع العراقي في حكومة أياد علاوي المعينة من قبل قوات الاحتلال، حازم الشعلان، إلى أن يعلن بصراحة بتاريخ 26. 7. 2004 بان التغلغل الإيراني عم كل مرافق الدولة بما فيها وزارة الدفاع العراقية التي يرأسها.

بعد الزيارة التي بدت مفاجئة لوزيرة الخارجية الأمريكية كونداليزا رايس للعراق في 15 .5 .2005 ، تناقلت وكالات الأنباء العالمية الخبر وانبرت في تحليل الدوافع الحقيقية وراء هذه الزيارة المفاجئة، وما نوع القرارات الأمريكية التي أرادت رايس إيصالها لمن يهمه الأمر في بغداد من وزراء ومسؤولين، والتي جاء فيها من جملة ما أشيع، أن الإدارة الأمريكي وصلت إلى قناعة إلى عدم التمكن من الخروج من المستنقع العراقي إلا بالوصول إلى حل سياسي مع المقاومة العراقية التي تسيطر على الموقف في العراق. وللوصول إلى اتفاق مع قيادات المقاومة العراقية، وفي المقدمة منها مع القادة البعثيين، لا بد من إعادة النظر في عدد من الموضوعات وأهمها:

إلغاء قانون اجتثاث البعث الذي عمل على سنة وتطبيقه الحاكم المدني الأمريكي بول بريمر وبمشورة ومشاركة عملاء الصهاينة وعملاء إيران في العراق.

ضرورة إعادة الكوادر البعثية إلى كل مؤسسات الدولة وإشراك البعثيين في قيادة الدولة.

إشراك ممثلي القوى المعارضة لوجود الاحتلال في صياغة الدستور الدائم. إشراك "العرب السنة" في الحياة السياسية في العراق بدلاً عن سياسة الإبعاد والإقصاء والتحجيم التي كانت سارية حتى ذاك الحين.

هذه النقاط الثلاثة تعني إعادة الاعتبار لقوى أساسية في المجتمع العراقي وإعادة الاعتبار إلى عروبة العراق وإدانة ضمنية للقوى التي تعمل مع قوات الاحتلال والاعتراف بعجز هذه القوى على إدارة البلد ووقف الانهيار الجاري على كل الأصعدة.

نشطت واستنفرت القوى الطائفية والشعوبية في الداخل، وهرعت القيادات الإيرانية إلى بغداد في 17. 5. 2005 ممثلة بوزير الخارجية الإيراني "كمال خرازي"، في محاولات محمومة منه لوقف الانهيار في المشروع الإيراني ـ القوى الشعوبية ـ الصهيوني المشترك، المتمثل في محو ومسخ عروبة العراق وتفتيت وحدة أراضيه ووحدة شعبه. كان رئيس الجمهورية الإيرانية خاتمي في وقت سابق، عندما استقبل في 27 .11 .2004 نائب الرئيس العراقي آنذاك إبراهيم الجعفري حذره من إعطاء أي دور "لبقايا النظام السابق" لما لهؤلاء من نفوذ وتأثير وتأكيد لعروبة هذا القطر العربي.

بعد تشكل حكومة الجعفري في 28 . 4 2005 ، نشب صراع في العلن بين رئيس جهاز المخابرات العراقي المعين في حكومة علاوي اللواء "محمد عبد الله المشهداني" على خلفية التحقيقات التي قام بها جهاز المخابرات العراقي مع عدد كبير من الأسرى العراقيين في السجون الإيرانية أثناء الحرب العراقية ـ الإيرانية في الثمانينات من القرن الماضي، والتي اظهرت تورط عناصر فيلق بدر وحزب الدعوة في التحقيق مع الأسرى العراقيين. "ومع أن لقطات كان التلفزيون الإيراني قد عرضها خلال سنوات الحرب العراقية ـ الإيرانية للأسرى العراقيين، يبدو أن جهاز المخابرات السابق قد سجلها ووثقها وتحولت عائداتها إلى الجهاز الجديد، تظهر العديد من قادة وكوادر وعناصر من المجلس الأعلى وقوات بدر ممن عادوا إلى العراق بعد احتلاله وهم يشاركون في استجواب الأسرى العراقيين ويترجمون لهم ويسجلون لقاءات إذاعية وتلفزيونية معهم. مسئولي المجلس الأعلى وميليشيات بدر لا ينفون صورهم ومشاركتهم في تلك الفعاليات ولكنهم يقولون إن مهماتهم في سنوات الحرب العرقية ـ الإيرانية كانت تقتصر علي الخدمات الإنسانية والتوجيهية والإرشادية وأغراض الترجمة. ويخشى الإئتلاف الشيعي من ظاهرة انتشار أشرطة وسيديات غزت الأسواق العراقية والعربية مؤخراً وتباع في بعض مناطق بغداد ومحافظات الكوت وديالي والحلة والموصل

وكركوك وصلاح الدين، تعرض صور أشخاص حققوا مع الاسرى العراقيين، يتولى بعضهم مناصب قيادية في حكومة الجعفري والجمعية الوطنية، ومن هؤلاء ستة محافظين يتوزعون علي محافظات في الفرات الأوسط والجنوب"[94]

التواطؤ السياسي والعسكري الأمريكي ـ البريطاني ـ الإيراني في سير الأحداث على ارض العراق حدى بوزير الخارجية السعودي، سعود الفيصل، أن يحذر هذه الأطراف في كلمة له أمام مجلس العلاقات الخارجية في نيويورك في 21. 9. 2005 من مغبة تفجر الحرب الأهلية في العراق، التي حسب ما قال، ستنهي العراق إلى الأبد. وحذر الفيصل من استمرار سياسة التفريق الطائفي التي تمارسها إيران في العراق وطالب الولايات المتحدة الأمريكية العمل على إيقاف التدخل الإيراني في الشؤون العراقية. وقال الأمير سعود أن الإيرانيين يذهبون إلى المناطق التي تؤمنها القوات الأمريكية "ويدفعون أموالا... وينصبون أناسهم بل وينشئون قوات للشرطة ويسلحون الميليشيات التي هناك" أضاف قائلا "وهم يحتمون أثناء قيامهم بكل هذا بالقوات البريطانية والأمريكية."[95]

رئيس الدبلوماسية السعودية لم تكن غائبة عن باله حقيقة الأهداف الإيرانية في العراق وفي منطقة الخليج، وحقيقة التدخل الإيراني في الشؤون العراقية، وكذلك المشاركة الفعالة الإيرانية في إشعال الحرب على العراق. لكن الموقف السعودي من الأحداث في العراق لم يكن في يوم من الأيام مستقل عن القرار الأمريكي. في كل الأزمات التي عصفت بالعراق وحول العراق كانت السياسة السعودية تتحرك حسب البوصلة الأمريكية. أيضاً في شن الحرب على العراق كان الموقف السعودي متجاوب مع القرار الأمريكي في شن هذه الحرب، وساهمت السعودية في تسهيل مهام القوات الأمريكية العسكرية، عبر السماح لهذه القوات في استعمال المطارات والقواعد العسكرية السعودية أثناء شنها الهجمات على المدن العراقية. من المرجح أن التصريح السعودي في هذا المجال جاء منسجما مع الموقف الأمريكي الذي يجمع أوراق الضغط على الحكومة الإيرانية لإجبارها على التخلي عن برنامجها النووي، وكان تصريح الوزير السعودي، مع تأكيد صحة ما جاء فيه، تلويح باستعمال الورقة السعودية في معادلة الصراع في العراق والمنطقة.

بعد تصريح الوزير سعود الفيصل حول خطورة التدخل الإيراني على مستقبل العراق في تمزيق هذا البلد ونشر الحقد والطائفية التي تشجعها إيران قام وزير الداخلية العراقي "جبر صولاغ"، بالنيابة عن إيران، بالرد على الوزير السعودي حيث قال في عمان أمام الصحفيين ووكالات الأنباء العالمية في يوم 1. 10. 2005. : "لا نقبل أن يعلمنا

---

[94] القدس العربي، 2 .5 . 2005

[95] تلفزيون الجزيرة، وموقع الشرق الأوسط على شبكة الإنتر نيت العالمية ،بالإضافة إلى وكالات الأنباء العالمية.

بدوي يركب الجمل الديموقراطية وحقوق الإنسان، وعلى السعودية إعطاء الشيعة الذين يعاملون هناك كأناس من الدرجة الثالثة و الإسماعيلية الذين يعتبروا أناس من الدرجة الرابعة حقوقهم."[96] لقد أصر الوزير العراقي صولاغ الفارسي الجذور والوعي والهوى أن يرد على انتقادات الوزير السعودي السياسية للإدارة الأمريكية وسياستها في العراق وسكوتها على التدخل الإيراني في الشؤون العراقية، والذي وصل إلى درجات خطيرة لا تطاق. هذا الوزير المعين يرد على الوزير السعودي بأسلوب طائفي حاقد، ولهجة عدائية سافرة للعرب، وبذاءة لفضية فجه بحق الإنسان العربي لا تليق بوزير يمثل دولة بحجم العراق.

هذا الحقد وتلك البذاءة بالألفاظ مستمدة من التثقيف الفارسي الشائع والدائم عن الإنسان العربي والشخصية العربية في الدولة الإيرانية منذ قرون، ولازالت سياسة تشويه الشخصية العربية هي السائدة في المناهج المدرسية الرسمية وفي وسائل الإعلام الإيرانية الرسمية والشعبية، حيث توصف "بتلك الشخصية البدوية التي لا تفهم إلا في ركوب ورعاية الجمال والغنم" كما عبر عن ذلك جبر صولاغ بوضوح. وبالمناسبة فإن نفس هذا التعبير "رعاة الجمال" شائع في الصحافة الغربية المتصهينة والمعادية للعرب في وصف الإنسان العربي. هذه التصريحات الفجة والتي تقطر حقداً وتعصباً عنصرياً وطائفياً من هذا الوزير اضطرت وزير عراقي أخر من نفس الحكومة التي يرأسها الجعفري، ولأسباب تكتيكية، وهو وزير الخارجية العراقي هوشار زيباري من قائمة الحزب الديمقراطي الكردستاني، أن يقدم اعتذاراً رسمياً باسم الحكومة العراقية في اجتماع عام للجامعة العربية على مستوى وزراء الخارجية العرب عقد في 2. 10. 2005 في مدينة جدة في المملكة العربية السعودية لمناقشة الوضع العراقي. قال زيباري: "إن تصريحات الزميل الوزير صولاغ غير موفقة وقد تدخل الزميل في مواضيع ليست من ضمن صلاحياته، وأنا كوزير خارجية للعراق اعتذر عن هذه التصريحات التي لا تخدم مصلحة العراق."[97]

وتقدمت شخصية سياسية أخرى، أصبحت معروفة في الأوساط السياسية، سارعت لحماية إيران من الانتقادات الموجهة إليها في تدخلها السافر في الشؤون العراقية. هذه الشخصية ليست اقل من السفير الأمريكي في العراق، زلماي خليل زاده، رجل إيران في الإدارة الأمريكية وأحد مهندسي الاحتلال الأمريكي لأفغانستان والعراق. صرح خليل زادة : "إن ما يتردد عن تدخل إيران في العراق لم يُلمس حتى الآن، داعياً طهران إلى المساهمة في إرساء الأمن والاستقرار في العراق."[98] لكن الإدارة الأمريكية عادت وغيرت من لهجتها وحديثها عن التواجد الإيراني المباشر في العراق المحتل وعن

---

[96] تلفزيون العربية في 10.2. 2005 .
[97] وكالات الأنباء العربية والعالمية في 2. 10. 2005. .
[98] موقع شبكة الأخبار العربية على شبكة الإنتيرنيت العالمية في 15. 10. 2005.

التأثير الإيراني المباشر في حالة الفوضى والإجرام والخراب الساري على أرض العراق عندما تغيرت الظروف السياسية المحلية والدولية.

في أعمال غير مسبوقة قامت قوات الاحتلال الأمريكي في 27. 12. 2006 بمداهمة مقر تابع لرئيس المجلس الأعلى للثورة الإسلامية عبد العزيز الحكيم واعتقلت القوات الأمريكية أربعة إيرانيين (دبلوماسيين ورجلي أمن) كانوا يقيمون في مجمع تابع لهذا المقر. في تلك الغارة تمت مصادرة وثائق وتقارير تؤكد مساعدة الحرس الثوري الإيراني لمجموعات القتل السنّية والشيعية من دون استثناء لزعزعة الوضع في العراق. في 11. 1. 2007 داهمت القوات الأمريكية القنصلية الإيرانية في شمال العراق في مدينة أربيل، واعتقلت القوات الأمريكية خمسة إيرانيين من قوات القدس ـ الذراع العسكري والأمني للحرس الثوري الإيراني المنتشر بكثافة في المدن والقرى العراقية.

ربما تكون هذه الأعمال مؤشرات على سياسة إدارة الظهر الأمريكية لإيران وعملاء إيران على أرضية الخلافات المتصاعدة بين الطرفين حول المشروع النووي الإيراني. وربما شعور الإدارة الأمريكية بعدم جدوى التعامل مع تلك القوى المرتبطة بإيران بعد استهلاك قدراتها وإنفضاح دورها في الأوساط السياسية والشعبية العراقية والعربية والعالمية. وربما تكون خطوات تكتيكية أقدمت عليها إدارة الإحتلال الأمريكي لتجميع أوراق ضغط مؤقتة ضد الشريك الإيراني في احتلال العراق لتحسين أوراق التفاوض بين الطرفين في المسألة العراقية إلى حين. لكن من المؤكد أن العلاقات الإستراتيجية بين أمريكا وإيران حول خنق وشل أحد أقطاب الأمة العربية لن تتأثر في لعبة التنافس وتوسيع مناطق النفوذ على أرض الرافدين.

تأكد هذا الإستنتاج في الزيارة الملفتة للإنتباه التي قام بها الرئيس الإيراني محمود أحمدي نجاد إلى بغداد من يوم 2 و 3. 3. 08 بحراسة قوات الإحتلال الأمريكي في كل فصول هذه الزيارة. فالرئيس الإيراني يطالب بخروج قوات الإحتلال الأمريكي من العراق وهو يقيم في بغداد تحت حراسة وحماية حراب قوات الإحتلال. المفارقات يمكن فهما في هذه الصورة فقط إذا ما أيقن المرء زيف الإدعاءات الإيرانية بكل ماله صلة بدعم القضايا العربية والعداء للصهيونية وللإدارة الأمريكية. في تلك الحالة فقط تزول الأوهام والشعارات المظللة عن المواقف الحقيقية للحكومات الإيرانية المختلفة.

ملاحظات على عملية
قتل الرئيس صدام حسين

حكم القاضي الكردي عبد الرحمن في 5. 11. 2006 . على الرئيس العراقي صدام حسين واثنين من زملائه بالإعدام شنقاً في قضية قرية الدجيل العراقية. تلك الحادثة التي دارت فصولها في عام 1982 بعد محاولة اغتيال فاشلة قامت بها عناصر من حزب الدعوة الإسلامي العراقي المرتبط بإيران. محولة اغتيال الرئيس العراقي صدام حسين جرت على أيدي عناصر حزب الدعوة بتنسيق وإشراف مباشر من قبل الأجهزة الأمنية الإيرانية. تلك المحاولة الفاشلة التي لو كتب لها النجاح لكان لها أثر كبير على الوضع العسكري في تلك الأيام حينما كانت الحرب مستعرة بين إيران والعراق على طول جبهات القتال. الحكم بالإعدام على رئيس دولة العراق من قبل قوى مرتبطة بالاحتلال الأمريكي ـ الإيراني المشترك، ومتهمة بالخيانة الوطنية، وفاقدة للشرعية القانونية والسياسية كان له صدى سلبي في أغلب دول العالم، وخاصة في الوطن العربي والعالم الإسلامي.

كانت فصول هذه المحكمة التي دامت لأكثر من عام وامتدت إلى ثلاثة وأربعين جلسة، أقرب إلى المهزلة منها إلى أي محكمة من المحاكم المحلية والدولية. لقد افتقدت هذه المحكمة الصورية لأدنى شروط المحاكم. لقد كانت تعبر عن صورة من صور عدالة المنتصر مضاف إليه اسقاطات الحقد القومية والطائفية. لقد رفضت الأغلبية الساحقة من دول العالم والقوى السياسية في العالم هذا القرار واعتبرته غير شرعي، وحكم باطل وغير قانوني وغير نزيه، وينم عن خلفيات سياسية محشوة بطابع الإنتقام وتلبية رغبات حيوانية عند مجموعة من القوى المحلية. واستجابه لرغبات حكام إيران بكل ما يختزنوه من أحقاد على العراق وشعب العراق وعلى رموزه السياسية التي قادت مرحلة التصدي للأطماع الإيرانية. وتوظيف هذا الحكم وهذا القرار لأهداف سياسية لصالح حزب جورج بوش في الإنتخابات البرلمانية الأمريكية التي جرت بعد يومين فقط من تاريخ النطق بهذا الحكم.

في مقدمة جبهة القوى الرافضة لهذه المحكمة ولهذا الحكم كانت الجماهير العربية من المحيط إلى الخليج. ليس بالضرورة حباً ودفاعاً عن الأشخاص المعنيين في ديباجة الحكم بل لتلمس هذه الجماهير وقواها الحية رائحة العدوان والظلم والغطرسة على

الشرعية الدولية، والكرامة والحقوق الوطنية العربية والعراقية المسلوبة، من قبل من هو خلف هذه المحاكمة، ويدير فصولها من أمريكان وإيرانيين وصهاينة، من داخل المنطقة الخضراء والسفارة الأمريكية وأوكار المخابرات الإيرانية في بغداد. كانت الحكومة الإيرانية في طهران، والصهاينة في إسرائيل وخارج إسرائيل، والرئيس جورج بوش وجماعة المحافظين في البيت الأبيض في واشنطن هي الأطراف التي أيدت حكم الإعدام، وقامت في مباركته وتبرير هذا الحكم على الرئيس العراقي ورفاقه. ودافعت هذه الأطراف الثلاثة عن حيثيات هذا الحكم الواهية والملفقة. أضيفت إلى جوقة المروجين والمصفقين لهذا الحكم بحق رئيس دولة عربية أساسية، تلك القوى العنصرية والطائفية التي دخلت العراق بصحبة القوات الغازية من الغرب ومن الشرق، والتي تدور في فلك هذا الثالوث غير المقدس من الحكومات والدول المستعمرة والمشاركة في احتلال العراق.

المتحدث باسم الحكومة الإيرانية، "غلام حسين الهام" قال في مؤتمر صحافي عقده في طهران معلقاً على ردود الفعل الدولية المطالبة بإلغاء عقوبة الإعدام بحق الرئيس العراقي صدام حسين ورفاقه ومحذراً رئيس الوزراء العراقي المالكي من الخضوع لتلك المطالب والتراجع عن هذا الحكم: "نأمل في أن لا يخضعوا لضغوط أولئك الذين بدأو حربا نفسية لإلغاء الحكم."[99] إصطفاف القوى المعادية والمشاركة في إحتلال العراق يعود للظهور من جديد في هذه القضية.

في صبيحة يوم عيد الأضحى المبارك الموافق يوم السبت من 30. 12. 2006 أقدمت حكومة نور المالكي على قتل الرئيس صدام حسين بصورة مقززة وهمجية تنم عن أحقاد يصعب تبريرها ووصفها، ضاربة بذلك عرض الحائط كل الأعراف والقوانين العراقية والعربية والإنسانية. لقد تقصد المالكي وحكومته الطائفية الإساءة إلى مئات ملايين العرب والمسلمين في جميع أنحاء العالم في الإقدام على هذه الفعلة الشنعاء بقتل رئيس العراق وفي تحديد يوم القتل في أول أيام عيد الأضحى الإسلامي. الصور التي ظهرت على شاشات التلفاز العربية والعالمية أظهرت عناصر ميليشيات الصدر وزعيمها مقتدى الصدر في قاعة الإعدام وهم يرددون ألفاظاً سوقية لرئيس جمهورية العراق صدام حسين. بحضور ممثل السفارة الإيرانية ومندوب عن الإدارة الأمريكية وإسرائيل قتل أحد قادة العرب في العصر الحديث على أيدي عملاء أعداء العرب. كان جل الحضور في قاعة القتل من ممثلي حكومة المالكي من غير العرب ومن أصول فارسية.

عمت جميع دول العالم مواقف الإدانة والتنديد والغضب على هذا الفعل الشنيع. وخرجت المظاهرات والاحتجاجات في الكثير من المدن العربية والعالمية رافضة لهذه

---

[99] وكالات الأنباء العالمية وتلفزيون الجزيرة القطرية. في 8. 11. 2006 .

الطائفية والهمجية. لقد وضعت الأطراف المسؤولة عن تنفيذ هذه الجريمة في قفص الاتهام السياسي والأخلاقي، وأصبحوا في عيون الملايين من الناس مجرد قتلة مارقين لا يمكن ائتمانهم على قيادة أوطان وشعوب.

من إعدام الرئيس صدام حسين ورفاقه تريد إيران أن يتعمق الحقد والكراهية بين أطياف الشعب العراقي، وخاصة بين الشيعة والسنة، ليتم لها تمزيق العراق وفرض هيمنتها وسيطرتها على الأقل على جزء منه. وتريد إيران من إعدام الرئيس العراقي صدام حسين وضع الشيعة العرب في حالة رفض دائم من قبل الجماهير العربية والإسلامية وخلق أجواء الخوف والرعب عند هذه الأقلية المذهبية بشكل دائم وعدم السماح لهم بالعيش مع بقية مواطنيهم بانسجام وثقة وأمان. ويعمل حكام إيران بشكل مستمر على فرض عزلة دائمة وخانقة على هذه الأقلية المذهبية لإجبارها على الارتماء في أحضان الدولة الإيرانية والحكومة الإيرانية وترك أوساطها مرتعاً للأجهزة الحكومية الإيرانية. تريد إيران في هذه السياسة لعب دور الحامي الوحيد لتلك الأقلية، مما يسهل استغلال تلك الأقلية في أي زمان لخدمة المشاريع الإيرانية القومية في المنطقة كلما أرادت القيادات الإيرانية ذلك.

تكرر اصطفاف القوى التي أيدت ودعمت الحكم على الرئيس صدام حسين ورفاقه بالإعدام، وكانت حكومة بوش وحكومة الصهاينة في تل أبيب وحكومة الملالي في طهران هي الفريدة والشاذة في العالم التي أيدت بشكل صريح قتل واعدام الرئيس صدام حسين في يوم العيد الإسلامي. لقد كان ثالوث الإدارة الأمريكية ـ والصهاينة ـ وإيران حاضراً في التحضير لإحتلال العراق من خلال تلفيق القصص وإشاعة الأكاذيب عن العراق والنظام العراقي لتبرير العدوان والاحتلال. كان هذا الثالوث حاضراً في سير العمليات العسكرية في إعلان الحرب على العراق. وكان هذا الصف من القوى حاضراً ونشطاً في الاحتلال وهندسة الخطوات السياسية وتمزيق المجتمع العراقي لطوائف وقوميات. في مشروع صياغة الدستور العراقي الجديد التقسيمي تحت مسمى الفدرالية ودستور المحاصصة الطائفية كانت هذه القوى متفقة حتى التطابق، وساهمت بشكل مباشر في تمرير هذا الدستور وفرضه على العراقيين. وفي تعيين مجلس الحكم الأول والثاني كانت هذه القوى الثلاثة، إيران والكيان الصهيوني وحكومة بوش، قد حددت أسماء الشخصيات العراقية المشاركة في تلك المجالس. وفي الانتخابات التي قامت إيران فيها بمساعدة عملائها في العراق بأكبر عملية تزوير عرفها التاريخ تحت سمع وبصر قوات الاحتلال الأمريكية، وبمساعدة جناح إسرائيل داخل الأحزاب الكردية المتنفذة، اصطفت تلك القوى من جديد في يوم إعدام رئيس دولة عربية أساسية محتلة.

خلفيات الصعاب في العلاقات الدولية
والعجز العربي على فهم طبيعة الفكر السياسي الإيراني

عندما تدخل شعوب ودول مختلفة الثقافات في جولات صراع وتحالف، عندما تقوم الشعوب والدول، في الحرب والسلم، في علاقات تبادل تجاري وثقافي واحتكاك بحكم المصلحة والجوار، تقع إشكاليات كثيرة في مسيرة تلك العلاقات. وكثير من تلك الإشكاليات وسوء الفهم التي تقع بين الأطراف بشكل غير مقصود، تعود في اغلب الأحيان إلى عدم فهم الآخر وطريقة تفكيره، وضعف فهم الأسس الثقافية والفلسفية التي ينشأ ويتربى فيها الطرف الآخر المصارع أو المتحالف. إن الاعتقاد بأن الطرف الآخر يقيم الأشياء من نفس الأسس والمبادئ التي ينطلق منها نفس الطرف في تقييمه للأشياء والأحداث هو خطأ فادح شائع. وأن الإعتقاد بأن آلية اتخاذ القرار وعقد المواثيق والمعاهدات عند أبناء كل الثقافات متقارب ومتشابه هو ايضاً خطأ فادح شائع عند الجمهور وصناع القرار على حد سواء.

هذا الخطأ الشائع أوقع العرب على سبيل المثال في كثير من الأخطاء والمآزق، وفي كثير من المفاجآت السياسية في رحلة الصراع الطويل مع العالم الغربي. في مسيرة المفاوضات الفلسطينية ـ الإسرائيلية في أوسلو وكامب ـ ديفد وغيرها من الأمكنة كان على سبيل المثال المفاوض الإسرائيلي، وهو ابن الثقافة الغربية، يصر على تدوين وتوثيق أي موقف أو أي وعد بالتنازل يحصل عليه أو يسمعه من قبل الطرف الفلسطيني المفاوض، مهما كان هذا الوعد سطحياً وتافهاً. في حين كان المفاوض العربي الفلسطيني، ابن الثقافة العربية، يكتفي بالوعد وكلمة الشرف في قضايا يقطعها الإسرائيليون علي أنفسهم قي مسائل أساسية سيقدمها للفلسطينيين، في مجالات حقوق عودة اللاجئين مثلاً، ومسألة القدس، وكذلك المستوطنات على أرض الضفة الغربية، ووكذلك في تحديد مسار القضايا المطروحة للبحث. اكتشف الفلسطينيون والعرب من بعدهم، انه قد تجمع لدى الإسرائيلي كم هائل من التنازلات المكتوبة والموثقة، والتي قد حصل عليها الطرف الإسرائيلي من الجانب الفلسطيني خلال جولات المفاوضات الطويلة والتي لم تنتهي بعد. واكتفى المفاوض الفلسطيني والعربي بالأوهام، في نفس الوقت أدرك الجانب الفلسطيني والعربي بأنه لا يمتلك من الوثائق والتنازلات الإسرائيلية إلا سراب الوعود الشفهية، والمجاملات المخادعة، والابتسامات الصفراء.

"الوعد" و"كلمة الشرف" بالتأكيد هي قيمة أخلاقية واجتماعية نبيلة، ويجب المحافظة عليها في المعاملات الإنسانية. وأن شعباً وأمة تمتلك هذه القيمة، ويمارس أفرادها هذه القيمة النبيلة، هو شعب وهي أمة جديرة بالاحترام والتقدير، وتمتلك مستوى عالي من الرقي الحضاري. لكن القيم الاجتماعية لها وزن وتعكس معانيها الحقيقية فقط في البيئة التي تنشأ فيها هذه القيمة، وفي مجتمع يحرس الناس فيه على ممارستها واحترامها. وفي مجتمع يعاقب أخلاقياً من يتجاوز ويسئ إلى هذه القيم النبيلة. لكن هذه القيمة ومعانيها تصبح سلبية ومضرة وغير ذات فائدة عند التعامل بها مع أفراد نشأوا في محيط ثقافات أخرى لا تحترم هذه القيمة وهذه الممارسة، وتصبح مدعاة للاستهجان والتساؤل وربما الازدراء والسخرية. وربما يتهم أصحابها ومن يمارسها، وهذا هو السائد في ثقافة الغرب، بالتخلف والسذاجة والغباء.

مثل ما يعاني العرب في علاقاتهم مع المجتمعات الغربية معاناة شديدة ومؤسفة جراء الفروق الثقافية القائمة، ومنظومة القيم الأخلاقية والسلوكية الشائعة في كل من المجتمعات الغربية والمجتمع العربي، والتطور التاريخي المتمايز لتلك المنطقتين، كذلك تواجه العلاقات العربية ـ الإيرانية، على خلفية الفروق الثقافية والأخلاقية كم هائل من الصعوبات والإشكاليات المتكررة. على الرغم من أن الدين الإسلامي لازال هو المعتقد الذي يساهم في صياغة جزء كبير من ثقافة المجتمع العربي والمجتمع الإيراني على حد سواء لكن فروق جوهرية لازالت قائمة في منظومة القيم والعادات والتقاليد والسلوكيات الفردية الشائعة في كلا المجتمعين، الإيراني والعربي.

فالانفتاح العربي على العالم الإسلامي، والصورة النمطية السائدة عند المواطن العربي، وكذلك صانع القرار العربي، في ضرورة تضامن الشعوب الإسلامية، وسيادة مفهوم الأخوة الإسلامية قليل ما يقابل بنفس الانفتاح والنية الإيجابية باتجاه الشعوب الإسلامية عند المواطن الإيراني والمثقف الإيراني وعند المسؤول الإيراني، الذي تسود في تكوينه الثقافي سمة الانعزال والشك والريبة تجاه الشعوب والحكومات الإسلامية الأخرى.حالة الشك وعدم الثقة المتفشية في المجتمعات الإيرانية تكاد تكون فريدة في شدتها وحدة انتشارها في العالم. ما ينظر إليه عند المواطن في المحيط الثقافي العربي بشكل عادي، ويمكن إدراكه بشكل تلقائي، وعلى أساس انه شئ طبيعي ومألوف، فهو عند المواطن الذي يعيش في محيط تسيطر عليه الثقافة الفارسية لا يبدو كذلك، طبيعي وعادي ومألوف. بل ربما ينظر إليه بشكل معاكس ومتناقض لما يدركه العربي. فالبناء الفوقي في المجتمعات العربية بشكل عام يختلف في الأسس والمكونات عن البناء الفوقي السائد في المجتمعات الإيرانية. فالجذور الدينية الإسلامية والمسيحية الشرقية العربية تختلف عن الجذور الدينية الزردشتية والمزدكية للنخب الفارسية. هذا الاختلاف يشكل الأرضية

المناسبة في خلق بعض الإشكاليات والصعوبات في تعامل الأطراف مع بعضها وسبب من أسباب صعوبة فهم الآخر.

لابد من الاعتراف بتمايز الشعوب بتمايز ثقافاتها. هذه الثقافات التي تضم بالإضافة إلى اللغة والموسيقى والدين وكذلك المنهج التربوي الذي من خلاله تتواصل الأجيال عبر الإرث الثقافي وأحداث التاريخ وكذلك المزاج النفسي والسيكلوجيا الجمعية أو المجتمعية. وهنا يكمن الكم الأكبر من الصعوبات بين الشعوب والجماعات البشرية.

فالعقل العربي مدرب على الإنفتاح والتعامل المباشر مع الآخر. والواطن في الثقافة العربية ، بشكل عام، يقدم على حل المشاكل الناشئة بطرق ووسائل مفهومة ومباشرة. وفي أغلب الأحيان تتجلى هذه الآلية بشكلها الصدامي والعنيف قليلة الحيلة والدهاء. هذه المباشرة عند الإنسان العربي تكمن جذورها واصولها في النسيج الإجتماعي للمجتمع العربي القبلي وفي منظومة القيم والأعراف التي تحظ على الشجاعة والأنفة والإباء. والتي تلعن المكر والخداع والغش وتعتبرها وتعتبر من يمارسها غير جدير بالإحترام. وبقدوم الإسلام وإشاعة مبادئه التي تحظ على الصدق في التعامل والأخوة والمساوة ، وقبل كل شي على السلم وحسن الجوار، ترسخت مجموعة القيم النبيلة في المجتمع وكذلك دحظت ممارسات القيم السلبية. لقد جاءت كثير من القيم الإسلامية منسجمة مع مزايا وطبيعة مزايا إنسان الثقافة العربية التي كانت سائدة قبل الإسلام. والرسول قال بهذا الصدد: "وما بعثت إلا لأتمم مكارم الأخلاق" التي كانت سائدة من قبل.

لكن الإنسان في الهضبة الإيرانية عاش تحت تأثيرات ثقافات مغلقة خلال القرون التي سبقت الإسلام. وكان تأثير الديانة الزردشتية ومبادئها في الممارسة ذو أثر كبير على مزاج الناس وعلى اسس التعامل بين الناس في الجوار والعيش المشترك ، وفي حل الخلافات والنزعاعات التي تنشأ. فالثقافة الزردشتية والدين الزردشتي بني على اسس مزدوجة في الفكر وفي الممارسة، وهذه الديانة تجيز الخطاب المزدوج في كل نواحي الحياة وفي العلاقات الإجتماعية اليومية. وخاصة في حل النزاعات والخلافات بين الناس يسود في العقل والثقافة الإجتماعية عند الفرد حتمية ووجوبية استعمال وممارسة مبدأ التقية والخطاب المزدوج وعدم المباشرة في طرح الأهداف ووضع الحلول. ومع أنشار الإسلام في الهضبة الإيرانية تسربت كثير من المبادئ والأخلاق الزردشتية إلى مكونات بعض الفرق الإسلامية واستطاعت ان تتأقلم مع الدين الجديد.

لقد ترك الدين الإسلامي الحنيف بمبادئه الإنسانية بصماته على الشعوب التي انتشر بين ظهرانيها، لكن الصحيح أيضاً أن بعض من ثقافات الشعوب وقيمها وثقافاتها الموروثة تركت آثارها وبصماتها الواضحة على ممارسات بعض تلك الشعوب الدينية والإجتماعية. فالفهم الصفوي للدين الإسلامي خير مثال هذا التأثير. حيث التقية والخطاب المزدوج أبرز تجلياته الزردشتية.

الآثار السياسية والاجتماعية
التي أحدثها الاحتلال في العراق

الاحتلال الأنجلو ـ أمريكي للعراق وبمساعدة القوى الطائفية والشعوبية أحدث شروخ عميقة داخل المجتمع العراقي. وبدت تطفوا على السطح ظواهر لم تكن مألوفة في السابق داخل المجتمع العراقي.

"من المحرمات التي كانت على العراقي أن يتكلم بها و الخوض في غمارها هي مسألة الطائفية. فقانون العقوبات العراقي يعاقب كل مواطن يتناول هذه الموضوعات ويذكر مصطلح شيعي أو سني. ذلك أن المعيار المتخذ هو المواطنة والمحافظة على وحدة المجتمع وتماسكه. وعندما دخلت الولايات المتحدة أرض العراق أصبحنا نتكلم بهذه المصطلحات بشكل مطلق."[100] هكذا تحقق مركز الدراسات الإستراتيجي في بغداد من التطور المفاجئ والخطير بعد عدة أشهر من تواجد المحتل الأجنبي على أرض العراق، وتنصيب القوى الطائفية على رأس قيادة الدولة هناك. "أصبح تداولها في العراق في الوقت الحاضر مألوفا في كل مكان وموضوعا دخل القاموس السياسي والإداري بشكل علني. فتوزيع المناصب العليا بالدولة والوزراء والمدراء العامون بل حتى صغار الموظفين والعمال جرى على المحاصصة الطائفية. وأصبحت حقا مطالبا به في المحاصصة الوظيفية فعلى كل وزير مراعاة التوازن الطائفي في وزارته. وأصبح المواطن العراقي يبحث عن وزارة فيها وزير من مذهبه لكي يعينه بالوزارة. ولا يتردد أن يكتب المواطن مذهبة على ورقة طلب التعيين."[101] منذ اليوم الأول لدخول قوات الاحتلال أرض العراق بدأت خطوات تمزيق وحدة الشعب العراقي، بل التحضير لتلك السياسة بدأ، بفعل القوى العراقية الطائفية وبفعل الدولة الإيرانية وأجهزتها الإعلامية خلال العقدين الأخيرين، وسبق بزمن طويل دخول الجيوش الغازية العراق.

---

100 مركز دراسات الوحدة العربية في بغداد عن البصرة نت ص1 في االثلاثاء 27 تموز 2004

101 المصدر السابق

على الرغم من كل ما أشاعت وروجت له الأحزاب والقوى السياسية العراقية المرتبطة في إيران، والتي تدور في فلك الحكومات الإيرانية حول التمييز الطائفي لحكومة حزب البعث وحكومة الرئيس صدام حسين إلا أن الحقائق الدامغة تؤكد غير ما يدعون ويروجون له. فحزب البعث العربي الاشتراكي حزب علماني التوجه ومبادئه السياسية والأيديولوجية هي فوق الأديان والطوائف، وبناء الحزب ومشروع بناء الدولة التي يقودها هذا الحزب كانت مبنية على أسس وطنية وقومية عربية، وكذلك كان دستور الدولة العراقية المعدل عام 1972 . إن شهادة الكاتب والسياسي العراقي نوري المرادي في الندوة التي أقامها مركز دراسات الوحدة العربية في بيروت من 25 - 28 . 7 . 2005 تحت عنوان "مستقبل العراق" تثبت زيف ادعاءات تلك الجماعات، التي انخرطت في المشروع القومي الفارسي ضد المشروع الوطني العراقي، وحاربت الوطنية العراقية والمشروع القومي العربي في العراق، وقفت إلى جانب المشروع القومي الفارسي، المتمثل بإشاعة الطائفية في العراق.

نوري المرادي الذي لم يكن يوماً عضواً في حزب البعث العربي، والذي يعتبر من أحد قادة الحزب الشيوعي العراقي (الكادر)، بين في محاضرته العلمية أمام جمع الباحثين والسياسيين العرب في ندوة حول مستقبل العراق أن: "لا أساس لاضطهاد حزب البعث للشيعة كمذهب. بل أن حزب البعث أصلا نشأ في مناطق شيعة وأول خلاياه بعد بغداد تكونت في النجف، ومؤسسوه في العراق شيعة. وعام 1963 كان عدد أفراد القيادة القطرية لحزب البعث 13 شخصا جميعهم شيعة بما فيهم عضو القيادة القومية ومسؤول قطر العراق، علي صالح السعدي. وأول أيام حكم البعث عام 1968 كان أكثر العناصر سطوة ودموية هو ناظم كزار – وهو شيعي. وعدد الوزراء الشيعة خلال حكم البعث ليس أقل من عددهم في حكومة غلمان الاحتلال الطائفية الحالية. و58% من عموم حزب البعث شيعة، و65% من كادره الوسطي والأدنى شيعة. وأن السنة قاموا بتسعة محاولات انقلابية ضد البعث بينما الشيعة قاموا بانتفاضة واحدة فقط. وأخيرا، فمن بين قائمة الـ 55 مطلوبا من المحتلين وتبدأ بالرئيس الأسير، هناك 35 شيعيا و14 سنيّا و1 مسيحي. وهكذا معطيات، إذا أطلع عليها متابع ما في المستقبل، لضحك حتما من دعوات اضطهاد البعث للشيعة."[102]

في دراسة قيمة للكاتب العراقي فالح حسن شمخي في أحد مقالاته المنشورة تحت عنوان "الطائفية المقيتة سلاح سياسي بيد أعداء الأمة العربية" في 23 .7 .2004 حول الطائفية ودور أحزاب ومنظمات الطائفية السياسية استنتج الكاتب العراقي الأهداف الأساسية العامة للقوى الطائفية داخل المجتمع بشكل عام والمجتمع العراقي بشكل خاص بالتالي:

[102] موقع البصرة على شبكة الإنتر نيت العالمية .

الهاء اكبر ما يمكن من القاعدة الشعبية و إبعادها عن جوهر قضاياها الوطنية والقومية وعلى رأسها تحرير العراق والأرض العربية من المغول الجدد ، وجرها بالاتجاهات المغلوطة بحيث توضع في مواقع حائرة وأخرى متناقضة لطبيعة مصالحها الحقيقية.

التأثير المضاد على فعل المقاومة الباسلة، لان (هبة الطوائف) تحاول إقامة استقطاب طائفي يضيق بأهداف حركة التحرير ويحاول تسكين الفعل المقاوم في بحر زائف من (السلام الاجتماعي).

إن هذا الاصطفاف المشوه هو اقرب إلى الخليط غير المتحد، وهو يرمي من خلال جهده لإيجاد كتلة جماهيرية إلى التباهي بها والتنافس من خلالها، على الطريقة العشائرية ويرمي إلى إشاعة روح الحقد الطائفي لإيجاد حالة من التوتر ، بهدفين:

أولا ـ جعل التوتر قائما للإنشداد إلى مركز التأثير الطائفي.

ثانيا ـ بقاء حالة من الاستنفار والهياج لاستثمارها عند المقتضيات المحددة.

تبذل الزعامات الطائفية جهودا مركزة لتعزيز سلطتها من خلال الأمور التالية:

أولا ـ التركيز على الخصوصيات المذهبية والتأكيد على الافتراضات العقائدية المتصلة بجوهر الدين والنظرة إليه.

ثانيا ـ إيجاد طقوس وتقاليد بعيدة عن الدعوة المذهبية، وشد القاعدة الشعبية إليها وبذل الجهود لتصوير هذه العادات المصطنعة وكأنها المظهر الذي يعبر عن جوهر الإيمان بالطائفة وحقوقها "فالرداء القصير واللحية الطويلة وطقوس عاشوراء الصفوية أصبحت هي الدين أما الجهاد ففيه وجهة نظر".[103]

فالأرضية المشتركة بين الأحزاب السياسية الطائفية وبين قوات الاحتلال الأمريكية تتلخص في رغبة هذه الأطراف في إعادة صياغة المجتمع من جديد وتقسيم المجتمع حتى تتمكن هذه الأطراف من السيطرة على الوطن العراقي، والسيطرة على مقدراته. فتوحد المجتمع وتكاتف أطيافه كان دوماً عنصراً من عناصر القوة والمنعة لهذا الوطن. القوى الطائفية تتجمع في العراق وتشارك تحت لواء وقيادة الأجهزة الأمنية الإيرانية في مشروع تقسيم العراق. "وأكد تقرير إستخباراتي بريطاني أن ضباطا من الحرس الثوري والاستخبارات الإيرانية بدأوا منذ مطلع الشهر تشكيل مجالس محلية شيعية من مختلف المدن والبلدات الجنوبية بقيادة لجان مختلطة من إيرانيين وميليشيات عراقية من فيلق بدر وجيش المهدي ومسؤولين أمنيين وسياسيين من (حزب الله) اللبناني."[104]

---

[103] قارن شمخي، على موقع البصرة، شبكة الإنتر نيت العالمية.

[104] صحيفة السياسة الكويتية. عدد 9. 3. 2006.

التجارب البشرية نفت إمكانية اللقاء بين البرنامج والمشروع السياسي الوطني مع البرنامج والمشروع السياسي الطائفي. فالطائفي الانعزالي المقسم هو بالضرورة والممارسة نقيض الوطني والقومي الجامع الموحد. هذا التناقض الصارخ يدفع ايضاً بالضرورة والممارسة بالقوى الطائفية إلى مواقع خيانة الأوطان وخيانة الشعوب التي ينتمون إليها. من يتبنى مشروع الطائفية الاجتماعية ومشروع الطائفية السياسية يكون قد سقط بكل تأكيد في مستنقع الخيانة الوطنية شاء هذا الطرف أم كره. فالتجربة اللبنانية أكدت بما لا يدع مجالاً للشك، أن قوى الطائفية السياسية، على اختلاف مسمياتها، سنية أو شيعية أو درزية كانت، كاثوليكية أو مارونية وغيرها من المسميات، كانت دائماً تستقوي بالأجنبي على أبناء الوطن الآخرين، وتدعو القوى الأجنبية للتدخل في شؤون الوطن وإفقاده حريته واستقلاله. لبنان منذ أن ظهرت فيه الطائفية السياسية لم يذق طعم الحرية والاستقلال، وكلما خرج هذا البلد العربي من حرب أهلية يدخل في أخرى اكثر فتكاً و دمارا.

وعن علاقة القوى السياسية العراقية المتعاونة مع قوات الاحتلال بالحكومة الإيرانية وبأجهزة الدولة الإيرانية، يكشف الأمين العام السابق لحزب الله اللبناني "صبحي الطفيلي" نوعية هذه العلاقة حين قال في المقابلة التلفزيونية مع محطة الجزيرة القطرية في 25 .9 .2003: "المشكلة في السياسيين، ذلك أن معظم التيارات الدينية السياسية منضوية تحت راية التيار الإيراني المتواطئ مع الأمريكيين. وهو الذي يأمر القيادات السياسية الشيعية بقبول مجلس الحكم وان تكون أعضاء فيه." بعد أن يقرر الشيخ الطفيلي أن القيادات العراقية السياسية الدينية خضوعها لإرادة تيارات أجنبية إيرانية، يشخص نوع هذه العلاقة مع إيران والإدارة الأمريكية بعلاقة السيد بالمأمور وليست علاقة الند للند.

في مقابلة مع صحيفة الشرق الأوسط في العاصمة الأردنية عمان في 20. 9. 205 قال وزير الدفاع العراقي السابق في حكومة أياد علاوي، حازم الشعلان: "الكثير من المسؤولين في الجمعية الوطنية يعملون الآن لصالح المخابرات الإيرانية".[105] السؤال الذي يطرح نفسه ما السبب وراء تحديد شكل هذه العلاقة؟ هل لأن القيادات السياسية الشيعية في العراق هي مجرد مجموعة أفراد من موظفين في أجهزة الدولة الإيرانية وينفذون تعليمات مرؤسيهم، أم هو الإفراط في حب إيران وخدمة مصالح الجمهورية الإسلامية هو الذي يحدد هذه النوعية من العلاقات؟ أو الجهل الذي يصنع التعصب يدفع بصاحبه، وبمن يدعي الدفاع عنهم إلى مهاوي التهلكة والدمار بالإضافة إلى التواطؤ وخيانة الوطن والمجتمع ؟

[105] صحيفة الشرق الأوسط في تاريخ 20. 9. 2005 .

غرق العراق في مستنقع الفوضى الأمنية وجحيم حمامات الدم والقتل المنظم والجوع والفقر والتدمير. لم يتحقق شئ من تلك الوعود التي قدمتها تلك الأطراف التي قدمت مع قوات الاحتلال. بل كانت تلك الأطراف هي صانعة الخراب والفقر والموت والدمار. لقد أصبحت الديمقراطية المستوردة داء بدل أن تكون دواء للوطن العراقي. يقول حارث الضاري الأمين العام لهيئة العلماء المسلمين في العراق: "الواقع أن الانتخابات هذه لم تكن ديموقراطية، ففي العديد من المحافظات في الجنوب وفي الوسط لم يجر تصويت لصالح الدستور والحكومة الحالية إلا 28 أو 27 في المئة في بعض المحافظات، والباقي كله تزوير، بل أن محافظات في الجنوب الشيعي، ولا أقول في الوسط السني، رفضت المشاركة، ومنها السماوة والديوانية والناصرية، وحتى في النجف الأشرف نفسه لم ينتخب أكثر من 45 في المئة، وكانت النسبة في كربلاء أقل. أما في الوسط ذات الغالبية السنية، فحدث عن المقاطعة ولا حرج. الانتخابات هذه كانت زائفة ومزورة استعانت بها قوات الاحتلال لأن الرئيس الأميركي جورج بوش أراد إنجاح هذه القوائم في انتخابات الجمعية الوطنية العراقية. وكذلك استخدمت عملية التزييف نفسها في الاستفتاء على الدستور، بل أنكى، لأن أربع محافظات في الوسط صوتت فيها الغالبية ضد الدستور، وهناك ثلاث محافظات في الجنوب صوتت ضد الدستور. وبالتالي أقول إن الفتنة الموجودة في العراق سياسية ووراءها أطراف وسياسيون يريدون أن يؤججوا الفتنة للأهداف التي ذكرناها، وبالتالي الفتنة ليست سنية أو شيعية وليست طائفية بدليل أنه الآن أكثر من 70 أو 80 في المئة من الشيعة في الجنوب وفي الوسط رافضون للاحتلال وللعملية السياسية ورافضون للفيديرالية."[106] لم يجانب حارث الضاري الحقيقة في وصفه لوقائع العملية السياسية الجارية على أرض العراق بل ربما كان دبلوماسياً في وصف الحال المتردي ودور الأطراف المشاركة والفاعلة في هذا الواقع المرير.

[106] صحيفة النهار ، بيروت في 27. 12. 2006.

تداعيات

الحضور الإيراني في العراق

أوردت صحيفة القدس اللندنية في 27 .4 .2005 مقتطفات من بيان سياسي صادر عن عشرة منظمات سياسية عراقية كانت قد عقدت مؤتمراً صحفياً في فندق بابل في وسط بغداد ووزعت على وكالات الأنباء الحاضرة ذلك البيان السياسي. جاء في بعض فقرات هذا البيان كما ذكرته صحيفة القدس التالي: "استنكر ممثلو الأحزاب والتنظيمات والشخصيات العراقية تدخلات النظام الإيراني في شؤون العراق الداخلية وطالبوا بقطع أيدي النظام الإيراني في العراق وطرد عناصر مخابراته. وأعلن مندوبو أحد عشر من الأحزاب والقوي والشخصيات الممثلة لحوالي مليونين وثمانمائة ألف عراقي في اجتماع عقدوه في فندق بابل في بيان، وأشار البيان الصادر عن الاجتماع إلى أن بلدنا أصبح يتعرض لحرب مقنعة واحتلال آخر غير معلن من قبل النظام الإيراني. أضاف البيان أن إرسال مئات الآلاف من العملاء إلي العراق وكميات هائلة من الأسلحة وعشرات الإذاعات وآلاف المطبوعات واغتيال المعارضين لسياسته والعلماء والأطباء وتوزيع المخدرات وإثارة الفتنة الطائفية ونداءات خامنئي للتمرد وارتكاب المجازر، كلها وغيرها تشكل جزءا من كارثة تدخل النظام الإيراني في العراق."

ربما يعبر موقف هذه الأحزاب والقوى السياسية العشر عن مزاج الشعب العراقي العام، الذي اخذ يتسع وينبذ ويرفض يوم بعد يوم التواجد الإيراني السري والعلني على الأرض العراقية، والتدخل الإيراني السافر في الشؤون العراقية. وفي هذا السياق صدر بيان عن تجمع لعشائر شيعية بجنوب العراق أطلق علية أسم " تجمع العشائر الوطني المستقل" أدان التدخل الإيراني في الشؤون العراقية. وقع البيان اكثر من 300 الف من اهالي محافظات الجنوب، وكان من بين الموقعين عليه 14 رجل دين و600 شيخ عشيرة و1250 حقوقيا ومحاميا و2200 طبيب ومهندس واستاذ جامعي و25 امرأة . وجاء في هذا البيان " ان اكثر الطعنات ايلاما وأكثر الخناجر تسمما التي غرزها النظام الايراني في خاصرتنا نحن الشيعة في العراق هو استغلال مذهب الشيعة وبشكل مخجل

لتحقيق نواياه الشريرة." واتهم البيان النظام الايراني "باستهداف مصالحنا الوطنية العليا وبدأوا يخططون لتقسيم العراق وفصل المحافظات الجنوبية عن بلدنا العراق."[107]

لقد سبقت تلك التجمعات و البيانات تجمعات قوى عراقية أخرى هي بالتأكيد لن تكون الأخيرة. إن دائرة الرفض للتواجد الإيراني طالت حتى مجموعات القوى لتي كانت بالوقت القريب تحسب على قائمة القوى العراقية الحليفة للنظام الإيراني. انفضاح الدور الإيراني في استغلال الوضع العراقي لتحقيق مكاسب قومية إيرانية على حساب آلام الشعب العراقي المنكوب بآفة وكارثة الاحتلال، ساهم في إعادة فرز الأوراق وتكوين قناعات وإعادة التفكير بالكارثة التي حلت بالبلد وتقييم أدوار القوى المسببة لتلك الكارثة، وتحديد مواقف جديدة من إيران ودورها في الحرب على العراق واحتلاله.

لقد انضم آية الله فاضل المالكي المقيم في مدينة قم الإيرانية إلى القوى الدينية العربية التي تناداي بوقف تدخل رجال الدين الإيرانيين في الشأن العراقي، والتوقف عن التحدث باسم الشعب العراقي لأنهم أولاً غير عراقيين ولأنهم ثانياً تحالفوا مع أعداء العراق. في مقابلة أجرتها معة فضائية العربية قال أية الله المالكي: "أنا هنا في إيران، وأرى أنهم لا يسمحون لأي مرجع حتى لو كان أعلم علماء العالم أن يتدخل في شؤونهم الداخلية والسياسية. نحن في العراق نقول لهم لا تتدخلوا بشؤوننا الداخلية تجنبا للحساسيات والاختراقات ولأن المرجع ابن البلد أفهم بشؤون بلده ." وأضاف "بصراحة أفتي بأنه لا يجوز لمرجع غير عراقي الاصل أن يتدخل في الشأن السياسي العراقي سواء كان في قم أو في النجف، ووجوده في النجف لا يعني أنه عراقي ." وتسائل رجل الدين المالكي: "هل من الإنصاف أن يسمح لعلماء غير عراقيين في النجف أن يتصرفوا في الشأن السياسي والفتوى، بينما لا يسمح للعراقي الاصيل أن يعلن رأيه وصوته. هؤلاء المراجع من أصل إيراني يصولون ويجولون في بلادنا، والسبب أنهم جزء من معادلة تم التفاهم عليها وفق أجندة إقليمية ودولية أن يكون هؤلاء الغطاء الشرعي لهذه العملية السياسية الخاطئة. وهم دخلوا للعراق من كل القنوات حتى الحوزة والدين"[108].

التيار السياسي والديني الفارسي المهيمن في العراق يعرف بالتيار الصفوي، نسبة إلى حكام إيران الصفويين، والذين يغلب على طابع التشيع عندهم التركيز على الشكلية والرمزية بدلاً من التركيز على القصد والمضمون في ممارسة الشعائر الدينية. يتهم أصحاب هذا التيار في خلق وإبداع مراسيم وشعائر دينية عن قصد وسبق إصرار تبتعد كثيراً عن جوهر الدين الإسلامي الحنيف وتقترب من شعائر الصفويين الفرس لفرض هيمنة سياسية على المدن العراقية.

---

[107] صحيفة الزمان وصحيفة القدس العربي، لندن، ووكالات الأنباء العالمية في 20. 11. 2007 .

[108] مقابلة مع آية الله فاضل المالكي على فضائية العربية ومع العربية نت في 2. 4. 2008 .

يصف هارون محمد الكاتب الصحفي العراقي أحد الرموز السياسية الموالية إلى إيران بالتالي: "وما ينطبق علي طالباني في منهجه السياسي وأجندته المعلنة والخفية، ينطبق علي عبد العزيز الحكيم، فهذا الرجل لا يرتبط بالعراق إلا بالاسم، وما زال يتصرف كناشط سياسي إيراني يعمل بكل ما أوتي من قوة ونفوذ لتحقيق الأهداف والأطماع الإيرانية في العراق، وما إصراره علي فدرلة المحافظات العربية في الجنوب العراقي، ونيته في تحويلها إلى إقليم شيعي لا يخضع للدولة العراقية المركزية إلا دليل علي اشتغاله في المخطط الصفوي القائم علي الوصول إلى العتبات الدينية في النجف وكربلاء واحتلالها وربطها بقم أو اصفهان، كما فعل إسماعيل الصفوي قبل خمسمائة عام."[109]

الدعوات إلى إضعاف العراق على لسان رجال الدين الشيعة من أصول فارسية ليست جديدة، ولم يتجرأ أصحابها على التصريح بها فقط بفعل وتأثير حالة الاحتلال الأجنبي للعراق، بل كانت ولازالت نتيجة لقناعات راسخة عند هذا النفر من العراقيين، نابعة من رغبة في تحقيق أهداف إيرانية لم تعد خافية على أحد. آيات الله "محمد مهدي الشيرازي" اصدر في عام 1991 ، فتوة دينية حول الأزمة العراقية ـ الكويتية التي كانت محتدمة في تلك الأيام قال فيها: "بسم الله الرحمن الرحيم. في الظن الأكثر أن حكومة الكويت ترجع إلى وضعها السابق، وأن حكومة العراق تسقط سقوطاً كاملاً، وأن جيش العراق يقلص إلى قدر يتمكن من حفظ الأمن في الداخل فقط، كما فعل ذلك بجيش (محمد علي) في مصر حيث قلص من نصف مليون إلى 18 ألف فقط."[110] الشيرازي المقيم في العراق ويسمح لنفسه بالتحدث باسم المؤمنين العراقيين يفتي بوجوب تقليص قوة وعدد جيش "وطنه" وتحويل مهامه إلى حفظ الأمن الداخلي، على خلاف كل جيوش العالم، بدل حفظ أمن الحدود من الأخطار الخارجية.

هل تلك مصادفة أن تتقاطع أهداف الساسة ورجال الدين الفرس في العراق مع أهداف المستعمر الفرنسي والإنجليزي في القرن التاسع عشر الذي فرض على مصر الانسحاب من سوريا والجزيرة العربية عام 1839 ، وتقليص عدد أفراد الجيش المصري آنذاك إلى 18 ألف جندي فقط، وكذلك التقاطع حتى التطابق مع الأهداف الصهيونية والقرارات الأمريكية التي قضت بحل الجيش العراقي وإسقاط الحكومة العراقية "سقوطاً كاملاً" كما أفتى بذلك الشيخ محمد مهدي الشيرازي قبل خمسة عشر عاماً. الشيخ "آيات الله" الشيرازي ليس هو الحالة الشاذة في هذه الفتوى بل هو القاعدة والاستمرارية في نسق طوفان الفتاوى والمواقف السياسية لممثلي هذا التيار القومي الفارسي بغطاء ديني شيعي على ارض العراق.

---

109 القدس العربي ، عدد 3. 12. 2006 .

110 صحيفة العرب، لندن في 3. 1. 1991 .

نقاد التيار الصفوي للتشيع يصرون على أن هناك نية مبيتة من العناصر الفارسية المتشيعة على اختلاق مبادئ وابتداع ممارسات تعبدية ليس لها علاقة بالدين الإسلامي الحنيف بشيء. هذه الفئة من الشيعة تهدف إلى خلق حواجز وفروق كبيرة تكرس الانفصال المذهبي وتمنع إمكانية توحد المذاهب الإسلامية في المستقبل. التمايز والانفصال بين الشيعة من جهة وبقية المسلمين في العالم من جهة أخرى كان وبقي هدف وجهد لعناصر فارسية عبر القرون المنصرمة. الهدف الذي تسعى إلية العناصر الفارسية المتعصبة قومياً هو شق العالم الإسلامي وتعزيز الهوية القومية الفارسية بدينٍ ومذهب خاص بهذه القومية مختلف يميز الفرس عن العرب وعن بقية المسلمين في العالم. وعلى أرضية هذه النية المبيتة سلفاً تعمل العناصر الفارسية على ارض العراق على خلق حالة عدم الانسجام بين أبناء الشعب العراقي، وخاصة بين العرب منهم من أبناء الدين الواحد والقومية الواحدة، بإشاعة التنافر المذهبي وترويج الأحقاد الطائفية.

لقد أوجز الكاتب العراقي "فالح حسن شمخي" في مقالاته المذكورة أعلاه تحت عنوان " الطائفية المقيتة سلاح سياسي بيد أعداء الأمة العربية" أهم العوامل التي تجعل القوى المعادية للعرب تستميت اليوم من اجل توظيف الظاهرة الطائفية في مخططاتها للهيمنة على مقدرات الأمة العربية في الأهداف الثلاثة التالية:

نقل الولاء للطائفة وبذل المحاولات لتحقيق التطابق بين التيار السياسي الطائفي وبين الوجود الاجتماعي والروحي للطائفة (البيت الشيعي).

تقسيم وحدة الشعب الوطنية بالفعل الطائفي المقصود، وبرد الفعل المعاكس ، وإيجاد دوائر اجتماعية تنهي في حدودها المصلحة الوطنية والقومية.

تأجيج حالة الصراع انطلاقا من ذلك لإيجاد التوتر الطائفي في العراق والهاء الشعب في الغرق في دوامة الفعل وردات الفعل الطائفية التي ستقود بلا شك إلى أجواء الحروب الأهلية البغيضة وتمزيق المجتمع العراقي الواحد.

إن خلق التوترات والحفاظ على حالات التوتر الناشئة بين السنة العرب والشيعة العرب يبقي الشيعة العرب على الدوام، عرضة للابتزاز الإيراني، عندما يطرحون أنفسهم كحماة للشيعة أينما كانوا من أخطار موهومة هم ساهموا في صنعها وتسويقها بين جماهير الشيعة العرب.

المواطنون العرب السنة في العراق كانوا ومن خلال مواقف الأحزاب والقوى السياسية والدينية والاجتماعية المنتشرة بين صفوفهم ومنذ بداية الصراع مع الولايات المتحدة الأمريكية والقوى الغربية الحليفة للإدارات الأمريكية في عام 1988، ضد التدخل الأجنبي في شؤون بلدهم. لم تتغير التوجهات العامة لسنة عرب العراق من القوى الأجنبية وإيران قبل الاحتلال وبعد الاحتلال، ومن بين أوساطهم نشأت وتطورت

المقاومة المسلحة لقوات الاحتلال الأجنبي. والرموز العربية السنية وقفت بشدة ضد الاحتلال وتطالب على الدوام بخروج قوات الاحتلال من العراق.

لم يعرف عن حزب أو منظمة سياسية عربية سنية لم تطالب بخروج قوات الاحتلال. حتى الحزب الإسلامي الذي يتزعمه "طارق الهاشمي" و"حاجم الحسيني" رئيس الجمعية الوطنية العراقية والمشارك في الحكومات التي عينتها قوات الاحتلال في عام 2005 واظهر نوعاً من المرونة في التعامل مع قوات الاحتلال، يطالب في وضع برنامج زمني لخروج قوات الاحتلال. لقد كانت المواقف السياسية في الأوساط الحزبية والجماهيرية عند العرب السنة في العراق واضحة ومناهضة لوجود الاحتلال حتى وإن تمايزت وتنوعت أساليب الرفض والمقاومة لوجود الاحتلال. وكانت في نفس الوقت الهوية الوطنية العراقية والهوية القومية العربية هي البارزة وتعلو وتتقدم على كل الانتماءات والهويات الأخرى.

الفئة الثانية من المواطنين العراقيين التي تأثرت بوجود الاحتلال وتفاعلت مع الأحداث الجديدة ومع ظاهرة الاحتلال كانت فئة المواطنين الأكراد والقوى السياسية الكردية. لقد عبرت الأحزاب الكردية المشاركة في الحكومة عن مواقفها السياسية الصريحة في اكثر من مناسبة وأكدت بشكل لا يدع مجالاً للشك وقوفها إلى جانب قوات الاحتلال. وكان الحزب الديمقراطي الكردستاني والحزب الوطني الكردستاني من أكثر الأحزاب السياسية العراقية التي عملت على قدوم القوات الأجنبية لاحتلال العراق. وكانت الميليشيات الشبه عسكرية لهذين الحزبين، إلى جانب قوات فيلق بدر، تعمل بكل جد وحماس إلى جانب قوات الاحتلال الأمريكية والبريطانية طوال فترة الاحتلال.

رموز هذين الحزبين الكرديين لا تترك مناسبة إلا وتتبرع لتغطية وجود قوات الاحتلال سياسياً وإعلامياً وتطالب هذه الرموز باستمرار وجود قوات المحتل على الأرض العراقية. جلال الطلباني رئيس الجمهورية العراقية المعين من قبل قوات الاحتلال طالب في باريس وفي واشنطن وفي بغداد ببقاء قوات الاحتلال على الأرض العراقية. وعرض هذا "الرئيس" على الإدارة الأمريكية منح القوات الأمريكية قواعد دائمة لقوات الاحتلال في مناطق الشمال العراقي الخاضع لإدارة هذين الحزبين الكرديين.رفض قادة الحزبين الكرديين جلال الطلباني ومسعود البرزاني جدولة خروج القوات الأجنبية من الأراضي العراقية وعارض نوابهم في البرلمان العراقي هذا الطلب.

لكن هذا الوضوح في الانتماء للوطن السائد عند سنة عرب العراق، والوضوح في التنكر وخيانة للوطن السائد في أوساط الأحزاب السياسية العرقية الكردية لم يكن متبلوراً في أوساط المواطنين العراقيين من شيعة العراق. ففي أوساط الشيعة العرب كانت صفة الانتماء للوطن منتشرة بكثرة وكذلك صفة الخيانة للوطن متفشية بكثرة. الانقسام والإرباك كانا شديدين في أوساط المواطنين الشيعة في العراق. هذا الإرباك

يعود إلى أسباب متعددة ومركبة ومتداخلة، أوقعت أصحابها في سلسلة من الممارسات والأوهام عادت على الوطن العراقي وعلى أصحابها بنتائج مأساوية ومحزنة لازالت تفاعلاتها ظاهرة. هناك عدد من الأسباب الموضوعية ساهمت في خلق حالة الإرباك وعدم الوضوح في فهم الهوية والمواطنة عند قطاعات واسعة من الشيعة العرب في العراق، وترك هذه القطاعات عرضة للابتزاز وعرضة للتضليل والاستغلال لخدمة قوى خارجية معادية للمجتمع العراقي والوطن العراقي.

الفقر الشديد المتفشي في أوساط هذه الطائفة.

الشعور الدائم بالظلم والحرمان في الدولة العراقية الحديثة والقديمة، وبصرف النظر عن صحة و مبررات هذا الشعور من عدمه.

التعبئة المذهبية والطائفية الطويلة النشطة ضد الآخرين. تلك التعبئة التي يحقن بها المواطن العراقي من أتباع المذهب الجعفري عبر العقود والقرون الطويلة والتي تولت القيام بها وقيادتها بشكل منظم العناصر الدينية الفارسية القادمة من إيران ومن المراكز الدينية الإيرانية في قم ومشهد.

تربع العناصر الشعوبية على رأس المؤسسات الدينية والسياسية في الأوساط الشيعية العراقية.

هذه الأسباب مجتمعة وغيرها من الأسباب، التي لها علاقة بمصالح بعض الأشخاص والفئات في صفوف هذه الطائفة، أحدثت ارتباكات شديدة وتشويش على صفاء الهوية الوطنية العراقية، وعلى الهوية القومية عند قطاعات واسعة من شيعة عرب العراق. في كثير من الأحيان يوضع الانتماء إلى المذهب مقابل الهوية العربية ويصور وكأنه نقيض لها. وتصور وتجعل الهوية المذهبية في تعارض وتناقض مع الهوية الوطنية العراقية، وتوضع وفي حالة تعارض مع الهوية القومية العربية. لقد نجح الدعاة الدينيين الفرس في فصل أعداد كبيرة من العرب الشيعة في العراق عن انتماءاتهم الوطنية والعربية، وزرعوا في وجدانهم ميول وقناعات تقضي بضرورة الارتباط بالدولة والكيان والثقافة الفارسية.

من المعروف أن أكثر من97% من المواطنين العراقيين الشيعة هم من العرب الأقحاح، والأغلبية الساحقة من قبائل الجنوب العراقي قدمت إلى العراق من قلب الجزيرة العربية عبر القرون الماضية. لقد دخلت أغلب هذه القبائل في المذهب الشيعي فقط في أواسط القرن التاسع عشر، وأثناء الحروب الوهابية التي كانت تدور رحاها في الجزيرة العربية وأطراف العراق. وازدادت أعداد الشيعة العرب بين أوساط القبائل العربية السنية المذاهب في أواسط القرن التاسع عشر بالترافق والتوازي مع إصدار قوانين "التنظيمات" العثمانية وتكرار الكوارث الطبيعية.

التركيز على الانتماء الطائفي وجعل الهوية الطائفية بديل للهوية العربية لم يأتي بمحض الصدفة، وعبر تراكم الأحداث والسنين، ونشوء ظروف سياسية واجتماعية طارئة ، بل كانت ولا زالت سياسة إيرانية منظمة وممنهجة تتبناها الحكومات الإيرانية المتعاقبة. وشرعت هذه الحكومات في ممارستها في قرى ومدن جنوب العراق في وقت مبكر وعبر وبمساعدة الأجهزة الأمنية الإيرانية، وعبر وبمساعدة المؤسسات الدينية الإيرانية الصفوية خلال عقود القرن الماضي.

من خلال الرجالات والرموز الدينية الإيرانية الحكومية التي دفع بها إلى الجنوب العراقي، وخاصة إلى مدن المراكز الدينية الشيعية، النجف وكربلاء، وأوكلت إلى هؤلاء الرجال، وإلى هذه القيادات الدينية، مهمة السيطرة على المجتمع العربي الشيعي. لم تكن صدفة تربع القيادات الدينية الفارسية والقيادات السياسية الفارسية على رأس المؤسسات الدينية الشيعية في العراق. ولم تك في يوم من الأيام تربع الرموز الفارسي والإيرانية على قمة البناء الهرمي للأحزاب الشيعية الطائفية في العراق. في حين أن نسبة تواجد الفرس بين الشيعة في العراق لا يتجاوز 2% فقط، تبلغ نسبة تواجدهم في المراكز القيادية الدينية والسياسية عند الشيعة في العراق أكثر من 90%. وتصل نسبة القيادات الدينية والسياسية في أساط الطائفة الشيعة في العراق من فئة الصف الثاني أكثر من نصف القيادات. لقد نجح الفرس والإيرانيون في حبك هيمنتهم وسيطرتهم المطلقة على جمهور الشيعة في العرق، وذلك حسب المعطيات والوقائع على الأرض وباعتراف الجميع.

أفرزت الحرب على العراق واحتلال أراضيه، وبتواطؤ ومشاركة إيرانية نشطة، وتواطؤ بعض الأطراف السياسية الداخلية المحسوبة على إيران والمرتبطة بها، تبايناً بين القوى السياسية العراقية بشكل عام. والقوى الشيعية بشكل خاص. لقد انعكس الواقع الجديد على الأوساط الشيعية، والاصطفاف اصبح حاداً داخل صفوف الطائفة الشيعية. حدثت انقسامات في صفوف المواطنين العراقيين الشيعة حول عدد من القضايا. أهم هذه القضايا:

- الموقف من الاحتلال
- حول الهوية والانتماء القومي
- وحدث الاصطفاف حول موضوع الولاء لأي من المراجع الدينية داخل الطائفة.

الانتماء إلى الوطن ومحاربة الاحتلال كان المقياس الحاسم عند السيد آيات الله حسن البغدادي في شرعية القيادات الدينية من عدمها. في مقابلة له مع صحيفة الخبر البغدادية في 12. 4 . 2005 بعد عودته من المؤتمر القومي السادس عشر المنعقد في الجزائر

قال: "المراجع الدينية الأربعة في النجف جاءونا من خارج الحدود ولم يكونوا عراقيين في يوم ما، أما العلماء المراجع الذين ينحدرون من العراق، فهم مقاتلون يقاومون حالياً ضد الاستكبار والكفر العالميين." آيات الله البغدادي يلمح إلى أصول هؤلاء المراجع الشيعية في النجف غير العراقية وغير العربية ، ويتهم وسائل الإعلام المحلي والأجنبي بالعمل على إبراز دور هذه القيادات الدينية الأجنبية المستعدة لخدمة مشاريع القوى الأجنبية لافتقاد هذه الرموز الدينية للمشاعر الوطنية العراقية والمواقف السلبية لهذه الرموز من العرب والعروبة. آيات الله السيستاني وآيات الله الجزائري من أصول إيرانية ولازالوا يحتفظون بالجنسية الإيرانية ولم يتقدموا في يوم من الأيام في طلب الحصول على الجنسية العراقية. وآيات الله إسحاق فياض أفغاني الجنسية وآيات الله النجفي منحدر هو ايضاً من أصول أجنبية باكستانية.

يتنافس في العراق حالياً تياران متباينان في المبادئ والممارسات الدينية عند أبناء الشيعة.

الأول العلوي أو التيار الكلاسيكي العربي،

والثاني هو التيار الصفوي الفارسي.

بعد دخول الأعداد الكبيرة من الإيرانيين مع قوات الاحتلال الأمريكي، وكذلك عودة الإيرانيين ـ العراقيين من إيران، والتي كانت الحكومات العراقية السابقة قد أخرجتهم من العراق وأبعدتهم إلى إيران أثناء الحرب العراقية ـ الإيرانية في أعوام الثمانينات، بتهمه العمالة لإيران، زادت أعداد الشيعة الصفوية في العراق. مع دخول التنظيمات السياسية والعسكرية، مثل مجلس الثورة الإسلامي وفيلق بدر، وحزب الدعوة، وحزب الفضيلة، والاستيلاء على السلطة بالتنسيق مع قوات الاحتلال، تزايد نفوذ التيار الصفوي في الدولة العراقية. بعد تصاعد النفوذ الإيراني في سير الأحداث في العراق تصاعد العداء لكل ما هو عربي بشكل عام في العراق. "مع سقوط النظام العراقي أو إسقاطه علي أيدي الإدارة الأمريكية (أو دول التحالف) وبمشاركة المعارضة الشيعية وتواطؤ القطر المجاور إيران، نبتت نابتة جديدة في العراق، لم تعهد من قبل، وهي موجة العداء للعرب، كل العرب، عرب العراق، وغير العراق، ولا سيما الفلسطينيين والسوريين، تذكرنا إلي حد ما بموجة الكراهية في الكويت ضد الفلسطينيين بعد إخراج القوات العراقية منها، لكن تلك الموجة انتهت وموجة الكراهية في العراق لم تنته بعد، ولا أمل في انتهائها في الزمن المنظور، لأن هناك عوامل متعددة تغذيها، وتسهر على استمرارها، بدءاً من الموساد الإسرائيلي، ومروراً بالانقسام الطائفي في العراق،

وانتهاء بالمطامع الإيرانية في المنطقة العربية، لا سيما دول الخليج والعراق (حيث منابع النفط والثروات)."[111]

على الرغم من سيطرة ذوي الأصول الإيرانية شبه الكاملة على الأحزاب الإسلامية، بدأت تظهر بشكل واضح قوى وشخصيات دينية شيعية تطالب بالعودة إلى أصول المذهب. أطلق على هؤلاء القادة والمثقفين ورجال الدين مصطلح "الشيعة العرب" أو "الشيعة العروبيون"، الذين يمثل أحد أطرافهم السيد مقتدى الصدر وتياره السياسي وبعض رجال الدين من الشباب الذين يدعون إلى محاربة التغلغل الإيراني داخل المذهب. ويطالبون ايضاً في تعريب الحوزة العلمية في النجف والعمل على إعادة مركز القيادة الدينية للشيعة إلى هذه المدينة بدل الحوزة العلمية في مدينة قم الإيرانية، التي أنشئت خلال الحرب العراقية الإيرانية والتي تزعمت، حسب قناعات هؤلاء، زوراً قيادة الشيعة في العالم.

أن جذور الخلاف بين التيارات الدينية الشيعية ليست حديثة العهد بل تمتد جذورها في العراق إلى أعوام الستينات من القرن العشرين "أن الخلاف بين مقتدى الصدر وبقية طوائف الشيعة يرجع إلى أيام والده محمد صادق الصدر، حيث هو الذي بدأ الخلاف مع بقية مراجع الشيعة وسبب هذا الخلاف الرئيس هو التنافس على رئاسة الشيعة عالميا بين إيران والعراق؛ حيث يمثل مقتدى الصدر شيعة العراق نسبا، فيما يمثل السيستاني شيعة إيران حيث يرجعون بأصولهم إلى إيران."[112]

لقد استطاع محمد صادق الصدر والد مقتدى الصدر" اكتساح الحوزة العلمية في النجف، وكسب الشارع الشيعي بكامله، نظراً لجرأته ووضوح طرحه وانغماسه في شؤون الناس اليومية، فاستطاع بذلك أن يعطي صورة مغايرة لرجل الدين الشيعي ، لتحل محلها صورة المرجع العربي العراقي الذي يتكلم بالعامية العراقية أحياناً وبشكل واضح لا اصطلاحات فيه. وقد أثمرت دروسه تلك سريعاً لتنتج جيلاً شيعياً جيلاً كله من العرب، وأغلبهم من المناطق الفقيرة في العاصمة بغداد ومن الجنوب العراقي انخرط جميع أبنائه في الدراسة الحوزوية التي كانت حكراً على الإيرانيين والباكستانيين والأفغان، لإبعاد العرب عن تزعم الحوزة. وهكذا تغيرت ملامح النجف بالكامل، بل تغيرت صورة التشيع في عموم العراق، وصار لهذا التشيّع ميزاته التي تجعله مختلفاً عما هو موجود في التشيع الإيراني مثلاً."[113] في شخصية محمد باقر الصدر تجسدت شخصية رجل الدين العراقي الوطني والواعي لهموم الناس والطبقات الفقيرة.

---

[111] محمد الحسناوي ، مقال في صحيفة القدس العربي تحت عنوان "من يقتل الفلسطينيين في العراق"، لندن في 29. 7. 06 .

[112] وليد نور، موقع مفكرة الإسلام على شبكة الإنتر نيت العالمية، 31. 8. 2005 .

[113] المصدر السابق.

في عصر الاحتلال الأجنبي تسارعت وتيرة الفرز القومي بين صفوف الجماهير العراقية. وصل هذا الفرز إلى كل قطاعات الجماهير العراقية وإلى داخل الطائفة الواحدة. مع نشوء حركة تيار الصدر ذات التوجه الوطني العراقي والانتماء إلى الهوية العربية تسارعت حدة الفرز حول الهوية القومية. هذا التيار وقف منذ اليوم الأول للاحتلال ضد الغزو الغربي وضد الاحتلال، وناهض التدخل الإيراني السافر في الشؤون العراقية، وفضح تواطؤ المراجع الدينية الموالية إلى إيران مع المحتل الأجنبي للوطن. ظهور هذا التيار العروبي في أوساط الشيعة العرب أدخل التيارات السياسية الطائفية الموالية إلى إيران والمتواطئة مع الاحتلال في مأزق كبير وخطير، هدد بإخراج الأحزاب الموالية إلى إيران من دائرة التأثير الجماهيري والسياسي وبالتالي عزلها وسقوطها. حزب الدعوة الذي يقوده الجعفري والمجلس الأعلى للثورة الإسلامية الذي يقوده عبد العزيز الحكيم وجبهة العمل الإسلامي التي يقودها المدرسي استشعرت الخطر الداهم من تصاعد الحركة السياسية الدينية للشيعة العرب في العراق وقررت هذه القوى التخلص من هذه الحركة الصاعدة والحد من تأثيرها المتنامي.

القوات الأمريكية المحتلة هي ايضاً صاحبة مصلحة حقيقية في ضرب الحركة الصدرية العروبية والمناهضة للاحتلال والتي بدأت تشكل البديل الحقيقي للأحزاب الشيعية الشعوبية المتعاونة مع الاحتلال. قوات الاحتلال استشعرت الخطر القادم وخاصة عندما دخل هذا التيار مكرها إلى ساحات المعركة السياسية والعسكرية الدائرة في العراق المحتل. لم تكن إيران بعيدة عن ما يجري في العراق في هذا المجال وحاولت وراء الكواليس وفي العلن تحييد وحرف التيار الصدري عن المسار الذي اختطه لنفسه في مواجهه الاحتلال وإجباره على الدخول في بيت الطاعة الإيرانية.

مورست سياسة الترغيب والترهيب على التيار الصدري والابتزاز والتشهير برمز هذا التيار من قبل الأطراف الثلاثة المتضررة من تصاعد نمو وتأثير التيار العروبي في أوساط الشيعة العرب. تزعمت أجهزة الإعلام الإيرانية قيادة الحملة الإعلامية على التيار الصدري ونشطت في الترويج والدعاية والإدعاء في عودة البعثيين و"الصداميين" إلى السلطة عبر التيار الصدري في محاولة من الحكومة الإيرانية في إضفاء روح الشرعية على ضرب ومحاربة القوى القومية بين أبناء الشيعة في العراق. قررت هذه الأطراف الثلاثة، إيران وقوات الاحتلال والقوى الشعوبية الموالية لإيران في العراق، ضرب هذا التيار عسكرياً وتحجيم دورة وتأثيره على الساحة العراقية.

تعاونت هذه الأطراف في إجبار التيار الصدري العروبي على إلقاء السلاح وإدخاله تحت خيمة الحوزة الصفوية في النجف. نجحت قوات الاحتلال والأجهزة الأمنية الإيرانية على جر التيار الصدري مرة أخرى إلى مستنقع الاستقطاب الطائفي، ودخل هذا التيار في تحالفات كان القاسم المشترك بين قواها وأحزابها هو الانتماء إلى الطائفة

وليس إلى الوطن العراقي. في الانتخابات التي جرت في 15. 1. 2005 لانتخاب جمعية وطنية مؤقتة، وفي الانتخابات التي جرت في نهاية شهر كانون الأول من عام 2006 لانتخاب جمعية وطنية دائمة دخل التيار الصدري في "قائمة الإتلاف العراقي الموحد" الذي يتزعمه عبد العزيز الحكيم وعادل عبد المهدي ونوري المالكي (جواد المالكي) وإبراهيم الجعفري المدعوم من إيران وقوات الاحتلال.

التيار العربي في الأوساط الشيعية العراقية تلقى ضربة موجعة بعد المواجهات والهجمات العسكرية التي قامت بها قوات الاحتلال وقوات الحكومة المعينة بالإضافة إلى قوات فيلق بدر في شهر نيسان وأيار من عام 2004 ، واجبر التيار الصدري العروبي على الانصياع إلى إرادة إيران وأتباع إيران في الساحة العراقية وتم في فترة لاحقة اختراقه وجر هذا التيار إلى المستنقع الطائفي من جديد وربطه في الأجندة الإيرانية في العراق. الكاتب العراقي أحمد سرور كتب عن هذا التحول المفاجئ في مواقف هذا التيار ومواقف قيادته التالي: "وفجأة دخل مقتدى الصدر إلي الحلبة بعد زيارة إلي إيران ومن بعدها سورية فلبنان.

قطع مقتدى الصدر زيارته للبنان وعاد إلي العراق ليجد بان الإيرانيين قد خرقوا مجاميعه وبدأوا يديرونها من وراء ظهره. هو يقول شيئاً وجيش المهدي يفعل شيئا آخر." وأضاف أحمد سرور "لكن اختراق الإيرانيين لمقتدى الصدر واحتوائهم له سياسيا هو الذي جعل من مقتدى الصدر مجرد جبر صولاغ جديدا أو زرقاوي شيعيا. وهكذا فان مقتدى الصدر قد انتحر وطنيا منذ خطر له استمالة إيران إلي جانبه لعله يبرز هو لا عبد العزيز الحكيم الزعيم العراقي الجديد. وقد جره الإيرانيون جرا إلى حفرة الطائفية ودفنوا التقدير الذي حفظه له العراقيون كطرف مقاوم للاحتلال. الرابح فيها هو الاحتلال وإيران وتنظيم القاعدة الذي يستميت من أجل أن يتولى قيادة السنة في العراق."[114]

في الحقيقة ظل البناء الفكري والوعي الاجتماعي عند مقتدى الصدر طائفي منذ النشئة الأولى له بامتياز. ولم يغادر التيار الصدري بالواقع والممارسة المواقع الطائفية، ولم تستطع رموز هذا التيار التخلص من الثقافة الطائفية المتأصلة في أعماق أصحابها، لكن حركة هذا التيار أعادت، في لحظة صحوة ضمير، الاعتبار للوعي والانتماء العربي الاعتبار، ورسخت الهوية العربية عند شرائح كبيرة من العرب الشيعة. وساهم التيار الصدري، من حيث لا يحتسب وربما لم يقصد، في تحرير قطاعات واسعة من العرب الشيعة من هيمنة وابتزاز الفرس والعناصر الفارسية لهم. وساهم أيضاً، ومن غير قصد، في رفع حالة الجدل والنقاش المفتوح حول الدور الإيراني المقيت في العراق، وساهم في كشف جوانب الأهداف الإيرانية الحقيقية في العراق. إن صحوة الضمير عند التيار

[114] صحيفة القدس العربي، لندن في 11. 12. 2006.

الصدري لم تدم طويلاً وعاد هذا التيار للإرتماء على عتبات حكام إيران والإنضبات داخل الصفوف الطائفية المألوفة في العراق.

التيار العروبي من الشيعة في الساحة العراقية والتي ترفض الاحتلال وتتمسك بوحدة وعروبة العراق، انتعشت والتقطت أنفاسها من جديد، وهي تستجمع قواها وتوسع من دائرة نفوذها. مجموعات آيات الله حسين البغدادي، والسيد الشيخ العلامة محمد مهدي الخالصي وشقيقة الإمام جواد الخالصي، وتيار الشيخ العلامة محمود الحسن الصرخي، والشيخ حسين المؤيد والشيخ فاضل المالكي، وعبر انخراط أعداد كبيرة من الشباب في التيار العروبي عند الشيعة في صفوف المقاومة العراقية للمحتل. انضمت قطاعات عشائرية وقبلية كبيرة في جنوب ووسط العراق إلى دائرة الفعل والعمل في مكافحة الوجود الأجنبي، ومناهضة تأثير ونشاط التيار الصفوي الموالي لإيران بمختلف أطيافه ومسمياته وشخوصه على أرض العراق.

رداً على التصريحات الخطيرة التي أدلى بها عبد العزيز الحكيم وقائد قوات بدر عبد الهادي العامري بضرورة إقامة فدرالية للشيعة في الجنوب والوسط العراقي بدأت تتشكل تجمعات وتحالفات عشائرية عروبية التوجه بين أبناء الجنوب العراقي. أول هذه التحالفات بروز تحالف عشائر "المنتفك" الشيعية والسنية بقيادة الشيخ "خالد حمود السعدون". هذا التكتل الذي يجمع اكثر من ثلث عدد سكان جنوب العراق وينتشر في اغلب مدن وقرى الجنوب العراقي، اعتبرت إن هذه الدعوة مشبوهة من عبد العزيز الحكيم، وتشكل إحدى الخطوات العملية والجادة لتقسيم العراق. وتوالت اللقاءات والتحالفات بين العشائر العربية الكبرى في بغداد والمدن العراقية الأخرى متجاوزة كل الانقسامات الطائفية والمناطقية والتي اشتركت في قرارات مؤتمراتها المتعددة في التأكيد على:

- وحدة العراق أرضاً وشعباً ورفض التقسيم والفدرالية،
- والتأكيد على خروج قوات الاحتلال الأجنبية،
- والتأكيد على المصالحة الوطنية والتوقف عن ملاحقة البعثيين والاعتراف بهم كأحد القوى السياسية الأساسية بين صفوف الشعب العراقي،
- والاعتراف بالمقاومة العراقية المعبر عن ضمير الشعب العراقي وقائد كفاحه.

لقد دخلت القبائل العربية كقوة إضافية تساهم مساهمة كبيرة، إلى جانب المقاومة العراقية وتيار الصدر الذي لا زال يحتفظ بنفوذ شعبي بين صفوف الشعب العراقي العربي، والقوى العربية الأخرى في الحفاظ على عروبة العراق ووحدة أراضيه في وجه المشروع الإيراني ـ الأمريكي ـ الصهيوني التقسيمي.

تزايدت أعداد العناصر والفئات العربية الشيعية المتمردة على القيادات السياسية والدينية الشيعية الموالية للاحتلال والمرتبطة بإيران. "كشف بيان أصدره ضباط من الجيش العراقي "السابق" وشيوخ عشائر من العرب الشيعة في جنوب العراق قرارهم بالانضمام إلى المقاومة الوطنية ضد القوات الأمريكية وضد من أسموهم "الصفويون الجدد" في إشارة إلى الأحزاب الشيعية الموالية لإيران وتحكم داخل المنطقة الخضراء. وتابع البيان إن شيعة العراق في الجنوب هم أول من يتصدى للدفاع عن عروبة العراق وانتمائه الوطني والقومي ضد كل المؤامرات الأمريكية والإيرانية التي تعمل على تفتيت العراق من خلال الحديث عن فتنة طائفية تجتاحه، وأشار البيان إلى أن تفاقم جرائم الميليشيات في بغداد وما حولها يؤشر على قرب نهايتها."[115]

[115] القدس العربي، لندن في 29.11. 2006 .

التشكل الجديد للخارطة السياسية
في المجتمع العراقي

مع وجود الاحتلال الأجنبي على ارض العراق ظهرت خارطة جديدة على المسرح السياسي في العراق. واصبح تشكل الأحزاب والمنظمات السياسية في ظل الاحتلال له طابع خاص يختلف عن المألوف في المجتمعات والدول الأخرى. الأسس والقواعد التي تنشأ وتتكون عليها الأحزاب السياسية في العراق أصبحت الأسس الدينية والأسس العرقية والأسس الطائفية. غابت عن المسرح أسس ومبادئ العدالة الاجتماعية، وأسس ومبادئ التحرر الوطني، وأسس ومبادئ التحرر الاجتماعي، التي سارت عليها الشعوب منذ اكثر من قرنين من الزمان في تكوين الأحزاب والمنظمات السياسية. هذه الظاهرة التي تذكر بعصور التخلف وعصور الانحطاط التي عاشتها البشرية في قرون سلفت في الوعي السياسي، أرادت ترسيخه وإعادته إلى الحياة إرادة قوات الاحتلال الأمريكي والبريطاني وإرادة الحكومة الإيرانية على ارض العراق. بالإضافة إلى حزب الدعوة والمجلس الأعلى للثورة الإسلامية، وقوات المهدي، وحزب الله العراقي، تشكلت "هيئة العلماء المسلمين" و "تجمع أهل السنة"، وأعيدت الحياة "للحزب الإسلامي العراقي"، وتم الإعلان عن أسماء من الكيانات السياسية تجاوزت في أعدادها المائة كيان سياسي صوري، أغلبها قائم على أسس طائفية، وعرقية، تعمل كل يوم يمر على استمرار وجودها ووجود الاحتلال، على تمزيق الشعب العراقي وتكرس التشرذم.

عدد من القوائم السياسية تبلورت في المسرح السياسي العراقي. يغلب على هذه الخارطة السياسية الطابع الطائفي. في انتخابات المجلس التشريعي (البرلمان العراقي) الأخيرة في 15. 1. 2006 كان الاستقطاب الطائفي هو سيد الموقف. أهم الكتل السياسية التي تبلورت أثناء وبعد تلك الانتخابات كانت التالية:

كتلة القائمة العراقية الموحدة (الشيعية) (عبد العزيز الحكيم، إبراهيم الجعفري، نذير الجابري، ومقتدى الصدر) والتي تتكون من سبعة مجموعات. أهم القوى والمجموعات الشيعية هي لأربعة التالية: المجلس الأعلى للثورة الإسلامية وقوات "بدر"،حزب الدعوة الإسلامي، حزب الفضيلة الإسلامي، التيار الصدري ومليشيات "المهدي". وكل هذه القوى ترتبط بشكل مباشر بالحكومة الإيرانية وبأجهزتها الأمنية والعسكرية.

كتلة جبهة التوافق العراقية (السنية) طارق الهاشمي وعدنان الدليمي المكونة من الحزب الإسلامي، وكتلة الجبهة الوطنية العراقية(أياد علاوي وغازي الياور) تيار علماني، وكتلة جبهة الحوار الوطني (صالح المطلق)، وهو تيار قومي عربي

والكتلة الأساسية الثالثة هي كتلة القوى الكردية المكونة من الحزب الديمقراطي الكردستاني، والحزب الوطني الكردستاني وميليشياتها الشبه عسكرية (بشمركة) ذالت العلاقات التاريخية بالحكومات الإيرانية والكيان الكيان الصهيوني.

وهناك قوة أساسية لم تشارك في الانتخابات، هي "هيئة العلماء المسلمين" بقيادة الشيخ حارث الضاري، والتي يغلب عليها الطابع الوطني العراقي، والقومي العربي، بغطاء ديني بأغلبه سني المذهب. تعتبر هذه المنظمة من أكثر المنظمات السياسية العراقية تأثيراً في المسرح السياسي العراقي وعلى الساحة العربية والدولية. وتعتبر قيادة الهيئة المتمثلة بالشيخ حارث الضاري الوجه العراقي العربي المعبر عن طموحات أهل العراق في التحرر من المستعمر ووحدة الوطن. أصبحت الهيئة تشكل الإطار الجامع لقوى رفض الاحتلال والناطق الشبه الرسمي باسم المقاومة الوطنية العراقية.

على السطح تطفو الأحزاب والقوى السياسية الدينية، وفي ظروف الاحتلال تغيب عن الصورة الأحزاب والحركات السياسية والأيدلوجية الوطنية كحزب البعث والأحزاب الناصرية والحزب الشيوعي والأحزاب والقوى الإصلاحية في المجتمع. هذه الصورة لا تعبر بشكل حقيقي عن الواقع السياسي لانتماءات الشعب العراقي الحقيقية. إن ثقافة وتربية جيل كامل من الشعب العراقي على مبادئ حزب مثل حزب البعث العربي الإشتراكي لن تزول بهذه البساطة وبهذه السرعة، وتأثيرها على مئات الآلاف والملايين من العراقيين بكل تأكيد سيستمر إلى فترة زمنية طويلة. لكن ظروف الاحتلال والتواجد الكثيف للقوى الإيرانية فرض على كثير من الناس عدم المجاهرة بقناعتهم وفضلوا الانضواء تحت راية أحد الأحزاب الطائفية لحماية الذات في زمن الفوضى والانتقام المنظم. سيستمر هذا الشكل من اصطفاف القوى إلى حين تغير الأوضاع العامة وزوال الاحتلال، الذي بزواله ستزول تلك التشوهات الخلقية في الوعي السياسية للشعب العراقي.

العناصر والقوى السياسية المرتبطة بالسياسة الإيرانية تجد نفسها في ورطة حقيقية بعد تصاعد التوتر بين الدول الغربية وإيران على خلفية تصاعد التوتر بين هذه القوى حول المشروع النووي الإيراني. تصريحات السفير الأمريكي، "زلماي خليل زاده"، حول تشكيل الحكومة العراقية الجديدة والتي أكد فيها معارضة الولايات المتحدة إدخال عناصر طائفية وعناصر تتبع إلى مليشيات عسكرية في المناصب السيادية في الحكومة المزمع تشكيلها. وكان السفير الأمريكي يقصد بذلك عناصر حزب الدعوة وعناصر المجلس الأعلى للثورة الإسلامية والميليشيات التابعة لها. اشتاط إبراهيم الجعفري غضباً ورد على تصريحات السفير الأمريكي في العراق بقوله "إن العراق يعرف مصلحته".

نسي الجعفري أن الزمن دوار ووصوله إلى المنطقة الخضراء مدان فيه إلى قوات الاحتلال وإلى الحاكم المدني لقوات الاحتلال "بول بريمر" والسفير الأمريكي "زلماي

خليل زادة". عبد الباري عطوان رئيس صحيفة القدس العربي علق على رد الجعفري في مقال افتتاحي بالقول: "ما يجب أن يدركه الدكتور الجعفري، وهو السياسي المحنك، أن الإدارة الأمريكية التي استخدمت العامل الطائفي للتفريق بين العراقيين وتوظيفهم ضد بعضهم البعض، حتى تسهل مهمتها في غزو العراق واحتلاله، بدأت تفكر حاليا بتغيير أولوياتها، فحلفاء اليوم ربما يتحولون إلي أعداء الغد، خاصة إذا وضعنا في الاعتبار أن احتمالات المواجهة بين واشنطن وطهران حول البرنامج النووي الإيراني ما زالت قائمة. شهر العسل الأمريكي مع الدكتور الجعفري وكل الذين وقفوا في خندق الاحتلال يوشك علي الاقتراب من نهايته، وهذا ما يفسر هذا الانقلاب الأمريكي المفاجئ الذي عبر عنه السفير خليل زاد، وأثار غضب الدكتور الجعفري. فأمريكا دخلت العراق علي ظهر الحصان الطائفي، والآن تحاول التخلي عنه عندما تتطلب مصالحها ذلك، تماما مثلما تخلت عن كارلوس في الفلبين، وشاه إيران، والمجاهدين الأفغان، وديكتاتوريات أمريكا اللاتينية.. انتهي الفصل الأول من المسرحية، والفصل الثاني علي وشك الابتداء، وبممثلين جدد، واحصنة مختلفة." [116]

صبحي الطفيلي الأمين العام السابق وأحد مؤسسي حزب الله اللبناني أكد في مقابلته مع محطة الجزيرة الفضائية في 25 .9 .2003 أن الخاسر الأساسي جراء السياسة الإيرانية مع الأقليات الشيعية في البلدان المجاورة لإيران هم الشيعة أنفسهم. "أنا مطمئن إلى انه سيأتي اليوم الذي يهزم فيه الأمريكي، وعندها سيكون هناك غضب على كل من سار في مشروعه. وقد تجري انتقامات وتصفيات يذهب ضحيتها شيعة الأقليات لأن إيران دولة قوية تستطيع أن تحمي نفسها."[117]

الوضع في العراق متحرك وغير مستقر وهو مفتوح على كل الاتجاهات والاحتمالات. والفرز الداخلي العراقي سيستمر إلى أمد غير قليل. من المؤكد نشوء تشكيلات وأحزاب سياسية وتيارات أيديولوجية وغياب أخرى. تداخل البعد القومي مع البعد الديني، وهذا مع البعد السياسي في العراق، يجعل من العراق ساحة ستترك بصماتها على دول الجوار العربي والفارسي والتركي على اكثر من صعيد. ميازين القوى في هذه الدولة مرتبطة ارتباطاً كبيراً بالبعد الجغرافي والحضاري والقومي العربي وكذلك بالبعد الديني الطائفي للدولة الإيرانية. عندما ترحل قوات الاحتلال الغربية عن ارض العراق ستخلق ميازين قوة جديدة ذات ملامح ووجوه وأحزاب وقوى تتناسب مع هذه التغيرات المهمة، وسيعود للقوى الوطنية العراقية الوزن الأكثر تأثيراً في معادلات الصراع والاستقرار.

---

[116] صحيفة القدس العربي، عدد 22. 2. 2006.
[117] تلفزيون الجزيرة 25. 9. 2003.

لقد انتقلت الحكومات العربية من الحالة السلبية من الأوضاع في العراق إلى الفعل الإيجابي والتأثير المباشر على الأحداث هناك. ترك الساحة العراقية مسرحاً لعمل الأجهزة الأمنية الإيرانية ولقوات الاحتلال الغربية ولعمل الأجهزة الأمنية الإسرائيلية أصبح غير مقبول. من الملاحظ أن الحكومات العربية تمارس حد مرتفع من الضغوط على الإدارة الأمريكية لتعديل الوضع القائم والتي تسببت به هذه الإدارة من فوضى وبوادر حرب أهلية ودمار شامل في هذا البلد العربي والسماح لإيران وعملائها من السيطرة على الدولة العراقية. إن استقبال الشيخ حارث الضاري في كل من القاهرة والرياض وعمان ودول عربية أخرى كممثل أساسي للقوى المناهضة لوجود الاحتلال الغربي ومناهض للتواجد الإيراني والنفوذ الإيراني السياسي في العراق، هي من المؤشرات التي تدل على التغيير الذي طرأ على الحالة السياسية تجاه العراق التي كانت سائدة إلى وقت قريب. لقد أثمرت الضغوط العربية في استثمار قوة المقاومة العراقية والفشل الأمريكي العسكري، وكذلك فشل حكومة المالكي والحكومات التي سبقته في السيطرة على الأوضاع في العراق، من إجبار الرئيس الأمريكي رئيس الحكومة العراقية، نوري المالكي، من اللقاء في عمان وتقديم تنازلات للأطراف العربية المشاركة في الحكومة، ووضع برنامج لإشراك القوى العراقية المقاومة في تحديد مصير الوطن العراقي.

الدول العربية تستشعر الخطر الكبير من استمرار النفوذ الإيراني وهي عازمة على وضع حد لهذا النفوذ. مستشار الأمن القومي السعودي "نايف عبيد" كشف عن بعض مما تتداوله الأوساط السياسية في المملكة العربية السعودية وبعض الدول العربية في مقال له في صحيفة واشنطن بوست الأمريكية بأن القيادة السعودية تستعد لمراجعة سياستها بشأن العراق. قال نايف عبيد: "إذا بدأت الولايات المتحدة في الانسحاب من العراق فان أحد أول النتائج سيكون التدخل السعودي الضخم لمنع الميليشيات الشيعية التي تدعمها إيران من ذبح العراقيين السنة.

حدد عبيد ثلاثة خيارات تأخذها الحكومة السعودية بالاعتبار:

تزويد زعماء المسلحين السنة (البعثيون السابقون من أفراد القوات العراقية السابقة الذين يشكلون العمود الفقري للتمرد) بنفس أنواع المساعدة (التي يتلقاها الشيعة) وتتضمن التمويل والأسلحة.

ـ تشكيل كتائب سنية جديدة لقتال الميليشيا المدعومة من إيران.

أو ربما يقرر العاهل السعودي تضييق الخناق علي التمويل الإيراني من خلال سياسات نفطية. فإذا ما عززت السعودية إنتاجها وخفضت الأسعار إلي النصف سيكون تأثير ذلك

كارثيا بالنسبة لإيران. وستكون النتيجة الحد من قدرة طهران علي مواصلة ضخ مئات الملايين كل عام للمسلحين الشيعة في العراق وفي أي مكان آخر."[118]

في هذا السياق لم تتوقف إيران عن العمل على زعزعة الأوضاع في المملكة العربية السعودية، وتبذل القيادات الإيرانية الجهود وتصنع الخطط لنقل الفوضى إلى قلب الجزيرة العربية. تتوالى المعلومات الواردة من العراق عن تلك الخطط والتحضيرات التي تشرف عليها الأجهزة الأمنية والعسكرية الإيرانية لنقل الفوضى إلى السعودية. "اتهم النائب العراقي محمد الدايني إيران بالعمل على تشكيل فيلق عسكري في جنوب العراق على مقربة من الحدود مع المملكة العربية السعودية بهدف نقل الفوضى عبر الحدود. وقال هذا النائب الذي ينتمي إلى الجبهة العراقية للحوار الوطني برئاسة صالح المطلك في حديث إلى صحيفة الوطن السعودية نشر في 8. 1. 2007 أن إيران بدأت قبل فترة قصيرة بتشكيل فيلق عسكري قوامه عشرة آلاف مقاتل أطلقت عليه اسم فيلق مكة وأنشأت له معسكرات في السماوة وصحراء النخيب بالقرب من الحدود السعودية العراقية بهدف نقل الفوضى عبر الحدود. واعتبر هذا النائب أن أجهزة المخابرات الإيرانية متغلغلة بشكل كبير في العراق مسيطرة على جميع مفاصل الدولة العراقية كوزارة الدفاع والداخلية والنقل والصحة والنفط ومؤسسات التنمية الأخرى. واعتبر أخيرا أن لاحتلال الإيراني أشد خطرا من الاحتلال الأمريكي كونه يريد أن ينشئ الإمبراطورية الفارسية من خلال سيطرته على العراق وعلى الخليج. واتهم إيران أيضا بأنها "تسيطر على حقول مجنون النفطية" التي تقع شرق مدينة العمارة بالقرب من الحدود العراقية الإيرانية ووصفها بأنها "من أغنى الحقول النفطية العراقية, وتديرها إيران بشكل كامل مسيطرة بذلك على جميع مقدرات هذه الحقول".[119]

بذلت كل من الولايات المتحدة وإيران جهودا مضنية وأموالا طائلة من أجل أن يحقق كل من الطرفين أطماعه من خلال العديد من الأحزاب والمنظمات "الإنسانية" التي انتشرت في العراق. فأصبح عدد الأحزاب السياسية المجازة رسميا من قبل الهيئة العليا للانتخابات (237) حزبا وعدد المنظمات التي تعمل تحت ذريعة حقوق الإنسان المجازة رسميا من قبل وزارة التخطيط بحدود (17) ألف منظمة. كل هذه الأحزاب والمنظمات تتلقى تموينها من الدول الأجنبية وخاصة من قبل الولايات المتحدة وبريطانيا وإيران. ولا يعقل أن تتمرد هذه الأحزاب والمنظمات "الإنسانية" على إرادة مموليها وسادتها، لكن القسم الأكبر منها سيذوب وينتهي بزوال من صنعها ومولها وحماها في الزمن الاستثنائي على ارض الرافدين.

---

[118] القدس العربي، لندن في 30. 11. 2006 .

[119] فضائية الجزيرة والعربية في 8. 1. 2007 . ووكالات الأنباء العالمية.

التأثيرات المباشرة
لاستمرار المقاومة العراقية

في الحرب على العراق عام 2003 واحتلال أراضيه كانت هناك قوى رابحة وقوى قد خسرت الكثير. من الطبيعي أن تكون الولايات المتحدة الأمريكية وشركائها في الحرب على العراق ومن ثم احتلاله، قد أرادت وقصدت من الحرب والاحتلال النصر العسكري والكسب الاقتصادي والتأثير السياسي المطلق. الولايات المتحدة وشركائها في مغامرة احتلال العراق وضعت الخطط والقدرات التي ستضمن لهم النتائج الإيجابية بعد أن تحط الحرب أوزارها. قبل احتلال العراق بزمنٍ قصير خاضت الولايات المتحدة حربين خاطفتين على كل من يوغسلافيا وأفغانستان. بقليل من الخسائر البشرية والمادية (من 50 إلى 70 جندي قتيل لكل منهما)، حققت واشنطن فيهما نتائج عسكرية وسياسية كبيرة. هذه الحروب الخاطفة ادخل الرعب في قلوب كل شعوب وحكومات العالم. القوية منها والضعيفة والعدوة منها لواشنطن والصديقة لها على حد سواء. اصبح مجرد أن تقوم الإدارة الأمريكية بالتهديد بالقوة العسكرية أو بالتلويح باستعمال القوة كاف لأن تحصل واشنطن على تنازلات اقتصادية وسياسية سخية، ومن أي دولة كانت تتقصد ابتزازها وفرض عليها تنازلات مجانية دون مقابل، وحسب الشروط الأمريكية.

نتائج هاتين الحربين عززت عند العسكريين والسياسيين الأمريكان شعور الغطرسة والثقة بالنصر المبالغ بهما. لم يتوقع القادة الأمريكان وشركائهم البريطانيون والإيرانيون ومعهم والصهاينة أن تأخذ المواجهة على ارض العراق حرب التحرير الشعبية. ولم يدر بخلد تلك الأطراف إمكانية أن يتحول العراق إلى مصيدة ومستنقع يبتلع كل مشاريعهم التوسعية والعدوانية. تفاجئ العالم بسرعة انتشار وزخم المقاومة العراقية. الشعب العراقي والمقاومة العراقية قلبت ميازين القوى ونسفت كل التوقعات والحسابات التي سبقت الحرب. فالحرب على العراق واحتلال أراضيه كان لها نتائج كبيرة على المستوى العربي والإقليمي وعلى المستوى الدولي.

الأجواء العامة التي كانت سائدة قبل الحرب وفي الأشهر الأولى للاحتلال كانت توحي بأن العالم وقع في قبضة الإدارة الأمريكية الجامحة، ووقع تحت رحمة الكيان الصهيوني والقوة الصهيونية العدوانية، المهيمنة بدورها على القرار الأمريكي وقمة الهرم في الإدارة الأمريكية. المعطيات العامة والممارسات الأمريكية كانت تؤكد حتمية

الهيمنة الأمريكية على كل شعوب الأرض، وأن شعوب العالم لا تملك القوة الرادعة لعدوانية هذا الجموح الأمريكي ـ الصهيوني ـ البريطاني. وكثيراً من دول وشعوب العالم سلمت بالأمر الواقع واستسلمت لإرادة إدارة المحافظين في واشنطن، والتطور السياسي المحتمل القادم. المعضلة والمأزق الذي كانت تعيشه شعوب الأرض وقواها السياسية والثقافية هو القناعة التامة عند هذه الشعوب والنخب السياسية والثقافية:

إن الحلف الأمريكي ـ الصهيوني ـ البريطاني يتصرف حسب شرعية امتلاك القوة العسكرية وليس حسب شرعية قوة القانون والعدالة والحق.

إن هذه الشعوب وهذه القوى لا تملك، بعد انهيار حلف وارسو، القوة الرادعة لوقف هذا الحلف عن الاستمرار في برامجه العدوانية العاصفة والمدمرة.

لقد كان غزو العراق واحتلال أراضيه مشروعاً تقاطعت فيه أهداف عدد من القوى الدولية والإقليمية والمحلية. التقت هذه القوى على السير معاً في مشروع الغزو والاحتلال لهذا البلد العربي. أهداف الأطراف المشاركة في الغزو والاحتلال كانت في اكثر من مستوى وذات عدة أبعاد. الولايات المتحدة وبريطانيا، والحركة الصهيونية وإسرائيل، وإيران والقوى الطائفية والانعزالية هي أطراف مختلفة المشارب والقدرات والأشكال، سعى كل منها لتحقيق جملة من الأهداف من خلال احتلال العراق. مشاركة هذه الأطراف وتقاطع مصالحها اكسب الأزمة والحرب على العراق أبعاداً وتأثيرات دولية وإقليمية ومحلية على أكثر من صعيد.

الربح والخسارة في المواجهة على أرض العراق لن يكون محدود التأثير والفعل، بل أصبح من المؤكد الجزم بعالمية تأثيرات المقاومة العراقية للاحتلال. أصبح من المؤكد أن نتائج هذا الصراع المفتوح ستؤدي إلى تحولات استراتيجية كبيرة على المستوى الدولي. هذه التحولات قد بدأت وأثارها الأولية أصبحت بادية للعيان. تأثيرات الاحتلال الأمريكي ـ البريطاني ـ الإيراني على العراق هي التالية:

لقد دمر الحلفاء والغزاة العراق ونهبوا خيراته.

حلت مؤسسات الدولة.

وأشيعت الأحقاد الطائفية والعرقية داخل المجتمع العراقي.

قتل مئات الآلاف من المواطنين العراقيين. حسب "دراسة نشرتها صحيفة ذي لانسيت الطبية البريطانية وأجراها اطباء من جامعة جون هوبكينز وكلية الطب في جامعة المستنصرية في بغداد بالتعاون مع معهد ماساشوسيتس للتكنولوجيا. وقدر هؤلاء

الخبراء في الصحة العامة عدد المدنيين الذين قتلوا في العراق منذ آذار (مارس) 2003 وتموز/يوليو 2006 بحوالي 655 ألف مدني عراقي"[120]

لكن في المقابل وبفعل صمود المقاومة العراقية تحققت نتائج كبيرة وتترك أثاراً اجتماعية وسيكولوجية وسياسية واقتصادية وعسكرية في اكثر من مكان في العالم. وهذه الآثار يمكن النظر إليها على مستوى القطر العراقي وتأثير المقاومة على المحيط الإقليمي وكذلك تأثيراتها العالمية.

أهم الآثار التي أحدثتها المقاومة العراقية على المستوى المحلي:

القوى العراقية التي شاركت قوات الاحتلال في الغزو والسيطرة على العراق كانت تطمح بمساعدة قوات الاحتلال في السيطرة السياسية والعسكرية التامة على العراق، وكانت هذه القوى تنوي، من خلال نفوذها في العراق، أن توسع دائرة تأثيرها وتعميم مشروعها الطائفي والشعوبي على بقية المنطقة العربية. فالقوى الطائفية العراقية، وخاصة الصفوية الفارسية تعمل على إلغاء الهوية العربية للعراق والعمل الجاد إلى ضم أجزاء منه إلى دولة إيران. وما مشروع تشكيل فدرالية الجنوب إلا مقدمة وخطوة أولية على طريق شق الجنوب العراقي العربي ووضعه تحت الهيمنة والسيطرة الإيرانية والفارسية. لكن المقاومة العراقية أفسدت على هذه الأطراف الطائفية والشعوبية نشوة الفرحة في دخول بغداد بحماية دبابات الغزاة، وأكتشف أصحاب هذا النهج أن معركتهم الحقيقية للتو قد بدأت، وأن كل الأهداف التي اعتقدوا تحقيقها أصبحت تتلاشى الواحدة تلو الأخرى، وتسارع الأحداث ينذر بإقصائهم عن حلبة المسرح السياسي ويعيدهم ويعيد أحلامهم إلى عالم الأساطير و الأوهام. وخروج الفئات المتعاونة مع المحتل بلعنة الخيانة الوطنية التي ستلاحقهم وتلاحق أحفادهم لأجيال قادمة.

القوى الكردية ترى بمساعدة قوات الاحتلال ومن خلال السيطرة على العراق كنقطة انطلاق للإتمام المشروع القومي الكردي في بناء الدولة الكردية الكبرى وتمزيق العراق وسوريا وتركيا بمساعدة الكيان الصهيوني والولايات المتحدة الأمريكية. لكن مع استمرار سخونة الصراع واستمرار المقاومة العراقية بمختلف أشكال المقاومة تبين بالملموس استحالة تحقيق الحلم الكردي، الذي يصطدم بعقبات كبيرة لا يمكن تجاوزها. بعد خمسة أعوام من الاحتلال وأكثر من خمسة عشر عاماً من خروج إقليم شمال العراق عن سيطرة سلطة الدولة المركزية في بغداد، اكتشفت القوى السياسية الكردية فقدان الحليف المحلي والإقليمي والدولي الراغب في إقامة أي كيان كردي مستقل. ونظراً للموقع الجغرافي للمناطق التي يسكنها الكرد، وضعف المناطق الكردية من

[120] صحيفة القدس العربي، لندن في 13. 10. 2006 .

الموارد الطبيعية والزراعية الضرورية لإقامة كيان سياسي قابل للحياة والاستمرار تعثرت فكرة الوطن القومي الكردي وبدأت تتبخر هذه الفكرة من عقول قطاعات واسعة من الكرد في العراق.

غاب أي طرف إقليمي ودولي قادر ومستعد لتحمل الأعباء والتكاليف السياسية والعسكرية والاقتصادية الباهظة الثمن التي ستترتب عن قيام الكيان السياسي الكردي. لم تكن واشنطن وكذلك تل أبيب مستعدة لفتح صراع مفتوح مع كل دول المنطقة في وقت واحد. إسرائيل والولايات المتحدة لم تضع يوماً من الأيام مشروع إقامة كيان سياسي كردي حقيقي في أولويات مشاريعهم السياسية في المنطقة. أقصى ما تقصد تل أبيب وواشنطن في هذا الصدد إقامة محميات وجيوب تستعملها وتستثمرها عند الحاجة والطلب. لقد اكتشفت القوى الكردية مرارة هذه الحقيقة وكثير منهم يعتقد، بعد ما استوعب هذه الحقائق، أن الكرد مرة أخرى وقعوا ضحية وعود كاذبة، واستعمل جهدهم ودم أبنائهم مرة أخرى لتحقيق مصالح قوى أجنبية عن المنطقة. أوساط كردية شعبية وسياسية واسعة تعتقد أن الأكراد يقعون مرة أخرى ضحية مؤامرة دولية. وهم وقضيتهم سيدفعون ثمن هذا التآمر.

بعد أكثر من سبعة أعوام من ضلوع القوى، التي كانت في "المعارضة"، في إدارة الدولة العراقية إلى جانب قوات الاحتلال كشفت المقاومة العراقية عن ضعف وعجز هذه القوى على إدارة شؤون الدولة وفرض الأمن وفرض النظام. وعرت المقاومة تلك القوى وأجبرتها على الكشف عن أهدافها الحقيقية في الضلوع في مشروع تمزيق العراق والتماثل مع المشروع القومي الفارسي التوسعي المختبئ خلف شعارات دينية ومذهبية.

اكتشفت الإدارة الأمريكية خطأ اعتمادها على أحزاب الشيعية و الأحزاب الكردية في السيطرة على العراق واكتشفت هذه الإدارة أن تلك الأحزاب أصبحت تفقد قواعدها الشعبية والجماهيرية وصارت تشكل عبئاً ثقيل على القوات الأمريكية الغازية وعبئاً على القوات الغربية المتحالفة معها، وأصبحت هذه الأحزاب بحاجة للحماية من القوات الأمريكية بدل تقديم الحماية للوحدات الأمريكية المحتلة. الإدارة الأمريكية أبدت تغيير ملحوظ في تعاملها مع الأحزاب الشيعية والأحزاب الكردية المتحالفة معها وأخذت مع بداية عام 2007 تتعامل مع قادة هذه القوى والأحزاب بشئ من الخشونة والازدراء وحتى الملاحقة والاعتقال. لقد حققت القوات الأمريكية مع 85 برلماني وقيادي من هذه الأحزاب بتهمة الفساد والإجرام وتشكيل فرق الموت التي شاع قبح أفعالها. ولوحق التيار الصدري أحد ركائز القوى الطائفية العراقية.

لقد عبر قادة الأحزاب الكردية الانفصالية عن هواجسهم ومخاوفهم من التغيرات التي تفرضها المقاومة العراقية على سياسات الإدارة الأمريكية في العراق وما حول العراق،

والتي تؤشر إلى إمكانية فقدان الورقة الكردية قيمتها في المعادلة العراقية الداخلية. وقال الطلباني للصحافيين في مقره الرئاسي حول موقفه من تقرير بيكر - هاملتون الذي أوصى في فتح حوار مع القوى العراقية المعارضة للاحتلال وتشكيل حكومة وطنية. "أعتقد أن تقرير بيكر - هاملتون غير عادل وغير منصف ويتضمن فقرات خطرة من شأنها إن تقوض سيادة العراق ودستوره."[121] وأضاف "ارفض التقرير بشكل كلي". وكان الزيباري الذي يشغل منصب وزير خارجية العراق وممثلاً للحزب الديمقراطي الكردستاني العراقي قد انتقد هذا التقرير بدوره.

كشفت المقاومة العراقية عزلة هذه القوى عن محيطها الجماهيري، وأخذت الشعارات التي كانت هذه القوى تطرحها في زمن التحضير للعدوان، تتساقط الواحد بعد الآخر. وأيقنت الطبقات الجماهيرية العريضة أن تلك الرموز والأسماء التي قدمت إلى العراق مع قوات الاحتلال وشاركت قوات الاحتلال في إطالة زمن تواجده على أرض العراق، ما هي إلا صنيعه من صنائع المحتل تلبست بغطاء الدفاع عن مصالح هذه أو تلك الطائفة وهذه أو تلك الفئة.

ومن خلال استمرار المقاومة كشفت الأقنعة عن كثير من الشخصيات والرموز التي كانت تتهم الحكومة البعثية بالعنف والقسوة. تأكد بفعل المقاومة واستمرارها أن هذه الشخصيات وهذه القوى اشد قسوة واشد فتكاً مما كانوا ينتقدون ويتهمون. الموافقة على تدمير المدن العراقية على رؤوس سكانها، والمشاركة في هذه الأعمال الإجرامية، كما حدث في بغداد وسامراء والنجف والفلوجة والقائم وحديثة وتلعفر، ستبقى وصمة عار على وجوه هذه الشخصيات وتلك القوى لا يزيلها تقادم الأيام والسنين. والأهم من ذلك لقد أسقطت المقاومة العراقية المشاريع المستقبلية الانعزالية لهذه القوى، وأدخلتها في مأزق حرج عنوانه المحافظة على الذات من هول ردود فعل الجماهيري العراقية بعد خروج قوات الاحتلال من العراق، عقاباً عما اقترفت إيمانهم من خطايا بحق العراقيين.

من خلال استمرار المقاومة بدأت تتكشف فضائح الفساد والمحسوبية وسرقة الأموال العامة بطرق وأساليب فاقت كل تصور وتوقع، أظهرت عدم وطنية تلك القوى المشاركة في تخريب الوطن العراقي. الحاكم العسكري الأمريكي بريمر، على سبيل المثال، عندما غادر مكانه في المنطقة الخضراء في بغداد في نهاية شهر أيلول (سبتمبر) عام 2004 كانت ثمانية مليارات دولار قد غادرت معه البنك المركزي العراقي ولم يعثر لها على أثر. وزارة النفط العراقية التي رأسها "إبراهيم بحر العلوم" لعام وبضعة أشهر فقد منها ثلاثة مليارات من الدولارات. ووزارة الدفاع في حكومة أياد علاوي ضاعت وبددت من خزينتها مليار ومائتي مليون دولار. هذه الفضائح المالية والسرقات الكبيرة تم الإعلان عنها وتناقلتها وكالات الأنباء العالمية. وبسبب انكشاف أمر تلك

[121] صحيفة الأنوار، بيروت في 11. 12. 2006.

السرقات ونشر هذه الفضائح المالية الكبيرة وغيرها من الفضائح المتوسطة الحجم والتي تعد بالآلاف، في وسائل الإعلام اضطرت حكومة إبراهيم الجعفري لتشكيل لجنة للتحقيق في مصير هذه الأموال ومعاقبة مرتكبيها. هذه اللجنة التي دعيت "بلجنة النزاهة" ظلت من يوم تأسيسها حتى الآن حبراً على ورق ولم يأخذها أحد في العراق على محمل الجد. لقد تندر العراقيون حول هذه اللجنة وأعضائها باستحضار المثل الشعبي القائل: "حاميها حراميها".

يلخص السياسي اللبناني "كمال شاتيلا" الأهداف التي حققتها المقاومة العراقية على المستوى الوطني العراقي، في اقل من ثلاثة أعوام على انطلاقتها في رسالة مفتوحة أرسلها إلى رجال المقاومة العراقية باسمة وباسم مجموعة من الحركات الوطنية العربية في تاريخ 16. 8. 2005 ، بالنقاط الخمس التالية:

اعترافاً بعد تجاهل طويل من طرف الأميركيين والبريطانيين.

اضطرار الطرف الأميركي لاتخاذ قرار المفاوضات مع المقاومة حول الانسحاب وليس حول إدخال المقاومة في العملية السياسية كما تبرر ذلك قوات الاحتلال.

لقد ضربت المقاومة أهم غايات الاحتلال بالسيطرة على الثروة النفطية العراقية، فانخفض العائد من عشرين مليار دولار إلى حوالي ثمانية مليارات.

وضربت المقاومة العراقية الهدف الاقتصادي للاحتلال باستباحة ثروات العراق عبر الشركات الأميركية والحليفة لها، لأن أعمال المقاومة الناجحة أبعدت كل هذه الشركات.

وضربت المقاومة الهدف الثالث، وهو إقامة هيكلية سياسية عميلة تستند إلى شرعية مظهرية ليتحكم الاحتلال من خلالها بالعراق لشرعنة التقسيم والاحتلال والتبعية الأجنبية، فانهارت هذه الهياكل تباعاً من مجلس الحكم إلى ما يسمى بالجمعية الوطنية اليوم.[122]

تأثيرات المقامة العراقية على المستوى الأقليمي

وعلى المستوى الإقليمي أسقطت المقاومة العراقية وهم القوة الخارقة التي لا تقهر، التي حاولت الإدارة الأمريكية زرعها في عقول المواطنين العرب وغير العرب. ونشرت المقاومة العراقية حطام التفوق التكنولوجي وآلة الرعب الأمريكية والغربية فوق شوارع وسهول وهضاب العراق، وتركتها عرضة لمهب الرياح وصدأ الأيام. لقد وجهت المقاومة العراقية لطمة شديدة لغطرسة الجيش الأمريكي، وأهانت واذلت المقاومة العراقية بفعلها العسكري المباشر الصناعة العسكرية الأمريكية على ارض العراق،

[122] نقلاً عن موقع البصرة على شبكة الإنتر نيت العالمية.

وحطمت الكثير من قيمة وصورة هذه الأسلحة في الساحات الدولية. لقد تبخر الرعب والخوف الذي ساد بعد اجتياح العراق، والذي بقي مسيطراً على الجماهير العربية لعدة اشهر من بدء أيام الاحتلال. الأمين العام للأمم المتحدة "كوفي أنان" قال "أن القوات الأميركية عالقة في فخ العراق" محذرا من أن على واشنطن إيجاد الوقت المناسب للانسحاب من دون إغراق البلاد في مزيد من الفوضى، حسب قوله. وقال أيضاً خلال مؤتمر صحفي في 21. 11. 2006 "بالنسبة لمسألة الوجود العسكري أنها قضية شائكة، وأن الأميركيين عالقون نوعا ما في فخ العراق بمعنى انهم عاجزون عن البقاء وعاجزون عن الرحيل عن العراق في آن".[123]

لقد أعطت المقاومة العراقية مثالاً ساطعاً في البطولة والحنكة والمناورة العسكرية، وساهمت مساهمة مباشرة في الخروج من حالة الإحباط والهزيمة التي سعت أطراف إقليمية ودولية على إشاعتها وتكريسها في عقول النخبة والجماهير العربية كضرورة أساسية لا بد من تحقيقها كشرط من شروط لفرض الاستسلام على الأمة العربية. تساهم المقاومة العراقية في كل طالع فجر في تمتين حالة الثقة بالنفس والإيمان بالمستقبل الواعد. فالجماهير العربية وحركات التحرر العربية لها في تجربة المقاومة العراقية المثل الحي الذي يحتذى به، وهي ترى وتعيش بشكل يومي إمكانية دحر المعتدي، ودحر وهزيمة المشاريع الأمريكية والصهيونية العدوانية في المنطقة العربية.

إن أهم الآثار التي صنعتها المقاومة العراقية هي إعادة الثقة إلى المواطن العربي وإعادة الثقة بالنفس لجزء من النخب العربية. تعززت بشكل ملموس حالة الثقة بالنفس والإيمان في إمكانية التغلب على الصعاب والإيمان بالمستقبل الأفضل للأجيال العربية الصاعدة. هذا التأثير وهذا المكسب في إعادة الثقة بالنفس عند المواطن العربي سيكون له في قدوم الأيام نتائج إيجابية كبيرة وسيكون له تأثير بأبعاد استراتيجية على مستقبل المنطقة. النصر أو الهزيمة تبدأن أولاً في الرأس وفي العقل. الإيمان في القدرة على الفعل أو عدمه ظل دائماً أثناء الأزمات والحروب والصراعات العامل الحاسم في تحقيق النصر أو الركون إلى الهزيمة. من المحتمل أن العرب، من خلال صمود الشعب العربي الفلسطيني، ومن خلال المساهمة الكبرى للمقاومة العراقية في دحر قوى الشر والعدوان، قد أخذوا يتلمسون طريق الخلاص من النفق المظلم الذي دخلوه منذ اكثر من ثلاثين عاماً مضت، وبدأت بين أوساطهم ترسم بدايات مرحلة جديدة بمعالم اكثر إشراقاً وعدلاً. هناك فرصة ذهبية أمام الحكومات العربية صنعتها المقاومة العراقية للتمرد على الإدارة الأمريكية، ومواجهة هذه الإدارة والإدارات التي تتبعها لعدم قدرة الولايات المتحدة الأمريكية في السنين القادمة على مهاجمة أي قطر من أقطار الوطن العربي والتهديد باحتلاله كما كان سائداً قبل احتلال العراق، وتورط الجيش الأمريكي هناك،

[123] وكالات الأنباء العالمية.

والغوص في مستنقع العراق وتركه ينزف تحت ضربات المقاومة العراقية الباسلة. أصبح، وبفعل المقاومة الوطنية العراقية من الممكن ومن المعقول تحدي هذه الإدارة ووضعها في مأزق عسكري ولجم حدود إمكانياتها.

صحيح أن الغزاة وعملائهم استطاعوا من خلال احتلالهم للعراق تدمير هذا البلد العربي الأساسي، لكن الصحيح ايضاً أن الوطن العربي، من خلال تجربته مع هذا الاحتلال وأعوانه في الداخل، استطاع أن يستعيد ذاته ويحافظ على أقطاره من الدمار والاحتلال، وأوقف حالة توسع وتمدد مشروع العدوان الغربي على بقية الأقطار العربية. لقد بدأ الوطن العربي، على الرغم من التهديدات والاستفزازات الأمريكية والصهيونية المتكررة للبنان وسوريا، وعلى الرغم من الحرب التي أشعلتها إيران والكيان الصهيوني على الأرض اللبنانية في شهر تموز عام 2006 بمباركة وتخطيط أمريكي مباشر، يتماسك ويلملم جراحه من جديد، وترك المشاريع الأمريكية الاستعمارية تحتضر وتتهاوى غير مأسوف عليها.

العراق بلد غني بأرضة وشعبه ومخزونه الكبير من المواد الأولية، وإمكانية إعادة بناء العراق بعد التحرير شئ وارد ومعقول. لكن وإذا ما خرج الجيش الأمريكي خاسراً سياسياً وعسكرياً من العراق، بفضل المقاومة العراقية الباسلة، فإن إعادة الثقة للمشروع الإمبريالي الأمريكي العدواني للفئة المغامرة وتيار المحافظين الجدد في الولايات المتحدة يصبح في عداد المستحيلات ولن تستطع أي إدارة أمريكية، خلال العقود الثلاثة القادمة، من التفكير في العدوان على أي دولة عربية أخرى.

المفكر الكويتي "عبد الله النفيسي" يعول الكثير على استمرار المقاومة العراقية. في مقابلة تلفزيونية مع محطة الجزيرة في برنامج "بلا حدود" يقول النفيسي: "بؤرة الصراع الآن في العراق، بؤرة الصراع في العراق هو الامتحان الكبير للأمة في العراق، إذا استطاعت الولايات المتحدة أن تغادر بدون ما يكون على وجهها دم وجروح وتغادر بسلام معناها نحن فشلنا في تمريغ هذا الوجه في الوحل العراقي وتأديبه في العراق، لأنّه إذا لم يؤدب الغازي في العراق سيكون الدور علينا في الجزيرة العربية ودول أخرى."[124] لكن بعد عامين لحديث هذا المفكر العربي، عبد الله النفيسي، تأكد لكل من يهمه الأمر [ان الجيش الأمريكي سيخرج من العراق مهشم الوجه والقيمة والإمكانيات والسمعة والنفوذ. سيخرج الجيش الأمريكي، وبفعل المقاومة الوطنية العراقية وصمود شعب العراق العنيد، بعشرات الآلاف من القتلى والجرحى والمختلين عقلياً.

[124] محطة الجزيرة القطرية في 28. 12. 2005 .

من أثار هذه الحرب وهذه المقاومة العراقية الباسلة أن بدأت بعض الحكومات العربية تعيد حساباتها من جديد وترى في المصالحة مع الجماهير، صاحبة المصلحة الحقيقية في الحفاظ على الأوطان واستقلال الأوطان، وهي ايضاً السد المنيع والقوى التي لا تقهر بحماية النظم والحكام إذا ما صدق الحاكم مع شعبة، الحل الأمثل في حل معضلة العلاقة المتوترة بين الحاكم والجماهير، والحل الأمثل في تجاوز مشكلة الحكم في أقطار الوطن العربي منذ عقود. أثبتت المقاومة العراقية بأن الأجنبي وقدراته، مهما كانت خارقة لن يكون ضماناً لبقاء هذا الحاكم أو ذاك. ومهما قدم الحاكم العربي تنازلات للعدو الخارجي لن يحصل هذا الحاكم على الأمان المنشود، وستعمل هذه القوى الخارجية على الإطاحة بذاك الحاكم إذا ما رأت هذه القوى مصلحة لها بذلك وعندما يتعارض وجود هذا الحاكم مع مصالح تلك القوى.

إن استمرار المقاومة العراقية ومع مرور الأيام والأشهر ستخلق جيشاً عظيماً من المقاتلين العرب الذين يشاركون في القتال في ساحات العراق إلى جانب الشعب العراقي. هذا الجيش من المقاتلين العرب سيكون له تأثيرات كبيرة على مستقبل الأمة العربية. فمن خلال مشاركة أبناء الأمة العربية والأمة الإسلامية الشعب العراقي كفاحه ضد المستعمر الأمريكي ـ البريطاني ـ الإيراني سيعيد إلى هذه الأمة نوعاً من لحمتها وسيسقط في نفس الوقت عشرات المشاريع التي نصبت لفك اللحمة بين أبناء الأمة الواحدة وسيعيد إلى هذه الأمة الثقة بالنفس ويكسبها سلاحاً رادعاً جديداً لكل طامع ومتغطرس.

يعود الفضل للمقاومة الوطنية العراقية، بشكل مباشر، في كشف أدوار بعض القوى الإقليمية التي اختبأت خلف أقنعة شتى. الكيان الصهيوني في فلسطين المحتلة سيكون له نصيب في فشل القوات الأمريكية في العراق. فبدل أن ينهار الوطن العربي من بعد احتلال العراق، تعزز الوطن العربي بقوة المقاومة العراقية. واصبح من المؤكد أن الشعب العربي قادر على الحفاظ على الأوطان حتى ولو أسقطت الحكومات ودمرت البنية التحتية وقتل الآلاف ودمرت الشوارع والمعامل، فالغزاة إلى زوال والمحتل راحل لا محال، والشعب والوطن في خلود. سيتيقن الصهاينة إن لم يتيقنوا بعد، أن الوطن العربي باقي والنمو والتطور على اكثر من صعيد سيستمر، ومشروعهم الاستعماري في فلسطين يتهدده خطر الانحسار والذوبان في هذا البحر العربي. لن تنفع أسلحة الدمار الشامل في حماية هذا الكيان المعتدي من الوصول إلى مصيره المحتوم.

تمنى الإسرائيليون والصهاينة في العالم من خلال غزو واحتلال العراق بأن تكسر إرادة الصمود الفلسطيني الأسطوري في وجه الاحتلال. اعتقد الصهاينة أن احتلال العراق سيكون أحد الضربات القاضية التي ستوجه إلى المقاومة العربية في فلسطين. تصور

الإسرائيليون أن هزيمة العراق وتدميره ستحطم معنويات المناضلين الفلسطينيين وستنشر روح الهزيمة والجزع بين صفوف أبناء هذا الشعب العظيم.

خابت آمال حكام إسرائيل وانقلب السحر على الساحر، وأصبحت المقاومة العراقية تشكل وجدان المواطن العربي أينما كان، وتمد أحرار العرب بالطاقة والسؤدد والعزيمة وطاقة جدية تعزز الصمود البطولي لشعب فلسطين. وأحرار فلسطين، ممن عرفوا اكثر من غيرهم قساوة الظلم والاحتلال، وفي نفس الوقت ممن عرفوا طعم النضال والكفاح، هم اكثر العرب ممن أصبحت إبداعات وانتصارات المقاومة العراقية النبراس والبوصلة التي تنير لهم درب الحرية وتمدهم ببشائر النصر اكثر من أي وقت مضى. لقد زادت بشكل ملحوظ الإستعدادية الكفاحية عند الشعب الفلسطيني وارتفعت معنويات أحراره عالياً وعززت بشدة قناعاتهم بالنصر. وفي المقابل جلبت الحرب على العراق إلى جمهور المستوطنين على أرض فلسطين نوبات الإحباط والكآبة بعد تبخر كل حلم راودهم من تحقيق الأهداف الكبيرة والإستراتيجية من خلال احتلال العراق وتدمير طاقاته ومن ثم فرض الاستسلام على العرب وهزيمتهم. استنفذ الصهاينة الكثير من أوراقهم وليس في جعبتهم بعد الكثير منها. لا زال يحتفظ العرب بالطاقات الهائلة والأوراق الرابحة في ميادين الصراع الدائر على أرض فلسطين العربية وعلى أرض عراق المنصور وهارون الرشيد.

فإيران هي أحد الدول المتضررة من استمرار المقاومة الوطنية العراقية. قوة وبأس المقاومة العراقية، وسعة انتشارها، أجبر الحكومة الإيرانية عن الكشف عن مواقفها الحقيقية في الحالة العراقي، وأرغم النظام في طهران على الزج بقوات من أجهزته الأمنية إلى جانب قوات الاحتلال، في محاولة من هذا النظام لوقف الانهيار الكامل للقوى العميلة التي صنعت في إيران وحضرت وجهزت من طهران لحكم العراق بالنيابة عن حكام طهران. المقاومة العراقية تساهم بشكل مباشر ومتواصل في وضع إيران في المأزق الإستراتيجي الخانق، وتزيد من عزلتها المحلية والدولية، وتساهم هذه المقاومة في فض وابتعاد الأنصار من حولها، التي كسبتهم إلى جانبها خلال العشرين عاماً المنصرمة، وتتركها عرضة لهزات اجتماعية وسياسية خطيرة تهدد مستقبل كيان الدولة الإيرانية برمتها. الذي يدور في إقليم الأحواز العربي حاليا بعد اشتعال الانتفاضة في شهر نيسان (أبريل) عام 2005 هو في أحد جوانبه إرهاصة من إرهاصات تأثير المقاومة العراقية على مناطق الجوار العراقي.

تنبهت قطاعات عربية شاسعة إلى الخطر الإيراني الذي غاب من الحسابات ومن الوعي الجماهيري العربي بهذا الخطر منذ قدمت جماعة الخميني إلى السلطة في طهران وأكثرت من الإدعاءات ورفع الشعارات البراقة والمحببة إلى قلوب الجماهير العربية والإسلامية. لقد بدأت أوساط عربية متنفذة ومسؤولة في إعادة تقييم الدور الإيراني في

المنطقة العربية بعد تجربة احتلال العراق والمشاركة الإيرانية الفعالة والأساسية في جريمة الإحتلال تلك. تجربة الدول العربية مع الدور الإيراني في العراق ومن ثم لبنان فرض على دول الجوار العربي لإيران وضع استراتيجيات ناجعة تعيد للمنطقة، بعد سقوط العراق بقبضة واشنطن وطهران وتل أبيب، توازن استراتيجي مفقود من زمن بعيد. أصبح التدخل الإيراني في العراق بند أساسي ودائم على طاولة اللقاءات العربية الرسمية وغير الرسمية، وهذا التغير وهذا النقاش الدائر سيفضي عاجلاً أم أجلاً إلى استراتيجية عربية تأخذ العدوانية والغطرسة والأطماع الإيرانية بالحسبان. هذه التغيرات ستفقد إيران أغلب المكاسب التي حققتها في العراق ولبنان والخليج العربي في غفلة من الزمن، وغياب الوعي العربي الجدي بخطورة الدور الإيراني في المنطقة. إن استمرار المقاومة العراقية كان له الفضل الأول بإجبار إيران في الكشف عن أذرعها وقواعدها الحزبية في العراق وفي الدول العربية الأخرى.

لقد بدأت العلاقات العربية التركية بالتحسن منذ عام 2000 لكن أحداث العراق والتطورات التي رافقت احتلال هذا البلد، كاحتمال إقامة كيان كردي في شمال العراق يمكن أن يهدد وحدة أراضي الجمهورية التركية، وكذلك الموقف الأوروبي المتردد حول قبول تركيا في عضوية "الاتحاد الأوروبي" ساهمت في إعادة النظر في مجمل علاقات تركية الدولية.

العلاقات التركية ـ العربية تأثرت من الأحداث في العراق. إن العداء المفتوح الذي مارسته المليشيات الكردية ومليشيات فيلق بدر المدعومة من إيران وحكومة الجعفري وحكومة المالكي المعينة من قبل قوات الاحتلال تجاه الأقلية التركمانية في العراق خلق أرضية مشتركة بين الجماهير العربية في العراق المتعاطفة مع الأقلية التركمانية في شمال البلاد. وتطورت وأصبحت علاقة العرب والتركمان تشكل رمزاً للوحدة الوطنية العراقية. ففي مدينة "تلعفر" في شمال العراق التي تسكنها اغلبية عربية مع جالية كبيرة تركمانية تحولت إلى معقل من معاقل المقاومة العراقية ضد قوات الاحتلال. هذه الوحدة الكفاحية بين العرب والتركمان ساهمت في إحياء صور الأخوة والتضامن العربي التركي وفتح أبواب جديدة لتحسين العلاقات العربية ـ التركية، أضيفت إلى العوامل الدولية والإقليمية التي ساهمت في عملية التقارب العربي ـ التركي.

تأثير المقاومة العراقية على المستوى الدولي:

على المستوى الدولي اهتزت هيبة الولايات المتحدة الأمريكية العسكرية التي كانت ترهب بها الشعوب والحكومات الصغيرة والكبيرة على حد سواء. هذه الهيبة والغطرسة العسكرية الأمريكية، التي كانت تلوح باستخدامها ضد كل من يتمنع في الرضوخ

لمطالب هذه الإدارة. الهيبة والجبروت الأمريكي اهتز وتمرغ في وحل المستنقع العراقي الذي أعدته وتدير فصوله المقاومة العراقية. بالإضافة إلى عقدة الفيتنام سيضاف إلى تاريخ المغامرات العسكرية والسياسية الأمريكية الخاسرة مغامرة أخرى اشد فشلاً وتأثيراً على السيكولوجيا الجماعية للشعب الأمريكي وعقدة العراق.

الفشل السياسي والعسكري الأمريكي في العراق ساهم بكل تأكيد في وضع حد لعقيدة "الكاوبوي" والغطرسة العسكرية المتأصلة بين صفوف النخب الأمريكية منذ قرون. صرحت وزيرة الخارجية الأمريكية كونديليزا رايس في بغداد في 15. 5. 2005 عقب زيارة مفاجئة لها للعراق" لا يوجد حل عسكري للوضع في العراق ويجب البحث عن حل سياسي"[125] هذا التصريح من قبل قمة الهرم في الإدارة الأمريكية هو الاعتراف الصريح بهزيمة المشروع العسكري الأمريكي في العراق، وانهيار المشروع الأمريكي الإمبراطوري في شقة المتمثل باحتلال المنطقة العربية، ومن خلال هذا الاحتلال تدشين وتأكيد الهيمنة العسكرية والاقتصادية والسياسية على بقية دول العالم. المشروع الإمبريالي الذي روجت له إدارة المحافظين الجدد لأكثر من خمسة عشر عاماً مضت تداعت أطرافه وقصم ظهره في مرحلة البدء في تنفيذه في العراق، وعلى يد حركة التحرر الوطني العراقية وتحت وقع ضربات المقاومة الوطنية العراقية المسلحة الباسلة.

أشار تقرير عسكري في 18. 12. 2006 يرفعه الجيش الأمريكي إلى الكونجرس الأمريكي كل ثلاثة أشهر إلى "أن العنف ارتفع في العراق بنسبة 22 بالمئة وأن 68 بالمائة من الهجمات كانت ضد القوات الأمريكية لكن العراقيين هم الذين تكبدوا "الاغلبية الساحقة" من الخسائر البشرية. وأضاف التقرير أن عدد الهجمات ارتفع إلى ألف هجوم أسبوعيا في مقابل 800 هجوم أسبوعيا في الفترة ما بين شهري مايو وأغسطس."[126] طالب رئيس الأركان البريطاني في 13. 10. 2006 حكومته بسحب القوات البريطانية من العراق بأسرع وقت. "أوردت صحيفة ديلي ميل مقابلة مع قائد الأركان البريطاني الجنرال ريتشارد دونات طالب فيها بسحب قوات بلاده من العراق "بصورة عاجلة أو المجازفة بتعريض المجتمعين العراقي والبريطاني لعواقب وخيمة."[127]

الرئيس الأمريكي المتغطرس، جورج بوش، أقر أخيراً بصعوبة الوضع في العراق واعترف في مقابلات تلفزيونية في 17 اكتوبر عام 2006 بتشابه الوضع في العراق بالوضع الذي كان قائم في فيتنام بعد عام 1969 عندما أصبح حال القوات الأمريكية

---

125 وكالات الأنباء العربية والعالمية.
126 وكالات الأنباء العربية والعالمية.
127 موقع الجزيرة نيت ووكالات الأنباء العالمية

هناك يتدهور ويتسارع باتجاة الهزيمة النكراء التي مني بها الجيش الأمريكي في جنوب شرق آسيا عام 1974 .

الخسارة في العراق تعني عدم إمكانية تعبئة الشعب الأمريكي والقوى السياسية الأمريكية خلف مشروع عدواني على الشعوب لعقود عدة قادمة. وربما ستساهم هزيمة الولايات المتحدة الأمريكية في العراق في انحسار دور أمريكا الدولي، هذا الدور الذي اكتسبته وتضاعف حجم هذا الدور بعد انهيار المعسكر الشرقي وانتهاء "الحرب الباردة".

لقد سقط جورج بوش وسقطت إدارة الجمهوريين برموزها المتغطرسة وجاء باراك أوباما والحزب الديمقراطي الذي وعد في حملته الإنتخابية بالخروج من المستنقع العراقي. لقد كانت مواقف أوباما من القضية العراقية أحد أهم الأسباب التي ساهمت في نجاح الرئيس الجديد إلى سدة الحكم في واشنطن. فقد أصبح من المؤكد أن المقاومة العراقية قد خلقت مزاج جماهيري جديد في الولايات المتحدة الأمريكية يطالب في الخروج من لعراق والتخلص من تكاليف هذه الحرب البشرية والمادية والسياسية والأخلاقية الباهضة الثمن.

تجربة الغزو الأمريكي في العراق صارت درساً للقوى الاستعمارية الغربية. ستستفيد هذه الدول من تجربة فشل الدولة العظمى في العراق وانهزام هذه الدولة ذات القدرات العسكرية الجبارة أمام شعب عزيز، ومقاومة وطنية باسلة، حسمت خياراتها، وقررت طرد الغزاة، عبر اختراع الأساليب، والطرق المناسبة والقادرة على دحر المحتل والمعتدي. ستكون الدول الاستعمارية اكثر حذراً في المستقبل قبل الإقدام والسعي إلى اضطهاد الشعوب العربية والشعوب في دول "العالم الثالث" التي أثبتت، من خلال تجربة العراق، أنها تمتلك عناصر القوة وقادرة على إبداع الطرق والوسائل الكفيلة والقادرة على دحر القوى المعتدية، مهما كبر حجم ونفوذ هذه القوى. الفشل السياسي والعسكري الأمريكي في العراق سيكون درساً سيترك بصماته التاريخية الواضحة على مستقبل العلاقات الدولية، وستساهم تجربة احتلال العراق وتجربة المقاومة العراقية لقوات الاحتلال الأجنبية في خلق توازنات دولية جديدة يمكن أن تخدم دول الجنوب والدول الفقيرة على مساحة العالم.

العالم مقبل على تشكل جديد يرفض هيمنة القطب الواحد. والإدارة الأمريكية في مغامرتها في العراق ضيعت فرصة ذهبية سنحت لها بعد انتهاء الحرب الباردة بلعب دور القوى العظمى العادلة والحامية للشعوب الضعيفة، والداعمة للدول والشعوب الفقيرة. لكن بدل الأخذ في هذا الخيار الإنساني والحضاري كشرت هذه القوى العدوانية عن أنيابها وباشرت في شن سلسلة من الحروب الظالمة على الشعوب الفقيرة والشعوب الآمنة. أسقطت الحرب الغربية في البلقان والصومال وأفغانستان والعراق الأقنعة

المزيفة عن هذه القوى، وكشفت عن الطبيعة الحقيقية الاستعمارية لتلك القوى، ومن غير المحتمل أن تأمن الشعوب في دول الجنوب طرف الحكومات الغربية في المرحلة التاريخية القادمة. الزمن القادم الذي لن يظل فيه معسكر حلف شمال الأطلسي (الناتو) صاحب اليد الطولى والسيف المسلط على رقاب شعوب العالم طويلاً، ولن تظل الولايات المتحدة الأمريكية اللاعب القوي الوحيد في العالم الجديد القادم. من المتوقع أن يتراجع الدور الأمريكي والدور الغربي ومكانة حلف شمال الأطلسي (الناتو) ودورة في رسم السياسات الدولية.

وهج انتصارات المقاومة العراقية وصل إلى شعوب كثيرة في عالمنا. كثير من القوى الحية من شعوب أمريكا اللاتينية تنظر إلى المقاومة العراقية بعين التقدير والإعجاب. هذه المقاومة، التي أوقفت الوحش الأمريكي عند حدوده، وأغرقت الجيش والإدارة الأمريكية في مستنقعات وأوحال العراق ورمال صحاريه المتحركة، كانت السند المباشر لشعوب أمريكا الجنوبية. هذه الشعوب التي تعرضت ولا زالت تتعرض للنهب والسلب المنظم من قبل الشركات الأمريكية والغربية، ونالت هذه الشعوب حصتها من الابتزاز وتسلط الإدارات الأمريكية المتعاقبة منذ عقود. سياسات واشنطن المتعجرفة في أمريكا الجنوبية سببت الكوارث لشعوب هذه القارة المنكوبة على أكثر من مستوى. من خلال تورط الإدارة الأمريكية في العراق، وإجبار الجيش والإدارة الأمريكيتين على المواجهة الدامية مع المقاومة والشعب العراقي، منحت شعوب أمريكا الجنوبية وقواها السياسية التقدمية وقواها الحية الفرصة الذهبية بالتقاط الأنفاس، وإعادة ترتيب وتنظيم دولها حسب ما تقتضيه المصالح الوطنية والقومية لشعوب أمريكا اللاتينية.

فرصة التقاط الأنفاس هذه سمحت للقوى الوطنية في هذه الدول من أن ترتب البيت الداخلي في هذه القارة المنكوبة بفعل التدخل الأمريكي المباشر والفج في شؤون شعوبها. عاد "هوغو شافيز" الرئيس الفينزويلي المنتخب من الشعب إلى السلطة بعد أن حاولت المخابرات الأمريكية من إزاحته عن السلطة بواسطة انقلاب عسكري قام به عملائها هناك. في البرازيل انتخب الزعيم الثوري "لويس ايناسيو لولا" رئيساً للبلاد. وفي بوليفيا فاز القائد اليساري الهندي الأحمر "إيفو مورااليس" و "ميشال باشيلي" في جمهورية تشيلي. وفي الإكوادور والأرجنتين تعززت مواقع الحكومات المناهضة للسياسات الأمريكية. لم تعد كوبا البلد الوحيد في هذه القارة المناهضة لسياسة الولايات المتحدة الأمريكية بل أصبحت القارة اللاتينية تشبه كوبا في مواقفها.

على ارض أمريكا اللاتينية تشكل محور معتبر من مجموعة دول أمريكا الجنوبية تطرح بوضوح مواقفها الصريحة في ضرورة التصدي لسياسة واشنطن العدوانية في أمريكا الجنوبية، وإعادة استقلال هذه الدول المفقود، والتصميم على بناء، وترميم اقتصاديات بلدان القارة على أسس مصالح شعوب هذه القارة المنكوبة وبعيداً عن التدخل

الأمريكي. هذا التطور في القارة الأمريكية الجنوبية، ساعد في التسريع على العمل المشترك بين المجموعة العربية ومجموعة دول أمريكا الجنوبية والتي توجت في لقاء القمة الذي عقد بين المجموعتين في مدينة برازيليا في 10. 5. 2005 . في هذه القمة العربية ـ الأمريكية اللاتينية تم الاتفاق على تطوير العلاقات بين دول المجموعتين على جميع المستويات. وإذا ما استمرت هذه العلاقات في التطور ستكون مقدمة لبناء تحالف بين المجموعتين الكبيرتين سيترك آثاره الواضحة على خريطة العلاقات الدولية و ميازين القوى العالمية.

التدخل الإيراني
في الشؤون الداخلية للأقطار العربية

منذ زمن طويل عملت الحكومات الإيرانية المتعاقبة على التدخل في الشؤون الداخلية للأقطار العربية، ونصبت الحكومات الإيرانية نفسها الوصي على جزء من المواطنين العرب دون استشارة هؤلاء المواطنين عن حاجتهم لتلك الوصاية. لم يكن تدخل إيران في شؤون الأقطار العربية في يوم من الأيام عامل استقرار وسلام ووحدة، بل كان دائماً، ودون استثناء، عامل شقاق وفرقة ونزاع وحروب أهلية. ظافر العاني السياسي والأكاديمي العراقي في مقابلة مع صحيفة الشروق العراقية في 5. 5. 2005 يوجز الدور الحالي لإيران في بعض الدول العربية. "ومن يتابع الحركة الإيرانية يستطيع أن يفهم استمرار إيران في إثارة القضية الطائفية في الوطن العربي، وهو الأمر الذي نشهده حاليا في الكويت والبحرين والسعودية واليمن، ومحاولتها تفجير التركيبة الداخلية للأقطار العربية حتى تكون في موقف تفاوضي مريح مع العرب وأمريكا في نفس الوقت، وأعتقد أن فكرة الهلال الشيعي ليست أكذوبة عندما وصفها بذلك الملك عبد الله الثاني عاهل الأردن، ولكن حقيقة تساندها الأدلة اليومية."[128]

التدخل الإيراني في الشؤون العربية الداخلية عم وشمل وطال أكثر من قطر عربي. اخترعت حكومة الخميني منظمة لتلعب دور المنسق لعمل ونشاط النظمات والأحزاب الطائفية في المنطقة العربية المرتبطة بأجهزة الدولة الإيرانية. أطلق على هذه المنظمة اسم "منظمة الارتباطات الثقافية والإسلامية" التي تأسست عام 1980 بطهران، وأخذت على عاتقها مسؤولية تصدير الثورة إلى دول الجوار، بالإضافة للعب دور الغطاء الثقافي والديني لنشاط أجهزة الدولة الإيرانية في الدول العربية المختلفة. لقد سبب نشاط هذه المنظمة ردود فعل كثيرة في بعض الأوساط العربية، كالذي حصل في السودان. "أطلقت جماعات إسلامية سودانية حملة مناهضة للفكر الشيعي في البلاد، متهمة طهران بتبني تنظيمات تعتنق المذهب الشيعي، وطالبت الرئيس عمر البشير بإغلاق المستشارية الثقافية الإيرانية في الخرطوم وفتح تحقيق في دخول كتب شيعية وعرضها

[128] صحيفة الشروق العراقية، عدد 5. 5. 2005. .

في معرض الكتاب في العاصمة السودانية، علماً أن السلطات سحبت كتباً من الجناح الإيراني فيه. وعقد المجلس الأعلى للتنسيق بين الجماعات الإسلامية الذي يضم جماعة أنصار السنة المحمدية وجماعة الإخوان المسلمين و مجلس الدعوة والطائفة الختمية وجماعات أخرى، مؤتمراً صحافياً، بمعرفة السلطات، حمل فيه قادة هذه الجماعات على المذهب الشيعي. وقالوا أن هناك مخططا كبيرا يقوده متشيعون من ورائهم تنظيمات شيعية وجهات إقليمية لنشر الفكر الشيعي في السودان." [129]

ردود الأفعال عليى سياسة النظام الإيراني في داخل الأقطار العربية تسارعت وعمت كل كل الدول العربية. لم تلخلوا بلد عربي من دون ردود الأفعال على السياسة الإيرانية عبر المؤتمرات والتصريحات، وبل المظاهرات الشعبية التي تندد بالتدخل الإيراني في شؤون البلدان العربية الداخلية، وفي نشر التفرقة وزرع الفتن الطائفية بين أبناء الوطن الواحد من خلال تأسيس الأحزاب والمنظمات السياسية والمؤسسات الإجتماعية والثقافية على أسس طائفية. من المؤكد أن برامج ومشاريع النظام الإيراني حقق بعض النجاحات في بعض الأقطار العربية كالعراق ولبنان وربما سوريا أيضاً، لكن المشروع الإيراني ، حسب أغلب المراقبين، قد وصل إلى أقصى نقطة يمنكن أن يصل إلىيها وهو يمر في طور التراجع والإنكسار. الفضل في هذا الإنعطاف يعود بالدرجة الأولى لإنكشاف أبعاد المشروع الإستراتيجي الإيراني العدواني وأثاره السلبية على بعض الأقطار العربية بشكل مباشر بصوره وتجلياته المأساوية. لا شك بأن للمقاومة العراقي الدور الكبير في كشف الدور الإيراني العدواني من خلال كشف جوانب هذا الدور على الساحة العراقية.

[129] صحيفة الحياة، لندن عدد 19. 12. 2006 .

التدخل الإيراني في لبنان

منذ السنوات الأولى لوجود قوات الانتداب الفرنسي في لبنان وشروع السلطات الفرنسية في فصل لبنان عن سوريا، وتشكيل الكيان والدولة اللبنانية، انقسمت الطبقة السياسية اللبنانية في مواقفها من هذا المشروع الفرنسي الاستعماري ما بين مؤيد ورافض لهذا المشروع. ومع بدايات تنفيذ هدف تفتيت المنطقة إلى دويلات هزيلة حسب ما نصت عليه اتفاقية سايكس ـ بيكو بين فرنسا وبريطانيا الاستعماريتين تعاطت وانسجمت القوى اللبنانية الشيعية مع فكرة قوات الانتداب بتشكيل لبنان الكبير وسلخة عن الوطن الأم سوريا. اقترب قادة ووجهاء هذه الطائفة كثيراً من أطروحات قوى ورموز الانعزالية المارونية اللبنانية في حينه من أمثال بيار الجميل وسعيد عقل وريمون إده وغيرهم. تلك القوى والرموز التي شكلت رأس الحربة في مشروع فرنسا في لبنان. واشتركت النخبة السياسية من الشيعة إلى جانب تلك في تشكيلة كل الحكومات المتعاقبة التي نصبها "الانتداب" الفرنسي في لبنان منذ عام 1926 حتى عام 1936.

لقد انسجمت النخبة السياسية من أبناء الطائفة الشيعية منذ البداية مع مشروع الطائفية السياسية، الذي عملت سلطات الانتداب الفرنسي على تنفيذه في لبنان مع دخول قواتها الأراضي اللبنانية في عام 1920 بعد احتلال بيروت ودمشق عاصمة المملكة العربية السورية وإسقاط حكومة الملك فيصل بن الحسين وإبعاده عن دمشق. الإقدام على المشاركة الفعالة في حكومات الانتداب لم تكن نابعة من رغبات الرموز اللبنانية للطائفة الشيعية فحسب، وهي لم تكن بعيدةً كل البعد عن المشورة والنصائح الإيرانية والتدخل المباشر في الحياة السياسية والاجتماعية اللبنانية. التدخل المباشر لدى رموز الطائفة الشيعية اللبنانية من قبل الحكومات الإيرانية القاجارية وكذلك من قبل الشاه رضا بهلوي كان مألوفاً في هذه الحقبة الزمنية من عمر وتاريخ لبنان. فالروابط الأسرية والمذهبية بين سكان جبل عامل اللبناني وإيران تعود إلى العصر الصفوي في إيران في القرن السادس عشر ميلادي. عندما جلب الحكام الصفويون في شيراز رجال دين شيعة من جبل عامل اللبناني للقيام بمهمة تعليم الشعوب الإيرانية مبادئ المذهب الشيعي الجديد وغير المألوف، التي فرض عليها اعتناق المذهب الشيعي بالقوة بدل المذهب السني.

لقد كانت فرنسا من أوائل وأكثر الدول الأجنبية التي عملت باندفاع على إثارة الانقسامات المذهبية والطائفية في لبنان. وكانت بريطانيا ودولة فارس من الدول الرئيسية التي ساهمت وشاركت فرنسا في تعميق الانقسامات الاجتماعية والدينية في

المجتمع اللبناني. بالتوازي مع تنامي النفوذ الفرنسي والبريطاني في أواسط القرن التاسع عشر في لبنان والساحل السوري كانت الشروخ الاجتماعية في لبنان تزداد اتساعاً وعمقاً. لقد توزعت الدول الأجنبية الغربية والدولة الفارسة في تبنيها الطوائف بحجة حمايتها من بعضها البعض، وخلقت منذ اكثر من قرن ونصف القرن في جبل لبنان، قبل أن يصبح دولة، من كل طائفة كياناً اجتماعياً وسياسياً مغلقاً على ذاته، ومتصارعاً مع الجميع. قامت فرنسا بتبني الطائفة المسيحية المارونية، وروسيا القيصرية عملت على تبني الطائفة المسيحية الأرثوذكسية، وبريطانيا أصرت على تبني الطائفة الإسلامية الدرزية. دخلت دولة الفرس على الخط وقامت بتبني الطائفة المسلمة الشيعية. حكومة السلطنة العثمانية، الذي كان لبنان أحد الأقاليم التابعة لأملاكها وتحت إدارتها، كانت تتهم من تلك الأطراف في محاباة المسلمين السنة وتقديم أبناء الطائفة الإسلامية السنية على غيرهم من الطوائف في إشغال المناصب الحكومية في هذه الولاية العثمانية. كانت ثمرة هذا التدخل الأجنبي في جبل لبنان الحروب الأهلية الطائفية في عام 1840 وعام 1858 م والتي تسببت بوقوع الآلاف الضحايا وفتحت باب الهجرة الفردية والجماعية إلى بلدان المهجر والغربة في أمريكا الشمالية وأمريكا الجنوبية. واستمرت سلسلة الحروب الأهلية التي أسس لها النظام العالمي القديم في لبنان ولازالت القوى الجديدة مصرة بشدة على تبني تلك السياسات المبنية على تعميق الصراعات المذهبية في هذا البلد العربي المنكوب منذ قرن ونصف القرن.

لقد استوطن جنوب لبنان كثير من العائلات الفارسية عبر تلك السنين الطويلة وقسم من هذه العائلات لم تقطع علاقاتها الثقافية والإنسانية مع إيران. وبالمقابل انتقل عدد كبير من أبناء جنوب لبنان إلى المدن الإيرانية الدينية، مثل مدينة قم ومدينة مشهد، التي يقام فيها بعض المدارس الدينية المتخصصة بالمذهب الإسلامي الجعفري. ومع ارتقاء رضا خان بهلوي سدة الحكم في إيران عام 1925، حتى بادرت حكومته الأولى على وضع برامج عملية لربط الأقليات الشيعية في الوطن العربي بالمؤسسات الدينية والحكومية الإيرانية، رغبة منه في توسيع دائرة نفوذ الدولة الفارسية التي يقودها ويعمل على تعزيز قدراتها السياسية في المنطقة. لبنان كان أحد هذه المحطات ومسرح من أهم مسارح السياسة الخارجية الإيرانية. ففي التواصل مع لبنان يمتد النفوذ الفارسي إلى البحر الأبيض المتوسط ويدخل في لعبة المساومات مع الدول الكبرى ذات النفوذ في تلك الحقبة من الزمن. ما أشبه البارحة باليوم ويا محاسن الصدف.

لقد قدم إلى لبنان مع بداية أعوام الثلاثينات من القرن العشرين أعداد كبيرة من الرموز والعناصر الفارسية النشطة في المجالات السياسية والاجتماعية والدينية. قدوم هؤلاء إلى لبنان لم يكن عفوياً وبدوافع مصالح شخصية وظروف ذاتية، بل كانت إقامتهم في لبنان وترددهم المستمر على لبنان جزء من سياسة رسمية حكومية فارسية معتمدة

ومتعددة المهام يشرف على قيادتها وتوجيهها الشاه رضا خان في لبنان ومناطق عربية أخرى مجاورة.

بعد إعلان الاستقلال لبنان عام 1943 شكل أحد رموز هذه الطائفة هو السيد رشيد بيضون أول حزب سياسي على أسس طائفية، أطلق علية اسم "حزب الطلائع"، يهتم بمصالح أبناء الطائفة الشيعية، حسب ما نصت علية بنود وأهداف هذا الحزب الجديد. و في العام التالي 1944 أسس السيد أحمد الأسعد منظمة سياسية أخرى، تحمل اسم "منظمة النهضة للدفاع عن مصالح الشيعة" في لبنان. هاتان المنظمتان السياسيتان أصبحتا مسرحاً لتنافس وصراع الأطراف الشيعية اللبنانية على النفوذ في أوساط تلك الطائفة العربية اللبنانية للوصول عبرها إلى السلطة السياسية في بيروت. في أعوام الخمسينات والستينات تقلص دور هذه المنظمات بفعل الوعي العام وتأثير الحركة القومية العربية المتصاعد وتوجه الشباب الشيعي اللبناني، كغيرهم من أبناء لبنان إلى الانخراط في تلك الحركات القومية الثورية الصاعدة في تلك الأيام. مثل افتحاد الإشتراكي الناصري، وحركة القوميين العرب، وحزب البعث العربي الإشتراكي وحركة المرابطون الناصرية ومنظمة العمل الشيوعي والحزب الشيوعي اللبناني بالإضافة إلى منظمات لبناية وطنية أخرى.

في أعوام ستينات القرن العشرين نشطت إيران في لبنان بين أوساط الطائفة الشيعية ودفعت إلى لبنان بأعداد جديدة من الرموز الدينية والسياسية للعمل بين صفوف المواطنين العرب من الشيعة. كان على رأس هذه البعثات وأبرز رموزها الشخصية المعروفة "الإمام موسى الصدر" المولود في مدينة "قم" الإيرانية في 15 آذار (مارس) 1928م من عائلة عربية مختلطة النسب مع الفرس من عهود الصفويين، وهو يتمتع بثقافة دينية عالية ويتقن عدة لغات أجنبية بالإضافة إلى العربية والفارسية. وكان موسى الصدر قد درس العلوم السياسية والعلوم الدينية في جامعات إيران. وقد أكمل دراسته الفقهية في مدينة النجف العراقية على يد آيات الله محسن الحكيم والد محمد باقر الحكيم وعبد العزيز الحكيم رئيس المجلس الأعلى العراقي وعلى يد آيات الله الخوئي. وعندما عاد الصدر من النجف إلى قم في إيران عمل بالصحافة وأسس مع رفاق له عام 1958 مجلة "مكتب إسلام" وتولى رئاسة تحريرها. كان برفقة موسى الصدر في عمله في لبنان السياسي والعسكري الإيراني المحنك، "مصطفى تشمران"، والذي أصبح فيما بعد قائداً عسكري للوحدات الخاصة في إيران ووزيراً للدفاع في حكومة الخميني أثناء الحرب على العراق، وقد قتل مصطفى تشمران في أحد المعارك على الجبهة العراقية عام 1982.

لقد جاءت خطوة شاة إيران في تنشيط العمل السياسي في أوساط الشيعة اللبنانيين كمساهمة جادة لوقف تمدد وتأثير الفكر القومي العربي بقيادة جمال عبد الناصر على

مساحة الوطن العربي عموماً وفي لبنان على وجه الخصوص. والأهم من ذلك هو الانخراط المتزايد لأبناء الطائفة الشيعية العرب في الأحزاب والحركات القومية العربية والانخراط في صفوف حركة المقاومة الفلسطينية المسلحة، التي بدأت في نهاية الستينات في التواجد على الساحة اللبنانية. لقد أرعب القوى الإقليمية والقوى الطائفية والانعزالية اندفاع شباب لبنان للانخراط المتزايد في العمل السياسي الوطني، والعمل السياسي القومي، على أسس سياسية وأيديولوجية، وبعيداً عن الأسس المذهبية والطائفية. وهدد هذا التوجه بانهيار تلك المشاريع الانعزالية والطائفية المنتشرة في لبنان وغير لبنان، التي بشرت بها الحقبة الناصرية، حقبة حالة النهوض والتقدم العربي .

كتب هيثم مزاحم في مقال نشره تحت عنوان (هل يوجد محور اسمه حزب الله ـ الصدر؟) جمع بين عدد من الشخصيات اللبنانية والشخصيات العراقية التي اصبح لها شأن ودور في العمل السياسي على الساحتين العراقية واللبنانية. "عندما تأسّس حزب الدعوة الإسلامي عام 1958 من قبل آية الله محمد باقر الصدر قام آية الله محمد باقر الحكيم وآخرون، العديد من طلّاب الدّين اللبنانيين الذين كانوا في العراق حينها، بالانضمام إلى الحزب والمعارضة السياسية للنظام العراقي. وكان من بينهم آية الله محمد حسين فضل الله وآية الله محمد مهدي شمس الدين. انتقل كلاهما إلى لبنان في ستينيات القرن العشرين وحافظا على علاقاتهما مع حزب الدعوة والمرجعيّة الشيعية (القيادة الدينية) في النجف، وأصبحا ممثلين لبنانيين لآية الله أبو القاسم الخوئي. انضم شمس الدين لاحقاً إلى حركة الإمام موسى الصدر في لبنان وأصبح نائبه في المجلس الشيعي الأعلى، بينما شكّل فضل الله وآخرون فرعاً لبنانياً لحزب الدعوة"[130]. لم يقل هيثم مزاحم الشيء الكثير عن الدور الإيراني في تأسيس حزب الدعوة المبادر في تشكيل هذا الحزب والراعي لنشاطه ومسيرة تطوره، والذي طغت على عضويته في كل أماكن تواجده العناصر الفارسية المؤمنة بالهوية الفارسية وفي الدفاع عن مصالح الدولة الإيرانية.

قدم موسى الصدر إلى لبنان عام 1960 وهو في الثانية والثلاثين من العمر، وعين رئيساً للطائفة الشيعية في مدينة صور اللبنانية. نجح موسى الصدر وأعوانه في كسب ود قطاعات شاسعة من أبناء الطائفة الشيعية في لبنان من خلال تركيزه على الوضع الاجتماعي، مما كانت تعيشه قطاعات شاسعة لبنانية من فقر وحرمان، وعلى وجه الخصوص أهل الجنوب اللبناني منهم. من خلال خطبة في التجمعات الدينية ولقاءاته مع المثقفين اللبنانيين من أبناء الطائفة الشيعية كان المحور الأساسي في أحاديثه هو محاربة الفقر والعوز عند جماهير الشيعة، وكان يرد كل ذلك الفقر والعوز إلى البعد الطائفي

[130] هيثم مزاحم، "هل يوجد محور اسمه حزب الله ـ الصدر؟" في 21. 7. 2004 على موقع المرصد في شبكة الإنترنيت العالمية.

والتمييز الطائفي الموجه ضد الشيعة. سلاح الشعور بالمظلومية للشيعة يعاد استعماله مرة أخرى في لبنان، وثبت مرة أخرى بأنه سلاح فعال في تأليب الطوائف والجماعات على بعضها البعض. نجح موسى الصدر بتأسيس مجموعة من المؤسسات الخيرية والاجتماعية والتعليمية في مناطق الجنوب اللبناني الفقيرة واكتسب بهذه الأعمال الخيرية ثقة قطاعات واسعة من الجماهير اللبنانية الشيعية الفقيرة.جزء كبير من هذه المؤسسات كانت حكومة الشاه تمولها وتشرف على عملها عبر سفارة طهران في بيروت، وكانت تربط موسى الصدر علاقات متينية برجال ومسئولي السفارة الإيرانية في بيروت حسب ما صرح به على أكبر رفسنجاني في مذكراته. وفي هذا الصدد يقول نائب الخميني أيات الله حسين منتظري في مذكراته: "لقد كان الحاج السيد موسى الصدر زعيم الشيعة بلبنان على اتصال مع الشاه والحكومة الإيرانية، ومرة خلال زيارته لإيران زارني في بيتي وقال انه مدعو للقاء الشاه. وبعد لقائه زارني ثانية وقال لقد قابلت الشاه وطالبته بإلغاء حكم الإعدام بحق حنيف نجاد (من مؤسسي منظمة مجاهدي خلق) كما أثرت أمامه موضوع نفيكم (منتظري) من قم. وكان جهاز الأمن بصدد طردي من قم إلى منفى بعيد داخل البلاد."[131]

شكل موسى الصدر عام 1969 "المجلس الأعلى الإسلامي الشيعي" في لبنان، الذي انتخب الصدررئيساً له، وأطلق على الصدر منذ ذلك التاريخ لقب الإمام وهي أعلى مرتبة دينية يصل إليها رجل دين شيعي. كانت هذه المرة الأولى التي يتم فيها الفصل الطائفي بين السنة والشيعة من الناحية الرسمية في لبنان. لقد كرم الصدر من قبل المراكز الدينية الشيعية التي تسيطر عليها إيران ومنح هذه المكانة الدينية الرفيعة على الرغم من صغر سنه وعدم اكتمال الشروط التي تأهله لتولي هذا المنصب الديني الكبير.

ضم المجلس الشيعي الأعلى في عضويته عدد من الشخصيات الدينية والاجتماعية والسياسية الشيعية، مثل الشيخ شمس الدين والمحامي نبية بري. سطع نجم موسى الصدر المدعوم إيرانياً وتمت له القيادة المطلقة لقطاعات كبيرة من أبناء الطائفة الشيعية في لبنان، وخاصة في المناطق الجنوبية والأحياء الفقيرة من بيروت. واكتسب الإمام الصدر سمعته السياسية من خلال مقاومته الاعتداءات الإسرائيلية على الجنوب اللبناني، ورفضه لمشاريع توطين الفلسطينيين في لبنان خوفاً من اختلال التركيبة الديمغرافية للسكان في البلاد. تلك المخاوف المبنية على أسس طائفية على اعتبار أن أغلبية اللاجئين الفلسطينيين هم من المسلمين السنة، وتوطين هؤلاء يعني رجحان كفة السنة في لبنان بشكل ملحوظ. كانت هذه الخلفية الطائفية في رفض توطين الفلسطينيين، التي ليس لها علاقة بالبعد القومي والوطني في جانب الصراع مع الكيان الصهيوني والقضية

[131] نقلاً عن مجلة الشراع اللبنانية عدد 1429. في 12. 02. 2010 ، بيروت.

الفلسطينية، هي نفس الخلفية الطائفية التي رفض التيار الإنعزالي الماروني حسبه توطين الفلسطينيين في لبنان.

نشأت صراعات حادة بين موسى الصدر واتباعه من جهة والقيادات الشيعية التقليدية بقيادة عضو مجلس البرلمان اللبناني كامل الأسعد من جهة أخرى. كانت هذه الصراعات تدور في بادئ الأمر في الخفاء وخلف الكواليس، ولكنها سرعان ما تفاقمت وظهرت للعلن وعلى رؤوس الأشهاد. منح موسى الصدر في نفس العام الذي أسس فيه المجلس الأعلى الإسلامي الشيعي، الجنسية اللبنانية تكريماً لجهوده، وبقي الصدر محتفظاً إلى جانب الجنسية اللبنانية بالجنسية الإيرانية. وهذا الذي لم يفعله آيات الله علي السيستاني في العراق الذي بقي محتفظاً بالجنسية الإيرانية ولم يقبل الجنسية العراقية عندما عرضت عليه لعدة مرات. نجح موسى الصدر، الشخصية الأجنبية الإيرانية الشابة من الوصول إلى قيادة طائفة لبنانية مهمة، ونافس في ذلك قيادات لبنانية شيعية محلية أكثر نفوذاً وأعمق جذوراً في المجتمع اللبناني وفي وسط الطائفة الشيعية هناك. تفوق الصدر على القيادات السياسية اللبنانية الشيعية الأكثر دراية في الشؤون اللبنانية والعربية وأزاحها عن قيادة الطائفة سياسياً واجتماعياً ودينياً. كان نجاح موسى الصدر في لبنان هو نجاح لحكومات إيران وتوسيع لنفوذ هذه الدولة في القطر العربي اللبناني.

تأسيس حركة "أمل"

موسى الصدر، الصديق الشخصي للمرشد الأعلى للثورة الإسلامية في إيران، علي خامنئي،[132] خطى في العام 1974 الخطوة السياسية التالية، وشكل حركة سياسية انعزالية الطابع وتدعو الشباب الشيعي العربي في لبنان إلى التجمهر داخل هذه المنظمة الانعزالية والابتعاد عن المنظمات الوطنية اللبنانية الأخرى، التي استوعبت في صفوفها، وفي حينه و في أجواء الحرب الأهلية اللبنانية، التي باتت على الأبواب، آلاف الشباب العربي من أبناء شيعة لبنان. سميت هذه الحركة ب "حركة المحرومين". لقد أطلق الإمام موسى الصدر هذا الاسم على حركته السياسية الجديدة. لقد وظف موسى الصدر من جديد في اختياره الاسم الشعور بالمظلومية الطائفية، والفقر والجهل المتفشي بين أبناء الجنوب اللبناني.

من حركة المحرومين نشأت وتطورت عام 1975 حركة أفواج المقاومة اللبنانية "أمل". هذه الحركة الشبه عسكرية مثلت في حينه الجناح العسكري لحركة المحرومين التي يقودها ويشرف عليها الإمام موسى الصدر. على الرغم من تزعم قيادة هذه الحركة المحامي الشاب نبيه بري، البعثي السابق، والناشط في الحركة الطلابية العربية في الولايات المتحدة الأمريكية أثناء أعوام الدراسة هناك، لكن بقي المؤسس الفعلي والقائد الروحي لهذه المنظمة السياسية ـ العسكرية الإمام موسى الصدر وشاركه في القيادة والإشراف زميلة ومساعده السياسي والعسكري الإيراني أيضاً، "مصطفى تشمران". كانت منذ البداية ولاءات هذه المنظمة، مثل ولاءات حركة المحرومين، وحسب ولاءات المنضوين والقائمين على قيادة هذه التنظيمات، ولاءات إيرانية، وتعمل حسب العزف واللحن الطائفي للسياسة الحكومية الإيرانية المعلنة. ساعدت على تشكيل هذه المنظمة على أسس طائفية أجواء الطائفية السياسية السائدة في لبنان، أثناء وقبل اندلاع الحرب الأهلية هناك. نجح السيد موسى الصدر ومصطفى تشمران وآخرون في تلك الحقبة من الزمن في:

تعزيز الحس الطائفي وبروز الهوية الطائفية على حساب الهوية الوطنية اللبنانية والهوية القومية العربية عند شريحة كبيرة ومهمة من أبناء الشعب اللبناني.

---

[132] قارن في الشرق الأوسط عدد 14. 10. 2005. مقال علي نور زادة تحت عنوان "القائد والغليون" .

ونجح الصدر ومساعديه في تشكيل أطر سياسية ومؤسسات اجتماعية تستمد شرعيتها من استمرار الطائفية السياسية في هذا البلد.

غاب الإمام موسى الصدر عن الساحة السياسية اللبنانية، بعد زيارة قام بها مع وفد من "المجلس الإسلامي الشيعي الأعلى" إلى ليبيا في 25. 8. 1977 . هذه الغيبة لا زالت تدور حولها مجموعة من التكهنات الغامضة.

جاء نشاط مصطفى تشمران والإمام موسى الصدر وغيرهم من الوافدين الإيرانيين على الأراض اللبنانية منسجماً إلى حد كبير مع إستراتيجية حكومة الشاه محمد رضا واستمراراً لما كان قد بدأه الشاه رضا بهلوي في العام 1925 في الدخول إلى المنطقة العربية عبر بوابة مظلومية الأقليات المذهبية، ومظلومية الشيعة في البلاد العربية.

لمتابعة هذه السياسة في دول الجوار الإيراني أسست إيران لذلك الأجهزة المتخصصة في أكثر من وزارة وهيئة حكومية. أهم هذه الأجهزة هو جهاز "السافاك"،أي جهاز المخابرات العامة في أيام حكم الشاه. ورصدت الأموال اللازمة لتلك الدوائر والمؤسسات المتخصصة بشؤون الأقليات الشيعية في لبنان وغير لبنان. بالتعاون مع الممثليات الدبلوماسية وقنصلياتها في الخارج عملت الحكومات الإيرانية المتعاقبة بنشاط محموم على تنفيذ برنامج الفرز الطائفي في مجتمعات دول الجوار، وخاصة الجوار العربي. أحد ساحات هذا النشاط كانت ولازالت ساحة الجمهورية اللبنانية.

لم يقتصر الحضور الإيراني في لبنان على بعض الشخصيات الدينية والسياسية العاملة في الأوساط الشيعية اللبنانية بل تعدى هذا الحضور ذلك بكثير. "وعلى مر الستينيات وجدت الاستخبارات الإيرانية في لبنان مرتعاً سهلاً للتحرك وإرساء علاقات واسعة النطاق مع سياسيين لبنانيين، وكذلك مع الاستخبارات اللبنانية التي اضطلعت حينذاك بأدوار عدة اتصلت بملاحقة معارضين للشاه. بعد الثورة الإسلامية، كان لبنان الدولة الأولى، الأصغر والأضعف، التي رغبت إيران في تصدير ثورتها إليها، شأن السلاح والمال أيضاً، بإرسال ألوف من «الحرس الثوري» وإقامة معسكرات تدريب في بعلبك لعناصر تنظيم أضحى في ما بعد حزب الله بزعامة الشيخ صبحي الطفيلي الذي يأخذ هذه الأيام على خلفه السيد حسن نصر الله تنفيذ السياسة الإيرانية في لبنان."[133]

استعملت إيران حركة "أمل" لخدمة مصالحها وتحقيق أهداف الدولة الإيرانية في أكثر من مكان. في بيان علني وزع على وكالات الأنباء العربية والعالمية ورسالة مفتوح إلى السيد حسن نصر الله الأمين العام "لحزب الله" اللبناني تبدي "منظمة تحرير الأحواز" استيائها من تدخل عناصر حزب الله في قمع انتفاضة الشعب العربي الأحوازي إلى جانب قوات القمع الإيرانية. وفي نفس الوقت تكشف الدور السيئ الذي لعبته حركة أمل

[133] صحيفة الأخبار اللبنانية، بيروت في 30. 1. 2007 .

ومصطفى تشمران في قمع انتفاضة العرب الأحوازيين في العام 1979. تحت عنوان "في الأمس (1979) حركة أمل واليوم (2005) حركة حزب الله!!؟ " يذكر البيان، الرسالة المفتوحة، بدور حركة أمل في قمع الشعب العربي المنتفض في الأحواز. "أن مجزرة المحمرة في 29. 5. 1979 ، والتي عرفها التاريخ بيوم الأربعاء السوداء، لازالت دماء شهدائها لم تجف بعد في الشوارع وداخل البيوت حين دخلت مجاميع من حركة بما يسمونهم (حركة أمل) الشيعية. ادخلها الخميني بقيادة المدعو (دكتور تشمران) ومعها لفيف من الملثمين من المخيمات المتواجدة في لبنان حيث استخدمهم الخميني والمجرم الاميرال أحمد مدني، الحاكم العسكري الفارسي المفروض في الأحواز، لحرب الشوارع ضد انتفاضة الأحواز آنذاك. راح ضحية هذا الاعتداء التشمراني الأملي اكثر من ألفي شهيد، منهم من الأطفال والنساء والشيوخ والمئات من الجرحى والأسرى، التي قام نظام الخميني بإعدامهم جميعاً فيما بعد."[134] البيان يتهم حركة أمل اللبنانية، ويتهم أحد مؤسسيها الإيرانيين، "مصطفى تشمران"، وزير الدفاع الإيراني السابق، وقائد الوحدات الخاصة في الجيش الإيراني أثناء الحرب العراقية ـ الإيرانية، في المشاركة في قمع انتفاضة شعب عربي انتفض في وجه المغتصب والمحتل الإيراني. لقد أصبح من نافل القول أن حركة أمل اللبنانية ظلت منسجمة مع الأهداف الإيرانية في المنطقة العربية، وتعبر في نشاطها السياسي الخارجي عن مصالح الدولة الإيرانية، وبعيداً عن التعبير عن مصالح الشعب والدولة اللبنانية.

لقد تجاوزت الآثار السلبية للحرب الأهلية اللبنانية بسماتها الطائفية لبنان وأمتد تأثيرها وتوسع حتى طال أغلب أطراف الوطن العربي، وشاعت أجواء الطائفية السياسية والكراهية والأحقاد والانعزالية بين صفوف بعض الفئات في أقطار عربية أخرى. من المؤكد أن كل من ساهم في تأجيج نار هذه الحرب وبذل جهد في إعطائها الطابع الديني والطائفي لا يريد خيرا بأبناء الشعب اللبناني بجميع مكوناته وطوائفه. وهو يضمر كذلك الشر والأذى للوطن العربي بكل مواطنيه. "فمن ارتكب المجازر ضد اخوتنا في لبنان في صبرا وشاتيلا هو تشمران ومجموعاته وما سبب الحرب الأهلية والفتنة الطائفية في لبنان قد سلم هذه المهمة من بعد إلى حزب الله، حيث شب وترعرع وتنظم هذا الحزب في كنف الخميني، ثم انتقل إلى لبنان ليقوم بتخريب التركيبة السكانية والدينية في لبنان."[135] هذا البيان يكشف جانباً من الخدمات التي تقدمها بعض الأحزاب والمنظمات الطائفية للسلطات الإيرانية ويشير للحصار القاتل الذي قامت به حركة أمل ضد المخيمات الفلسطينية في عام 1983 حتى عام 1985 ، حيث تفاقمت ظاهرة موت الأطفال والعجز من الجوع والعطش ونقص الأدوية من شدة الحصار لتلك المخيمات البائسة.

---

134 موقع منظمة ميعاد على شبكة الإنترنت، 22 .4 .2005

135 المصدر السابق

تأسيس حزب الله اللبناني

سقط نظام الشاه في إيران عام 1979، وسقطت معه كثير من مؤسساته ورجاله ومناصريه. تولت السلطة في طهران قوى سياسية واجتماعية أخرى. هذا التغيير السياسي في إيران لم يكن مفاجئاً، بل كان ثمرة صراع دام ومرير في إيران بين فئات سياسية واجتماعية عدة دامت إلى عدة عقود. وصلت القوى الإسلامية المحافظة بقيادة الخميني إلى سدة الحكم في طهران. على الرغم من أن هذه القوى لم تكن الأكثر تنظيما والأكثر تضحية وكفاحية بين القوى الإيرانية الفاعلة ضد نظام الشاه، إلا أنها كانت الأكثر شعبية وثراءً مادياً ودعماً دولياً. الدعم الدولي تجلى في بداية عام 1978 عندما فتحت العواصم الغربية أبوابها وقامت باستقبال رموز هذا التيار، وظلت هذه العواصم مغلقة في وجه بقية التيارات السياسية الإيرانية النشيطة والفاعلة على الساحة الإيرانية.

التغير السياسي الكبير الذي حدث في إيران انعكس بدوره بشكل مباشر على القوى السائرة في فلك الحكومة والدولة الإيرانية في زمن حكم الشاه في دول الجوار. تأثير التغيير السياسي في طهران امتد ليصل إلى لبنان. على أرضية التغيير في إيران نشطت حالة حراك سياسي كبير داخل الأحزاب والمنظمات اللبنانية الشيعية من أجل تحديد الولاءات السياسية والاتجاهات الأيديولوجية للقوى المتصارعة في إيران. كذلك وكنتيجة لتأثيرات الحرب الأهلية اللبنانية والاجتياح الإسرائيلي لهذا البلد. في أجواء التغير الكبير في إيران والحرب الأهلية الدائرة في لبنان تشكل حزب الله في لبنان. فقد تشكل الحزب من أجنحة الحركات السياسية الشيعية المتصارعة، وخاصة من أجنحة حركة أمل المنقسمة على ذاتها بين الهوية العربية والهوية المذهبية، والولاء للوطن اللبناني. تلك كانت حالة الحراك السياسي داخل حركة أمل وغيرها عشية وصول التيارات الدينية إلى سدة الحكم في إيران.

في أجواء الاجتياح الإسرائيلي للأراضي اللبنانية واحتلال بيروت وكذلك هيمنة الأحزاب الانعزالية على السلطة في لبنان، بمساعدة إسرائيل، تشكل في عام 1982 حزب الله في لبنان بمبادرة من قبل السلطات الإيرانية، بالتعاون مع بعض الرموز اللبنانية الشابة ذات التوجه الديني الطائفي. "في الواقع اعتمدت المعارضة الشيعية في العراق على الدعم الإيراني في صراعها ضد النظام العراقي. وبعد ذلك مباشرة احتاج

الشيعة اللبنانيون أيضاً إلى دعم طهران في مقاومتهم للاحتلال الإسرائيلي الذي أعقب اجتياح صيف 1982، وهو ما قاد إلى انطلاقة حزب الله. وليس مفاجئاً أنّ عديداً من أولئك الذين كانوا على صلةٍ بحزب الدعوة واتحاد الطلاب المسلمين أصبحوا قوةً رئيسيةً في الحزب الجديد."[136]

الرئيس الإيراني السابق، "أبو الحسن بني صدر"، يقول في مقابلة تلفزيونية مع فضائية الجزيرة القطرية في برنامج "زيارة خاصة": "بالنسبة لموضوع لبنان كنت مع دعم الشعب اللبناني وليس دعم منظمة على حساب الشعب، عندما كنت في السلطة لم يكن هناك وجود لحزب الله في لبنان، بعد تنفيذ الانقلاب ضدي وجد السفير الإيراني في سوريا الفرصة سانحة لتأسيس هذا الحزب."[137] كان السفير الإيراني في دمشق في ذاك الحين من 1982 - 1985 هو علي أكبر محتشمي بور. يقول السفير الإيراني محتشمي عن بدايات تأسيس حزب الله اللبناني "إن حزب الله اكتسب خبرة قتالية عالية خلال الحرب الإيرانية ـ العراقية، بحيث كان رجال الحزب يشاركون ضمن صفوف قواتنا بشكل مباشر"[138] ومن بعده تولى مسؤولية الإشراف على حزب الله السفير الإيراني بدمشق محمد حسن أختري لمدة 14 عاماً متواصلة وذلك من 1985 حتى 1999. السفارة الإيرانية في دمشق إذاً هي صاحبة المبادرة في تأسيس حزب الله اللبناني، وكان طلائع هذا الحزب من المقاتلين في الجبهات الإيرانية ضد الجيش العربي العراقي.

صرح صبحي الطفيلي، أحد الرموز اللبنانية الشيعية، وأحد أعضاء حزب الدعوة سابقاً، والأمين العام الأول لحزب الله، في أحد المقابلات التلفزيونية لمحطة الجزيرة القطرية في 25 .9 .2003 في برنامج "زيارة خاصة" حول ظروف تأسيس حزب الله وقال: "أنا أتحدث عن بداية 1982، كانت هذه مناخات مرحلة ما قبل 1982، أنا كنت في زيارة إلى الجمهورية الإسلامية في حينها وفي طريقنا إلى إيران سمعت أن هناك غزو إسرائيلي للبنان. بعد يوم أو يومين اتضح أن هذا الغزو واسع النطاق، التقيت ببعض المسؤولين الإيرانيين حينها واتفقنا على عمل لإقامة مقاومة، وتحدثنا عن مجيء بعض الاخوة الإيرانيين من الحرس الثوري."

الصحفي سامي كليب يسأل الطفيلي: كان السيد الإمام الخميني بين الذين التقيت بهم؟

صبحي الطفيلي: "لا، لا كان بعض المسؤولين المعنيين بالعمل الميداني، ثم قطعت زيارتي إلى إيران وعدت بعد ذلك بأسبوع إلى هنا، وبدأنا الإعداد لتلك المرحلة، طبعاً مع أخوتنا في حزب الدعوة في حينها، أخوتنا في تجمع علماء المسلمين في البقاع في

---

136 هيثم مزاحم،على موقع المرصد في شبكة أنتر نيت العالمية

137 تلفزيون الجزيرة الفضائية في 1. 12. 2000 .

138 مقابلة مع صحيفة "شرق" الإيرانية في 8. 3. 2008 نقلاً عن صحيفة الشرق الأوسط في 14. 5. 2008 .

حينها أخوتنا في حركة أمل، لأنه جزء كبير من حركة أمل كانت لنا علاقات جدا مهمة بهم وبكل الأخوة."

بادرت القيادة السياسية الجديدة بعد الثورة في طهران في العمل على تأسيس حزب سياسي على أرضية طائفية موالية لأجهزتها السياسية والأمنية الجديدة بديل لحركة أمل التي كانت قيادتها موالية ومرتبطة بالدرجة الأولى بقيادات الأجهزة الأمنية والسياسية التابعة لحكومات الشاه محمد رضا المخلوع، مع تلك التي كانت قائمة عندما شرع السيد موسى الصدر ومصطفى تشمران بتأسيس حركة أمل قبل سبعة أعوام مضت.

يشكل حزب الله اللبناني أحد الفروع الرئيسية لحزب الله الرئيسي. المقر الرئيسي لحزب الله وقيادة حزب الله العامة متواجدة في طهران، وهذه القيادة المركزية في طهران تتولى الإشراف على كل فروع حزب الله في إيران وفي الدول الأخرى. قيادات الحزب المركزية في طهران هي بالضرورة والواقع تشكل جزء أساسي من القيادة السياسية والعسكرية والدينية للدولة الإيرانية. لم ينكر أحدا في إيران وخارج إيران هذه الحقيقة التنظيمية والسياسية لواقع حزب الله بفروعه المختلفة. تم تشكيل حزب الله الإيراني في طهران مع بداية الحرب العراقية الإيرانية عام 1980، وفي السنوات اللاحقة تم تأسيس عدة فروع لهذا الحزب في كل من العراق ولبنان والبحرين وباكستان.

ظل حزب الله اللبناني يحظى برعاية خاصة ودعم الحكومات الإيرانية ومؤسساتها الأمنية المختلفة، المادي والمعنوي والسياسي، منذ اليوم الأول لتأسيس هذا الفرع للحزب في لبنان، ولا زال كذلك. اصبح هذا الحزب يشكل القاعدة الأساسية والأداة الرئيسية للسياسة الإيرانية في لبنان وفي منطقة الشرق العربي. تعمل إيران من خلال الارتباط التنظيمي لقيادة هذا الحزب بالقيادة المركزية لحزب الله في طهران، وعبر التواجد الفعلي للعناصر الإيرانية الحكومية في مراكز قيادة حزب الله اللبناني، ومن خلال ولاء قيادات هذا الحزب للرموز الدينية الإيرانية (تقليد علي خامنئي مرشد الجمهورية في إيران) والإعتقاد بولاية الفقيه على فرض المواقف السياسية الإيرانية على قيادة حزب الله اللبنانية. من خلال حزب الله اللبناني استطاعت الحكومات الإيرانية تأكيد حضورها في رسم مستقبل لبنان، وتحقق الاختراق السياسي للمنطقة العربية. يذكر الكاتب الإيراني في صحيفة الشرق الأوسط اللندنية، أمير طاهري عن بعض جوانب الجهد الإقتصاد الإيراني في لبنان عندما يكتب: "أنفقت إيران حوالي 20 مليار دولار في لبنان منذ عام 1983. وفي غالبية الحالات تكون سيطرة حزب الله اللبناني اسمية. إلا أن إلقاء نظرة من قرب تكشف أن الحرس الثوري الإيراني هو الذي يسيطر على الشركات اللبنانية التي تعمل كواجهة لإيران."[139]

[139] أمير طاهري في مقال تحت عنوان "إدارة بوش والحرس الثوري الإيراني"، صحيفة الشرق الأوسط، لندن، في 24. 8. 2007 .

لقد أوحت قيادة حزب الله للشعب اللبناني وللشعب العربي، وهو يخوض حرباً ضد العدو الإسرائيلي الذي يحتل الأرض العربية في أعوام التسعينات أن سياسة هذا الحزب فوق الطوائف. لقد حقق الحزب نتائج عسكرية حقيقة بعد انسحاب الجيش الصهيوني وعملائه عام 2000 من جنوب لبنان. وحقق الحزب من خلال هذا الإنجاز التفافاً جماهيرياً لبنانياً وعربياً واسعاً، وحظيت قيادات الحزب باحترام وتقدير شديدين من قبل تلك الجماهير على اختلاف أقطارها وانتماءاتها السياسية والمذهبية والدينية. الإنجاز العسكري والإدعاء بالابتعاد عن الممارسات والسياسات الطائفية، حقق للحزب دعماً جماهيرياً عربياً كبيراً. لكن هذه الصورة التي رسمها الحزب حول برامجه السياسية والاجتماعية والعسكرية، بأبعادها الوطنية والقومية الفوق طائفية لم تصمد طويلاً. ففي البيان التأسيس لحزب الله عام 1985 جاء بكل وضوح الطابع الطائفي لهذا الحزب يقول الحزب في هذا البيان "هدفنا الاستراتيجي إقامة جمهورية إسلامية في لبنان مرجعيتها الفقهية في قم بإيران".[140] وعاد حسن نصر الله وأكد أكثر من مرة في خطاباته على هذه الإستراتيجية. كان أخرها عام 2006 بعد الحرب الإسرائيلية الظالمة على لبنان في نفس العام.

وبدأت الصورة تتكشف أمام حقيقة شكل ومضمون الحزب التنظيمية والسياسية، وطبيعة تحالفات هذا الحزب الداخلية والخارجية، وممارساته العملية، في الفترات اللاحقة التي أعقبت انسحاب القوات الإسرائيلية من جنوب لبنان، والهجوم الأمريكي على العراق واحتلال أراضيه. فالعضوية في هذا الحزب بقيت مغلقة في وجه أبناء الطوائف والديانات اللبنانية والعربية الأخرى الراغبة في العمل والنضال ضد العدو الصهيوني من داخل هذا الحزب، واختصرت من الناحية العملية العضوية في حزب الله فقط على الشباب اللبناني وغير اللبناني من أبناء الطائفة الشيعية. لم يستطع الحزب استيعاب المسلم السني أو الدرزي اللبناني والعربي بين صفوفه، لكن المئات من الشيعة الفرس والإيرانيين، ومن دول أخرى، كانوا ينشطون داخل صفوف حزب الله اللبناني.

من الملاحظات الجديرة بالتذكير في هذا المكان هي بروز شخصيات سياسية وعسكرية ودينية في الدولة الإيرانية، والتي وصلت إلى قمة الهرم في قيادة الدولة الإيرانية كانوا قد عملوا لسنين طويلة في لبنان، وفي صفوف الأحزاب الشيعية في لبنان. على سبيل المثال لا الحصر فإن رئيس الجمهورية، أحمدي نجاد، ونائب وزير الدفاع الإيراني السابق، علي رضا أصغري، والإمام الأكبر، موسى الصدر، ومصطفى تشمران القائد العام لقوات الحرس الثوري الإيراني، وغيرهم الكثيرين من القيادات في الدولة الإيرانية كانت لهم نشاطات سياسية واجتماعية وأمنية على الساحة اللبنانية، وأقام هؤلاء لعدد من السنين على الأرض اللبنانية.

---

[140] بيان حزب الله اللبناني التأسيسي عام 1985 .

أعلنت الحرب على العراق واحتلت أراضيه بمساعدة وتواطؤ أطراف عراقية طائفية تعلن ولائها بصراحة إلى إيران، كحزب الدعوة والمجلس الأعلى للثورة الإسلامية في العراق، وفيلق بدر التابع لهذا المجلس، وكذلك منظمة العمل الإسلامي العراقية. مع كل هذه القوى والأحزاب العراقية المرتبطة بإيران وبقوات الاحتلال الأمريكية، يرتبط حزب الله اللبناني بعلاقات سياسية وتنظيمية شديدة وحميمة. لقد عزز الاعتقاد في طائفية هذا الحزب تلك العلاقة الوطيدة والحميمة التي تربطه بتلك القوى الطائفية والشعوبية في العراق. والموقف المخزي لحزب الله اللبناني من احتلال العراق وموقف الصمت المعيب الذي اتخذه حزب الله على خيانة هذه القوى للوطن العراقي، وتواطؤها العلني والمفضوح مع قوات الاحتلال وضع الحزب وقيادته في دائرة النقد والتساؤل عن أسباب هذه المواقف.

كانت محاولات قيادات حزب الله اللبناني اختلاق الأعذار وتبرير تواطؤ هذه القوى مع قوات الاحتلال اللطمة القوية التي وجهت لمصداقية هذا الحزب الوطنية، وكشفت توجهات الحزب الرئيسية الطائفية. هذا النهج وضع الكثير من إشارات الاستفهام حول مصداقية الحزب في الأوساط السياسية والشعبية العربية، وطرح الكثير من إشارات الاستفهام حول الأهداف الوطنية المعلنة لهذا الحزب. وسلطت الأضواء من جديد على طبيعة هذا الحزب الطائفية والانعزالية، التي تؤكد عدم استطاعة الحزب، على الرغم من التعاطف والدعم الهائل الذي حضي به من قبل أوسع القطاعات الشعبية والسياسية العربية على امتداد الساحة العربية، الخروج من هذه الزاوية الطائفية الضيقة. وعدم القدرة على التخلص من التبعية المطلقة للحكومة الإيرانية والسير في طريق خدمة المصالح القومية الفارسية العليا. الشيخ صبحي الطفيلي يقول في مقابلته مع محطة الجزيرة القطرية معلقاً على سؤال حول استقلالية قرار حزب الله اللبناني: "من يقول في لبنان أن إيران لا تتدخل كاذب. القرار ليس في بيروت وإنما في طهران."[141] لم يكن الشيخ الطفيلي الوحيد من قادة الشيعة السياسيين والدينيين الذين أبدوا مواقف معارضة لتوجهات حزب الله اللبناني السياسية في التبعية المطلقة للقيادات الإيرانية، والانصياع للأهداف الإيرانية في المنطقة العربية، وفي لبنان، على حساب المصالح الوطنية اللبنانية. الشيخ العلامة "علي الأمين" مفتي منطقة جبل عامل ومنطقة صور عبر عن هذه الانتقادات لحزب الله في مقابلة مع فضائية "العربية" في برنامج "نقطة نظام" في مساء 10. 9. 2006 حيث كان الحديث التالي:

"حسن معوض: يعني أنت تؤاخذ حزب الله على علاقاته بإيران أليس كذلك؟
علي الأمين: يجب أن تكون العلاقة ليست علاقة عضوية علاقة عبر الدولة اللبنانية.
حسن معوض: يعني أنت توافق في الواقع مع ما قاله وليد جنبلاط بأن حزب الله يعني

---

[141] تلفزيون الجزيرة القطرية، 25. 9. 2003 .

هو جزء من مشروع إيراني على البحر المتوسط، هل توافق لوليد جنبلاط على هذا القول؟
علي الأمين: يعني، حزب الله ، قلنا له علاقات طبعاً وثيقة بإيران، ويرتبط بولاية الفقيه فيها، وهو بالتالي يعني قد ينفذ الكثير مما تطلبه إيران منه، ويعمل أيضاً من أجل لبنان.
حسن معوض: هناك آخرون ربما لهم علاقات دولية وربما قد لا ينفذون ولكنهم يأخذون باعتبارهم مثلاً رغبات أو تمنيات الجهات الدولية والإقليمية ألا توافق على ذلك أيضاً؟
علي الأمين: لا توجد عند الآخرين ولاية فقيه تأمرهم بذلك ويأتمرون بها.
حسن معوض: أنت تعتقد أن حزب الله يقوم بعلاقاته مع إيران على أساس ديني إذن؟
علي الأمين: هو السياسي ديني، بمعنى أنه قائم على مبدأ ولاية الفقيه، هو يقول أنا أطيع الولي الفقيه أينما كنت، سواء كنت في لبنان أو في خارج لبنان."[142]

التدخل الإيراني في لبنان تجاوز أغلب الخطوط الحمراء واصبح يتدخل في كل صغيرة وكبيرة ويساهم في إنجاح هذا الرئيس أو إسقاطه، ويحدد بقاء أو غياب شخصيات سياسية ورموز وطنية لبنانية عن المسرح السياسي.

الكاتبة الأردنية "حياة الحويك عطية" علقت في مقال لها تحت عنوان "نصر الله والفاتورة" على المقابلة التي اجرتها محطة "العربية" التلفزيونية مع حسن نصر الله الأمين العام لحزب الله اللبناني في 31. 8. 2005 حيث كتبت: "واتهام المقاومين بأنهم فريقين: جنرالات الصداميين الذين يريدون العودة بالبلاد إلى الحكم السابق، وعملاء الأميركيين، بل انه أقام ربطا وثيقا بين الاثنين، دون أن يذكر بكلمة وأحدة المقاومة الحقيقية من جهة، أو دور الموساد الإسرائيلي من جهة أخرى. وفي الخط الإسلامي ركز هجوما مطولا شرسا على جماعة التكفير والهجرة، مغفلا جميع الفصائل الأخرى، بحيث بدا وكأن المقاومة العراقية كلها تكفيريين مجرمين ومتواطئين قتلة ومراوغين. كذلك عمد إلى تبرير التروي والانتظار قبل اتخاذ موقف من الاحتلال، واعتماد المقاومة السلمية، وإلى شن الهجوم الشديد على مقاطعة الانتخابات. عمليا، تبنى نصر الله جميع العناوين التي يسوقها الاحتلال الأميركي، ووقف منصاعا بحرفية وراء خط السيستاني، وسوَق بحماس المطلب الأميركي الحالي والملح على مشاركة العراقيين في الاستفتاء على الدستور العراقي الأمريكي، مشاركة لم يكن مناخ الخطاب كله ليشكل دعوة إلى أن تكون مشاركة الرفض والاحتجاج خاصة وانه لم يذكر بكلمة واحدة، رفض الفدرالية أو مخاطر تقسيم العراق."[143] لقد لخصت الكاتبة "حياة حويك عطية" جملة من المآخذ والانتقادات على حزب الله المتداولة في أوساط الرأي العام العربي ، ودائرة الانتقاد والشك بمواقف الحزب تتسع باستمرار.

---

[142] تلفزيون"العربية" الإماراتي، 10. 9. 2006.
[143] حياة الحويك عطية، موقع البصرة على شبكة الإنتر نيت العالمية 4. 9. 2005 .

في أحداث انتفاضة الشعب العربي الأحوازي في الذكرى الثمانين على احتلال هذا القطر العربي من قبل إيران، زج حزب الله اللبناني ببعض عناصره إلى جانب قوى القمع الإيرانية في التصدي إلى الجماهير العربية الثائرة في مدن وقرى الأحواز المنتفض. هذا الموقف من حزب الله دفع ببعض القوى والأحزاب الأحوازية بالاحتجاج رسمياً على حزب الله وإدانته في إشراك عناصره في قمع الشعب العربي الشقيق في الأحواز واتهام الحزب بالوقوف إلى جانب المحتل الإيراني الغاصب.

في رسالة من "الحزب الوطني العربستاني" في 21 .4 .2005 إلى الأمين العام لحزب الله حسن نصر الله جاء فيها: "فلذلك نهيب بسماحتك التدخل العاجل لسحب المقاتلين اللبنانيين الذين يشاركون القوات الأمنية الإيرانية في قمع انتفاضتنا وقتل أبنائنا وأخوتنا وتعذيب المعتقلين أثناء التحقيق معهم، والكل يعلم أن الحكومة الإيرانية لا تحتاج لقوات أمنية تساندها ولكنها تحتاج لمن يتكلم اللغة العربية في صفوفها بجانب الخبرة. وفي حال ما استمرت قوات المقاومة اللبنانية بمشاركة قوات القمع الإيرانية فسوف نرفع شكوى دولية قانونية باسم جميع التنظيمات السياسية الأحوازية ونطالب بمحاكمة بعض مقاتلي حزب الله باعتبار أنهم مرتزقة ومجرمي حرب."[144]

كذلك فعلت منظمة تحرير الأحواز في بيان ورسالة مفتوحة موجهة إلى حزب الله تدين فيها تلك الممارسات العدوانية للحزب ضد أبناء جلدتهم من العرب. لم يشفع للمواطنين العرب في الأحواز المحتل انهم مسلمون شيعة (جعفرية) حتى يسلموا من قمع الجيش وقوات الأمن الإيرانية وعناصر حزب الله التي تتقن اللغة العربية والتي تشاركها في الانتماء لنفس الطائفة. اختار حزب الله الولاء لإيران بدل الوقوف إلى جانب الحق والعدل، وإلى جانب المظلومين من أبناء جلدتهم وأبناء دينهم وأبناء طائفتهم عرب الأحواز المنتفضون.

أعيد فتح ملفات حزب الله في التاريخ الحديث وتم الكشف عن ممارسات ومواقف لهذا الحزب في الساحة اللبنانية، كانت القوى والأحزاب اللبنانية قد تجاوزتها، وكادت تصبح من عالم المنسيات. لقد أعيد التذكير بدور حزب الله وعلاقته الدموية بالقوى اللبنانية الأخرى. من تلك الممارسات دخول حزب الله عام 1986 في صراع مسلح مع الحزب الشيوعي اللبناني، ومع الحزب القومي السوري الاجتماعي، وكذلك مع حركة أمل التي تنافسه على كسب الجمهور والنفوذ في صفوف الشيعية في لبنان. تكررت الصراعات المسلحة بين حزب الله وحركة أمل في أعوام التسعينات في بيروت والبقاع ومنطقة جزين في الجنوب اللبناني، وكانت خلفية هذه النزاعات والمعارك المسلحة في هذه المرة هو التوجه والتقارب إلى أي المحيطين. في حين كانت حركة أمل تقترب من استراتيجية التفاهم والتقارب مع المحيط العربي والانسجام مع البعد القومي العربي

[144] موقع عربستان أورغ على شبكة الإنتير نت العالمية.

وتبني القضايا العربية، والسعي لبناء دولة علمانية في لبنان تحترم الواقع اللبناني، كان حزب الله يتماها وينسجم مع الأهداف والسياسات الإيرانية في المنطقة العربية، ويبدي استعداداً كبيراً للانخراط في الإستراتيجية الإيرانية العامة في بناء دولة دينية طائفية في لبنان حسب الوصفة الإيرانية.

لم يغادر حزب الله المواقع الطائفية في الممارسة اليومية والمواقف السياسية أيضاً. ففي الانتخابات النيابية التي جرت في جنوب لبنان يوم 5. 5. 2005 طرح حزب الله برنامجه الانتخابي دعا فيه أنصاره إلى المشاركة في الانتخابات بفتوى دينية مذهبية أطلق عليها اسم "التكليف الشرعي"، أي انتخاب ممثلي الحزب هو تكليف ديني وإرادة إلهية. لقد أعاد وكرر حزب الله فتوة علي السيستاني في العراق والتي أطلقها بشأن الانتخابات العراقية في ظل الاحتلال الأمريكي هناك عندما أفتى "بدخول النار كل من يتخلف عن تلك الانتخابات."

بعد إتمام المرحلة الرابعة والأخيرة من الانتخابات النيابية اللبنانية في منطقة الشمال اللبناني علق رئيس الوزراء السابق عمر كرامي على طبيعة هذه الانتخابات النيابية حيث قال في 19. 6. 2005 : "بات هناك فرز طائفي في البلد وتعبئة وضغائن طائفية، وأي جهة ترغب افتعال فتن في لبنان باتت الأرض مهيأة لها، وهنا الخطورة. ولولا وعي القيادات وتنبيهها لكانت انفجرت من الآن."[145] وفي حديث لصحيفة الشرق الأوسط اشتكى رئيس وزراء لبنان السابق "سليم الحص" في معرض تعليقة على السجال الدائر بين "وليد جنبلاط" زعيم الحزب الاشتراكي اللبناني وبين "حزب الله" وحركة "أمل" سوء الحال السياسية وتفشي النغمة الطائفية في الحياة السياسية اللبنانية. "إلى كل ذلك، نسمع يومياً نشازاً مقيتاً ينضح بالمذهبية والطائفية وسائر أشكال الفئوية الرخيصة بلسان سياسيين من كل الأطراف، من دون استثناء لا هم لهم سوى مصالحهم الآنية والأنانية. ولم يعد خافياً أن الطائفية أضحت متراساً للفساد المستشري في الدولة والمجتمع، لا بل أضحى الفساد والطائفية صنوين".[146] في هذه المباراة في شق المجتمع اللبناني والمجتمعات العربية على أسس طائفية بقي حزب الله طرف أساسي فيها.

---

145 القدس العربي، لندن في 20. 6. 2005

146 صحيفة الشرق الأوسط، لندن في 16. 1. 2006.

الحرب التي أشعلتها طهران
في لبنان

أسر حزب لله اللبناني في يوم 12. 7. 2006 جنديين إسرائيليين وقتل في نفس العملية العسكرية ثمانية جنود آخرين وجرح ثمانية عشر. هذا الحدث يبدو عادياً وطبيعياً وعمل مشروع من قوة عربية محتل جزء من أراضيها من قبل هذا العدو الصهيوني المنبوذ والمكروه من قبل كل شعوب المنطقة العربية والعالم الإسلامي، لما ارتكبه هذا العدو من جرائم بحق الشعب العربي الفلسطيني واللبناني والأمة العربية على مدى ستون عاماً خلت. وهذه العملية ليست الوحيدة والفريدة ضد هذا العدو بل هي واحدة من آلاف العمليات العسكرية التي نفذتها المنظمات الفدائية الفلسطينية واللبنانية والعربية ضد قوات الاحتلال الغاصب. وفي نفس الوقت وقبل هذه الحادثة بخمسة أيام كانت حركة حماس وحركة فتح الفلسطينيتان قد قامتا بعملية مماثلة ضد قوات الاحتلال الصهيوني في جبهة قطاع غزة وأسرت جندي إسرائيلي وقتلت ثلاثة آخرين.

لكن هذه العملية العسكرية التي نفذها حزب الله كانت مختلفة عن غيرها من العمليات على أكثر من صعيد. لقد جاءت هذه العملية والشعب اللبناني والقوى السياسية اللبنانية غير موحدة ومختلفة على دور مليشيات حزب الله في الساحة اللبنانية. لقد تصاعدت الأصوات من أكثر من طرف لبناني تطالب بنزع سلاح حزب الله وحل هذه المليشيات وضم جزء منها إلى الجيش اللبناني. وكذلك تعالت الأصوات اللبنانية، التي سبقت هذه العملية، تطالب بانتشار وحدات الجيش اللبناني وبسط سيطرته على المناطق اللبنانية الجنوبية المحاذية لحدود فلسطين المحتلة بدل قوات حزب الله. وفي سبيل ذلك، ومن أجل الوصول إلى حلول معقولة بين حزب الله وحركة أمل من جهة والأطراف السياسية اللبنانية الأخرى كانت تجري محادثات مكثفة داخل البرلمان اللبناني وحول طاولة مستديرة شاركت فيها كل القوى السياسية اللبنانية.

كانت الأجواء السياسية اللبناني والعربية والدولية تتجه إلى تغيير الخريطة السياسية في لبنان، عبر فرض نزع سلاح حزب الله، وفرض سيطرة الحكومة اللبنانية على كل الأراضي اللبنانية. في هذه الأجواء وفي هذه الأثناء كان حزب الله يبحث عن مخرج لهذا المأزق الذي وجد نفسه فيه بعد انسحاب القوات السورية من لبنان في صيف عام 2005 . في مقابلة أجرتها معه الفضائية المصرية " النيل للأخبار" قال أحمد أبو الغيط وزير خارجية مصر، أكبر دولة عربية، في 22. 10. 2006 في مجرى تعليقه على الحرب التي أشعلت على لبنان في 12. 7. 2006 " إن الأمين العام لحزب الله السيد

حسن نصر الله ربما تعمّد إثارة النزاع لتبرير احتفاظ مقاتلي الحزب بأسلحتهم، بعدما اتفق اللبنانيون على تنفيذ اتفاقية الطائف التي تنص على نزع سلاح الحزب".

الحليف والأب الروحي والمادي لحزب الله اللبناني المتمثل في الحكومة و الدولة الإيرانية كانتا تعيشان مأزقاً متعدد الأوجه. فالحكومة الإيرانية تواجه ضغوط دولية حول موضوع الملف النووي الإيراني، وهي مطالبة بالرد على المقترحات المغرية التي قدمتها الدول الغربية مقابل التخلي عن برنامج التسليح النووي. هذه المقترحات والعروض التي تتضمن في أحد بنودها موافقة الولايات المتحدة على المحافظة على استمرار النفوذ الإيراني داخل العراق، عبر إبقاء سيطرة وهيمنة العناصر والقوى الموالية إلى إيران في المواقع الأساسية في الدولة العراقية، وفي مراكز القيادة في السلطة السياسية العراقية. والسلطة الإيرانية تبحث من جانبها عن أوراق قوة تستعملها لتحسين موقعها التفاوضي في معركتها مع الدول الغربية، حول الموضوع النووي الإيراني، بتفجير الأزمات في الدول العربية، لإثبات حضورها السياسي في هذه الدول، للمقايضة مع الدول الغربية عند الضرورة على طاولة المساومات السياسية. في المقابل كانت الدول الغربية تزيد الضغط على إيران من خلال إعادة طرح الملف النووي الإيراني في مجلس الأمن الدولي، والتهديد باتخاذ عقوبات اقتصادية وعسكرية ضد إيران من مجلس الأمن الدولي، في حال لم تتجاوب إيران مع المطالب الغربية، الداعية إلى إيقاف التخصيب النووي على الأرض الإيرانية.

وإيران، بعد افتضاح دورها في عمليات احتلال أفغانستان والعراق إلى جانب الولايات المتحدة الأمريكية والكيان الصهيوني، كانت قد خسرت الشئ الكثير من المصداقية في أعين ملايين العرب والمسلمين في العالم، وتطمح إلى إعادة نوعاً من تلك المصداقية والثقة المفقودة بسياستها عبر عمل إيجابي يحسب إليها وإلى مواقفها. وكان قد بدأ الرئيس الإيران، أحمدي نجاد، حملة الدعاية الإعلامية لإعادة الثقة المفقودة بالسياسة الإيرانية المعادية للكيان الصهيونية في جملة من التصريحات النارية ضد الكيان الصهيوني، ووجود هذا الكيان. أحدثت تصريحات نجاد في الغرب ضجة إعلامية، حاولت الأوساط الصهيونية الاستفادة منها للتذكير من جديد بصورة "العداء للسامية الأبدي"، وللاستمرار بابتزاز الشعوب والحكومات الأوروبية وتبرير السياسيات الصهيونية.

من المعروف منذ أن قدمت حكومة الخميني إلى السلطة أن اختارت القوى السياسية الحاكمة في طهران القضية الفلسطينية المرتكز الأساسي في السياسة الإعلامية الإيرانية الموجهة إلى الرأي العام العربي والإسلامي لتسويق سياستها القومية الفارسية في المنطقة العربية، من خلال المزايدة على الحكام العرب وطرح الشعارات السياسية المعادية للإسرائيل والداعمة للشعب الفلسطيني.

جاء توقيت عملية حزب الله مناسباً لمصالح الحكومة الإيرانية أولاً ومصالح حزب الله ثانياً. لكن هذا التوقيت لم يكن بأي شكل من الأشكال نابع من اعتبارات مصالح أحد الأطراف العربية المحلية اللبنانية أو العربية الأخرى غير اللبنانية. حتى الحكومة اللبنانية صاحبة السلطة الرسمية في لبنان كانت آخر من يعلم بما يجري من مخططات سياسية وعسكرية تجري على أرض لبنان، وتقرر مصير هذا القطر العربي. مع العلم أن حزب الله مشارك بوزيرين في حكومة السنيورة آثر حزب الله التنسيق مع طهران، ومع القادة السياسيين والعسكريين الإيرانيين، على أي تنسيق أو إشراك وإشعار للمسؤولين السياسيين والعسكريين اللبنانيين، والمفترض فيهم قيادة لبنان وتحمل المسؤولية عن مصير البلد. أحد كبار مساعدي مرشد الجمهورية الإيرانية، علي خامنئي، ورئيس تحرير صحيفة "كيهان"، الصحيفة اليومية الرسمية في إيران، "حسين شريعت مداري" في افتتاحية له في مطلع شهر أيلول (أغسطس) 2006م تحمل عنوان "هذه حربنا " حيث يقول: "إن حزب الله لا يقاتل من أجل السجناء ولا من أجل مزارع شبعا أو حتى القضايا العربية أيا كانت في أي وقت، وإنما من أجل إيران في صراعها الحدودي لمنع الولايات المتحدة من إقامة شرق أوسط أمريكي." [147]

لقد سمحت القيادة الإيرانية لنفسها بالعبث في مصير شعب عربي وقطر عربي، وقامرت في إشعال حرب كادت أن تطال المنطقة العربية برمتها، وكان العرب، شعوباً وحكومات، آخر من يعلم. في هذه المغامرة السياسية والعسكرية أثبت النظام الإيراني مرة أخرى أنه قادر، بمساعدة أذرعه وأنصاره في المنطقة العربية، على دفع المنطقة العربية إلى حافة الهاوية. الفراغ السياسي الذي أحدثه غياب الحكومات العربية، مثل مصر، عن لعب دورها الطبيعي بالدفاع عن شعوب وأقطار الأمة العربية، لا يعطي أي قوة في العالم الحق في العبث بمصير الشعوب إلا إذا كانت هذه الدول معادية لتلك الشعوب، فهي لا تحتاج إلى تصريح للتدخل والعبث بمصيرها. فالقوى المعادية لا تحتاج لمبررات قانونية أوأخلاقية للعبث بدول الجوار وغير الجوار. وهذا تماماً ما فعلته إيران في هذه الحرب التي أشعلت شرارتها على أرض لبنان من وراء ظهر حكومته الشرعية المنتخبة من قبل الشعب اللبناني بجميع فئاته.

لقد ردت إسرائيل بعنف على القرار الإيراني في أسر الجنود الإسرائيليين في إشعال حرب ظالمة على الأرض اللبنانية، وتدمير البني التحتية للدولة اللبنانية بشكل همجي معروف عن هذا الكيان. ربما كان الصهاينة ينتظرون الفرص المناسبة للخروج من المأزق الذي وجدوا أنفسهم فيه بعد عملية حركة المقاومة الفلسطينية المشتركة، ووقف الإدانة لدولية التي بدأت تتصاعد بعد هجومهم على الأبرياء من الفلسطينيين العزل في قطاع غزة، وجاءت عملية حزب الله في الزمان والمكان المناسبين لحرف الأنظار عن

---

[147] نقلاً عن موقع مفكرة الإسلام على شبكة الإنترنيت.

الذي يحدث في غزة من جرائم بحق المدنيين العزل. وربما يكون الصهاينة نسقوا مع أطراف دولية للتحضير لحرب واسعة وشاملة تجر أطراف عربية أخرى إلى حرب إقليمية يتم من خلالها تدمير سوريا بالإضافة إلى لبنان مثلما حصل في العراق بمشاركة إيرانية.

هناك بالتأكيد أكثر من احتمال في محاولة فهم الرد الإسرائيلي السريع والمنسق في مهاجمة لبنان وبنيته التحتية، والمحاولات المستميتة لتحميل سوريا بالدرجة الأولى، ومنذ اليوم الأول للحرب مسؤولية سياسات وتسليح حزب الله. في حين أن الكل كان يعلم أن حزب الله والحكومة السورية أصبحتا من توابع الدولة والحكومة الإيرانية في المنطقة وأن الحكومة السورية قد فقدت من زمنٍ صفة الاستقلالية السياسية. لكن من المؤكد أن اتخاذ قرار الحرب لم يكن عربياً، بل إيرانياً بالدرجة الأولى، ولم يك حزب الله اللبناني غير الأداة التي افتعلت الحرب وجرت المنطقة إلى أتون حرب مدمرة تتابعت فصولها لأكثر من شهر. الشيخ العلامة قاضي مدينة صور للطائفة الشيعية، "علي الأمين" وقف منتقداً حزب الله في هذه الحرب في أكثر من حديث وبيان أمام أجهزة الإعلام العربية والعالمية. في حديث لصحيفة النهار اللبنانية قال مفتي صور وجبل عامل، علي الأمين، رداً على سؤال من الصحيفة جاء فيه: هل ترون أن حزب الله احتكر الطائفة الشيعية وجر باسمها البلاد إلى حرب شعواء؟

"لا اعتقد أن حزب الله سأل الطائفة الشيعية رأيها في الحرب. ولعل النزوح الكثيف من الجنوب خير دليل على رفض أهل الجنوب الحرب. والطائفة الشيعية لم تعط أحدا تفويضا ليعلن الحرب باسمها أو لتجر إلى حرب بعيدة عن إرادتها وإرادة بقية الطوائف اللبنانية. وما جرى في الجنوب لا يعبر عن إرادة الطائفة الشيعية ولا هو مسؤوليتها، بل هو مسؤولية الفراغ الذي تركته الدولة اللبنانية عقودا في تلك المنطقة."[148]

وفي حديث مطول لصحيفة المستقبل اللبنانية قال الشيخ علي الأمين "خلاص الطائفة الشيعية هي في انخراطها بمشروع الدولة، وليست فقط عملية خلاص وإنما خيار لها وقناعة. وعلى حزب الله أن ينخرط في هذا المشروع كونه ممثل في الدولة ودائماً يردد انه مع مشروع الدولة واعتقد أن التجارب علمتنا انه لن تحمينا طوائفنا ولا أحزابنا ولا مذاهبنا وإنما تحمينا دولة المؤسسات الواحدة القوية".

وتابع: "لا شك أن لحزب الله علاقات مميزة وفريدة بإيران. وعلاقات الشيعة كطائفة بإيران والعراق هي علاقات ثقافية ودينية وهي منذ زمن بعيد مثل علاقة الموارنة بفرنسا وعلاقة السنّة بالسعودية، وهي حالة ثقافية وتؤدي إلى علاقات ثقافية. وينبغي أن تكون العلاقة السياسية مع الدولة وليس مع حزب معين. ونحن كشيعة جزء من هذا

[148] صحيفة النهار،بيروت في 22. 8. 2006 .

الشعب اللبناني. العلاقات الدينية مع إيران هي علاقات ثقافية ولا يجوز في حال من الأحوال أن تكون روابط الأديان على حساب الأوطان. حزب الله كغيره يجب أن يكون مع مشروع الدولة الواحدة التي تحتضن الجميع. الدولة اللبنانية الواحدة القادرة والقوية".[149]

لقد وقفت الجماهير العربية منطلقة من حسها الفطري، إلى جانب لبنان الشعب والدولة، وإلى جانب المقاومة اللبنانية الباسلة ضد العدو الصهيوني. ولم تخطئ الجماهير العربية وقواها السياسية الحية وتقع في مستنقع الطائفية التي توصل أصحابها إلى شرك الخيانة الوطنية، وتتحالف مع أعداء الوطن والأمة كما حصل في العراق الجريح. لقد تجاوزت الجماهير العربية كل الحسابات الضيقة والفئوية ووقفت إلى جانب الوطن والشعب اللبنانيين ضد الغازي والمعتدي، وعبرت عن نقاء الحس ووعيٍ عالٍ بمصالح الأمة وترابط الجزء بالكل.

عندما يكسب طرف عربي على حساب طرف عربي آخر فالمحصلة النهائية تظل مقبولة على اعتبار أننا أمة واحدة ومفهوم الربح والخسارة في البيت الواحد يبقى نسبي وغير مطلق. لكن إذا كسب طرف أجنبي على حساب طرف أو دولة عربية فتكون الخسارة مطلقة وغير مقبولة. فكيف إن كان هذا الطرف الأجنبي الرابح سياسياً طرف معادي ويجند كل شئ في سبيل الإضرار بالأمة ومصالح الأمة كالطرف الإيراني. هنا تكمن إشكالية حرب تموز والموقف من نتائجها الآنية والمستقبلية. لقد خسر العدو الصهيوني المعركة سياسياً وعسكرياً، وتكبد لبنان الخسائر المادية والبشرية، وربحت إيران النتائج السياسية.

في معرض تعليقه على الأحداث التي جرت في بيروت في بداية شهر فبراير من عام 2007 وتصاعد حالة التوتر بين قوى الحكومة اللبنانية وقوى المعارضة التي يقودها حزب الله قال محمد علي الحاج حسن، منسق التيار الشيعي الحر في لبنان: "إيران طلبت من حزب الله التصعيد الميداني من أجل تدعيم دورها في المنطقة، وحزب الله فرض على أركان المعارضة من مسيحيين وسنّة ودروز أن يلهبوا مناطقهم بالدواليب وفرض وجودهم الميليشياوي ضاربا عرض الحائط ما قد يستتبع هذه الخطوة الجنونية من إراقة دم وتوتير الوضع العام وزعزعة الاستقرار. إنّ حزب الله وتوابعه يرغبون بالفوضى ونشب الخلافات بين اللبنانيين لا سيما على الساحة المسيحية التي يزوّد حزب الله قادتها المعارضين بالمال النظيف وتوظيفهم خدّاماً لمشاريعه الفارسية الانقلابية والسورية الإرهابية."[150]

---

[149] صحيفة المستقبل، بيروت في 27. 8. 2006 .
[150] مجلة المجلة الدولية، في 3. 2. 2007 .

تصاعدت حالة الجدل في الوطن العربي وتباينت المواقف العربية الرسمية والشعبية في تقييم نوايا من ساهم في إشعال هذه الحرب على القطر اللبناني. في حين كان شبه إجماع في المواقف الرسمية العربية على أن هذه الحرب افتعلتها طهران لتقوية أوراقها التساومية مع الدول الغربية للنفاذ بمشاريعها التسليحية واتمام برامج التسليح النووي الإيراني وذلك على حساب الشعب اللبناني والقضية اللبنانية والدولة اللبنانية، متسترة خلف شعار مساندة الشعب الفلسطيني الذي يرزح تحت نير المستعمر الصهيوني. الجماهير العربية تقف في حسها الفطري إلى جانب قطر عربي وشعب عربي يتعرض للعدوان من جانب دولة الغزاة الصهاينة وهم يجسدون في ذلك اسما صور النبل والنقاء الفطري ووضوح الرؤيا. لكن النخبة العربية ومعها الجماهير العربية أصبحت تعي أكثر من أي وقت مضى سياسة العبث الإيرانية في مقدرات الأقطار العربية. فقد صرح مفتي جبل لبنان الشيخ محمد علي الجوزو لوكالات الأنباء حول الوضع في إيران وسياسة إيران في المنطقة وقال في بيان وزعه: "اذا استعرضنا ما حدث من حروب ومشكلات منذ ظهور ثورة الخميني الي الآن، وما انتشر من فتن في افغانستان وباكستان ولبنان والخليج العربي لأدركنا كيف ان هذه الثورة حملت في طياتها الاحقاد والضغائن والويلات، وكيف انها تسببت بالكوارث للعالم العربي والاسلامي."[151] من المؤكد أن المكاسب السياسية والعسكرية التي سيجنيها الإيراني على حساب الدم والمصالح العربية في لبنان ستجير مرة أخرى في مكان عربي آخر وستستعمل إيران هذا المكسب السياسي في لبنان من أجل إيقاع الأذى والضرر في مصالح الأمة العربية في أكثر من مكان في الدول العربية.

[151] صحيفة الزمان، لندن في 26. 7. 2009 .

اجتياح حزب الله
لمدينة بيروت والجبل

قام حزب الله اللبناني في 7. 5. 2008 بعملية إجتياح عسكري واسع لمدينة بيروت ومنطقة جبل الشوف في وسط لبنان. مدينة بيروت التي تكثل في رمزيتها الوطنية استقلال جمهورية لبنان وعاصمة الدولة اللبنانية، وتمثل في رمزيتها الدينية الطائفة الإسلامية السنية استباحتها ميليشيات حزب الله لعدة أيام.

كان من غير المتصور إقدام ميليشيات حزب الله على هذا الفعل العسكري وقادة هذا الحزب تردد في كل وسائل الإعلام بأن سلاح المقاومة وجد فقط لمحاربة العدو الصهيوني ولن يستخدم في يوم من الأيام ضد قوى سياسية أو اجتماعية لبنانية داخلية.

سقطت تلك الشعارات وتلك الإدعاءات بالجملة مع الساعات الأولى لإقدام مسلحي حزب الله على جتياح شوارع بيروت الغربية حيث يسكن المواطنون العرب السنة. كان من غير المعقول إقدام حزب الله على هذه الخطوة دون موافقة الولي الفقيه في طهران وموافقة الحكومة الإيرانية، خاصة إذا معرف أن قادة حزب الله يتبعون في تقليدهم المذهبي لولي الفقيه المرشد الأعلى في جمهورية إيران الإسلامية الشيعية.

لقد ترتبت عن هذه الخطوة العسكرية عدة نتائج خطيرة سيكون لها الأثر الكبير على علاقات حزب الله اللبناني مع بقية القوى الوطنية اللبنانية. وسيكون لها الأثر الكبير على علاقة إيران بدول الوطن العربي وبالشعوب العربية. أهم هذه النتائج:

لم يعد حزب الله يتمتع بالإجماع الوطني اللبناني.

فتح حزب الله في هذه الخطوة الباب على مصراعية لبداية جولة جديدة لحرب أهلية طائفية عندما استهدف مناطق السنة والدروز في هجومه العسكري.

وأضاف هذا الإجتياح العسكري لبيروت بعداً إقليمياً وعربياً لخطورة القدرات التسليحية الإيرانية لمجموعات حزب الله داخل لبنان، وقدم هذا الإجتياح البرهان العملي لخطورة الجيب الإيراني في العمق العربي.

توالت الأحداث في لبنان وعقد أجتماع الدوحة وتم انتخاب رئيس الجمهورية التوافقي مشيل سليمان وشكلت حكومة وفاق وطني لكن صلب الخلاف في الولاء للدولة اللبنانية

والولاء للأمة العربية مقابل الولاء للطائفة والولاء للدولة الفارسية والمشروع الفارسي بقي قائم ويترك بصماته على كل الأحداث السياسة والإجتماعية في لبنان.

بوادر مقاومة النفوذ الإيراني
العابث بمقدرات القطر اللبناني

التغيرات على الساحة العربية وعلى الساحة اللبنانية في تقييم إيران ودورها في لبنان سبقت الحرب الإسرائيلية على لبنان في شهر تموز عام 2006 بأكثر من عامين. وتصاعدت حالة الجدل مباشرة بعد العدوان الأمريكي على العراق واتضاح المشاركة الإيرانية في هذا العدوان على أكثر من صعيد.

افصح زعيم الحزب الاشتراكي اللبناني"وليد جنبلاط" في حديثة أمام حشد من الجماهير اللبنانية في المختارة عن موقفه من العلاقة الإيرانية مع الأحزاب اللبنانية الموالية إلى إيران، وعن الأطماع الإيرانية في لبنان والمنطقة العربية عندما قال:"لا نريد أن نكون هنا متراسا للمفاعل النووي في مكان ما هناك. الموضوع واضح ولا يحتاج إلى تفسيرات اكثر."[152]

نجحت إيران خلال نصف قرن من العمل المركز والمتواصل وعبر السياسة الطائفية المعلنة والمستترة في الساحة اللبنانية من كسب أطراف كبيرة إلى جانب الخط السياسي ذو التوجه الطائفي. ساعدت الظروف المحلية والإقليمية، التي أسهمت في توسع قواعد الطائفية السياسية في لبنان، الرموز الإيرانية على النجاح في تحقيق مهامها الموكلة إليها في لبنان. من هذه الظروف :

انتشار الطائفية الاجتماعية والطائفية السياسية التي فرضها الاستعمار الفرنسي على لبنان منذ عقود.

تراجع المد القومي العربي لصالح القطرية السياسية.

نشوب الحرب الأهلية في لبنان بملامح دينية وطائفية.

عدم معالجة آثار الظلم الذي وقع على بعض الأقليات الدينية والأقليات المذهبية أثناء الحقبة العثمانية الطويلة.

الكاتب في صحيفة الشرق الأوسط، "أياد أبو شقره"، وصف في مقالة تحت عنوان "ماذا عن جدل الشيعية والمارونية" واقع الحال اللبناني وتأثير إيران في صياغة هذا

---

152 صحيفة النهار اللبنانية، العدد الصادر في 9. 1. 2006 .

الحال. "ظهرت خلال السنة الفائتة بوادر ثقافة سياسية أخرى تنهج في أولوياتها، نهج ما كان يعرف في لبنان بـ«المارونية السياسية» قبل 1990. ومن يتابع اليوم وسائل الإعلام الشيعية المرئية والمكتوبة تتجلّى أبعاد هذه الثقافة. ولقد كانت جريمة اغتيال الحريري وتداعياتها المفصل الذي خرجت فيه إلى العلن، مثلما شكلت الثورة الإيرانية قبل ثلاثة عقود قوة الدفع الجبارة التي حولّت شيعة لبنان من «جماهير» اليسار المسحوقة.. إلى بارود سلاح المحرومين المقاوم."[153]

على الرغم من النجاحات الإيرانية في اختراق الكتلة العربية الشيعية في لبنان وتجيير قدرات هذه الكتلة لصالح السياسات والأهداف والمصالح القومية الفارسية العليا في لبنان والمنطقة العربية، بقيت في لبنان شخصيات ورموز دينية من أبناء الطائفة الشيعية اللبنانية لم تفقد البوصلة ولا الانتماء للوطن وللامة العربية. إن شخصية بوزن الشيخ العلامة آيات الله محمد حسين فضل الله، والذي يعتبر المرجع الأعلى للكثير من الشيعة العرب في لبنان والعراق والخليج العربي، ظل رغم الضغوط التي مورست عليه من أكثر من طرف، وخاصة من الأطراف الإيرانية، ظل أمين لمبادئه في الأخوة الإسلامية وتقارب الطوائف، وتقديم مصلحة الوطن وتقديم مصلحة الأمة على المصالح الأخرى.

لقد عبر عن هذا الموقف في أكثر من مرة وفي أكثر من مناسبة. السيد فضل الله في معرض حديثة عن الأزمة اللبنانية بعد مقتل رئيس الوزراء اللبناني السابق رفيق الحريري حذر الأطراف اللبنانية من الوقوع في فخ الطائفية، ويعد الطائفية السياسية في لبنان من أهم أسباب الكوارث التي عصفت بالوطن. "تحولت طوائفنا حصوناً تحمي المسيئين، أصبحت مذاهبنا قلاعاً تحمي الفاشلين، واصبح الوطن أوطانا وكف الناس عن المساءلة وربما تعبدوا لهذا المسؤول أو ذاك وتركوا عبادة الله الواحد القهّار".[154]

ثمانية من المثقفين اللبنانيين الشيعة، بينهم نائب وأساتذة جامعيون ومحامون ورجل أعمال وكاتب وفنانة، أقاموا دعوة أمام قاضي التحقيق الأول في بيروت بتهمة "انتحال صفة وتهديد وإرهاب بهدف إعاقة ممارسة حقوق مدنية، وإثارة نعرات طائفية، وتصوير النزاعات السياسية كأنها بين طوائف وأديان، على ما جاء في دعواهم، مستندين فيها إلى تصريح للشيخ "عفيف النابلسي" في 21 كانون الأول عام 2005 الذي حرّم فيه على الشخصيات السياسية الشيعية المشاركة في حكومة السنيورة بعيداً عن موافقة كل من حركة أمل وحزب الله على هذه المشاركة. " محرم شرعاً على أي طرف شيعي أن يدخل بديلا ورديفا عن ممثلي حركة أمل وحزب الله في الحكومة"."[155] هكذا أفتى الشيخ النابلسي. الشخصيات والمدعون الثمانية هم النائب غسان مخيبر

---

153 صحيفة الشرق الأوسط، لندن عدد 6. 3. 2006 .
154 صحيفة النهار، بيروت العدد 26. 1. 2006 .
155 صحيفة النهار، بيروت ، في 19. 1. 2006 .

وفارس ياسين وفهمية شرف الدين ومنى فياض ومحمد فريد مطر وندى صحناوي وطلال الحسيني ويوسف الزين.

حتى داخل الأحزاب السياسية القائمة على أساس طائفي هناك حالة جدل حاد وواسع حول الأسس العامة لتشكل الأحزاب وحول الولاء لإيران وتصادمها مع الولاء للوطن وثوابت الأمة.

صبحي الطفيلي الأمين العام السابق وأحد مؤسسي حزب الله اللبناني في مقابلته مع محطة الجزيرة الفضائية في 25 .9 .2003 يؤكد أن الخاسر الأساسي جراء السياسة الإيرانية مع الأقليات الشيعية في البلدان المجاورة لإيران هم الشيعة أنفسهم. "أنا مطمئن إلى انه سيأتي اليوم الذي يهزم فيه الأمريكي، وعندها سيكون هناك غضب على كل من سار في مشروعه. وقد تجري انتقامات وتصفيات يذهب ضحيتها شيعة الأقليات لأن إيران دولة قوية تستطيع أن تحمي نفسها." وبعد أربعة أعوام يكرر الطفيلي قناعته ويؤكد في تصريح لوكالات الأنباء العالمية في 25. 1. 2007 ويقول: "أن عبد العزيز الحكيم وحسن نصر الله ينفذون سياسة طهران في المنطقة." هذا الصوت الواضح والصريح والأمين على مصالح الشيعة العرب لم يعد نادراً والكثير من الشخصيات الشيعية العربية في العراق والخليج العربي وفي لبنان وقطاعات شعبية عريضة أصبحت تدرك أكثر الدور الإيراني الذي تحركه المصلحة القومية الفارسية العليا، وليس مصلحة الطائفة الشيعية، على حساب ومصير واستمرار الأقليات الشيعية في المنطقة العربية.

تشكل في نهاية عام 2006 تيار سياسي معارض لنهج الأحزاب الطائفية التي تصدرت واجهة الأحداث وأعلنت عن تمثيلها للشيعة في لبنان. أطلق القائمون على هذا التيار أسم "التيار الشيعي الحر". وصف المنسق العام للتيار الشيعي الحر "محمد الحاج حسن" المهمة الرئيسية لهذا التيار بالتالي: "إنّ التيار الشيعي الحر ليس الوحيد ولم يكن هدفه مواجهة أحد، فمواجهة كل ما يمسّ بالسيادة اللبنانية والقرار الوطني اللبناني هو مهمة كلّ اللبنانيين وبينهم التيار الشيعي الحرّ وربط قيامه وبمناهضة حزب الله هو ربط خاطئ، فإنشاء التيار هو عملية طويلة في الزمن ولكن إعلانه بدا وكأنه على طرف نقيض من الحالة المتحفزة لحزب الله وحلفائه في عزمهم على الإطاحة بالمؤسسات الشرعية اللبنانية وفي عرقلة استعادة لبنان لدولته ومؤسساته الدستورية،"[156]

فرض نظام الطائفية السياسية والمحاصصة الطائفية في نظام الحكم في لبنان، والتي عملت القوى الاستعمارية الغربية والكيان الصهيوني إلى جانب الحكومات الإيرانية المتعاقبة على تكريسه في لبنان من خلال إنشاء الأحزاب السياسية على أسس طائفية،

[156] مجلة المجلة الدولية، في 3. 2. 2007 .

قطع مراحل طويلة وأشعل اكثر من حرب أهلية في هذا القطر العربي. لكن هذا النظام لم يستطع تعبئة كل قطاعات الشعب اللبناني خلف البرنامج الطائفي والمحاصصة الطائفية والدينية. فالانتخابات النيابية اللبنانية التي جرت في شهر مايو وشهر حزيران من عام 2005 اظهرت تدني نسبة الناخبين للقوائم الانتخابية لكل الأحزاب اللبنانية الطائفية التوجه. وتعالت الأصوات داخل القوى السياسية والشعبية اللبنانية المطالبة في إلغاء نظام الطائفية السياسية في لبنان. وتدعوا إلى تطبيق اتفاقية الطائف التي تنص في أحد بنودها على إلغاء نظام المحاصصة الطائفية والطائفية السياسية.

النفوذ الإيراني في لبنان وتشكيل الأحزاب على أسس طائفية لم يمنع أبناء الطائفة الشيعية في لبنان من المشاركة في الهم الوطني والقضايا القومية. ولم تستطع هذه الأحزاب الطائفية من السيطرة على عقول وأفكار المواطنين من الشيعة العرب.

حسب استفتاء أجرته صحيفة السفير اللبنانية في 4. 6. 2005 على الشيعة اللبنانيين كانت نتيجة الاستفتاء أن ما نسبته 65% - 70% من أبناء الشيعة لا يؤيدون حزب الله وحركة أمل. بل تتوزع انتماءاتهم على الأحزاب والقوى السياسية اللبنانية الأخرى التي لا تتبنى المبادئ والسياسات الطائفية والعرقية. هناك حراك سياسي كبير وعملية مراجعة واسعة تجري في لبنان تهدف إلى التخلص من هذا النظام السياسي البغيض، و التخلص من نظام المحاصصة الطائفية في مؤسسة الحكم، والتي تنفرد دولة لبنان في ممارسته من بين جميع دول العالم ويتبعه في هذه الصفة العراق في زمن هيمنة القوى الغربية وهيمنة إيران على تلك الدولة العربية.

خرج الوزراء الشيعة من حكومة فؤاد سنيورة، وأغلق رئيس البرلمان، نبيه بري، البرلمان اللبناني وقام بتعطيل الحياة البرلمانية، وساهم بتعطيل الحياة السياسية اللبنانية لأكثر من عام ونصف العام. امتنع ممثلو المعارضة التي تزعمها قادة حزب الله وحركة أمل عن انتخاب رئيس للجمهورية بعد انتهاء فترة رئاسة لحود. وحفلت الفترة اللاحقة بإشاعة أجواء الفوضى والتحريض الطائفي المنظم في الساحة اللبنانية على غرار ذالك الذي يحدث وينتشر في العراق. وكان صانع السيناريو لهذه المأساوية الإجتماعية والسياسية المحزنة في هذين البلدين العربيين يقبع في طهران وتتولى أدواته التابعة تنفيذ فصول المأساة المستمرة. لم تتوقف أزمة الحكم في لبنان بعد التوصل إلى اتفاق الدوحة في 14 . أيار عام 2008 وانتخاب رئيس الجمهورية التوافقي العماد مشيل سليمان في 24. أيار 2008 ، بل توالت وتتابعت إجراءات تعطيل الحياة السياسية وبث سموم الطائفية في المجتمع اللبناني الجريح.

الدور الإيراني
في تأجيج الصراع في الجزائر

اتهمت الحكومة الجزائرية في عهد رئيس الوزراء الجزائري "رضا مالك" رسمياً الحكومة الإيرانية بالتدخل في الشؤون الداخلية الجزائرية، وتقديم الدعم السياسي والإعلامي والعسكري للجبهة الإسلامية للإنقاذ، وتمويل الجماعات المسلحة الجزائرية الأخرى، التي ترفع السلاح في وجه السلطة والجيش هناك. اتهمت الحكومة الجزائرية إيران بالتآمر المباشر على أمن وسلامة الشعب الجزائري، وقامت الحكومة الجزائرية بقطع العلاقات الدبلوماسية مع الحكومة الإيرانية في عام 1993، وظلت هذه العلاقات مقطوعة حتى عام 2003 . سقط أكثر من مائتي ألف قتيل في الحرب الأهلية الجزائرية التي استمرت من عام 1992 حتى عام 2000 ، والتي خفت حدتها وتشرف على التلاشي وتلوح بوادر حل وتوقف هذه الحرب المقيتة.

لعبت الجزائر لأكثر من عقدين من الزمن دور الوسيط في حل الأزمات التي كانت تنشأ بين إيران والدول العربية وكذلك دول العالم. وكانت الجزائر تحرص دائماً على نسج علاقات طيبة مع إيران على أسس وقواعد المصالح المشتركة. حتى في سنين حكم الشاه ظلت علاقات الجزائر طيبة بطهران. وقامت الجزائر بالتوسط وحل الخلاف بين العراق وإيران في منتصف السبعينات من القرن العشرين، والتي توجت بتوقيع اتفاق الجزائر بين العراق وإيران عام 1975 . لقد تعززت العلاقات الجزائرية الإيرانية بعد قيام الثورة الإيرانية عام 1979 وبقيت الجزائر محافظة على تلك العلاقة طيلة الحرب الإيرانية العراقية في عقد الثمانينات. وقامت الجزائر بجهود مضنية بالتوسط بين العراق وإيران من أجل وقف الحرب وحقن دماء الشعوب الإسلامية المتحاربة، وقدمت الجزائر وزير خارجيتها، "محمد الصديق بن يحيى" ضحية في هذا المسعى النبيل إثر تحطم طائرته على الحدود التركية العراقية في أيار (مايو) عام 1982 أثناء رحلة وساطة من بين رحلاته المكوكية بين البلدين المتحاربين.

التقت مصالح الدول الاستعمارية الغربية مع مصالح القوى الإقليمية المعادية للدور الريادي الذي شكلته الثورة الجزائرية في الضمير العربي والإنساني، أثناء وبعد انتهاء حرب التحرير البطولية، التي خاضها شعب الجزائر الأبي ضد المستعمر الفرنسي. هذا

البلد العربي الذي فتح بانتصاره وتضحيات شعبه السخية الباب واسعاً للشعوب المستعمرة للتحرر والتخلص من الاستعمار المقيت. منذ الاستقلال عام 1962 ظلت الحكومات الجزائرية المتعاقبة، من عهد الرئيس "احمد بن بلة" والرئيس "الهواري بومدين" وصولا إلى عهد الرئيس "الشاذلي بن جديد"، تمثل الوجه المشرق في السياسة الدولية، وفي مقارعة الغطرسة الغربية، وفي دعم فقراء وأحرار العالم، والمساهمة في حل الخلافات والنزاعات الدولية، ونشر السلم بين دول العالم. وظل الجزائر البلد العربي الأساسي الذي وقف على الدوام إلى جانب قضايا الأمة العربية العادلة بدون تردد أو تخاذل، والمساهم الدائم في دعم وتطوير الدول العربية الفقيرة. ظل بلد المليون ونصف المليون شهيد على مذبح الحرية، الوسيط الأمين والمقبول من كل الأطراف في حل النزاعات الناشبة في المنطقة وعلى الساحة العالمية. تبذلت الجزائر الجهود الكبيرة في البناء والتطور وحققت في هذا المضمار نتائج طيبة، بشرت بالخير الكثير لشعب الجزائر ولبقية أبناء الأمة العربية. وأصبحت الجزائر بعد عام 1990 أحد الدول العربية الأساسية المكونة لاتحاد المغرب العربي الواعد، إلى جانب موريتانيا والمغرب وتونس وليبيا. كان للجزائر وشعب الجزائر، أعداء وقوى سياسية دولية وإقليمية ومحلية تتحين الفرص للانقضاض على شعب المليون ونصف المليون شهيد، وللإنقضاض على دوره التطور والبناء في هذا البلد. لكل من هذه القوى أهدافها ومصالحها الخاصة في مشروع التآمر على الجزائر. أهم الحكومات التي دخلت على خط التآمر على استقرار شعب الجزائر كانت حكومات باريس وواشنطن وطهران.

فرنسا صاحبة الإرث الاستعماري في الجزائر قررت تخريب الجزائر الحرة الصاعدة مدفوعة خلف تحقيق الأهداف التالية:

انتقاماً وتسوية فاتورة حساب متأخرة مع هذا الشعب الأسطورة الذي أرغم فرنسا "العظمى" على الرحيل عن أرضه بعد 132 عاماً من الاستعمار.

محاولة من قبل فرنسا لتدمير "اتحاد المغرب العربي" الذي تم تأسيسه عام 1990 كخطوة هامة على طريق مشروع توحيد الأمة العربية والذي يضم بالإضافة للجزائر المغرب وتونس وليبيا وموريتانيا.

ليست فرنسا هي الدولة الوحيدة صاحبة المصلحة في وقف نمو الجزائر، والطرف الوحيد الذي اختار اقتناص الفرصة التاريخية في تدمير فكرة تجميع الأقطار العربية في كيان أو كيانات أوسع من الكيانات السياسية الحالية، بل هناك عدة أطراف خارجية بالإضافة إلى أطراف داخلية لها ضلع ومصلحة في خلق مأساة للشعب الجزائري. النظام الإيراني كان له حصة الأسد في هذا الدمار الذي حل بجمهورية الجزائر. مأساة الحرب الأهلية التي أوقفت نمو هذا البلد العربي الأساسي، وجمدت كل الخطوات العملية على طريق إكمال مشروع وحدة دول المغرب العربي.

إيران كانت صاحبة مشروع توسعي في المنطقة العربية ولازالت أحد الأطراف الخارجية التي عملت على تقويض التجربة الجزائرية والمغاربية الرائدة.

توافق خروج القوات السوفييتية من الأراض الأفغانية، وبدء عودة أعداد كبيرة من المقاتلين العرب من أفغانستان (الأفغان العرب) إلى ديارهم وأوطانهم مع بداية حدوث أزمة سياسية ودستورية في الجزائر. بعد إقدام السلطات الجزائرية على إلغاء نتائج انتخابات عام 1992 البرلمانية، والتي أظهرت النتائج الأولية تقدم القوى الإسلامية في هذه الانتخابات حدثت أزمة دستورية. بدأت الأزمة بشكل احتجاجات جماهيرية على خطوة الإلغاء هذه والتي جوبهت بالإعتقالات والملاحقات لرموز القوى والأحزاب الدينية، وخاصة "الجبهة الإسلامية للإنقاذ" بزعامة الشيخ "عباسي مدني" والشيخ "علي بالحاج" اللذان تم اعتقالهما و أودعا على إثرها السجن.

لم يمر وقت طويل حتى رافقت الاحتجاجات الشعبية أعمال عنف ومواجهات مسلحة وزجت على أثرها قوات الشرطة والأمن الجزائرية والجيش الجزائري في دائرة العنف التي بدأت تتسع مساحاتها حتى أصاب وبائها أغلب المدن والولايات الجزائرية.

إن عودة بعض المتطوعين الجزائريين في حرب أفغانستان إلى بلادهم كان من أهم الأسباب التي ساهمت في سرعة انتقال حالة الصراع في الجزائر من الشكل الاحتجاجي السلمي إلى الشكل المسلح الدامي الذي شهدته الجزائر خلال عقد من الزمن.

التقطت حكومة رفسنجاني في إيران فرصة عودة المتطوعين العرب، وبدأت، وتحت غطاء مساعدة وإعادة تأهيل هذه المجموعات الشابة العائدة إلى مصير مجهول المعالم ينتظرها في بلدانها المختلفة، بتجميع أعداد منهم في معسكرات داخل الأراضي الإيرانية والأراضي السودانية. توصلت الحكومتان الإيرانية والسودانية في صيف عام 1992، عبر الزيارات واللقاءات المتكررة لمسئولي البلدين إلى إقرار لمشروع تجميع المقاتلين العرب العائدين من حرب أفغانستان. وخاصة من خلال زيارات زعيم الجبهة الإسلامية السودانية "حسن الترابي"، أحد أقطاب السلطة في الخرطوم في تلك الأيام، الذي اظهر حماسا شديداً لهذه الفكرة ولهذا المشروع ، وكذلك أثناء زيارة الرئيس الإيراني رفسنجاني للخرطوم.

أرادت حكومة رفسنجاني أن تلعب دوراً ما على الساحة الدولية لتدخل شريكاً مع اللاعبين الكبار في القضايا الدولية. نظراً للشعارات الإسلامية التي تطرحها هذه الحكومة كانت ساحات الدول الإسلامية هي الأقرب للعب تلك الأدوار السياسية والعسكرية المرجوة. ففي حال نجاح حكومة رفسنجاني بإختراق الساحات والدول العربية والإسلامية ستستطيع إيران إذاً أن تدخل في سوق المساومات الدولية. إذا ما أثبت حكام إيران أن نشاطهم في البلدان الإسلامية ذو فائدة ويخدم المصالح الإستراتيجية

الغربية في تلك البلدان ستتقدم القوى الغربية طواعية لدعم إيران في تحقيق أهدافها في المنطقة العربية. تلك كانت ولازالت حسابات حكام إيران في دعمها واحتضانها كل من له مشكلة مع آخرين في دول العالم الإسلامي مغلف بغلاف دعم ومناصرة المعارضة الثورية.

وضعت الحكومة الإيرانية أمالاً كباراً في تحقيق هدف أن تصبح لاعباً دولياً عبر اختراق الساحات العربية. على ورقة المقاتلين العرب العائدين من أتون الحرب الضروس في أفغانستان بنت حكومة رفسنجاني مشروعها السياسي والعسكري الطموح. من خلال تجميع قسم من هؤلاء المقاتلين العرب، وإعادة استعمالهم في مناطق أخرى مختارة ومحددة، وحسب الحاجة والمصلحة الإيرانية في العالم الإسلامي، بدأت حكومة طهران العمل بجدية واندفاع شديدين. من إيران ومن السودان تم دفع أعداد كبيرة من المقاتلين الجزائريين والعرب بعد تأهيلهم من جديد إلى الأراضي الجزائرية عبر جمهورية تشاد والنيجر ومالي.

أما السودان، هذا البلد العربي الشاسع، والذي يخوض حرباً أهلية في جنوبه فهوا بحاجة ماسة إلى أي مساعدة مادية وسياسية أو عسكرية تعينه على تكاليف ومصاعب هذه الحرب الدامية وعالية التكاليف. لقد وجدت الحكومة السودانية ضالتها في مواجهة حالة التمرد المزمنة في الجنوب السوداني في تجميع قسم من المتطوعين العرب، ممن كانوا مشاركين في حرب أفغانستان ضد القوات الروسية. كقوة مدربة ومتمرسة في حرب العصابات هي أقل تكلفة وفي نفس الوقت يمكن أن تشكل قوة ضاربة حقيقية في مواجهة المتمردين في الجنوب السوداني. كذلك طمعت الحكومة السودانية في الحصول، من خلال الموافقة على هذا المشروع الإيراني ـ السوداني المشترك، في تجميع الأفغان العرب على الأرض السودانية، على المساعدات المادية التي عرضتها وقدمتها الحكومة الإيرانية لحكومة السودان في ذلك الوقت، والتي قدرت بنصف مليار دولار أمريكي.

ومن جهة أخرى كان الرجل الأقوى في حكومة جبهة الإنقاذ السودانية التي ترأسها عمر البشير، حسن الترابي، الطامح في زعامة تيار إسلامي واسع ومنتشر في دول العالم، ينسج علاقات سياسية متميزة مع الحكومة الإيرانية. الشيخ حسن الترابي وتياره بدأ يطرح نفسه على الساحة السياسية السودانية و في أوساط القوى السياسية الدينية العربية، قبل عدة أعوام من وصوله إلى السلطة عام 1989، كتيار بديل لتيار حركة الأخوان المسلمين. اخذ تيار الترابي الديني في منتصف أعوام الثمانينات يطرح بنفسه بقوة كتيار منافس وموازي للتيار السلفي المعتدل والذي يتمثل بحركة الإخوان المسلمين في الدول العربية والإسلامية. حسن الترابي يتهم حركة الأخوان المسلمين، التي كان ينتمي إليها، بالتخاذل وعدم الجدية في العمل على الوصول إلى السلطة، وقيادة الأمة، وتطبيق القوانين الشرعية الإسلامية.

التباينات بين تيار الترابي والتيار السلفي الديني بدأت تتبلور اكثر فأكثر في أوائل التسعينات. لقد راهن حسن الترابي على العنف المسلح في تمرير المواقف السياسية، وتحقيق الأجندة التكتيكية والإستراتيجية التي يراها قابلة للتحقيق عبر استعمال العنف بقوة السلاح. وهو في هذا يلتقي مع الفهم السياسي لأقطاب الثورة الإيرانية في تعويم واستعمال العنف المنظم ضد المعارضين والمنافسين من القوى السياسية في البلد الواحد، والأخذ في منهج الانقلابات العسكرية للوصول إلى السلطة. كذلك يلتقي بالنهج مع قيادات الحركة الجهادية في أفغانستان وقيادتها العربية، التي أصبحت تعرف بتنظيم القاعدة العالمي. تلاقت مصالح الحكومة الإيرانية مع مصالح تيار الترابي في السلطة السودانية مع تيار القاعدة ومجموعات الأفغان العرب. وكانت أساليب هذه الأطراف الثلاثة في العمل السياسي متشابهة حتى التطابق. لقد أدخلت تلك المفاهيم وتمت صياغتها تحت عنوان "الإسلام الثوري" و " الثورة الإسلامية" و"العمل الجهادي"، وتم الترويج لها عبر أجهزة ومؤسسات الدولة الإيرانية، وعمل على تطبيقها عبر مشاريع تصدير الثورة إلى الدول الإسلامية. الترابي وتياره في السودان كان من أكثر التيارات الإسلامية إعجاباً بالتجربة الإيرانية، وأكثر القوى عداءاً للقوى والأحزاب العروبية. كان تيار الترابي في الحكومة السودانية هو التيار الذي يتحكم بسياسة الدولة السودانية الداخلية والخارجية، قبل أن يدب الخلاف مع الرئيس عمر البشير وتياره في السلطة والزج بالترابي في السجن، وإقصاء تياره من دوائر النفوذ وصنع القرار بالسلطة في الخرطوم.

خرج حسن الترابي من السجن ليصب جام غضبة على كل التيارات السياسية في السودان والوطن العربي والعالم الإسلامي. وأفصح الترابي في أكثر من مرة عن توجهاته الحقيقية التي تقترب من مواقف القوى والأطراف والحكومات المعادية للوطن السوداني. ها هو يدعو القوى الغربية لدخول مناطق دار فور، وضرب استقلال الوطن الذي شارك في حكمه عرض الحائط، ويعرض مصير الشعب السوداني لخطر الاحتلال. "قال زعيم حزب المؤتمر الشعبي السوداني المعارض حسن الترابي أمس أن الضغوط بما في ذلك التهديد بالعدالة الدولية ستجبر السودان في نهاية المطاف على السماح للأمم المتحدة بالتدخل في دارفور."[157] لم يبقى من ثوابت حسن الترابي غير العلاقة الطيبة مع إيران، والمساهمة في نقل الفوضى إلى ولاية دار فور السودانية وتمزيق الوطن السوداني.

كان في تجميع المقاتلين العرب في أرض السودان وإعادة استعمالهم في مناطق أخرى مشروع ذو أبعاد إقليمية ودولية، ويلبي رغبات وطموحات بعض القادة والزعماء السياسيين السودانيين والإيرانيين على حد سواء .

---

[157] صحيفة الشرق الأوسط، لندن في 6. 3. 2007 .

لقد التقت مصلحة النظام الإيراني في طهران والنظام السوداني في الخرطوم على التقاط جموع المقاتلين العرب (الأفغان العرب) في معسكرات مخصصة لذلك في شرق وغرب السودان، وكذلك في عدة معسكرات منتشرة على طول الحدود الإيرانية الشرقية المحاذية للحدود الأفغانية كمشروع سياسي متعدد الأهداف السياسية والعسكرية. كان التنسيق بين الحكومة السودانية والحكومة الإيرانية يجري على أعلى المستويات لترتيب عمل تلك المجموعات والإشراف عليها وإعدادها للمهام المعدة سلفاً. في مجرى تعليقه على اختفاء نائب وزير الدفاع الإيراني السابق، "علي رضا أصغري"، في تركيا في منتصف شهر شباط (يناير) من عام 2007 في تركيا وعن أهمية نائب الوزير المفقود عسكرياً وسياسياً قال علي نور زادة، مدير مركز الدراسات الإستراتيجية الإيرانية ـ العربية في لندن: " كان جنرالاً ا بارزاً في الحرس الثوري الإيراني وقاد عدة معارك في الحرب مع العراق مثل الفجر الأول والثاني وعملية فتح الفاو، وبعد الحرب مكث في لبنان 3 سنوات ونصف ساعد فيها حزب الله، وعاد لإيران لتولى مسؤولية مشروع شهاب 3 وزلزال وشاهين وعدد من المشاريع الصاروخية، والتقى بالسودان في التسعينات بعدد من قياديي القاعدة هناك عندما كان فيها أسامة بن لادن وكان برفقة ضابط إيراني هو محمد باقر ذو القدر مساعد وزير الداخلية لشؤون الأمن." [158]

القيادات السياسية والعسكرية للمجاهدين العرب وجدت في الجهود الإيرانية والسودانية إقرارا من تلك الدول بأهمية هذه الحركات السياسية العسكرية، وانتصاراً للنهج الذي اختطته تلك الحركات الدينية في حربها ضد الروس في أفغانستان. "أسامة بن لادن" و "أيمن الظواهره" ومساعديهم قدموا إلى السودان وعملوا فوق أراضيه، وتجمع قسم لا يستهان به من أنصارهم في معسكراتها هناك.

لم تكن الولايات المتحدة الأمريكية وأطراف دولية أخرى بعيدة أيضاً عن كل هذه التطورات والتصورات بشأن المقاتلين العرب ومستقبل مهامهم المنتظرة. الولايات المتحدة المشرف الأول على إدارة الصراع في أفغانستان، والمستفيد الأول من قتال المجاهدين العرب وغيرهم هناك لم يتركوا أن ترتب الأوراق من وراء ظهرهم، بل كانوا على طرف المائدة ولاعب أساسي في استثمار هذه التطورات والتصورات المستقبلية، وشاركوا في صياغة ودور المجاهدين العرب في هذه المشاريع المستقبلية الإيرانية والسودانية.

الشيشان والبلقان والسودان والجزائر كانت الساحات المخصصة لعمل تلك المجموعات من الشباب العرب المسلم، صاحبة الخبرة القتالية في حرب العصابات، والعناوين التي سترسل إليها تلك المجموعات المحاربة. لقد تبين أثناء الحرب في البلقان، وخاصة في البوسنة والهرسك من عام 1992 حتى عام 1996 أن المجموعات المقاتلة العربية هناك

[158] موقع العربية نيت في 7. 3. 2007 .

كانت تعمل بتسليح وتموين إيرانيين، والكثير من عناصر هذه المجموعات انتقل إلى ارض البلقان من بعد إقامة لأسابيع وشهور في معسكرات مخصصة داخل الأرض الإيرانية. لقد حارب الإيرانيون في البلقان بدم الشباب العربي.

لم تنقطع علاقة الأجهزة الأمنية الإيرانية ببعض جماعات مقاتلي القاعدة بعد سقوط أفغانستان. فبعد سقوط حكومة الطالبان في 12. 10. 2001 وهروب مجموعات مقاتلين الطالبان ومجموعات مقاتلي القاعدة إلى خارج أفغانستان دخلت الأراضي الإيرانية قرابة الثلاثة آلاف مقاتل من تلك المجموعات. بقي قسم كبير من تلك المجموعات داخل الأراضي الإيرانية، وألقي القبض على عدد كبير من قادة هذه المجموعات، ثم أطلق سراحهم وأعطيت لهم حرية الحركة داخل وخارج الأرض الإيرانية، وأدخلت كمية منهم إلى العراق ولبنان. على الرغم من التناقض بين المنطلقات المذهبية والعداوات الطائفية بين حكام إيران وقيادات الطالبان وقيادات القاعدة ظل هامش كبير للعمل المشترك بين هذه الأطراف قائماً. وظل قسم من قيادات القاعدة ينسق مع القيادات الإيرانية الأمنية في مجالات العمل داخل الدول العربية المختلفة، وظل القاسم المشترك الذي ينسق عمل هذه الأطراف العداء للحكومات العربية، وزعزعة الاستقرار في المجتمعات العربية. بثت فضائية العربية في 28. 8. 2007 برنامج بعنوان "صناعة الموت" تحدث المحاورون فيه عن وجود بعض القيادات الأساسية في تنظيم القاعدة على الأرض الإيرانية، من أمثال أبوغيث ومحمد الإسلامبولي ونجل أسامة بن لادن.

الجزائر كانت البلد العربي والإسلامي الأول، بعد انتهاء الحرب الباردة، التي بوشر العمل به في إطار مشروع تصدير الثورة الإسلامية حسب الفهم الإيراني، والتخريب والفوضى، حسب أطراف عربية ودولية أخرى، و"الفوضى المنظمة" حسب الرؤية الأمريكية الحديثة. بتمويل إيراني كامل عبر القواعد المقامة في السودان وعبر الأراض التشادية كان ينقل العرب ألأفغان من إيران إلى الجنوب الجزائري. مع كل قافلة متطوعين وقافلة سلاح كانت تصل إلى أرض الجزائر قادمة من أفغانستان ومراكز تجمعها في إيران كان شلال الدم الجزائري يزداد غزارة، وسواد دخان الحرائق يزداد قتامة، وتنشر الأحزان على مساحات جديدة في النفس البشرية من أهل الجزائر.

أوروبا وأجهزة مخابراتها تكفلت أيضاً في جزء من تسليح الحركات الإسلامية في الجزائر. ليس حباً بالإسلام ودعماً للحركات الإسلامية المقاتلة والمتشددة بل طمعاً في تخريب أحد أقطار العرب والمسلمين. وكشفت الصحافة الغربية عن تهريب أو شحن كميات كبيرة من الأسلحة القادمة من فرنسا وألمانيا وبلجيكا إلى المجموعات المسلحة التي تقاتل الجيش والشرطة الجزائرية. لا يوجد تناقض في إيصال أدوات الفتك والدمار من نفس الدولة والمصدر الغربي إلى الأطراف المتقاتلة والمتصارعة في الدولة العربية الواحدة. أغلب قادة الحركات الإسلامية الجزائرية كانت تقيم في عواصم الدول الغربية.

"رابح الكبير" عضو قيادة الجبهة الإسلامية للإنقاذ الجزائرية كان يقيم في ألمانيا لأكثر من خمسة عشر عاماً. وكذلك "أنور هدام" عضو القيادة السياسية والعسكرية للجبهة الإسلامية للإنقاذ يعيش في الولايات المتحدة الأمريكية.

قدمت إيران الدعم المادي لبعض الأطراف السياسية المتورطة في الحرب الأهلية في الجزائر مثل "الجبهة الإسلامية للإنقاذ" التي تزعمها "عباسي مدني" و"علي بالحاج"، وساهمت إيران في تمويل عدد من المؤسسات "الخيرية" التابعة لتلك الأطراف الجزائرية. العلاقات الودية بين هذه الأطراف الجزائرية والحكومات الإيرانية لم تنقطع وبقيت إيران تحرض سياسياً في أجهزة إعلامها، وفي المؤتمرات الدولية على إثارة التناقضات في المجتمع الجزائري، وتتبنى مواقف القوى المسلحة الجزائرية المعارضة والمشاركة في أتون الحرب الأهلية المدمرة. شكلت الحرب الأهلية صدوع في جسم المجتمع الجزائري يحتاج لزمن طويل وجهد كبير لرأب هذا الصدع العميق. كاد الشرخ الذي ساهمت إيران بنشاط في توسيعه أن يطيح في وحدة هذا الشعب العربي الأبي المعتز بوطنه وكفاحه النبيل.

المجال الآخر الذي عملت الحكومات الإيرانية من خلاله على اختراق المجتمع الجزائري وتفتيته هو خلق بلبلة مذهبية وطائفية في أوساط الشعب الجزائري. من المعرف أن الشعب الجزائري بأغلبيته الساحقة من المسلمين السنة. وأن درجة الانسجام الديني والمذهبي في الجزائر عالية جداً ولم يشوبها عبر العقود والقرون الماضية أيتها تصدعات أو خلافات مذهبية أو طائفية. على الرغم من تلك الحقيقة الاجتماعية والتاريخية تحاول إيران العمل على زعزعة الانسجام الديني القائم داخل المجتمع الجزائري. "أوضحت صحيفة الخبر نقلاً عن مصدر وصفته بـالمطلع بولاية معسكر غربي العاصمة الجزائرية أن مصالح الأمن فتحت تحقيقاً بشأن مجموعات شيعية تتحرك في الولاية لنشر المذهب والفكر الشيعي والدعاية لإيران. وقالت الصحيفة الواسعة الانتشار، أن التحقيق، الذي شرعت فيه مصالح الأمن منذ أيام، جاء عقب معلومات وصلتها حول وجود مجموعتين، تنشط الأولى في مدينة معسكر والثانية في بلدية المأمونية وتقومان باستقطاب الشباب والجامعيين لتبنى المذهب الشيعي مع التركيز على المذهب الإثني عشري السائد في إيران والعراق."[159]

من مفارقات القدر أن يكافأ الشعب الجزائري على الجهود المضنية التي بذلتها الحكومات الجزائرية المتعاقبة لمساعدة إيران والشعوب الإيرانية وحقن دمائهم ولعب دور الوساطة وتقريب ذات البين بين إيران وبقية الدول العربية والدول الإسلامية ودول العالم، ويقابل بالأعمال المشينة والتخريبية من قبل حكومات إيران الإسلامية المتعاقبة!

[159] نقلاً عن العرب نيت في 7. 1. 2007 .

هل في ذلك حكمة تؤشر على منظومة الأخلاق والسجايا السائدة في إيران تجاه العرب، أم أن قوانين الفعل السياسي تفتقد مفردات مثل الأخلاق والمبادئ والقيم؟

التدخل الإيراني
في الشؤون الداخلية اليمنية

تفجر في بداية عام 2005 صراع مسلح في مدينة "صعدة" اليمنية الجبلية بين قوى دينية متطرفة وقوات الحكومة اليمنية راح ضحيتها المئات من القتلى والجرحى. تناقلت أجهزة الإعلام المعلومات عن تنظيم يتزعمه ابن أحد شيوخ العشائر اليمنية في مدينة "صعده" وما حولها يدعى "حسين الحوثي". حسين الحوثي هو مؤسس تنظيم "الشباب المسلم" عام 1997 في اليمن. الحكومة اليمنية اتهمت الحكومة الإيرانية في الوقوف خلف هذا التنظيم الذي يدعو إلى الطائفية وإثارة النزعات المذهبية. لم ترد الحكومة الإيرانية على هذه الاتهامات اليمنية الشديدة اللهجة. التزمت الحكومة الإيرانية كل الوقت الصمت ولم تعلق على الأحداث التي تجري في منطقة "صعدة" في اليمن، والتي دارت رحاها لفترة زادت عن ستة أشهر متواصلة قتل خلالها قائد هذا التنظيم السري الذي يدعو إلى العودة إلى نظام حكم الإمامة المتخلف.

بعد فترة هدوء نسبي اشتعلت المعارك في تلك المنطقة من جديد ولكن هذه المرة بقيادة "بدر الدين الحوثي" الأب. بعد فترة قتال دامت قرابة الشهر بين قوات الحوثي المتمردة على سلطة الدولة والقوات المسلحة اليمنية تمكنت القوات الحكومية من إعادة الهدوء النسبي للمنطقة. "وتتهم الحكومة اليمنية الحوثي، وهو عضو سابق بالبرلمان اليمني، بتعميق حدة التفرق الطائفي في البلاد وتكوين منظمة مسلحة غير شرعية. ومعروف عن الطائفة الزيدية الشيعية التي يرأسها الحوثي أنها طائفة معتدلة تعيش في الجبال الشمالية الغربية من البلاد."[160]

أورد موقع "القدس برس" خبر إغلاق جمعيات خيرية عاملة في اليمن. "أوقفت السلطات اليمنية نشاط أكثر من (21) جمعية أهلية وخيرية تابعة للمعارض الشيعي حسين بدر الدين الحوثي وتوجه السلطات اليمنية إلى قيادات تلك الجمعيات تهما بجمع الأموال، تحت غطاء العمل الخيري، بغرض الترويج للأفكار المذهبية والطائفية، ونشر الأفكار المخالفة للقانون، واستخدام إمكانياتها لتحقيق أغراض سياسية غير مشروعة، ونشر الأفكار التحريضية المعادية للدولة"[161] وفي نفس الخبر يصف الموقع الوضع في اليمن والأبعاد التي تعمل الحكومة الإيرانية في الوصول إليها من خلال دعم حركة

---

[160] موقع BBC على شبكة الإنترنت، 5 .8. 2004

[161] موقع قدس برس، 29 .6. 2005

الحوثي. "وتخوض القوات الحكومية اليمنية منذ أكثر من عام مواجهات عسكرية ضد أنصار المرجع الشيعي بدر الدين الحوثي، الذي تتهمه بمحاولة خلخلة التركيبة الاجتماعية في البلاد، من خلال نشر المذهب الشيعي الإثني عشري بدلا عن المذهب الزيدي في مناطق شمال اليمن، وتلقيه دعما من إيران، لقلب نظام الحكم الجمهوري، واستبداله بنظام إمامي."[162]

لقد نشب تراشق بالاتهامات والاتهامات المضادة بين المسؤولين اليمنيين والمسؤولين الإيرانيين على أثر حكم بالإعدام على شخص يدعى يحيى الدليمي وآخر بالسجن لمدة ثمانية أعوام على المدعو "محمد مفتاح" بتهم التآمر على قلب نظام الحكم في اليمن والعمل بتوجيهات الحكومة الإيرانية بغرض الإطاحة بالنظام الجمهوري والعودة بالنظام الإمامة إلى اليمن الذي أطاحت به ثورة 26 أيلول (سبتمبر) عام 1962. "قضت محكمة يمنية مختصة بقضايا الإرهاب أمس، بإعدام قيادي من أتباع رجل الدين المتمرد بدر الدين الحوثي، وسجن آخر، حيث أدانتهما بالتخابر مع إيران، بهدف قلب النظام الجمهوري في اليمن، شن مصدر دبلوماسي في الحكومة اليمنية، هجوما غير مسبوق على إيران، مطالبا إياها بمعالجة قضيتي عرب الأهواز والسنة الإيرانيين قبل إعطاء النصح للآخرين باحترام حقوق الأقليات."[163] كان كمال خرازي وزير الخارجية الإيراني في حينه قد وجه قبل ذلك عدة اتهامات إلى الحكومة اليمنية في اضطهاد الأقليات الدينية وعدم الالتزام بحقوق الإنسان. في علاقة متصلة "أصدرت محكمة يمنية الأربعاء حكما بإعدام رجل أدين بتزعم مجموعة من المتمردين الشيعة المسلحين وشن هجمات على مركبات عسكرية ومسئولين بالجيش لدعم تمرد كان يقوده رجل دين شيعي في شمال البلاد، هو بدر الدين الحوثي. وأدانت المحكمة إبراهيم شرف الدين -36 عاما- بتهمة "تشكيل عصابة مسلحة لتنفيذ أعمال إجرامية ضد أهداف عسكرية والتخطيط لاغتيال مسئولين عسكريين وتفجير منشآت حيوية".[164]

تعود جذور حركة الحوثيين في اليمن إلى أعوام الثمانينات من القرن العشرين، حين أنشأ رجل دين من الطائفة الزيدية إتحاداً ثقافياً في شمال اليمن عام 1986 باسم "اتحاد الشباب" لتدريس الدين الإسلامي، وكان ضمن ما يدرسه للصبية والشباب هو "الثورة الإيرانية ومبادئها". لقد تحول مشروع التدريس الديني عند الحوثي المءسس وأنصاره عبر الأنشطة التي يقومون بها إلى مشروع سياسي، مع بداية قيام الوحدة بين شطري اليمن في عام 1990. حيث كان من بين الأحزاب الجديدة التي تم تأسيسها في البلاد في أجواء الوحدة والإنفتاح السياسي في اليمن حزب "الثورة الإسلامية" الذي ضم الأحزاب الشيعية اليمنية الأربعة التالية: "حزب الحق"، و"اتحاد القوى الشعبية"، و "حزب

---

[162] المصدر السابق

[163] صحيفة العرب، لندن، 30. 5. 2005

[164] وكالة الأنباء الألمانية د ب أ نقلاً عن فضائية العربية في 21. 11. 2006.

الثورة" و"حزب الله اليمني". لم يستمر و لم يتبق من هذه الأحزاب الطائفية في الوقت الحالي غير حزبين هما "حزب الحق"، و"اتحاد القوى الشعبية"، بعد اختفاء "حزب الثورة" و"حزب الله اليمني". من الواضح الصلة العضوية لهذه الحزاب الأربعة مع الواقع السياسي الإيراني من حيث توقيت النشأة والمضمون السياسي والبعد الأديولوجي والإطار الطائفي.

لقد عادت وتفجرت الأزمة من جديد في بداية شهر كانون الثاني (يناير) من عام 2007 ووقعت في هذه الاشتباكات أعداد جديدة من الضحايا في صفوف الجيش اليمني والمواطنين المدنيين. أعلن علي الانسى، الذي يشغل منصب مدير مكتب رئاسة الجمهورية في صنعاء في تقرير قدمه وعرضه أمام وكالات الأنباء "أن عدد القتلى والجرحى في مواجهات القوات النظامية وأتباع الزعيم الديني حسين بدر الدين الحوثي منذ يونيو 2004 بلغ نحو ستة آلاف جندي، فيما قدر الخسائر في الممتلكات العامة والخاصة بمبلغ ستمائة مليون دولار ."[165]

أوعزت الحكومة الإيرانية للاحتياط الإستراتيجي في سياسة التدخل في الشؤون العربية الداخلية المعتادة. حرك المسؤولون الإيرانيون المنظمات والمؤسسات الدينية ـ السياسية المعروفة "بالحوزات العلمية" للمشارك في الضغط على الجمهورية اليمنية وعلى الحكومة اليمنية."أصدرت الحوزة العلمية في مدينة قم، ممثلة بزعيمها سماحة آية الله العظمي المرجع الديني السيد محمد صادق الروحاني بيانا ندد فيه بممارسات السلطة اليمنية ضد الشيعة. وقال البيان إن الشيعة في اليمن يتعرضون لمجازر وحشية من قبل الحكومة اليمنية وأنها تقوم بعملية إبادة جماعية لشيعة أهل البيت. أضاف البيان تطالعنا وكالات الأنباء العالمية منذ أشهر بأخبار متباينة حول ما يجري في بلاد اليمن، وكلها تجمع علي أمر وأحد وهو سقوط مئات الضحايا، وتدمير البيوت والقرى في معارك تستعمل فيها شتي أنواع الأسلحة الفتاكة من طائرات ودبابات وصواريخ يستعملها الجيش اليمني ضد مواطنيه المسلمين ـ الذين لا يملكون سوى اليسير من الأسلحة الشخصية كما هو الحال في جميع القبائل العربية في اليمن ـ الذي يفترض به أن يكون مدافعا عنهم وحاميا لهم ."[166] نصبت الحوزة العلمية في مدينة قم الإيرانية نفسها حامياً ومدافعاً عن مصالح الشعب اليمني بدل حكومته الوطنية، ومحل أحزابه الوطنية في السلطة والمعارضة.

وتبين بشكل جلي في سطور البيان المذكور الهدف السياسي القومي الفارسي الذي سعت إلى تحقيقه تلك المؤسسات الدينية الإيرانية. جاء في البيان "إن ما بدأ يتضح حول مجريات الأحداث هو أن هناك حلفا شريرا ممتدا من اليمن إلى العراق قائما بين قوي

---

[165] العرب نيت. في 6. 1. 2007 .
[166] القدس العربي، لندن، 3. 5 .2005

التكفير المذهبي البغيض الذين يلبسون الإسلام مسوحا لأعمالهم الإجرامية وبين عدد من أركان النظام الحاكم ممن ينتمون إلي المدرسة الفكرية للحكم البائد في العراق، ويقودون حربا حاقدة ضد المسلمين الشيعة بشتا طوائفهم الزيدية و الإثني عشرية يمارسون فيها نموذجا مما جري سابقا ويجري حاليا من أعمال الذبح والقتل والتفجير والإرهاب."[167]

التدخل الإيراني في شؤون اليمن في إشاعة أجواء البلبلة ونشر الفتنة المذهبية والطائفية في هذا البلد العربي له علاقة مباشرة بموقف الجمهورية اليمنية المؤيد للعراق أثناء الحرب العراقية ـ الإيرانية في أعوام الثمانينات من القرن العشرين. إن الرغبة الإيرانية الحاقدة في معاقبة اليمن على موقفها القومي الداعم لقطر عربي آخر خاض حرب ضروس كادت تهدد كيانه السياسي وتهدد الأمن القومي العربي في حدوده الشرقية، كانت أحد الأسباب التي تدفع إيران لخلق مشاكل لليمن. لم تخفي الحوزة في قم هذا الحقد الدفين على اليمن وعلى شعب اليمن المتضامن مع الشعب العراقي الجريح من جراء الاحتلال الغربي والصهيوني والشراكة الإيرانية في هذا الاحتلال.

كشف نائب رئيس الوزراء لشؤون الدفاع والأمن في اليمن الدكتور رشاد العليمي، لأول مرة عن وجود دعم ايراني قديم لحركة الشباب المؤمن في اليمن، وهي حركة الحوثيين التمردية، منذ مطلع الثمانينات. وقال العليمي، الذي كان وزيرا للداخلية حتى شهر أيار 2008 ، أمام مجلس النواب اليمني "ان الحوثية بذرة شيطانية بدأت منذ العام 1982 إبان الحرب العراقية الايرانية وفي الأعوام1983 و1984، تشكلت خلايا بدعم ايراني قامت بأعمال ارهابية في تلك الفترة ... وأن من بين تلك الاعتداءات التي قام بها الحوثيون مطلع الثمانينات، اعتداء علي السفير السعودي باليمن واحراق نساء في شوارع العاصمة صنعاء بمادة الأسيد والقاء قنابل علي سينما بلقيس وسط العاصمة صنعاء أدت الي مقتل حارسها. وأضاف أن قضية صعدة ليست قضية عسكرية وامنية بقدر ما هي قضية فكرية وثقافية وأن عناصر حركة الشباب المؤمن تلقوا دورات تخريبية في ايران ثم جاءوا لتطبيقها في اليمن."[168]

تكرر الأوساط الإيرانية مقولة المظلومية التي يتعرض لها الشيعة، والدفاع عن حق المظلومين، وتنصب هذه الأوساط نفسها المتحدث الرسمي باسم الطوائف الإسلامية، وتغمز من طرف الطائفية في تحميل أبناء طائفة بعينها وزر هذه المظلومية. "واعتبر البيان إن ما حصل في اليمن في الأشهر الماضية من صدور قرارات رسمية وتوصيات بمنــع احتفالات عيد الغدير، ومنع كلمة حي علي خير العمل من الآذان، ومنع إحياء مناسبة شهـــادة أبي الأحرار الحسين بن علي عليهما السلام في عاشوراء ومنـــع كتاب نهج البلاغة والصحيفة السجادية ومصادرتهما وحرقهما في ساحة التحرير في العاصمة

---

[167] المصدر السابق

[168] صحيفة القدس العربي، لندن في 12. 6. 2008 .

صنعاء وغير ذلك من الممارسات التي ليس آخرها فرض حصار اقتصادي جائر علي العديد من المناطق ومنع وسائل الإعلام من الوصول إلى ميدان الأحداث إضافة إلى استمرار مسلسل القتل والاعتقال والاضطهاد والملاحقات يوضح بعض صور الحقيقة الغائبة والمغيبة في أحداث اليمن."[169]

أصدرت الحوزة العلمية في النجف، المسيطر عليها من القادة الدينيين الفرس في العراق (السيستاني وفياض والنجفي والجزائري)، بياناً بتاريخ 16. 4. 2005 م حول الأحداث في اليمن، أظهر مدى التعاطف والدعم الذي تبديه هذه الحوزة مع قضية تمرد حسين الحوثي على الدولة اليمنية، وحاولت تصوير الحدث في هذا البيان على أنه حملة مسعورة من الاعتقالات والقتل المنظم ضد الشيعة الزيدية والشيعة الجعفرية في اليمن.

لم تنسى الحوزة في "قم" من التأكيد على الموقف المماثل الذي اتخذته الحوزة في النجف من الفتنة في جبال صعده اليمنية. الحوزة في مدينة "قم" الإيرانية أصدرت بيان جاء فيه: "إننا في الوقت الذي ندعم ونؤيد البيان الصادر عن الحوزة العلمية في النجف الأشرف حول أحداث اليمن فإننا نحذر من العواقب الوخيمة التي ستترتب علي هذا النحو من السلوك تجاه المسلمين سواء في اليمن أو في العراق والذي سيرتد عاجلا أم آجلا على من يقوم به وعلى من يؤيدهم ويدعمهم ويغطيهم."[170]

ظل اليمن طوال القرون خالي من الفتن المذهبية والطائفية. المسلمون في اليمن من السنة والزيدية منسجمون إلى حد كبير في التشريع والفقه، ولا يوجد بين هذين المذهبين الإسلاميين فروق فقهية كبيرة تستدعي الخلاف. والسواد الأعظم من المواطنين اليمنيين لا يستطيع تحديد الفروق بين المفاهيم التي تميز هذين المذهبين. هذا الواقع وهذه الصورة المتعايشة والمنسجمة، على ما يبدو، لا يرتاح إليها القادة السياسيون والقادة الدينيون في الجمهورية "الإسلامية" في إيران.

ويعتبر بدر الدين الحوثي المرجع الروحي لـ"الشباب المؤمن"، وهي حركة متطرفة تأسست عام 1997. ويدعي هذا التنظيم تمثيل المسلمين الزيديين في اليمن. لقد نددت الزعامات الدينية والسياسية من أتباع المذهب الزيدي، الذي ينحدر منه الرئيس اليمني علي عبد الله صالح، ورئيس البرلمان، الشيخ عبد الله الأحمر الذي يتزعم حزب الإصلاح ابرز حزب إسلامي معارض، بحركة التمرد الحوثية. يتميز اتباع المذهب الزيدي الشيعي الأصل بالاعتدال والتسامح. وقد استمدوا اسمهم من الإمام زيد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب (699 - 740)، الذي يعتبره أتباعه خامس وآخر الأئمة من آل بيت الرسول الكريم. ويعتبر المذهب الزيدي، من الناحية الفقهية، أقرب إلى المذاهب السنية منه إلى بقية المذاهب الشيعية.

---

169 المصدر السابق

170 القدس العربي ، لندن، 3. 5 .2005

تركزت التهم التي وجهتها السلطات اليمنية إلى حسين بدر الدين الحوثي بالخروج على الشرعية الدستورية، والتعصب العنصري والسلالي، وادعاء الإمامة والخروج على الحاكم. قال الدكتورعبد الكريم الإرياني، المستشار السياسي للرئيس علي عبد الله صالح، إن تمرد الحوثي في محافظة صعده، "نبتة شيطانية استقت ماءها من خارج منابع التاريخ اليمني". وقال إن ذلك التمرد الذي قاده حسين بدر الدين الحوثي ثم والده بدر الدين، لا يتفق بأي حال من الأحوال مع تاريخ الجمهورية اليمنية وتاريخ اليمن بشكل عام. وأكد أن هذا الأمر لا علاقة له بالنسيج الاجتماعي اليمني ولا بالتاريخ الثقافي والسياسي والديني في اليمن."[171] كان حسين الحوثي ممثل في البرلمان اليمني من 1993 إلى 1997 عن حزب "الحق"الديني التقليدي ثم انشق عنه عام 1997 ليؤسس حركته المسلحة "الشباب المؤمن". وفي 2003، بدأ ينظم عبر البلاد مظاهرات معادية للولايات المتحدة مما أثار حذر السلطات منه. ثم تحصن مع قرابة 3000 من أنصاره في جبال مران قرب الحدود مع السعودية على بعد نحو 250 كلم شمال صنعاء.

أبو الحسن اليماني أحد طلاب الحوزة العلمية في النجف يقول: "الذي لا يوجد عندنا أدنى شك فيه بان حسين الحوثي زيدي 100% إلا انه متأثر سياسيا و مدعوم من قبل الحرس الثوري الإيراني و حزب الله- لبنان"[172] ويضيف أبو الحسن اليماني. " انه على حسب علمنا الحسي و قراءتنا لكتبه و تتبعنا لحركته انه متأثر حتى النخاع بثورة الخميني في إيران حيث انه خضع لدورات أمنية و سياسية و غيرها في لبنان عند حزب الله و لديه ارتباط قوي بالحرس الثوري الإيراني"[173] لهذه الحركة ولهذا التدخل الإيراني في شؤون اليمن جذور مرتبطة أيضاً بالهدف الإيراني المعلن ألا وهو مشروع تصدير الثورة إلى دول الجوار العربي. "إلا أن البعض يتحدث خلال فترة الثمانينات عن تواصل بين إيران ومرجعيات زيدية في اليمن، وأن هذا التواصل أخذ بعدا فكريا وتنظيميا وتمويليا، وقد ساعد عامل النقمة لدى أتباع المذهب الزيدي على المذهب 'الوهابي' الذي اخترق اليمن! وهو أمر لا تزال تكرسه صحف الأحزاب الشيعية كالأمة والبلاغ والشورى، ويغذى به أتباع المذهب. إضافة إلى نجاح الثورة الإيرانية ومحاولاتها الجادة في تصدير الثورة إلى المنطقة."[174]

الطالب في الحوزة اليمني أبو الحسن اليمني يعبر عن تشاؤمه من تداعيات مقتل الحوثي على الشيعة الإمامية الأثنى عشرية في اليمن وعلى مستقبل العمل السياسي ببعده الطائفي ويحمل المسؤولية إلى أكثر من طرف إلى ما آلت إلية الأوضاع هناك. "بسبب

---

171 الشرق الأوسط، لندن، 22 . 4 .2005

172 حسن الجراح،تداعيات مقتل الحوثي على الشيعة الإثني عشرية في اليمن،النجف 2005 في موقع اصدقاء الديمقراطية

173 حسن الجراح،المصدر السابق

174 تمرد الحوثي في اليمن وابعاد التحالف الشيعي الأمريكي في المنطقة، على موقع مفكرة الإسلام لشبكة الإنتر نيت العالمية ، 25. 5. 2005

محسوبيتنا على حوزة النجف الأشرف مازال موقفنا صعب ومن نتائج هذه الحرب أن كان وقعها على نشاطنا و حركتنا و جميع المؤمنين بالكارثي حيث أصبنا بالشلل التام وتوقفنا عن القيام بأي نشاط و خضعنا لإقامة جبرية، و يبدو أن الحكومة اليمنية لا تفرق كثيرا بين الزيدية و الإثني عشرية و بين كل ما هو شيعي و إيراني و تعتقد أن كل شيعي هو ثوري إيراني".[175] لكن شقيق حسين الحوثي يحيى أنكر علاقة أبيه وشقيقه في إيران وحزب الله اللبناني. "وصف الحوثي جماعة «الشباب المؤمن» التي كان يقودها شقيقه حسين قبل مقتله بأنها حركة «ثقافية لمواجهة ما وصفه بـ«المد السلفي الذي هاجمنا في بيوتنا باليمن وكان مصدره جماعات التكفير». ونفى وجود أي علاقة لوالده أو شقيقه بإيران أو حزب الله أو العراق."[176]

قال طارق الشامي رئيس الدائرة الإعلامية للحزب المؤتمر الشعبي العام الحاكم في اليمن الإشتباكات المتجددة مع الحوثيين مع بداية عام 2007 في ندوة سياسية في صنعاء: "إن وفدا من جهاز الأمن القومي الإيراني زار صنعاء مؤخرا والتقى بمسئولي الأمن القومي اليمني، وطرح الجانب اليمني مسألة الدعم الإيراني للحوثيين بشكل واضح وصريح. وكان رد الوفد الأمني الإيراني: إن النظام السياسي الإيراني لا يسمح بمثل هذا الدعم. لكنه اعترف بدعم يتلقاه الحوثيون من مؤسسات دينية إيرانية."[177]

التدخل الإيراني في اليمن قديم ويستند على أطماع فارسية في السيطرة على اليمن تعود إلى الفترة الزمنية قبل الفتح الإسلامي. هذه الأطماع تتخذ من ترديد الخطاب الطائفي مطية وغطاء تتستر خلفه لتحقيق مآرب سياسية إيرانية و أهداف قومية فارسية بعيدة كل البعد عن أي بعد إنساني في حماية أقلية دينية محددة.

يقول أنور قاسم الخضري في مقالة له: "فإن البعض يربط تمرد الحوثي بالتوجه الإيراني الهادف إلى تعزيز دور إيران الإقليمي من خلال دعم الأقليات الشيعية في دول الجزيرة العربية والشام، وقد سبقت الإشارة إلى وجود نشاط شيعي لحكومة طهران في اليمن عبر السفارة الإيرانية بصنعاء، كما سبقت الإشارة إلى زيارة حسين بدر الدين الحوثي ووالده إلى طهران عقب حرب الانفصال 1994م."[178] من انكشاف الدور الإيراني المبكر في الأحداث السياسية في اليمن ساهمت في معرفة أبعاد المشروع الإيراني في اليمن واستطاعت الحكومة اليمنية توجيه ضربات موجعة لهذه المخططات الإيراني، وربما ساهمت التجربة اليمنية مع أنصار الحوثي في تنبيه أوساط عربية أخرى للنشاط الإيراني في دولها.

---

175 حسن الجراح،المصدر السابق

176 الشرق الأوسط ، لندن، 28 . 4 .2005

177 صحيفة الشرق الأوسط، لندن في 2. 3. 2007 .

178 تمرد الحوثي في اليمن وابعاد التحالف الشيعي الأمريكي في المنطقة،المصدر السابق

العلاقات السورية ـ الإيرانية

وصل محمود أحمدي نجاد رئيس الجمهورية الإيرانية الإسلامية في 19. 1. 2006 إلى دمشق بادئ زيارة رسمية إلى الجمهورية العربية السورية دامت يومين. كانت هذه الزيارة الأولى التي يقوم بها الرئيس الإيراني المحافظ الجديد إلى سوريا رداً على زيارة كان قد قام بها الرئيس السوري بشار الأسد قبل ستة أشهر إلى طهران للتهنئة بفوز نجاد في الانتخابات الرئاسية في إيران. العلاقة السورية ـ الإيرانية. كانت زيارة نجاد إلى سوريا كأول دولة يقوم بزيارتها بعد انتخابه تحمل طابع رمزي تدل على عمق العلاقات بين الحكومتين. بدأت هذه العلاقات المتميزة بين قيادة البلدين قبل ربع قرن من هذا التوقيت، والتي تزامنت مع انتصار القوى الدينية الإيرانية على الشاه وتمكن هذه القوى من السيطرة على سدة الحكم في طهران.

ترافقت زيارة الرئيس الإيراني إلى سوريا مع تكون أوضاع دولية وإقليمية محرجة للطرف السوري وللطرف الإيراني. جاءت هذه الزيارة في أجواء سياسية تعيشها المنطقة فرضت فيها على سوريا الانسحاب من لبنان وترك حلفاء سوريا وإيران هناك، حزب الله وحركة أمل، يعيشون مأزقاً سياسياً صعباً، بعد أن كانت لهم الغلبة والسطوة بوجود القوات السورية. وكذلك تعيش الحكومة السورية أسوأ مراحل سيطرتها في دمشق بعد انشقاق عدد من أعمدة الحكم فيها والتي كان "عبد الحليم خدام" نائب رئيس الجمهورية السابق و"حكمت الشهابي" رئيس قيادة الأركان العامة في الجيش العربي السوري من أبرز الشخصيات التي انضمت إلى مواقع المعارضة السورية.

بالإضافة إلى الضغوط الدولية التي تتعرض لها الحكومة السورية كأحد تداعيات اغتيال "رفيق الحريري" رئيس الوزراء اللبناني السابق، تتزايد يوم بعد يوم على الساحة العربية عزلة النظام في دمشق. فالمملكة العربية السعودية التي تعتبر الرئيس الحريري أحد حلفائها الأساسيين في لبنان، ومصر التي تعتبر الرئيس الحريري الصديق الوفي لمصر، قرأتا سياسياً إقدام أي طرف من الأطراف المشتبهة في عملية اغتيال الحريري كتحدياً وصفعة كبيرة موجهة إليهما. الابتعاد السعودي المصري بعد إغتيال الحريري عدة خطوات عن دمشق زاد من حدة العزلة العربية للحكومة السورية.

كذلك الحكومة الإيرانية تعيش فترة حرجة من تاريخ حكم القوى الدينية في طهران. يوم بعد يوم تتصاعد الضغوط الدولية على إيران لإجبارها على التخلي عن برنامجها التسليحي النووي. وإيران تبحث عن مخارج مشرفة، وبأقل الخسائر من هذا المأزق الإستراتيجي الذي وجدت نفسها فيه و الذي لا يعرف حكامها اتجاهات وتداعيات استمرار السير فيه.

زيارة نجاد إلى دمشق كرست بشكل جلي تقوية أوراق طهران على حساب أوراق دمشق. الكاتب اللبناني "أسعد حيدر" أبرز جزء من تلك المكاسب التي تأكدت من خلال هذه الزيارة. "والواقع أن حزب الله أصبح منذ تحرير الجنوب الشريك القوي والرقم الصعب في المعادلة اللبنانية وإذا كانت دمشق، قد بنت تحالفها مع الحزب في إطار المعادلة الخاصة لوجودها في لبنان وبالتشابك مع علاقاتها مع القوى الأخرى، فإن طهران عملت على دمج تحرير المقاومة الإسلامية للجنوب في قلب مشروعها الإقليمي على الصعيدين الأيديولوجي والتعبوي كما يرى العديد من الخبراء في الشأن الإيراني."[179]

كانت العلاقات السورية ـ الإيرانية متوترة وعدائية في منتصف السبعينات لكنها تغيرت بعد زيارة الرئيس السوري حافظ الأسد إلى طهران عام 1976 . لكن العلاقات بين البلدين ظل يشوبها التوتر وعدم الاستقرار حتى سقوط الشاه وحكمة عام 1979 . قدوم قوى جديدة إلى سدة الحكم تطرح المواقف المعادية من الولايات المتحدة الأمريكية، الداعم الأساسي لحكم الشاة، والمعادي لحركة التحرر الوطني العربي، حليف الكيان الصهيوني، ومهدد الخليج العربي، ومحتل جزر الإمارات العربية، ومحتل إقليم الأحواز(عربستان)، منح طابع الشرعية على العلاقات السورية ـ الإيرانية. هذه القوى الجديدة غير المعروفة للشارع والنخبة العربية تطرح شعارات ثورية معادية للإمبريالية، وللظلم بكل أنواعه، وهي تنادي بالإسلام الثوري المعبر عن مصالح الشعوب، والمغاير للإسلام السياسي المألوف في الساحة العربية، المرتبط بالدوائر الغربية والقوى الإمبريالية الغربية عدوة الشعوب. القوى الإسلامية الثورية في إيران، قبل كل شيء، نجحت في إسقاط الطاغية في طهران من خلال ثورة شعبية. وعبر هذه الوقائع تدعمت مشروعية العلاقات السورية ـ الإيرانية.

المعارف والانطباعات الإيجابية العامة التي تكونت عن التغيرات التي حصلت في إيران في عام 1979، وعن مجموعة الحكام الجدد في طهران، كان لها تأثير كبير على القوى السياسية في سوريا والوطن العربي. لقد تركت هذه التغيرات تأثيرات جبارة على أوسع القطاعات الجماهيرية في الوطن العربي، وأفرحت قوى سياسية كثيرة، وأرهبت وأخافت قوى سياسية أخرى في المنطقة العربية.

---

[179] أسعد حيدر في صحيفة المستقبل اللبنانية في عدد 22. 1. 2006 .

كان الوطن العربي في هذه الأثناء يعيش حالة انقسام حادة بعد إقدام نظام السادات في مصر على توقيع معاهده "كامب ديفيد" مع الكيان الصهيوني في عام 1978. ورداً على توقيع هذه المعاهدة تم تجميد عضوية مصر في مؤسسات جامعة الدول العربية في العام 1979 . وفي هذه الأعوام كانت نزعة الإقليمية والقطرية متفشية في دوائر الحكم العربية على أوسع نطاق. وعلى وقع آفة التوجهات القطرية المتفشية كانت ترسم سياسات حكام الدول العربية على أسس المصالح القطرية، وبالحقيقة مصلحة دوائر الحكم والفئات المتنفذة في الدولة القطرية العربية. وكانت تعقد التحالفات بين القوى السياسية والدول في المنطقة العربية حسب الميول والتوجهات والمصالح الفئوية والطائفية بعيداً عن المصالح القومية للأمة، وأيضاً بعيداً عن مصالح الشعوب في كل قطر على حدى. على الرغم من المغالاة في تبني مصالح الأمة و"الدفاع" عن هذه المصالح من قبل بعض القوى القومية الحاكمة كفئات حزب البعث مثلاً، ظلت المصلحة القومية العليا آخر المواضيع التي يتم الانتباه إليها في عملية نسج وعقد التحالفات والمحاور القطرية والتحالفات السياسية بين الأطراف المختلفة.

كانت سوريا تعيش ظروف استثنائية صعبة عشية التغيرات الثورية في إيران عام 1979 . أهم هذه الظروف يمكن إدراجها بالتالي:

كانت سوريا من أكثر دول المنطقة تضرراً من الانقسام الحاد في الساحة العربية. وكانت سوريا من أكثر الدول العربية تضرراً من خروج مصر من جبهة الصراع مع العدو الصهيوني. لقد خسرت سوريا بخروج مصر من دائرة الصراع العربي ـ الصهيوني حليف أساسي كبير، كان على الدوام التوأم الملازم والعمق الإستراتيجي والشريك في صد الأخطار التي تهدد المنطقة عبر القرون.

والحكومة السورية كانت، بعد فشل محاولة الوحدة بين القطر السوري والقطر العراقي في عام 1978، تمر في أزمة حادة مع الحكومة العراقية. وتعاني في نفس الوقت من العزلة العربية، بعد فشل وتفكك تجربة "جبهة الصمود والتصدي العربية". فشل الجبهة التي كانت تضم بالإضافة إلى سوريا، العراق واليمن الجنوبي وليبيا والجزائر ومنظمة التحرير الفلسطينية في مناهضة اتفاقية كامب ـ ديفيد ونظام السادات في القاهرة.

الوضع الاقتصادي السوري وصل في تلك الأيام إلى مستوى متدني وخطير جراء الفساد المتفشي في البلد، وقطع المساعدات المادية من دول الخليج العربي نظراً للانقسام الحاصل في الساحة العربية بين مؤيد لجبهة الرفض العربية ومعارض لتلك الجبهة، وكذلك إغلاق الأسواق الأوروبية أمام البضائع السورية كعقاب لموقف سوريا الرافض لمعاهده كامب ـ ديفيد مع الكيان الصهيوني.

مع بداية عام 1973 تصاعدت ظاهرة النزعة الطائفية في سوريا بقيادة شقيق رئيس الدولة، رفعت الأسد، الذي شكل وحدات عسكرية من داخل الجيش العربي السوري سميت "سرايا الدفاع". لقد غلب على تشكيل هذه الوحدات العسكرية اللون الطائفي. وبالتوازي مع ظاهرة سرايا الدفاع بروز وتفاقم سيطرة القوى الطائفية على مراكز القيادة في الأجهزة الأمنية السورية، التي وصلت إلى ذروتها في أعوام 1979 و1980، والتي أصبحت المحرك الأساسي في سياسة الدولة السورية الداخلية والخارجية والاقتصادية. تشكلت داخل النظام السياسي في الدولة السورية قوى مؤثرة كانت تبحث عن تحالفات وعلاقات ذات طابع وأبعاد طائفية، والتي وجدت ضالتها في النظام الإيراني الجديد يشد كل منهم أزر الأخر.

وكانت الحكومة السورية متورطة في حرب أهلية دائرة في لبنان وتبحث عن حلفاء محليين هناك. وكانت حركة "أمل" اللبنانية التنظيم السياسي الوحيد الذي تربطه علاقات سياسية متطورة مع إيران يتمتع بعلاقات جيدة مع الحكومة السورية.

أما الحكام الجدد في طهران عام 1979 كانوا يبحثون عن دور في المنطقة يحررهم من الإرث السيئ الذي خلفة نظام الحقبة البهلوية خلال نصف قرن من الحكم المستبد والمتآمر على شعوب المنطقة. نظام الشاه الذي اكسب إيران صفة البلد العميل للغرب الإمبريالي، والبلد المأجور وحكام مأجورين بيد القوى الغربية الإستعمارية المعادية لحرية الشعوب. حكام طهران الجدد أرادوا أيضاً الوصول إلى أصدقاء إيران من الأقليات المذهبية بأسهل الطرق، وبغطاء وتفهم عربيين. لقد تلاقت مصالح الحكام الجدد الآنية مع الأهداف الإيرانية الإستراتيجية في الساحة العربية. حيث عملت جماعة الخميني على تعزيز العلاقة مع دمشق لما في تعزيز هذه العلاقة من فوائد كان يرجوها حكام إيران الجدد. وكان أهم هذه الفوائد:

لقد وجد حكام إيران الجدد في الحكومة السورية ضالتهم. كان العداء المشترك مع الحكومة العراقية المدخل العلني والمبرر سياسياً لبدء العلاقات بين الطرفين على أسس جديدة ومتينة ومتميزة. وكانت الساحة اللبنانية هي المدخل الآخر للعمل المشترك بين الحكومة السورية والقيادات الإيرانية الجديدة. وظلت حكومات إيران الزائلة والحاضرة تصر في نسج علاقاتها الاستراتيجية على توظيف البعد الديني الطائفي بشكل ثابت ومستمر. كان هذا البعد الحاضر الدائم في صراع حكام إيران الجدد مع العراق ومع بقية الدول العربية والإسلامية، وفي فلسفة العمل السياسي والإجتماعي لمؤسسات الدولة الإيرانية على الساحة اللبنانية.

الصراع والتناحر العراقي السوري لم يخلوا من خلفيات وأهداف طائفية في جوهره، على الرغم من الطابع السياسي الذي ظهر على السطح للخلاف بين أجنحة حزب البعث الحاكم في البلدين. وخاصة تبلور وتشكل البعد المذهبي في ذهنية ووعي رموز دوائر

صنع القرار في سوريا، الذين وصلوا إلى سدة الحكم في دمشق عام 1970، عبر المحرك الطائفي في السيطرة على الحكم. فالعامل الطائفي في تحديد العلاقة مع بغداد كان يبرز بين الفينة والأخرى إلى السطح. كان الطرف الثالث اللبناني في هذا المحور الجديد، الذي أخذ بالتشكل، تزداد يوم بعد يوم صفة الطابع الطائفي وضوحاً. كان العامل الحاسم في نسج علاقات الطرف اللبناني العربية والإسلامية هو البعد الطائفي، وظل هذا البعد هو العامل المؤثر طوال الحرب الأهلية اللبنانية وما بعدها.

الظروف العربية والإقليمية السياسية للحكومة السورية كانت، في الأيام التي سبقت وعاصرت التغيرات الجديدة في إيران، في الواقع، تعيش مأزقاً استراتيجياً. والحكومة الجديدة في طهران، ذات التوجه الديني في الظاهر، والقومي الفارسي في الواقع، كانت هي الأخرى تعيش حالة عدم الاستقرار والخوف من المجهول، وتبحث عن حلفاء خارج الحدود. فالعوامل الموضوعية العامة والعوامل الذاتية لكل من الحكومة السورية والحكومة الإيرانية، والتوجه الطائفي الذي يحرك دفة السياسة في كلا البلدين ساهمت في سرعة التقارب السوري ـ الإيراني. هذا التقارب، والذي تطور ليصبح "تحالفاً" بين هاتين الدولتين، صمد لأكثر من ثلث قرن، وتجاوز، في تلك المنطقة غير المستقرة، والتي تجتاحها جملة من العواصف السياسية والاجتماعية والاقتصادية، عبر السنين الطويلة، عدة صعوبات ومعضلات بنجاح فريد من نوعه. تميزت العلاقة السورية ـ الإيرانية بكونها الأمتن والأطول في التاريخ الحديث لسوريا، من أي علاقات نسجتها الحكومات السورية مع أي بلد عربي أو غير عربي في المنطقة وخارج المنطقة.

ترسم السياسة الخارجية السورية في دوائر أجهزة الأمن السورية وليس في دوائر وزارة الخارجية كما هو مألوف في الدول الأخرى. تصاغ وتنفذ السياسة السورية الخارجية للوضع في لبنان عبر جهاز الأمن السوري فرع لبنان، وليس من خلال تصورات ورؤية وزارة الخارجية السورية. وتصاغ كذلك العلاقات السورية الفلسطينية والمصرية السورية وغيرها عبر فروع الأجهزة الأمنية السورية المتخصصة وليس عبر وزارة الخارجية السورية. الكاتب والسياسي السوري "ميشال كيلو" قال في تصريح له لوكالة "فرانس برس" معلقاً على موت الضابط الأمني المعروف غازي كنعان، والذي اصبح وزيراً للداخلية السورية في نهاية عام 2004 حتى رحيله في 12. 10. 2005 "غازي كنعان هو أهم ضابط أمن عند العرب منذ النصف الثاني من القرن العشرين. إن كنعان شخص اجتمعت بين يديه كل الملفات المهمة التي لها علاقة بلبنان وفلسطين والسياسات الأمريكية والإسرائيلية والإيرانية والمصرية ."[180]

الكاتب السوري "حمود الشوفي" يلخص في مقال له واقع السلطة في سوريا بالتالي: "إننا نعلم تماما، كما يعلم كل مواطن وكل متتبع لأوضاع سورية، إن النظام إنما يستند

[180] القدس العربي، لندن العدد الصادر في 13.10. 2005 .

وجوده كله إلي قوته الطائفية في الجيش، وان الادعاء بالانتماء البعثي أو القومي أو التقدمي ليس سوي ادعاءات، لان النظام في أساسه نظام عائلي ديكتاتوري متفرد، يستغل انتهازيا أبناء الطائفة العلوية ليحتمي بها، ويسمح لبعض البارزين المتنفذين فيها، أن يعيثوا في الأرض فسادا، وان يجمعوا الثروات والمنافع التي تجرها لهم سلطة غير مقيدة، وبدون رقابة أو حساب أو مسؤولية."[181]

عبد الحليم خدام نائب رئيس الجمهورية أكد في أحد مقابلاته الصحفية في باريس مع صحيفة الشرق الأوسط في تاريخ 6. 1. 2006 حقيقة النفوذ الهائل للأجهزة الأمنية السورية في إدارة الأوضاع في الجمهورية العربية السورية وتنصيب القيادات والوزراء بعيداً عن معرفة القادة والمسؤولين المعينين رسمياً. قال خدام: "إن الرئيس السوري الراحل حافظ الأسد كان رجلا مهما في تاريخ سورية لكنه كان ضعيفا أمام عائلته، فترك الساحة لآل الأسد في الساحل وغير الساحل لتلك الممارسات الشاذة". وأضاف خدام: "فكر بالتوريث وهذا يتعارض مع كل القيم السياسية التي عرفتها سورية". وردا على سؤال لـ«الشرق الأوسط» بأنه ساعد حافظ الأسد في ذلك آنذاك قال خدام في نفس المقابلة: "ساعدته لأنه كان هناك وضع لم يكن أمامنا خيار. ساعدته بعد أن مات. قبل أن يتوفى لم يناقش الأمر معنا. رتب الأمور من جانبه مع الأجهزة الأمنية والمواقع العسكرية التي شكلت بالطريقة التي يورث فيها ابنه بالقوة وليس بالدستور."[182]

التنسيق بين القيادة الإيرانية والأجهزة الأمنية السورية، التي هيمنت على الوضع اللبناني خلال العقود الثلاثة الأخيرة، ساهمت بشكل مباشر في رسم الخريطة السياسية اللبنانية وعملت على ترتيب الأدوار السياسية للمنظمات والأحزاب اللبنانية بما تنسجم مع توجهات الطرف الإيراني الطائفية والمذهبية. بنيت العلاقات السياسية بين إيران والحكومة السورية مع الأحزاب والقوى السياسية اللبنانية وتعززت على قاعدة المشترك الطائفي لتلك الفئات اللبنانية، ومع ما يتفق مع الميول الطائفية للأجهزة الأمنية السورية. ولم تقم العلاقات السورية اللبنانية، في يوم من الأيام، على قاعدة الانسجام السياسي القائم على أساس المصلحة الوطنية والقومية اللبنانية، أوعلى أساس المصلحة الوطنية والقومية السورية. إن بروز دور حركة أمل اللبنانية وتعاظم تأثير حزب الله اللبناني في الوضع اللبناني، الذي فاق حجمه الطبيعي بكثير هو بشكل واضح ثمرة هذا التوجه والعمل المشترك السوري ـ الإيراني على الأرض اللبنانية.

---

181 صحيفة القدس العربي، لندن العدد الصادر في 25. 2. 2006 .

182 صحيفة الشرق الأوسط، لندن العدد الصادر في 6. 1. 2006 .

هيمنة مراكز القوى داخل دوائر صنع القرار كانت على الدوام السبب الأساسي في استمرارية وتمتين العلاقة السورية مع إيران على حساب المصالح الوطنية السورية والمصالح القومية العربية.

تعددت المجالات التي ساهمت الحكومة السورية فيها بمساعدة إيران، والمجالات التي ساهمت السياسة السورية بفتح آفاق حقيقية لإيران لتعزيز مواقعها ومضاعفة نفوذها في الدول العربية.

وقف النظام في سوريا إلى جانب إيران في حربها على العراق، من خلال المساعدات العسكرية التي كانت على شكل تقديم السلاح والخبراء العسكريين السوريين داخل صفوف الجيش الإيراني على جبهات القتال ضد العراق.

شكلت العلاقة لسورية ـ الإيرانية أحد الأغطية السياسية الرئيسية للمواقف الإيرانية وللأنشطة الإيرانية للتدخل الإيراني في شؤون قضايا الوطن العربي الداخلية. وكانت هذه العلاقة على الدوام الشاهد الزور الذي تتذرع به الحكومات الإيرانية والدعاية الإيرانية في مواقفها السياسية وخطابها الإعلامي للجماهير العربية. ظل حكام طهران يؤكدون سياستهم المساندة للعرب ونفي حقيقة سياساتهم العدوانية ضد العرب من خلال استحضار العلاقات الإيرانية ـ السورية. شاهد الزور الدائم لسياسات حكام إيران في المنطقة العربية كانت تلك العلاقة المتميزة مع أحد الأقطار العربية الأساسية. نجحت الحكومات الإيرانية، إلى حد كبير، في توظيف العلاقة مع سوريا، خلال العقود الأخيرة، لصالح أهداف حكام إيران القومية، ولصالح برامجها المختلفة في المنطقة العربية.

لعبت سوريا دور المحامي والمدافع عن إيران وعن السياسات الإيرانية في المنطقة العربية، ونصب المسؤولون السوريون أنفسهم في المحافل واللقاءات العربية الرسمية كمحامي دفاع عن إيران وعن النظام الإيراني أمام الانتقادات العربية لهذه الدول في أكثر من قضية ومشكلة كانت إيران طرف أساسي بها. ثقل الجمهورية العربية السورية في المحيط العربي حمى إيران من النقد، وبدد الجهد العربي في الوصول إلى اتفاق و سياسة عربية موحدة بشأن بعض القضايا التي تتمادى إيران في الإقدام عليها، مثل الشأن اللبناني، والموقف الإيراني من منظمة التحرير الفلسطينية، والحرب على العراق، والعبث في وحدة الشعب والأراض العراقية، وسياسة التخريب الإيرانية المنظمة في الجزائر، والبحرين، واليمن، والسودان، واحتلال الجزر الإماراتية في الخليج العربي وقضية إقليم الأحواز العربي المحتل.

نشرت صحيفة "لوموند" الفرنسية في عددها الصادر في 28. 6. 2007 التفاصيل الدقيقة للقاء الذي جمع الأمين العام للأمم المتحدة بان كي مون والرئيس السوري بشار

الأسد في 24 نيسان (أبريل) 2007 . في هذه المباحثات أبرز بان كي مون الدور المهم الذي على سوريا أن تضطلع به لإزالة الانقسامات اللبنانية وعلى دمشق ايضاً تشجيع إنشاء المحكمة الخاصة لمحاكمة قتلة رئيس الوزراء اللبناني الراحل رفيق الحريري. أجاب الأسد على الأمين العام: "في لبنان، الانقسامات والطائفية غائرة منذ أكثر من 300 عام. المجتمع اللبناني هش. لم يعرف الفترة الأكثر سلماً إلا حين كانت القوات السورية موجودة فيه. من العام 1976 حتى العام 2005، كان لبنان مستقراً، بينما يعاني اليوم عدم استقرار كبيراً". وأضاف أن "عدم الاستقرار الكبير سيتصاعد أكثر في حال أنشئت المحكمة، وخصوصاً إذا أنشئت المحكمة تحت الفصل السابع من ميثاق الأمم المتحدة. هذا، وبكل سهولة يمكن أن يؤدي إلى نزاع قد يتحول حرباً أهلية ويتسبب بانقسامات بين السنّة والشيعة من المتوسط إلى بحر قزوين (...) ، وهذا ستكون له انعكاسات خطيرة تتخطى (حدود) لبنان". وأثار بان كي مون في هذا اللقاء مخاوفه إزاء السياسة التي تتبعها إيران في ما يتعلق بملفها النووي. ورد الأسد "كشرقي، يجب أن تفهم. إن إيران قوة ويجب الاعتراف بها كقوة. لديها القدرة على تخريب كل الشرق الأوسط وأبعد من ذلك (...). لن يحصل أي تطور في هذا الملف طالما أن الغرب لن يعترف بحق إيران بأن تكون قوة نووية".[183] من المفارقات الملفتة للنظرالحماس الشديد الذي ابداه الرئيس الأسد في الدفاع عن برنامج إيران التسليحي النووي مقابل الفتور وانتقاد الحكومة السورية للبرامج التسليحية لبعض الدول العربية، كمصر ودول الخليج العربي، التي تشترك مع الشعب السوري بالرابطة القومية. هذه الإزدواجية في المواقف تحتاج بالتأكيد للتفسير ومعرفة الأسباب التي تكمن وراء هذا المواقف وهذه المفارقات.

في العقود التي سبقت العلاقات السورية ـ الإيرانية المتميزة كان البرنامج التعليمي في القطر العربي السوري، في كل المرحل التعليمية في المدارس السورية، يتناول موضوع الأقطار و الأراض العربية المحتلة. المنهاج التعليمي بسوريا كان يدرس القضايا العربية التي يدور حولها صراع مفتوح مع القوى الأجنبية والتي تحتل الأرض العربية. إلى جانب "القضية الفلسطينية" و"قضية لواء اسكندرونة" السوري و"القضية الإرترية" و"سبتة" و"مليلة" المغربيتين كان يتناول المنهاج التعليمي في المدارس السورية بإسهاب "القضية الأحوازية" (عربستان) المحتلة من قبل إيران. أسقطت القضية الأحوازية من المناهج التعليمية في القطر العربي السوري، وقدمت هذه القضية العربية وهذا القطر العربي المحتل، ثمن وفدية "للصداقة" السورية ـ الإيرانية. لم تعد تدرس في المدارس السورية قضية عرب الأحواز، ويتم تجيهل الأجيال السورية بقضية شعب عربي محتل من قبل إيران منذ عقود تجاوز تعداده الإثني عشر مليون مواطن عربي.

[183] صحيفة المستقبل اللبنانية في 29. 6. 2007 ، ووكالات الأنباء العربية والعالمية.

نشطت إيران عبر سفارتها في دمشق وأجهزتها الأمنية المتسترة خلف المؤسسات الدينية والإنسانية في زرع بذور الفتنة الطائفية في المجتمع السوري. النظام في سوريا غض الطرف، بل قدم تسهيلات لنشاط تلك المؤسسات الإيرانية المشبوهة داخل القرى والمدن السورية التي تدعو وتعمل على كسب وتجنيد المواطنين السوريين إلى تبني المذهب الشيعي الصفوي. ظلت هذه المؤسسات، على مدى العقدين الأخيرين هي المؤسسات الدينية الوحيدة التي تستطيع ممارسة نشاطها التبشيري في سوريا. في حين قمعت بشدة بقية الحركات الدينية والأحزاب السياسية العلمانية الأخرى. منعت الأحزاب والقوى الدينية السورية من العمل والنشاط بين صفوف الجماهير السورية بحجة محاربة التطرف الديني ومحاربة الفكر السلفي. لكن التحريض الطائفي الذي كانت تمارسه الفئات والرموز الدينية الموالية لإيران كانت تمارس نشاطها بكل حرية في سورية. "بقدوم دعاة يطوفون المدن والقرى، مثل الشيخ عبد الحميد المهاجر، الذي خصص له برنامج في تلفزيون دمشق كل يوم جمعة، وآية الله عبد الصاحب الواحدي الموسوي، والشيخ علي البدري الذي يعد من كبار الدعاة في العالم (قام بإنشاء مراكز للتدريس ومكتبات للمطالعة في كل من اليمن والمغرب والجزائر وتنزانيا وغينيا وسيراليون وهولندا وألمانيا ولندن والسويد والدانمارك) وزار مصر والسودان، ونشط في محافظات حلب وضواحيها، وحمص وضواحيها، والحسكة والقامشلي والرقة واللاذقية وضواحيها ودير الزور، وافتتح عشرات المكتبات حتى توفي عام 1998م، والداعية العراقي عبد الزهرة."[184] كل تلك الشخصيات التي ذكرها الكاتب محمد الحسناوي لا تملك الجنسية السورية، وجلها من القوى العراقية المرتبطة بالحكومة الإيرانية أوتمتلك الجنسية الإيرانية.

ساعد النظام في سوريا القوى الحليفة لإيران في لبنان من عناصر حركة أمل وحزب الله لاحتلال المواقع الأساسية في أجهزة الدولة اللبنانية العسكرية والأمنية. هذه العناصر أخذت تنسق مع الأجهزة الأمنية الإيرانية بشكل مستقل عن إرادة الحكومة السورية والحكومة اللبنانية على حد سواء. لقد ساهمت السياسة السورية في لبنان من خلال وجود أجهزتها الأمنية التي اعتمدت الإبعاد والمصالح الفئوية والطائفية بدل الأهداف والمصالح الوطنية والقومية في نسج العلاقات والتعامل مع الأزمات في لبنان، في تقوية نفوذ إيران في هذا القطر العربي علي حساب النفوذ السوري، الذي اصبح يتقلص شيئا فشيئاً بعد انسحاب الجيش العربي السوري من هناك. حاولت الحكومة السورية تعزيز نفوذها داخل صفوف حركة أمل وصفوف حزب الله عبر أعوام تواجدها داخل الساحة اللبنانية، لكن النفوذ والولاء لهاتين المنظمتين السياسيتين القائمتين على أسس طائفية، بقي الولاء عندهما بشكل ملحوظ وحاسم ليس لسوريا وللنظام السوري، وإنما بقي ولاء

[184] محمد الحسناوي في مقال تحت عنوان "ملاحظات حول النفوذ الإيراني في سوريا" نشر في صحيفة القدس العربي ، لندن في 14. 10. 2005.

هذه القوى للحكومة الإيرانية وأجهزتها الأمنية في لبنان وفي طهران بالدرجة الأولى، وكان الولاء للأجهزة الأمنية السورية في لبنان في الدرجة الثانية، ولم يكن الولاء يوماً للوطن السوري والحكومة السورية.

بالمقابل استفادت سوريا من العلاقة مع إيران بالحصول على مساعدات إيرانية بترولية وسياحية بقيمة المليار دولار سنوياً. وفتحت الأسواق التجارية السورية والإيرانية أمام بضائع الدولتين ووصل حجم التبادل التجاري بين الدولتين الثلاثة مليارات دولار. هذا كل ما جنته سوريا من هذه العلاقة "الإستراتيجية" مع إيران.

عندما تصاعدت الأزمة بين الحكومة السورية والحكومة التركية في عام 1998، على خلفية اتهام تركيا لسوريا بدعم حزب العمال الكردستاني، الذي يخوض حرب عصابات ضد الجيش والدولة التركية، ووصل التهديد التركي إلى إعلان الحرب على سوريا واحتلال دمشق وتدمير سوريا، حسب ما هدد به الرئيس التركي آنذاك، سليمان ديميريل، وقفت الدولة الحليفة الإستراتيجية لسوريا موقف المحايد في هذا الصراع. رئيس الجمهورية ووزير الخارجية الإيرانيين يصرحان بأن إيران ستدعم سوريا لكن إيران لن تدخل كطرف إذا ما تطور الصراع إلى نزاع مسلح. عند أول أزمة حقيقية تواجهها سوريا تخلت إيران عن سوريا "الحليف الإستراتيجي" وتصرفت الحكومة الإيرانية حسب المصلحة القومية الفارسية وليس حسب المصلحة الطائفية الشيعية التي تعمل على الدوام لتسخيرها لخدمة المصلحة القومية الفارسية.

تصاعدت التهديدات الأمريكية ضد سوريا ووصلت إلى ذروتها في شهر مارس من عام 2005 بعد حادث اغتيال رئيس الوزراء اللبناني السابق رفيق الحريري، وكان الموقف السوري في تلك الأوقات محرج ويبعث على القلق. دأبت الحكومة السورية إلى تجميع أوراق قوتها والبحث عن الأصدقاء المحتملين في هذه الأزمة الإقليمية والعالمية. توجه رئيس الوزراء السوري برفقة وفد كبير إلى إيران لطلب النجدة والمعونة من الحلفاء في طهران. "فالصديق عند الضيق" كما يقول المثل العربي. صرح عطري في دمشق لوكالات الأنباء "أن سوريا وإيران ستشكلا حلفاً استراتيجياً صلداً في وجه التهديدات الخارجية". وجاء الرد سريعاً من قبل وزير الخارجية الإيراني "كمال خرازي"، الذي كان يقوم في تلك الفترة بزيارة رسمية لتركيا، عندما قال: "أن إيران لا تشكل حلفاً مع أحد ضد أي طرف ثالث". وتبعة في نفس اليوم تصريح رسمي من رئيس الجمهورية الإيرانية "محمد خاتمي" ينفي "أي اتفاق وأي نية لإيران في الدخول في أحلاف مع أي من الدول". أضاف مردفاً وبالنيابة عن رئيس الوزراء السوري، "ربما فهم الصحفيون كلام رئيس الوزراء عطري فهماً خاطئاً عندما تحدث للصحفيين في دمشق". اضطر عطري في اليوم التالي أن يخفف من حدة لهجته وتصريحاته التي أطلقها في دمشق واقلع عن اعتبار إيران حليف لسوريا بالسراء والضراء عندما اكتشف أن الحكومة

الإيرانية مرة أخرى تصرفت حسب المصلحة القومية الفارسية فقط، والتي لا تجد في الحفاظ على أمن وسلامة الدولة السورية عنصراً من عناصر المصلحة القومية الفارسية. على الأرجح أن رئيس الوزراء السوري اكتشف متأخراً أن إيران حليفة لسوريا فقط بالسراء.

هناك مراجعة جدية عند القيادة السورية لطبيعة العلاقة مع إيران. من المرجح أن أطرافاً مؤثرة في القيادة السياسية السورية الحكومية والحزبية والعسكرية قد توصلت، بعد هذه التجربة الطويلة مع القيادة الإيرانية، بطرفيها المحافظ والإصلاحي، إلى إن المحصلة النهائية لتلك العلاقة خدمت من الناحية الإستراتيجية الطرف الإيراني فقط . وان هذه العلاقة، على الرغم من أنها كانت تعني من طرف القيادة السورية علاقة استراتيجية، كانت دائما عند الطرف الإيراني تعني له مجرد علاقة تكتيكية فحسب، تتوقف عند كل منعطف حاد وخطر تواجهه الجمهورية العربية السورية.

عدد من التساؤلات تطرحها القيادات الحكومية والحزبية والعسكرية السورية، بعد أن انكشف الدور الكبير الذي لعبته الحكومة الإيرانية في احتلال العراق. فالإيرانيون يعرفون معرفة جيدة النوايا الحقيقية للولايات المتحدة الأمريكية وبريطانيا وإسرائيل من احتلال العراق. ومطلعون تمام الإطلاع على الأهداف الأمريكية المعلنة، والتي نشرتها ووزعتها وكالات الأنباء العالمية منذ عام 1996 ، والتي تنص على "أن الولايات المتحدة الأمريكية ستقدم، بعد إتمام احتلالها للعراق، على الانتقال إلى الخطوة التالية في احتلال سوريا ومن ثم السعودية ومن ثم مصر التي ستسقط كهدية، حسب تعبيرهم، دون حرب في قبضة الولايات المتحدة الأمريكية."

هذه المخططات التي نشرت لأول مرة في صحيفة النيويورك تايمز في عام 1996 والتي عرفت في حينه "بوثيقة وولفوفيتز"، الذي اصبح نائب لوزير الدفاع في إدارة بوش الابن، وتكرر نشرها في اكثر من مكان وزمان. الإيرانيون يعرفون جيداً أن إدارة بوش جادة في تحقيق مشروعها الكوني، وجادة في إتمام حلقات مشروعها الكبير في احتلال دول المنطقة الواحدة تلوى الأخرى. لكن لماذا أقدمت القيادات الإيرانية، على الرغم معرفتها الأكيدة بكل هذه الأخطار والأهداف الأمريكية والإسرائيلية والبريطانية المعلنة بخصوص المنطقة، والتي باتت معروفة لكل الأطراف والقوى في المنطقة وخارج المنطقة. لماذا أقدم الإيرانيون على تسهيل مهمة هذه القوى في احتلال العراق، وبل المشاركة في الاحتلال والمساهمة في إشاعة الدمار والخراب في المنطقة؟

بعض القيادات السياسية الحكومية السورية والقيادات الحزبية في حزب البعث العربي الاشتراكي الحاكم وملايين المواطنين في سوريا توصلوا إلى استنتاج هام وخطير في نفس الوقت ويتداوله الناس في أحاديثهم العامة والخاصة مفاده:

"بأن الإيرانيين عندما وافقوا على احتلال العراق أعطوا في نفس الوقت، من ناحية المبدأ، موافقتهم الصريحة على احتلال وتدمير سوريا أيضاً."

السؤال الذي يكرره السوريون على انفسهم كيف يوافق الإيرانيون على احتلال سوريا، على الرغم من العلاقة المميزة التي ربطت البلدين خلال الربع قرن الأخير؟" الجواب هو ايضاً في رسم القيادة السورية والشعب السوري والوطن العربي ايضاً.

المعارضة السورية لها رأي صريح في لزوم إعادة النظر في شكل ومضمون العلاقات السورية ـ الإيرانية، وتعتبر استمرار هذه العلاقة غير مجدية ومضرة بالمصالح السورية والعربية. في بيان صدر في دمشق وتناقلته وكالات الأنباء عن اللجنة المؤقتة السورية "لإعلان دمشق" الذي يضم عدد كبير من الأحزاب والشخصيات السياسية السورية المعارضة جاء فيه: "لا مصلحة لسورية في التحالف السوري–الإيراني الجديد، الذي يصب في مصلحة إيران وحدها إقليمياً ودولياً . ويعمل على عزل سورية عن عالمها العربي، ويضعها ورقة في مواجهة القوى الدولية."[185] ووصف البيان هذه السياسات بـ"المغامرة والتدميريه" في هذه المرحلة الدقيقة والظروف الصعبة معتبرا إلى أن الحلقة الإيرانية هي الأضعف دوليا.

المعارض السوري المعرف ميشيل كيلو يحذر بشدة من الارتماء في أحضان السياسة الإيرانية التي تعمل منذ زمن على عمل صفقة كبيرة مع الدول الغربية على حساب الدول العربية و دول الجوار الإيراني، معززة أوراقها التفاوضية مع الغرب بامتلاكها السلاح النووي. في مقال تحت عنوان "النظام السوري أمام منعطف خطير" كتب كيلو: "يعني هذا، باختصار شديد، أن السوريين سيتعاملون من الآن فصاعدا مع نظام سيختلف خطابه أكثر فأكثر عن خطاب النظام الذي عرفوه طيلة نيف وأربعين عاما، سيتبنى أنماط سلوك غير تلك التي خبروها خلال الحقبة السابقة، القومية، وأن سياساته لن تقوم بعد اليوم علي أولوية دور الصفقات الخارجية في إنتاج توازن النظام واستقراره الداخليين، بل ستعطي الأولوية للمواجهات مع الخارج، رغم أن هذه ستضعفه أكثر فأكثر وستحوله إلي ورقة في يد إيران، التي يديرها رجال دين دأبوا علي عقد صفقات علي حساب جيرانهم، وتزداد حاجتهم إلي أوراق إضافية تعزز قدرتهم علي عقد صفقة تاريخية مع الخارج، تقنعه بقبول دورها كقوة إقليمية عظمي ومسيطرة، يستند دورها الجديد إلي إسلامها التعبوي ـ الشعبوي وقنبلتها النووية! "[186]

صرح نائب رئيس الجمهورية السابق في سوريا "عبد الحليم خدام" في مقابلة تلفزيونية مع محطة "العربية" في 30. 12. 2005 مظهراً طبيعة وحقيقة ارتباطات المعارضة العراقية ودورها في زمن الاحتلال الأمريكي عندما قال: "إن أمر لم يكن أحد يتوقعه

---

185 موقع أخبار سوريا الحكومي، في 3. 2. 2006.
186 القدس العربي، لندن، في 9. 2. 2006.

وهو أن المعارضة العراقية والتي هى حليفة لسوريا وإيران شكلت الغطاء السياسي للحرب الأميركية على العراق."[187] وجبهة الخلاص المعارضة والتي عقدت مؤتمرها الأول في 10. 9. 2007 بمدينة برلين الألمانية طالبت بعدم ربط مصير سوريا بالسياسة الإيرانية المبنية على حساب المصالح العربية.

العلاقة السورية- الإيرانية هي أحد المواضيع الأساسية الجاري بحثها في الأوساط السياسية والثقافية السورية إلى جانب عدد من القضايا والمواضيع الحساسة والمصيرية التي ستحدد مستقبل القطر العربي السوري وتساهم في تحديد مستقبل الأمة العربية وهذه المنطقة المهمة من العالم. إن استمرار العلاقة السورية ـ الإيرانية أصبحت غير مجدية وتهدد مستقبل سوريا السياسي والاجتماعي ولابد من إعادة النظر في هذه العلاقة وإعادة رسمها على أسس سليمة ووضوح بدل الأسس المخادعة و التآمرية التي سعت على تطبيقها الأجهزة الأمنية في البلدين طوال العقود الأخيرة والتي بدأت تتكشف وتنهار الواحدة بعد الأخرى.

[187] محطة العربية الفضائية، 30.12. 2005 .

التدخل الإيراني في الشؤون المصرية

انسجاماً مع النهج العام التي تبنته القيادة السياسية الإيرانية الجديدة في الجمهورية الإسلامية في المبالغة والمغالاة في معاداة إسرائيل والغرب، والتي كشفت الأحداث والوقائع زيف تلك المواقف المغالية وعدم جديتها وصدقها، سعت قيادة الخميني على المزايدة على مصر وعلى مواقف الحكومات المصرية. لقد وجدت القيادة الخمينية الجديدة بإتفاقية "السلام" المصرية ـ الإسرائيلية في عام 1979 ضالتها وركزت الحكومة الإيرانية بكل أجهزتها الإعلامية للهجوم على مصر، وقيادتها، وسياستها بزعم أن هذه المعاهدة هي التي ثبتت وجود إسرائيل في المنطقة. ولم تصمت أجهزة الإعلام المصرية على الحملة الإعلامية الإيرانية على مصر. وشنت أجهزة إعلامها هجماتها ضد حكام إيران ، وكشفت عن أطماعهم، ونددت بمحاولاتهم الفاشلة للتدخل في شئون مصر الداخلية.

وعندما تولي الرئيس حسني مبارك رئاسة الجمهورية، اقترح البعض عليه أن يعيد العلاقات مع إيران، فكان رد الرئيس على هؤلاء: "إن إيران هي التي بدأتنا بالعداء، وعليها أن تتقدم إذا أرادت بمبادرة تنهي فيها عداء الماضي، وتفتح صفحة جديدة في العلاقات يحافظ فيها كل طرف علي مشاعر، وحقوق ، الطرف الآخر".

لقد سعت أطراف عدة لإعادة العلاقات المصرية الإيرانية بين البلدين المقطوعة منذ زمن. لكن الفرصة لم تحن إلا في عام 1998 على هامش عقد مؤتمر قمة المعلومات في مدينة جنيف السويسرية التي شارك في أعمال هذا المؤتمر الرئيس المصري حسني مبارك والرئيس الإيراني محمد خاتمي. واللقاء الثاني حصل في جنيف أيضاً في عام 2005 . خلال تلك الفترة أعيدت العلاقات الدبلوماسية وفتحت السفارات بين البلدين وعقدت بعض الصفقات التجارية التي ظلت تحت دون المستوى التجاري بين بلدين كبيرين في المنطقة. على الرغم من عودة العلاقات بين مصر وإيران لكن العلاقات بقيت فاترة ولا أحد من الطرفين يثق بالأخر.

الحكومة المصرية تأخذ على الحكومات الإيرانية:

- احتلالها للجزر العربية في الخليج العربي
- التدخل المباشر في شؤون مصر وشؤون الدول العربية الأخرى

- وتتهم إيران بالعمل على زعزعة الاستقرار في مصر وفي الدول العربية وتمارس التحريض الطائفي المنظم
- التحريض على إشاعة التعصب الديني ودعم الحركات السياسية المتطرفة في مصر والمنطقة العربية

وإيران تأخذ على مصر عدد من القضايا من أهمها:

- عقد اتفاقية كمب ديفيد والتصالح مع العدو الصهيوني
- دعم العراق في الحرب العراقية ـ الإيرانية
- المساهمة في بناء تكتل إسلامي مناهض لإيران
- التحالف مع "الشيطان الأكبر" أمريكا ضد مصالح الشعوب الإسلامية

سعت إيران منذ قرون على إبعاد مصر عن منطقة الخليج العربي. على اختلاف الحكام وأنظمة الحكم ظلت الفلسفة التي تحكم السياسة الإيرانية تجاه مصر على الدوام ثابتة منطلقة من أسس سياسية محددة. تتلخص الثوابت الإيرانية في:

- العمل على إبعاد مصر عن منطقة الخليج العربي والجزيرة العربية
- العمل على عزل مصر عن محيطها العربي من خلال خلق الحساسيات بين مصر ومحيطها العربي. إما عن طريق اختراع هذه الحساسيات والصراعات أو تعميق هذه الحساسيات والخلافات إن وجدت.
- إشغال مصر في صراعات ومعضلات داخلية من خلال دعم وتشجيع أي نوع من أنواع المعارضة في هذا البلد.

جوهر هذه الفلسفة يقول "عند اختصار دور مصر عند حدود الدولة المصرية الجغرافي ستمنح لإيران الفرص الكثيرة لابتزاز الدول العربية المجاورة والصغيرة نسبيا، وستعطى الفرص لإيران لتحقيق مجموعة من المكاسب السياسية والاقتصادية في هذه الدول. لكن ممارسة مصر لدورها التاريخي في التفاعل مع محيطها الثقافي ومحيطها الجغرافي الطبيعي، وعمقها الإستراتيجي العربي، سيدفع بإيران إلى حظيرة الانكماش والتقوقع على الذات والانعزال، وسيحد من دور إيران الإقليمي والدولي". منطقة الخليج العربي هي من اكثر المناطق تأثراً في حركة طرفي هذه المعادلة. الثقل المصري كان على الدوام من أهم عوامل التوازن في شبه الجزيرة العربية وبلاد الشام. ولقد وقعت منطقة الخليج العربي وأصبحت عرضة للغزو والهيمنة الأجنبية كل ما ابتعدت مصر بثقلها عن تلك المنطقة. وهذا ما تؤكده تجارب تاريخ المنطقة عبر القرون الطويلة.

الإيرانيون يقدرون الثقل الحقيقي لمصر في المنطقة. فمصر قوة إقليمية فاعلة حتى وان عملت بعض التطورات الدولية والمحلية على تحديد قدراتها وإمكانياتها الحقيقية، تبقى مصر هي المركز الذي تتكتل حوله المنطقة العربية، وتظل مصر هي الدولة العربية الرئيس. فإن التعابير التي دخلت وجدان المواطن العربي عبر مئات السنين من التجارب الجمعية واختزنتها الذاكرة العربية وتناقلتها الأجيال، جيل بعد جيل عن مصر وحب مصر، مثل (مصر ارض الكنانة)، و (مصر أم الدنيا)، وقول الرسول الكريم في أهل مصر (هم خير أجناد الأرض) وغيرها الكثير من الأوصاف التي تمجد دور مصر وشعب مصر في الذهنية والثقافة العربية الجمعية. التقدير والاعتراف بمكانة مصر وشعب مصر المميزة في الوجدان العربي بقي جزء من التراث الشعبي ترددده الأجيال في المدن والأرياف. والحقيقة التاريخية الأخرى التي اكتسبتها النخب العربية والجماهير العربية عن مصر الدولة والكيان السياسي تفيد بأن اقتراب مصر من أي دولة عربية سيكون ذلك كسب كبير لهذه الدول ويمنحها وزناً سياسيا واقتصادياً وعسكرياً مضاف صعب تجاهله، ولم يشكل اقتراب مصر من أي قطر من الأقطار العربية خطر عليه أو نقصان من سيادته وعزة شعبه. فتوثيق العلاقات بين مصر ودول الخليج العربي على وجه الخصوص، سيحرر هذه الدول، وبشكل تلقائي، من كثير من الضغوط والإبتزازات والتهديدات الإيرانية وغير الإيرانية .

إيران ليست معنية في فتح علاقات صحيحة ومتوازنة مع مصر. القيادات الإيرانية تخشى من إقامة علاقات طبيعية مع مصر ستضطرها إلى التخلي عن عدد من السياسات العدوانية تجاه دول الجوار العربية، والتخلي عن سياسة إثارة النزعات العرقية والمذهبية في المنطقة. تجربة عقود من الزمن مع النخبة الإيرانية تأكد عدم استعداد هذه النخبة للتخلي عن هذه الممارسات العدوانية الموجهة إلى شعوب المنطقة. تلك الممارسات التي تشكل الأدوات الأساسية بيد إيران لتحقيق الأهداف القومية الفارسية التوسعية على حساب دول الجوار العربي في الخليج، وتشكل العمود الفقري في الإستراتيجية الإيرانية الثابتة حيال المنطقة العربية. من غير المحتمل في الأفق الزمني المنظور بناء علاقة ودية بين مصر ودولة إيران. كل المحاولات في الماضي القريب تؤكد حقيقة النهج الإيراني وترسم ملامح العلاقات المصرية ـ الإيرانية في المستقبل.

كتب حسن نافعة أستاذ العلوم السياسية عن العلاقات المصرية ـ الإيرانية في مركز الأهرام للدراسات السياسية والإستراتيجية في 1. 1. 2000 يصف موقف الشاة من القيادات السياسية في مصر. "من الثابت أن شاه إيران أحب مصر على طريقته، فارتبط بأسرتها المالكة بعلاقة مصاهرة، بدت للبعض شاذة وغريبة، وارتبط بأسرة السادات بعلاقة صداقة حميمة، بدت للبعض أكثر غرابة وشذوذا، بينما حمل لعبد الناصر مشاعر

حقد وكراهية، بدت بدورها مفرطة ومبالغ فيها. وليس بوسعنا أن نعرف ما الذي كان يمكن أن تكون عليه العلاقات المصرية الإيرانية لو أن ثورة إيران الإسلامية كانت اندلعت و عبد الناصر ومازال على قيد الحياة. غير أن الأقدار شاءت أن لا يشهد عبد الناصر ثورة سأهم بطريقة مباشرة أو غير مباشرة في صنعها أو في تمهيد الطريق أمامها" ربما يختصر هذا الوصف المكثف السياسة الإيرانية تجاه مصر في زمن الشاه.

إذا ما عرف أن الشاه لم يصادق مصر كدولة وشعب وقيمة حضارية، بل صادق بإيعاز أمريكي أفراد ومسؤولين مصريين عملوا على أبعاد مصر عن مجالها الحيوي والطبيعي وتجاوبوا مع الإستراتيجية الأمريكية الداعية إلى عزل شعوب الأمة العربية عن بعضها البعض وترك كل دولة عربية تواجه الأخطار والتهديدات والصعاب منفردة لتتمكن إسرائيل والقوى الإمبريالية الغربية من الاستفراد بكل دولة عربية على حدى. فالسياسة الإقليمية والانعزال عن المحيط العربي وصلت في فترة حكم الرئيس السادات إلى اوجها وانتعشت في تلك الفترة الزمنية في كثير من أقطار الوطن العربي بين صفوف النخبة النزعة الإقليمية والفئوية. وذلك بتأثير بتشجيع ودعم من الرئيس السادات وطاقم حكمه. على أرضية هذه الحقائق التي ساهمت قيادة مصر بعد رحيل جمال عبد الناصر اقترب الشاه حاكم إيران من القيادة المصرية واقترب الشاه أيضاً من القيادة السعودية التي كانت تقود معسكر القوى الإقليمية والانعزالية والعشائرية في الساحة العربية في مواجهة التيار القومي العربي.

الملك فاروق والعائلة المالكة في مصر قبل ثورة يوليو عام 1952 لم تدعي الانتماء للأمة العربية، ولم تؤمن هذه العائلة الفاسدة في ترابط مصالحها مع مصالح مصر ومصالح الأمة العربية. رموز هذه العائلة كانت غارقة في عوالم الفساد والثراء الشخصي وتركوا مصر وشعب مصر مرتعاً للمستعمر الإنجليزي وأعوانه الفاسدين. أبناء مصر وقادة ثورة يوليو هم من أعاد الأشياء إلى طبيعتها ووضعوا الحصان أمام العربة. أتخذت مصر في زمن قصير قياسي موقعها الطبيعي في قيادة الأمة العربية، ونجح قادة مصر، ونجح عبد الناصر، زعيم ثورة يوليو، في تغيير وجه التاريخ. لا يوجد شيئاً فيه من الغرابة، بل كل الانسجام والمنطقية في تقارب الشاه من عائلة السادات، ومن عائلة الملك فاروق من جهة، والدرجة العالية من الحقد التي كان يكنها الشاه محمد رضا البهلوي للرئيس جمال عبد الناصر زملائه من قادة الثورة المصرية من جهة ثانية. عبد الناصر، صاحب المشروع المصري والعربي التحرري، والكفاحي، من اجل انسجام مصر مع محيطها العربي ومحيطها الإسلامي والإفريقي، التي حددها في كتابه "فلسفة الثورة" منذ أن اصبح قائداً لمصر وللأمة العربية وزعيم عالمي بكل جدارة، كان يعبره الشاه البهلوي واسيادة الإمبيرياليين عدوهم وعدو وشاريعهم الإستعمارية والتخريبية.

بالتأكيد، لو قدر لهذا الزعيم العربي والعالمي أن يعيش أحداث الثورة في إيران فلن يكون مواقف حكام إيران الجمهورية الإسلامية من عبد الناصر مختلفة كثيراً عن مواقف الشاه منه. ففلسفة الحكم في إيران تجاه مصر ومكانة مصر في محيطها الجغرافي والثقافي لم تتغير. وحكام إيران الدينيون لم يتخلوا عن الفكر القومي الإنعزالي الذي ورثوه كما ورثه الشهاه من قبلهم عن غلاة الفرس المتعصبين. لقد قدمت مصر لأطراف أساسية في المعارضة الإيرانية في أعوام الستينات الدعم والمساندة في سبيل تحرر الشعوب الإيرانية من حكم الشاه الرجعي الجائر. وساهمت مساعدات مصر هذه ة لاحقاً في صنع الثورة في إيران والنصر على الشاه المخلوع. لكن حكام إيران الجدد بعد سقوط الشاه وضعوا أحد أولوياتهم في السياسة الخارجية محاربة مصر وغبعاد مصر عن منطقة الخليج العربي.

فالعداء عند الإيرانيين والفرس لمصر وقادة مصر مرتبط أصلا بالعداء لفكرة الوطن العربي الواحد، والعداء لمشروع الوحدة العربية، ومشروع تحرير الأرض العربية من كل مستعمر. فالمشروع التحرري الناصري يصيب إيران ويضعها، عاجلاً أم آجلاً، أمام حقائق جديدة تملي عليها خيار التخلي عن الأرض العربية التي تحتلها أو خيار المواجهة مع مصر ومع الأمة العربية. حكام إيران لا تغيب عن بالهم هذه الحقائق وهم يستمرون في احتلال إقليم الأحواز والجزر الإماراتية. والقوميون الفرس، الحالمين بتحقيق مشاريع توسعية كسروية، لا يخفون نواياهم في العمل على احتلال العراق وبقية الخليج العربي. الحكومات الإيرانية تعي بوضوح حقيقة موقع ومكانة مصر الريادي والقائد في الجسم العربي، وأن إذلال العرب يكمن بعزل مصر عن محيطها الطبيعي. وهم أكثر معرفة أكثر من غيرهم بأن عزة مصر تشكل بصورة مباشرة عزة وسؤدد لكل العرب.

حاول حكام إيران أن يوهموا الجماهير العربية بأنهم يقودون محور "وطني مجاهد" و"معادي" لإسرائيل والولايات المتحدة الأمريكية. محور يتكون من إيران وسوريا ولبنان. اطلق عليه اسم "محور الممانعة". وأشاعوا وفبركوا محور وهمي آخر ومقابل تقوده مصر مكون من بقية الدول العربية، يصفونه بالمحور المهادن والمتخاذل والمفرط بالحقوق الوطنية الفلسطينية والإسلامية. لقد وقع الكثير من العرب في فخ الدعاية الإيرانية. وساهمت بعض المنظمات السياسية العربية وبعض الحكومات العربية بإعطاء نوعاً من المصداقية على هذا الطرح الإيراني المخادع والمخاتل. لا يعني، عدم مصداقية وزيف الادعاءات الإيرانية وأنصارها في المنطقة العربية، صحة النهج الذي سارت عليه القيادة السياسية المصرية في العقود الثلاثة الأخيرة، والنتائج الكارثية التي وصلت إليها مصر وبقية أقطار الوطن العربي جراء تلك السياسات وذاك النهج المهادن والمتقهقر أمام التهديدات والهجمات الغربية العنيفة على أقطار الأمة العربية. ذلك يأتي

في موقع ومكانة حق يراد به باطل. والقيادات الإيرانية والعقل الفارسي المهيمن على الثقافة السياسية الإيرانية يتقن فن اقتناص الفرص وفن ترويج الوهم وترويج الادعاء.

رغم محاولات القيادات الإيرانية إضفاء مسحة من النهج التصالحي مع مصر إلا أن الأحداث أثبتت بالواقع الملموس عكس هذه الادعاءات، وظلت السياسات الإيرانية جزء من المعضلات السياسية والاجتماعية التي تواجهها مصر في الداخل وفي الجوار العربي، وفي علاقاتها الدولية على مدى العقود والسنين المنصرمة.

لم تتوانى إيران في الاشتراك في خلق التوترات بين مصر والدول العربية. فالأزمة التي نشبت بين السودان ومصر، بعد محاولة اغتيال الرئيس مبارك الفاشلة في العاصمة الأثيوبية "أديس أبابا" في عام 1995 على يد متطرفين مصريين، قدموا من السودان، كان النظام الإيراني ضالع في نسج فصولها. لم تكن الأيادي الإيرانية بريئة من هذا الفعل وتأثيره الخطير على الوضع السياسي والاجتماعي داخل المجتمع المصري لوحالف مخططهم الإجبرامي النجاح.

التحقيقات المصرية السودانية توصلت إلى خيوط تؤكد علاقة هذه المجموعة بطهران، وبالمؤسسات الأمنية الإيرانية، النشطة في الإشراف على زعزعة الاستقرار في الدول العربية. فمجموعات الجهاد التي قامت في هذا العمل والمقيمة على الأرض السودانية كانت تقيم علاقات جيدة مع ممثلي الحكومة الإيرانية في الخرطوم، وحصلت هذه المجموعات على المساعدات المالية من قبل الحكومة الإيرانية. "الأجهزة الأمنية المصرية تتشكك كثيراً من إيران وسياساتها المبنية على أساس أن إيران كانت تمول أو تساعد المنظمات الأصولية. وخاصة المصريين العائدين من حرب أفغانستان. وأسامة الباز مستشار الرئيس المصري صرح عام 1998م : يجب أن تتوقف إيران عن التدخل في شؤوننا. ودعمت إيران الإرهابيين المصريين ومجموعات إرهابية أخرى في شمال إفريقيا، ودعمت نظام الإنقاذ في السودان في الوقت الذي كان يعمل فيه هذا النظام على تهديد الأمن المصري، وبلغت ذروة التهديد بمحاولة اغتيال الرئيس مبارك في أديس أبابا عام 1995م في مؤتمر القمة الإفريقية".[188] وكان اسامة الباز قد اتهم بصراحة الحكومة الإيرانية والحكومة السودانية في الوقوف خلف محاولة اغتيال الرئيس المصري الفاشلة.[189]

جعلت الحكومات الإيرانية أراضيها مرتعاً لكل من يساهم في زعزعة الأمن في مصر. وقدمت الحكومات الإيرانية الدعم والمساعدة لتلك القوى الطائفية السنية في مصر ليس حباً بهذا التيار ودعماً لأطروحات هذا التيار الديني المتشدد ونما كرهاً لمصر وشعب مصر ومكانة مصر في المنطقة. وراهنت القيادات الإيرانية من خلال دعم هذه

---

[188] موقع الجزيرة عن ندوة الرأي والرأي الأخر في 3. 6. 2004.

[189] قارن الفضائية المصرية في برنامج "الإختراق" في 29. 6. 2007 .

الجماعات على تفجير المجتمع المصري من الداخل وخلق شروط وأجواء تساعد على نشوب حرب أهلية في هذا البلد العربي. "قال الأصولي الإسلامي هاني السباعي أن إيران سلمت مصر مصطفى حمزة زعيم الجماعة الإسلامية المحظورة والمحكوم عليه غيابيا بالإعدام ثلاث مرات. وكان حمزة قد تولى رئاسة مجلس شورى الجماعة الإسلامية منذ عام 1998 بعد استقالة زعيمها رفاعي أحمد طه اثر تفجر خلافات بين طه وباقي أعضاء مجلس الشورى بشأن المسئولية عن مذبحة الأقصر التي قتل فيها 58 سائحا وأربعة مصريين في أواخر عام 1997 . وكان حمزة قد اعتقل بعد اغتيال الرئيس أنور السادات عام 1981. وبعد إطلاق سراحه هرب من مصر وتنقل بين عدة دول في المنطقة. وحكمت محاكم عسكرية غيابيا على حمزة بالإعدام في ثلاث محاكمات خلال التسعينيات كانت أشهرها عام 1995 حيث اتهم بالتخطيط لمحاولة اغتيال الرئيس حسني مبارك في العاصمة الأثيوبية أديس أبابا."[190]

النشاط الإيراني داخل مصر متوجه بالدرجة الأولى لخلق بؤر التوتر، وخلق ونزاعات اجتماعية. لمح رئيس جامعة الأزهر في مؤتمر تقارب المذاهب المنعقد في الدوحة من 19 حتى 22. 1. 2007 في الدوحة عاصمة دولة قطر إلى هذا الفعل المدان. "رئيس جامعة الأزهر الدكتور أحمد الطيب، في اليوم الثاني من «مؤتمر الدوحة لحوار المذاهب الإسلامية، إلى توزيع كتب شيعية في مصر. وقال أن هذه الكتب تدعو لترك المذهب السني واتباع المذهب الشيعي، ولفت إلى أنها تأتي من خارج مصر وتسيء إلى السنة ومكتوبة بأقلام كبار علماء الشيعة ويتناول بعضها عدالة الصحابة."[191]

الجرأة الإيرانية والتصميم المتفاني على متابعة مسلسل العبث في الوضع الأمني المصري ينم عن فلسفة متجذرة وسائدة عند النخبة الحاكمة في طهران، تقضي بضرورة وحتمية إرباك مصر وإشغالها في أزمات سياسية واجتماعية بشكل دائم. وتنم في نفس الوقت عن اطمئنان المسؤولين الإيرانيين من محدودية الرد المصري على تلك التدخلات الإيرانية المستمرة في الشأن الداخلي المصري. لقد تأكد الإيرانيون منذ مطلع السبعينيات من القرن العشرين على عزوف القيادات المصرية عن مواجهة السياسات العدوانية الإيرانية ضد الدولة المصرية والمجتمع المصري ومصالح مصر في المنطقة، وتأكدت القيادات الإيرانية من انكفاء مصر واتباع سياسة التقوقع على الذات.

منذ أكثر من ثلاثين عاماً مضت لم يلحظ أن مصر تمتلك برنامجاً يحدد المصالح المصرية والعربية في الخليج العربي، يتم عبره في التصدي للتدخل الإيراني بالشؤون العربية بحزم. وإن وجد هذا البرنامج كان يطرح على استحياء ومتوار خلف أقنعة واهية وغير واضحة بدل التصدي للعدوانية الإيرانية المتفاقمة وقيادة دول المنطقة

---

[190] نقلا عن موقع "مركز الجنوب لحقوق الإنسان" على شبكة الإنتر نيت الدولية.
[191] صحيفة الحياة، لندن، في 22. 1. 2007 .

وقيادة الأمة في ردع هذه القوة المتغطرسة. لقد ساهمت مصر في صد العدوان الإيراني على العراق في الثمانينات مساهمة حقيقية، وكانت سبباً من أسباب فشل الهجمة الإيرانية على المشرق العربي التي كشف عنها الخميني في مناسبات عدة عن نيته اجتياح بغداد وعمان وصنعاء وغيرها من العواصم العربية.

لكن مصر، ولأسباب عدة، عادت وانكفأت عن القيام بدورها الاستراتيجي في منطقة الخليج العربي وفي باقي المناطق العربية. في حين استمر الفرس في متابعة أهدافهم ورصد كل الإمكانيات والأساليب المتوفرة لديهم من أجل تحقيق تلك الأهداف العدوانية في المنطقة العربية.

لم يدفع الفرس الثمن المناسب على تجاوزاتهم وتدخلهم في الشؤون العربية المتواصلة كاحتلالهم الأرض العربية في قليم الأحواز على الساحل الشرقي للخليج العربي واحتلالهم جزر الإمارات العربية. ولم يلتفت العرب كثيراً لخطورة الدور الإيراني في بلادهم من اثارة الحروب الأهلية والطائفية في الجزائر والعراق ولبنان واليمن، وكانت الردود العربية على الغطرسة الإيرانية تحت مستوى الحد الأدنى. حكام إيران تجاوزوا مرحلة التهديد بالخطر وبالحرب وانتقلوا منذ زمن لمرحلة احتلال الأرض وخوض الحرب على الأرض العربية في أكثر من قطر عربي. هذا الموقف المتسامح وسياسة اللامبالاة التي رافقت التجاوزات الإيرانية على الشعوب والدول العربية، شجع الحكومات الإيرانية على تجاوز كل الأعراف والقوانين في العلاقات الدولية.

لقد شجع الموقف العربي اللامبالي حكام إيران في إقدامهم على مغامرات الإساءة لمصر والعبث في أمنها الوطني. "أعلن النائب العام المصري عن مخطط إيراني للتجسس وعمليات اغتيال يخطط لها في مصر ودول خليجية أخرى وذلك تحت قيادة دبلوماسي إيراني في بعثة رعاية المصالح الإيرانية في القاهرة."[192] ورد "آصفي" المتحدث باسم الخارجية الإيرانية إن هذه الرواية كاذبة وملفقة. على الرغم من نفي المتحدث باسم الخارجية الإيرانية "حميد رضا آصفي" ما تناقلته وكالات الأنباء على لسان المدعي العام المصري "ماهر عبد الواحد" فإن الوقائع تؤكد ما قاله المدعي العام المصري بأن مصرياً متورطاً في التخطيط لاغتيال شخصية مصرية بمساعدة إيران وقد أحيل إلى محكمة أمن الدولة العليا فعلاً. وكذلك الوقائع والأحداث المتتالية تؤكد أن التدخل في الشؤون المصرية وخاصة الأمنية بقيت السمة العامة للسياسة الإيرانية طيلة العقود الأخيرة ولم تتوقف أبداً.

اختطف السفير المصري "إيهاب الشريف" في بغداد بعد اقل من شهر إلى تعيينه رئيس للبعثة المصرية في هذا البلد العربي الذي يقع تحت هيمنة قوات الاحتلال الأمريكي

---

[192] صحيفة العرب، لندن، 2. 2. 2005

والبريطاني وتحت توغل أجهزة المخابرات الإيرانية وعملائها في العراق. بعد خمسة أيام من اختطافه قتل السفير المصري على أيدي الخاطفين. وبعد أسبوع من هذه الحادثة اختطف رئيس البعثة الجزائرية ونائبه في العراق على يد مجهولين وتمت تصفيتهم بعد خمسة أيام من اختطافهم. حملت مسؤولية هذه الجرائم لجماعة أبو مصعب الزرقاوي ومجموعات القاعدة في بلاد الرافدين. وهذه التهمة لهذه الجماعة أصبحت جاهزة لكل عمل إجرامي كانت تقوم به قوات الاحتلال والأجهزة الأمنية الإيرانية والإسرائيلية على أرض العراق. لكن الزرقاوي والقاعدة في بلاد الرافدين نفت في بيان صدر لها على موقع في شبكة الإنتر نيت مسؤوليتها عن اختطاف واعدام الدبلماسيين العرب المصري والجزائريين واتهمت في هذا البيان قوات الاحتلال. وكان من المألوف أن هذه المجموعة كانت لا تتنصل من مسؤولية عمل قامت بفعله مهما كان فعل هذا العمل سيئ ومشين.

في بيانات وتسريبات صحفية ودبلوماسية صدرت عن مصر والجزائر تلمح هذه البيانات بصراحة إلى أيادي إيرانية خلف اختطاف وقتل الدبلماسيين العرب في محاولة من الحكومة الإيرانية لإبعاد الدول العربية عن العراق وللاستفراد في السلطة والنفوذ في هذا البلد العربي. وكذلك في رغبة من الحكومة الإيرانية بمحاصرة القوى القومية العربية التي تتصدى للمشروع الإيراني ـ الصهيوني في العراق الذي يستهدف الهوية العربية للقطر العراقي، وفي عدم إعطائها تلك القوى العروبية الفرص المناسبة في التواصل مع الوطن العربي والتواصل مع أطراف حركة التحرر الوطني العربي والقوى والأحزاب العربية، وكذلك مؤسسات الجامعة العربية. في 27. 1. 2007 نشرت صحيفة الأهرام المصرية الشبه رسمية خبر على صفحتها الأولى قالت فيه: " أن مصادر دبلوماسية ـ لم تعلن عن نفسها ـ أبلغت مندوبها في أديس أبابا أن المخابرات الإيرانية هي التي تقف خلف خطف وقتل السفير المصري السابق في بغداد، إيهاب الشريف، بهدف قطع الرجل المصرية عن العراق والحيلولة دون قيام القاهرة بدرها هناك." [193]

على ضوء الأحداث التي جرت في قطاع غزة الفلسطيني واستيلاء حركة حماس بقوة السلاح على مقار السلطة الفلسطينية في شهر حزيران عام 2007 بتشجيع ودعم الحكومة الإيرانية رغبة منها في إلغاء اتفاق مكة المكرمة للمصالحة بين الطرفين الفلسطينيين المتناحرين، قال وزير الخارجية المصري أحمد أبو الغيط في تصريحات أدلى بها خلال ندوة مع أعضاء أندية الروتاري في القاهرة ونشرتها صحيفة "المصري اليوم" وأذاعتها محطات التلفزة العربية إن "التحركات الإيرانية شجعت حماس على ما فعلته في غزة وهذا يمثل تهديداً للأمن القومي المصري لأن غزة على مرمى حجر من

[193] صحيفة الأهرام المصرية، القاهرة في 27. 1. 2007 .

مصر". وأضاف أبو الغيط أن "الانتشار الإيراني في العراق يمثل تهديداً للأمن القومي المصري والعربي وهذا يلزم القاهرة بوضع قيود على العلاقات مع طهران"[194]، المقطوعة منذ 1980.

إبعاد مصر عن العراق وشؤون العراق هو مطلب صهيوني ـ إيراني مزدوج منذ عدة عقود مضت، وهو الثابت في استراتيجية هذين الكيانين، وبند دائم على أجندة حكومات هاتين الدولتين، وقد تقاطع هذا الهدف مع أهداف بعض القوى الشعوبية داخل العراق وتلاقت مصالح هذه الأطراف في العداء المطلق لمصر وللوجود المصري في العراق ومنطقة الخليج العربي. وتعمل حكومة الكيان الصهيوني والحكومة الإيرانية على تحقيق إبعاد مصر وبقية الدول العربية الأساسية عن العراق بكل الطرق والوسائل.

يستطيع العرب، وتستطيع مصر من إعادة الأشياء إلى نصابها وإيقاف حكام طهران عند حدود إمكانياتهم الحقيقية من خلال إعادة النظر في السياسات المواقف السياسية غير المجدية في العلاقة مع إيران. إن طرح مشروع عربي ومشروع مصري، يكون فيه بند دعم ومساندة عرب الأحواز في كفاحة ضد المحتل الفارسي، ومساندة دولة الإمارات العربية لإستعادة جزرها المحتلة من المحتل الفارسي، ومساندة الشعب العراقي والمقاومة العراقية بطرد قوى الإحتلال الغربي والإيراني المزدوج، كفيل بدرء الخطر الإيراني ودفعه عن الأرض العربي إلى ماوراء جبال زغروس وجبال البختياري. وهذا المشروع كفيل بإيقاف الفتن الطائفية التي تحركها إيران في أكثر من قطر عربي. وسيكون هذا المشروع رافعة حقيقية لمصر وللأمة العربية في مسيرة التطور والإستقرار والتنمية.

إن الحكمة السياسية تملي عدم إدارة الظهر العربية، والمصرية بشكل أساسي، للقطر العراقي العربي، وترك الساحة السياسية في هذا البلد الجريح لمن هب ودب من الأعداء الطامعين. من الحكمة بمكان عدم ترك الساحة لإيران وأجهزتها الأمنية وعملائها يعيثون فساداً وخراباً في هذا القطر العربي. المسؤول والمثقف والمواطن العربي يقترف خطأ استراتيجيا إن ترك الساحة لمن يريد شراً في هذا البلد. ومصر وهي البلد القائد في الوطن العربي دون منازع، والتي تتمتع بإجماع شعبي عربي، وشبه إجماع رسمي عربي على مكانتها القيادية للأمة وللمنطقة مدعوة للقيام بدورها القومي في حماية وحدة أرض وشعب العراق وتأكيد هويته العربية. يجب أن لاتنتظر مصر أحداً، ومصر ليست بحاجة لموافقة أحدٍ للتدخل في شؤون قطر عربي منكوب مثل العراق، وللمساهمة في انقاذه من الأخطار التي تهدده. فالتدخل المصري في الشأن العراقي ومساعدة الشعب العراقي وقواه الحية لدحر المحتل، وإنهاء النفوذ الإيراني بهذا البلد العربي، واجب ومصلحة وطنية وقومية مصرية.

---

[194] فضائية العربية في 20. 6. 2007 وصحيفة المستقبل اللبنانية في 21. 6. 2007 .

القضية الفلسطينية والسياسة الإيرانية

منذ اليوم الأول لوصول القوى الدينية إلى سدة الحكم في إيران اتخذت هذه القوى موقفاً داعماً للقضية الفلسطينية وجهرت بمواقفها المتطرفة من الكيان الصهيوني. لقد أغلقت السفارة الإسرائيلية في طهران وافتتحت مكانها سفارة لفلسطين. ودعي ياسر عرفات رئيس منظمة التحرير الفلسطينية إلى إيران واستقبل استقبالاً رسمياً وجماهيرياً حافلاً. تتالت وتوالت المواقف السياسية الإيرانية الداعمة للشعب الفلسطيني ومنظمة التحرير الفلسطينية. واستبشر الشعب الفلسطيني والشعب العربي خيراً في هذا التطور الكبير الذي حدث في إيران بعد سقوط حكومة الشاه الحليف الإستراتيجي للكيان الصهيوني في المنطقة.

تفجرت الحرب العراقية ـ الإيرانية في عام 1980 وانقسمت الحكومات العربية والجماهير العربية بين مؤيد للموقف العراقي ومؤيد للموقف الإيراني والمحايد في هذه الحرب. مثل أغلبية الدول العربية وقفت منظمة التحرير الفلسطينية إلى جانب العراق في هذا الصراع على ضفاف شط العرب. هذا الموقف من منظمة التحرير الفلسطينية قابله موقف إيراني معادي لفصائل منظمة التحرير الفلسطينية ورئيسها ياسر عرفات، لكن إيران احتفظت بالخطاب السياسي الداعم للقضية الفلسطينية. تصاعد التوتر بين القيادة الفلسطينية والقيادة الإيرانية وكان يأخذ أبعادا خطيرة بعد كل زيارة كان يقوم بها مسؤول فلسطيني إلى بغداد وإبداء موقف صريح داعم للحكومة العراقية وداعم للجيش العراقي في حربه ضد إيران. انعكاسات هذه التوترات كان يلمسها الفلسطينيون بشكل مباشر في لبنان الغارق في أتون حرب أهلية واحتلال إسرائيلي لقسم من أراضيه.

عوقب الشعب الفلسطيني بطرق عدة على وقوف منظمة التحرير الفلسطينية إلى جانب العراق في أثناء الحرب العراقية الإيرانية. حاصرت ميليشيات حركة "أمل" الموالية إلى إيران المخيمات الفلسطينية في عام 1983 ـ 1985 وقصفتها بالصواريخ وسلاح المدرعات. لقد فهمت القيادة الفلسطينية أن حصار المخيمات كان الرسالة والعقاب الإيراني ـ السوري للمنظمة لوقوفها إلى جانب العراق في حرب الخليج بين العراق وإيران. العقوبة التالية التي وجهت لمنظمة التحرير الفلسطينية كان الإنشقاق في حركة فتح، كبرى المنظمات السياسية والعسكرية الفلسطينية. استغلت قيادات فلسطينية

مدعومة من سوريا حالة عدم الرضا عن أداء قيادة منظمة التحرير الفلسطينية، بعد الخروج من بيروت وتشتيت قوات منظمة التحرير الفلسطينية إلى المنافي البعيدة في تونس واليمن والسودان، وقامت بالتمرد على القيادة السياسية والعسكرية لحركة فتح الفلسطينية. ومن ثم أقدمت هذه العناصر القيادية في الحركة والموالية لسوريا وبدعم منها على الإنشقاق في منطقة البقاع اللبناني في بداية عام 1984 عن جسم حركة فتح. عرف هذا الإنشقاق، والذي تطور إلى صراع مسلح بين الأطراف الفلسطينية "بحركة الانتفاضة". وعرفت أيضاً بحركة "أبو موسى" و"أبو صالح" و"خالد العملة"، وهم القادة الأساسيين لحركة الإنشقاق تلك. كانت هناك عوامل عدة لحصول حاله الإنشقاق والصراع الفلسطيني ـ الفلسطيني تتعلق بالظروف الفلسطينية العامة والظروف المستجدة الجديدة التي خلقها الاجتياح الإسرائيلي للعاصمة اللبنانية بيروت في صيف عام 1982، وخروج قوات منظمة التحرير الفلسطينية من بيروت ولبنان إلى بلدان المنافي بعيدة عن الحدود الفلسطينية، وكذلك طبيعة أساليب قيادة منظمة التحرير الفلسطينية التي كانت تواجه كثير من الانتقادات الفلسطينية والعربية. لكن أحد العوامل المهمة التي ساهمت في الإنشقاق الفلسطيني وحصول صراع مسلح فلسطيني ـ فلسطيني واشتعال حرب أهلية فلسطينية له علاقة وصلة مباشرة بمواقف المحور السوري ـ الإيراني الذي تشكل على هامش اشتعال الحرب الإيرانية العراقية. لقد أصبح واضحاً أن الحكومة السورية ظلت الطرف العربي الوحيد، بعد انسحاب ليبيا من دعم الموقف الإيراني، الداعم للطرف الإيراني في تلك الحرب.

على ضوء التمايز في المواقف من الحرب عملت إيران على إضعاف منظمة التحرير الفلسطينية بكل الطرق المتاحة. منذ منتصف الثمانينات عملت إيران بالتعاون مع الحكومة السورية على إيجاد بدائل لقيادة منظمة التحرير الفلسطينية، بل عملت القوى المتنفذة في سوريا وإيران على خلق بدائل لمنظمة التحرير الفلسطينية من خلال تشكيل هياكل وكيانات سياسية ومؤسساتية بديلة لمؤسسات منظمة التحرير الفلسطينية. لقد تبنت سوريا دعم الفصائل الفلسطينية اليسارية مثل الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين، الجبهة الديمقراطية لتحرير فلسطين، الجبهة الشعبية (القيادة العامة) بالإضافة إلى تنظيم الصاعقة و"فتح الانتفاضة". وكانت إيران تبحث عن فلسطينييها. انسجاماً مع توجهاتها الدينية سعت السلطات الإيرانية إلى تبني العناصر والقوى الدينية في الساحة الفلسطينية. لقد وجدت إيران ضالتها في حركة "الجهاد الإسلامي" الفلسطينية.

في لبنان عملت حركة أمل وحزب الله على إنشاء حزب فلسطيني مرتبطا وملتصقاً بالسياسة الإيرانية. يعتبر من ثمرات العمل المشترك الإيراني اللبناني تشكيل حركة دينية فلسطينية مسلحة تحت اسم "حركة الجهاد الإسلامي". جل أعضاء هذا التنظيم المسلح كان من عناصر فلسطينية ذات توجهات دينية متذمرة من ممارسات قيادات

منظمة التحرير الفلسطينية، وغير منسجمة مع تيار "حركة الإخوان المسلمين" الفلسطيني. هذه الحركة التي انشق أغلب أفرادها عن "حركة الإخوان المسلمين" الفلسطينية تماهت إلى حد كبير مع مواقف حزب الله السياسية، واستعارت "حركة الجهاد" الفلسطينية من حزب الله اللبناني الموالي إلى إيران لون العلم الأصفر و شكل شعار المنظمة الجديدة. لون وشكل راية "حركة الجهاد" الفلسطينية الصفراء اللون اقتبست بوعي من راية الدولة الصفوية الصفراء. وهي تشابهها في اللون والشكل. من المؤكد أن من قام باستشارة القيادة الفلسطينية في حركة الجهاد في هذا الاختيار لم تكن غائبة عن فكره وذهنه تلك الرمزية التي تحتل مكانة الصدارة عند أتباع الحركة الصفوية السياسية والدينية المعاصرة، وهذا الاختيار ليس بريء كما يظن البعض.

القيادات الفلسطينية تعلم جيداً طبيعة العلاقات الإيرانية ـ الإسرائيلية. لقد تجاوزت القوى الفلسطينية المقيمة في دمشق حرج انكشاف العلاقات الإيرانية ـ الإسرائيلية، ونجحت القيادات الإيرانية في تسويق ماهية العلاقات مع العدو الصهيوني على أساس أنها سقطات وأخطاء أفراد ومسؤولين في دوائر السياسة الخارجية الإيرانية. واستطاع الحكام الإيرانيون الجدد تبرير العلاقات مع إسرائيل كنتيجة للظروف الصعبة الطارئة التي أملتها وصنعتها الحرب العراقية ـ الإيرانية في أعوام الثمانينات.

مع مرور الوقت ودخول قيادة حركة فتح في نفق المفاوضات مع الكيان الإسرائيلي والولايات المتحدة، وما تمخض عن هذه المفاوضات من اتفاقيات في "أوسلو" و"كامب ديفيد"، وشرم الشيخ، وغيرها في ما سمي "بعملية السلام"، والتي من خلالها قامت قيادة حركة فتح الفلسطينية بتنازلات كبيرة عن حقوق وطنية فلسطينية لصالح الكيان الصهيوني، دون الحصول على شيء يذكر من العدو الصهيوني مقابل لتلك التنازلات، زادت من شعبية القوى الفلسطينية الرافضة لتلك السياسات وتلك التنازلات. إن نشوء حركة حماس التي انطلقت في أجواء الانتفاضة الشعبية الفلسطينية في الأرض المحتلة في عام 1987 ، وتبني هذه الحركة الكفاح المسلح، وتبني شعارات منظمة التحرير الفلسطينية التي تنازلت عنها القيادة التاريخية الفلسطينية، المتمثلة بياسر عرفات وزملائه، في مسار "عملية السلام"، أكسب تلك المنظمة التعاطف الجماهيري داخل صفوف الشعب الفلسطيني وخارجه. لقد زاد حجم ونفوذ حركة حماس الفلسطينية. وتمتعت حركة حماس بالدعم العربي الرسمي والشعبي لأكثر من عقد من الزمان، وتعزز نفوذ هذه المنظمة داخل الشعب الفلسطيني وفي الدول العربية وكذلك توسع حضور هذه المنظمة على المسرح الدولي. لكن الضغوط الغربية على الدول العربية ظلت تتزايد كل يوم، وتفرض على الدول قطع مساعدتها لمنظمة حماس وفرض الحصار على الشعب الفلسطيني وقواه الحية. لقد وضعت حركة حماس وبقية فصائل

حركة التحرر الوطني الفلسطيني والعربي على قائمة القوى المتطرفة حسب القاموس والأوصاف الأمريكية والغربية والصهيونية.

وجدت حماس المحاصرة عربيا في إيران، التي تطرح شعارات مغالية ومتطرفة في موضوع القضية الفلسطينية، ضالتها ومخرجاً من مأزقها المادي. قامت علاقة متطورة بين حركة حماس وبين الحكومة الإيرانية على قاعدة:

تقارب الموقف السياسي من المفاوضات مع إسرائيل،

وعلى أرضية موقف العداء المشترك من قيادة منظمة التحرير الفلسطينية المتمثلة بشخص رئيسها "ياسر عرفات"،

وعلى أساس حاجة كل طرف إلى الآخر في مساعدته في الحصول على ورقة قوة يستثمرها في مجال من المجالات التفاوضية، وفي حقل المناورات السياسية بين الأطراف المختلفة في الساحة العربية.

لقد نسجت معادلة مصلحية بين حركة حماس والحكومة الإيرانية. هذه العلاقة مبررة سياسياً لكن نوايا أطرافها غير شريفة وتشكل خطراً على بقية الشعوب العربية. لكل من طرفي المعادلة في هذه العلاقة يمكنه تحقيق الهدف الأساسي من هذه العلاقة. تلك المعادلة التي تقول:

" إيران تحتاج لقوى فلسطينية تؤكد مصداقيتها في تبني القضية الفلسطينية، وتؤمن الغطاء السياسي والإعلامي المناسبين للاستمرار في اختراق المجتمع العربي، وتجميع الأنصار والمستفيدين، تحضيراً للمرحلة القادمة، وحركة حماس تحتاج لمصدر يوفر لها الدعم المادي والسياسي يساعدها على البقاء والاستمرار كلاعب سياسي أساسي في الساحة الفلسطينية."

بمساعدة الحكومة السورية نجحت إيران في كسب ود بعض المنظمات الفلسطينية المقيمة في دمشق. على رأس هذه القوى كانت الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين (القيادة العامة) و الجناح المنشق عن حركة فتح (فتح الانتفاضة). من خلال المساعدات المالية السخية التي تقدمها إيران لتلك المنظمات الفلسطينية، وعبر تحالفها المشترك مع حزب الله في لبنان، ومع استمرار الإعلام الإيراني في ترديد الخطاب السياسي المتطرف المألوف، تمكنت إيران من كسب هذه المنظمات إلى جانبها. وتمكنت إيران من فتح معها علاقات سياسية متقدمة. من المفيد التنويه هنا إلى دور أطراف سورية في تقريب هذه المنظمات الفلسطينية من الحكومة الإيرانية، وتبني بعض هذه الإطراف المواقف الإيرانية إلى درجة التماهي. الجبهة الشعبية (القيادة العامة) بقيادة أحمد جبريل، وحركة فتح الانتفاضة بقيادة أبو موسى وأبو صالح تنتميان من الناحية التاريخية إلى التيار القومي العربي. ولدى هذه القوى، منذ زمن طويل، حساسية كبيرة من السياسات

الإيرانية في المنطقة العربية. ولم يلحظ في برامج هذه القوى السياسية في العلاقات الدولية أي مؤشر إيجابي لفتح علاقات جدية من النظام الإيراني. لكن اضطرار هذه القوى من الإقامة على الأراضي السورية، وعزله هذه القوى عربياً بفعل نشاط حركة فتح ورئيس منظمة التحرير الفلسطينية "ياسر عرفات" السياسي على الساحة العربية، ترك هذه القوة ضعيفة وهشة أمام ضغوط مراكز صنع القرار في سوريا، وفي إجبار هذه القوى على التقارب السياسي مع مواقف الحكومة الإيرانية، تلبية منها لرغبات صناع القرار في سورية. الأجهزة الأمنية السورية، التي تبني علاقاتها مع الأطراف العربية والأطراف الدولية حسب المصالح الفئوية والطائفية بالدرجة الأولى، كانت متشجعة ومتحمسة في المساهمة في بناء المحور الإيراني ـ السوري ـ اللبناني وإضافة بعض الأطراف الفلسطينية إلى هذا المحور لإعطائه لمسة من الشرعية العربية، لما للقضية الفلسطينية من مكانة عالية في نفوس الجماهير العربية والإسلامية. وإمعانا في التمويه وخلط الأوراق وإبعاد شبهة البعد الطائفي والفئوي في تلك العلاقة بين أطراف هذا المحور تم الإصرار على جر القوى الإسلامية والقومية العربية المقيمة في سوريا إلى هذا المحور.

أقدمت الحكومة الإيرانية على خطوة أخرى في محاولة منها في الاستمرار في اختراق المجتمع الفلسطيني. تلك الخطوة التي تجلت في المباشرة في تأسيس أحزاب في الساحة الفلسطينية على أسس طائفية. انسجاماً مع الخط العام للسياسة الإيرانية في الدول العربية، في تكريس الطائفية وخلق حزازات مذهبية بين صفوف أبنائه قام نفر مرتبط بالأجهزة الحكومية الإيرانية في تأسيس حزب فلسطيني طائفي وهمي. " أعلن أمس الخميس عن تأسيس تنظيم شيعي جديد في فلسطين يحمل اسم المجلس الإسلامي الشيعي الأعلى في فلسطين . وقال بيان حمل اسم محمد غوانمة رئيس التنظيم الشيعي الجديد صدر في رام الله إننا وباسم الإسلام العظيم ومن قلب فلسطين نعلن عن تأسيس المجلس الإسلامي الشيعي الأعلى في فلسطين، امتدادا للإسلام العظيم .واعتبر التنظيم الجديد الجمهورية الإسلامية الإيرانية ركيزة المشروع الإسلامي العالمي علي طريق إقامة خلافة إسلامية راشدة وعاصمتها القدس الشريف. وأكد البيان علي أن مشروع التنظيم هو مشروع إسلامي دعوي ، مشددا علي أنها ستكون في إطار دولة فلسطين حكومة ورئاسة وشعبا. ويدا هذا الإعلان غريبا من نوعه في ضوء عدم وجود طائفة شيعية معروفة في الأراضي الفلسطينية، التي يسودها المسلمون السنة."[195]

لقد سلم المجتمع الفلسطيني من مرض الطائفية ولم تستطع إسرائيل اختراق صفوفه وبذر شرور النزاعات الدينية والمذهبية. لقد فشلت كل المحاولات الإسرائيلية في تجزئة الشعب العربي الفلسطيني على أسس دينية وطائفية والتي كان أخرها بث الفتنة بين

[195] صحيفة القدس العربي، لندن، العدد الصادر في 3. 3. 2006.

العرب المسلمين والعرب المسيحيين في مدينة الناصرة العربية في شمال فلسطين عام 2004 من خلال تأجيج الخلاف حول قطعة أرض تقع بين مسجد وكنيسة في وسط المدينة. لقد صمد الشعب الفلسطيني في وجه المؤامرات الإسرائيلية طيلة ستون عاماً وأفشل كل مخططات العدو وبقي موحدا عصي على الكسر. تأتي الخطوة الإيرانية في تشكيل حزب سياسي شيعي يفتقد للقاعدة الاجتماعية لعدم وجود مسلمين شيعة على أرض فلسطين مستغربه للوهلة الأولى، لكنها ستصبح مفهومة إذا ما وضعت في السياق العام للسياسة الإيرانية في المنطقة، الهادفة لنشر الفكر الطائفي وليس بقصد تعبئة الجماهير لرفع الظلم و إزالة الاحتلال أو حتى نشر المذهب الشيعي الإسلامي. هنا لابد من طرح التساؤل عن إقدام إيران على هذه الخطوة في هذا الوقت في فلسطين، أهي محاولة إيرانية لبناء قواعد وبؤر لبث الأحقاد والنزاعات الطائفية في كل بلدان الوطن العربي بهدف الاستفادة القصوى من النزاعات الطائفية الجارية على أرض العراق والمناكفات الطائفية التي عادت إلى المسرح السياسي في لبنان، أم هو مشروع إيراني - إسرائيلي مشترك تم الاتفاق عليه في الكواليس السرية بين الطرفين وبذلك تقدمت إيران بتنفيذ نصيبها من هذا الاتفاق في خلط الأوراق في الساحة الفلسطينية.

تفجرت في الفترة بين نهاية عام 2006 وبداية عام 2007 خلافات حادة بين حركة فتح وحركة حماس الفلسطينيتين. وصلت هذه الخلافات إلى درجة الاقتتال وحرب الشوارع بين عناصر الطرفين. وتدخلت وساطات فلسطينية وعربية لحل تلك الخلافات والتي كانت تدور حول المشاركة في السلطة الفلسطينية والضغوط الدولية لحمل حماس التي تقود الحكومة الفلسطينية على الاعتراف بالكيان الصهيوني والاعتراف بالاتفاقيات الموقعة مع حركة فتح ومنظمة التحرير الفلسطينية مع الكيان الصهيوني بعد اتفاق أوسلو. كشفت كثير من المصادر العربية، وخاصة المصرية والفلسطينية، على أن الأصابع والأيادي الإيرانية لها باع طويل في إفشال كل اتفاق توصل إليه الفلسطينيون لوقف الاقتتال في مابينهم وتشكيل سلطة وحدة وطنية. كان اتفاق مكة المكرمة بين حركة فتح وحركة حماس في 8. 2. 2007 بتوسط وضغوط سعودية هو الاتفاق الذي وضع حداً لتدهور الأوضاع داخل قطاع غزة والضفة الغربية، وحد من النفوذ الإيراني في الساحة الفلسطينية إلى حين.

تفاقمت الأحداث وتصاعدت الخلافات بين حركة فتح وحركة حماس. وقامت حركة حماس بالاستيلاء على مقاليد السلطة في قطاع غزة. وباتت في الساحة الفلسطينية سلطتان وهميتان منقوصتي السيادة، تتناحران على النفوذ والهيمنة. الإنقلاب العسكري الذي قامت به حركة حماس في قطاع غزة شكل بادرة خطيرة ومستهجنة في مسيرة النضال الوطني الفلسطيني الطويل، وذات أبعاد إقليمية ودولية. قال ياسر عبد ربه وزير الإعلام الفلسطيني السابق "تدعم إيران المجموعات غير الديموقراطية في فلسطين

ولبنان والعراق ونحمّل إيران مسؤولية تشجيع حركة حماس على تنفيذ انقلاب في غزة"[196].

يحاول النظام في طهران وعبر وسائل الإعلام التابعة له والتي تدور في فلكه، على إشاعة وتأكيد أن انتصار حماس في الانتخابات التشريعية الفلسطينية هو انتصار للسياسة الإيرانية، وتصوير حركة حماس أمام الرأي العام العربي والعالمي، وكأنها صنيعه من صنائع الحكومة الإيرانية. الربط الدائم والمستمر في وسائل الإعلام بين حماس وإيران وحزب الله اللبناني ظل هدفه بالدرجة الأولى تأكيد تابعية حركة حماس، كما هي الحال مع حزب الله، إلى إملاءات الحكومة الإيرانية. في حين أن الحقيقة تقول غير ذلك. الحقيقة تقول أن حركة حماس حركة وطنية فلسطينية نشأت من بين صفوف شعب يكافح المحتل منذ عشرات السنين وتتمتع بشعبية واحترام قطاعات واسعة من كل أطياف وطبقات الشعب العربي الفلسطيني، ذو توجهات دينية وطنية بهوية عربية لا خلاف حولها، وتربط مصير شعبها بمصير الأمة العربية. وتوجهات تحالفات هذه الحركة السياسية مع الأحزاب والقوى السياسية العربية في المعارضة والحكومات العربية على حد سواء هي الأساس. وحركة حماس تنشد الدعم والمناصرة من الجماهير العربية بالدرجة الأولى. في حين حزب الله، بتوجهاته الطائفية، رهن مصيره بمصير إيران، واختصر تعريف أهداف الحزب في مصالح طائفة ضيقة بعينها.

لا يوجد أي مجال للمقارنة بين حركة حماس الفلسطينية وحزب الله في لبنان. لا من حيث النشأة ولا من حيث الأهداف والأسس السياسية والإجتماعية، وكذلك الانتماء الطائفي في علاقاتهما بإيران. من غير المؤكد أن العلاقة بين حماس والحكومة الإيرانية قائمة على أسس مبدأية، بل يغلب عليها طابع المصلحة الآنية التي لن تستطيع الصمود أمام أي هزة سياسية ستعترض لها هذه العلاقات في المستقبل، وهي مرتبطة ارتباط وثيق بالتطورات السياسية في المنطقة العربية بشكل عام والعلاقات العربية ـ الإيرانية بشكل خاص.

إن إعلان الحكومة الأردنية في شهر نيسان (أبريل) عام 2006 عن القبض على شبكة تعلن ارتباطها بحركة حماس الفلسطينية تقوم في نقل وتخزين الأسلحة القادمة من إيران داخل الأراضي الأردنية، وإعلان قادة حركة حماس والسلطة الفلسطينية في نفس الوقت عن عدم علمهم بهذه الشبكة ونشاطاتها ومحاولة تأكيد مصداقيتهم بكل الوسائل والطرق بشكل قاطع تؤشر بإصبع الاتهام إلى إيران ودورها عبر اختراقها لمنظمة حماس وشراء وتجنيد بعض أعضائها واستعمالهم في تنفيذ بعض الأعمال الحساسة في الأقطار العربي باسم حماس وغيرها من المنظمات الفلسطينية. والسلطات الإيرانية تعمل عبر هذه الأساليب في محاولة منها لتوتير العلاقات بين حماس والمملكة الأردنية وبين حركة

[196] صحيفة المستقبل اللبنانية، بيروت في 21. 6. 2007 .

حماس وبقية الدول العربية، حتى تضطر هذه الحركة السياسية الفلسطينية الجماهيرية إلى الارتماء في أحضان إيران والارتهان في المستقبل إلى إرادة الحكومات الإيرانية.

في الحرب العدوانية التي شنها الكيان الصهيوني على قطاع غزة في 27. 12. 2008 لمدة 22 يوماً متتالية انقسم الشارع العربي وانقسمت القوى السياسية العربية حول تقييم هذه الحرب الظالمة. وسبب الإنقسام يعود في الدرجة الأولى حول الموقف الإيراني من هذه الحرب واتهام أطراف عربية مؤثرة وفاعلة إيران في دفع حركة حماس إلى مواقف المواجهة المفتوحة مع الكيان الصهيوني وتفويت فرص تمديد حالة التهدئة العسكرية التي كانت قائمة قبل بدء العدوان. وهذه الأطراف تتهم إيران باستغلال الأرض العربية والشعوب العربي والقضايا العربية المقدسة كالقضية الفلسطينية لصالح مشاريع إيرانية فارسية معادية في الأصل والأساس للعرب وللأمة العربية.

لم ينقسم الشارع العربي حول مشروعية المقاومة الفلسطينية العادلة والقائمة والمستمرة منذ أكثر من نصف قرن، ولا حول الوقوف إلى جانب الشعب العربي الفلسطيني في غزة في تصديه للعدوان الصهيوني، فهذه القضية محسومة في وجدان المواطن العربي وفي حقيقة مواقف القوى السياسية العربية على إختلاف مشاربها السياسية والإجتماعية والأيدلوجية، فهناك إجماع عربي على ضرورة دعم شعب فلسطين في مواجهة العدوان الصهيوني في كل مراح الصراع، لكن الإشكال حدث عندما أصرت بعض الأطراف العربية والفلسطينية على تحويل شكل الصراع مع العدو الصهيوني إلى التحريض على مصر بدوافع إيرانية واضحة المعالم واتهام مصر في مشاركة المعتدي الصهيوني في حصار قطاع غزة من خلال عدم فتح معبر رفح على الحدود المصرية الفلسطينية.

لقد تم التحضير لمشروع قلب المعادلة في الصراع في الشرق الأوسط في كواليس طهران، ومن هناك شنت حملات إعلامية ومسيرات ضد السفارة المصرية في طهران وبدون مقدمات قبل بدء العدوان الإسرائيلي على غزة بخمسة عشر يوماً. وتجاوب مع هذا المشروع قادة حزب الله في لبنان والأجهزة الإعلامية التابعة لهذا الحزب في الترويج لسلبية وبل خيانة الموقف المصري من القضية الفلسطينية بعدم فتح معبر رفح وعدم فك الحصار الذي تفرضة إسرائيل على قطاع غزة. لقد دخلت الحكومة السورية والحكومة القطرية على الخط وشاركت عبر أجهزتها الإعلامية بشكل فعال في التحريض على مصر وعلى المملكة العربية السعودية. إكتمل العقد ودخلت قيادة حركة حماس في دمشق في انتقاد مصر وإفشال كل المشاريع والجهود التي تبذلها القاهرة للملمة الساحة الفلسطينية وتشكيل حكومة وطنية فلسطينية وتنهي حالة التشرذم والنزاع المحتدم بين حماس وحركة فتح الفلسطينية.

أتهمت مصر دمشق وطهران في إفشال كل الخطوات والجهود العربية والمصرية الجادة التي تهدف لوقف الإنقسام الفلسطيني لغاية في نفس يعقوب. وجاءت الحرب

الإسرائيلية على غزة لتعزز القناعة عند أغلب الأطراف والحكومات العربية على أن هناك قوى إقليمية متمثلة بإيران ودمشق والدوحة تعمل على جر مصر إلى ساحة حرب مع الكيان الصهيوني ومع الولايات المتحدة الأمريكية ومع حلف الناتو بقصد تدمير مصر. فتدمير ذا القطر العربي الأساسي من خلال حرب مفتوحة مع دول حلف شمال الأطلسي كما دمر العراق من قبل هو الهدف الحقيقي حتى يفتح الطريق أمام المشروع التوسعي الفارسي للهيمنة على المنطقة العربية، وتتم بعد ذلك تقاسم النفوذ والسيطرة مع الكيان الصهيوني على هذه المنطقة الحيوية من العالم.

الحرب الصهيونية العدوانية على غزة تجاوزت مراميها وأبعادها حدود غزة بكثير، بل ربما كانت هذه الحرب الطعم في رأس الصنارة لجني صيد ثمين ليس أقله تدمير أكبر دولة عربية ظلت هي العائق الرئيسي في وجهة الغزات الخارجيين على مر القرون والعصور الطويلة. فقد تبين من تسارع الإحداث أن هناك درجة عالية من التناغم بين حكام إيران والكيان الصهيوني وإدارة بوش في آخر أيامها المتبقية عندما عقدت اتفاقية عسكرية بين إسرائيل والولايات المتحدة ومن ثم إنظمت قيادة حلف الناتو إلى هذه الإتفاقية التي تقضي وتنص على مراقبة ومحاصرة شواطئ البحر المتوسط الشرقية قبالة الساحل المصري تحت غطاء منع تهريب السلاح إلى قطاع غزة من قبل إيران.

إن محولات إتهام مصر من ناحية أخرى بالتواطؤ مع حماس والسماح بتهريب السلاح عبر الأنفاق كان الهدف منه تبرير إدخال قوات غربية تابعة لحلف شمال الأطلسي إلى داخل الأرض المصرية بحجة مراقبة الحدود المصرية لمنع تهريب السلاح لتكون هذه القوات رأس الحربة في جر مصر للحرب من خلال افتعال حجج ومبررات أمنية وعسكرية تتيح لها استفزاز مصر واستفزاز القوات المسلحة المصرية والكرامة الوطنية المصرية لجره مصر لصراع مسلح مفتوح غير متكافئ ومحسوب النتائج مع قوات حلف الناتو الغربية.

لقد لخصت الكاتبة والبرلمانية البحرينية سميرة رجب نتائج الحروب المفتعلة الأخيرة على الأرض العربية والتي كان لإيران في كل تلك الحروب دور بارز ورئيسي بافتعالها كالتالي: "اليوم، وبعد ما يزيد على ست سنوات من الحروب والمعارك المفتعلة، وما تحقق خلالها من نجاحات للمشروع الاستعماري على الأرض العربية، فإن الحصاد الأوّلي لنتائجها يكشف أن أساطيل "الناتو" تمكنت من فرض حصار محكم حول المنطقة، باتفاقيات ومعاهدات تم توقيعها على هامش كل معركة.

ففي الشرق، تم احتلال العراق وفرض السيطرة التامة على كل الحدود والمنافذ العربية، من الحدود التركية العراقية وحتى نهاية حدود خليج عُمان مع بحر العرب (الحرب على العراق، 2003). وفي أقصى الغرب، تم فرض السيطرة الدولية على جنوب لبنان وتدويل الحدود البرية والمنافذ البحرية اللبنانية، ورقابة مستمرة في مياهها الإقليمية

(الحرب على لبنان، 2006). وفي الغرب، تم فرض الرقابة والحراسة في المياه الدولية المواجهة لغزة ومصر، والمنافذ الشمالية للبحر الأحمر، مع الحق في قصف أي عمق عربي يُتهم بتهريب الأسلحة (الحرب على غزة، 2009). أما تدويل بحر العرب في جنوب شبه الجزيرة العربية والتحكم في المنفذ الجنوبي للبحر الأحمر، فقد كان من أهم نتائج أسطورة القرصنة الصومالية"[197] من الضروري والمفيد إعادة النظر بمفاهيم النصر والهزيمة حسب مقاييس النتائج الحقيقية لتلك الحروب وعلاقتها بالأمن القومي العربي ومستقبل هذه الأمة ومستقبل شعوبها بعيداً بهرجة الإحتفالات الإعلامية الحزبوية والسطحية.

هناك جدل حاد جاري على الساحة الفلسطينية بشكل عام وفي داخل حركة حماس الفلسطينية على وجه الخصوص يتمحور هذا الجدل والحوار الصاخن حول الدور الإيراني في القضية الفلسطينية وتأثيرات هذا الدور الخطيرة والحساسة. وهناك أيضاً عملية فرز جارية على هذا الصعيد داخل صفوف القوى الفلسطينية التي رأت في إيران كحليف يمكن الإستفادة من قدراتها المختلفة. تتجلى آثارهذه العملية في التباينات السياسية بين أقطاب حركة حماس. فالتجاذبات السياسية بين قيادة الخارج المتمثلة برأيس المكتب السياسي خالد مشعل وأبو مرزوق المرتبطة بشكل وثيق بطهران وبالمساعدات المادية الإيرانية للحركة وبين قيادة الداخل المتمثلة باسماعيل هنية ومحمود الزهار وغازي حمد التي ترى بضرورة مراعاة المصالح المصرية والأمن القومي المصري وعدم المبالغة في ممارسة الضغوط على القيادة المصرية والتجاوب مع القيادة الإيرانية الطامحة في تحجيم دور مصر في المنطقة العربية.

لقد مرت العلاقات الإيرانية ـ الفلسطينية بعدة مراحل رئيسية:

مرحلة الشاه التي اتسمت بالعدائية الشديدة للشعب الفلسطيني وللقضية الفلسطينية، وفي التحالف الفج والإستراتيجي مع الكيان الصهيوني.

مرحلة العامين الأوليين التي أعقبت انتصار الثورة الإيرانية، والتي اتسمت بالانسجام بين المواقف السياسية الإيرانية الداعمة للقضية الفلسطينية والمواقف العملية الداعمة لمنظمة التحرير الفلسطينية الممثل الشرعي للشعب الفلسطيني.

والمرحلة التالية كانت تتسم بالجفاء والعداء لمنظمة التحرير الفلسطينية وقيادتها، والعمل على خلق البدائل لتلك المنظمة وتلك القيادة، مع المحافظة على الخطاب السياسي والإعلامي والديني الداعم للقضية الفلسطينية، وللحقوق الوطنية الفلسطينية بشكل عام.

---

[197] سميرة رجب، مقال تحت عنوان : غزة في مسلسل أحداث المنطقة ما بعد العراق، موقع المقاومة الوطنية الأحوازية في11. 02. 2009 .

المرحلة الرابعة كانت كسب أطراف فلسطينية مؤثرة في الساحة الفلسطينية تجد لها مصلحة وضرورة سياسية وعملية في المحافظة على تلك العلاقات لتعزيز مواقعها داخل الساحة العربية والفلسطينية.

والمرحلة الجارية التي تخضع لتأثير التطورات المحلية والعالمية والتي تتسم بالحذر وعدم الثقة عند الأطراف الفلسطينية بحقيقة المواقف الإيرانية من القضايا العربية والإسلامية وعلى رأسها القضية الفلسطينية وحقوق الشعب الفلسطيني.

لم تنتهي صيرورة العلاقات الفلسطينية- الإيرانية وهي مرشحة للتغيير المتسارع. فهذه العلاقة مرتبطة بالعوامل الداخلية الإيرانية وطبيعة الصراعات السياسية داخل الدولة الإيرانية. وترتبط هذه العلاقة بطبيعة العلاقات العربية ـ العربية واستمرار حالة الإنقسام على الساحة الفلسطينية أو عدمها. وهي مرتبة ارتباط وثيق بمسار العلاقات الغربية الإيرانية ومستقبل المشروع النووي الإيراني.

التنافس العربي الإيراني في أفغانستان

تناول الدور الإيراني في أفغانستان يكتسب أهمية من خلال تداخل الأحداث السياسية والتاريخية والثقافية في هذا البلد مع واقع الحال في المنطقة العربية ونشاط إيران على اكثر من صعيد في التأثير على أحداث هذا البلد الإسلامي. لقد نشبت على ارض أفغانستان أحداث سياسية وحروب دامية تجاوزت الحدود الأفغانية بكثير، وأصبحت على ارض هذا البلد الإسلامي تدار معارك وتصفى حسابات لصالح أطراف إقليمية ودولية والشعب الأفغاني كان أول من يدفع تكاليف صراعات الآخرين. تداعيات الأزمة الأفغانية لازالت مستمرة واللاعبون على المسرح الأفغاني لازالوا كثر. إيران وأطراف عربية هم من أهم الأطراف الفاعلة هناك. لأهمية أحداث أفغانستان وانعكاسات الدور الإيراني في أفغانستان على العلاقات العربية ـ الإيرانية يتم تناول الدور الإيراني في أفغانستان.

تعيش في أفغانستان مجموعات اثنيه وتكتلات قبلية عدة. اكبر هذه المجموعات هي قبائل "البشتون" وثم "الطاجيك" و "العرب" و "الأزبك" و"الهزارة". الشعب الأفغاني شعب مسلم سني المذهب بأغلبيته الساحقة تصل إلى نسبة 90 % . الأفغان الشيعة الذين يشكلون نسبة 5% هم من الهزارة في ولاية "هيرات" في غرب أفغانستان القريبة من الحدود الإيرانية.

بعد دخول القوات السوفيتية في عام 1979 الأراضي الأفغانية واحتلال مدنه وقراه لفرض نظام سياسي موالي لموسكو في كابول دخل الشعب الأفغاني في حرب مريرة وطاحنة مع قوات الاحتلال السوفيتية دامت عشرة أعوام. خلال تلك الحرب المدمرة سقط مئات الآلاف من المواطنين الأفغان قتلى وجرحا وشرد الملايين إلى دول الجوار وخاصة إلى باكستان وإيران. دمرت البنية التحتية للبلد وتوقفت اغلب مظاهر الحياة الطبيعية وعم الفقر والجهل والمرض والجوع أوساط الشعب الأفغاني.

بمساعدة الولايات المتحدة الأمريكية والدول الإسلامية، وبالدرجة الأولى العربية منها، تم دحر القوات السوفييتية وإخراجهم عام 1989 من الأراض الأفغانية. لقد دفع الشعب الأفغاني ثمن الصراع السوفييتي ـ الأمريكي على مناطق النفوذ أثناء الحرب الباردة. كذلك القوى والدول التي تحمست لمشروع تحرير أفغانستان وشاركت في جزء من فصوله كانت هي ايضاً ضحية رخيصة في حسابات أطراف الصراع الرئيسية. من هذه

القوى الضحية هم بالتأكيد من أطلق عليهم تعبير "المجاهدين العرب الأفغان" . هؤلاء المقاتلون الذي وصل عددهم إلى ال 24 ألف مقاتل، قدموا من كل الأقطار العربية وبتمويل من دول الخليج العربي إلى أفغانستان بقصد الدفاع عن أرض الإسلام والوقوف إلى جانب الشعب الأفغاني المسلم الذي ابتلي بمصيبة احتلال أجنبي ظالم ومتغطرس. لقد خرجت مجموعات المتطوعون العرب من أفغانستان مطاردة وملاحقة في أوطانها ومتنكرة لمجهوداتها العسكرية كل الأطراف التي عملت على زجهم في تلك الحرب المريرة. بالإضافة إلى التشريد والخسائر البشرية التي منيت بها هذه المجموعات الجهادية العربية انقلب فعلها الجهادي هذا من عمل خير وبطولة وفداء يشكرون عليه ويمجدون في المحافل الدولية، إلى فعل شر وعبث وإرهاب يحاسبون عليه في قواميس ولغة حلفاء الأمس الغربيين والعرب.

دول الخليج العربي كانت من قائمة الأطراف الخاسرة في الحرب الأفغانية عندما أقحمت بفعل ضغوط أمريكية عالية على المشاركة في تمويل هذه الحرب دون أن تحصل على مقابل لهذا المجهود الحربي التمويلي. على أكثر التقديرات الواقعية وصلت مساهمة دول الخليج العربي في هذه الحرب إلى ال 22 مليار $ أمريكي.

تركت أفغانستان بعد انهيار الاتحاد السوفييتي وخروج السوفييت من هذا البلد، التي ساهمت الحرب الأفغانية في تسريع صيرورة الوصول إلى هذا الانهيار الإستراتيجي، ودون إعادة اعمار أفغانستان وتقديم المساعدات الإقتصادية والسياسية لشعب أفغانستان المنكوب. بل عمل على تأجيج الصراعات العرقية والمذهبية في هذا البلد، لتقضي الحرب الأهلية التي اشتعلا ودارت بين فصائلة المتناحرة على السلطة بعد التحريروخروج السوفييت، تلك الحرب التي وصلت اوجها في عام 1996 وطالت البقية الباقية من المناطق الأفغانية التي لم تصلها المعارك أثناء حرب التحرير.

بعد انتهاء الحرب الباردة وتفكك الاتحاد السوفييتي نشب صراع مكشوف على النفوذ في الدول الإسلامية في آسيا الوسطى والتي خرجت للتو من دائرة النفوذ السوفييتي. هذا الصراع على النفوذ في الجمهوريات الإسلامية في قلب القارة الأسيوية كان يدور بين ثلاثة قوى إقليمية إسلامية، وهي تركيا وإيران والمملكة العربية السعودية. فلكل من هذه الأطراف الثلاثة مبرراته ومرتكزاته في هذه الدول، بالإضافة لأهدافه السياسية والاقتصادية والثقافية.

المرتكزات التي كانت تتحرك تركيا على أساسها لكسب النفوذ والحلفاء والأصدقاء في تلك المناطق والجمهوريات الجديدة، هي العلاقة الإثنية والعرقية والثقافية بين شعوب هذه الجمهوريات والشعب التركي في جمهورية تركيا. على اعتبار أن أغلب شعوب الدول الإسلامية الجديدة في القوقاز ووسط آسيا تعود إلى أصول تركية وتتكلم بلغات تجمعها مع اللغة التركية أسرة لغوية واحدة.

وإيران عملت على زيادة نفوذها في هذه الجمهوريات الفتية من خلال البوابة الطائفية، على اعتبار أن جزء من مواطني هذه الجمهوريات الإسلامية تتبع المذهب الشيعي، وكذلك الاشتراك في المواطنة في الدولة الإيرانية، حيث أن قسم من مواطني الجمهورية الإسلامية الإيرانية لهم امتدادات عرقية داخل هذه الجمهوريات الإسلامية الناشئة كالأزبك والتركمان والأذربيجان. فإيران دولة متعددة الأعراق وذات اغلبية مذهبية شيعية. الحدود الإيرانية مع جمهورية أفغانستان طويلة وتصل إلى 400 كيلومتر، وهناك تداخل ثقافي وعرقي ومذهبي بين شعوب هاتين الدولتين الجارتين. تاريخ شعوب أفغانستان وإيران متداخل وفي أزمان كثيرة مشترك ايضاً. يكفي التذكير في هذا السياق بأن شعوب هذان البلدان عاشا لقرون طويلة معاً في كنف دولة الخلافة العربية الإسلامية دامت قرابة الخمسة قرون متواصلة. كذلك التذكير بأن العائلات الأفغانية حكمت بلاد فارس من 1722 حتى 1794 ، وعائلات فارسية حكمت بلاد الأفغان لأكثر من قرن من الزمان.

اللغة السائدة في أفغانستان هي "لغة الباشتو" وفي المرتبة الثانية تأتي " لغة الداري". وهناك عدد من اللغات المحلية منتشرة بين قبائل الشعب الأفغاني. لغة "الباشتون" الأكثر انتشاراً ويتم التحدث بها في أغلب المناطق الأفغانية ولغة الداري في وسط وشرق أفغانستان، ولغة "الطاجيك" المنتشرة في الشمال الشرقي من أفغانستان، واللغة "الأزبكية" في الشمال الأفغاني وتفهم اللغة العربية في أغلب المناطق الأفغانية وهي لغة النخبة الدينية والسياسية.

أما المملكة العربية السعودية راهنت على الرغبة الجامحة عند شعوب هذه الجمهوريات في إعادة تأهيل مراكز العبادة عندهم من بناء المساجد والمعاهد وفتح المكتبات الدينية، وفتح المجالات التعليمية أمام أبناء هذه الشعوب في التعليم في الدول الإسلامية، وإعادة إحياء التراث الديني التي عملت الحكومات الشيوعية المتعاقبة في موسكو على طمسها وتغييبها أثناء الحقبة السوفييتية التي امتدت إلى أكثر من ثمانين عاماً متواصلة ولازالت أغلب هذه الشعوب تدين بالدين الإسلامي السني المذهب .

أحد اوجه هذا الصراع بين تلك القوى الإقليمية الثلاثة كان يدور على أرض أفغانستان بعد خروج السوفييت منها.

دعمت تركيا على الساحة الأفغانية مجموعات الأزبك بقيادة عبد الرشيد دوستم ومدته بالسلاح والمال وكذلك نصبت تركيا نفسها كحامية للأزبك ومصالحهم.

والسعودية ودول الخليج العربي، بالإضافة إلى الباكستان، أخذت جانب الأغلبية الباشتونية صاحبة النفوذ التاريخي في أفغانستان. من الباشتون خرجت قيادات أفغانستان التاريخية، والقبائل الباشتونية ظلت هي المدافعة عن استقلال أفغانستان عبر العقود

والقرون الطويلة. ينتشر الباشتون في أغلب الأراضي الأفغانية وكذلك يمتد تواجدهم عبر الأراضي الباكستانية الغربية وهم يشكلون جزء أساسي من مكونات شعب الجمهورية الباكستانية. لكن هناك عامل آخر ساعد في ميول الدول العربية، وخاصة المملكة العربية السعودية إلى الجانب الباشتوني في المسرح السياسي الأفغاني، وهو الاندماج العرقي الكبير القائم بين القبائل الباشتونية والقبائل العربية، التي قدمت مع الفتح الإسلامي إلى أفغانستان. هذه القبائل العربية، والتي تشكل نسبة ال25 % من مجموع سكان أفغانستان، حسب التقديرات الرسمية لحكومة "حامد كرزاي" من عام 2005، يتكلم أبنائها اللغة الباشتونية إلى جانب اللغة العربية الركيكة بفعل البعد الجغرافي عن الوطن العربي.[198] وتعقد هذه العشائر والقبائل العربية منذ عدة قرون تحالفات قبلية مع قبائل الباشتون ودخلوا معهم في عمليات مصاهرة وتمازج كبيرة عبر السنين. هؤلاء العرب يطلقون على أنفسهم "مللة عرب"، التي تعني الشعب العربي أو المللة العربية.

تبنت إيران مواقف الشيعة في أفغانستان وخاصة في ولاية هيرات المحاذية للحدود الإيرانية، وكذلك مدت جسور للعمل المشترك على الساحة الأفغانية مع الطاجيك في المناطق الأفغانية المحاذية لجمهورية طاجيكستان. من ثم انتقل زعيم الحزب الإسلامي ورئيس الوزراء الأفغاني السابق "قلب الدين حكمتيار" إلى التحالف مع إيران بعد أن أزيح، بمساعدة السعودية وباكستان، عن السلطة في العام 1995، وبعد تشكيل حكومة الوحدة الوطنية وتنصيب الفقيه "برهان الدين رباني" كرئيس للبلاد و"شاه مسعود" القائد العسكري الطاجيكي المشهور في حرب التحرير ضد الاحتلال السوفييتي، في منصب وزيراً للدفاع. "قلب الدين حكمتيار" رئيس الوزراء السابق، بعد خروج السوفيت، اختار منفاه الطوعي في العاصمة الإيرانية طهران، لما لهذه المدينة وهذا المنفى من رمزية سياسية عند الأطراف الداخلية والأطراف الخارجية المتورطة في الصراع على الأرض الأفغانية. صرح مرشد الثورة الإيرانية حالياً ونائب 'الإمام آية الله الخميني سابقاً "علي خامنئي"، عقب خروج الروس من أفغانستان مهزومين، وموجهاً حديثه إلى حزب الوحدة الشيعي الموالي إلى إيران: "يا حزب الوحدة، يا شيعة أفغانستان، جهادكم يبدأ بعد خروج الروس."[199] كان الهم الأساسي للحكومة الإيرانية أن لا تقوم حكومة دينية سنية في كابول. هموم وجهود إيران كانت تنصب بالدرجة الأولى في سياستها في أفغانستان على أن تمنع إقامة دولة أفغانية بقيادة متفاهمة مع المملكة العربية السعودية ودول الخليج العربي. وزير الخارجية الإيرانية علي أكبر ولاياتي

[198] هذا ما أكدته دراسة ميدانية قام بها طاقم فضائية الجزيرة في شهر أيار عام 2005 .
[199] وكالات الأنباء العالمية.

صرح:"أننا لن نسمح أن تكون هناك دولة وهابية في أفغانستان"[200] أي سنية سعودية بالتعبير الشائع في إيران.

السعودية بدورها كانت من أكثر الدول المعنية بقطف ثمار الانتصار العسكري والسياسي على السوفييت وعملت مع باكستان على إشاعة الاستقرار في أفغانستان وساهمت في تشكيل حكومات وطنية وذات طابع إسلامي تمثل القوى الإسلامية التي شاركت في الحرب والتحرير من السوفييت.

تفجرت الحرب الأهلية بين الأطراف الأفغانية بفعل:

تناحر القوى الإقليمية المجاورة لأفغانستان ومنها إيران

تدخل القوى الدولية التي لا يروق لها استقرار هذا البلد الإسلامي المنهك وعلى راس هذه القوى الولايات المتحدة

كذلك تناقضات الفصائل الأفغانية السياسية والعسكرية المستندة على أسس عرقية وطائفية

استمرت الحرب الأهلية الأفغانية وتعمق المأزق الأفغاني بعد سقوط حكومة "قلب الدين حكمتيار" وتشكيل حكومة "رباني" التي لم تستطع حل الأزمة السياسية والاقتصادية في البلد.

بدعم سعودي وباكستاني ومباركة أمريكية تشكلت على الأراض الباكستانية حركة الطالبان (الطلبة) الأفغانية من أبناء المهاجرين الأفغان هناك ومن ثم انظم إليها قطاعات واسعة من الشباب الأفغاني وخاصة من أبناء قبائل الباشتون الذين يشكلون الأغلبية في الشعب الأفغاني.

اقتحمت قوات الطالبان عام 1996 العاصمة الأفغانية كابل وبعد عدة شهور خضعت اغلب المناطق الأفغانية لسيطرة قوات حكومة الطالبان. هذا التطور لم يرق لأطراف عدة في المنطقة ومنها حكام الجمهورية الإيرانية.

لم يتجاوب نظام الطالبان مع المطالب الأمريكية في التوقيع على مد خط أنابيب النفط من الجمهوريات الإسلامية في وسط آسيا وبحر قزوين إلى المحيط الهندي. بائت كل المحاولات والضغوط الأمريكية على حكومة الطالبان في كابول بالفشل. موقف حكومة الطالبان الرافض هذا كان مقبول ومتفق علية مع المملكة العربية السعودية ودول الخليج الساعية إلى تأخير منافسة بترول بحر قزوين ودول آسيا الوسطى في الأسواق العالمية إلى أطول فترة ممكنة. خاصة إذا ما عرف أن سعر برميل النفط في أعوام التسعينات

[200] نقلاً عن موقع "منبر التوحيد والجهاد" على شبكة الإنتر نيت العالمية.

هبط إلى أدنى مستوياته وسبب أزمات اقتصادية خانقة لمعظم الدول النفطية في العالم وعلى رأسها المملكة السعودية.

قررت الولايات المتحدة الأمريكية التخلص من حكومة الطالبان، وبدأت تضييق الخناق عليها بعدما سعت إلى دعمها في الوصول إلى السلطة في كابل. العداء من الطرف الأمريكي لحركة الطالبان استفز القوى الإسلامية المتحالفة مع الطالبان والمتواجدة على أرض أفغانستان، في المقدمة منها بقايا تنظيم القاعدة المتواجد على الأرض الأفغانية والمنتشر في أصقاع العالم.

القرار الأمريكي في التخلص من حكومة الطالبان الأفغانية كان ينتظر الفرصة المناسبة منذ عام 1998. هذه الرغبة الأمريكية التقت مع الرغبة الإيرانية في التخلص من حكومة الطالبان لكن الأسباب التي تدفع بالإيرانيين للعمل على التخلص من حكومة الطالبان تختلف عن الأسباب الأمريكية. الإيرانيون لهم اجندتهم الخاصة بهم من هدف إسقاط حكومة الطالبان في كابول أهمها:

إبعاد النفوذ السعودي والباكستاني عن الساحة الأفغانية

ضرب المد الثقافي العربي الذي تبنته حركة الطالبان في تعليم اللغة العربية في جميع نواحي التعليم في أفغانستان والذي يعني، إن استمر في هذا التسارع في انتشار تعلم اللغة العربية بين المواطنين الأفغان، ستكون اللغة العربية، بأقل من عقدين، هي اللغة العلمية السائدة في أفغانستان.

إبعاد حركة الطالبان السنية عن سدة الحكم بقي هدف ثابت على أجندة حكومة دينية طائفية في طهران.

جاءت الفرصة المناسبة بعد أحداث 11 أيلول (سبتمبر) 2001 في ضرب أبراج مركز التجارة العالمية في نيويورك. لم يتوانى الأمريكان في اغتنام الفرصة ولم يضيعوا الوقت وباشروا فوراً في الانتقال ً من التخطيط النظري لاجتياح أفغانستان وإسقاط حكومة الطالبان إلى التطبيق العملي في نقل الجنود والمعدات ومن ثم إعلان الحرب على هذا البلد الإسلامي. في هذه المهمة كانت الحكومة الإيرانية خير مساعد وأول حليف. ليس في أثناء وخلال أيام الحرب فحسب، بل في الفترة التي سبقت الحرب في عدة أعوام حسب اعترافات المسؤولين الإيرانيين والمسؤولين الأمريكان على حدٍ سواء.

صرح محسن رضائي الأمين العام لمجمع تشخيص مصلحة النظام في إيران خلال حديثه لبرنامج بلا حدود في فضائية الجزيرة القطرية في 25. 7. 2001 أثناء الحرب على هذا البلد الإسلامي، حين قال :" إن الخلاص من المستنقع الأفغاني يجب أن يمر عبر إيران، أي إزالة طالبان والتيار السياسي الموجود في أفغانستان، وإذا وصلت أميركا إلى طريق مسدود في أفغانستان لابد وأن تحصل على طريق للخلاص من هذا

الطريق المسدود، فإيران طريق جيد، وإيران يمكن بشتى الطرق أن تحل هذا المشكل، وتخلص المنطقة من الأزمة الحالية، وتنتهي هذه الأزمة." تصريحات رضائي هذه وتصريحات عدد من المسؤولين الإيرانيين، لا تدع أي مجال للشك والتأويل في دخول النظام الإيراني كشريك أساسي في الحرب على أفغانستان إلى جانب الإدارة الأمريكية، وتؤكد هذه التصريحات في نفس الوقت عمق العلاقة الأمريكية ـ الإيرانية من الناحية العملية، وينقض ويدحض فيض الإدعاءات عن العداء المزمن والتوترات السياسية بين إيران وأمريكا التي سبقت زمن إحتلال أفغانستان.

المسؤول الأمريكي نائب الناطق الرسمي باسم وزارة الخارجية الأميركية، فيلب ريكر نقلاً عن موقع وزارة الخارجية الأمريكية على شبكة الإنترنت يفصح عن هذه العلاقة بين الطرفين :"نعرف كلنا بالطبع تاريخ جهود التحالف في أفغانستان التي أدت إلى تحرير ذلك البلد من طالبان واجتثاث الخلايا الإرهابية، بما فيها بالطبع القاعدة، التي كانت تتخذ من أفغانستان قاعدة لها. وكانت تلك عملية تمكنا بها من التباحث مع إيران أيضاً حول قضايا تتعلق بأفغانستان".

ما صرح به وزير الاستخبارات الإيراني، "علي يونسي" في حديث أدلى به في المدرسة الفيضية الدينية في قم أثناء العدوان الأمريكي على أفغانستان من "أن هناك شكلاً من أشكال الدعم تقدمه إيران أو اتفقت إيران على تقديمه للولايات المتحدة." بالتناقض بين ما هو شائع في الإعلام وما هو جاري على الأرض، تؤكد الأحداث وما تكشف عن أسرارها، أحد السمات الأساسية التي تميز السياسة الإيرانية المزدوجة لحكم القوى الدينية في إيران.

عبرت الطائرات الأمريكية القادمة من بحر العرب والقواعد الأمريكية في الخليج العربي الأجواء الإيرانية إلى أفغانستان وبموافقة السلطات الإيرانية، على العكس مما كانت تدعيه وتفاخر به إيران قبل الحرب بعدم السماح لأي قوة بعبور الأراضي والأجواء الإيرانية في أي عمل عسكري ضد جمهورية أفغانستان. وبينت الوقائع والحقائق أن تلك الادعاءات الإيرانية ما كانت إلا شكل من أشكال الخداع والمناورة السياسية والعسكرية الموجهة إلى الشعب الأفغاني وشعوب العالم الإسلامي، وأن خططاً مشتركة بين الغزاة الغربيين والحكومة الإيرانية قد رسمت وتمت الموافقة على تفاصيلها من قبل الأطراف المشاركة في الحرب على أفغانستان. لقد شاركت إيران بشكل فعلي في غزو أفغانستان كما أصبح الآن معروفاً. سيتكرر هذا المخطط وهذا السيناريو مرة أخرى في شن الحرب على العراق.

نقلت جريدة الشرق الأوسط في 9. 2. 2002 م عن رئيس مجلس تشخيص مصلحة النظام الرئيس الإيراني السابق، علي أكبر هاشمي رفسنجاني قوله في يوم 8. 2. 2002 في خطبته بجامعة طهران : إنّ "القوات الإيرانية قاتلت طالبان، وساهمت في دحرها،

وأنّه لو لم تُساعد قوّاتهم في قتال طالبان لغرق الأمريكيون في المستنقع الأفغاني". وتابع قائلاً : "يجب على أمريكا أن تعلم أنّه لولا الجيش الإيراني الشعبيّ ما استطاعت أمريكا أنْ تُسْقط طالبان". هذا القول يتطابق مع التصريح الذي أدلى به نائب رئيس الجمهورية الإيرانية محمد علي الأبطحي في دولة الإمارات العربية المتحدة في 15. 1. 2004 بهذا الخصوص حيث قال " لولا مساعدتنا للولايات المتحدة الأمريكية في الحرب على العراق وأفغانستان لما استطاعت الجيوش الأمريكية دخول بغداد وكابول في هذه السهولة."[201]

كان المسؤولون الإيرانيون ينكرون في الماضي مشاركتهم في الحروب على الدول والشعوب الإسلامية ، لكن لكثرة هذه الادعاءات الباطلة يجاهر الحكام الإيرانيون في الآونة الأخيرة بعد الحرب على العراق في تورطهم في الحروب والدمار الذي أحدثته الحروب الأمريكية المتتالية على الدول والشعوب الإسلامية.

لقد تم ترويض الدول العربية الخليجية، وخاصة السعودية، بالتهديد والوعيد إذا لم تقف إلى جانب المشروع الأمريكي في غزو أفغانستان، وهذا ما تم لهم حيث توقفت الدول العربية عن دعم حكومة أفغانستان، وألغت الحكومة السعودية وحكومة الإمارات العربية المتحدة إعترافها الرسمي بحكومة طالبان في كابول، وأوقفت كل أوجه الدعم والمساندة لهذه الحركة.

كذلك كان الحال مع باكستان حيث أجبرت حكومة "برويز مشرف" على غلق حدودها مع أفغانستان ورفع اعترافها الرسمي بحكومة الطالبان، وأرغمت حكومة مشرف في إسلام أباد، وتحت طائلة التهديد العسكري بتدمير باكستان وإعادتها إلى العصور الحجرية إذا لم توافق هذه الحكومة على تنفيذ المطالب الأمريكية في الحرب على أفغانستان. "كشف الرئيس الباكستاني برويز مشرف عن أن الولايات المتحدة هددت بقصف بلاده بعد هجمات 11 أيلول (سبتمبر)2001 إذا لم تتعاون في الحرب التي تقودها واشنطن على ما يسمى الإرهاب، والتي بدأت ضد نظام طالبان في أفغانستان. وقال مشرف في مقابلة مع شبكة تلفزيون (سي بي إس) الأميركية ضمن برنامج"ستون دقيقة. "قال لي مدير المخابرات (نائب وزير الخارجية الأميركي ريتشارد أرميتاج) قال أن استعدوا للقصف، استعدوا للعودة إلى العصر الحجري."[202]

---

[201] صحيفة القدس العربي، لندن 16. 1. 2004 . نقلته ايضاً اغلب وكالات الأنباء العالمية لأهميته المطلقة كشهادة من مسؤول إيراني في قمه السلطة في المشاركة الفعلية الإيرانية في الحرب على العراق.

[202] فضائية الجزيرة القطرية في 22. 9. 2006 .

إشكالية علاقة التيارات السياسية العربية الأساسية بالحكومات الإيرانية الدينية

منذ اليوم الأول لصعود القوى الدينية في إيران إلى سدة الحكم في عام 1979 بإطروحات قادتها المعادية لإسرائيل والمناهضة للقوى الغربية الإمبريالية وجدت هذه القوى المناخ العربي المناسب والمتجاوب مع شعارات قادة الثورة الجدد. لقد طال هذا التجاوب أغلب القطاعات الجماهيرية العربية وأغلب القوى السياسية في مواقع المعارضة وأطراف من القوى العربية الحاكمة. سوء الواقع العربي السياسي والأمني والإقتصادي والإجتماعي دفع بقطاعات عربية كثيرة إلى الإعتقاد بأن النموذج الإيراني لتغير الحال في دول الوطن العربي هو النموذج المناسب والأقرب إلى طبيعة المجتمعات العربية من غيرها من النماذج العالمية. فالعامل الديني كان على أغلب الأحوال أحد أهم العوامل التي دفعت القوى العربية الغاضب والتواقة للتغير لدعم القوى الإيرانية الجديدة. بشكل عام وجد قادة الثورة الإيرانية في الساحة العربية المجال الأرحب لتصدير تجربتهم وتعميم نفوذهم في المنطقة العربية.

في الساحة العربية كانت الأسباب بشكلها التفصيلي تختلف من تيار سياسي عربي إلى آخر. فالكل تيار عربي حساباته الخاصة ولكل حزب أهدافه المرجو تحقيقها خلف سياسة التقارب من قادة الثورة الإيرانية والتعامل مع مشاريع وشعارات القوى الإيرانية الصاعدة إلى سدة السلطة والحكم في طهران. على الرغم أن التيار الديني العربية كان في صراع مستميت مع التيار القومي العربي والتيار اليساري الإشتراكي العربي كانت تلك التيارات الثلاثة متفقة على دعم القوى السياسية الدينية الجديدة في إيران.

علاقة القوى الدينية العربية بحكام إيران

تقاطرت وفود الأحزاب السياسية الدينية العربية للحج إلى طهران. فحركة الأخوان المسلمين أعلنت منذ اليوم الأول وقوفها إلى جانب القوى الدينية الإيرانية ولم يك العامل الطائفي يلعب دور سلبي في هذه العلاقة. وكذلك حزب التحرير الإسلامي بعث بالوفود لتهنئة الخميني بنجاح الثورة وعرف قادة هذا الحزب مشروع بناء دولة الخلافة الإسلامية المنشودة. لقد خيب الخميني آمال وفد حزب التحرير وآمال كثير ممن كانوا يعتقدون أن قادة الثورة الإسلامية الإيرانية عازمون على توحيد العالم الإسلامي. لقد سمع أطراف الحركة الدينية العربية من الخميني ومن قادة السلطة الدينية الجديدة في إيران كلام لا يتفق مع ما كانوا يتصورون، واكتشف الكثير منهم بشكل مبكر الخطوط العريضة في استراتيجية زعماء الدين في إيران القومية المتشددة إلى حد الغطرسة والعنجهية.

كان لحركة الإخوان المسلمين العرب فهمهم الخاص ومشروعهم الخاص من الوقوف إلى جانب القوى الدينية الإيرانية. فالأخوان في أقطار الوطن العربي يطمحون في الوصول إلى السلطة بالدرجة الأولى، ويرون أن العدو الأساسي، حسب فهمهم، القوى السياسية القومية التي تسيطر على مقاليد الحكم في أكثر متن قطر عربي من البعثيين والناصريين وحركة القوميين العرب. فهؤلاء يشكلون منذ بداية أعوام الخمسينات العدو اللدود لحركة الأخوان المسلمين. منذ تفجر الصراع بين حركة الأخوان المسلمين في مصر عام 1954 بعد حادثة إغتيال الرئيس جمال عبد الناصر في ساحة التحرير في مدينة الإسكندرية والصراع بين تيار حركة الإخوان المسلمين والتيار القومي العربي، وعلى وجه الخصوص قوى وأحزاب الحركة الناصرية والصراع إلى يومنا هذ على أشده. لقد وعمل قادة حركة الإخوان المسلمين مع كل القوى العربية والإجنبية التي عملت على تقويض القوى العروبية عن مقاليد السلطة والنفوذ في الوطن العربي. بلإضافة إلى الشراكة الحقيقية بين القوى السياسية العربية المحافظة في بعض الدول العربية (القوى الرجعية) البترولية عمل قادة حركة الإخوان المسلمين على التنسيق والتجاوب مع مشاريع القوى الإمبريالية الغربية في المنطقة العربية. تلك المشاريع التي كانت تصمم بشكل مباشر لخدمة الحركة الصهيونية العالمية والكيان الصهيوني ووقف وتدمير أي مقاومة عربية تقوم بها القوى القومية العربية الصاعدة في الخمسينات والستينات من القرن العشرين.

لأكثر من ثلاثة عقود متواصلة شرع وبرر قادة ومنظرو حركة الأخوان المسلمين التحالف غير المقدس مع قوى الإستعمار الغربي في أثناء الحرب الباردة التي كانت دائرة بين المعسكر الغربي والمعسكر الشرقي وامتداداتهما في دول العالم الثالث. لقد طرحت الفتاوى الدينية وجزمت بأن حكام الغرب من أهل الكتاب هم الأقرب للتحالف معهم ضد الشرق الشيوعي الكافر.

لقد سقط الإتحاد السوفييتي والمعسكر الإشتراكي بأغلبه، وانتهت الحرب الباردة وتشكل عالم جديد مختلف بشكل كبير عما كان سائد أثناء بدء العداوة مع التيار القومي العربي، لكن جوهر العقل السياسي والإديولوجي لحركة الإخوان المسلمين ظل ثابت لم يتغير. وظلت سمة هذا التيار في نسج تحالفاته السياسية قائمة على أساس دحر التيار القومي العربي واستلام السلطة في الدول التي يتواجد فيها هذا التيار. وظل الدافع في سياسة قيادات الأخوان المسلمين هو المصلحة الحزبية وليس المصلحة الوطنية أو مصلحة الأمة. فسمة الثأر والكيدية للتيار العروبي ظلت طوال هذه العقود مسيطرة وناظمة لتصرفات ومواقف أعمدة الحركة الدينية العربية التي تتزعمها قيادة حركة الإخوان المسلمين.

فالتحالف مع إيران ومع القوى الدينية الإيرانية يعود في الأساس إلى هذه الخلفية السياسية القائمة على أساس التحالف مع العدو الحزبي والفئوي المشترك وليس على أساس مصلحة الوطن والأمة.

قيادة وقواعد حرة الإخوان المسلمين ومن حولهم من أطياف القوى السياسية الدينية في الوطن العربي ترى وتسمع وتلمس مدى الضرر السياسي والإجتماعي الكبير الذي تحدثة سياسات الحكومات الإيرانية المتعاقبة منذ عقود في دول الوطن العربي وفي مجتمعات الدول العربية ذات الغلبية الإسلامية المطلقة، لكن الحركة الإسلامية في الوطن العربي مصرة على الإستمرار بالتحالف مع الحكومات الإيرانية.

العلاقات الغربية ـ الإيرانية

العلاقات الإيرانية ـ الغربية قديمة وذات أبعاد متشعبة. تستند هذه العلاقات على أسس ومبررات عرقية وأثنية وتاريخية وسياسية. البعد العرقي في العلاقة مع الغرب حاضر بشدة في الوجدان الفارسي. ويعتقد الفرس انهم ينتمون إلى مجموعة الشعوب التي أطلق عليها الهندو- أوروبية (الهندو ـ آرية). هذا التصنيف الذي للغات تمت صياغته بالدرجة الأولى على أساس التشابه اللغوي بين مجموعة من اللغات. أي إذا تواجد تشابه بين قواعد ومفردات بعض اللغات فالاحتمال أن تكون هذه اللغات ذات جذر واحدة أو جذور مشتركة. على هذا الأساس صنفت اللغات بعائلة اللغات السامية وعائلة اللغات الحامية وعائلة اللغات السلافية وعائلة اللغات الهندو- أوروبية وغيرها. لكن النخبة الفارسية مصرة على التفسير العرقي لهذه القربى والتأكيد على الشق الأوروبي لتلك القربى، وفي نفس الوقت إدارة الظهر للشق الهندي من التسمية وتغافل وجوده، في حين أن هذا الشق هو الأقرب جغرافياً وثقافياً لواقع حال اللغات الإيرانية فهي في جوهرها اقرب إلى اللغات الهندية منها إلى الأوروبية. ربما علم النفس للشعوب والجماعات البشرية يعطي جزء من تفسير لهذه الظاهرة، الذي يؤكد بأن الأفراد والجماعات البشرية المهزوزة تميل للاقتراب والتماثل مع الأقوياء وتتجنب الاقتراب من الضعفاء لتلبية رغبات مكبوتة عصيت على التحقيق.

قسم كبير في أوساط الشعب الفارسي لا يخفي طموحه في الانتماء للعالم الغربي، والعمل بجد من أجل التقارب مع الدول الغربية. وهذا الطموح وتلك الأمنيات لم يختصر انتشارها بين الساسة وصناع القرار، بل ايضاً واسعة الانتشار في الأوساط الشعبية وعبر كل التيارات السياسية هناك. اختيار اسم "إيران" بدل من "فارس" أتى بالدرجة الأولى من تلك الخلفية ورغبة في تأكيد الانتماء إلى العرق "الآري". فكلمة إيران هي مشتقة من كلمة "آريا" التي تعني شعوب أوروبا الوسطى مثل الشعب الألماني وغيرة من الشعوب الجرمانية. والشاه رضا، وكذلك ابنه محمد، كانا يطلقا على نفيسهما لقب "شاه أريا" أي الملك الآري. هذه الرغبة الجامحة في التنصل من الشرق والإصرار

على الانتماء للغرب تترجم إلى أفعال ومواقف سياسية يومية عند المسؤولين وصناع القرار في إيران على مدى سنين القرن الأخير.

بالمقابل فإن رجال الفكر والسياسة في الدول الغربية، على الرغم من عدم أخذها هذه الرغبات والقناعات والميول الإيرانية، من الناحية العلمية والواقعية، على محمل الجد، تستغل هذه الميول الإيرانية، لتوفير فرص مناسبة لتعزيز مواقعها في المناطق الإسلامية. من خلال التجاوب مع بعض هذه الميول والرغبات الإيرانية تخلق القوى والحكومات الغربية شروط أفضل لتحقيق مشاريعها السياسية، ولقد حققت نجاحات متكررة في محاولاتها اختراق الشرق المسلم. فالموقع الجغرافي لإيران الذي يتوسط العالم الإسلامي يكتسب أهمية خاصة. السيطرة على إيران أو كسب إيران إلى جانب أي من القوى الغربية التي تصارع أو تنافس العالم الإسلامي تعني توجيه ضربة قاسية لهذا العالم، وتعني دق إسفين في جسم العالم الإسلامي ذو أثار سلبية بأبعاد استراتيجية. فصل شرق العالم الإسلامي عن غربه، وقطع تواصل العالم الإسلامي بشرياً وثقافياً عبر كسب وتحييد إيران أمر وارد الاحتمال وقابل للتحقيق كلما اقتربت الحكومات الإيرانية من دول العالم الغربي. لقد شكلت هذه العلاقة، في كثير من الحقب التاريخية، نقطة الضعف في تماسك عالم الشرق الإسلامي وأصاب فيه مقتل.

المبرر الآخر الذي يساعد على التقارب الإيراني الغربي يكمن في البعد التاريخي. فالنخب الفارسية تحمل العرب والترك مسؤولية تحطيم الكيانات الفارسية عبر التاريخ، ويعتبرون الجوار الجغرافي الشمالي والغربي جوار بالضرورة السياسية معادٍ للفرس ولإيران.

والمبرر الثالث الذي يدفع بالعلاقة الغربية ـ الإيرانية من جانب الطرف الإيراني هو البعد المذهبي وما ترتب عنه من خلافات مع الشعوب المجاورة للفرس والشعوب الإيرانية. إيران هي الدولة الوحيدة في العالم التي يشكل فيها أتباع المذهب الشيعي الصفوي أغلبية مواطني الدولة، في حين بقي أغلبية مسلمي العالم وفي دول الجوار من إيران من المسلمين السنة. هذه الحقيقة المذهبية تخلق عند سكان إيران وأوساط النخبة فيها الشعور الدائم في الحصار والتوتر والريبة من شعوب ودول الجوار الجغرافي وتعزز الرغبة في البحث عن حلول تعيد الطمأنينة والاستقرار للنفوس.

لقد تكونت وشاعت بين الأوساط السياسية الفارسية والإيرانية نظرة سياسية ذات أبعاد استراتيجية تتفق حولها أغلب أوساط النخبة الإيرانية عبر التيارات السياسية والأيدلوجية الإيرانية منذ قرن مضى مفادها:

بأن إيران دولة إسلامية شيعية في وسط أغلبية مطلقة اسلامية سنية،

والشعب الفارسي شعب آري يعيش في محيط شعوب غير آرية وأغلبية سامية وتكن للفرس وإيران العداء الأزلي، وهي أكثر عدداً وإمكانيات، وتتمتع بعمق بشري وجغرافي، ومجالات حيوية واسعة. في نفس الوقت تفتقد إيران لأي عمق ومجالات حيوية بشرية أو جغرافية.

فالفرس ينظرون إلى أنفسهم على أساس أنهم جيب آري في وسط عالم سامي، وجيب شيعي في وسط عالم إسلامي سني.

والنخب الفارسية ترى بعدم إمكانية خلق توازن استراتيجي مع هذا المحيط الكبير والعادي إلا عبر الارتباط الوثيق بالعالم الغربي، والعمل مع دول لعالم الغربي على قدم وساق.

لقد سبقت النخبة الإيرانية النخبة الصهيونية في وصف الذات وواقع الحال، وفي وضع الأسس والقواعد لعلاقة الكيان الإيراني والمجتمع الإيراني في المحيط الجغرافي والإجتماعي وتحديد السمات الأساسية لهذه العلاقات مع هذا المحيط. هناك تشابه يصل حتى التطابق بين النظرة الإسترتيجية الفارسية مع النظرة الإستراتيجية الصهيونية في تحديد جبهة الأعداء وجبهة الحلفاء الإستراتيجيين.

إن مراكز صنع القرار في الدول الغربية على علم ووعي كامل في أسس النظرة الإستراتيجية السائدة عند النخب الإيرانية الحاكمة وتلك التي تعمل في صفوف المعارضة منها. هاتان النقطتان في خيارات إيران الإستراتيجية، والمعروفة في الأوساط السياسية الغربية، جعلت من إيران الحليف المحتمل والممكن الدائم للدول الغربية في عالم الشرق على مدى السنين الطويلة الماضية، وجعلت من إيران الموقع المتقدم في جبهة العالم الغربي في صراعه مع الشرق العربي والإسلامي منذ قرون خلت.

العلاقات الإيرانية مع العالم الغربي
في عهد الشاه رضا بهلوي

كبقية دول الشرق دخلت إيران مع دول الغرب الاستعمارية في علاقات متعددة المستويات، ولم تكن هذه العلاقات دائماً جيدة، لكن إيران البلد الإسلامي الذي لم يستعمر ولم يوضع تحت انتداب الدول المنتصرة في الحرب العالمية الأولى دخل في علاقة استراتيجية مع الغرب في بداية عشرينيات القرن العشرين. الشاه رضا بهلوي، الذي وصل إلى السلطة بواسطة انقلاب على آخر ملوك الأسرة القاجارية، محمد شاة القاجاري، وبدعم صريح من قبل الدولة الاستعمارية، بريطانيا العظمى، آنذاك تبنى مشروع أطلق عليه "مشروع التحديث والإصلاح" للدولة والمجتمع في فارس. هذا المشروع يشابه إلى حد كبير المشروع السياسي الذي تبناه الضابط التركي مصطفى كمال (أتاتورك) لبناء الدولة والمجتمع في تركيا. العناصر المشتركة في المشروع الإيراني والمشروع التركي للتحديث هي :

الابتعاد عن العالم الإسلامي المتخلف والتوجه إلى العالم الغربي المتقدم .

تخليص اللغة الفارسية واللغة التركية من المفردات العربية واستبدالها بمفردات فارسية، ومفردات تركية كل ما أمكن ذلك.

استبدال الخط العربي بالخط اللاتيني في كتابة اللغة الفارسية واللغة التركية.

لتنفيذ تلك المشاريع في هذين البلدين المسلمين شنت، منذ منتصف عشرينات القرن العشرين حملات كبيرة على العالم الإسلامي وعلى التراث الإسلامي بشكل عام، وعلى اللغة العربية والثقافة العربية بشكل خاص، وشكلت لجان حكومية في كل من إيران وتركيا، على رأس مهام هذه اللجان، كان إخراج المفردات والمعان العربية من الكتب المدرسية والمعاملات الرسمية والصحافة، واستبدالها بمفردات فارسية في مملكة رضا خان، وبمفردات تركية في جمهورية مصطفى كمال اتاتورك.

في حين أن كمال أتاتورك شرع في تنفيذ خطط استبدال الخط العربي في مشروعه الثقافي (مشروع التتريك) بالخط اللاتيني والذي لازالت تكتب به اللغة التركية إلى وقتنا الحاضر، تعثر مشروع رضا خان في استبدال الخط العربي في إيران بخط آخر بديل

وتعطل وأخذ هذا الهدف منحاً آخر اقتصر على تنقية اللغة الرسمية الإيرانية من فرداتها العربية كل ما أمكن ذلك والإبقاء على استعمال الخط العربي في كتابة اللغة.

كان الشاه رضا بهلوي قد شكل في عام 1927 لجنة مكونة من شخصيات علمية وسياسية وثقافية كلفت في وضع دراسة علمية وموضوعية عن اللغة الفارسية وعلاقتها باللغة العربية، وعلاقتها بالخط العربي، وكذلك حول إمكانية تنقية اللغة الفارسية من مفردات اللغة العربية، وحول إمكانية كتابة اللغة الفارسية الجديدة بالخط اللاتيني، والتخلي عن الخط العربي في كتابة هذه اللغة. بعد أن أنهت هذه اللجنة عملها وأتمت دراستها حول اللغة والثقافة الفارسية أوصت هذه اللجنة عام 1934 بعدم التخلي عن الخط العربي في كتابة اللغة الفارسية، وأكدت على ضرورة الاستمرار في استعمال الخط العربي، كحافظ للتاريخ والثقافة الفارسية والإيرانية. وجاء في هذه الدراسة العلمية توصيات تحض على عدم الإقدام على أي خطوة تساهم في إقصاء الخط العربي لما لمثل هذه الخطوة من أثار مدمرة على المجتمع والثقافة الفارسية. لقد قدمت حيثيات وأسباب جدية تدعم وجهة النظر القائلة بضرورة المحافظة على الخط العربي في تدوين اللغة الفارسية. كان من أهم تلك الحيثيات التي بينتها تلك الدراسة هي:

أن كل ما دون وكتب من تراث في الأدب والشعر والعلوم والتاريخ في فارس وإيران إما كتب باللغة العربية أو صيغ بالبهلوية الجديدة (الفارسية الجديدة) ولكن بالخط العربي، وان استبدال الخط العربي بخط آخر غيره يعني بالضرورة فقدان جل التراث الفارسي والهوية الفارسية بدل تأكيدهما، وكذلك فقدان التاريخ المدون بالخط واللغة العربية خلال فترة 1300 عام الأخيرة.

استبدال الخط العربي بخطوط بديلة أخرى سيترتب عنه خسارة سياسية كبيرة للدولة الفارسية، أي فك الارتباط بالتجمعات الشيعية في دول الجوار وفقدان التأثير الفارسي على هذه التجمعات التي دونت تراثها الديني والمذهبي الشيعي باللغة العربية أو بالفارسية ولكن بالخط العربي ايضاً.

استجاب الشاه رضا بهلوي لنصائح الخبراء الفرس الذين كلفوا من قبله بالقيام بمهمة دراسة واقع اللغة في إيران، واقلع الشاه عن فكرة استبدال الخط العربي بغيره من الخطوط البديلة. ظل الخط العربي هو الخط المستعمل في كتابة اللغة الفارسية السائدة (البهلوية الجديدة) في إيران، لكن الشاه استمر في سياسة الابتعاد عن العالم الإسلامي، والابتعاد عن الثقافة العربية والإسلامية كما فعل نظيرة مصطفى كمال اتاتورك في تركيا.

لقد جاءت الخطوات الإيرانية والخطوات التركية في محاربة اللغة العربية والثقافة الإسلامية منسجمة مع الهجمة الغربية الشاملة على اللغة العربية والعالم الإسلامي في

جانبه الثقافي، وشكلت جزءاً أساسياً من أجزاء هذا المشروع الاستعماري. الهجوم على الثقافة العربية واللغة العربية والخط العربي لم يكن معزولاً عن السياسة الأوروبية الغربية والشرقية على حدٍ سواء في تلك الحقبة من الزمن. في مطلع القرن العشرين أجبرت كل الشعوب والدول الإسلامية التي وقعت تحت السيطرة الروسية في العصر السوفييتي على كتابة لغاتها بالخط الكيريللي (الخط الروسي) وأجبرت هذه الشعوب على الانقطاع عن تاريخها وتراثها وأصول دينها المدون عبر القرون الطويلة باللغة العربية، أو باللغات الوطنية التي كانت تكتب بالخط العربي.

فقد أجبرت كل الشعوب القوقازية المسلمة وشعوب وسط أسيا المسلمة على الكتابة بالخط الروسي بدل من الخط العربي، كمحاولة من قبل الساسة وصناع القرار في الدولة السوفييتية لعزل هذه الشعوب عن محيطها الثقافي والديني الطبيعي الإسلامي. ففي 5 مارس من عام 1926 عقد في مدينة "باكو" الأذربيجانية المؤتمر الأول اللغوي للشعوب الناطقة باللغات التركية بتشجيع من الدول الغربية المنتصرة في الحرب العالمية الأولى. حضر هذا المؤتمر ممثلين ورموز سياسية وثقافية من تركيا ومن الجمهوريات السوفيتية الناطقة بأحد اللغات التركية، من تركمانيا ومن كازاخستان ومن جمهورية قرقيزيا ومن أزبكستان وأدربيجان وتترستان. كان موضوع البحث والنقاش في هذا المؤتمر الثقافي واللغوي الأول الاختيار بين الاستمرار باستعمال الخط العربي في كتابة لغات هذه الشعوب أو التحول إلى استعمال الخط اللاتيني. وقرر المؤتمرون التخلي عن استعمال الخط العربي واستبدال كتابة لغات هذه الشعوب بالخط اللاتيني.

لقد غضب الروس لهذا الإختيار وكانت جهودهم منصبة على إقناع المؤتمرين بالأخذ بالرأي الذي ينادي باستعمال الخط الروسي، الكيريللي، عوضاً عن اللاتيني كبديل للخط العربي الذي كان سائداً في تلك البلدان في حينه. لقد قام جوزيف ستالين بعد ما وصل إلى سدة الحكم وتمكن من السيطرة على السلطة، بملاحقة وإعدام وسجن الأغلبية من الشخصيات التي حضرت مؤتمر" باكو" وعملت البقية من تلك الشخصيات على الفرار إلى دول المنفى هرباً من بطش ستالين عقاباً لهم لعدم اقرارهم بالرغبة الروسية باستعمال الخط الروسي. وعمل يوسف ستالين الحاكم القوي على اجبار عدد من تلك الجمهوريات تباعاً على استعمال الخط الروسي كما فعلت جمهورية أذربجان في عام 1939 .

وكانت السلطات السوفييتية قد استبدلت الحرف العربي بالحرف اللاتيني في جمهوريات أسيا الوسطى الإسلامية في 1 كانون أول عام 1928 ، واستبدلته بالحرف الروسي في 9 كانون الثاني عام 1940 قاطعة بذلك الصلة بين هذه الشعوب وثقافتها الأصلية ومنها العربية.

كذلك كان الحال في وسط وشرق افريقيا. ففي تلك المناطق كانت اللغة "السويحيلية" ولغة الهاوزة وشعوب الفلاني وغيرها من الشعوب الإفريقية والإسلامية تكتب لغاتها بالخط العربي حتى قدم المستعمر الغربي وكتب لهذه الشعوب لغاتها بالخط اللاتيني. وكانت أحدث هذه الإنقلابات على الخط العربي والثقافة العربية بفعل وتأثير القوى الأوروبية عندما فرضت حكومة زياد بري في الصومال تدوين لغة أهل الصومال، وهي أحد أقطار الأمة العربية وعضو في جامعة الدول العربية، في عام 1975 بالخط اللاتيني بديلاً عن الخط العربي. لقد تواطأ الرئيس زياد بري مع الأوساط السياسية والثقافية الغربية في تلك الحقبة من الزمن واستجاب تحت ضغط الحاجة للدعم الإقتصادي والسياسي من تلك الدول لمشروع دحر اللغة والثقافة العربية في مساحات واسعة من مناطق العالم.

وصلت الهجمة الثقافية الأوروبية على اللغة العربية والثقافة الإسلامية حتى العمق العربي ذاته. فأطراف الحداثة والتغريب في المنطقة العربية باتت معروفة، من سعيد عقل في لبنان إلى لطفي السيد في مصر ممن طالبوا بكتابة اللهجات المحلية المحكية، تحت ذرائع وأوهام ساذجة قدمت، ولا زالت بين الفينة والأخرى تبرز إلى السطح عن الحداثة، بالخط اللاتيني. كانت ولازال مشروع محاربة اللغة العربية والخط العربي جزء من هذا المشروع الكوني في الهجوم الإستراتيجي على الشرق الإسلامي والعربي.

وجدت الحكومات الاستعمارية في الغرب مجموعات وقوى سياسية، بل وجدت حكومات من أبناء الشرق الإسلامي من يتبرع لهم للقيام بدور حصان طروادة. وساهمت هذه القوى السياسية والاجتماعية في الشرق الإسلامي، ومن خلال دخولها مع القوى الاستعمارية في صفقات سياسية واقتصادية على حساب الشعوب الإسلامية، في إضعاف شعوب ودول العالم الإسلامي وفتحت ثغرات كبيرة للغزاة والمستعمرين في تنفيذ مشاريعهم العسكرية والاقتصادية والثقافية في الشرق الإسلامي. كان رضا خان وحكومته أحد هذه الرموز والقوى والحكومات التي ارتضت لعب دور العميل ودور الطابور الخامس في العالم الإسلامي. كانت تحرك تلك القوى والمجموعات السياسية والاجتماعية أحقاد ذاتية على الشرق الإسلامي وعلى مكوناته القومية والثقافية، وكانت هذه القوى تطمح بلعب دوراً ما في المنطقة وفي الحصول على مكاسب ذاتية وفئوية ضيقة وقصير المدى وذلك عبر التماهي مع مشاريع القوى المنتصرة في الحرب العالمية الأولى.

حظي نظام الشاه في إيران برعاية ودعم الدول الغربية، وبالدرجة الأولى بدعم بريطانيا العظمى في فترة ما بين الحربين العالميتين. ووجد النظام الفارسي كل الدعم والتشجيع في مشروعه الانعزالي وفي الابتعاد والانفصال عن العالم الإسلامي، وعن الثقافة العربية من دول العالم الغربي. وكوفئ الشاه على سياسة إدارة الظهر للعالم الإسلامي

في السماح له في احتلال الساحل الشرقي للخليج العربي، وتمكينه من السيطرة على الإمارات العربية هناك. لقد مكن الشاه من احتلال "إمارة القواسم"، "إمارة آل علي"، "إمارة المرازيق"، و"إمارة العبادلة" وكذلك "إمارة المحمرة" وقتل أميرها في السجن عام 1936. هذه الإمارات مجتمعة تكون إقليم الأحواز أو (عربستان) المحتل.

كذلك كوفئ النظام التركي المتبني نفس المشروع الإيراني والمتنصل من ثقافة الشرق الإسلامي والمعادي لقيمه وتراثه، في احتلال الأراضي العربية في منطقة "أضنة" وإقليم "أورفا" (الرها) وكيليكية ولواء اسكندرونة، التي كانت ضمن حدود الدولة السورية، حسب خرائط مؤتمر لوزان للصلح عام 1919 وحسب اتفاقية سايكس ـ بيكو السرية الموقعة بين الدولتين الاستعماريتين، بريطانيا وفرنسا عام 1916، بقصد تقاسم المنطقة العربية بعد انتهاء الحرب العالمية الأولى.

لم يكن للنظام الإيراني في تلك الحقبة من الزمن إمكانية في لعب أدوار سياسية كبيرة في المنطقة، لأن القوى الغربية كانت متواجدة بشكل مباشر في المنطقة. فهي موجودة في الخليج العربي والعراق، وهي موجودة في الباكستان، التي كانت جزء من الهند المستعمرة البريطانية، وكذلك في أفغانستان. وتركيا الجديدة كانت أيضاً خاضعة تحت النفوذ الغربي وتحكمه قوى سياسية منبهرة بالعالم الغربي، وتسعى مثل حكومات إيران للتماثل مع مشاريع العالم الغربي المنتصر في الحرب الكونية الأولى. تغير الحال بعد انتهاء الحرب العالمية الثانية، وأجبرت القوى الاستعمارية على إخلاء اغلب مواقعها ومستعمراتها في دول الشرق، وحصل الكثير من شعوب الوطن العربي والعالم الإسلامي على الاستقلال الوطني.

بعد تلك التغيرات في الخريطة السياسية في المنطقة العربية والإسلامية جرت في العالم بعد انتهاء الحرب العالمية الثانية سمح لإيران بأن تمارس نفوذا أكبر في دول الجوار الجغرافي. أعطي لإيران أدوار أكبر للعبها في المنطقة العربية، وفي مناطق العالم الإسلامي الأخرى. كذلك الحال أنيطت بعض المهام بالحكومات التركية في المنطقة. أدخلت تركيا حلف شمال الأطلسي (حلف الناتو) الغربي العسكري لتظل قاعدة متقدمة للقوى الغربية في خاصرة العالم الإسلامي. كما أدخلت إيران عضواً أساسياً ومتميزاً في حلف بغداد الاستعماري، وأوكلت لحكومة الشاه مهام أساسية متميزة في العراق وفي الخليج العربي." شرطي المنطقة"، تلك كانت التسمية المناسبة والصفة التي اختصرت مهام حكومات الشاه في المنطقة العربية لأكثر من ثلاثة عقود من الزمن متتالية.

العلاقات الإيرانية ـ الأمريكية
في عهد الشاه محمد رضا بهلوي

نظام الشاه وعلاقته بالغرب والولايات المتحدة الأمريكية هي المثال النموذج للدور الإيراني في الشرق. على مدى ثلاثون عاماً لعب نظام الشاه دور الشرطي في المنطقة وحامي المصالح الأمريكية. جهز وسلح الجيش الإيراني بمساعدة الولايات المتحدة الأمريكية، ودرب على أيدي الضباط الأمريكان، حتى اصبح هذا الجيش القوة الضاربة في المنطقة. وقد ساهمت أمريكا مع بقية الدول الغربية بقوة في دعم ومساندة نظام الشاه. دخلت إيران في عضوية كل المشاريع السياسية والعسكرية الأمريكية في المنطقة العربية والإسلامية.

وقفت حكام إيران إلى جانب الولايات المتحدة في التصدي لحركة التحرر الوطني العربي في الخليج العربي. وساهمت إيران، بالنيابة عن الولايات المتحدة، في إرهاق العراق واستنزافه بعد سقوط الملكية هناك منذ عام 1958. ظلت إيران العضو الدائم في الأحلاف الاستعمارية المشبوة المعدة لإعادة هيمنة القوى الغربية الاستعمارية على المنطقة العربية والإسلامية بعد أن اضطرت تحت ضغط الثورات الشعبية وضربات حركات التحرر الوطني، لإخلاء المنطقة ورحيل قواتها إلى بلدانها.

كان حلف بغداد وحلف السنتو، وحتى الحلف الإسلامي، هي المشاريع العسكرية المعدة والمقترحة لمنطقة ما بات يعرف بالشرق الأوسط. تلك الأحلاف الاستعمارية التي أريد بها السيطرة وإعادة استعمار المنطقة العربية والإسلامية من جديد، بعد أن رحل الاستعمار الغربي عن جزء من أوطانه، كانت إيران الدولة التي شكلت العمود الفقري لتلك الأحلاف. والقوات المسلحة الإيرانية لعبت على الدوام دور القوات الضاربة وقوات التدخل السريع ضمن استراتيجية تلك الأحلاف. لقد أطلق على الجيش الإيراني في زمن الشاه تعبير " شرطي المنطقة".

دور نظام الشاه محمد رضا والجيش الإيراني في قمع حركات التحرر في منطقة الخليج العربي وعمان إلى جانب القوات البريطاني وبإيعاز أمريكي تكرر وبقي قائم طوال سنين حكم الشاه.

العلاقات الإيرانية ـ الأمريكية في عهد الشاه محمد رضا كانت معلنة وتسير على قدم وساق، ويتم التنسيق بين الطرفين حول كل القضايا المطروحة في المنطقة، ويتم على أساسها توزيع الأدوار، وربما المغانم إن وجدت. وعلى أساس هذه الحقائق منح الشاه في الأوساط الجماهيرية والإعلامية والسياسية لقب "الشاه العميل" . الإدارة الأمريكية في عهد الرئيس بيل كلينتون قدمت اعتذاراً رسمياً عندما أعلنت وزيرة خارجيتها، "مادلين اولبرايت"، عن أخطاء ارتكبتها الولايات المتحدة الأمريكية بحق إيران وخاصة في دعمها اللامحدود للشاه المخلوع ومشاركتها في الانقلاب الذي أدى إلى إقصاء الزعيم الوطني الراحل محمد مصدق من رئاسة الوزراء في أوائل أعوام الخمسينيات.

طرحت الولايات المتحدة الأمريكية مشروعها الإستراتيجي للسيطرة على الشرق الأوسط كجزء من مشروعها الكوني في بناء الإمبراطورية الأمريكية، على ضوء النتائج العسكرية والاقتصادية الحاسمة التي خلفتها الحرب العالمية الثانية، حيث خرجت الولايات المتحدة الرابح السياسي والاقتصادي وأيضا العسكري الوحيد من هذه الحرب الكونية، التي دمرت وأرهقت بقية الأطراف التي شاركت في الحرب. الولايات المتحدة هي الدولة الوحيدة التي خرجت منتصرة من الحرب دون أن يدمر لها مصنع أو يهدم جسر على أراضيها، فجل المعارك دارت في مدن وفوق أراض الآخرين.

مشروع "ترومان ـ أيزنهور"، الذي تمت صياغته بعد انتهاء الحرب الكونية الثانية، نص على ربط دول العالم بالسياسة الأمريكية، وإخضاعها للهيمنة الأمريكية، من خلال تشكيل الأحلاف العسكرية. هذه الأحلاف التي ستكون القيادة فيها للولايات المتحدة الأمريكية شكلت العمود الفقري في السياسة الكونية للولايات المتحدة الأمريكية في فترة ما بعد الحرب العالمية الثانية. الاعتبارات الجيو ـ سياسية أخذت بعين الاعتبار في كيفية تشكيل الأحلاف العسكرية وترشيح الدول للانضمام إلى حلف من الأحلاف المقترحة.

الثلاثة أحلاف التالية كانت برأي "ايزينهور" كافية للسيطرة على العالم وتطويق الاتحاد السوفييتي:

"حلف الناتو" أو حلف شمال الأطلسي لظمان السيطرة على القارة الأوروبية

وكان حلف "سياتو"، حلف جنوب شرق أسيا للسيطرة على منطقة جنوب شرق أسيا

وتم تصميم "حلف بغداد" لتتمكن الولايات المتحدة من السيطرة على منطقة الشرق الأوسط والشرق الإسلامي

جاء حلف بغداد ليشكل حلقة وصل بين "حلف الناتو" الغربي وحلف "السياتو" في جنوب –شرقي آسيا ، إذ كانت دولة باكستان عضوا في آن وأحد في حلفي "بغداد" و

"السياتو "، أما تركيا فكانت عضوا في آن معاً في حلفي "بغداد " و "الناتو ". وكانت الولايات المتحدة الأمريكية عضواً وقائداً في الأحلاف العسكرية الثلاثة. وبهذا تكون الولايات المتحدة الأمريكية أكدت حضورها وسيطرتها في حزام جغرافي يتوسط الكرة الأرضية ويمتد من واشنطن غرباً حتى واشنطن شرقاً عبر قارات العالم.

ربط عدد من دول منطقة الشرق الإسلامي عن طريق أحلاف عسكرية مع الولايات المتحدة الأمريكية تسمح بموجبها للولايات المتحدة بإقامة قواعد ثابتة في هذه الدول، وبالتالي ستمكن الولايات المتحدة من التدخل المباشر في الشؤون الأمنية والاقتصادية والسياسية لهذه الدول، تساعد في تحقيق الأهداف و المصالح الكونية للولايات المتحدة الأمريكية. أهم هذه المصالح والأهداف كانت:

تطويق الاتحاد السوفييتي الصاعدة والمنفلت وخارج عن السيطرة الأمريكية

تأمين مصادر الطاقة والسيطرة على إنتاجها وتسويقها

ابتزاز الدول الصناعية المنافسة للولايات المتحدة وإجبارها على فتح أسواقها كل ما دعت الضرورة لذلك من خلال انتشار هذه الأحلاف العسكرية.

ثلاثة دول هي إسرائيل وتركيا وإيران كانت في التفكير الإستراتيجي الأمريكي الأعمدة والركائز الأساسية في مشروعها الاستعماري الجديد في المنطقة العربية والشرق الإسلامي. كنوع من الترويج والدعاية لهذه الأحلاف الاستعمارية المفروضة على المنطقة العربية والإسلامية، وفي محاولة لإبعاد الشبهات عن الأهداف الحقيقية لتلك الأحلاف، اقترحت إدارة أيزنهور، لتلك الأحلاف العسكرية، أسماء مألوفة ومحببة على قلوب المواطنين في المنطقة العربية والإسلامية.

حلف بغداد

الحلف الإسلامي

لقد تزعم شاه إيران محمد رضا بهلوي في منتصف عام 1955 الترويج لمشروع حلف بغداد. قام هذا الشاه بالاتصالات الضرورية كما كلف بها من قبل الإدارة الأمريكية. وتم الاتفاق مع الحكومة العراقية، بزعامة رئيس الوزراء العراقي في حينه نوري السعيد، والمعروف بولائه للغرب وللإدارة البريطانية بشكل خاص، وتحت ضغوط بريطانية شديدة عليه، في الموافقة على عضوية العراق في هذا الحلف الاستعماري، والموافقة أيضاً على جعل المقر الرئيسي ومركز قيادة هذا الحلف العاصمة العراقية بغداد. لكن الشاه لم يستطع دخول الحلف فور الإعلان عنه نظراً للمشاكل الداخلية التي كانت تواجهه مع الحكومة التي يرأسها محمد مصدق المعادي للولايات المتحدة الأمريكية في حينه. كانت أول الدول المؤسسة هي العراق وتركيا بالإضافة إلى

الولايات المتحدة، ومن ثم انضمت إلى الحلف كل من باكستان وإيران وبريطانيا بعد أن تخلص الشاه بمساعدة بريطانيا والمخابرات الأمريكية ال CIA من غريمه ومنافسه محمد مصدق بإسقاط حكومته وزجه بالسجن.

في 12 آذار 1947 أعلن الرئيس الأمريكي ترومان مبدأه الذي كرس فيه الدعم الأمريكي " للعالم الحر". كان فهم ترومان للعالم الحر يشابه، إلى حد كبير فهم الرئيس الأمريكي جورج بوش الإبن لهذا العالم. العالم الحر يعني في القاموس السياسي الأمريكي هو فقط مجموعة الدول والحكومات التي تدور في فلك الولايات المتحدة الأمريكية، والدعم الذي قصده الرئيس الأمريكي ترومان، هو ليس اكثر من التواجد العسكري الأمريكي في قواعد ثابتة على أراضى ومياه تلك الدول "الحرة".

أصبح عدد أعضاء حلف بغداد العسكري في عام 1956 ستة أعضاء ، وبذلت جهود مضنية لتوسيع هذا الحلف لضم كل من مصر وسوريا والأردن ولبنان والمملكة العربية السعودية إليه. لكن حظ هذا الحلف وحظ أقطابه لم يكن موفقا وكان عاثراً، لأن حركة تحررية عارمة بقيادة مصر كانت تسير باتجاه معاكس لنوايا ومشاريع أقطاب زأطراف هذا الحلف. كان من أهم أهداف هذه الحركة العربية التحررية:

تحرير الشعوب سياسياً واجتماعياً،

تحقيق وحدة الأمة العربية،

ومحاربة الوجود الأجنبي والأحلاف العسكرية في المنطقة.

نجحت مصر بقيادة جمال عبد الناصر باستقطاب الجماهير العربية وكذلك الإسلامية إلى مشروعها التحرري، ووضعت الحكومات العميلة للغرب أمام مأزق حقيقي هدد استمرارية وجود تلك الحكومات المتواطئة مع بريطانيا والولايات المتحدة.

لقد حاولت أمريكا عمل المستحيل لتأسيس حلف بغداد وبناء عدد من القواعد العسكري في الخليج العربي. إلا إن المقاومة العربية بزعامة الرئيس الراحل جمال عبدالناصر حالت دون تمدد وتوسع دائرة أعضاء حلف بغداد. وحتى عندما تحول هذا الحلف إلى حلف "السنتو" ظل هذا الحلف محاصراً وغير قابل للتمدد، وفشلت هذه الطبعة الجديدة من حلف بغداد فشلاً ذريعا. إسرائيل وبريطانيا وفرنسا والولايات المتحدة عملت مبكراً على حياكة المؤامرات المتتابعة للنظام الوطني في مصر، وقد تحولت المؤامرات السرية والخفية إلى حرب مفتوحة على مصر وعلى القيادة الثورية في القاهرة. العدوان الثلاثي عام 1956م على مصر، الذي شاركت فيه كل من بريطانيا وفرنسا والكيان الصهيوني، وأفشلته صلابة وحنكة عبد الناصر السياسية، وشدة المقاومة الشعبية المصرية الباسلة، والمساندة الشعبية والرسمية العربية لمصر في مقاومة العدوان،

والاستنكار الدولي الذي كان لا يزال في عنفوان صحوته ضد الاستعمار والغزو الصريح.

تفجرت ثورة الجزائر التحررية العملاقة بدعم من مصر وعبد الناصر، وتفجرت الحركات الشعبية في الأردن ولبنان واليمن، وفي سوريا وصلت التيارات القومية العربية، كحزب البعث العربي الاشتراكي وحركة القوميين العرب، بأهدافها التحررية إلى السلطة واقتربت من مصر وتحالفت مع القيادة الناصرية الفذة والشجاعة. أعلنت الوحدة السورية المصرية عام 1958 وقامت ثورة الضباط الأحرار في العراق المعادية للاستعمار، والتي أعلنت منذ اليوم الأول للثورة في 14 تموز عام 1958 تحالفها مع مصر ومع أهداف الثورة المصرية، وفي نفس الوقت أعلنت القيادة الجديدة في بغداد، ذات التوجه القومي العربي، بيان انسحاب العراق من حلف بغداد الاستعماري، وإغلاق مقراته في بغداد وفي عموم العراق.

بخروج العراق من هذا الحلف الإستعماري وجهت ضربة قاسية لمشروع أيزنهور في المنطقة، وقلص من فاعلية هذا الحلف العسكرية والسياسية، وأنهى إمكانية توسيعه أو إعادة إحيائه. بعد صعود التيارات القومية العربية إلى قيادة الدولة في العراق وفي اكثر من قطر عربي، أخذ مشروع الهيمنة الكونية الأمريكية، الذي شكل حلف بغداد أحد ركائزه الأساسية، يهتز ويترنح و يتهدده السقوط. مثلما ابتدئ في تحقيق الأحلام الإمبراطورية الأمريكية من بغداد، بدأت هذه الأحلام تتلاشى وتتبخر ايضاً من بغداد.

سيتكرر هذا المشهد مرة أخرى في الزمن القادم، مع بداية الأعوام الأولى للقرن الواحد والعشرين، وفي نفس المكان وستكون إيران الحليف الدائم للولايات المتحدة الأمريكية في محاولاتها تكريس هيمنتها على المنطقة العربية وعلى العالم. ستتغير أسماء الأفراد والساسة والمسؤولين، لكن المشاريع والأمكنة والقوى السياسية ستكون متشابه إلى حد التطابق. وربما النتائج ستكون متشابه حتى التطابق أيضاً.

جرت محاولات في الأعوام الأولى من ستينات القرن الماضي لإعادة توسيع الحلف العسكري وإدخال دول عربية وإسلامية جديدة إليه، مثل المملكة العربية السعودية. أطلق على هذا الحلف اسم "الحلف الإسلامي"، لكن الفكرة عادت وفشلت واندثرت من جديد، لعدم إقبال الدول العربية والإسلامية على الدخول في هذه المغامرة لشدة الممانعة الجماهيرية في جميع أقطار الوطن العربي. في تلك الحقبة التاريخية، والتي عرفت بالحقبة الناصرية، كانت الحكومات العربية الموالية للدول الغربية في وضع صعب لا يسمح لها بالاشتراك بمشاريع مكشوفة كالأحلاف العسكرية الغربية.

بعد خروج العراق من الحلف أطلق على الحلف اسم حلف "السينتو" بأعضائه الخمس دول، إيران وتركية والباكستان وبريطانيا والولايات المتحدة الأمريكية.

ظلت إيران الاحتياطي الإستراتيجي للسياسة الأمريكية في المنطقة العربية تستعمله متى تشاء، وكلما استدعت الضرورة لذلك. يروي وزير الإعلام المصري السابق والصحفي المعروف، محمد حسنين هيكل، ما يلي عن الدور الإيراني في المنطقة العربية: "إبان الاتصالات التي كان يجريها هنري كسينجر عام 1974 لترتيب فك الارتباط بين مصر وإسرائيل، وقبل التوصل إلى توقيع اتفاقية سيناء، فاتح السادات كسينجر قائلاً له، أنني لا أستطيع السير قدماً في توقيع اتفاقية مع إسرائيل والعراق يسجل رفضاً للمفاوضات مع إسرائيل، ولذلك لا بد من إيجاد حل لموضوع الرفض العراقي. يجيبه كسينجر، إننا عملنا حساباً تحسباً للأمر، إنني آت للتو من طهران وإن شاه إيران جاهز لمشاغلة العراق في الشمال. ولم تكد تمضي أيام قليلة حتى اندلعت المعارك في شمال العراق، واستمرت الفترة التي تتطلبها مفاوضات فك الارتباط ووقعت اتفاقية سيناء."[203] الورقة الكردية وورقة الطائفية بقي الشاه ممسك بهما لابتزاز العراق وابتزاز العرب كلما أراد الشاه أو طلب منه الغرب ذلك.

التنسيق بين الإدارات الأمريكية المتعاقبة ونظام الشاه في طهران في إثارة القلاقل والحروب الأهلية والعرقية والطائفية في العراق ولبنان واليمن خلال عقدي الستينيات والسبعينيات من القرن الماضي اصبح معروفاً ومفضوحاً. بقي الشاه ملتصقاً بالسياسة الأمريكية في الوقوف في وجه حركة التحرر العربية، واظهر عداءً منقطع النظير للتيار القومي العربي التحرري. وظل يناصب فصائل وحكومات التيارات القومية العربية حتى سقوطه العداء الشديد، ولم يدخر جهداً في الانسجام مع المشاريع والقوى التي تظهر للعرب العداء.

سقط الشاه محمد رضا عام 1979 وأزيح عن السلطة من خلال ثورة شعبية عارمة أجبرته على التنازل عن العرش الملكي، وعلى ترك البلاد واللجوء إلى مصر، ضيفاً على الرئيس السادات، الذي جعل من مصر في ذاك العقد من الزمان مكباً للنفايات الصناعية والسياسية بعدما كانت أرض النيل مأوى وساحة نضال لأحرار العالم، وقاعدة صلدة وسنداً للثوار وللأحرار من آسيا وإفريقيا وأمريكا اللاتينية.

بعد سقوط الشاه خرجت إيران من حلف بغداد، ومن ثم خرجت تركيا وباكستان من عضوية هذا الحلف، ولم يبقى في عضوية الحلف حتى هذا اليوم إلا الولايات المتحدة الأمريكية وبريطانيا، و يعتبر حلف بغداد بحكم المنحل.

---

[203] حسين بيان، عن موقع البصرة على شبكة الإنترنيت الدولية

العلاقات الإيرانية ـ الأمريكية
في عهد الجمهورية الإسلامية

عاد الخميني إلى طهران بعد إقامة قصيرة في فرنسا التي جاء إليها قادماً من العراق، والتي عاش فيها لأكثر من خمسة عشر عاماً منفياً من نظام الشاه المخلوع.

لقد فهمت الحركة الشعبية الإيرانية بكل أطيافها السياسية أن الولايات المتحدة الأمريكية هي القوة الدولية التي عملت على تثبيت نظام الشاه في الحكم لمدة تزيد على الثلاثين عاماً. وأن مسؤولية الولايات المتحدة الأمريكية في اضطهاد الشعوب الإيرانية لمدة ثلاثة عقود متتالية لا تقل عن مسؤولية الشاه نفسه. ولذلك كان العداء والحقد الشعبي موجهة تماماً بنفس القدر إلى الولايات المتحدة الأمريكية وإداراتها الظالمة. المسيرات والمظاهرات الشعبية التي كانت تجوب الشوارع في المدن والقرى الإيرانية كانت ترفع شعارات شديدة العداء لواشنطن، وشديدة العداء للكيان الصهيوني، واستوعبت الجماهير الشراكة الحقيقية بين نظام الشاه وتلك الأطراف في اضطهاد الجماهير الإيرانية.

ساعدت هذه الأجواء السياسية والمناخ النفسي الذي كان منتشراً في أوساط الجماهير والتيارات السياسية في إيران إلى حد كبير بوصول القوى الجديدة إلى سدة الحكم في طهران.

المألوف في هذه الأجواء المعادية للولايات المتحدة أن ترفع الشعارات المناهضة والمعادية للولايات المتحدة الأمريكية، لكنه من غير المألوف أن تعمل القوى السياسية الجديدة مع الأجهزة الأمنية ومع القوى السياسية الأمريكية في تلك الظروف الدقيقة من الأيام والأسابيع الأولى للسلطة الجديدة في طهران.

سار القادة الجدد في طهران في تعاملهم السياسي مع الأطراف المحلية والإقليمية والدولية في خطين سياسيين متوازيين. الخط الأول كان الشكل الظاهري في السياسة الإيرانية، والخط الثاني كان ولازال الشكل السري المتواري. لكن السياسة السرية، أو ما هو مألوف في الثقافة الفارسية الصفوية، السياسة الباطنية، ظلت المنطلق الحقيقي، وظلت هي المقررة في رسم التوجهات الحقيقية في السياسة الإيرانية الخارجية.

السياسة الظاهرية كانت موجهة إلى الجماهير الإيرانية وإلى الجماهير الإسلامية، ومن ضمنها كانت موجهة بالدرجة الأولى إلى الجماهير العربية. السياسة الظاهرية الموجهة

إلى الجماهير العربية، إلى تلك الجماهير التي تناهض منذ قرون السياسات الغربية ، وتتصدى للسياسات الأمريكية المعادية لحرية الشعوب في منطقتنا. السياسة الظاهرية للقادة الجدد في إيران كانت ولازالت تتجسد وتتميز بالمغالاة والتطرف وإبراز المواقف المتصلبة والمعادية للولايات المتحدة الأمريكية وللكيان الصهيوني، وإظهار المواقف الداعمة للقضية الفلسطينية. يتم التعبير عن هذه السياسة وبالدرجة الأولى عبر وسائل الإعلام الإيرانية. الشعارات الرئيسية التي سادت وانتشرت عبر وسائل الإعلام الإيرانية، بقصد التعبير عن عناوين ومفاصل السياسات الإيرانية الظاهرية القادمة، كانت مثل "لا شرقية ولا غربية"، "الشيطان الأكبر والشيطان الأصغر"، "الموت لإسرائيل"، "الموت لأمريكا"، "مناصرة الشعوب الإسلامية أمام قوى "الاستكبار العالمي"، "تحرير القدس الشريف"، "مناصرة ودعم الشعوب المستضعفة في آسيا وإفريقيا وأمريكا اللاتينية"، وغيرها من تلك الشعارات التي تنسجم مع هذا السياق ومع الخطاب الإيراني العلني عبر وسائل الإعلام.

لكن الحكومات الإيرانية كانت تمارس بالتوازي مع الخطاب السياسي العلني، سياسة سرية تختلف عن تلك المواقف العلنية والخطاب الإعلامي المعلن. الحكومات الإيرانية المتعاقبة في الجمهورية الإسلامية ظلت تسير في السياسة الخارجية وفي العلاقات الدولية بخطين متوازيين. تكاد هذه السياسة المزدوجة الأوجه أن تكون من أهم ميزات السياسة الإيرانية. وتكاد صفة التناقض الصارخ بين الموقف الظاهري والموقف السري لحكومات تلك الدولة الصفة الملازمةلالطبيعة فلسفة الحكم في طهران.

لقد ساعد على استمرار الأخذ في هذه السياسة المزدوجة الصارخة من قبل المجتمع الفارسي لهذه الممارسة وترسخها وثبوتها كمبدأ في عقائد الناس الدينية في بلاد فارس. إن التعايش مع التناقضات، والتعايش مع "الخطاب المزدوج" في الممارسة الفردية كانت ولازالت مقبولة اجتماعياً في أوساط الشعوب الإيرانية، وهذه الصفة متجذرة في الثقافة الدينية الفارسية بفرعيها الزردشتي والشيعي الصفوي. كان القادة الإسلاميون الجدد في طهران يعقدون الصفقات السياسية التي لا تتناسب مع اطروحات قيادة الثورة العلنية. كثير من الاتصالات السياسية جرت مع أطراف محلية وأطراف دولية في المجالات العسكرية والأمنية والاقتصادية تتناقض مع المواقف المعلنة للقادة الإسلاميين الجدد. هذه الثنائية المتناقضة في السياسة الإيرانية، العلنية منها والسرية، الظاهرية والباطنية انسحبت أيضاً على علاقة إيران مع الولايات المتحدة الأمريكية.

في خبر كتبته صحيفة الأندبيندنت البريطانية في 12. 4. 2008 عن مباحثات سرية أجرتها إيران مع الإدارة الأمريكية حول البرنامج النووي الايراني قال المتحدث باسم وزارة الخارجية توم كايسي:"ان محادثات مساعد وزير الخارجية الاميركي السابق توماس بيكرينغ مع جامعيين ومستشارين سياسيين ايرانيين كانت ذات طابع خاص.

واضاف المتحدث "هذا النشاط ليس حكوميا ولا يتم عبر قنوات حكومية. وليس وسيلة لنقل رسائل. ليس لهذا النشاط اي طابع رسمي. إنها مباحثات ذات طابع خاص يقوم بها افراد. اننا مسرورون لاجراء هذه المباحثات لكن لا يمكن لاحد ان يعتبرها رسمية او غير رسمية او اي شيء من هذا القبيل".204 لقد فهم الأمركان تماماً ما يريده الإيرانيون وكيف تسويق اللقاءات في حال تسربت ووصلت إلى وسائل الإعلام وإلى الرأي العام العربي.

فالمباحثات واللقاءات تصبح "ذات طابع خاص" و " لكن لا يمكن لاحد ان يعتبرها رسمية او غير رسمية او اي شيء من هذا القبيل"، فماذا تكون إذاً ؟ هذه هي أحد النماذج في شكل العلاقات الإيراينة ـ الأمريكية.

الرئيس الإيراني السابق "أبو الحسن بني صدر يتحدث عن بدايات علاقات المسؤولين الجدد في إيران مع الإدارة الأمريكية اليمينية المتشددة على شاشة محطة الجزيرة القطرية، ويبين موقف الخميني من تلك العلاقة ويقول: "آخر مرة التقيت به قبل ثلاثة أيام من الانقلاب ضدي في بيته، كان لائقا بالاستقبال يومها، وقد تحدثنا في مواضيع الساعة، ودخل عنده أحمد فجأة وقال: عندي سيئات ، قلت: كل إنسان عنده سيئات فماذا تقصد، قال : إنكم تلحون كثيرا ولا تتراجعون ، تتكلمون كثيرا عن تعامل بعض المسؤولين الإسلاميين مع الأمريكيين وانهم يعدون تسوية سرية معهم وتكررونها دائماً، إن المسألة قد انتهت الآن وعاد الرهائن إلى بلادهم فعليكم أن تتعاونوا مع هؤلاء المسؤولين، إن الإمام يطلب منكم ذلك، عندها وجهت حديثي إلى الخميني وقلت له أذاك صحيح ألستم القائلين أن أمريكا هي الشيطان الأكبر وأن الاستقلال هو الأساس، فكيف تطلبون مني التعامل مع هؤلاء الناس الذين تآمروا وعملوا مع الشيطان الأكبر، عندها خرجت من بيته ودون أن أسمع كلمة واحدة، ولا كلمة، كان ينظر ولا يتكلم، تحدثت في وجهه وقلت في نفسي هذا هو أمامي لا مجال أبداً للشك." وأحمد هنا هو ابن الخميني. ورداً على سؤال من مقدم البرنامج:

إذن تقول في كتاباتك السابقة أن الخميني انتظر ما يقارب التسعة أشهر قبل أن يأخذ موقفا حاسما من الأمريكيين، هل كان يعلق أهمية على العلاقة المقبلة معهم أم كان هناك اتصالات شبه سرية بين الولايات المتحدة والخميني؟ ويضيف الرئيس الإيراني: "لم تكن هناك علاقات مشينة بل كان هناك اتفاقات!!! " كانت إذاً اتفاقات موثقة لا أقاويل ولقاءات سطحية.

ويروي الرئيس "بني صدر" في هذه المقابلة بدايات اتفاق جماعة الخميني مع أجهزة المخابرات الأمريكية وقال: "جاء موفدون من البيت الأبيض إلى "توغل لوشاتو" في

---

[204] موقع إيلاف في 14. 4. 2008 .

فرنسا واستقبلهم آنذاك "إبراهيم يزدي" الذي كان وزيرا للخارجية لحكومة "بازركان" في طهران عقد اجتماع ضم مهدي بازركان الذي أصبح رئيسا للوزراء وموسوي أردبيلي أحد الملالي الذي أصبح بدوره رئيسا لمجلس القضاء الأعلى، خرج المجتمعون باتفاق يقضي أن يتحالف رجال الدين والجيش على إقامة نظام سياسي مستقر في طهران.

ثم يعرض فلما عن أول مؤتمر صحفي عقد بعد انتخابه للرئاسة وقد منع عرضه في طهران ويعرض البرنامج صورة مستشار سياسي شاب، وكان يعرف كثيرا عن علاقات الآيات والملالي بالمخابرات الأمريكية ثم اغتيل هذا الشاب. علاقات الملالي والأمريكيين السرية؟ نعم .. نعم كان هناك لقاءات كثيرة أشهرها لقاء أكتوبر الذي جرى في ضواحي باريس ووقعت فيه اتفاقات بين جماعة ريغان وبوش وجماعة الخميني."205 الرئيس "أبو الحسن بني صدر" كان من أكثر الشخصيات المثقفة الإيرانية في المنفى في باريس قرباً من الخميني، وكان يعتبر المتحدث الرسمي والمستشار السياسي للخميني قبل عودته إلى طهران وتعيينه رئيساً للجمهورية. وبني صدر من أكثر الشخصيات الإيرانية اطلاعاً على المباحثات السرية التي أجراها الخميني وأنصاره في باريس مع القوى الغربية وأجهزتها الأمنية قبل وصول هذه القوى إلى السلطة في طهران.

الولايات المتحدة الأمريكية حامية الشاه الدكتاتور الذي روع الشعوب الإيرانية عشرات السنين، أمريكا التي ساهمت في إذلال وإفقار الشعوب الإيرانية تعود إلى إيران وتبقى شريكة للقوى "الثورية" الصاعدة والتي ادعت النية إلى بناء عصر جديد في السياسة والثقافة والاقتصاد والسياسة الخارجية لجمهورية إيران الإسلامية. جمهورية إيران الإسلامية، الاسم الجديد الذي اختارت القوى الجديدة إطلاقه على الدولة الإيرانية، اعتبر برنامجاً سياسياً لتلك القوى وبديل جذرياً لسياسة الشاه المخلوع على كل الأصعدة.

كان جل تسليح الجيش الإيراني والقوات العسكرية والشبه عسكرية الإيرانية سلاحاً أمريكي الصنع بالدرجة الأولى، وسلاحاً غربي المنشأ والنوع. في الحرب العراقية الإيرانية كانت إيران في أمس الحاجة للسلاح وقطع الغيار الأمريكية والغربية، لتعويض ما فقدته من العدة والعتاد أثناء سير المعارك على جبهات القتال. بادرت الولايات المتحدة الأمريكية لنجدة إيران التي تواجه حاله انهيار على كل الجبهات العسكرية بعد أن تقدم الجيش العراقي إلى مسافات بعيدة داخل أراض إقليم الأحواز (عربستان) المحتلة.

---

205 محطة تلفزيون الجزيرة في قطر في 30. 3. 2006.

تقاطرت الوفود العسكرية الأمريكية إلى الجبهة الإيرانية، وإلى القواعد العسكرية الإيرانية، للبحث عن كيفية إنقاذ الوضع العسكري الإيراني المتدهور. تواردت الشحنات العسكرية الأمريكية إلى إيران مع بداية عام 1981 بكثافة شديدة. هذه الشحنات تضمنت الصواريخ المضادة للدروع والمضادة للطائرات والدبابات والذخائر بأنواعها التي على قوائم التسليح الإيرانية. كان البيت الأبيض الأمريكي سخيي جداً في تلبية الطلبات الإيرانية، وجاد في مشروع إعادة تسليح الوحدات العسكرية الإيرانية. في اقل من ثلاثة اشهر تم، بمساعدة الولايات المتحدة الأمريكية والدول الغربية وإسرائيل، إعادة تجهيز الجيش الإيراني، وتجهيز وحدات المتطوعين بكل ما تحتاجه هذه الوحدات من سلاح وتجهيزات عسكرية ومدنية، تأهلها للصمود ومواجهه الجيش العراقي المتقدم على كل جبهات القتال.

سقط الشاه وخرج من إيران ولم يعد، لكن الولايات المتحدة الأمريكية عادت إلى إيران من أبواب عدة. أهم هذه البوابات كانت بوابة الحرب وبيع السلاح والمساعدات العسكرية لهذا البلد. وربما أن الولايات المتحدة، وعلى العكس من الكثير من الاعتقادات، لم تكن قد خرجت من إيران. لكن الإدارة الأمريكية صمتت على سياسة التحريض الإعلامي الإيراني ضد الولايات المتحدة، مراعاة لظروف الحكام الجدد في طهران، و تفهماً في حينه لطبيعة المرحلة والظروف المحيطة بهؤلاء القادة الجدد في طهران. غير مستغرب بان يكون هذا الصمت الأمريكي أحد بنود الإتفاقات التي تم صياغتها في ضاحية باريس قبيل عودة الخميني من هناك إلى طهران.

ما قد نسج من علاقات وتفاهمات بين حكام إيران الجدد وإدارة الرئيس رولاند ريغان في السنوات الأولى كان كافياً لبناء قواعد راسخة في تبادل أدوار التقارب والتوتر في العلاقات الأمريكية ـ الإيرانية. على قاعدة العداء المشترك للأمة العربية وضمان مصالح الطرفين في المنطقة استمرت العلاقة المميزة والغريبة الأطوار بين إيران والإدارة الأمريكية. لقد صمد هذا التحالف السري المصلحي لعدة عقود، وتم تجاوز الصعوبات التي اعترضت مسيرة هذا التحالف وهذه العلاقة غريبة الأطوار. أحد ترجمات هذه العلاقة كانت توريد السلاح إلى الجيش الإيراني أثناء الحرب العراقية ـ الإيرانية. لقد فاقت كمية ونوعية الأسلحة التي وصلت إلى الحكومة الإيرانية من الولايات المتحدة الأمريكية في الأعوام الثلاثة الأولى من الحرب، أضعاف ما استوردته حكومات الشاه المخلوع من الولايات المتحدة الأمريكية خلال العشرين عام الأخيرة من حكمه.

استمرت عمليات بيع السلاح الأمريكي إلى إيران ولم تنقطع قط، وظلت تصل هذه الأسلحة إلى طهران بالتوازي مع اشتداد وتصاعد الحملات الإعلامية بين الطرفين. واستمر وصول المساعدات العسكرية لإيران أثناء مسرحية قطع العلاقات الدبلوماسية

بين الدولتين. لقد كشفت الصحافة الأمريكية والعالمية بين الفينة والأخرى عن بعض جوانب هذه الصفقات وهذه العلاقات الغريبة الأطوار.

قطعت العلاقات الدبلماسية بين إيران والولايات المتحدة الأمريكية في عام 1979 بعد سقوط الشاه وفراره إلى مصر، لكن العلاقات بين البلدين استمرت في شكلها السري والعملي. منذ الأيام الأولى للثورة في إيران، وأثناء احتجاز الرهائن الأمريكان من قبل الطلبة الإيرانيين في السفارة الأمريكية في طهران، تمت اتصالات سرية بين القادة الجدد في إيران وبين قادة الحزب الجمهوري الأمريكي، الذي كان يتنافس مع الحزب الديمقراطي الحاكم على الانتخابات الرئاسية في الولايات المتحدة الأمريكية في تلك الفترة. الطلبة يحتجزون ال 52 رهينة أمريكية والجماهير الإيرانية تحاصر السفارة الأمريكية ويعلن القادة السياسيون تأييدهم للطلبة والشعب الغاضب على الولايات المتحدة. وفي نفس الوقت يسعى ويعمل القادة الجدد على أعلى المستويات، في السر ووراء الكواليس على نسج علاقات سياسية مع أعنف القوى الأمريكية رجعية وعدوانية ضد الشعوب. يعمل على نسج علاقات مع هذا التيار الأمريكي المحافظ. مع هذا التيار، الذي سيعرف في أعوام التسعينات بتيار "المحافظين الجدد" أو التيار "المسيحي المتصهين" برموزه المتطرفة المعروفة، "ديك شيني" و"دونالد رامسفيلد"،وولفو فيتز. كان هذا التيار الأمريكي المتعصب والمغالي بعدائة للإسلام والمسلمين الشريك الحقيقي للقادة الإسلاميين الجدد في طهران. "في الواقع لم تكن العلاقة بين إيران وأميركا منذ قيام الثورة الإيرانية علاقة نفور كاملة، بل تذبذبت بين زواج سري وبين طلاق معلن، وكانت القنوات السياسية لا تدع مجالا يمكن فيه الاستفادة من تحريك المصالح بين الطرفين إلا وسلكته،"[206]

اتفق المرشح الجمهوري "رولاند ريغان" مع الساسة والمسؤولين الإيرانيين الجدد بقيادة الخميني على إطالة زمن احتجاز الرهائن الأمريكان في السفارة الأمريكية في طهران، الذي بدأ في شهر نوفمبر من عام 1979 ، إلى ما بعد الانتهاء من الانتخابات الأمريكية. ففي الاستمرار في حجز الرهائن الأمريكان إحراج مباشر للرئيس الديمقراطي "جمي كارتر"، وتقليل من فرص نجاحه بالفوز بولاية جديدة في منصب الرئاسة بالولايات المتحدة. وفي نفس الوقت فان استمرار احتجاز الرهائن الأمريكيين يعظم من فرص الفوز للمرشح الجمهوري، "رولاند ريغان"، في منصب الرئاسة في واشنطن.

كما اتفق الطرفان على تنفيذه، في مباحثاتهم السرية خلف الكواليس، مددت فترة احتجاز الرهائن الأمريكان في السفارة الأمريكية في طهران، التي دامت 444 يوماً، إلى ما بعد يوم الانتخابات الرئاسية الأمريكية. أعلنت النتيجة بفوز مرشح الجمهوريون رولاند

---

[206] لهيب عبد الخالق، بيان الأربعاء، 25. 6. 2003

ريغان. "وظل الطلاب على موقفهم هذا طوال فترة الاحتجاز التي استمرت أربعة عشر شهرا وانتهت في 20 كانون الثاني (يناير) 1981. في هذا اليوم تسلم الرئيس الأميركي المنتخب في حينه رونالد ريغان مهامه رسميا في البيت الأبيض خلفا لجيمي كارتر الذي رفضت السلطات الإيرانية تقديم أي تنازل في عهده."[207]

أطلق الإيرانيون سراح الرهائن الأمريكان في نفس يوم تنصيب "رولاند ريغان" رئيساً للإدارة الأمريكية، وحلف القسم. تماما كما تم الاتفاق عليه بين القادة الإيرانيين الجدد ومرشح الحزب الجمهوري. وبدأ فصل جديد في مسيرة العلاقات الأمريكية ـ الإيرانية ذات طابع خاص يضفي عليها طابع السرية والتستر لغاية في نفس يعقوب. علاقة بدأتها القوى الدينية الإيرانية مع ممثلي القوى الدينية الأمريكية المتشددة والأكثر ولاء للصهيونية العالمية.

نصب "رولاند ريغان" في يناير من عام 1981 رئيساً للولايات المتحدة الأمريكية وكانت الحرب الإيرانية ـ العراقية أيضاً للتو قد بدأت.

في الحرب الدائرة في جمهورية نيكاراغوا في أمريكا الوسطى في أعوام الثمانينات من القرن العشرين كانت إدارة ريغان الجمهورية تدعم متمردي "الكونترا" ضد حكومة السندانيين اليسارية. نظرا للمذابح والفظائع التي ارتكبتها قوات المتمردين اليمينية (الكنترا) ضد المدنيين العزل في نيكاراغوا قرر الكونغرس الأمريكي وقف دعم تلك العصابات. لكن جهاز المخابرات الأمريكية CIA عمل على الالتفاف على هذا القرار، والاستمرار بدعم تلك العصابات من خلال بيع صفقات سلاح أمريكية وإسرائيلية إلى إيران عبر الكيان الصهيوني. وحسب الاتفاق المبرم بين إيران وإسرائيل والمخابرات المركزية الأمريكيةتقرر أن يكون ريع تلك المبيعات من الأسلحة الأمريكية ـ الإسرائيلية إلى إيران لصالح عصابات الكنترا النيكاراغوية، وبأن تقوم إيران بإيصالها إلى تلك العصابات، لتتمكن هذه العصابات من تمويل حربها القذرة وشراء، المرتزقة، والاستمرار في استنزاف الحكومة الثورية في "ماناغوا"، والاستمرار في ذبح الشعب النيكاراغوي المنكوب والجائع والفقير.

كشفت إحدى هذه الصفقات من بيع وشراء للسلاح بين إيران والكيان الصهيوني والإدارة الأمريكية، وتهريب للأموال لعصابات الكنترا في عام 1985 . كانت هذه الصفقة، والتي عرفت بفضيحة إيران ـ كونترا ـ جيت، تتضمن بيع إسرائيل 4000 صاروخ من نوع "تاو" المضادة للدروع وأسلحة إسرائيلية أخرى بقيمة 135،848،000 دولار لإيران، وتقوم حكومة إيران بدفع ثمن هذه الأسلحة إلى متمردي الكونترا الموالين للولايات المتحدة الأمريكية في جمهورية نيكاراغوا. فضيحة

[207] موقع ميدل است على شبكة الإنتر نيت العالمية، 1. 7. 2005

إيران ـ كونترا ـ جيت ، التي عقدت بموجبها إدارة الرئيس الأمريكي رونالد ريغان اتفاقا مع إيران، لتزويدها بالأسلحة أثناء الحرب على العراق، وقد عقد الاتفاق جورج بوش الأب، عندما كان نائبا لريغان، لدى اجتماعه برئيس الوزراء الإيراني، أبو الحسن بني صدر في باريس بحضور مندوب "الموساد" آري بن ميناشيا الذي كان له دور في نقل تلك الأسلحة من إسرائيل إلى إيران.

وقع اتفاق توريد السلاح الأمريكي عبر الكيان الصهيوني إلى إيران "جورج بوش" الأب عن الجانب الأمريكي، عندما كان نائب للرئيس ريغان في حينه، ووقعة عن الجانب الإيراني نائب وزير الدفاع الإيراني، وعن الجانب الإسرائيلي "يعقوب نمرودي" والكولونيل "ك.دنغام". كشفت هذه الفضيحة، بالإضافة إلى زيف ادعاءات الحكومة الإيرانية في معاداة إسرائيل والولايات المتحدة، تورط إيران في التآمر على حرية وحياة شعب نيكاراغوا الفقير التي تبعد بلاده آلاف الأميال عن إيران، وبلاده لم تدخل في يوم من الأيام بعلاقة سلبية مع إيران.

على الرغم من الحرب الكلامية التي كانت دائرة بين الولايات المتحدة الأمريكية وإيران طوال فترة الحرب العراقية ـ الإيرانية إلا أن الإمدادات العسكرية الأمريكية لإيران لم تتوقف يوماً واحداً وبقيت مستمرة بعد أن توقفت الحرب العراقية ـ الإيرانية (حرب الخليج الأولى). إن إيصال كميات هائلة من الأسلحة والذخيرة من إسرائيل والولايات المتحدة الأمريكية إلى إيران مع أطقم خبراء التسليح الأمريكية والإسرائيلية لمدة تجاوزت الثماني سنوات الحرب على العراق لا يمكن لها أن تتم دون لقاءات مستمرة ودورية بين ممثلي الأطراف الثلاثة. لقد تجاوزت مشتريات إيران من الأسلحة والذخائر والمعدات العسكرية الأمريكية قيمة 135 مليارد دولار أمريكي خلال أعوام الحرب مع العراق.

إن هذه الصفقات التي تجاوز حجمها الحقيقي عشرات المليارات من الدولارات لا يمكن فهما وتفسيرها حسب فرضية الحاجة والضرورة التي ترددها إيران، بل تأتي على خلفية توافق سياسي استراتيجي بين الأطراف الثلاثة، أمريكا وإسرائيل وإيران، على ضرورة محاربة العراق والانتصار عليه، كجزء من مشروع أكبر، يهدف لإضعاف الوطن العربي والتوافق على تقاسم النفوذ على أنقاضه إن قدر لهم ذلك. وهذه المشتريات الإيرانية، التي تقدر قيمتها الحالية حسب قدرتها الشرائية في حينها، بأكثر من ألفي مليارد دولار أمريكي، لا يمكن لها أن تتم عبر السوق السوداء، أوعبر طرف ثلاث. هذا الحجم التجاري المرتفع، لا بد أن تكون أحجامه وتفاصيله قد تمت حسب اتفاقيات حكومية رسمية بين إيران من جهة والكيان الصهيوني والإدارة الأمريكية من جهة أخرى.

اعترف الرئيس الإيراني السابق، "علي أكبر هاشمي رفسنجاني"، بهذه العلاقات التي تجاوزت بيع وشراء الأسلحة الأمريكية في أثناء الحرب. "وتنظر إليه دوائر عديدة باعتباره محافظا معتدلا يفضل إقامة علاقات أوثق مع الغرب وتحرير اقتصاد البلاد الذي تهيمن عليه الدولة. وينسب إلى رفسنجاني الفضل في إنهاء الحرب التي استمرت من عام 1980 إلى عام 1988 مع العراق وتدبير صفقات سرية لمبادلة الرهائن بالسلاح مع واشنطن في الثمانينيات."[208]

القنوات المفتوحة بين النظام في طهران وإدارة "الشيطان الأكبر" كانت متعددة. أهمها هي "محطة جنيف"، المدينة، التي لازالت تجتمع فيها الوفود الإيرانية والأمريكية الرسمية بشكل دوري منذ عام 1988 دون انقطاع. القناة الثانية هي اللجنة الأمريكية ـ الإيرانية في نيويورك. والقناة الثالثة التي يتم عبرها تنسيق المواقف السياسية والعلاقات السرية بين الحكومات الإيرانية والإدارات الأمريكية هي عبر ممثل الحكومة الإيرانية في الأمم المتحدة "السيد حسينين". وهناك لقاءات حسب الحاجة والطلب كانت تعقد في كل من أنقرة في تركيا ونيقوسيا في قبرص.

مستشارة الأمن القومي في حينه في إدارة بوش الإبن، كوندوليزا رايس، صرحت، حسب صحيفة يو إس إيه توداي في 24 مايو 2004 في مقابلة مع إحدى وكالات الأنباء الأمريكية "أن الأمم المتحدة قد قامت بتيسير اتصالات بين الولايات المتحدة وإيران بصورة منتظمة عبر ما يطلق عليه اسم عملية جنيف، لمناقشة مسائل عملية كانت تتعلق أصلاً بأفغانستان، ثم اتسع نطاقها لتشمل العراق."[209] لقد توجت لقاءات جنيف السرية بين ممثلي حكومة طهران وممثلي الحكومة الأمريكية في لقاء وزير الخارجية الإيرانية كمال خرازي مع وزير الخارجية الأمريكية كولين باول للتحضير لغزو العراق ووضع اللمسات الأخيرة لمخطط التعاون المشترك بين الحكومة الإيرانية والإدارة الأمريكية في مشروع هذا الغزو.

بعد اللقاء الذي تم في مدينة جنيف السويسرية بين وفدي إيران والإدارة الأمريكة في 15 . 2. 2003 صرح كمال خرازي لوكالات الأنباء العالمية عندما سؤل عن مضمون المباحثات التي جرت بين الطرفين وقال: "لقد أطلعنا الأمريكان على تفاصيل الحياة السياسية في العراق وشرحنا لهم عقلية ومواقف المواطن العراقي وصفاته الاجتماعية." يعترف خرازي بأن موضع اللقاء كان بالدرجة الأولى حول العراق والأوضاع داخل العراق. وفضح الوزير الإيراني في لقاء جنيف عن جزء من الدور الإيراني في مشروع غزو العراق في لعب دور المخبر والجاسوس على دولة الجوار. الطرفان المعنيان في هذه العلاقة، إيران والولايات المتحدة الأمريكية، يعترفان على الملأ بالعلاقة العملية

---

[208] موقع اسلام اونلاين نقلاً عن صحيفة التايمز البريطانية في العدد 15. 6. 2005

[209] صحيفة يو إس إيه توداي في 24. 5. 2004.

التنسيقية في التحضير للحروب وخوض هذه الحروب على أفغانستان والعراق، البلدين المسلمين الجارين لإيران. تتابعت الاعترافات وعلى لسان اكثر من مسؤول أمريكي وإيراني بعمق وطول زمن العلاقات السرية بين المسؤولين الإيرانيين وممثلي الإدارات الأمريكية.

وقد أشارت "رايس" في هذه المقابلة مع الصحيفة الأمريكية إلى أن مبعوث الرئيس الأمريكي الخاص، زلماي خليل زادة، قد شارك في محادثات مع مسؤولين من إيران التي انبثقت مباشرة، كما قالت رايس، "من الحاجة إلى معالجة أمر بعض المسائل العملية المتعلقة بأفغانستان ثم وسعنا ذلك ليشمل العراق."[210] زلماي خليل زادة هذا هو المستشار السياسي للرئيس بوش والذي عين في شهر حزيران (يونيو) عام 2005 سفيراً للولايات المتحدة الأمريكية في بغداد. وهو الشخصية الأمريكية التي أشرفت على عمليات التنسيق بين قوات المعارضة الأفغانية في الحرب على أفغانستان، والتنسيق بين مجموعات المعارضة العراقية في التحضير للحرب على العراق، بمشاركة إيرانية مباشرة ونشطة، سرية وعلنية، في كلا الحربين. زلماي خليل زادة أمريكي ينحدر من عائلة فارسية تعيش في جمهورية أفغانستان، يتكلم اللغة الفارسية ويتمتع بثقافة فارسية، وذو ميول سياسية وهوى فارسي. تخرج من الجامعة الأمريكية في بيروت وخبير في شؤون الحروب الأهلية والنزاعات الطائفية والعرقية.

ذكرت أكثر من صحيفة عربية وعالمية مثل الوطن السعودية والقدس العربي في 17 . 1 .2004 تصريحاً صحفياً على لسان أحد المسؤولين الإيرانيين الأساسيين وذات دلالات كبيرة حول جوهر السياسات الإيرانية وحقيقة موقفها تجاه الحرب على العراق والحرب على أفغانستان، وفي نفس الوقت كشف عن جانب مهم من الدور التنسيقي مع الولايات المتحدة الأمريكية في الحرب والعدوان على البلدين الإسلاميين. ليس أقل من "محمد علي أبطحي"، نائب الرئيس الإيراني للشؤون القانونية والبرلمانية، الذي وقف في ختام أعمال مؤتمر "الخليج وتحديات المستقبل"، الذي ينظمه مركز الإمارات للدراسات والبحوث الاستراتيجية سنويا بإمارة أبو ظبي، مساء الثلاثاء 15 . 1. 2004 ليعلن: "إيران قدمت الكثير من العون للأمريكيين في حربيهم ضد أفغانستان والعراق، ولولا الدعم الإيراني للولايات المتحدة الأمريكية في الحرب على أفغانستان وفي الحرب على العراق لما سقطت كابول وبغداد بهذه السهولة".[211]

هذا الاعتراف الصريح لأحد رموز القيادة السياسية الإيراينة، ليس أقل من نائب رئيس الجمهورية الإيرانية، في المشاركة الفعلية في احتلال هذين البلدين الجارين لإيران جاء ليؤكد شئ بات معروفاً ومفضوحاً في الأوساط السياسية، المحلية والإقليمية والدولية،

---

[210] المصدر السابق.

[211] القدس العربي، لندن، عدد 16. 1. 2004 . وكالات الأنباء العربية والعالمية.

حقيقة الدور الإيراني في المنطقة، والدور الإيراني في الحرب على أفغانستان والحرب على العراق. وكشف عن حقيقة العمل المشترك بين إيران والولايات المتحدة الأمريكية، والتنسيق الكامل بين الطرفين، يد بيد وكتف بكتف في الحرب على العراق، ومن قبلها في الحرب على أفغانستان، التنسيق حول غيرهما من الأزمات في المنطقة.

يقول البرلماني المصري مصطفى الفقي: "إن الولايات المتحدة الأميركية تكفلت لإيران بخدمات مجانية ضخمة إذ أن طهران حصدت نتائج أخطاء واشنطن في السنوات الأخيرة، فالولايات المتحدة هي التي أطاحت بنظام صدام حسين واحتلت العراق وحلت جيشه وفتحت أبوابه الجنوبية والوسطى لنفوذ إيراني واسع، ووجهت أيضاً ضربة قاضية لحركة طالبان السنية في أفغانستان، والتي كانت محسوبة على جهاز الاستخبارات الباكستانية ومخصومة من التأثير الإيراني في أفغانستان جارتها القلقة، وكأننا نرى الولايات المتحدة الأميركية - الداعمة في كل الظروف للدولة العبرية- هي التي تتقدم بالخدمات والتسهيلات لإيران."[212] هل جاء الدعم الأمريكي لتحقي الأهداف الأمريكية بمحض الصدفة، أو نتيجة لحنكة سياسية إيرانية، أم كان جزء أساسي من حسابات الإدارة الأمريكية وحسابات المؤساسات ودور البحث العلمي الأمريكية الإستراتيجية، التي ترى بتحقيق بعض الأحداف الإيرانية هو خدمة في نفس الوقت للمصالح الأمريكية في المنطقة العربية البعيدة المدى.

لكن الجرأة في الاعتراف العلني والصراحة غير المعهودة في النهج السياسي عند القادة السياسيين الإيرانيين، والتخلي عن مبدأ "التقية" ومبدأ استراتيجية "الازدواجية بين الظاهر والباطن" في السياسة الإيرانية، في تتالي الإعترافات في العمل المشترك مع الإدارة الأمريكية في حروبها على العرب والمسلمين، جاء على خلفية الإسراع في جني المكاسب، وتذكير الشريك الأمريكي والبريطاني ببقية بنود الاتفاقيات السرية المبرمة في مرحلة التحضير للحرب والاحتلال بين تلك الأطراف لهذين البلدين الإسلاميين. هذا من جهة ومن جهة ثانية شعور القيادات السياسية الإيرانية بالأمن والأمان في استتباب الأمن والاطمئنان على سير الأمور في العراق، كما كان مقدر لها أن تسير من قبل الأطراف المتآمرة في مشروع احتلال العراق. سبعة أشهر من عمر الاحتلال وسبعة أشهر من عمر المقاومة العراقية للاحتلال، هي الفترة الزمنية بين احتلال العراق وتصريح علي الأبطحي، كانت على ما يبدو قصيرة وغير كافية لإقناع هذه الأطراف في ماهية المستنقع الذي يغوصون فيه يوم بعد يوم بفعل المقاومة العراقية.

عبر "محمد علي أبطحي" في نفس التصريح، الفضيحة، عن أساه واسفه للموقف الأمريكي الجاحد والناكر للجميل، وغير الملتزم بالاتفاقيات السرية المبرمة مع الحكومة الإيرانية التي تنص على مكافئة إيران على دعمها للجهد السياسي والإعلامي والحربي

---

[212] صحيفة الحياة، لندن في 16. 1. 2007 .

للولايات المتحدة، "الشيطان الأكبر"، في احتلال العراق وأفغانستان. حسب منطق علي الأبطحي، نائب رئيس الجمهورية الإيرانية، لم يثمن الأمريكان بالقدر الكافي الخدمات الكبيرة التي قدمها الإيرانيون لهم في الحرب على العراق وأفغانستان. وأردف علي الأبطحي في نفس المقابلة الشهيرة قائلا وشاكياً ونادباً العقوق والنكوص الأمريكي عن الوعود والمواثيق التي وقعت بين الطرفين: "لكننا بعد أفغانستان حصلنا على مكافأة وأصبحنا ضمن محور الشر، وبعد العراق نتعرض لهجمة إعلامية أمريكية شرسة". لسان حال الأبطحي يقول بدل إعطائنا الحصة المتفق عليها معهم يعاقبوننا ويشتموننا الحلفاء والشركاء في الحرب. أغلب الظن هذا ما أراد قوله المسؤول الإيراني. من المؤكد أن الكلمة الأخيرة لم تقل بعد في العراق وأن الاحتلال إلى زوال. وأن حليف اليوم سيصبح العدو في الغد.

كشفت صحيفة البيان الإماراتية في 2. 5. 2005 عن فضيحة جديدة متورط فيها الرئيس الإيراني السابق علي اكبر هاشمي رفسنجاني في علاقة سرية مع الإدارة الأمريكية مما أثار استهجان المسؤولين السوريين. "كشفت مصادر إيرانية مسئولة تفاصيل جديدة عن الفضيحة السياسية التي تحمل اسم «قبرص ـ جيت» وتتمحور حول لقاءات سرية بين مسئولين أمريكيين وإيرانيين في قبرص أشعلت الخلاف، بين المحافظين والإصلاحيين في طهران، وترتبط بشخص الرئيس الإيراني السابق هاشمي رفسنجاني الذي تفجرت في وجهه منتصف الثمانينيات من القرن الماضي فضيحة «إيران ـ كونترا ـ جيت» والتي مولت خلالها واشنطن عصابات الكونترا بمبيعات الأسلحة لإيران خلال الحرب مع العراق. ووفقا لمصادر مسئولة فان (قبرص جيت) كشفها الرئيس السوري بشار الأسد خلال مباحثاته مع وزير الخارجية الإيراني كمال خرازي، عندما سأله باندهاش وعدم ارتياح عن حقيقة اللقاء السري بين مسئولين إيرانيين وأمريكيين في قبرص. وطبقا لرواية هذه المصادر فان خرازي أبدى عدم علمه بهذه اللقاءات، واكتفى بتكذيب واقعة اللقاء. إلا أن بشار الأسد أكد لخرازي أن وزير الخارجية الأمريكي كولن باول هو مصدره لمعرفة خبر اللقاء وعندها لم يعلق خرازي لكنه عاد إلى طهران ليفجر فضيحة (قبرص ـ جيت)."[213] حتى مع الحلفاء يتعامل المسؤولون الإيرانيون بمبدأ التقية وعدم الصدق والصراحة المألوفة بين الحلفاء.

صبحي الطفيلي الأمين العام السابق لحزب الله اللبناني وأحد مؤسسي هذا الحزب صرح في مقابلته مع محطة الجزيرة الفضائية في 25 .9 .2003 وقال: "حتى لا نخدع أنفسنا، أقول لا شك أن هناك حوار أمريكي ـ إيراني بدأ قبل غزو العراق. وان وفدا من المجلس الأعلى للثورة الإسلامية المؤيد لإيران زار واشنطن لهذه الغاية. والتيارات الإيرانية في العراق هي جزء من التركيبة التي تضعها الولايات المتحدة في العراق.

---

[213] صحيفة البيان الإماراتية في 2. 5. 2005

حتى أن أحد كبار خطباء الجمعة في العاصمة الإيرانية قال في خطبة صلاة الجمعة أنه لولا إيران لغرقت أمريكا في وحل أفغانستان. فالإيرانيون سهلوا للأمريكان دخول أفغانستان ويسهلون بقائهم الآن. أما القول عن اعتقال سفير سابق هنا أو حديث عن سلاح نووي هناك فهو يدخل من باب السعي الأمريكي لتحسين شروط التعاون الإيراني. التشيع يستخدم الآن في إيران لدعم المشروع الأمريكي في أفغانستان. ومن هنا أقول لكل الشيعة في العالم أن لا يجري باسمهم أعمال لا علاقة لهم بها. وهذه أعمال المتضرر الأكبر منها الإسلام والتشيع."[214] السيد الطفيلي يتكلم بلسان العارف وهو الشخصية السياسية اللبنانية التي عملت مع القيادات السياسية الإيرانية لأكثر من عشرين عاماً متواصلة ويعرف خبايا الأمور وتفاصيلها ومطلع عما يدور في أروقة السياسة الإيرانية السرية. كان عضو في حزب الدعوة الإيراني ـ العراقي وأحد مؤسسي حزب الله اللبناني بالتعاون مع الأجهزة الحكومية الإيرانية المختلفة.

كانت صورة اجتماع الوفد الأمريكي برأسه السفير الأمريكي، كروكر، في بغداد والوفد الإيراني برأسة السفير الإيراني، حسن كاظمي، في بغداد في مكتب رئيس الوزراء العراقي نور المالكي في 28. 5. 2007 ، معبرة عن واقع الحال ومختصرة لجملة من الحقائق في آنٍ معاً. أطراف الإحتلال الحقيقية تتفاوض حول مصير البلد المحتل بحضور شاهد الزور العراقي المنصب. بعد اللقاء الأول خرج السفير الأمريكي إلى الصحفيين في المنطقة الخضراء في بغداد وصرح قائلاً : "حدد الوفد الإيراني أهدافه في العراق وكانت هذه الأهداف الإيرانية تجاه العراق متشابهة ومماثلة للأهداف الأمريكية في العراق." كان السفير الأمريكي مصيباً وربما صادقاً عندما أكد على لسان الوفد الإيراني تشابه الأهداف والمصالح القوى المحتلة في بلد وقع تحت الإحتلال.

يجب التذكير مرة أخرى بطبيعة الخطاب الإيراني المزدوج. الخطاب العلني والخطاب العملي. الخطاب الظاهري والخطاب الباطني. ففي القاموس السياسي الإيراني الشيطان الأكبر في العلن يوازي ويساوي الصديق الأكبر والحليف العملي خلف الكواليس وفي الأروقة السرية، والثقافة الفارسية تسمح في ممارسة تلك الازدواجية ولا يشعر من يمارسها بالحرج أو الذنب وتأنيب الضمير.

الجانب الآخر من العلاقات الأمريكية ـ الإيرانية هو حاله التوتر والصدام والتحريض عبر وسائل الإعلام. هذا التوتر والحرب الكلامية ليست كلها مفبركة ومصطنعة بل تنم عن خلافات جوهرية بين الدولتين مصدرها خلاف المصالح وتصادم المشاريع لكل من الدولتين في المنطقة. فمصالح هاتين الحكومتين تتقاطع وتلتقي في جانب من الجوانب وفي عدد من الأهداف الجزئية، لكنها تتناقض وتختلف في جوانب وأهداف أخرى. أهداف ومشاريع هذين البلدين السياسية والاقتصادية والعسكرية في المنطقة العربية

[214] محطة تلفزيون الجزيرة الفضائية القطرية في الدوحة في 25 .9 .2003

ليست متماثلة، وتصطدم وتختلف، بل تتناقض في أكثر من هدف. النظرة العامة لصناع القرار الأمريكان حول إيران ودورها في المنطقة لا تبتعد عن الخطوط العريضة التالية:

الولايات المتحدة يجب أن تستفيد من الخدمات التي تقدمها إيران لتحقيق الأهداف الأمريكية في المنطقة العربية والعالم الإسلامي.

لكن الولايات المتحدة لا تعتبر إيران حليف استراتيجي لها.

والأطماع الأمريكية في العالم الإسلامي وما يسمى دول العالم الثالث لا تستثني منها إيران ومواردها الطبيعية.

الدوائر السياسية والثقافية في الولايات المتحدة الأمريكية، وخاصة تيار المحافظين الجدد هناك يعتقدون بأزلية العداء مع الإسلام والحضارة والثقافة الإسلامية بكل أطيافها وطوائفها ومشاربها ولا تستثني منهم أحداً.

فالغزل الذي يشاع من بعض المستشرقين الأمريكان والغربيين لهذا التيار السياسي وتلك الطائفة في إيران والشرق الإسلامي ليس إلا تمايل وخداع ومخاتلة يشبه رقص الأفاعي.

المكاسب والتنازلات التي تقدمها القوى الغربية لإيران أو أي طرف آخر من دول العالم الإسلامي تبقى هامشية ومؤقتة ستعمل هذه القوى على تجريدها تلك المكاسب كل ما سنحت الفرصة بذلك. فالصمت الأمريكي على توسيع دائرة النفوذ السوري في لبنان بعد طرد العماد عون من قصر بعبدا في بيروت مقابل اشتراك سوريا في حرب الخليج الثانية عام 1991 إلى جانب القوات الأمريكية ضد العراق يشكل النموذج الحي للسياسة الغربية مع دول وشعوب المنطقة العربية والإسلامية. في أول فرصة سنحت للولايات المتحدة الأمريكية وفرنسا من تجريد السوريين من المكاسب التي حققوها في لبنان تم استغلالها بكل قسوة ودون أي اعتبار لكرامة من كان في الأمس القريب حليفاً أو متعاوناً وصديق. اخرج السوريون من لبنان بعد اغتيال رئيس الوزراء اللبناني السابق رفيق الحريري. وتم تجريد السوريين من أهم أوراق القوة التي كانت في أيديهم في معمعة المناكفات القطرية، والفئوية، الضيقة السائدة في المنطقة العربية، ولم يتوقف مسلسل الخسائر السورية بعد.

هناك مجموعة من الأوهام متفشية بين صفوف قطاعات واسعة من الشعوب الإيرانية. هذه الأوهام لها أثارها الكبيرة على سلوكيات وتفكير الطبقة السياسية الفارسية في الحكومة وفي المعارضة على حد سواء. تشترك اغلب الفئات الثقافية والفكرية الفارسية مع القوى السياسية في هذه الأوهام والأمنيات. من أهم تلك الأوهام:

السعي بإقناع الدول الغربية بإقامة علاقات مميزة ومتينة مع هذه الدول تقوم على أساس اعتراف الدول الغربية للدور الإيراني المهم في الشرق الإسلامي والوصول في هذه العلاقات إلى الندية في التعامل والاعتراف بمصالح إيران في المنطقة .

تقديم إيران والشعوب الإيرانية كامتداد طبيعي للشعوب الآرية في الشرق السامي.

انتشار وهم بناء إمبراطورية فارسية مترامية الأطراف كما كان الحال في دوله الساسانيين قبل أربعة عشر قرن مضت.

لكن الحكومات الغربية والمؤسسات الغربية، وبل المجتمعات الغربية، بقواها الحية والمؤثرة، لا يبادل الفرس نفس الحب والمشاعر، والطموح والأوهام، باعتبار إيران، واعتبار الشعب الفارسي كجزء من الشعوب الآرية. بل للغرب مفاهيمة وتصوراته المتجذرة منذ قرون عن الشرق بكل مكونهاته القزمية والدينية وعن إيران أيضاً:

لازال الغرب يرى بإيران والفرس كجزء من ضمن دول الشرق وثقافة الشرق والعالم الإسلامي.

ولازال الغرب يرى إيران وموارد إيران الطبيعية هدف مشروع لطموحه الاستعماري.

الدول الغربية تعمل باستمرار على إبقاء إيران كدولة تابعة يسهل السيطرة عليها وعلى مواردها الطبيعية والبشرية. السماح لهذه الدولة في امتلاك قدر من القوة العسكرية تسمح لها في تهديد الدول الإسلامية المجاورة واستنزاف بعضها كل ما دعت الظروف والحاجة الغربية لذلك. هذه المسلمات ظلت المحرك والموجه الأساسي لموقف القوى المتنفذة في المؤسسات الرسمية والشعبية في دول الغرب تجاه إيران.

بشكل عام ظل الناظم الأساسي لعلاقة الدول الغربية بإيران هو الاستفادة القصوى من الإستعدادية الإيرانية العالية لتقديم خدمات للغرب على حساب شعوب الشرق تماشيا مع رغبة النخبة الإيرانية السياسية والثقافية في التماثل مع الغرب، والانفصال عن الشرق، وتلبية واستجابة للرغبات الفارسية المعادية للعرب والعالم الإسلامي.

على الرغم من كل ما قدمته إيران عبر القرون الأربعة الأخيرة، وعلى وجه الخصوص خلال المائة عام الأخيرة ،من الخدمات الكبيرة للدول الاستعمارية الغربية المختلفة في اختراق الشرق الإسلامي، والعمل المشترك مع الدول الاستعمارية الغربية على إضعاف العرب والدول الإسلامية الأخرى، على الرغم من غنى هذه الدولة بالمواد الأولية كالغاز والبترول الطبيعيين المستخرج منذ عام 1925 من أرض إقليم الأحواز العربي المحتل، وعلى الرغم من كبر مساحة هذه الدولة وإطلالها على ثلاثة بحار، بقيت إيران بالمحصلة النهائية دولة فقيرة، ومجتمع متخلف يشابه في كل شئ مجتمعات

ودول العالم الإسلامي ودول العالم الثالث، ولم يسمح الغرب لهذه الدولة أن تتطور صناعيا وعلمياً كما سمح لليابان وكوريا الجنوبية على سبيل المثال.

فالحصار الاقتصادي الأمريكي المعلن على إيران، والحرب الإعلامية الدائرة بين الطرفين تركت كثير من الآثار السلبية على سير العلاقات بين البلدين. تعيش الإدارة الأمريكية وتعيش الحكومات الإيرانية مأزق إعلان العلاقات السياسية بينهما. لما لهذا الإعلان من محاذير في التأثير السلبي على مصداقية القوى الحاكمة عند شعوب البلدين وشعوب المنطقة العربية تترد طهران وواشنطن عن الإعلان والتصريح عن هذه العلاقات المواربة والمميزة. إعلان إيران عن طبيعة العلاقات مع الغرب، ومع واشنطن والكيان الصهيوني، ستفقد إيران ورقة من أهم أوراقها الأساسية في ممارسة اللعبة السياسية على المسرح الإقليمي وعلى المسرح الدولي. وستفقد إيران أي تأثير على القوى السياسية في المنطقة، وستغلق بذلك الأبواب في وجه الحكومات الإيرانية في سعيها المستمر والمستميت في اختراق المجتمعات العربية والمجتمعات الإسلامية.

الإيرانيون يختبئون خلف يافطات وشعارات الإسلام الثوري ومحاربة إسرائيل والصهيونية و"الاستكبار الغربي" في سياستهم الخارجية. الكشف عن نوع العلاقات الحقيقية بين إيران والولايات المتحدة ستوقع إيران في مأزق فقدان الثقة في هذه الحكومة وهذه الدولة وتحذفها في زاوية العزلة الإقليمية الخانقة على المستوى الرسمي والشعبي، وستجعل الحكومات الإيرانية فاقدة لأي آلية في التأثير على دول الجوار والمجال الجغرافي الإقليمي. التخلي عن الإدعاء في الوقوف إلى جانب الشعب الفلسطيني والعداء مع إسرائيل سيشكل بالتأكيد ضربة قاتلة لمشروعية الحكم في إيران، التي كانت أحد المبررات الأساسية في ضرورة إزاحة الشاه عن سدة الحكم في طهران وكسب الأنصار والموالين والقوى التابعة في المنطقة.

الصفقة السياسية الإيرانية ـ الأمريكية الكبرى

بعد أن أيقن الإيرانيون أن العراق قد تم احتلاله وأن العراق قد وقع، وبمساعدة القوات الأمريكية، تحت قبضتهم وتأثيرهم المباشر عبر عملائهم ومناصريهم تقدم الإيرانيون بمشروع شراكة للأمريكان لإحكام سيطرتهم على المنطقة العربية. هذه الخطوة كانت تتويج لخطوات سبقتها للعمل المشترك حول مشروع جزئي من المشاريع الكثيرة في المنطقة العربية والتي كان آخرها مشروع احتلال العراق.

في نهاية شهر ديسمبر الماضي (2007)، عرض برنامج "فرونت لاين" الأميركي حلقة حول قضية العرض الإيراني الذي ذكرت أنباء سابقة أن إيران قدّمته للأميركيين، الذين رفضوه. وكانت مفاجأة الحلقة أن الإيرانيين سمحوا للفريق الصحفي بمقابلة الشخصيات الرئيسية(في معسكر المتشدّدين) المعنية بملفّ العرض.

لقد تأكد من خلال الحوار أن الحكومة الإيرانية بعد أسابيع قليلة من غزو العراق في العام 2003، بعثت إلى واشنطن وثيقة مدهشة عبر سفير سويسرا في طهران. وهو سفير لدولة كانت تلتقي الوفود الأمريكية والإيرانية بشكل دوري على أراضيها منذ عام 1988 (محطة جنيف). عرضت في هذه الوثيقة شروط "صفقة كبرى" متوازنة لضمان مصالح الأطراف المعنية، تعادل معاهدة سلام بين الولايات المتحدة وإيران أو مشروع استراتيجية مشتركة للطرفين لمنطقة الشرق الأوسط. وتضمّنت الوثيقة كل المواضيع السياسية الأساسية: من موضوع دعم إيران للإرهاب، وبرنامجها النووي، وحتى موضوع عداء إيران لإسرائيل. بالمقابل، طالبت الوثيقة بضمانات أمنية أميركية، وبوضع حدّ للعقوبات، وبتعهّد بعدم السعي لتغيير النظام الإيراني، وكذلك ضمان نفوذ ومصالح إيران في العراق والمنطقة العربية.

كان مغزى الوثيقة أن الإصلاحيين الإيرانيين كانوا يسعون مجدّداً للتواصل مع واشنطن، إلى مشروع تفاهم واتفاق كما فعلوا بعد عملية 11 سبتمبر مباشرة، ولكن هذه المرة على كل الأصعدة والمجالات.

لقد رفض الأمريكان هذا العرض والمشروع الصفقة لأنهم كانوا يعتقدون في تلك الأيام، وبعد احتلال العراق، أن المنطقة أصبحت تحت وطأتهم ولا حاجة بعد للدور الإيراني، وربما لا حاجة للتنازل لإيران مقابل الأدوار التي كانت تضطلع بها كما كان الحال في الماضي القريب. إعتقد الإيرانيون أن الفرصة أصبحت مواتية لقطف ثمار العمل المشترك بينهم وبين الأمريكان في المنطقةخلال العقدين الماضيين، وأن الأمركان أصبحوا جاهزين لعقد هذه الصفقة الكبرى. لقد خاب ضن المسئولين الإيرانيين لشدة الرفض الأمريكي لمجرد نقاش هذا المشروع ، الصفقة الكبرى، وعبر أكثر من مسؤول

إيراني عن خيبة الأمل هذه. محمد علي أبطحي، نائب الرئيس خاتمي، يقول: "نشرت أنباء حول هذه الوثيقة في صحافة إيران، كذلك. لم تكن سرّاً، ولكنها لم تسفر عن نتيجة. وحينما انكشف الموضوع في إيران، كان ذلك موضوعاً لنزاع حول ما إذا كانت الوثيقة تحظى بموافقة كل مستويات الحكومة الإيرانية. وهذا ما يجعلني أتردّد في بحث هذا الموضوع. لأنه عندما خرجت القضية للعلن، فإن جوانب عدة منها لم تكن واضحة، ولم يكن واضحاً ما إذا كانت كل مستويات القيادة توافق عليها". إذاً هي صفقة غير سرية كما يدعي الأبطحي. لكن العالم عرف عن هذه الصفقة بعد خمسة أعوام عن طرها بين واشنكطن وطهران. وربمكا كان يقصد هذه الصفقة عندما تحدث الأبطحي عن خيبة أمل حكومته أمام وسائل الإعلام في دبي عام 2004.

ماذا كانت إيران تتوقع مقابل تعاونها مع العملية الأميركية لإسقاط نظام طالبان، يقول محمد علي أبطحي:

" أقل ما كان يمكن أن نتوقعه، في ذروة جهودنا لإجراء إصلاح حقيقي في إيران، هو ألا نوصم بأننا عضو في "محور الشر". سياسياً، كان ذلك تصرّفاً غريباً. لقد ساعدنا في الإطاحة بالطالبان. وبدلاً من أن يفتح ذلك الباب لمزيد من التعاون فقد أطلقوا شعار "محور الشر". كان ذلك أكبر خطأ سياسي واستراتيجي ارتكبه السيد بوش. والسبب الرئيسي لهذا الخطأ هو أن الأميركيين لا يفهمون الشرق الأوسط. وقد ثبت لنا صحّة إعتقادنا هذا حينما وقعت حرب العراق.. بعد العراق وأفغانستان، كان بوسع الأميركيين أن يعتمدوا منحى يتيح هزيمة الإرهاب في العالم."[215] من الناحية الميدانية والعملية كان الإيرانيون موافقون على احتلال العراق وأفغانستان، وكان يأمل الحكام في طهران في استمرار جورج بوش وإدارته بتهديم دول الشرق افسلامي وتهديم الدول العربية واحتلالها الواحدة تلو الأخرى، تحت شعار محاربة الإرهاب.

الوثيقة الكاملة: العرض الإيراني الذي تم إرساله للولايات المتحدة بواسطة سفير سويسرا في طهران في العام 2003

الأهداف الإيرانية:

(تقبل الولايات المتحدة حواراً يقوم على "الإحترام المتبادل" وتوافق على أن تضع إيران الأهداف التالية على جدول الأعمال:

* وقف السلوك الأميركي العدائي وتصحيح وضعية إيران في الولايات المتحدة:

[215] موقع الشرق الأوسط من مقال كتبه بيار عقل تحت عنوان الصفقة التي عقدتها إيران عام 2003 " بتاريخ 16 . 1. 2008

(التدخل في العلاقات الداخلية أو الخارجية، "محور الشر"، قائمة الإرهاب.)

* إبطال كل العقوبات: العقوبات التجارية، الأصول المجمّدة، الأحكام (بموجب "قانون الحصانات السيادية الأجنبية FSIA)، العراقيل في التجارة الدولية وفي المؤسسات المالية.

* العراق: حكومة ديمقراطية تامّة الصفة التمثيلية في العراق، وتـأييد الدعاوى الإيرانية بخصوص الحصول على تعويضات حرب من العراقن واحترام مصالح إيران الوطنية في العراق والصلات الدينية مع النجف وكربلاء.

* حق امتلاك التكنولوجيا النووية والبيولوجية والكيميائية السلمية بدون قيود.

* الإعتراف بمصالح إيران الأمنية المشروعة في المنطقة (وبحق إيران في امتلاك) قدرة دفاعية متناسبة مع هذه المصالح.

* الإرهاب: ملاحقة الإرهابيين المناوئين لإيران، وبالدرجة الأولى منظمة "مجاهدي خلق" ومساندة هدف إبعاد أعضائها من العراق، والقيام بعمل حاسم ضد كل الإرهابيين المناوئين لإيران، وخصوصاً منظمة "مجاهدي خلق" والمنظمات التابعة لها في الولايات المتحدة.

الأهداف الأميركية: (تقبل إيران حواراً يقوم على "الإحترام المتبادل" وتوافق على أن تضع الولايات المتحدة الأهداف التالية على جدول الأعمال)

* أسلحة الدمار الشامل: الشفافية التامة للتحقق من عدم قيام أية هيئة إيرانية بجهود لتطوير أو لامتلاك أسلحة دمار شامل، والتعاون الكامل مع "الوكالة الدولية للطاقة الذرية" إستناداً إلى إقرار إيران لكل الأدوات المناسبة لهذا الغرض (93+2 وكل بروتوكولات الوكالة الأخرى).

* الإرهاب: عمل حاسم ضد أي إرهابيين ("القاعدة" بالدرجة الأولى) موجودين ضمن أراضي إيران، وتعاون كامل، وتبادل كل المعلومات المتعلقة بالإرهاب.

* العراق: تنسيق النفوذ الإيراني مع النشاط الهادف إلى تحقيق الإستقرار السياسي وإلى إقامة مؤسسات ديمقراطية وحكومة غير دينية.

* الشرق الأوسط: 1) وقف أي دعم مادي لجماعات المعارضة الفلسطينية (حماس، والجهاد، إلخ) من أراضي إيران، والضغط على هذه المنظمات لوقف عملياتها العسكرية ضد المدنيين ضمن حدود 1967. 2) التأثير على حزب الله ليصبح مجرّد تنظيم سياسي داخل لبنان 3) قبول إعلان الجامعة العربية (المبادرة السعودية، سياسة الدولتين)

الخطوات التنفيذية:

1- الإبلاغ عن موافقة الفريقين على منهج العمل التالي

2- إعلان متزامن من الفريقين "كنا دائماً على إستعداد لإجراء محادثات مباشرة ومخوّلة مع الولايات المتحدة/ مع إيران بنيّة حسنة وبهدف إجراء نقاش – وفقاً لمبدأ "الإحترام المتبادل"- لمصالحنا وهمومنا المتبادلة إستناداً إلى مزاياها وإلى الوقائع الموضوعية، ولكن موقفنا كان على الدوام واضحاً ومفاده أنه، لكي تنعقد مثل هذه المحادثات، فلا بدّ أن يكون ممكناً تحقيق تقدّم حقيقي بانجاه إيجاد حلّ لاهتمامنا".

3- سيُقعد إجتماع مباشر أوّل على المستوى المناسب (في باريس، مثلا) بناءً على الأهداف المتّفق عليها مسبقاً.

أ- حول قرار يتعلّق بالخطوات المتبادلة الأولى

* العراق: إنشاء مجموعة مشتركة، دعم إيراني نشط لتثبت إستقرار العراق، إلتزام أميركي بدعم دعاوى إيران للحصول على تعويضات حرب في إطار النقاشات حول ديون العراق الخارجية.

* الإرهاب: إلتزام أميركي بنزع سلاح "مجاهدي خلق" وإبعادهم من العراق واتخاذ إجراءات تنسجم مع قرار مجلس الأمن الدولي رقم 1373 ضد قيادتها. إلتزام إيراني بتعزيز العمل ضد أعضاء "القاعدة" في إيران، واتفاق حول التعاون وتبادل المعلومات.

* بيان إيراني عام "بتأييد حلّ سلمي في الشرق الأوسط يشارك فيه الفرقاء المعنيون"

* بيان أميركي عام بأن "إيران ليست ضمن محور الشر"

* موافقة الولايات المتحدة على إزالة العراقيل ضد إيران في المؤسسات المالية والتجارية الدولية.

ب- حول إنشاء ثلاث مجموعات عمل متوازية حول نزع التسلّح، والأمن الإقليمي، والتعاون الإقتصادي. أهدافها هي الإتفاق على ثلاث خرائط طريق متوازية، وفي ما يتعلق بنقاشات مجموعات العمل هذه فإن كل واحد من الفريقين يوافق على أن أهداف الفريق الأخر (كما وردت أعلاه) ستدرج ضمن جدول الأعمال:

1) نزع السلاح: خريطة طريق، تشمل الأهداف التي تتضمن، من جهة، الشفافية التامة إزاء الإلتزامات الدولية وضمانات بالإمتناع عن أسلحة الدمار الشامل مع، من جهة أخرى، حق الحصول بدون قيود على التكنولوجيا الغربية (في هذه الميادين).

2) الإرهاب والأمن الإقليمي: خريطة طريق للأهداف المذكورة أعلاه في ما يتعلق بالشرق الأوسط والإرهاب.

3) التعاون الإقتصادي: خريطة طريق لإبطال العقوبات، وإلغاء الأحكام القضائية، ورفع التجميد عن الأصول.

ت- حول الإتفاق على جدول زمني للتنفيذ

ث- وحول بيان علني يصدر بعد انتهاء هذا الإجتماع الأول.

على الرغم من رفض الطرف الأمريكي في تلك الأيام، في عام 2003 ، التفاوض مع الطرف الإيراني حول هذا العرض الإيراني، والذي عرف لاحقاً بالصفقة الكبرى، إلا أن ممثلي الإدارة الأمريكية اجتمعوا لاحقاً عدة مرات ، في السر وفي العلن، مع ممثلي الحكومة الإيراينة في العاصمة العراقية، وفي عواصم غربية أخرى. عرفت هذه اللقاءات بسلسلة اللقاءات الأمريكية ـ الإيرانية للتباحث وللإتفاق حول جملة من القضايا المتعلقة بالشأن العراقي. لقد أكدت أغلب المصادر الأمريكية والإيرانية على أن مباحثات الأمريكان والإيرانيين في بغداد كانت تدور حول عموم قضايا المنطقة العربية، وليس حول الوضع في العراق فقط كما كانت طهران وواشنطن في كل مرة تدعيان. من المؤكد أن الأوضاع في العراق كانت الغطاء المناسب لمتابعة الحوار بين الطرفين المستمر منذ زمنٍ طويل.

العلاقات الإيرانية ـ الإسرائيلية

إن نسج العلاقات السياسية بين الكيان الصهيوني والدولة البهلوية والجمهورية الإسلامية في إيران تستند إلى مسوغات تاريخية وأخرى سياسية وثالثة بنيوية للمجتمع وشكل الدولة في كلا الكيانين.

قبل خمسون عاماً من احتلال الفرس لمدينة بابل كان الملك الآشوري، نبوخذنصر ملك بابل، قد دخلت جيوشه الشام وفلسطين في عام 592 قبل الميلاد، وقام نبوخذنصر أثناء حملته العسكرية هذه بإنهاء وجود آخر التجمعات اليهودية في فلسطين. وقام وبسبي بقايا التجمعات اليهودية هناك ونقلها إلى العراق وإلى العاصمة مدينة بابل.

بعد غزو الدولة الساسانية العراق القديم واحتلال بابل وتدمير الحضارة البابلية في القرن السادس قبل الميلاد في عصر حكم السلالة الأخمينية (558 - 529) . عقد التحالف الأول بين أول دولة للفرس وتجمعات اليهود السبايا على أرض العراق القديم وعلى أنقاض بابل. نظراً للخدمات التي قدمها السبايا اليهود في مساعدة الغزاة الفرس في اجتياح بابل، أعاد كورش، ملك الفرس آنذاك، اليهود من بابل إلى فلسطين، ليكونوا له عوناً وطابور خامس عندما يقدم على اجتياح بلاد الشام ومصر. وهذا ما تحقق عندما اجتاح الملك الأخميني الثاني، "قمبيز"، الشام ومصر في عام 524 ق.م، كان اليهود في بلاد الشام المساعد والرديف والعيون للجيوش الفارسية الغازية في احتلال بلاد الشام ومصر.

تستعمل وتستحضرهذه العلاقة في التاريخ بين اليهود والفرس في حاضرنا كمستند تاريخي لنسج علاقات حاضرة تخدم مصلحة بين الطرف الإيراني والطرف الإسرائيلي في المنطقة. الوعي في هذا الحدث وهذه العلاقة بين الطرفين في التاريخ متفشية ومنتشرة بين الأوساط الشعبية والأوساط الثقافية والسياسية عند الفرس واليهود على حد سواء، وتكاد تكون من أهم المكونات المعرفية في التاريخ في الأوساط الثقافية الفارسية واليهودية في كل أماكن تواجدهم. في عهد الشاه محمد رضا كانت المجاهرة بهذا الوعي مجال فخر واعتزاز، وكانت هذه العلاقة في التاريخ تطرح في الإعلام الإيراني وفي الأوساط السياسية الإيرانية كمبرر تاريخي لتمتين العلاقات الإيرانية ـ الإسرائيلية.

تعتمد ا الفلسفة السياسية والفكرية لمشروع الدولة الإيرانية الأبعاد التاريخية والأبعاد الثقافية والأبعاد العرقية ومن ثم الدينية المذهبية كأساس لمحاكاة الحاضر والمستقبل. هذه الفلسفة التي تعرف الذات وتحدد صفاته، وتعرف الأخر وتصيغ أوصافه وملامحه، تقترب كثيراً من أسس وأبعاد فلسفة مشروع الدولة الإسرائيلية ومن اسس الفكر الصهيوني في انشاء الكيان السياسي الإسرائيلي. إن الجهد الذي يبذل في الأوساط السياسية والثقافية والدينية الفارسية من اجل تمييز الذات الفارسية عن شعوب الجوار الثقافي والجغرافي، بشكله ومضمونه العدواني والعنصري يشابه إلى حد كبير ما تمارسه الأوساط الصهيونية المتعصبة في فلسطين منذ قرن من الزمان. مثلما أسست وبنيت الدولة الصهيونية على أساس ومسوغ ديني ضيق تقوم ايضاً الدولة الإيرانية على أساس مسوغ ديني وطائفي ضيق. التعريف الضيق لهوية الدولة وتعريف المجتمع فرض على منتسبيها نوع من العزلة والانطواء والشعور الدائم بالحصار من كيانات ومجتمعات الجوار. التركيز على إبراز الهوية الطائفية للمجتمع الإيراني وجعلها من أهم المكونات الأساسية للقومية الفارسية تشابهت إلى حد كبير في تعريف الصهاينة "للقومية الصهيونية" ومكانة الدين اليهودي الأساسية في تعريف الهوية القومية عندهم.

وهناك نظرة سياسية استراتيجية تتفق حولها أغلب أوساط النخبة الإيرانية منذ قرن مضى، بأن إيران دولة إسلامية شيعية في وسط اغلبية سنية ساحقة ولا يمكن خلق توازن مع هذا المحيط الكبير إلا بالارتباط بالعالم الغربي والعمل معه. حسب هذا التقييم والتوصيف لواقع الكيان الإيراني في الوعي السياسي العام عند الفرس فهناك وجه تشابه بين العوامل المكونة لوضع إيران مع محيطها وبين الوعي السياسي العام عند تجمعات الصهاينة حول تشخيص واقع الحال للكيان الصهيوني في فلسطين المحتلة. وجه التشابه ليس في تحديد الشروط التي تحيط بهذين الكيانين السياسيين عند النخب الفارسية والنخب الصهيونية، لكن أيضا أوجه التشابه تمتد وتشمل شكل العلاقة مع المحيط الجغرافي والثقافي لهذين الكيانين التي تسود فيهما سمة العداء والغطرسة والرغبة في التوسع على حساب هذا الجوار. وفي نفس الوقت التودد والتقارب مع أوروبا والعالم الغربي كلما اشتدت حدة الصراع الغربي مع شعوب المنطقة العربية والعالم الإسلامي. فالصهاينة يعتبرون إسرائيل قوة تمثل امتداداً ثقافيا للعالم الغربي، وتشكل رأس حربته في المنطقة. والنخب الفارسية مصرة على اعتبار الفرس والشعوب الإيرانية هي امتداداً عرقياً للغرب وللشعوب الهندو ـ آرية والتنصل من الانتماء للعالم الإسلامي وعالم الشرق برمته.

العمل مع إسرائيل، بنظر بعض الدوائر السياسية المؤثرة في إيران، واجب وضرورة قومية استراتيجية. في هذه النظرة الإستراتيجية تتفق أوساط مؤثرة من داخل التيار القومي الفارسي والتيار الديني في إيران مع وجهه نظر غلاة المتطرفين الصهاينة في

الدولة وخارج الدولة الصهيونية. يعيش في الكيان الصهيوني قرابة 75000 مستوطن يهودي من أصول إيرانية ويعيش في إيران قرابة 25000 يهودي، وتعتبر هذه الجالية اليهودية أكبر تجمع يهودي بالشرق بعد الكيان الصهيوني. يعتبر تأثير القيادات اليهودية ذات الأصول الفارسية كبير على السياسات الإسرائيلية المتبعة وتحتل تلك القيادات مواقع أساسية في قمة الهرم القيادي في جسم الدولة الصهيونية. "ذكرت مجلة "جينز" العسكرية البريطانية المتخصصة أن يهود إيران الذين قدموا إلى إسرائيل يصنعون حاليا السياسة الإسرائيلية، مشيرة إلى أن ابرز الشخصيات اليهودية الإيرانية التي تصنع القرار الإسرائيلي: الرئيس موشيه كاتساف، ووزير الدفاع السابق ،نائب رئيس الحكومة حاليا شاؤول موفاز، و رئيس أركان الجيش دان حالوتس."[216]

[216] نقلاً عن موقع فضائية العربية، في 10. 10. 2006 .

العلاقات الإيرانية ـ الإسرائيلية
في عهد الشاه محمد رضا بهلوي

منذ الأيام الأولى لتأسيس الكيان الصهيوني على ارض فلسطين نسجت أولى خيوط العلاقات الإيرانية ـ الإسرائيلية. في عام 1951 اعترفت إيران بالكيان الصهيوني على ارض فلسطين وقامت إيران، بعد تأسيس الكيان مباشرة، في مساعدة المنظمات الصهيونية "الهاغانا" و منظمة " الهالوس في تهريب اليهود العراقيين إلى الكيان الصهيوني بين الأعوام 1948 و1951 . وتكفل الشاه محمد رضا بهلوي وحكوماته المتعاقبة منذ عام 1951 من تأمين ما يحتاجه الكيان الصهيوني من النفط.

تطورت العلاقات الاقتصادية والسياسية بين إيران وإسرائيل أكثر بعد تسارع وتيرة نمو حركة التحرر الوطني العربي وتزايد قوة حالة النهوض القومي العربي، وتنامي تأثير الأحزاب والحركات القومية العربية في مصر وسوريا والجزائر والعراق واليمن بالدرجة الأولى وبقية الأقطار العربية الأخرى على مسار الأحداث في المنطقة وخارج حدود المنطقة. هذه النهضة التي أدت إلى تحرير اكثر من 80% من مساحة الوطن العربي وحررت الأغلبية الساحقة من سكان الوطن العربي من رقبة الاستعمار الغربي المباشر كانت سبباً أساسياً بتمتين العلاقات الإيرانية ـ الإسرائيلية. وساهمت حالة النهوض هذه في إعادة إحياء القضية الفلسطينية من جديد من خلال دعم المقاومة الفلسطينية وبناء الكيان السياسي الفلسطيني المتمثل بمنظمة التحرير الفلسطينية.

هذه التطورات الكبيرة التي حصلت في أعوام الخمسينات، وعلى وجه الخصوص على الجبهة الفلسطينية خلق نقاط لقاء جديدة بين الكيان الصهيوني ودولة إيران الشاه. فالفرس يحتلون مثل الصهاينة، أرض عربية. لقد احتل الفرس إقليم الأحواز (عربستان)، وجزر الإمارات العربية المتحدة في الخليج العربي، الطنب الصغرى والطنب الكبرى وأبو موسى. وحكام إيران وطامحون باحتلال المزيد من الأرض العربية في العراق والخليج العربي. فالدعم العربي للشعب الفلسطيني، والمقاومة الفلسطينية المسلحة المتنامية ضد مشروع الاحتلال الصهيوني لأرض فلسطين العربية، وظهار بعض القوى العربية استعدادها لدعم شعب الأحواز ذد المحتل الفارسي خلق عوامل لقاء بين الكيان السياسيي الإيراني والكيان السياسي الصهيوني.

في عام 1957 قام رئيس جهاز الأمن والمخابرات الإيراني، "جهاز السافاك"، الجنرال "بختيار" بزيارة إلى إسرائيل. أجرى بختيار مباحثات مع نظرائه الإسرائيليين اعتبرت في حينها ناجحة، تم الاتفاق فيها على تبادل المعلومات بين جهازي المخابرات الإيراني "السافاك" والإسرائيلي "الموساد" ومنحت لهذين الجهازين صلاحية الإشراف المباشر والتام على العلاقات الإيرانية ـ الإسرائيلية.

موقف العداء الإيراني ـ الإسرائيلي المشترك من حركة القومية العربية، بقياده الرئيس جمال عبد الناصر، جعل التحالف بين إسرائيل وإيران يحتل مكان الصدارة في سياسة هاتين الحكومتين، وتنسيق الأدوار بين الطرفين، يسير على قدم وساق وذو طابع هجومي وعدواني موجه ضد دول وقوى حركة التحرر العربية. يقول الكاتب الصحفي اليهودي الأمريكي "ستانلي فايس": "على مدى السنوات الثلاثين التي تلت قيام دولة إسرائيل عمل العدو المشترك المتمثل في العرب السنة على عقد روابط الصداقة الوثيقة بين الفرس واليهود, وكان شاه إيران, محمد رضا بهلوي, يعتمد على إسرائيل كمصدر لاستمرار تدفق السلاح والمعلومات الاستخبارية. واعتمدت إسرائيل على إيران كجزء من سياستها في »دائرة الطوق« القائمة على عقد تحالفات استراتيجية مع الدول والجماعات غير العربية في الشرق الأوسط."[217] في عام 1964 قام الجنرال "تسيفي تسور" (Tsvi Tsur) رئيس الأركان في الجيش الإسرائيلي مع مدير عام وزارة الدفاع في إسرائيل "آشير بن ناتان" (A. Ben Nathan) بزيارة إلى طهران. التقى خلالها مع الجنرال "عبد الحسين حجازي" وكبار الضباط في قيادة الجيش الإيراني، ونتج عن هذه الزيارة اتفاقية عسكرية بين الطرفين نصت على:

تدريب ضباط جهاز السافاك الإيراني على يد جهاز الموساد الإسرائيلي

تبادل المعلومات في مجال المخابرات والأمن

شراء إيران سلاح رشاشات عوزي الإسرائيلية

التعاون بين البلدين لإيصال المساعدات العسكرية اللازمة لقوات مصطفى البرزاني والمتمردين الأكراد في شمال العراق بهدف إنهاك العراق عسكرياً واقتصادياً

إقامة مشاريع زراعية مشتركة"[218]

فالتعاون المشترك بين الطرفين طال كل مجالات العمل. لم يعد سراً أن جهاز الموساد الإسرائيلي عمل مع جهاز المخابرات الأمريكية على بناء جهاز الأمن الإيراني

---

[217] ستانلي فايس في صحيفة هيرالد تريبيون الأمريكية، ترجمة أمل الشرقي، نقلاً عن موقع البصرة في شبكة الإنتر نيت العالمية.

[218] قارن عند نسيم رجوان، العلاقات الإيرانية الإسرائيلية،ص 244، وستويو للنشر، لندن 1985 .

"السافاك". ولم يعد سراً أن الضباط والخبراء العسكريين الإسرائيليين ساهموا مساهمة كبيرة في بناء الجيش الإيراني وتسليحه.

ساحات العمل المشترك بين الكيان الصهيوني وإيران كانت:

في المجال الأمني والتجسس، عملت إيران والكيان الصهيوني معاً على تبادل المعلومات حول حركة التحرر الوطني الفلسطيني وحركة التحرر الوطني الأحوازية في شرق الخليج العربي، وكانت إسرائيل تمد إيران بالمعلومات والبيانات الاستخبارية عن فصائل حركة التحرر الأحوازية (العربستانية) ومناضليها المنتشرين في الوطن العربي والعالم، والتي لإسرائيل الإمكانيات الكبيرة المتوفرة لديها من خلال اختراقها للأجهزة الأمنية الغربية. وابتزازها الدائم لحكومات تلك الدول. كان المنسق العام بين عمل الأجهزة الأمنية الإيرانية والأجهزة الأمنية الإسرائيلية مسؤول الموساد "يعقوب لبراني". وكانت أحد ثمرات هذا العمل المشترك هو القبض على قادة "جبهة تحرير عربستان" بعد عودتهم بفترة وجيزة من زيارة قاموا بها إلى مصر، البلد العربي الأساسي الداعم لحركات التحرر العربية وللحركة الوطنية الأحوازية في أعوام الستينات من القرن العشرين.

لقد تم القبض، وبمساعدة إسرائيل على القادة الأحوازيين العرب "محي الدين حميدان آل ناصر الكعبي" مع رفاقه "عيسى ودهراب" و مناضلون أحوازيون آخرون في 25. 11. 1963 ، ثم قامت السلطات الإيرانية بإعدامهم رميا بالرصاص في مدينة الأحواز مع 81 مناضلاً عربياً أحوازياً صبيحة يوم 13. 6. 1964. قدم جهاز السافاك الإيراني بالمقابل المعلومات التي كان يجمعها ويحصل عليها من عملائه في لبنان ودول الخليج العربي عن قادة وأساليب عمل المنظمات الفلسطينية المختلفة. كان لجهاز السافاك الإيراني حضور كبير وانتشار واسع في تلك المناطق عبر عمل المنظمات السياسية الطائفية المرتبطة بأجهزة الدولة الإيرانية، وكذلك نفوذ وتأثير ملموس في المؤسسات الحكومية وغير الحكومية في تلك الدول.

وفي المجال العسكري، بالإضافة للتسليح والتصنيع العسكري، عمل الطرفان على تنسيق المهام وتوزيع الأدوار في العمليات العسكرية في المنطقة. كانت منطقة الخليج من اختصاصات إيران في قمع حركات التحرر العربية، والتي عجزت الحكومات المحلية، والتدخل البريطاني المباشر، على الحد من تفاقمها. كانت إيران وقواتها المسلحة وأجهزتها الأمنية هي الرديف والقوة الجاهزة للتدخل وقمع وتدمير هذه الحركات الثورية في منطقة الخليج العربي. دخلت إيران إلى جانب القوات البريطانية في عام 1974 بقوة عسكرية قوامها 15 ألف جندي إيراني إلى سلطنة عمان للمساهمة في التصدي لقوات "الجبهة الشعبية لتحرير الجنوب العربي"، و"الجبهة الشعبية لتحري مسقط وظفار" اللتان كانتا تسيطران على مساحات شاسعة من الأراض العمانية. وكان

جهاز "السافاك" جهاز الأمن الخارجي الإيراني من انشط الأجهزة الأمنية الأجنبية وأكثرها قسوة وفتكاً في الوطنيين العرب في عمان وفي دول الخليج العربي لأكثر من عشرين عاماً متواصلة.

في المجال الاقتصادي، وبالإضافة إلى التعاون المشترك بين الطرفين في الحقل الزراعي وتسويق البضائع الإيرانية في السوق الأوروبية والأمريكية، بمساعدة الشركات الإسرائيلية، البالغة النفوذ في الأسواق الغربية، كانت الشركات الإسرائيلية تساهم مساهمة حقيقية في صناعات التعدين وحفظ الخضار وفي بناء وإدارة مصانع السكر في إيران. بالمقابل تكفلت إيران بتأمين حاجات إسرائيل من الطاقة من المنتج الإيراني، وتأمين إيصاله إلى الموانئ الإسرائيلية، وكسر الحصار الاقتصادي الذي تفرضه الدول العربية على الإمدادات البترولية لهذا الكيان. على وجه الخصوص كانت الحكومة الإيرانية من اكثر الدول المتحمسة لإنقاذ الإقتصاد الإسرائيلي من الانهيار في ظروف الأزمات السياسية والحروب الناشبة في المنطقة على خلفية الصراع العربي ـ الصهيوني.

وفي مجال إثارة القلاقل داخل المجتمعات العربية قام خلال ثلاثة عقود من الزمن تنسيق مشترك بين أسرائيل وإيران. فعند كلا الطرفين، الإسرائيلي والإيراني، تسود سياسة فرق تسد بما يخص المنطقة العربية. كانت السياسة الإسرائيلية منذ عام 1954 كما عبر عنها قادتها، وعلى لسان رئيس وزراء هذا الكيان "موسى شاريت"، هي تشجيع الحركات العرقية والدينية والمذهبية في الدول العربية على التمرد، و أصبحت هذه السياسة أحد ثوابت السياسة الإسرائيلية في إثارة القلاقل والتوترات الاجتماعية والسياسية في الدول العربية. إضعاف الدول العربية، وخلق حالة عدم استقرار دائمة بين صفوف أبناء المنطقة العربية عبر تحريك الموتورين من أبناء الأقليات صارت مألوفة منذ عقود.

نشرت في شباط (فبراير) عام 1982 الدورية العبرية "كيفونيم" (اتجاهات) وثيقة هامة يقول فيها الموظف الكبير السابق في وزارة الخارجية الإسرائيلية "عوديد ينون"، "إننا نواجه اليوم ـ فجأة ـ فرصاً ممتازة لتحويل عميق في الوضع، الأمر الذي يجب أن نقوم به في المرحلة المقبلة، وإلا لن نستمر في الحياة كدولة." ويضيف "عوديد ينون" في نفس السياق، "تقسيم مصر إلى أقاليم جغرافية محددة هو الهدف السياسي الإسرائيلي في الثمانينات على الجبهة الغربية" و "السياسة الإسرائيلية، في السلم كما في الحرب، يجب أن توجه نحو إذابة الأردن تحت الحكم الحالي وتحويل القوة إلى الأكثرية الفلسطينية." وكان الحل النهائي في لبنان حسب هذه الوثيقة الإسرائيلية في "تقسيمه إلى خمس مناطق، منطقة يسيطر عليها المسيحيون الموارنة، منطقة مسلمة، منطقة درزية، ورابعة تسيطر عليها سوريا، وخامسة شيعية تسيطر عليها ميليشيات حداد." وسيتم

تقسيم سوريا والعراق على الطريقة اللبنانية باعتماد الطائفية والمذهبية قاعدة لتقسيم هذين البلدين العربيين. "ستقسم سوريا إلى دولة علوية ودولة سنية في منطقة حلب، وأخرى سنية في دمشق، والدروز دولة ربما تكون في "جولاننا"، أو في حوران وشمال الأردن." و "العراق يقسم إلى ثلاث دول حول البصرة وبغداد والشمال الكردي، ستفصل المناطق الشيعية في الجنوب عن السنية والكردية في الشمال." أما "شبه الجزيرة العربية فهي مرشح طبيعي للتذويب."[219]

مشروع الفدرالية وفصل الشيعة عن السنة في العراق، الذي يطرحه ويتحمس له عبد العزيز الحكيم، أحد أذرع إيران في العراق، قديم بقدم الكيان الصهيوني. لقد تم طرح مشروع عبد العزيز الحكيم التقسيمي بشكل جدي قبل عقود من احتلال العراق. عبد العزيز الحكيم لم يكن إلا أداة أخرى من تلك الأدوات المتعددة لتنفيذ هذا المشروع التقسيمي بمباركة إيرانية. إستراتيجية التقسيم هذه كان قد تبناها، إلى جانب الصهاينة، أيضاً الشاه رضا خان بهلوي منذ عام 1925. على وجه الخصوص في الجانب الطائفي والمذهبي من هذا الشروع.

تخصص الشاه رضا خان والحكومات الإيرانية المتعاقبة في تبني شأن الشيعة العرب، والعمل على ربط مصيرهم بسياسة الدولة الفارسية والدولة الإيرانية. كانت حكومات إيران، ولازالت حتى الوقت الحاضر، السباقة للعمل على خلق النزاعات الطائفية في العراق، وضرب كل محاولة تؤدي إلى التفاهم والسلم الاجتماعي في العراق بقية الأقطار العربية. أصبحت هذه الإستراتيجية سياسة معلنة من قبل الطرف الإيراني منذ صعود الشاه محمد رضا بهلوي سدة الحكم في إيران في بداية أربعينيات القرن العشرين.

ورث الشاه محمد رضا استراتيجية والده وتبنى أهدافه، وأضاف عليها عناصر جديدة تجاوزت سياسة احتواء الشيعة العرب إلى احتواء ودعم الأقليات العرقية في الوطن العربي، كالأكراد على سبيل المثال. اقترب الفهم الإستراتيجي الإيراني للمنطقة العربية كثيراً من الفهم الإستراتيجي الصهيوني في التعامل مع الوطن العربي، حتى وصل هذا التقارب إلى درجة التطابق. التنسيق بين الطرف الإيراني والطرف الإسرائيلي تم على قدم وساق، ولم تشوبه أية خلافات طوال فترة حكم الشاه.

كانت الساحة اللبنانية أحد ساحات العمل المشترك بين حكومات الشاه الإيرانية والحكومات الإسرائيلية المتعاقبة. كان للطرفان الدور الأساسي في إشعال الحرب الأهلية التي تفجرت في عام 1975 في هذا البلد العربي. إشعال الفتن الدينية والمذهبية

---

[219] نقلاً عن مجلة الفكر الاستراتيجي العربي، صفحة 318 ، مجلة فصلية تصدر عن معهد الانماء العربي، بيروت العدد 6 - 7 كانون الثاني (يناير) 1983 .

كانت جلية، ليس فقط في إعلام هاتين الدولتين، وإنما في المبادرة والمساهمة في تشكيل المليشيات والأحزاب في هذا البلد على أسس دينية ومذهبية طائفية.

كانت الساحة الثالثة التي نشط الإسرائيليون و الإيرانيون فيها منذ أعوام الخمسينات من القرن الماضي التنسيق في إثارة الأزمة الكردية في شمال العراق وتأجيج الصراع المسلح هناك. لازالت هذه الأزمة مشتعلة ولا زالت الأطراف الخارجية والإقليمية نشطة في تأجيج حالة الصراع والتناحر هناك.

أحد المسارح السياسية الأخرى التي ترجمت فيها الاتفاقيات الإسرائيلية ـ الإيرانية ووضعت موضع التنفيذ كانت على أرض اليمن. الحرب التي استعرت على ارض اليمن بعد نجاح الثورة عام 1962 على نظام الإمامة المتخلف كانت أحد الفرص التي اتيحت لإيران والكيان الصهيوني للعبث بمقدرات ومصير الأمة العربية. هذه الحرب، التي اصطفت فيها القوى السياسية المحلية والإقليمية والدولية في جبهتين متقابلتين، دخلت فيها كل من إسرائيل وإيران إلى جانب القوى الملكية، رغبةً منهما في إيقاف التقدم الذي تحرزه حركة التحرر العربي التي تقودها مصر في أكثر من مكان وفي اكثر من مجال. مصر والأحزاب القومية والتقدمية والأغلبية الساحقة من الجماهير العربية كانت قد وقفت إلى جانب الجيش الجمهوري في اليمن، بزعامة الرئيس "عبد الله السلال". دفعت مصر بما يقارب 70 ألف جندي مصري إلى ارض اليمن لمساعدة الجمهوريين هناك.

وعلى الطرف الأخر من جانبي الصراع في اليمن اصطف إيران ودولة الكيان الصهيوني إلى جانب القوات الملكية (الإمامية) اليمنية والقوات البريطانية ومجموعات المرتزقة التي جندتها بريطانيا والولايات المتحدة من كل أنحاء العالم انطلاقاً من أراضي المملكة العربية السعودية. "كان هدف الشاه ومستشاريه آنذاك بأن يوقفوا زحف عبد الناصر في شبه الجزيرة العربية وبناء على ذلك بدأت المباحثات بين الموساد والسافاك فوراً حول كيفية إيصال المساعدات اللازمة للملكيين في اليمن وكان هدفهما من التدخل في شؤون العرب الداخلية واضحة وهو منع العرب من الاتحاد تحت لواء ناصر والسعي الدؤوب لإيجاد خلافات داخلية بين العرب انفسهم حتى لا يتمكنوا من التوحد ضد إيران وإسرائيل"[220] هذا ما توصل إليه الكاتب الإيراني "سهراب سجاني" في كتابة العلاقات الإيرانية الإسرائيلية (الاتفاق العملي). ولا زال الكلام للكاتب والباحث الإيراني سهراب سجاني، الذي خصص كتاب كامل لطرح وتحليل أبعاد العلاقات الإيرانية ـ الإسرائيلية وقال: "في بداية العمليات كانت طائرات C130 التابعة للسلاح الجوي الإيراني تنقل المؤن والذخائر مرتين في الأسبوع من طهران إلى

[220] سهراب سجاني، علاقات إيران وإسرائيل (الإتفاق العملي) باللغة الإنكليزية، ترجمة إلى الفارسية غ.مز شابوريان، ص 111 .

الطائف ثم تتواصل هذه العملية بنقل هذه المواد على شاحنات إلى جبال اليمن. وحين اشتد الطلب على هذه المعونات دخل الإسرائيليون على الخط وأرسلوا تعزيزات عسكرية روسية الصنع إلى إمام اليمن وكانت العملية الإسرائيلية كالتالي: أرسلوا تعزيزات عسكرية على متن طائراتهم إلى طهران ثم تتخذ هذه الطائرات من علامات السلاح الجوي الإيراني غطاءاً لها ثم تواصل طيرانها وعملياتها فوق الأجواء السعودية وصولاً إلى اليمن."[221] في حرب اليمن كان التعاون الإيراني ـ الإسرائيلي على أوسع نطاق وتجاوز كل التوقعات.

تحت ضغط الجماهير الثائرة في شوارع طهران تخلت الولايات المتحدة عن حمايتها للنظام البهلوي وتركت حليفها، أو عميلها، الشاه محمد رضا يسقط دون حراك. وإسرائيل بدورها لم تحرك ساكناً لإنقاذ أحد الشركاء الأساسيين لها في سياسة ترويع شعوب المنطقة العربية وغير العربية. لقد استنفذ الشاه وتبين أنه أصبح غير قادر على تقديم خدمات ذات قيمة لتلك القوى الطامعة بالشرق، وأصبح من الضروري البحث عن بدائل لقيادة هذه الدولة الكبيرة والتي تتوسط العالم الإسلامي حتى تتمكن من الحفاظ على الحد الأدنى من تلك المصالح.

أجبر الشاه في 9 .1 .1979 على ترك البلاد والذهاب إلى مصر ضيفاً على الرئيس انور السادات، وعبئاً ثقيلاً على الشعب المصري والدولة المصرية، التي لم يجف دماء شهدائها بعد والتي تسبب الشاه بإزهاقها مع حلفائه الصهاينة على ارض اليمن، وارض سيناء العربية. لتنتهي حقبة وتبدأ أخرى في إيران. وتبدأ ايضاً جولة جديدة في مسيرة العلاقات الإيرانية ـ الإسرائيلية الطويلة.

[221] النصدر السابق ، ص 113 .

العلاقات الإيرانية ـ الإسرائيلية
في عهد الجمهورية الإسلامية

سقط الشاه وحل محله في قيادة الدولة الإيرانية مجموعة الملالي وقادة التيار الديني. طرح القادة الجدد منذ الأيام الأولى لوصولهم إلى السلطة في طهران موقفهم المعادي للكيان الصهيوني والوقوف إلى جانب الشعب الفلسطيني في كفاحه ضد المحتل ودعم الثورة الفلسطينية مادياً ومعنوياً أمام هذا العدو المتغطرس. أغلقت السفارة الصهيونية في طهران افتتحت بدلاً عنها سفارة لدولة فلسطين. واستبشر العرب والعالم الإسلامي خيراً بهذا التطور الكبير الذي حدث في إيران والذي نقل هذه الدولة الإقليمية الكبيرة من صف العدو إلى صف الصديق. لكن البهجة لم تدوم طويلاً وأخذت الأحداث تأخذ منحاً آخر وخطراً، عندما تفجرت الحرب العراقية ـ الإيرانية في عام 1980 .

اشتعلت الحرب بين العراق وإيران في أجواء من التحريض والاتهامات المتبادلة بين هذين البدين الجارين المسلمين. لم يحدد بشكل واضح حتى هذا اليوم الطرف الذي بادر في إشعال الحرب الإعلامية والحرب الأيديولوجية والحرب العسكرية المدمرة بين الطرفين. في أجواء هذه الحرب الطاحنة التي دارت رحاها بين إيران وأحد الدول العربية خلقت نوعاً جديداً من اصطفاف القوى وخلطت الأوراق من جديد. أزيلت كثير من الحواجز التي كانت تحدد علاقات الدول ببعضها البعض. أقيمت علاقات كانت في الأمس القريب غير متوقعة. في ظل الحرب تعززت العلاقات المصرية ـ العراقية التي قطعت بعد أن وقعت الحكومة المصرية اتفاقية كامب ديفيد مع حكومة الكيان الصهيوني. وبدأت تتحسن العلاقات السعودية ـ العراقية حتى وصلت إلى درجة التحالف المصيري. وفي ظل الحرب أقيم المحور السوري ـ الليبي ـ الإيراني المعادي للعراق.

وفي غمرة أجواء الحرب نسج حكام طهران مع الكيان اصهيوني علاقات متطورة، وخاصة في مجال مبيعات الأسلحة والذخائر. العلاقات السرية مع إسرائيل طالت اكثر من مجال، لكنها أبقت على الخطاب الإعلامي العلني العدائي بين طهران وتل أبيب، حتى لا يثير حرجا لكلا الطرفين في علاقاتهم الجماهيرية وعلاقاتهم الإقليمية.

تعايش الطرفان مع إشكاليات التناقض بين العمل المشترك في واقع الحال، وفي المجالات العملية. الاستمرار في الخطاب المعادي الظاهري والمبالغ به بين الطرفين أيضاً لم يتوقف. التهديدات العلنية المباشرة التي كان كل طرف يوجهها للأخر عبر وسائل الإعلام استمرت، لكن طوال الثلاثة عقود المنصرمة من عمر الجمهورية الإسلامية في إيران لم يحصل فعل عدائي فعلي واحد من طرف ضد الآخر. لقد طالت السياسة العدوانية الإسرائيلية أغلب الدول العربية وحتى تلك الدول التي أخذت حكوماتها على عاتقها منهج الإبتعاد عن دائرة الصراع مع هذا الكيان كجمهورية تونس في المغرب العربي. لقد هاجمت الطائرات الإسرائيلية العاصمة تونس وقتلت عدد كبير من المواطنين التوانسة والفلسطينيين. "إيران تحتاج إسرائيل عدواً، تماماً كما تحتاج إسرائيل إيران عدواً. لربما المسألة النووية مفيدة للعدوين المتفقين على العداء كل لغايته وحساباته .أما المسألة الفلسطينية فإنها اليوم في رحمة موقتة من تجاذب العدوين اللذين لم يسبق أبداً أن قاتلا بعضهما بعضاً أو دخلا في حرب مباشرة من أي نوع كان"[222].

تعامل الطرفان، الإيراني والإسرائيلي، مع الآثار السلبية لهذه العلاقة الشاذة بدرجة كبيرة من الحنكة والتغلب على الصعوبات التي كانت تنشأ بين الدولتين جراء هذا النوع من العلاقات. ففي كل مرة كان يتسرب شئ عن نوع العلاقات الإسرائيلية ـ الإيرانية عبر وسائل الإعلام الأجنبية كان كل من الطرفين يحرص على نفي هذه العلاقة وإبعادها عن دائرة الأضواء بكل السبل المتاحة.

كان لازال الرئيس كارتر على رأس الإدارة الأمريكية عندما استأنفت إسرائيل تصدير السلاح إلى حكومة الخميني في طهران. "وفي 1980 استأنف رئيس الحكومة الإسرائيلية مناحيم بيغن بيع التجهيزات العسكرية إلى طهران، بادئاً بقطع غيار لمقاتلات أف-4. ولم يحل غضب جيمي كارتر الذي أوقف هذه العلاقة المحرّمة لدى انكشافها، عن استعادتها إثر وصول رونالد ريغان إلى البيت الأبيض. أما الذي تولى "إقناع" واشنطن فلم يكن إلا الأمين العام لوزارة الخارجية الإسرائيلية، ديفيد كيمحي. وبالفعل آلت هذه الصلة التي لقيت كل الحماسة في وزير الخارجية الأميركي ألكسندر هيغ، إلى ما غدا بعد سنوات قليلة يعرف بضيحة إيران ـ كنترا ـ جيت الشهيرة."[223] رئيس الدبلوماسية الأمريكية الكسندر هيغ هذا، الذي تحمس للعلاقة مع إيران الخميني، كان من اشد الرموز الأمريكية المسؤولة في إدارة الرئيس رولاند ريغان عداءا للعرب وقرباً من الكيان الصهيوني، وهو الرجل الذي شجع إسرائيل ورئيس وزرائها الصهيوني المتطرف مناحيم بيغن ووزير حربة ارئيل شارون على اجتياح لبنان عام 1982 واحتلال العاصمة بيروت.

---

[222] راغدة ضرغام، موقع العربية من مقال بعنوان "رسالة قمة واشنطن إلى سوريا وإيران" في 3. 9. 2010 .
[223] حازم صاغية، موقع حسن نيت على شبكة الإنتر نيت العالمية

العلاقات الإسرائيلية ـ الإيرانية في زمن الجمهورية الإسلامية بدأت مع بداية حرب الخليج الأولى. لقد سربت بعض الصحف الغربية والعبرية بعض الأخبار عن تلك العلاقات واللقاءات الإسرائيلية ـ الإيرانية في قبرص، لكن هذه الأخبار بقيت تفسر وتفهم تحت باب التشويش والتشكيك بالمواقف الإيرانية المعادية لإسرائيل والصهيونية. من تلك الأخبار ما نشرته جريدة الهيرالد تريبون في 24 . 8 . 1981 ومن مجموعة من التقارير الصحفية التي تتحدث عن تصدير إسرائيل لكميات من الأسلحة الإسرائيلية إلى إيران. في 18 تموز 1981 تحطمت الطائرة الأرجنتينية في الأجواء السوفيتية أثناء قيامها بنقل معدات عسكرية من تل أبيب إلى طهران عبر مطار لارنكا القبرصي. هذه الحادثة كانت سبب لانكشاف أبعاد شبكة العلاقات الدولية الإيرانية ـ الإسرائيلية التسليحية، وسلطت الأضواء بأكثر جدية على طبيعة العلاقات السرية الإيرانية ـ الإسرائيلية. وفي عددها الصادر في تشرين الثاني من عام 1982 نشرت "مجلة الميديل إست" البريطانية ومجلة "أكتوبر المصرية" في عددها الصادرة في آب من عام 1982 سلسلة صفقات السلاح الإسرائيلية التي تصل إلى إيران بشكل منتظم. لكن بعد انكشاف كل قضية يتم التعتيم عليه ونفيها.

في كانون الثاني من عام 1983 ألقت السلطات الأمنية الألمانية في مطار دوسلدورف الدولي في غرب ألمانيا القبض على المستشار السياسي لقائد الثورة الإيرانية الخميني للشؤون الخارجية، الشيخ "صادق طبطبائي"، بعد ما ضبطت سلطات المطار في حوزته 108 كيلو غرام من المخدرات (مادة الهيروئين)، قام بإدخالها إلى ألمانيا مستغلاً الحصانة الدبلوماسية التي كان يتمتع بها هذا المسؤول الإيراني. وعلى هامش هذه الفضيحة عرضت الصحف وأجهزة التلفاز الألمانية جواز سفر الدبلوماسي و المسؤول الإيراني الكبير. وكان على جواز صادق طبطبائي ختم وتأشيرة دخول إلى إسرائيل مسجلة في تاريخ 6 . 1. 1981. وحسب ما تناقلته أجهزة الإعلام الألمانية والدولية في حينه بأن المسؤول الإيراني زار إسرائيل للتنسيق مع "يوسف عازار"، منسق توريد السلاح الأمريكي والإسرائيلي إلى الجمهورية الإسلامية الإيرانية. هذه الفضيحة كشفت بأن العلاقات التجارية التسليحية كانت تتم بين إيران واسرائيل عبر عقود حكومية رسمية، وعلى أعلى المستويات، وعبر اتفاقيات حكومية بين الكيانين.

كانت الحكومة الإيرانية في كل مرة يكشف عن جانب من جوانب العلاقات الإيرانية ـ الإسرائيلية تنفي بشدة تلك المعلومات، أوتقوم بالتنصل من المسؤولية عن هذه العلاقات في حال تكشف جزء منها. وفي كثير من الأحيان تلقي اللوم على الأفراد و بعض المسؤولين الإيرانيين الصغار وتحملهم المسؤولية. كانت الحكومة الإيرانية وتعتبر هذه الفضائح من فعل مبادرات فردية وشخصية من هذا المسؤول الإيراني أو ذاك، وتنفي معرفة الحكومة بتلك العلاقات وتلك الصفقات العسكرية التي تعقد مع الكيان الصهيوني.

لكن فضيحة دولية حدثت وكشفتها الصحافة الأمريكية عام 1985، والتي كان لها علاقة مباشرة بقضية أمريكية داخلية بالدرجة الأولى، كشفت تورط حكومة الخميني في هذه الفضيحة السياسية والأخلاقية الحساسة. تلك الفضيحة كانت فضيحة "إيران ـ كنترا ـ جيت"، والتي لم يكن المقصود بها إيران أساساً، بل إدارة الرئيس ريغان والمخابرات الأمريكية CIA. كشف تفاصيل هذه الفضيحة عبر وسائل الإعلام الأمريكية أولاً وعبر وسائل الإعلام العالمية ثانياً، أظهر المستوى المتطور التي وصلت إليها العلاقات الإيرانية ـ الأمريكية ـ الإسرائيلية المشتركة. وقطعت الشك باليقين عن عمق هذه العلاقات، ووضعت حداً لكل التأويلات والتخمينات عن طبيعة العلاقات الإيرانية ـ الإسرائيلية. هذه الفضيحة العالمية التي دخلت التاريخ تحت اسم "فضيحة إيران ـ كونترا ـ جيت" لم تستطع أجهزة الدعاية الإيرانية نفيها والتغطية عليها، كما كانت تفعل بالسابق عندما يتم الكشف عن صفقة وعلاقة أو فضيحة.

لقد كشفت "فضيحة إيران ـ كونترا ـ جيت"عن حقيقة أبعاد وعمق العلاقات القائمة بين الكيان الصهيوني وإيران والولايات المتحدة الأمريكية على حد سواء، الذي ما انفكت الحكومات الدينية في طهران تدعي موقف العداء من هاتين الدولتين، والمزايدة على الآخرين في حدة هذا العداء. "فضيحة إيران ـ كونترا ـ جيت" تم التطرق إليها في فصل العلاقات الأمريكية ـ الإيرانية ويتم التذكير بها مرة أخرى نظراً لأهميتها ودلالتها على طبيعة العلاقات السرية التي تنسجها إيران مع "الأعداء المفترضين". هي فضيحة إيران ـ كونترا ـ جيت ، التي عقدت بموجبها إدارة الرئيس الأمريكي رونالد ريغان اتفاقا مع إيران، لتزويدها بالأسلحة أثناء الحرب على العراق، وقد عقد الاتفاق جورج بوش الأب، عندما كان نائبا لريغان، لدى اجتماعه برئيس الوزراء الإيراني، أبو الحسن بني صدر في باريس بحضور مندوب "الموساد" آري بن ميناشيا الذي كان له دور في نقل تلك الأسلحة من إسرائيل إلى إيران.

على اثر انكشاف هذه الفضيحة اعترف علي أكبر رفسنجاني عام 1985 ، الذي كان في حينه رئيس مجلس الشورى الإيراني، أمام أجهزة الإعلام العالمية، "بأن إيران قد تسلمت أسلحة ومعدات عسكرية من إسرائيل مقابل دين قديم لنظام الشاه على اسرائيل، مقداره اكثر من أربع مائة مليون دولار."[224] محاولاً بهذا تبرير موقف حكومته من تلك الفضيحة السياسية الكبيرة والمركبة، وحاول رفسنجاني اختلاق الأعذار لحكومته في طرح هذه الرواية الواهية. لم تصمد المبررات الإيرانية طويلاً أمام الحقائق التي كشفتها وسائل الإعلام العالمية وأجهزة التحقيق الأمريكية في تلك القضية والفضيحة الأمريكية ذات الأبعاد الدولية. كان من أهم نتائج لجان التحقيق الأمريكية والدولية كشف العلاقات السرية الإيرانية مع الكيان الصهيوني. وكشف العلاقة السرية الإيرانية مع

[224] فاضل البراك، المدارس اليهودية والإيرانية في العراق، دراسة مقارنة، ص 196 ، دار الرشيد، بغداد 1984 .

الإدارة الأمريكية. وكشف تأمر حكام إيران على شعب وحكومة نيكاراغوا الغارق في حرب أهلية مدمرة تمولها أجهزة أمنية غربية وصهيونية وحكومة إيران.

بعد إثنا عشر عاماً من انتهاء الحرب العراقية ـ الإيرانية يكشف رئيس جمهورية إيران أثناء تلك الحرب، "أبو الحسن بني صدر، في مقابلة تلفزيونية مع محطة الجزيرة القطرية في برنامج "زيارة خاصة" في 1. 12. 2000 عن هذه العلاقة. يقول الرئيس الإيراني السابق بني صدر: "في المجلس العسكري أعلمنا وزير الدفاع أننا بصدد شراء سلاح من إسرائيل ، عجبنا كيف يفعل ذلك ، قلت: من سمح لك بذلك ، قال: الإمام الخميني ، قلت هذا مستحيل ! قال : أنا لا أجرؤ على عمل ذلك لوحدي. سارعت للقاء الخميني وسألته: هل سمحت بذلك ؟ قال : نعم إن الإسلام يسمح بذلك، وإن الحرب هي الحرب،"225 ويضيف الرئيس الإيراني السابق في نفس المقابلة مع محطة الجزيرة، " بالنسبة للخميني كان شراء الأسلحة مسموحا به من كل مكان حتى من إسرائيل." الكاتب الصهيوني الأمريكي ستانلي فايس يؤكد ماصرح به بني صدر للجزيرة ويكتب: "فقد دفع العداء المشترك للعراق ورغبة إسرائيل في المحافظة على نفوذها بين صفوف المعتدلين الإيرانيين, الإسرائيليين إلى تزويد الجمهورية الإسلامية في إيران بالسلاح في ثمانينات القرن الماضي, والى لعب دور الوسيط في صفقة السلاح مقابل الرهائن التي أبرمت في عهد إدارة الرئيس الأمريكي رونالد ريغان."226

توقفت الحرب العراقية الإيرانية في عام 1988 لكن زخم العلاقات الإيرانية ـ الإسرائيلية لم يتوقف عام 1988، بل تواصلت هذه العلاقات على اكثر من صعيد. فعلى صعيد التسليح عرف الرأي العام عن عدد من الصفقات التسليحية التي قدمها الكيان الصهيوني إلى إيران في أعوام التسعينات من القرن المنصرم.

ما عرف من هذه الصفقات كان التالي:

جهزت إسرائيل الجيش الإيراني ب 56000 قناع مضاد للغازات السامة من شركة شالون للصناعات الكيميائية في عام 1992.

جهزت الشركة الإسرائيلية "أيلبت" الجيش الإيراني وقوات الحرس الثوري في إيران بمعدات كاشفة للغاز السام.

نشرت بعض الصحف الإسرائيلية عام 1999 أن عدة شركات إسرائيلية قامت ببيع معدات تقنية متطورة لإيران لصناعة الأسلحة الكيميائية وكذلك باعت إسرائيل إيران

---

225 تلفزيون الجزيرة القطرية في 30 1. 12. 2000 .

226 ستانلي فايس في صحيفة هيرالد تريبيون الأمريكية، ترجمة أمل الشرقي، نقلاً عن موقع البصرة في شبكة الإنتر نيت العالمية.

150 طن من مادة "كلوريد التابونيل" التي تدخل في صناعة غاز الخردل ما بين عامي 1990 - 1994 .

هذا جزء يسير مما تكشف من العلاقات الإيرانية ـ الإسرائيلية في الجانب التسليحي وشراء المعدات العسكرية. وهنا لابد من إضافة ملاحظة في هذا الصدد. ليس المهم في كمية التبادل التجاري والتسليحي بين إيران والكيان الصهيوني وإنما تبيان وتوضيح من ناحية المبدأ بأن العلاقة قائمة بين الطرفين على الرغم من الإدعاء بعكس ذلك. ويبقى انكشاف أو عدم انكشاف الحجم الحقيقي لتلك الصفقات وتلك العلاقات ثانوي وغير ذي أهمية كبيرة، وهي مرتبطة إلى حد كبير بنجاح أو فشل أساليب التورية والتقية وحسن أو سوء استعمال أدوات ووسائل الاتصال. لكن أحد مسؤولي الإدارة الأمريكية الكبار وممن اطلع وشارك وأشرف على مسار العلاقات الإيرانية ـ الإسرائيلة يقرر في كتابه الذي نشره الحجم الهائل التي وصلت إليها العلاقات العسكرية بين الطرفين. "الكولونيل "أوليفر نورث" (مساعد مستشار الأمن القومي) في البيت الأبيض والمسؤول الأهم في ترتيب التعاون العسكري بين إسرائيل وإيران، ذكر في مذكراته التي نشرها في أواخر عام 1991م بعنوان (تحت النّار) أنّ حجم مبيعات السلاح الاسرائيلي لإيران وصل إلى عدة بلايين من الدولارات"[227]

لم تتوقف العلاقات الإيرانية ـ الإسرائيلية واستمرت في نفس الزخم على الرغم من التبجح والإستمرار في الإدعاءات الإيرانية والإسرائيلية في تأكيد حالة العداء بين الطرفين. فقد تناقلت وكالات الإنباء العالمية والصحف الإسرائيلية، معاريف وهأرتس، في تاريخ 25. 5. 2011 أخبار عن علاقات تجارية واسعة بين إيران وإسرائيل. "فادت تقارير الخميس بأن 200 شركة إسرائيلية على الأقل تقيم علاقات تجارية مع إيران بينها استثمارات في مجال الطاقة الإيرانية رغم دعوات رئيس وزراء كيان الاحتلال الإسرائيلي بنيامين نتنياهو المتكررة بتشديد العقوبات الاقتصادية على إيران ومقاطعتها من أجل إرغامها على وقف تطوير برنامجها النووي."[228]

في 07. 4. 2009 ذكرت صحيفة LE Temps السويسرية أن لقاءات دورية تجري في جنيف بين إيران واسرائيل والولايات المتحدة الأمريكية وعدد من الدول الأوروبية. وجاء تصريح وزيرة الخارجية السويسرية "ميشلين كالمه ريه" في 11. 4. 2009 يؤكد ما كشفته الصحيفة حيث: "أكدت حصول اجتماعات سريةعلى مستوى غير رسمي ضمت عدد من الخبراء وأساتذة الجامعات وغيرهم بين الولايات المتحدة وإيران وإسرائيل وبمشاركة أوربية. وأكدت الوزيرة ميشلين إن سويسرا شاركت في تلك الاجتماعات ضمن الوفد الأوربي . وأشار أحد الشخصيات السويسرية التي شاركت

[227] نقلاً عن موقع عربستان أورخ في دراسة للكاتب ممدوح اسماعيل في 9. 6. 2008 .
[228] نقلاً عن صحيفة القدس العربي وصحيفة العرب اللندنيتين، 26. 5. 2011 .

في تلك الاجتماعات إلى إن الاجتماعات تلك قد بدأت مباشرة عقب احتلال العراق وعقدت جميعها في جنيف."[229]

يجب التذكير هنا، بأن الطرفان، الإيراني والإسرائيلي، حريصان اشد الحرص على إبقاء علاقاتهم سرية. الطرف الإيراني كان شديد الحرص على إبقاء العلاقات مع إسرائيل سرية لاعتبارات سياسية تكتيكية. والطرف الإيراني يرى في الإبقاء على العلاقة بشكلها السري ستفسح له مساحة واسعة، هو بحاجة لها وضرورية لنجاح مخططاته، لتمكينه من العمل والمناورة داخل الساحات العربية بأكثر حرية وفاعلية. وكتمان العلاقة مع إسرائيل يترك المجال مفتوحاً لمتابعة إيران سياسة المزايدة على الحكومات العربية في الموقف من القضية الفلسطينية. الخطاب الإيراني المتطرف الذي عهده المواطن العربي، والمزايد حتى على القوى الوطنية الفلسطينية، منح إيران أوراق قوة كثيرة سمحت باختراق كثير من الأحزاب والمنظمات السياسية العربية. وجر بعض القوى العربية والفلسطينية إلى جانب إيران في تبني مواقف التطرف النظري، الذي ادخل الساحة الفلسطينية والعربية بعدد من الارباكات والتشنجات الخطيرة، وساهمت في توسيع هوة الخلافات العربية ـ العربية وتمزيق صفوف الأمة.

تبدي إسرائيل تفهماً واضحاً للرغبة الإيرانية في الإبقاء على سرية العلاقة بين الطرفين، لما في الإبقاء على سرية تلك العلاقات من مصلحة وأهمية استراتيجية لكلا الطرفين. لكن إيران وإسرائيل استطاعتا في نفس الوقت على خلق آلية محددة تبقي إمكانية التنسيق والمشاورات عبر لقاءات دورية بين ممثلي الطرفين دون لفت الانتباه وإثارة ضجيج لهذه اللقاءات التنسيقية والعلاقات الودية. من خلال موضوع تبادل الأسرى بين حزب الله وإسرائيل، بوساطة ألمانيا الاتحادية، بقي الباب مفتوحاً للقاءات الدورية لأكثر من خمسة عشر سنة. الوفود الإيرانية المشاركة في هذه اللقاءات في ألمانيا، وفي اكثر من مكان في أوروبا، وتحت غطاء البحث عن حل لموضوع الأسرى والمحتجزين، والمفقودين اللبنانيين والإسرائيليين، وكذلك الإيرانيين، كانت ولازالت تلتقي بالوفود الإسرائيلية بشكل منتظم.

في الجولات السرية والعلنية في هذه المفاوضات كان الطرف الإيراني دائماً حاضراً بحجة المشاركة في البحث عن الطيار الإسرائيلي،رون اراد"، المفقود في لبنان، والمعتقد أن يكون قد نقل أو اختطف إلى إيران. وكذلك للمشاركة في البحث في موضوع الدبلوماسيين الإيرانيين الذين كانوا قد فقدوا في بيروت في أوائل الثمانينات بعد الاجتياح الإسرائيلي للبنان عام 1982 .

---

[229] نقلاً عن موقع واتا ، الكتاب والمترجمين العرب، في 23. 04. 2009 .

عبر سلسلة المفاوضات هذه أطلق سراح ما يقارب الأربعة مائة أسير لبناني وعربي، ولكن بقي "مسمار جحا" معلقاً ولم تحل قصة الطيار الإسرائيلي المفقود، ولم تحل أيضاً قصة الدبلماسيين الإيرانيين المفقودين، وبقي الأسير اللبناني سمير القنطار في المعتقل الإسرائيلي لكي تتم حبكة القصة من جديد، وتستمر الأطراف، تحت ظل البحث عن حلول لقصص وقضايا وهمية، تلتقي دون إزعاج ودون إثارات إعلامية.

سمحت الولايات المتحدة لإسرائيل باللقاء والتفاوض مع حزب الله اللبناني المصنف أمريكياً منذ زمنٍ طويل على قائمة الإرهاب الدولية. كانت ولازالت الإدارة الأمريكية تفرض على الدول والقوى السياسية نبذ هذا الحزب ومقاطعته ونزع عنه الشرعية الدولية والشعبية. لم تتوقف واشنطن وإسرائيل بنعت الدول والأحزاب السياسية بالتطرف والإرهاب إذا ما التقت مع ممثلي حزب الله وغيره من الحركات السياسية المسلحة في المنطقة العربية. وقامت واشنطن بتهديد كل من يتعامل مع هذه الأحزاب والحركات الوطنية بالمقاطعة وفرض العقوبات عليه، والتهديد باستعمال القوة ضدها. لكن المفارقة تظهر جلية عندما يلتقي ممثلي حزب الله ومن ضمنهم ممثلي الحكومة الإيرانية مع الوفود الإسرائيلية للتفاوض لسنين طويلة. إسرائيل تلتقي وتتفاوض مع حزب الله اللبناني طوال عدة أعوام، وتقوم بإطلاق سراح اكثر من أربعمائة أسير عربي ولبناني مقابل رفات سبعة جنود إسرائيليين.

تكرر هذا الموقف من الأطراف المعنية في هذه العلاقة المشتبهة في شهر تموز من عام 2008، عندما أطلقت السلطات الإسرائيلية سراح خمسة أسرى لبنانيين، من بينهم سمير قنطار، وإعادة جثمان مئتين من الشهداء العرب الذين سقطوا على ثرى فلسطين إلى حزب الله مقابل إعادة حزب الله رفات جنديين اسرائليين كان قد اسرهم مقاتلي حزب الله قبيل تفجر حرب تموز من عام 2006 ه. كان من الواضح في هذه المرة أيضاً اليد والمصلحة الأمريكية في هذه الصفقة، واليد والمصلحة الإيرانية في هذه الصفقة، التي تمهد لصفقة كبرى بين اليدارة الأمريكية والحكومة الإيرانية على حساب الأمة العربية والوطن العربي.

على كل حال ظلت عملية إطلاق سراح الأسرى العرب من سجون الكيان الصهيوني بالطريقة والشكل الذي تمت به محل استهجان وقابلة لأكثر من تفسير. وما هي مصلحة إسرائيل والولايات المتحدة الأمريكية في تقوية أوراق إيران وأوراق حزب الله في زمن احتلال العراق، وافتضاح الدور الإيراني المشارك في الاحتلال ربما هي أسئلة فالأيام والسنين القادمة كفيلة بالإجابة على جزء منها. وربما يكون جزء من الجواب قد تم بحثه على طاولة المفاوضات بين الوفود الإسرائيلية والوفود الإيرانية التي تلتقي بشكل دوري منذ اكثر من ربع قرن في أكثر من مكان وتحت أكثر من غطاء.

المشروع النووي الإيراني
وأبعاده الدولية

كما أن كثيراً من المناورات السياسية والأهداف الإيرانية في المنطقة العربية تتقاطع وتلتقي مع بعض الأهداف الغربية، ومع بعض الأهداف الصهيونية، لكن بعض المشاريع والطموحات الإيرانية تتصادم وتتناقض مع المشاريع الغربية والصهيونية في المنطقة. هذه التناقضات في المصالح يترك آثارها على علاقات إيران مع واشنطن والعواصم الغربية بشكل من الأشكال. من أهم الإشكاليات والأزمات التي نشأت بين إيران ودول العالم الغربي تدور حول طموح إيران إلى دخول نادي الدول النووية. على الرغم من أن الغرب لا يسعى إلى خلق أزمة مع هذه الدولة المشرقية والغنية بالنفط والغاز الطبيعي، وترتبط أغلب دول العالم الغربي بعلاقات اقتصادية واسعة مع الجمهورية الإسلامية الإيرانية منذ عقود طويلة إلا أن دول حلف الناتو لا تقبل بامتلاك هذه الدولة للسلاح النووي.

مسؤولي المنظام الإيراني لم يصرحوا ولم يلمحوا عن حقيقة نواياهم بخصوص تصنيع وامتلاك القنبلة النووية والسلاح النووي. وهم يؤكدون في كل المحافل الدولية وأمام وسائل الإعلام من أن الهدف من بناء المفاعلات النووية، ومن عمليات تخصيب اليورانيوم فقط بقصد استخدام إنتاج الطاقة للأغراض السلمية. ويبرر المسؤولين الإيرانيين السعي للحصول على التكنولوجيا الذرية على الرغم من امتلاكهم لمخزون هائل من النفط والغاز الطبيعيين بالنقاط التالية:

بالحق الطبيعي لكل دولة في العالم في امتلاك العلم والمعرفة في كل شئ

تنويع مصادر الطاقة

الحصول على العملة الصعبة من خلال بيع كمية أكبر من النفط والغاز الذي ستوفره الطاقة النووية في الاستهلاك المحلي للطاقة

الاستعمال العسكري للطاقة النووية والتقنية النووية غير موجود بين الأهداف الإيرانية المعلنة، وحول هذا الهدف غير المعلن يدور الصراع الحاد في العالم حول الملف الإيراني النووي.

كل دولة من الدول الغربية لها مصالحها الخاصة، وتنسج حكومات هذه الدول علاقاتها مع إيران حسب ما تمليه عليها مصالح شعوبهم الاقتصادية والثقافية و الأمنية وغيرها من المصالح. ومصالح هذه الدول قطعاً متباينة وغير متطابقة، ومن هنا يأتي التمايز في علاقاتها السياسية مع دولة إيران والحكومات الإيرانية. لكن بين مجموعة دول الناتو وإسرائيل قواسم مشتركة ذات أبعاد استراتيجية تتعلق ببعض مناطق العالم ودول وشعوب وحكومات تلك الشعوب والدول. وبما يخص إيران هناك إجماع بين أوروبا والولايات المتحدة الأمريكية على:

إبقاء إيران قوة إقليمية متوسطة القدرة وقادرة على تهديد الدول المجاورة لها والقيام بالضغط على هذه الدول الإسلامية المجاورة كلما استدعت الحاجة الغربية لذلك، وكلما استدعت الضرورة الإستراتيجية للمجمع العسكري الغربي كاستنزاف دول الجوار العربي والإسلامي، وتهديد بعضها كتلك الحرب الضروس التي نشبت بين العراق وإيران واستمرت ثمانية أعوام متتالية.

إن من ثوابت استراتيجية القوى الغربية هو عدم العمل على تفكيك الكيان الإيراني القائم، وعلى عدم إعادة تشكيل هذا الكيان على أساس مكوناته القومية السبعة، والسعي على بقاء الدولة الإيرانية مسيطرة على الأقاليم غير الفارسية. المعسكر الغربي يخشى، في حال تفكك الكيان الإيراني المصطنع، من فقدان حليف إقليمي متوسط القوة والإمكانيات، عمل باستمرار على خدمة المصالح الغربية خلال القرون المنصرمة، وفي نفس الوقت، لما في هذا التفكيك لإيران من عوامل القوة للشعوب المجاورة لإيران. أغلب الشعوب التي يتكون منها المجتمع الإيراني هي مجرد امتدادات طبيعية لشعوب وأمم مجاورة لإيران، والأقاليم التي تعيش فيها هذه الشعوب هي ايضاً امتداد لأراض الدول المجاورة وكانت قبل زمن قريب تشكل جزءاً من أملاك تلك الدول، مما يعني تعزيز قدرات هذه الدول وتلك الشعوب في حال تفكك الكيان الإيراني الحالي. فالأحواز وشعب الأحواز هو امتداد للعراق والوطن العربي، والأذربيجان الإيرانية هي امتداد لجمهورية أذربيجان على سبيل المثال.

هناك إجماع آخر بين الولايات المتحدة الأمريكية والدول الأوروبية الغربية والشرقية على حد سواء، ومضافاً إليها الكيان الصهيوني، على عدم السماح لإيران في امتلاك السلاح النووي، ليس لأن امتلاك إيران لهذا السلاح سيشكل خطراً عسكريا على الدول الغربية والكيان الصهيوني كما يعتقد البعض، بل الخشية من امتلاك إيران لأوراق تفاوضية كبيرة في القضايا السياسية الإقليمية بعد امتلاكها السلاح النووي وسيسمح ومن تحقيق مكاسب اكثر في المنطقة لا تريدها الأطراف الغربية وإسرائيل لإيران امتلاكها.

هناك استثناء يمكن أن يغير في الإستراتيجية الغربية العامة والتخلي عن تلك الثوابت المشار إلى خطوطها العريضة أعلاه. هذا الاستثناء المحتمل مرتبط بالتغيرات الدولية الجارية على قدم وساق، وهي مرتبطة بصعود نجم الصين دوليا وتنامي قدراتها الإقتصادية الباحثة عن مصادر الطاقة والباحثة عن الحلفاء في خارطة الدول ومناطق النفوذ. وهناك مؤشرات كبيرة تتحدث عن تقارب صيني ـ إيراني متنامي ملحوظ. الدول الغربية تنظر إلى هذا التقارب بعين الريبة والحذر. من غير المتوقع أن تستمر الولايات المتحدة والمجموعة الأوربية صامتة، أو تستمر باتباع نفس الإستراتيجية المألوفة تجاه دولة إيران. هذا التقارب ربما يعني بالضرورة خسارة أوروبا والعالم الغربي لإيران، وتراجع الدور الغربي في هذا البلد. على أساس تلك التغيرات المحتملة في العلاقات الدولية ربما تصل مجموعة العالم الغربي إلى قناعات جديدة تتبنى من خلالها الولايات المتحدة والدول الأوروبية قرار التضحية بوحدة الكيان الإيراني والعمل على تمزيقه إلى كيانات صغيرة، وإضعاف قدرات إيران عبر إقامة كيانات سياسية على أسس قومية تضمن في بعضها نوعاً من التأثير والنفوذ كما كانت عليه الحال في عام 1907 عندما كانت مناطق إيران الحالية مقسمة وموزعة النفوذ بين بريطانيا وروسيا.

الكيان الصهيوني من طرفه لا يريد فقدان مييزة الاستفراد بامتلاك السلاح النووي والقدرة في الهيمنة، وحرية المناورة في كل المنطقة دون منازع. أن يتواجد في منطقة "الشرق الأوسط" قوة إقليمية تمتلك سلاح استراتيجي كالسلاح النووي إلى جانب هذا الكيان يتعارض مع الأهداف الإستراتيجية الإسرائيلية، القائمة على المحافظة على واقع التفرد في امتلاك القدرة النووية في المنطقة، ليبقي على تفوقه العسكري، وعلى اسلوب تعامله مع دول وشعوب المنطقة بقوة الإرهاب العسكري، وليس بقوة المنطق والقانون والعدل، ومنطق المساواة والندية. هذا الهدف هو أحد أهم الأسباب الإسرائيلية في رفضها امتلاك إيران وغير إيران من دول المنطقة للسلاح النووي.

أما الولايات المتحدة الأمريكية ترفض امتلاك إيران للسلاح النووي بسبب تواجدها العسكري المباشر في منطقة الخليج العربي، ولا تريد الوصول إلى زمن تضطر فيه الإدارات الأمريكية القادمة للتنازل على طاولة المفاوضات لإيران عن بعض المكاسب التي حققتها في المنطقة على خلفية امتلاك هذه الأخيرة للسلاح النووي. امتلاك سلاح من هذا النوع لا يختصر تأثيره على المجال العسكري والأمني، بل يتعدى ذلك ويترجم ويعطي صاحبه وزناً سياسياً واقتصادياً في حساب ميازين القوى الإستراتيجية.

من الناحية العسكرية الصرفة تستطيع الولايات المتحدة أن تتعايش مع أي قوة نووية في العالم، لكن امتلاك إيران للسلاح النووي سيترك أثاره السياسية المباشرة على دول الخليج، ويضع احتمالات تحويل الولاءات عند بعض المسؤولين في دول الخليج إلى إيران ليحل مكان الولاء إلى واشنطن والعواصم الغربية. هذا التحول، إن حدث، سيكلف

واشنطن الكثير، وسيسبب لواشنطن خسارة مواقع ومصالح اقتصادية واستراتيجية لا تعوض في المنطقة. هذا الافتراض في التفكير الأمريكي كان في مقدمة الأسباب التي ساهمت في شن سلسلة من الحروب على العراق في الخمسة عشر عاماً الماضية لمنعة من الوصول إلى امتلاك القدرات النووية، وهي تعود الآن وتكرر الجولة من جديد مع دولة إقليمية أخرى لإجبارها على التخلي عن برنامجها النووي المنشود.

لم تكن الولايات المتحدة غافلة عن المشروع النووي الإيراني، بل كانت تعلم علم اليقين بكل تفاصيل البرنامج النووي الإيراني منذ أن كان مشروعاً على الورق. وتابعت الإدارات الأمريكية الهدف النووي الإيراني خطوة بخطوة حتى وصل إلى ما وصل إليه في الأعوام الأخيرة. لقد أنشأت إيران، في زمن الشاه محمد رضا، في عام 1974 أول مفاعل نووي في مدينة "بوشهر"، في إقليم الأحواز العربي المحتل على اساحل الشرقي للخليج العربي، بمساعدة وتقنية أمريكية وألمانية مشتركة. لكن الولايات المتحدة لم تثر موضوع البرنامج النووي الإيراني إلا في الفترات الأخيرة، وكان استهدافها للإيرانيين، رغم علم الإدارة الأمريكية بالمراحل المتقدمة التي قطعها برنامجهم النووي، أقل بكثير من الزوابع الإعلامية التي كانوا يثيرونها ضد العراق قبل احتلاله، مع علمهم علم اليقين بأن العراقيين تخلوا عن برامجهم النووية، وعن غيرها من البرامج التسليحية بعد حرب 1991 . تلك الحقيقة تؤكد أن الهجمة الأمريكية الحالية ضد إيران لم تكن محض صدفة أو مفاجئة، بل هي عملية مدروسة وواضحة المعالم مثلما هي واضحة الأهداف وتنسجم مع الأبعاد الإستراتيجية للنظرة الأمريكية والغربية للشرق العربي والشرق الإسلامي.

الصبر الأمريكي على إيران له بالطبع ما يبرره. كان الأمريكان محتاجون إلى التعاون الإيراني في حربهم على العراق. الشراكة الإيرانية في الحرب على العراق واحتلاله كانت ضرورة أساسية وتشكل ركناً أساسياً في المخططات الأمريكية للمنطقة، وفي النية المبيتة من زمن طويل في الإقدام على احتلال العراق. التعاون الإيراني ـ الأمريكي احتل مكان الصدارة في خريطة ترتيب الأوراق والأدوار لضمان نجاح الغزو والاحتلال لجمهورية العراق. حسب الأوساط الأمريكية، كانت الحاجة لتنشيط الدور الإيراني في العراق، وعلى اكثر من صعيد، وفي اكثر من مهمة ومجال، ضرورة متفق عليها داخل الإدارة الأمريكية، والدوائر الصهيونية والبريطانية. تحت هذه الاعتبارات وتلك الضرورات غض الأمريكان الطرف عن المشروع النووي الإيراني ولكن إلى حين. ولم يثير الأمريكان وحلفائهم الغربيين الملف النووي الإيراني في وسائل إعلامهم لضمان استمرار إيران بتنفيذ تعهداتها التي تم الاتفاق عليها في فترة التحضير للحرب واحتلال العراق عبر اللقاءات الدورية التي كانت تعقد في جنيف وقبرص وشمال العراق ولندن وغيرها من المدن والعواصم بين مسئولي البلدين.

كان الأمريكان يتصورون أن مهمة احتلال العراق سوف تحسم بسرعة، ولن تحتاج إلا إلى عدد من الأشهر القليلة، ومن ثم سيستقر الوضع في العراق حسب رغبات وتصورات الإدارة الأمريكية وإرادة قوات الاحتلال. بعد ذلك سيكون متسع من الوقت للإدارة الأمريكية لإرغام إيران على التخلي عن هذا البرنامج النووي تحت تهديد قوة السلاح. لكن الوضع سار في العراق على غير ما تمنى ورغب الأمريكان، وهم يواجهون هناك حرب استنزاف مكلفة ومرهقة وتهدد مستقبل المشاريع الأمريكية العالمية برمتها بالفشل الذريع والزوال.

الدول الأوروبية هي كذلك ضد امتلاك إيران للسلاح النووي حتى تظل إيران في مجال علاقاتها السياسية والاقتصادية مع هذه الدول في الموقع الضعيف والتابع وليس الموازي والمتساوي مع تلك الدول. إن امتلاك أي دولة للسلاح النووي سيكسب هذه الدولة قيمة سياسية وقيمة عسكرية وكذلك اقتصادية مضافة، وسيجبر الأطراف الأخرى، التي تتعامل مع هذه الدولة، اخذ هذه القيمة المضافة في الحسبان. تلك الحقيقة ستجبر الدول الأوروبية في تعاملاتها السياسية والاقتصادية مع إيران، في حال امتلكت إيران السلاح النووي على التنازلات لصالح إيران في حقل العلاقات المشتركة. سيعني التنازل اكثر من ما هو حاصل حتى الآن للمطالب والشروط الإيرانية مقابل المهام والوظائف السياسية والاقتصادية التي تستعد إيران لإنجازها في الإقليم لصالح الدول الأوروبية. يتجنب الأوروبيون ايضاً الوصول في علاقتهم مع الإيرانيين إلى مستوى علاقة الند للند، والاعتراف بمكانة إيران الإقليمية والدولية، عبر امتلاكها للسلاح النووي.

تلك هي الخطوط العريضة لمواقف الأطراف الغربية والكيان الصهيوني من مشروع التسلح الإيراني بالسلاح الذري. ولكن التغيرات الدولية التي حصلت في العقد الأخير أفرزت عوامل وشروط جديدة ساهمت في صياغة العلاقات الحالية بين الأطراف ودخلت إيران في الحسابات الإستراتيجية لكل طرف من الأطراف الإقليمية والدولية.

بعد انتهاء الحرب الباردة وتزايد وتيرة المغامرات العسكرية الأمريكية، وتضاعف ثقل الجموح الأمريكي في السعي للسيطرة على العالم، وانكشاف المشروع الأمريكي في تحقيق حلم الإمبراطورية، تزايدت الخشية في الأوساط الأوروبية من أن حلفاء الأمس الأمريكان اصبحوا على استعداد للتضحية بمصالح حلفائهم الأوروبيين في كل وقت، وفي أي مكان وعلى مختلف الصعد. تزايدت هذه الشكوك والهواجس الأوروبية بعدما تكرر الاندفاع الأمريكي في تحقيق الأهداف المعلنة بالقوة العسكرية، متجاوزة الرغبات ووجهات النظر الأوروبية المتباينة، والمتعارضة في أحيان أخرى مع الأسلوب الأمريكي الفج في التعامل مع الأزمات الدولية. في كثير من الأحيان كان بعض

الأوروبيون يصلون إلى مواقف ترفض مضمون المشاريع الأمريكية للهيمنة والاستحواذ وعدم الموافقة على توقيت تنفيذ تلك المشاريع.

تكررت الممارسات الأمريكية الهوجاء حتى طالت البيت الأوروبي نفسه. افتعال الأزمة اليوغسلافية وتوسيعها حتى عمت كل منطقة البلقان، حيث ظهرت الدول الأوروبية عاجزة تماماً على التعامل مع هذه الأزمة. إن ربط بعض المجموعات السياسية والعسكرية في مناطق البلقان مباشرة بالإدارة الأمريكية، مثل مجموعات "الأوتشيكا" الألبانية في إقليم "كوسوفا" جعل الولايات المتحدة اللاعب الرئيسي في الأزمات البلقانية، مما اضطر الدول الأوروبية مجتمعة إلى التنحي والتخلي عن أهم الواجبات الكلاسيكية التي تقع في دائرة فعلها، وإفساح المجال للولايات المتحدة لإعلان الحرب وفرض الحل العسكري على شعوب البلقان الأوروبية، وحسب الرغبات الأمريكية والأهداف الأمريكية، دون الأخذ بعين الاعتبار مصالح هذه الدول الجغرافية والاقتصادية والتاريخية. الحرب في البلقان كانت وبالاً على شعوب المنطقة وإفلاس سياسي لدول مجموعة الوحدة الأوروبية، التي بدت عاجزة في نظر شعوبها ونظر القوى الدولية خارج القارة عن فعل شئ في أزمة تفجرت في عقر دارها.

خرجت الدول الأوروبية من الأزمة البلقانية بخسارة صافية. الدول الأوروبية الأساسية مثل ألمانيا وفرنسا وإيطاليا وكذلك بريطانيا كانت اكثر المتضررين من هذه الأزمة. أصبحت أوروبا من خلال أزمة البلقان في منصف أعوام التسعينات الملحق للإمبريالية الأمريكية وليست الشريك لها كما كان الحال قبل عقد من الزمان. من الآن فصاعداً ستتعامل الإدارات الأمريكية مع أوروبا على افتراض أنها ملحق يستعمل عند الحاجة والطلب، وساحات هذه الدول مباحة لمشاريع أقطاب الإدارة الأمريكية المتعجرفة.

تكرر هذا النهج الأمريكي في الحرب على العراق، حيث تعاملت الإدارة الأمريكية بنوع من الغطرسة والعجرفة مع كل دول العالم، ومع شعوب الكرة الأرضية. لم تسلم الحكومات والدول والشعوب الأوروبية من الممارسات الأمريكية الفجة التي سلكها القادة والمسؤولون الأمريكان مع كل من عارض الحرب على العراق. رامسفيلد وزير الدفاع الأمريكي وصف الدول الأوروبية المعارضة للحرب على العراق، دول بحجم فرنسا وألمانيا وبلجيكا، بالدول التي تمثل "أوروبا العجوز"، وغمز من زاوية الهرم والخرف والبطء في التفكير، وعدم استيعاب روح العصر، في وصف هذه الدول ووصف الدوائر السياسية في تلك الحكومات.

الدول الغربية الأوروبية لم تعترض على مبدأ الحرب ومبدأ استعمار الشعوب، فتاريخ هذه الدول و حاضرها حافل بالأمثلة في إشعال الحروب واستعمار الشعوب، بل كان الاعتراض الأوروبي على نتائج هذه الحرب المحتملة. فإذا ما قدر وانتصر الأمريكان، واستقروا في العراق ومنطقة الخليج العربي، دون منازع، سيعني بالنسبة للدول

الصناعية الكبرى والصغرى فقدان جزء من استقلالها الاقتصادي، واستقلالها السياسي. توصلت أغلب الحكومات الغربية وحكومات الدول الصناعية الكبرى إلى استنتاج يتلخص: بأن السيطرة المطلقة الأمريكية على موارد الطاقة في المنطقة، النفط والغاز الطبيعيين، سيعني التحكم الأمريكي المطلق ايضاً بأسعار وكمية الإنتاج لهذه المواد الحيوية التي تحتاج إليها معاملهم ومصانعهم. وسيقع مصير بلدانهم وشعوبهم تحت رحمة الإدارات الأمريكية القادمة، وسيصبح مستقبل هذه الشعوب وتلك البلدان رهن مزاجية ونرجسية المسؤولين الأمريكيين، التي بشرتهم بها تصرفات وممارسات ديك تشيني ورامسفيلد بعد احتلال أفغانستان.

على الرغم من وقوف بعض الحكومات الأوروبية إلى جانب الإدارة الأمريكية في الحرب على العراق، طمعاً في تعويضها عن بعض الخدمات غير الجليلة التي تقدمها تلك الحكومات للإدارة الأمريكية، أو خضوعاً لإرادة الإدارة الأمريكية التي تتهدد وتتوعد من لا يقف إلى جانبها في هذه الحرب العدوانية، إلا أن حكومات دول أوروبا قاطبةً، ما عدا حكومة المملكة المتحدة البريطانية، كانت متوجسة من السياسة الأمريكية في العقد الأخير، ولا تأمن طرف الحليف الكبير خلف الأطلسي.

سعت أوروبا إلى التعامل مع الدول والحكومات المصدرة للنفط والتي لازالت خارج السيطرة الأمريكية المباشرة لتأمين جزء من احتياجاتها للطاقة. أهم هذه الدول التي لازالت خارج النفوذ والتأثير الأمريكي المباشر هي إيران روسيا وفنزويلا وليبيا. إيران ثاني بلد مصدر للنفط من مجموعة "الأوبيك"، حظيت باهتمام كبير لدى حكومات الدول الأوربية الصناعية. شكلت علاقة الدول الأوربية الإيجابية مع إيران كأحد البدائل التي تكفل استقلالية نسبية لتلك الدول عن القرارات الأمريكية الاقتصادية والسياسية التعسفية في حال استطاعت الولايات المتحدة الأمريكية السيطرة على العراق ونفط العراق. بالإضافة للسيطرة الأمريكية القائمة على نفط دول الخليج العربي. التقارب الإيراني الأوروبي كان واضح في الأعوام الخمسة الأخيرة. وراهن الإيرانيون على تفاقم التنافس بين أوروبا والولايات المتحدة الأمريكية بشان الحصول على النفط الخام والغاز الطبيعي الإيراني.

الإيرانيون يأملون من خلال إشعال الحرب على العراق واحتلاله، بالإضافة إلى الأهداف والأسباب التاريخية والمذهبية والجغرافية الموجهة ضد العراق والعرب، إلى تحقيق الأهداف الأخرى التالية:

- في ازدياد التنافس والصراع الأمريكي ـ الأوروبي.
- في ارتفاع أهمية النفط الإيراني.

- في تعاظم النفوذ الإيراني في العراق سيفسح لإيران المجال من توسيع دائرة النفوذ إلى الساحات العربية الأخرى.
- وستعطي الإيرانيين الوقت الكافي لإتمام مشروعهم للتسلح النووي.

الأمريكان بدورهم كانوا متنبهين للأهداف الإيرانية، وكذلك كانوا متنبهين ايضاً للمخاوف الأوروبية من تلك الحرب. لقد تعاون الأمريكان والإيرانيون في الحرب على العراق ولازالوا يعملون معاً للسيطرة على هذا البلد العربي، لكن مشاريع الجانبين التي يبغون تحقيقها من خلال هذا الاحتلال ليست متطابقة في كل الأهداف والنوايا. لم يسقط الأمريكان أوراق الضغط التي يملكونها ضد الحكومة الإيرانية من أيديهم وهي متعددة:

- التهديد العسكري المباشر.
- تنشيط المعارضة الإيرانية الملكية وحركة مجاهدي خلق في الداخل والخارج التي تعمل وتنسق مع الإدارات الأمريكية على قدم وساق.
- التلويح بدعم الحركات السياسية للقوميات والشعوب غير الفارسية لإضعاف الحكومة المركزية في طهران وخلق حالة عدم استقرار في إيران.
- فرض الحصار الاقتصادي الشامل على إيران إذا اقتضت الضرورة لذلك.
- فرض العزلة السياسية الدولية على الحكومة الإيرانية.

أخذت الإدارة الأمريكية تلوح في التدخل العسكري المباشر في إيران تارة، وتارة يلوح في دعم المعارضة الملكية الإيرانية في الداخل والخارج لزعزعة الحكم هناك. ومرة أخرى يلمح الأمريكان إلى إمكانية قيام إسرائيل بعمل ما ضد المنشآت النووية الإيرانية، كأداة لإرعابهم وإرغامهم على التخلي عن مشروعهم التسليحي النووي. الدول الأوروبية، ممثلة في الدول الثلاثة، ألمانيا وبريطانيا وفرنسا، دخلت على الخط وقدمت نفسها كوسيط وشريك في حل الأزمة الناشئة بين إيران والولايات المتحدة الأمريكية حول البرنامج التسليحي النووي الإيراني. في العامين المنصرمين على احتلال العراق رفضت إدارة بوش إعطاء أي دور لهذه الدول في هذا الملف. وقد عملت ادارة بوش على عزل هذه الدول عن المسرح السياسي الدولي. وعلى وجه الخصوص استهدفت في سياسة العزل هذه تلك الدول الأوروبية التي اتخذت موقف المعارض من الحرب على العراق، كفرنسا وألمانيا.

الورطة السياسية والأخلاقية والعسكرية التي عاشتها الإدارة الأمريكية في العراق أجبرت إدارة بوش وتشيني على إعادة النظر في كثير من السياسات الخاطئة وبدأت تتقرب من أوروبا وإعطاء الحكونات الأوروبية دوراً اكبر في التدخل والمشاركة في القضايا والأزمات العالمية.

في مباحثاتهم مع الحكومة الإيرانية حول مشروعها، في تخصيب اليورانيوم وبرنامج التسليح النووي، يهدف الأوروبيون كما تهدف الإدارة الأمريكية إلى وقف برنامج التخصيب وإيقاف، وبل إلغاء المشروع التسليحي النووي الإيراني. الأوروبيون يأملون من تمكنهم من إقناع الإيرانيين، من خلال الدبلوماسية النشطة والإغراءات الاقتصادية، بالتخلي عن برنامجها النووي. ولا يريدون أن يغامر الأمريكان في عمل عسكري متواز ومرادف للضغوط الاقتصادية ضد إيران تؤدي إلى جلب قوى سياسية إلى سدة الحكم في طهران اكثر موالاة للولايات المتحدة الأمريكية من الحكام الحاليين الذين يتمتعون باستقلالية معقولة عن القرار الأمريكي في اكثر من مجال.

راهن النظام الإيراني على الوقت، وحكام إيران أدركوا حجم الصعوبات التي تعيشها الإدارة الأمريكية في العراق. وأدرك حكام إيران أيضاً حجم الأخطار التي ستواجه الإدارة الأمريكية في حال أقدم المغامرون في حكومة بوش وتشيني على مغامرة عسكرية أخرى في نفس المنطقة. غازل الإيرانيون الحكومات الأوروبية، بالسر والعلن، حول المكاسب النفطية التي يمكن الحصول عليها إذا ما غضوا الطرف عن مشروعهم النووي حتى يستكملوا مراحله النهائية، من خلال إعطائهم تطمينات بالحصول على حصة في بترول العراق وبترول إيران إذا ما ساهموا بوقف الضغوط الأمريكية عليهم.

اضطرت إدارة بوش مع ازدياد الصعوبات الأمنية في العراق للتنازل للأوربيين في اكثر من حقل واكثر من مجال. اقر الأمريكان للأوروبيين في فتح باب الحوار مع الإيرانيين. وعمل الأمريكان سوياً مع الأوروبيين وخاصة مع فرنسا على إخراج سوريا من لبنان وإعادة النفوذ الفرنسي إلى لبنان. ووافق الأمريكان على إشراك الأوروبيين في أزمة دارفور في السودان. وتوقفت الانتقادات الإعلامية لكلا الطرفين عبر أجهزة الإعلام. وتم الاتفاق من خلال جولة جورج بوش إلى أوروبا في شهر أبريل عام 2005 على إعادة الحياة للتوافق الأمريكي الأوروبي على عدد من القضايا العالمية المشتركة وتم الاتفاق على تنشيط حلف شمال الأطلسي من جديد.

هذه التنازلات الأمريكية للأوروبيين تعود بالدرجة الأولى إلى المأزق الأمريكي في العراق وعدم تمكن الإدارة الأمريكية من السيطرة على الوضع السياسي والأمني والاقتصادي هناك. ولم يعد بالإمكان إخفاء المأزق الأمريكي في بلاد الرافدين وانعكاس تأثيراته على المجال الدولي وعلى الوضع الداخلي الأمريكي على اكثر من صعيد.

ارتفع سعر برميل النفط من 26 دولار قبل الحرب حتى وصل إلى 66 دولار للبرميل الواحد بعد عامين من احتلال العراق. وبعد ثلاثة أعوام أصبح سعر البرميل 85 دولا. لقد وصل سعر النفط في شهر نيسان عام 2008 إلى 110 ومن ثم 149 دولا للبرميل الواحد في شهر تموز من نفس العام. الديون الأمريكية وصلت إلى أرقام قياسية

والاقتصاد العالمي يعيش حالة كساد خانقة تهدد مجمل النظم الاقتصادية والسياسية في الدول الصناعية. السبب الأساسي في هذا المأزق الأمريكي هو بدون شك نشاط وعمل المقاومة العراقية التي فاجأت العالم بقوتها واتساعها، والتي أفسدت على الأمريكان وحلفائهم برامجهم ومخططاتهم الإمبراطورية والعدوانية.

لقد أصبحت إيران في بؤرة الهدف وهناك نية أمريكية وغربية بإجبار إيران على تخليها عن برنامجها النووي باستعمال كل الأساليب والإمكانيات المتاحة لهذا المعسكر الإمبريالي. تحشيد الأساطيل الأمريكية في منطقة الخليج العربي وبحر العرب يتجاوز مرحلة الضغوط النفسية على الحكومة في طهران وخلق حالة خوف وبلبلة داخل المجتمعات الإيرانية. لكن حسب ما عبر عنه الكاتب في صحيفة القدس العربي محمد الحسناوي في 21. 2. 2007 بالتالي: "تحالف إيران مع الإدارة الأمريكية في غزو الجارة أفغانستان وإسقاط حكومتها الوطنية أولا، وفي غزو العراق الجار الآخر وإسقاط حكومته الوطنية وحل جيشه وتهديم بنيته التحتية والائتلاف الوطني ثانياً. .... والذي تبين أن الإدارة الإيرانية مارست الخداع نفسه لكن باسم الاخوة والجيرة. من احتلال جزر الخليج، إلى حملات التشييع المذهبي، إلى التحالف مع أمريكا اكثر من مرة، فضلا عن شراء السلاح من الكيان الصهيوني خلال الحرب العراقية ـ الإيرانية، بما عرف في حينه (بإيران غيت). الآن وبسبب اختلال ميزان القوى بين أمريكا وإيران (قوى مادية وعقلية علي حدّ سواء) يشعر المراقب أن اللاعب الأمريكي يلعب بخصمه الإيراني لعبة القط والفار، ثم يسوقه بسهولة إلى حتف انفه."[230] وجنت على نفسها براقش.

ربما سيكون من مفارقات القدر أن تساهم المقاومة العراقية في إعطاء النظام الإيراني، العدو اللدود لهذه المقاومة، الفسحة الزمنية والإمكانية السياسية للمناورة على دول العالم لقطع مسافة الميل الأخير في امتلاك إيران الأسلحة النووية الموجهة بالدرجة الأولى إلى المحيط العربي والجوار الإسلامي، وفي المقدمة منه العراق ودول الخليج العربي.

[230] القدس العربي، لندن في 21. 2. 2007 .

أبعاد المشروع النووي الإيراني
على المنطقة العربية

في الأعوام الأخيرة تكثفت حلقات النقاش في أغلب وسائل الإعلام عن ماهية البرامج التسليحية الإيرانية، وخاصة حول المشروع النووي الإيرانية. وتم تناول هذا الموضع من أكثر من زاوية وجانب. وتبين حتى الآن أن هناك حالة شبه إجماع في رفض مشروع التسلح النووي الإيراني قد تبلورت في الأوساط العلمية والسياسية العربية. وأن الأوساط الشعبية العربية غير مرتاحة من هذه النشاطات الإيرانية النووية والتسليحة. لماذا يخاف العرب، مسؤولين ومواطنين تصور امتلاك إيران لسلاح فتاك مثل السلاح النووي ؟ ألا يشكل هذا السلاح ان وقع في أيدي مسؤولين إيرانيين تهديداً لأعداء العرب، كإسرائيل مثلاً ؟

في مقابلة تلفزيونية مع محطة ARTE الفرنسية ـ الألمانية المشتركة في 3. 3. 2005 مع مستشار وزير الخارجية الأمريكي "بولتون" في رده على سؤال حول البرنامج النووي الإيراني طرحه مقدم البرنامج وكان الحديث التالي: "الإيرانيون يقولون في حديثهم مع المفاوضين الأوروبيين انهم محاطون بالأعداء، والسلاح النووي بأيديهم سيكون سلاح رادع معقولاً لهؤلاء الأعداء، تماما كما تقول إسرائيل عن أمنها القومي. لماذا أنتم إذاً ضد المشروع النووي الإيراني، الذي يشابه بوظائفه السياسية والعسكرية وظائف التسلح النووي الإسرائيلي، لكنكم لا تتخذون أي شئ ضد المخزون النووي الإسرائيلي وتحرضون ضد إيران؟ " أجاب المستشار الأمريكي : "نعم كذلك يقول لنا الإيرانيون عندما نلتقي بهم نفس هذا الكلام، بأنهم محاطون بالأعداء من كل جانب، وهم بحاجة إلى قوة ردع ذاتية مثل إسرائيل تحميهم من هؤلاء الأعداء. لكن الفرق بالنسبة لي كمسؤول أمريكي، أنا أدافع عن مصالح أمريكا وليس مصالح إيران، وإسرائيل والدفاع عنها جزء من المصالح الأمريكية، في حين إيران تنافسنا في منطقة الخليج وتطمح في مشاركتنا في هذه المنطقة الحيوية من العالم." هكذا إذاً، فالإدارة الأمريكية والكيان الصهيوني متيقنان جيداً، بأن السلاح النووي الإيراني موجهاً بالأساس إلى الدول العربية، وإلى دول وشعوب العالم الإسلامي المجاورة لإيران، الأعداء حسب القاموس الإيراني. لكن الأمريكان لا يريدون رؤية منافس لهم في المنطقة العربية، حتى ولو كانت إيران التي قدمت خدمات كبيرة لهم في دول هذه المنطقة.

صدر كتاب في إسرائيل عام 2004 تحت عنوان "إيران من الإرهاب إلى القنابل النووية" يؤكد فيه الكاتب والباحث الإسرائيلي في مركز يافا للدراسات الإستراتيجية في جامعة تل أبيب "أفرام كام" حقيقة أن السلاح النووي الإيراني ليس موجهاً إلى إسرائيل في بالدرجة الأولى، بل موجهاً إلى دول الجوار الإيراني العربي والتركي. فبحسب افرايم كام، فإنه "على الرغم من الخطاب السياسي الإيراني المناكف لإسرائيل إعلاميًا، إلا أن الاعتبارات التي تحكم الاستراتيجية الإيرانية ترتبط بمصالحها ووضعها في الخليج وليس بعدائها لإسرائيل، وهي تبدي حساسية كبيرة لما يجري في دول الجوار، وخاصة في العراق."231

لقد أكد الرئيس الإيراني أحمدي نجاد في تصريح صحفي أثناء تدشين مصنع "آزاك" الإيراني لإنتاج الماء الثقيل الذي يستخدم لتخصيب اليورانيوم، "أن المشروع النووي الإيراني لايهدد أي من الدول وهو لا يهدد إسرائيل". كيف يفهم هذا التصريح أهو من باب التكتيك السياسي لكسب الوقت، أم التطمين وبعث رسائل إلى إسرائيل وأصدقاء إسرائيل لتأكيد حقيقة يعرفونها حول برنامج إيران النووي العسكري. السياسي والبرلماني المصري المعروف مصطفى الفقي كتب في الحياة اللندنية معلقاً على الجهد الإيراني الذري التسليحي: "وقد يقول قائل إن الملف النووي الإيراني سيكون هو الصخرة التي تتحطم عليها محاولات التقارب بين طهران وواشنطن، ولكنني أرى في الأفق إرهاصات للتقابل بين المصالح الإيرانية الأميركية مهما تباعدت المبادئ وتناقضت الشعارات، واتسعت المسافات فكرياً وسياسياً، ولقد قلنا ذلك مراراً ودللنا عليه بعدد الأوراق الاستراتيجية والسياسية التي تمتلكها إيران وتحتاجها الولايات المتحدة الأميركية، سواء أكانت تلك الأوراق الإيرانية موزعة بين العراق ولبنان وربما سورية أيضاً أو كانت ممتدة في التأثير إلى دول الخليج والجزيرة العربية، ولأن المصالح هي الجوهر الدائم بينما المبادئ هي أقنعة مؤقتة فإننا نكاد نرى احتمالات مصالحة إيرانية أميركية بمباركة إسرائيلية وذلك كله على رغم شعارات الثورة الإسلامية وصيحات الرئيس الإيراني محمود أحمدي نجاد التي لم يعد لها تأثير خارج الدائرة الإعلامية التي تتردد فيها."232 يسلط مصطفى الفقي الضوء على إمكانية عقد تحالفات أمريكية ـ اسرائيلية ـ إيرانية ضد بقية شعوب ودول الشرق العربي والشرق الإسلامي، وهو يرى ذلك قابل للتحقيق في المستقبل المنظور.

القيادة السياسية في إيران تتبنى من حيث المضمون نفس الاطروحات المغامرة والمدمرة التي تتبناها إدارة جورج بوش المغامرة بخصوص المنطقة العربية والإسلامية. سياسة "الفوضى الخلاقة" أو سياسة "الفوضى المنظمة" عند أقطاب

---

231 اقتباساً من مقال للباحث علي حسين باكير تحت عنوان "النووي الإيراني في القراءات الإسرائيلية" على موقع مفكرة الإسلام على شبكة الإنتر نيت الدولية، 19. 9. 2005.

232 صحيفة الحياة، لندن في 16. 1. 2007 .

الإدارة الأمريكية، هي تماما، عند الرئيس الإيراني محمود أحمدي نجاد. وهي رغبة إشاعة الفوضى والدمار في المنطقة. يذكر وزير الخارجية الفرنسي فيليب دوست بلازي عن الرئيس الإيراني محمود احمدي نجاد قوله في أيلول (سبتمبر) من عام 2005 في لقاء جمعه مع الرئيس الإيراني إلى جانب وزير خارجية بريطانيا وألمانيا في مقر الأمم المتحدة قوله: "علينا أن نتمنى أن تعم الفوضى بأي ثمن.. لنرى عظمة الله"، وذلك خلال نقاش بينهما حول الموضوع والخطر النووي على شعوب العالم. هذا الموقف الإيراني الذي يمثله نجاد وتلك السياسة التي عبر عنها الرئيس الإيراني تتلبد بين طياتها أخطار جمة على شعوب المنطقة وعلى السلم العالمي، وتتطلب وقفة جادة وإعادة الحسابات والمواقف من قبل كل المسئولين في المنطقة العربية وفي العالم، ويجب أخذ السياسة الإيرانية غير المسؤولة على محمل الجد، والعمل على إيقاف تلك القوى في الحكومة الإيرانية والإدارة الأمريكية العابثة بمصير الشعوب عند حدودها، والعمل على إقصائها من مراكز صنع القرار والسلطة.

أكدت الحكومة المصرية علي لسان السفيرة "نائلة جبر"، مساعدة وزير الخارجية المصري للعلاقات متعددة الأطراف في معرض تعليقها على أزمة المشروع النووي الإيراني والتسلح النووي الإسرائيلي "أنه لن تكون هناك مرونة مع المحاولات التي تبذلها بعض الأطراف من أجل قبول انضمام إسرائيل لمعاهدة منع الانتشار النووي كدولة نووية، فيما حذرت من محاولات بعض الدول التخلص من اتفاقية منع الانتشار النووي، كما شددت في ذات الوقت على أنها لن تقبل إطلاقا انتقال البرنامج النووي الإيراني للاستخدام العسكري."[233] فالحكومة المصرية تعي بشكل جدي خطورة المشروع النووي الإيراني العسكري على المنطقة العربية، وربما يرى المسؤول المصري من حق مصر بل من واجب مصر وقف هذا البرنامج أو العمل على إبطال مفعوله العسكرية والسياسي والنفسي بكل السبل وعبر برامج مناسبة رادعة لطموحات حكام طهران.

صرح الأمين العام للجامعة العربية، عمرو موسى في المؤتمر الصحفي الذي عقدة مع وزير الخارجية السوداني في 24. 3. 2006 على هامش التحضير لعقد القمة العربية في الخرطوم، ورداً على سؤال حول موقف الدول العربية من مشروع السلاح النووي الإيراني حيث قال: "نحن ننظر إلى منطقة الشرق الأوسط بصورة شاملة حتى تكون خالية من أسلحة الدمار الشامل وليس لدولة محددة إسرائيل أو إيران. حتى لا نبقى معلقين في الهواء في ما إذا اتفقت إيران مع الأطراف الغربية حول هذا الموضوع." عمرو موسى لمح في هذا التصريح على إمكانية اتفاق إيران مع الولايات المتحدة والدول الغربية حول المشروع النووي الإيراني، وإمكانية إجراء مساومات محتملة بين

[233] صحيفة الشرق الأوسط، لندن في 30. 4. 2007 .

هذه الأطراف على حساب شعوب ودول الأمة العربية. وهذه المحاذير عند الأمين العام للجامعة العربية منطلقة بالتأكيد من التجارب التاريخية مع إيران وعلاقات إيران مع الدول الغربية وكذلك إسرائيل، ومن عمق وحقيقة العمل المشترك بين هذه الأطراف المعادية لشعوب المنطقة. موقف عمر موسى هو بالتأكيد ليس شخصي أو فرديمنعزل عن مهام المؤسسة التي يرأسها. فالأمين العام جامعة الدول العربية يعبر عن موقف القاسم المشترك لمواقف الدول العربية الأعضاء في جمامعة الدول العربية. وهو يعبر بالتالي عن موقف ومشاعر ملايين المواطنين العرب في جميع أقطارهم وعلى اختلاف مشاربهم السياسية والإجتماعية. ربما يشذ عن موقف الإجماع العربي في هذه القضية نفر أو مجموعات معزولة ارتضت أن تكون مصالحهم الفئوة الضيقة وانتماءاتهم المذهبية فوق مصالح الأوطان والأمة. وهم لحسن الحظ قلة معزولة ليست ذات وزن وشأن في المجتمع العربي.

أمن الخليج العربي

منطقة الخليج العربي أصبحت من أكثر المناطق في العالم جذباً للمطامع. والاكتشافات النفطية والغاز الطبيعي أصبحت عامل تهديد حقيقي لأمن واستقلال دول الخليج العربي، دل أن تكون عامل قوة ومنعة لتلك الدول. كذلك الموقع الجغرافي الذي يشكل منتصف الطريق بين أوروبا الصناعية والأسواق الأسيوية الكبيرة زاد من حدة تنافس القوى الطامحة لكسب مناطق نفوذ ومربعات هيمنة في دول الخليج العربي. تضاعفت أهمية موانئ الخليج من الناحية التجارية وعجت مدنها بالمستودعات الضرورية للبضائع المصنعة في دول الشرق ودول الغرب. لقد ضاعف إمتلاك الطاقة والموقع الجغرافي لدول الخليج العربي، في العقود الأخيرة، من أهمية تلك المنطقة في دورة الاقتصاد العالمية، وأصبحت العيون، والعقول، والجيوش، تتطلع إلى تلك البلدان وتتحين الفرص للتواجد وفرض الهيمنة عليها.

مما يزيد من التهديد الخارجي لمنطقة الخليج العربي جملة من نقاط الضعف التي تشترك بها دول الخليج العربي، ويجعلها عاجزة عن الدفاع عن أراضيها وثرواتها بقدراتها الذاتية. نظراً لصغر هذه الدول وقلة عدد سكانها والاعتماد الشبه كلي في اقتصادياتها على عائدات النفط والغاز الطبيعيين، بقيت دول الخليج عرضة لابتزاز القوى الإقليمية والدولية الكبيرة.

ظلت إيران على الدوام، نظراً لاعتبارات الجغرافية والتاريخ، البلد الأول الذي تكمن فيه عناصر الخطر على منطقة الخليج العربي. وكل تطور في هذا البلد في أي اتجاه يشكل عامل قلق لمجموعة دول الخليج. لقد ظل المشروع الإيراني في الهيمنة على الخليج واستكمال احتلال شواطئه حلم القوى الحاكمة في فارس لم يبدأ مع وصول العائلة البهلوية إلى سدة الحكم، ومن بعدها الأحزاب القومية والدينية الفارسية في الجمهورية الإسلامية في إيران. وإن بناء قوة عسكرية ضاربة في إيران يعتبر تحدياً حقيقياً لدول الخليج العربي، وتحدي استراتيجي لبقية الدول العربية. يتضاعف حجم الخطر الإيراني إذا ما تأكد أن الترسانة الصاروخية التي قامت إيران على تطويرها، سلسلة صواريخ "شهاب 1 وشهاب 2 وشهاب 3 "، تم نصبها جميعاً على الضفة الشرقية للخليج على أرض الأحواز المحتل قبالة المدن العربية الأخرى على الضفة الغربية للخليج العربي

والجزيرة العربية. أكد "علي نوري زادة"، السياسي الإيراني المقيم في لندن ورئيس مؤسسة معهد دراسات إيران في لندن، هذه الحقيقة العسكرية والسياسية في مقابلة تلفزيونية في فضائية "العربية" في 13. 1. 2006. قال نور زادة: "إن كل القواعد الصاروخية الإيرانية تتواجد قبالة السواحل العربية على الخليج، وصواريخ هذه القواعد موجهة إلى المدن العربية في الخليج والمملكة السعودية، وإلى القواعد الأمريكية في تلك المناطق."[234]

المشروع التسليحي النووي الإيراني أصبح مصدر قلق ورعب لكثير من دول العالم، وعلى رأس هذه الدول بالتأكيد تقف دول الخليج العربي. فالقوى الغربية تعي جيداً مصالحها في المنطقة، وهي غير مستعدة لتحمل طموح القوى المنافسة والمهددة لتلك المصالح من أي طرف ومن أي دولة. لكن هل الدول العربية والدول الخليجية تعي مصالح شعوبها بنفس القدر وبنفس الحماس، وهل قادرة تلك الدول على الدفاع عن تلك المصالح؟

عقد في أبو ظبي في دولة الإمارات العربية المتحدة في 17. 12. 2005 مؤتمر القمة السادس والعشرون "لمجلس تعاون دول الخليج العربية". أحد البنود الأساسية التي كانت مدرجة على جدول أعمال هذه القمة هو بند "أمن الخليج العربي" الذي اصبح بفعل التطورات الكبيرة التي جرت في المنطقة مهدداً بهويته ووجوده من أكثر من طرف إقليمي ودولي .

مداولات المسؤولين الخليجيين والخبراء المختصون تناولت التطورات السياسية في المنطقة ودول الجوار والأحداث السياسية العالمية التي ساهمت في زيادة حدة التهديدات الأمنية لمنطقة الخليج العربية. لقد سجلت أهم مكامن الخطر القائمة والأخطار المحتملة على دول وشعوب الخليج العربي بالتالي:

التواجد الكثيف للقوى العسكرية الأجنبية الغربية في دول الخليج وفي مياه الخليج.

احتلال العراق وتدمير قدراته العسكرية.

البرنامج التسليحي الإيراني المتنامي والسعي الإيراني الحثيث لامتلاك السلاح النووي.

الخطر الإيراني كان، حسب ما جاء على لسان الأمين العام لمجلس التعاون الخليجي "عبد الرحمن العطية"، في ختام أعمال هذه القمة الخليجية، هو الأشد وطأه على أمن الخليج العربي. القرب الجغرافي للمفاعلات النووية الإيرانية في ميناء بوشهر في إقليم الأحواز العربي المحتل لا يبعد إلا عدة كيلو مترات عن المدن العربية في دول مجلس التعاون، حسب تعبير الأمين العام لمجلس التعاون الخليجي عبد الرحمن العطية. وكان

[234] فضائية الجزيرة في 13. 1. 2006.

وزير خارجية دولة الإمارات العربية "راشد النعيمي" قد صرح للصحفيين على هامش مؤتمر القمة المنعقد في أبو ظبي وعبر بكل وضوح عن مخاوف دول الخليج من بناء إيران للمفاعلات النووية على الشواطئ الشرقية للخليج. قال النعيمي: "إن دول مجلس التعاون، قريبة من المفاعل النووي الإيراني في بوشهر، وليس لدينا حماية ووقاية في حالة حدوث تسرب من هذا المفاعل، خاصة أن إيران ليست عضوا في اتفاقية الإنذار المبكر، ونحن نطالب بضمانات وحماية لنا في حال حصول خطأ يؤدي إلى تسرب إشعاعات نووية."[235] وجاءت تصريحات وزير خارجية المملكة العربية السعودية في لندن في يوم 16. 1. 2006 حول محاولات طهران المحمومة في الحصول على السلاح النووي تؤكد المخاوف الخليجية والعربية من التهديدات الإيرانية لأمن الخليج والمرتبطة ببرنامجها التسليحي. سعود الفيصل صرح: "إن بلاده ترفض رفضا مطلقا حيازة إيران أسلحة نووية، وإنها تطالب إيران بالالتزام بتعهدها بعدم تطوير تلك الأسلحة." ثم أضاف الوزير السعودي، "إن المفاعل النووي الإيراني يقع في منطقة الخليج وبُنى بتقنيات روسية ولك أن تتصوّر النتائج في حال وقع حادث مشابه لكارثة تشيرنوبيل."[236]

وثاني هذه الاعتبارات الموضوعية التي ساهمت في تشخيص الخطر الإيراني والتهديد الإيراني لأمن الخليج العربي بالإضافة إلى برنامجها التسليحي النووي هو النوايا والممارسات الإيرانية التوسعية المزمنة والمتأصلة في عدوانيتها عبر حقب التاريخ والأزمنة الحاضرة. أثناء زيارة قام بها وزير الخارجية الكويتي صباح الأحمد الصباح الصباح، أمير الكويت الحالي، إلى إيران عام 1987 سأل الوزير الكويتي الخميني عن رغبات إيران في الكويت ورغبات القيادة الإيرانية من الكويت. رداً على سؤال الصباح ماذا تريدون منا وما الذي يزعجكم بسياستنا بشكل واضح، أهي السياسة البترولية أم غيرها من المواقف الكويتية،أجاب الخميني على الوزير الكويتي وقال: "نريد السيطرة على الخليج، كل الخليج بضفتيه الشرقية والغربية."[237]

كان الخميني في هذا الموقف وهذه السياسة العدوانية ضد دول الخليج العربي يسير على خطى الشاه رضا بهلوي عندما قدم وصيته لابنه محمد عندما تولى عرش السلطة في طهران عام 1941، إذ قال له: "لقد حررت الشاطئ الشرقي للخليج من العرب وعليك أن تحرر الشاطئ الغربي"[238]. لقد عززت مخاوف دول الخليج من النوايا الحقيقية لحكومات إيران المشاركة الإيرانية المباشرة في احتلال العراق، وتدمير قدراته

---

[235] صحيفة الشرق الأوسط، لندن في 20. 12. 2005 .

[236] صحيفة العرب، لندن في 16. 1. 2006 .

[237] فضائية النيل للأخبار المصرية. في 9. 8. 2007 .

[238] سيد نوفل،الأمين العام السابق للجامعة العربية،في كتاب الأوضاع السياسية لإمارات الخليج العربي صفحة 92 ،نقلاً عن كتاب مصطفى عبد القادر النجار،التاريخ السياسي لإمارة عربستان العربية من 1897 - 1925 ، الصفحة 255 ، دار المعارف بمصر ، 1970 ، القاهرة.

وإيصال القوى الشعوبية الموالية لإيران إلى مواقع السلطة في بغداد في ظل قوات الاحتلال المزدوج والمشترك. تلك القوى التي تعمل بإيعاز وإدارة ميدانية من قبل أجهزة أمن حكومة طهران، على تمزيق هذا البلد العربي بشتى الوسائل والطرق.

لقد بدأت دول الخليج العربي تتلمس بوادر الخطر العسكري الذي يتهدد دولها وأدركت القيادات الخليجية أن هذه الدول لا تمتلك القدرات الحقيقية التي تستطيع حماية الثروات النفطية وغير النفطية التي تمتلكها هذه من طمع الطامعين.

لقد انهارت كل الحلول التي اعتقد قادة الخليج في العقدين المنصرمين أنها كانت كافية لحماية أمن دول الخليج من التهديدات الخارجية. الإستراتيجية الأمنية التي اعتمدتها دول الخليج خلال الأعوام الماضية كانت تتكون من ثلاثة عناصر أساسية تتكفل، حسب تقديرات مسئولي قادة دول الخليج، في تأمين الأمن وحماية منطقة الخليج العربي من التهديدات التي تحيق بها. شملت استراتيجية الأمن الخليجي عند قادة دول الخليج العربي الأعمدة الأساسية الثلاثة التالية:

- بناء القوة العسكرية الذاتية، "قوات درع الخليج"
- الاستعانة ببعض القوات الأجنبية الصديقة عند الضرورة
- المساهمة في تعزيز قدرات الجيش العراقي لمواجهة الخطر الإيراني الإقليمي الدائم

لكن هذه الأعمدة الثلاثة انهارت جميعاً، ولم يعد لدول الخليج استراتيجية أمن رصينة ومقنعة يطمئن إليها المواطن الخليجي و المواطن العربي والمسئول العربي.

فمشروع إقامة جيش موحد توكل إليه حماية دول وشعوب الخليج، والذي أطلق علية "درع الخليج"، باء بالفشل الذريع، وتمت التوصية في مؤتمر القمة الخليجي في شهر كانون الأول عام 2005 على حل هذا الجيش، وإعادة ضم وحداته وقطعاته العسكرية المشتركة إلى الجيوش الوطنية والتخلي عن تلك الفكرة تماماً. لم تجدي الأموال الطائلة التي صرفت على تسليح درع الخليج وعلى تسليح الجيوش الوطنية في دول الخليج العربي والتي تجاوزت مأتي وخمسون مليار دولار أمريكي خلال العقدين الأخيرين. لازال مشروع درع الخليج قائم. ولا زال هذا الدرع غير قادر على حماية دول الخليج العربي من التهديدات الإيرانية وغير الإيرانية.

كذلك قد تحطمت سياسات الاستعانة بقوات أجنبية غربية لحماية أمن دول الخليج، وأصبح وجود هذه القوات في المنطقة، بدل تأمين الحماية، يشكل عبئاً ثقيلاً على اقتصاديات دول الخليج نفسها ويشكل تهديداً مباشراً على أمن واستقلال تلك الدول. فالقوات الأمريكية والبريطانية المتمركزة والمعسكرة على أراضى وشواطئ دول

الخليج العربي أصبحت، وبعد التغيرات السياسية الإقليمية والدولية مصدراً من مصادر الخطر على الأمن الوطني والأمن الإقليمي للخليج العربي. فتجربة حكومات دول الخليج مع حكومات بريطانيا وأمريكا وقادة جيوش هاتين الدولتين على ارض الواقع، أثناء وبعد حرب الخليج الثانية، "حرب تحرير الكويت" عام 1991 والحرب على العراق واحتلال أراضيه عام 2003، أكدت عدم جدوى هذه الخيارات في الاعتماد على قوات أجنبية لحماية دول الإقليم. فالتواجد الفعلي لقوات دول أجنبية أصبحت الترجمة الحقيقية لشكل من أشكال الاستعمار والسيطرة السياسية والهيمنة على القرار السياسي والاقتصادي والتخريب الثقافي في هذه الدول. وقد سلبت هذه الدول، من الناحية العملية والشكلية ايضاً، الكثير من سمات الاستقلالية السياسية والاستقلال الوطني. وأصبحت كثير من حكومات دول الخليج العربي تعي حجم المأزق التاريخي بوجود القوات الغربية على أراضيها وفي مياهها الأقليمية.

الضلع الثالث في استراتيجية الأمن الخليجي والتي تمثلت في قوة الجيش العراقي، ظل تؤدي واجبه ودوره، مع بعض الاهتزازات والاستثناءات، في ردع الخطر الإيراني حتى عام 2003 عندما قامت إدارة الاحتلال الأمريكي في حل القوات المسلحة العراقية الوطنية وإبدالها بجيش موالي لقوات الاحتلال وأجهزة أمنية موالية لإيران. إن تدمير البنية التحتية العراقية، العسكرية والمدنية على حد سواء، وتحويل القدرات العراقية من قوة ردع عربية في وجهه القوة الإقليمية الإيرانية إلى قوة مضافة إلى القوة الإيرانية، وذلك من خلال سيطرة وهيمنة القوى العراقية الكردية والأحزاب السياسية الطائفية الشيعية الموالية إلى إيران، أخلت بميازين القوى في منطقة الخليج العربي بشكل مروع. وأصبحت إيران وتوابعها في المنطقة مصدر خطر حقيقي تهدد وجود الدول والكيانات العربية الصغيرة بشكل جدي. إن انتقال قوة العراق وقواته المسلحة من جبهة الصديق والحليف لدول الخليج إلى جبهة العدو المتغطرس ضاعف من خطورة التهديدات الإيرانية على أمن الخليج العربي بشكل متفاقم. هذا الواقع المر صار كابوساً يؤرق كل حريصٍ على شعب الخليج وأمن دول الخليج الذي تهدده ألة الحرب الإيرانية.

بعد مؤتمر القمة الخليجي ونشر البيان الختامي الذي صدر عن اجتماعات القادة الخليجيين سرت موجة من الجدل والحوار التي تتناول الحقائق الجديدة التي عبرت عنها اجتماعات وبيانات القمة الخليجية. على رأس هذه الحقائق المرة موضوع أمن الخليج العربي المهدد من أكثر من طرف وتعاظم التهديد الإيراني بعد احتلال العراق والسعي الإيراني الحثيث لامتلاك السلاح النووي، وفي نفس الوقت غياب الرؤية الخليجية والعربية في كيفية مواجهة هذا الخطر المتحرك إلى المدن والقرى العربية في الخليج.

منذ الأيام الأولى لحصول دول الخليج العربي على الاستقلال انقسمت الطبقة السياسية في الخليج العربي بين تيارين كبيرين في موضوع أمن الدول الخليجية.

الطرف الأول الذي حاول ربط أمن الخليج العربي بأمن الوطن العربي، وهو الطرف الذي لازال يبذل الجهود في حل معضلة أمن الخليج عبر الانسجام مع بقية دول الوطن العربي، والالتحام مع القوى الحية داخل الوطن العربي، ويدعوا إلى إشراك الجيوش العربية في الحفاظ على أمن الخليج من تهديدات الدول الغربية والخطر الفارسي. هذا التيار العروبي التوجه وقومي الأفق يعتقد أن الوجود الأجنبي في الخليج يشكل خطراً حقيقياً متصاعداً، وأن أمن الخليج مهدد بالدرجة الأولى من القوى الغربية المنتشرة هناك، وخطر جار السوء في الشرق من الخليج الذي تهب عواصفه السامة بين الفينة والأخرى من الهضبة الإيرانية. فالوجود الغربي لم يحمي إمارة الأحواز وإمارة العبادلة وإمارة القواسم على الساحل الشرقي للخليج العربي، ولم يحمي الجزر الإماراتية، الطنب الكبرى والطنب الصغرى وأبو موسى في الخليج من الاحتلال الإيراني. وانطبق في هذا الواقع معنى المثل الشعبي القائل: "حاميها حراميها". أغلب رموز وممثلي هذا التيار العروبي، هم من انخرطوا في العمل القومي العربي عبر الأحزاب والحركات الوطنية والقومية العربية من أمثال الأمير "محمد بن صقر القاسمي" حاكم الشارقة و "أحمد الخطيب" رئيس مجلس الأمة الكويتي سابقاً والأمير أحمد الفهد الصباح في الكويت . اقتراب تلك الشخصيات الخليجية العروبية من مراكز صنع القرار الإقليمية والدولية منحهم الفرص المناسبة للإطلاع على خبايا الأهداف الإستراتيجية للدول الغربية المشاركة في الوجود العسكري في منطقة الخليج العربي، وعزز من قناعاتهم بعدم جدوى خيار الاستعانة بالقوى الأجنبية.

التيار العروبي في الخليج العربي ليس بالتيار الضعيف والعاجز كما يتخيل للبعض، على الرغم من قلة الرموز السياسية المعروفة من بين صفوفه. فهذا التيار مدعوم بقطاعات واسعة ومتصاعدة العدد والتأثير من المثقفين والأكاديميين الخليجيين، من أمثال محمد جابر الأنصاري وعبد الرحمن المنيف ومحمد صالح المسفر وعبد الله النفيسي والأمير طلال بن عبد العزيز والنائب محمد آل زلفة. و أصبحت الجماهير الخليجية تعي بشكل متزايد أهمية العمل العربي المشترك، الذي تنادي به هذه الرموز وتلك الشخصيات الوطنية الخليجية. بعد أن كانت كل الجماهير مغيبة ومظللة من خلال التعبئة المزيفة عن أطماع موهومة عند الشعوب العربية الفقيرة في أموال الخليج، وتأثير الدعوات المشبوهة التي تروج لها أجهزة الإعلام المعادية عن ضرورة الابتعاد عن بقية العرب، أصبحت الجماهير الخليجية أكثر وعياً وأكثر معرفة بمصالحها المرتبطة بمصالح بقية أطراف الأمة العربية.

الطرف الثاني الفاعل في دول الخليج هم من فئات من الخليجيين الذين يكنون ويظهرون عداء ونفور من العروبة، ويناصب أنصار هذا التيار الخليجي العمل المشترك العربي الجفاء والعداء. هذا التيار متمثل بالقوى الانعزالية والقوى الإقليمية في هذه الدول. كثير

من رموز هذا التيار ينحدرون من أصول غير عربية، وعلى وجه الخصوص من أصول فارسية. هذا التيار، وهو الأقوى، يعتقد بضرورة ترك مهمة أمن دول الخليج إلى الدول الغربية. لقد منح هذا التيار الولايات المتحدة الأمريكية وبريطانيا الثقة للقيام بهذه المهمة مقابل تسهيلات عسكرية واقتصادية في أراضي هذه الدول، وتجاوب مواقف هذه الدول السياسية مع السياسات الإقليمية والدولية الأمريكية والبريطانية.

جمهرة هذا الطرف من السياسيين والاقتصاديين الخليجيين كانوا يرون مصالحهم ومصالح بلادهم مرتبطة بشكل وثيق مع المصالح الأمريكية ـ البريطانية، وبالتالي، حسب فهمهم، فإن الدفاع عن أمن دول الخليج هو مصلحة أمريكية ـ بريطانية أيضاً. هذا الطرف كان يعارض ويعطل أي اتفاق أمنى خليجي مع دول عربية أخرى. لم تعارض إيران بدورها الوجود العسكري الغربي في دول الخليج العربي، وشجعت هذا التواجد الغربي في أثناء حكم الشاه محمد رضا بهلوي. كذلك ظل الرضى الإيراني قائم من الناحية العملية وفي أثناء حكم القوى الدينية في طهران. على الرغم من الادعاءات الإعلامية المنددة بالوجود الغربي في الخليج بقيت العلاقات الإيرانية ـ الغربية في حوض الخليج العربي تسير على ما يرام.

كانت إيران وهذا الطرف الخليجي يلتقيان في هدف إبعاد الدول العربية عن الخليج العربي، وخاصة الأساسية منها مثل مصر وسوريا والعراق. وعمل هذا التيار الخليجي بالتعاون مع إيران على خلق الحزازات والنعرات القطرية كلما شعرت أن في الأفق مشروع اتفاق بين دول الخليج أو بعضها مع الدول العربية الأخرى أو بعضها. ظاهرة خلق التوترات بين دول الخليج ودول عربية أخرى لازالت تتكرر عبر مقالات بالصحف وبرامج تلفزيونية كلما حدث تقارب خليجي ـ مصري أو خليجي ـ سوري. الهم الإيراني كان ولازال هو الاستفراد بهذه المنطقة و دويلاتها الصغيرة عندما تسنح الفرصة بذلك من خلال تخلي الدول الغربية عن حماية هذه الدول. أو عبر مساومات إيرانية مع الدول الغربية الحاضرة في المنطقة تتضمن تقديم مساعدات إيرانية تحقق مكاسب كبيرة للدول الغربية في دول عربية وإسلامية أخرى. ففي كل مساومة إيرانية ـ غربية كان دائماً على حساب العرب بشكل عام وعلى حساب أبناء الخليج والعراق بشكل خاص.

نجح التيار الانعزالي لفترات طويلة بفرض روح الانعزالية على دول الخليج العربي وبث روح الريبة من بقية أبناء الوطن العربي والدول العربية. لقد مورست حتى على اليمن والعراق سياسة العزل والمقاطعة والحصار. وهي أكثر الدول العربية مجاورة وأهمية لدول الخليج من الناحية الإستراتيجية.

لإيران تجارب تاريخية طويلة في حقل المساومات مع الدول الغربية على حساب العرب ودول الجوار الإسلامي. وكان الوجود الغربي في أغلب الأحيان عامل مساعد

للهيمنة الفارسية على الخليج بدل كونه كابح ومانع لتلك الهيمنة. في تلك الفترة بدأ قضم الإمارات العربية الخمسة المكونة للإقليم الأحواز العربي على الساحل الشرقي للخليج العربي. تم إحتلال إمارة القواسم وإمارة آل علي وإمارة المرازيق وإمارة العبادلة وإمارة المحمرة، على الساحل الشرقي للخليج العربي عبر المساومات. فقد أحتل الفرس الأحواز بعد التوافق الفارسي ـ الإنجليزي في عصر حكم الشاه رضا بهلوي عام 1925 . وقد أحتلت إيران جزر الإمارات عبر مساومات مع الحكومة البريطانية المستعمرة لتلك الجزر مقابل استمرار إيران بتمويل إسرائيل بمواد الطاقة عبر خليج العقبة وضمان حصة للشركات البريطانية بالاستثمار بحقول النفط الإيرانية في إقليم الأحواز العربي. وقد أحتل العراق بعد التوافق الإيراني ـ الأمريكي أثناء حكم خاتمي ـ خامنئي الإسلامي عام 2003 . وكان التوافق والتواطؤ الفارسي البرتغالي من قبل في بداية القرن السابع عشر قد سمح لعباس الصفوي حاكم فارس في حينه من إحتلال مملكة هرمز العربية إحتلال بغداد والبحرين ومناطق واسعة من أرض الأحواز في عام 1624 .

نجح الفرس عبر التفاوض والمساومة مع الولايات المتحدة الأمريكية في الدخول إلى الأرض العراقية والمشاركة الفعالة في احتلال العراق وتدمير قدراته. بالتفاهم والاتفاق مع القوى الغربية الغازية ذاتها المتواجدة بكثافة في منطقة الخليج العربي دخلت القوات الإيرانية الأرض العراقية ويشارك حلفائها وعناصرها في كل الحكومات التي عينها الاحتلال في بغداد . لقد احتلت إيران مناطق البلوش والأذربيجان وغيرهم من الشعوب الإسلامية بالدرجة الأولى عبر المساومات و الاتفاقات السياسية مع الدول الاستعمارية الغربية بشكل أساسي وإيران لازالت تراهن على حل كل معضلاتها مع الغرب عبر المساومات على حساب الشعوب الإسلامية المجاورة لإيران وعلى حساب مصالحها. إن دعوة لجنة بيكر- هيملتون في شهر تشرين الثاني من عام 2006 للإدارة الأمريكية للخروج من المأزق العراقي عبر التفاوض مع إيران والتي سبقتها دعوة توني بلير رئيس وزراء بريطانيا في نية التفاوض والتفاهم مع إيران حول العراق والشرق الأوسط ينصب في هذا التراث ويأتي في هذا السياق وسيجد ترجماته السلبية على الوطن العربي في الزمن القادم.

عمل الطرف الخليجي الانعزالي مع الطرف الإيراني، جنباً إلى جنب، على إفشال مشروع "إعلان دمشق". تشكلت كتلة "إعلان دمشق" العربية بعد خروج القوات العراقية من الكويت بعد حرب الخليج الثانية عام 1991. في هذه الحرب شاركت كل من مصر وسوريا ودول الخليج الستة إلى جانب القوات الأمريكية والغربية. وعلى ضوء نتائج هذه الحرب المتمثلة بإخراج القوات العراقية من الكويت تم الاتفاق على بناء

حلف عسكري سياسي اقتصادي بين الدول التي اجتمعت في دمشق عاصمة الجمهورية العربية السورية.

حلف "إعلان دمشق" كان قد بني على أساس ثلاثة مجالات من العمل: التعاون بين الدول الموقعة على هذا البيان التسعة، دول الخليج بالإضافة إلى سوريا ومصر، في المجال الاقتصادي من خلال تقديم المساعدات الاقتصادية لمصر وسوريا لتتمكن من بناء اقتصاد متطور. المجال الثاني التوافق السياسي بين دول الإعلان وتشكيل محور في المنطقة يضمن مصالح تلك الدول. والمجال الثالث كان المجال العسكري والتي أوكلت بموجبه مهمة الدفاع عن أمن الخليج العربي إلى القوات المسلحة المصرية والسورية بالدرجة الأولى. أفشل المشروع بتدخل إيراني مباشر لدى الأوساط المتنفذة في دول الخليج العربي وبضوء أخضر من الإدارة الأمريكية أثناء رئاسة جورج بوش الأب. ورضخت الدول الخليجية إلى الضغوط الإيرانية ـ الأمريكية. فالنفوذ الإيراني داخل الأوساط السياسية والاقتصادية في أغلب دول الخليج العربي، وفي أوساط صنع القرار في هذه الدول أصبح معروفاً. قوى الضغط الإيرانية في دول الخليج العربي تعمل بكل طاقاتها وبشكل مكشوف وتسهر على إبعاد دول الخليج العربي عن محيطها الطبيعي العربي، وفي كثير من الأحيان تختلق النزاعات السياسية بين دول الخليج كل على حدى وبقية الدول العربية.

لازال الجدل والنقاش حول أمن الخليج تتفاعل أطيافه، وظهر إلى السطح وعلى شاشات التلفاز، وعلى صفحات المجلات والصحف، بالإضافة إلى الغرف المغلقة والكواليس. تشكلت مجموعة من الاقتراحات والتصورات كعناصر أساسية تصلح لبناء استراتيجية عربية وخليجية تكون قادرة على تأمين أمن الخليج وتسهم في حماية مصالح شعوبه . من أهم تلك الأفكار والتصورات كانت:

إعادة النظر في قواعد العمل العربي المشترك وصياغة مشروع أمن الخليج العربي كجزء ومكون أساسي من الأمن القومي العربي ومكمل له.

إعادة تأهيل الجيش العراقي ليتمكن من القيام بوظيفته المنطقية والتاريخية في ردع إيران وحماية الحدود الشرقية للوطن العربي. والعمل على إعادة العراق وجيشه إلى الأسرة العربية من خلال إبعاد القوى الشعوبية عن مراكز اتخاذ القرار في القطر العراقي، ودعم القوى العراقية العروبية القادرة على صياغة عراق وجيش عراقي ذو ملامح وهوية وانتماء عربي كما كان على مر القرون.

تعزيز القدرات الديمغرافية لدول الخليج العربي والتي تعاني من نقص حاد مزمن في القوى الاجتماعية العربية، وردم الهوة بين القدرات الاقتصادية والقدرات البشرية من خلال تسهيل منح الجنسية وفتح باب التوطين للقوى الوافدة العربية في دول الخليج. إن

منح الجنسية للمواطنين العرب في هذه الدول، ومنحهم حق المواطنة التي يستحقونها هي أحد المرتكزات الأساسية وعنصر رئيسي في عناصر استراتيجية الأمن الإقليمي الخليجي والأمن القومي العربي. إن عدم سد هذه الثغرة المزمنة والقاتلة في نفس الوقت ستبقي الأمن الخليجي والأمن القومي العربي عرضة للابتزاز، وعرضة للاختراق في أي زمن وفي أي ظرف سياسي إقليمي ودولي.

اكتشف بعض القادة الخليجيون أهمية القطر اليمني في مشروع أمن الخليج العربي المنشود ودور اليمن في هذا المشروع على أكثر من صعيد. سعت دول الخليج العربي في الفترة الأخيرة إلى إعادة النظر في بعض الخطوط الرئيسية المعتمدة في استراتيجية الأمن الخليجي. إن سياسة إبعاد اليمن عن دائرة دول الخليج كمنهج متفق عليها بين أطراف دول الخليج أصبحت سياسة غير مجدية وثبت عقمها. وهناك في السنين الأخيرة توجه خليجي جاد بالتقرب من اليمن والمساهمة في إعمار وتطوير هذا القطر العربي الهام في جنوب الجزيرة العربية. أمير قطر الشيخ حمد تحدث لوكالات الأنباء العالمية قبيل انعقاد مؤتمر دعم اليمن في 29. 10. 2006 حيث قال: "إن اليمن عمق استراتيجي لدول المجلس، فهي البوابة الجنوبية للجزيرة ولديها ثروة بشرية." مهما تكن الأسباب إن خطوات التقارب مع اليمن ومع الدول العربية الأخرى تظل من الناحية الإستراتيجية خطوات في الاتجاه الصحيح .

الخطر الآخر والذي يهدد دول الخليج العربي هو خطر ضياع الهوية العربية لدول الخليج. فتزايد أعداد أبناء الجاليات غير العربية في دول الخليج، والتي تزيد في أغلب هذه الدول عن نصف عدد السكان، يطرح كثيراً من التساؤلات الملحة عن جدوى جملة سياسات التعامل مع مشكلة العمالة الأجنبية. ففي شوارع مدن الخليج العربي أصبحت اللغة العربية تحتل المكانة الثانية والثالثة في التخاطب التعاملات اليومية. بعض اللغات الأسيوية والأوروبية أصبحت تنازع وتنافس اللغة العربية في كل مجالات الحياة. حتى وصل هذا التنافس إلى داخل البيوت وفي وسط الأسرة الخليجية. جيل جديد ينشأ في دول الخليج العربي فاقد للغة الأم ولغة الهوية القومية، ويتحدث برطانة غير محددة المعالم وتحتمل كل تأويل.

أصبح الخطر، في عصر الهيمنة الغربية المطلقة على المؤسسات السياسية والاقتصادية والاجتماعية الدولية، ماثلاً على عروبة الكيانات السياسية الخليجيةً. والخطر واقعياً إذا ما أصرت الدول الغربية في لحظة من لحظات الزمن القادم، بالتعاون مع إيران والهند، على تغيير ميازين القوى وتغيير قواعد اللعبة في منطقة الخليج. أن استعمال التركيبة السكانية في بعض مدن الخليج كورقة ضغط وابتزاز مؤثرة على حكومات دول الخليج أصبحت واقعية. وإلغاء الهوية العربية لدول الخليج العربي هي أيضاً محتملة. وإن

واستبدال حكومات ومؤسسات دول الخليج بأخرى ذات ألوان ثقافية وانتماءات قومية أخرى لم تعد من نسج الخيال بل ماصثلة للعيان.

إن فرض استفتاء بين سكان هذه الدول حول تحديد هوية هذه الدول الثقافية، هو مشروع يناقش في الدوائر الغربية، وفي إيران والهند بشكل جدي، ولن يطول الزمن حتى تبادر هذه الأطراف إلى صياغة مشروع مشترك بهذا الخصوص تكون حكومات الخليج العربي والأمة العربية الخاسر الأوحد في حال تطبيقه. "عبد الله النفيسي" الكاتب والمفكر الكويتي يدق ناقوس الخطر من تفشي ظاهرة العمالة الأجنبية المرضية، ويحذر من العواقب الوخيمة المترتبة على استمرار هذه الحالة. ويقول النفيسي في برنامج " بلا حدود" على الفضائية القطرية الجزيرة: "العرب في دبي مثل الفاكهة النادرة ولذلك ليس بمستبعد هذا الزخم من الهجرة الأجنبية إلى دبي أن تجعل منها كيان قابل للمُطالبة بحق تقرير المصير تحت ميثاق الأمم المتحدة وتنفصل دبي وتصبح دولة أجنبية في بحر عربي في الجزيرة العربية."[239] إذا لم يتدارك المسؤول في دول الخليج العربي هذا الخطر المحدق بهم وبالأمة العربية سيجدون أنفسهم وبغير مقدمات كبيرة غرباء وأقلية منبوذة في أوطانهم التي يحبون.

[239] فضائية الجزيرة القطرية في 28. 12. 2005 .

الأمن القومي العربي
والتهديدات الإيرانية

في مقابلة صحفية مع رئيس الدبلوماسية العربية، وزير الخارجية المصري، أحمد أبو الغيط، قال الوزير لصحيفة الشرق الأوسط: "أن إيران دولة لها مشاكل مع العالم الغربي ومن ذلك ملفها النووي ونزاعاتها مع الأطراف الغربية ولها رغبة في حماية نفسها من خلال السيطرة على عدد من الأوراق. وهذه الأوراق جميعها عربية، ولذا نرى محاولات إيرانية لاستخدام أوراق عربية من أجل تحقيق مصالح وأهداف غير عربية، ونحن، إزاء ذلك، نقول: هذه جهود وأساليب لها تأثيراتها السلبية على مستقبل الإقليم."[240] حديث الوزير المصري يكشف حجم خطر الدور الإيراني على مستقبل المنطقة برمتها.

المنطقة العربية كان لها في التاريخ البشري القديم المكانة الرفيعة. من هذه الأرض نشأت الحضارات وترعرعت في حواضرها صناعة الحرف وفن الكتابة. من بين أبنائها قام الرسل مبشرين بالقيم الرفيعة وعلى أهلها نزلت الديانات السماوية، ومن خلال أبنائها حملت تلك الديانات إلى كل أرجاء المعمورة. في هذه الأرض الطيبة يتجمع المخزون الهائل لمصادر الطاقة الأساسية من النفط والغاز الطبيعيين. أهمية تلك المنطقة الحضارية والاقتصادية جعلت منها هدفاً دائما للقوى الطامعة والقوى العدوانية المجاورة والبعيدة.

الموقع الجغرافي الذي يتوسط العالم القديم والحديث

والإرث الثقافي والحضاري والديني لمواطني تلك المنطقة

المخزون البشري الكبير لسكان تلك المنطقة

المخزون الهائل لمصادر الطاقة الحيوية والضرورية لكل المجتمعات البشرية

التأثير السلبي الكبير للإرث السياسي والصراعات السياسية والعسكرية في التاريخ القريب والتاريخ البعيد بين أبناء المنطقة العربية ودول أوروبا، التي لا زالت تترك بصماتها على العلاقات بين الشعوب والأمم في العصر الحاضر.

---

[240] صحيفة الشرق الأوسط، لندن، في 3. 8. 2007

كل هذه الأسباب وغيرها تجعل الحذر والاستعداد لمواجهة الأخطار الخارجية المحتملة في كل وقت واجب، وضرورة من ضرورات البقاء والحفاظ على الوجود. الحذر والتحفز الدائم ومراقبة ما يدور من حول هذه الأمة هي مهام واجبات لا يختصر القيام بها على الحاكم والمسؤول في الدولة العربية بل هي منوطة بالمثقف والمواطن العادي في هذه الأمة. من السذاجة بمكان الركون إلى النوايا الحسنة وإلى التطمينات والوعود من أي طرف من الأطراف المحيطة والمجاورة. وخاصة تلك التي لا تخفي أطماعها بأرض وبحار العرب. السياسي والأكاديمي القطري المعروف "محمد صالح المسفر" يحذر بشكل مباشر من خطر النوايا والأهداف الإيرانية في المنطقة. كتب محمد المسفر في القدس العربي: "إيران تعمل بكل جهودها لانتزاع شرعية دولية لبسط يدها علي الخليج العربي دون منافس وشريك فاعل ومؤثر في رسم سياسة الشرق الأوسط." [241]

معرفة الدول والقوى السياسية التي لها أطماع في هذه المنطقة بالقدرات المادية والثقافية والبشرية والوقع الجغرافي التي تختزنها تلك المنطقة جعلت هذه القوى والدول تنشط في العمل على تمزيق هذه الأمة وهذه المنطقة جغرافياً وبشرياً وثقافياً.

من الطبيعي أن ترتاب الدول العربية من المشاريع والمخططات الإيرانية العسكرية مهما كان حجمها وأي نوع من أنواع التسليح. التسليح النووي الإيراني سيجد ترجماته السياسية والاقتصادية والعسكرية سلباً، وربما كارثياً، على الدول العربية المجاورة لإيران. تعتبر إيران في نظر كل الحكومات العربية، حتى التي تدخل في تحالف وتنسيق مشترك معها مثل سوريا، دولة ذات أطماع في الدول العربية. عندما يتحدث المسؤولون العرب عن المشروع النووي الإيراني، وفي محاولة منهم للفت الانتباه العالمي لخطورة السلاح النووي الإسرائيلي على الأمة العربية وعلى شعوب المنطقة، يربط باستمرار وقف المشروع النووي الإيراني بمشروع إخلاء منطقة الشرق الأوسط من كل أسلحة الدمار الشامل. لكن هذا الموقف العربي الإعلامي لا يعني أن العرب، وفي أي شكل من الأشكال، مع امتلاك إيران لهذا السلاح الإستراتيجي الفتاك. لقد تبنى العرب في اكثر من مؤتمر قمة للجامعة العربية مشروع إخلاء منطقة الشرق الأوسط من السلاح النووي وأسلحة الدمار الشامل الأخرى، وكان المقصود على الدوام من هذه الصياغة الدبلوماسية، بالإضافة إلى عدم إمكانية القبول بواقع التسلح النووي الإسرائيلي أيضاً رفض التعايش مع مشروع التسلح النووي الإيراني الذي بدأ في منتصف السبعينات من القرن الماضي. فالدول العربية هي ايضاً ضد امتلاك إيران للسلاح النووي، بصرف النظر عن الأسلوب واللغة التي يعبر عنه هذا المسؤول العربي أو ذاك.

في العلاقات الدولية ليست دائماً القاعدة المعروفة، "عدو عدوي صديقي" صحيحة، ويجب الأخذ بها. بل أن التجارب التاريخية للشعوب والتجارب التاريخية العربية تؤكد

---

[241] القدس العربي، لندن في 14. 11. 2006 .

عدم دقة هذه المقولة، وتؤكد حقيقة وقاعدة "عدو عدوي يمكن أن يكون عدوي" أيضاً. هذه القاعدة والحقيقة المستمدة من التجارب التاريخية المريرة مع حكام إيران على اختلاف مشاربهم هي الأصح والأقرب إلى واقع حالة العراك السياسي الدائر في المنطقة. الخلاف بين الغرب وإسرائيل من جهة وإيران من جهة أخرى في موضوع الملف النووي الإيراني، يدور في الأساس حول امتلاك عناصر القوة والنفوذ من أجل السيطرة والهيمنة على المنطقة العربية. الخلاف بين هذه الأطراف لا يعني إطلاقاً أن أحدهم أقرب إلى العرب من الآخر، وأقل عدوانية وحقداً على العرب من الآخر. في النظر إلى القضايا المتشعبة الأسباب، والمتداخلة التأثير، وعالمية الأبعاد وجب أن يتحرر المرء في محاولة فهمها حسب قاعدة ثنائية الأبعاد في التفكير، وضيق الأفق والعجز على فهم الأزمات الناشئة في المنطقة العربية، وتداخل مصالح القوى الإقليمية مع مصالح القوى الدولية فيها على أكثر من صعيد.

لقد نشب تنافس منذ بداية أعوام تسعينيات القرن العشرين بين إيران والكيان الصهيوني حول مناطق النفوذ في الأقطار العربية. وكان كل من هذين الكيانين المعاديين للأمة العربية مشغول في جمع أوراق القوة استعداداً للزمن القادم المناسب. وحسب ما أكده الفرق في الجيش العراقي، وفيق السامرائي عندما كتب "لا تزال نظرية الأمن الإسرائيلي قائمة على عناصر أساسية تبدأ بقدرة الردع النووي، والاحتفاظ بتفوق جوي ساحق، والإبقاء على قوات مدرعة متقدمة تقنيا، والتأكيد على نفوذ استخباري فعال، ومنع الآخرين من امتلاك سلاح نووي."[242] لقد توصل الطرفان في تلك الفترة إلى استنتاجات استراتيجية تقول: "بأن الوطن العربي بعد انتهاء الحرب الباردة بين القطبين الدوليين، الاتحاد السوفييتي والولايات المتحدة الأمريكية، وبعد إضعاف قدرات العراق العسكرية والمادية وتجريده من عناصر قوته الكلاسيكية، وتجريد العراق من مشروع التسليح النووي بعد انتهاء حرب الخليج الثانية، أصبح لقمة سائغة، وثمرة يانعة حان قطافها." على الرغم من حالة التنافس القائمة بين إيران والكيان الصهيوني تمكن الطرفان من عقد عدد من التفاهمات بينهما حول كثير من القضايا المشتركة، والتنسيق فيما بينهما حول إدارة الأزمات في المنطقة العربية. وتفاهم الطرفان حول العمل الجاد المشترك على إرهاق العراق واستنزافه وتدمير قدراته المادية المتبقية بكل السبل المتاحة وغير المتاحة .

إن امتلاك إسرائيل وإيران للسلاح النووي وغياب امتلاك أحد الدول العربية الأساسية، مثل مصر أو سوريا أو العراق أو غيرها، لما يعادل هذا السلاح، يترتب عليه أخطار استراتيجية جسيمة. التأثير، العسكري والسياسي والسيكولوجي من جراء امتلاك هاتين الدولتين لهذا السلاح الفتاك كبير جداً. لا يمكن الحد من التأثير السلبي المروع على أكثر

[242] صحيفة الشرق الأوسط، لندن، 4. 8. 2009 .

من مستوى وعبر الأجيال العربية المتعاقبة إلا من خلال تجريد هاتين الدولتين في المنطقة العربية من سلاحهما النووي الفتاك، أومن خلال امتلاك بعض الدول العربية لسلاح نووي مقابل رادع لعدوانية هاتين الدولتين، ومطمئن للمواطن العربي، وحامي لمستقبل الأجيال العربية القادمة.

أصبح من نافل القول أن تسلح الكيان الصهيوني ودولة إيران بالسلاح النووي يشكل خطراً حقيقياً على مستقبل الأجيال العربية القادمة، ولا بد من أن تعمل الحكومات العربية الأساسية على إيجاد حلول ناجعة لهذا الخلل الإستراتيجي القائم في الإقليم. قال مصطفى الفقي نائب رئيس البرلمان العربي الانتقالي، ورئيس لجنة العلاقات الخارجية في مجلس الشعب المصري في ندوة "حالة حوار" في الفضائية المصرية في 8. 11. 2006 "إن السياسة الإيرانية لها أكثر من وجه وإيران لا يؤتمن طرفها. وإذا امتلكت السلاح النووي ستشكل خطراً حقيقياً على الأمن القومي العربي." وأضاف الفقي في نفس الندوة "يجب أن لا نتعجب إذا لاحظنا بعد عدة سنوات قليلة العمل المشترك الأمريكي ـ الإيراني واضح وعلني."

لقد حاول العراق إيجاد حلول معقولة وواقعية لذلك الخطر الداهم على شعوب الأمة العربية، من خلال بناء القاعدة الصناعية والتسليحية الطموحة في عقدي السبعينات والثمانينات من القرن العشرين. كانت هذه القاعدة ستساهم مساهمة كبيرة، لو كتب لها النجاح، في إبطال تأثير مشاريع التسليح النووي والكيميائي والبيولوجي الإسرائيلي والإيراني معاً. المشروع العراقي الصناعي والتسليحي الطموح ابتدئ العمل به في بداية السبعينيات من القرن العشرين. لكن الغرب وإسرائيل وإيران تصدوا جميعاً لهذه المحاولة العراقية الجادة في سلسلة من الحروب والعقوبات المكثفة، قاموا بشنها على هذا البلد دون توقف وبصورة متواصلة. كان التنسيق بين هذه الأطراف الثلاثة عال جداً، ولازالت هذه الأطراف الثلاثة مدركة أهمية العمل المشترك في ما بينها في الأهداف الإستراتيجية على الأقل. لقد تجاوز العمل المشترك بين إيران والكيان الصهيوني والولايات المتحدة المناسبات الطارئة والفرص المناسبة بل أصبح عمل ممنهج ومنسق عبر أطر ومؤسسات لها اجتماعات دورية منذ عام 1988. لقد استوعبت تلك الأطراف أهمية المعمل المشترك والتنسيق في مشاريع تدمير وإيقاف أي محاولة عربية تسعى إلى الوصول إلى خلق توازن استراتيجي مع القوى المحيطة في هذه الأمة وهذا الوطن العربي. بني التنسيق والتوافق والتخادم بين تلك الأطراف على اسس تحقيق المصالح المشتركة لكل منهم.

من المفارقات أن الوعي الغربي ـ الإسرائيلي ـ الإيراني في المصلحة المشتركة في المنطقة قابله وعي ضحل لدى الحاكم والمسؤول العربي بفهم الوقائع والأحداث، وسطحية في تقدير حجم الأخطار المحيطة بالوطن وبالأمة. تعززت هذه السطحية

والغباء السياسي عند المسؤول العربي في ممارسة سياسات قطرية وفئوية ضيقة. تفتقد للنظرة الشمولية والعاجزة عن استيعاب ركائز الأخطار الأساسية المشتركة على أقطار هذه الأمة كل على حدى. وغابت على مدى الثلاثة عقود المنصرمة صدق النية في العمل السياسي العربي المشترك. لم يستطع الحاكم العربي، والمسؤول العربي، خلال تلك العقود الأخيرة الترفع عن تفاهات الأمور، والمناكفات الشخصية والفئوية والقطرية.

لم يفلح المسؤول العربي في الوصول إلى قواسم مشتركة مع إقرانه العرب مبنية ومرتكزة على قواعد المصالح الأساسية المشتركة لشعوب الأمة. لم يستطع الحاكم العربي التعلم من الدول التي تشكل التهديد المباشر للأمة عندما شكلت حلفاً على اختلاف مشاربها وأهدافها. لم يستطع الحاكم العربي رؤية وأهمية الأمن القومي وعلاقته بالأمن القطري كما رآه وعمل على تحقيقه جيل الحكام العرب في عقد الخمسينات والستينات من نفس القرن. هذه الحالة، وحقيقة استقالة الحاكم والمسؤول العربي من مهامه وواجباته الطبيعية في السهر على حماية الشعب وتحقيق مصالح الأمة، سهل على الأطراف المعادية مهمة العمل على تحقيق أهدافها في ضرب التجربة العراقية واحتلال هذا البلد وتمزيقه ووضع جل الأمن القومي العربي تحت رحمة أعداء الأمة التاريخيين.

نرجسية الحاكم العربي وانهماكه في الحفاظ على العرش الكرتوني، الفاقد للسيادة، مهد الطريق أمام القوى الأجنبية في خلق الأمر الواقع الذي تعيشه جل أقطار الوطن العربي، الخالية من أدوات الردع الإستراتيجي الضرورية، لحماية الشعب والوطن والثروة من غطرسة الأعداء الطامعين.

منذ أكثر من نصف قرن عرف قادة وحكام الدول والشعوب العربية بأن هذه المنطقة الممتدة من سواحل المحيط الأطلسي ومضيق جبل طارق في الغرب حتى الخليج العربي وجبال زغروس في الشرق، ومن جنوب السودان وميناء "بربرا" في الصومال في الجنوب حتى لواء اسكندرونة وجبال طوروس في الشمال، تشكل وحدة ثقافية وإقليم سياسي واحد، تفاعل بفعل عوامل تاريخية موغلة في القدم وكون هوية حضارية متميزة عن بقية الأقاليم المجاورة. ميثاق جامعة الدول العربية الذي تمت صياغته في منتصف عام 1945 والذي على أساسه تم إنشاء هذه الجامعة، كشكل من أشكال وحدة الشعب والجغرافية لهذه الأمة، أقر وكرس هذه الحقيقة وأكد المؤكد. لم يغب عن بال الرموز والساسة العرب في تلك الأيام عن التنبه إلى حجم الأخطار التي تحيط بتلك المنطقة الغنية بالثروات، والشاسعة المساحة وذات الوحدة الثقافية. وعرف جيل السياسيين العرب المؤسس للجامعة العربية ضرورة النظر إلى هذه المنطقة ككتلة بشرية مشتركة، وضرورة بناء جسم دفاعي مشترك، يحمي هذه الكتلة البشرية الواحدة، هذه الأمة، وضرورة حماية مصالحها.

لقد نص ميثاق جامعة الدول العربية على معاهدة الدفاع العربي المشترك، ومعاهدة الدفاع العربي المشترك نصت على أن الدفاع عن كل قطر من أقطار دول جامعة الدول العربية هي مهمة جماعية تساهم فيها كل الدول الموقعة على هذه المعاهدة. لقد وضعت ميزانية مستقلة لهذا المشروع العربي الدفاعي، وشكلت قيادة عسكرية مشتركة. وشكلت أيضاً قيادة أركان قوات مسلحة عربية، مهمتها هو الإشراف على القوات المسلحة العربية المشتركة، والعمل على رفع قدراتها التسليحية والقتالية، حتى تتمكن هذه القوات من القيام بمهامها بالدفاع عن أقطار الوطن العربي أمام الأخطار العسكرية الخارجية التي تهدد أمن الوطن العربي. لم تصل ترجمات العمل الدفاعي العربي المشترك إلى درجة الكفاية والكمال في يوم من الأيام، لكنها قطعت في أعوام المد القومي العربي درجة لا يستهان بها أبداً من التنسيق، وحقق التنسيق العربي والعمل العربي المشترك والتكاتف والمؤازرة بين الجيوش والدول العربية نتائج كبيرة جداً.

العمل المشترك العربي في تلك الحقبة صمد وحقق إنجازات هائلة تم بموجبها تحرير الأمة من سيطرة الاستعمار الأجنبي المباشر. في الأزمات والحروب التي خاضتها الأمة العربية والحروب التي فرضت عليها في محصلتها العامة كانت مرحلة تحقيق الانتصارات التاريخية. لقد خسر العرب حرب حزيران عام 1967 وخسر العرب في هذه الحقبة من الزمن معارك أخرى، ولكنهم ربحوا وانتصروا في الكثير من تلك المواجهات المجيدة في تاريخ العرب الحديث. في مرحلة التضامن العربي انتصر العرب في حرب السويس، وانتصر العرب في حرب التحرير الجزائرية العملاقة، وانتصر العرب في الحرب التحررية في اليمن والجنوب العربي، وحميت سوريا ولبنان، وصمدتا أمام تهديدات تركيا وحلف بغداد. وفي تلك الحقبة الخالدة من تاريخ العرب الحديث تحرر أكثر من 80% من مساحة الوطن العربي، وأعيدت للشعب الفلسطيني، بعد كارثة التشرد والضياع عام 1948، الحياة من جديد، ونظمت مقاومته الباسلة المستمرة منذ عقود. وانتصرت الجيوش العربية في حرب تشرين عام 1973 ووضعت حد لعنجهية وغطرسة الجيش الصهيوني وحلفائه الغربيين.

في أقل من عشرين عاماً ساد فيه التيار السياسي القومي العربي وقاد الأمة، حيث زادت مكانة العرب السياسية والثقافية على الخريطة الدولية، وأصبح العرب الرقم الصعب ولاعب أساسي في المعادلات الدولية. لقد انتقل الوطن العربي من حالة أقطار ضعيفة وهشة منسية ومستعمرة لا يحسب لها حساب، إلى كتلة بشرية وسياسية تشارك في رسم الخريطة السياسية للعالم. صعد العرب بشعوبهم ودولهم في مرحلة الرشد والوعي القومي، والقناعة بضرورة التماسك القومي والأمن القومي، إلى أمة مقاومة باسلة تعج بالحراك السياسي والثقافي والاقتصادي. لقد بنيت في هذه الحقبة القصيرة من عمر الأمة العربية آلاف المصانع وبنيت ألاف المستشفيات والمراكز الصحية زشيدت ألاف

الأميال من الشوارع، ومدت قنوات الري وبنيت السدود العملاقة وأصلحت الأرض الزراعية وبنيت مءات الجامعات وألاف المدارس حيث استوعبت ملايين التلاميذ والطلب. وفي هذه الحقبة الخالدة من تاريخ الأمة صنعت أهم الأعمال الفنية الرائعة في السينما والأغنية والمسرح وغيرها، التي لا زالت تتحف الأجيال العربية جيلاً بعد جيل. ستظل تلك الحقبة، ومهما قيل بها ومهما قيل برموزها السياسية والفكرية والفنية من أهم حقب التاريخ العربي الحديث. هي حقبة وفترة مضيئة في تاريخ الأمة العربية ستذكرها الأجيال العربية بكل فخر، وستظل قادة ورموز هذه الفترة من تاريخ العرب منارات وأعلام يهتدى بها لتنير درب الحرية والتحرر والبناء وصنع المستقبل العربي.

عند المقارنة بين المرحلة لتي ساد فيها المد القومي والتضامن العربي التي قادته مصر مع مرحلة المد القطري والفئوي وتقهقر الوعي وانحسارسياسة التضامن العربي التي نعيشها، تتضح أهمية إعادة الاعتبار لإستراتيجية وحدة وتكامل الأمن القومي العربي والتضامن العربي لمصلحة كل الأقطار العربية. انكفاء حكام الأمة إلى المواقع القطرية والطائفية والفئوية، والتخلي عن مشاريع العمل العربي المشترك، الواحد تلو الأخر، عاد على الأمة بالويل والخراب. هذا الخراب طال كل الجبهات السياسية والثقافية والاقتصادية والاجتماعية بشكل مفجع وكارثي. ولا زالت آثار هذا الإنهيار تلاحظ في كل زاوية من زوايا الحياة في الأمة.

بدأت في مطلع السبعينات مرحلة الانعزال السياسي، وانتصار التيارات القطرية في أكثر من قطر عربي. بعد موت جمال عبد الناصر، وحصول الانقلاب السياسي الهادئ، الذي قادة الرئيس أنور السادات في مايو عام 1971 في مصر بدأت مرحلة جديدية في الأمة العربية. في هذه المرحلة المستمرة حتى وقتنا الحاضر تجرأت قوى الشر على اقتحام العواصم العربية واحتلال الدول. حيث احتلت إيران في هذه الحقبة جزر الإمارات العربية في الخليج العربي. ودخلت جيوش الشاه سلطنة عمان عام 1975، وعربدت الجيوش الإيرانية على مجمل دول الخليج العربي. لقد توسع النفوذ الإيراني في لبنان والجزائر والسودان. وأدارت إيران في هذه الحقبة الزمنية سلسلة من الحروب المتواصلة على العراق انتهت في مشاركة الدول الغربية في احتلال العراق العربي. وفي هذه الحقبة القطرية والفئوية من التاريخ العربي الحديث، التي تشيع بها شعارات باهتة وقبيحة، وتنم عن غباء سياسي، تبتعد كثيراً عن تلبية رغبات الشعوب وحماية مصالح تلك الأقطار مثل "الأردن أولاً" و"لبنان أولاً".

في هذه الحقبة القطرية الإنعزالية المزرية والمستمرة احتلت القوات الصهيونية بيروت، وقصفت الطائرات الإسرائيلية بغداد و تونس. وقامت الولايات المتحدة، بالتعاون مع دول حلف الناتو، بقصف العاصمة الليبية طرابلس بالصواريخ. واحتلت أيضاً الصومال، التي قتل فيها أكثر من 11 ألف مواطن صومالي برصاص القوات الأجنبية

في عام وأحد أثناء وجودها هناك بحجة إنقاذ الصوماليين من خطر المجاعة التي كانت تهددهم في عام 1991 . وقصفت العاصمة السودانية عام 1998 بالصواريخ الأمريكية. وكادت في نفس العام تركيا من الإقدام على مهاجمة سوريا واحتلال عاصمتها دمشق . وفي هذه الحقبة السيئة استمرت حالة الهبوط وغياب صور الإبداع على المستوى الفني والثقافي من موسيقى وسينما ومسرح وأغنية. وتفاقمت حالة الفساد الاقتصادي والاجتماعي في كل الأقطار العربية، وانحدر التعليم في الأقطار العربية ووصل إلى مستويات مخجلة.

إن معاهدة الدفاع العربي المشترك لا زالت من الناحية النظرية قائمة وسارية المفعول. ومن ناحية النصوص وصياغة الأهداف، وهيكل هذه المؤسسة العربية لازال مناسباً وصالحاً للقيام بالمهام الموكلة إليه. لكن هذه المؤسسة العربية الرائدة تم إفراغها من مضمونها، وأصبحت نص بلا روح وبلا فعالية. ففي كل مؤتمر من مؤتمرات القمة العربية يتم التأكيد على أهمية إعادة تفعيل دور معاهدة الدفاع العربي المشترك. لكن الحقائق الدامغة في سير الأحداث تظهر أن عدد من الدول العربية تعرضت للاعتداء الخارجي ولم توضع بنود هذه المعاهدة موضع التنفيذ. فالنصوص والمواثيق العربية البينية بأغلبيتها لازالت من الناحية النظرية صالحة للتطبيق، لكن السبب في عدم جدواها هو الحاكم العربي والمسئول العربي، الذي أصبح هو ذاته لا يناسب طبيعة العصر وطبيعة العلاقات الدولية، وعاجز عن تحقيق مصالح الشعب والدولة العربية.

تستشعر قوى ودول كثيرة إمكانيات القوة والمنعة في شعوب البلاد العربية، في حال تحقق شيئاً من أنواع الوحدة والتضامن بين أبناء تلك المنطقة. في كل مرة يتوحد أبناء هذه المنطقة، وتحت أي راية، تشهد هذه المنطقة نهضة عارمة تصل آثارها كل جهات العالم.

إن الأمن القومي العربي لا يقتصر على الأمن العسكري فقط، بل المعنى الحقيقي الشامل للأمن القومي العربي يتأكد في توفير الضروريات لحماية الوطن والمواطن في عدد من المجالات والمستويات.

الأمن القومي يتكون من:

القدرات العسكرية القادرة على حماية الوطن من التهديدات الخارجية

ومن الأمن الغذائي الذي يعني توفر المواد الأساسية الغذائية والضرورية لمواطني الدولة والوطن

تأمين قاعدة اقتصادية قادرة على تلبية حاجات المجتمع في الظروف العادية والظروف الاستثنائية

الأمن الاجتماعي والسلم الاجتماعي الذي يعني تماسك المجتمع الداخلي والتضامن الاجتماعي بين الفئات والطبقات المكونة للمجتمع.

الدرجة العالية في الشعور بالانتماء للوطن والاستعداد للتضحية عند المواطن إذا استدعت الضرورة لذلك.

وتوفير وسائل الوعي والمعرفة العامة والمتخصصة.

إن إطلاق الحريات الفردية من خلال بناء نظم سياسية أكثر عدلاً وتشرك الجماهير في صنع القرار وتساهم في تحرر الطاقات البشرية الكامنة، عبر خلق آلية تضمن انتقال وتداول السلطة في الحكم بين القوى السياسية الفاعلة في المجتمعات العربية صارت ضرورة ملحة. ضرورة صنع شكلاً من أشكال الديمقراطية تتناسب مع قيم ومع تراث أبناء الوطن العربي الحضارية، وتحق الانفراج بين الحاكم والمحكوم في الوطن الواحد، هي العمود الفقري في مشروع الأمن القومي العربي الناجز.

الأمن القومي العربي، بطابعه الشمولي، يشوبه خلل خطير و يعاني في أكثر من مجال وعلى أكثر من صعيد من الثغرات، التي تحتاج إلى الملء وتوفير النواقص. لم تستطع الحكومات العربية خلال العقود الأخيرة من إيجاد حلول لمسألة النقص الحاد في مواد الغذاء الأساسية والضرورية للمواطن العربي، كالقمح مثلاً، ولازالت بلدان عربية مثل مصر تستورد من الخارج أكثر من نصف ما تستهلكه من تلك المواد الحيوية. هذا النقص وهذا الخلل في الأمن الغذائي العربي يشكل ورقة ضغط وورقة ابتزاز قوية بيد من يريد شراً بالدول التي تعاني من نقص في تلك المواد الغذائية الضرورية لحياة المواطنين.

النزاعات العرقية والطائفية في بعض الدول العربية تخلق هي ايضاً ثغرات كبيرة في جسم المجتمعات العربية، وتترك هذه المجتمعات ودولها وحكوماتها عرضة للابتزاز وتظل واقعة تحت خطر تدخل القوى الخارجية في تأجيج الصراعات وتفاقمها. السلم الاجتماعي في أي دولة من الدول، وأي شعب من الشعوب ضرورة حياتية لا بد من توفرها وخاصة في الظروف الاستثنائية. تجربة كل من العراق ولبنان تؤكد هذه الحقيقة، وكشفتا عن استعداد أطراف سياسية واجتماعية بالاستعانة بالمعتدي الأجنبي ضد حرية الوطن وضد أبناء الوطن الواحد، وفتح أبواب الوطن لعبث العابثين من غزاة وطامعين.

من الناحية العسكرية هناك جملة من القوى الخارجية والدول المجاورة تعد في تعداد الأخطار التي تحيط بالوطن العربي. هذه الأخطار المزمنة لازالت بادية، وزادت في الأعوام الأخيرة شراسة وعدوانية.

يقف على رأس هذه القوى الخارجية العدوانية في المنطقة الكيان الصهيوني، الذي زرع في قلب الوطن العربي بمساعدة وتواطؤ القوى الغربية الاستعمارية بهدف شق الوطن العربي مشرقه عن مغربه. والعمل المستمر على استنزاف أقطاره حديثة النشأة، والتي عمل الاستعمار الفرنسي والاستعمار الإنجليزي، بعد الحرب العالمية الأولى، على تمزيقه إلى دويلات وكيانات ضعيفة وهزيله غير قادرة على الصمود أمام أي تهديد خارجي، وقابله للإبتزازات والتنازلات أمام أي قوى إقليمية وعالمية متوسطة القدرة والإمكانيات. الكيان الصهيوني الجاثم على ارض فلسطين العربية بقدراته التسليحية الكلاسيكية الكبيرة وبقدراته التسليحية النووي وأسلحة الدمار الشامل الأخرى البيولوجية والكيميائية، لازال الخطر المباشر والدائم منذ قرابة النصف قرن يهدد حياة المواطن العربي ويهدد مصير الأمة العربية في دول معاهدة سايكس ـ بيكو المشؤومة.

الدولة التركية لم تتخلى حتى هذا اليوم عن أطماعها التوسعية في العراق وسوريا، وهي تمتلك قدرات عسكرية وبشرية كبيرة بالإضافة لعضويتها في حلف شمال الأطلسي، الذي يمتلك قدرات عسكرية غير محدودة. تركيا الدولة المجاورة لدولتين عربيتين عزمت عام 1998، على خلفية اتهام الحكومة السورية في دعم حزب العمال الكردستاني في تركيا، على احتلال وتدمير القطر العربي السوري. الدولة التركية تحتل منذ عام 1939 لواء الإسكندرونة السوري. لم تبدي تركيا خلال القرن الماضي أي رغبة في التخلي عن لغة التهديد واستعمال القوة العسكرية ضد العراق وضد سوريا، إذا اقتضت مصالحها الإستراتيجية ذلك. في مقابلة مع رئيس الوزراء التركي "رجب طيب أردوغان" مع تلفزيون الجزيرة القطرية مساء 10. 2. 2006 قال: "إننا بالحكومة نفكر بشكل جدي في مشروع إنتاج الطاقة النووية للأغراض السلمية لأن اقتصادنا يحتاج إلى ذلك."[243] من الناحية الفنية والتقنية امتلاك المفاعلات النووية للأغراض السلمية تؤهل الدولة التي تملكها من إنتاج الأسلحة النووية. إذا ما قررت الحكومة التركية بناء المفاعلات النووية للأغراض السلمية فستصبح تركيا بشكل تلقائي على عتبة الدخول في نادي الدول النووية، ولن تكون بعد ذلك إلا مسالة وقت. لازالت تركيا تشكل أحد مصادر الخطر وأحد مصادر تهديد الأمن القومي العربي.

الولايات المتحدة الأمريكية ومنظومة حلف شمال الأطلسي العسكرية انتقلت من حاله التهديد والمناوشة لشعوب ودول "العالم الثالث" إلى حالة الوجود العسكري النشط وخوض الحروب وممارسة الاحتلال المباشر. احتلال الصومال ويوغسلافيا وأفغانستان والعراق كان الشكل السافر لدول هذه المنظومة العسكرية وفرض التواجد العسكري المباشر على شكل قواعد عسكرية طال اكثر من خمسين دولة من دول "العالم الثالث". دول الوطن العربي ظلت في استراتيجية حلف شمال الأطلسي على الدوام بؤرة الهدف.

---

[243] محطة الجزيرة القطرية في 10. 2. 2006.

وظل الوطن العربي، حسب اشهر منظري وقادة هذا الحلف السياسيين والعسكريين، المنافس الحضاري والتاريخي لدول العالم الغربي. دول هذا الحلف العسكري لا زالت تشكل أحد الأخطار الأساسية التي تهدد أمن المواطن العربي والأمن القومي العربي بمجمله وتهدد وجود هذا الوطن.

الدولة الإيرانية والحكومات المتعاقبة التي أدارت شؤون هذه الدولة لها تاريخ حافل في التدخل العسكري المباشر في شؤون الدول العربية. وهذه الدولة تحتل بشكل فعلي أرض عربية تعود إلى أكثر من دولة عربية تزيد مساحتها على أكثر من 400 ألف كيلو متر مربع. فإيران تحتل إقليم الأحواز الذي تبلغ مساحته حوالي 324 ألف كيلو متر مربع منذ عام 1925 . وإيران تحتل جزر الإمارات العربية في الخليج العربي. وإيران تشارك بشكل فعلي في احتلال الجمهورية العراقية. وقادة إيران لا يخفون طموحاتهم في الوصول إلى شواطئ البحر الأبيض المتوسط.

إيران طورت في العقدين الأخيرين عدد من المنظومات التسليحية، ذات ميزات هجومية، تتجاوز الحاجة الإيرانية العسكرية للأغراض الدفاعية. قادة إيران لا يخفون طموحاتهم القومية المغلفة برداء ديني في بناء الإمبراطورية الفارسية. هذه الإمبراطورية كما كانت في التاريخ، تقوم فقط على أنقاض الدول العربية وعلى جماجم المواطنين العرب منذ احتلال بابل على يد أول حاكم فارسي لأول كيان فارسي في التاريخ البشري عام 539 قبل الميلاد. ستبقى إيران تشكل أحد مصادر الخطر الحقيقي على مصير الأمة وستظل إيران مصدراً من المصادر الرئيسية المهددة للأمن القومي العربي.

إن اختلال الميزان العسكري لصالح القوى الأجنبية والتي لم تستطع الدول العربية مجتمعة إلى هذا الوقت تعديله يصبح بامتلاك إيران للسلاح النووي أكثر اختلالاً وأكثر خطورة. وسيجعل المنطقة العربية والدول العربية تعيش حالة رعب دائم لن تنحصر أثاره السلبية على الجيل الحالي فقط، بل ستطال أثاره السلبية الأجيال العربية القادمة. إيران الدولة التي تمتلك قدرات اقتصادية وبشرية وعسكرية كبيرة في الإقليم، وتمتلك استراتيجية توسعية على حساب دول الجوار، ستكون أكثر خطورة على الأمن القومي العربي، إذا ما قدر وأن تمكنت من امتلاك أسلحة الدمار الشامل، من أي من القوى والدول الأخرى المعادية للوطن العربي وللأمة العربية.

إذا ما تمكنت إيران من امتلاك السلاح النووي الفتاك، مضافا إليها عدوانية الدولة الإيرانية المعهودة والموجهة إلى دول الوطن العربي، ستترتب على ذلك نتائج من الصعب التنبؤ بأبعادها وآثارها على المنطقة العربية. المعارض السوري المعروف ميشيل كيلو يحذر بشدة من الارتماء في أحضان السياسة الإيرانية، التي تعمل منذ زمن على عمل صفقة كبيرة مع الدول الغربية على حساب الدول العربية ودول الجوار

الإيراني، معززة بامتلاكها السلاح النووي. في مقال تحت عنوان "النظام السوري أمام منعطف خطير" كتب كيلو: "يعني هذا، باختصار شديد، أن السوريين سيتعاملون من الآن فصاعدا مع نظام سيختلف خطابه أكثر فأكثر عن خطاب النظام الذي عرفوه طيلة نيف وأربعين عاما، سيتبنى أنماط سلوك غير تلك التي خبروها خلال الحقبة السابقة، القومية، وأن سياساته لن تقوم بعد اليوم علي أولوية دور الصفقات الخارجية في إنتاج توازن النظام واستقراره الداخليين، بل ستعطي الأولوية للمواجهات مع الخارج، رغم أن هذه ستضعفه أكثر فأكثر وستحوله إلي ورقة في يد إيران، التي يديرها رجال دين دأبوا علي عقد صفقات علي حساب جيرانهم، وتزداد حاجتهم إلي أوراق إضافية تعزز قدرتهم علي عقد صفقة تاريخية مع الخارج، تقنعه بقبول دورها كقوة إقليمية عظمى ومسيطرة، يستند دورها الجديد إلي إسلامها التعبوي ـ الشعبوي وقنبلتها النووية! "[244] وفي نفس السياق عبر الأمين العام للجامعة العربية في كلمة افتتح بها مؤتمر القمة العربية في 28. 3. 2006 في الخرطوم عن ثقته "أن صفقات تحاك في المنطقة ولا يجوز للعرب أن يتغيبوا عنها."[245] في إشارة منه إلى ما أثير حول حوار أمريكي إيراني محتمل بشأن العراق والمشروع النووي الإيراني.

ستظل صورة المستقبل العربي قاتمة ولا تبشر بالخير، وسيظل الأمن القومي العربي مهدد من تلك الأطراف المذكورة أعلاه، طالما بقي المسؤول العربي يتصرف على قاعدة مصالح الدولة القطرية و المصلحة الفئوية والحزبية الضيقة. لكن هذا كله لا يعني البتة أن الوطن العربي مجرد من عناصر القوى والمنعة وحماية الذات و الدفاع عن المصالح القومية. فالأمة العربية تمتلك عناصر القوة والمنعة في كل جوانبها ومتطلباتها. فهي تمتلك القدرات المادية وتمتلك القدرات البشرية الهائلة. وتمتلك العمق الجغرافي وتمتلك العمق البشري في البلدان والقارات الأخرى غير العربية . وفي الوطن العربي حاضراً أكثر من أربعة ملايين رجل تحت السلاح ، إذا ما جمعت حسابيا أعداد الجيوش النظامية في الدول العربية.

في الوطن العربي قدرات عسكرية تتقن أساليب حرب التحرير الشعبية تتفوق على من سواها في دول العالم الأخرى وهي ذات تجربة طويلة، وحققت مكاسب وانتصارات لا يستطيع أحد نكرانها. حركة التحرير الجزائري حققت الانتصار على فرنسا الاستعمارية، وحركة التحرير الفلسطينية لا زالت صامدة أمام الهجمة الصهيونية البربرية منذ أكثر من ستين عام وتحق الإنجازات على طريق الانتصار والتحرير، والمقاومة العراقية تخوض حرباً ضروس ضد أكبر قوة عسكرية عرفها التاريخ البشري، وهي تفشل مشاريع المستعمر الإمبريالي الأمريكي عبر مقاومتها الباسلة،

---

[244] القدس العربي، لندن، في 9. 2. 2006.
[245] وكالات الأنباء

وهي تسير بثبات على طريق تحقيق الانتصار والتحرير. هذا ليس جرد حساب بل مجرد أمثلة وتجارب عربية تظهر القدرات الكامنة والظاهرة في هذه الأمة إذا ما احسن إدارتها وتجميعها في استراتيجية دفاعية مناسبة.

لقد بدت في الآونة الأخيرة بعض الإرهاصات التي تدلل على حالة نهوض ووعي بأهمية العمل العربي المشترك من جديد. وظهرت بالأفق بوادر عمل في الاتجاهات الصحيحة وذات أبعاد استراتيجية ضرورية في بناء نظام دفاعي عربي يحمي الوطن العربي من الأخطار المحيطة بأبنائه وثرواته. إن قرار مجلس وزراء الخارجية العرب المنعقد في القاهرة في 6. 9. 2006 في البدء الجدي في تصنيع الطاقة النووية في الأقطار العربية للاستخدامات السلمية، وفتح لهذه الهمة الجامعات والمعاهد ورصد الأموال اللازمة لذلك لهي بادرة خير وخطوة صحيحة وضرورية في الاتجاه الصحيح. وفي نفس السياق إن تصريح الرئيس المصري حسني مبارك الذي خرج عن تحفظه التقليدي ويعلن أمام رئيس الكيان الصهيوني يهود أولمرت في مؤتمرهما الصحافي المشترك بعد لقائهما في القاهرة في 12. 1. 2007 "أن مصر قد تسعى لحيازة السلاح النووي للدفاع عن نفسها في أجواء الضباب النووي الذي يغلف منطقة الشرق الأوسط."[246]

هذه الخطوة وتلك التوجهات العربية ستنقل العرب في حالة السعي لتنفيذها والسعي لامتلاك القدرات العلمية والتقنية إلى تحرير المواطن العربي من الشعور بالخوف والقلق الدائم على مصير الأجيال القادمة، وستفتح الأبواب على مصاريعها للأجيال العربية القادمة لتتدبر أمرها من على أرضية صلبة تساهم في تقدم الوطن العربي وحماية أبنائه وخيراته. فالصدام المسلح مع إيران وغير إيران أصبح حتمي ومن المسلمات، وهذا الصدام جاري على قدم وساق بأشكال متعددة في أكثر من مكان في الوطن العربي. وإيران تخوض من الناحية العملية عدة حروب على الأرض العربية. فالحرب مستمرة على الشعب العربي في إقليم الأحواز منذ ثمانية عقود، والحرب في العراق ولبنان واليمن والجزائر ولبنان ضالعة إيران بها بقوة وبشكل مباشر.

حاول حكام إيران والإدارة الأمريكية إعادة تقييم سياسة الصدام الظاهري بينهما، وعملا على إعادة تقييم نقاط الخلاف بينهما حول المشروع التسليحي النووي. وأدرك الطرفان بأن سياسة الصراع المفتوح حول برنامج التصنيع النووي الإيراني، الذي يعي الطرفان بشكل جيد حقيقة أهدافه الموجهة لأقطار الوطن العربي دون غيرها من الدول، قد أنتجت عكس ما اعتقد الطرفان في الوصول إليه. عندما أعلنت سبع دول عربية عن نيتها بناء معامل ذرية لإنتاج الطاقة أدرك حكام إيران والدول الغربية أن المشروع النووي الإيراني أصبح يشكل دافعاً حقيقياً لأغلب الدول العربية بإعادة النظر بسياستها

[246] وكالات الأنباء العربية والعالمية.

السالفة بعدم الإقتراب من المشاريع النووية بشكل عام. لقد دفعت سياسة الحرب الإعلامية بين الغرب وإيران حول المشروع النووي الإيراني، وعدم جدية هذه الأطراف في هذا العداء، العرب إلى الإقدام على العمل على بناء مشاريع انتاج الطاقة من خلال استعمال الهندسة النووية. وكشفت للعرب وللعالم هزلية هذا الصراع المفتعل من حيث المضمون ومن حيث الشكل. كشفت للعرب قبل غيرهم على مدى التواطؤ الغربي مع إيران. والغرب يشعر بمأزق عدم قدرته على الضغط على الدول العربية بعد الإقدام على بناء مفاعلات نووية للأغراض السلمية في ظل إقدام إيران على اكمال مشاريعها النووية السلمية والعسكرية على مرأى ومسمع قوات الناتو في العراق والخليج وأفغانستان.

إن إعلان 16 جهاز أمني أمريكي، وعلى رأسهم جهاز المخابرات المركزية الأمريكية في شهر تشرين الثاني عام 2007 في تقرير أمني مشترك حول القدرات الإيرانية التسليحية وحول المشروع النووي الإيراني، والذي جاء فيه "على أن إيران لم تطور برنامجها النووي العسكري، وأن برنامجها النووي لازال متوقف عند المستوى الذي وصل إليه عام 2003" لهو محاولة مخادعة متفق عليها مع الطرف الإيراني مكشوفة لتطمين العرب ولفتح أبواب ضغط وبتزاز جديدة على الأطراف العربية لثنيها عن السير في مشاريعها النووية بشكل جاد.

فالعرب، العدو المشترك لإيران والولايات المتحدة والكيان الصهيوني، المقصود بالتسلح النووي الإيراني والتهديد بهذا السلاح، حسب أغلب المراقبون الدوليون قد قلبوا الطاولة على الحضور وأعادوا بذلك صياغة المعادلة من الناحية الإستراتيجية، وتركوا كثير من الأطراف تعيد حساباتها من جديد في مصير ميازين القوى المستقبلية في المنطقة.

لازالت القدرات العربية الدفاعية عاجزة عن تأمين الحد الأدنى الضروري لحماية المواطن العربي والأقطار العربية عبر الاستمرار في التشبث في حاله التشرذم وتشتيت القوى. يشكل الفشل في تجميع القدرات الدفاعية الذاتية المتوفرة لدى الدول العربية أحد أسباب الضعف الواجب إزالتها وتخطيها. القدرات العربية الكامنة، في ما إذا تم توحيد قياداتها وتنسيق عمل تلك القدرات، حسب استراتيجية دفاعية عربية مشتركة، تأخذ بعين الاعتبار مصلحة الأقطار العربية وتضع مصلحة الأمة فوق كل اعتبار، كفيلة بحماية الأمة من كل غاشم ومعتدي. تجارب العقود المنصرمة تؤكد بأن الأمة العربية تمتلك طاقات هائلة وتستطيع القيام بحماية ذاتها إذا ما احسن استخدامها.

الإستراتيجية الإيرانية المعاصرة
الموجهة للأقطار العربية

لم تتوانى ولم تتوقف الحكومات الإيرانية المتعاقبة منذ قرن من الزمان عن التدخل في الشؤون العربية بطرق مباشرة وطرق أخرى غير مباشرة. المجالات التي مارست الحكومات الإيرانية نفوذها وتدخلها في الشأن العربي تعددت وتنوعت. مرة أخذت شكل الحملات العسكرية والاحتلال العسكري المباشركما حصل لإقليم الأحواز العربي على الساحل الشرقي للخليج العربي عندما أقدمت الجيوش الفارسية على إحتلال أجزائه تباعاً وأتمت السيطرة على هذا الإقليم في 20. 4. 1925 . وتارة اخذ التدخل الإيراني في الشؤون العربية الداخلية شكل المؤامرات الدبلوماسية السرية غير المعلنة، كما عمل الشاه محمد رضا مع الأمريكان والصهاينة على توريط الدول العربية للدخول إلى حلف بغداد الإستعماري، ومرة أخرى دخلت إيران إلى المجتمعات العربية، دون استئذان أحد، وشكلت الأحزاب والمنظمات السياسية والاجتماعية المرتبطة بأجهزتها المختلفة بشكل مباشر. وأخذت الحكومات الإيرانية ذريعة حماية المواطنين العرب الشيعة كمبرر لهذا التدخل. لقد تجاوز عدد الأحزاب الطائفية التي ساهمت السلطات الإيرانية بتشكيلها ورعايتها وتمويلها في أقطار الوطن العربي، وربطها مباشرة في الأجهزة الحكومية الإيرانية الرسمية والأمنية، الثلاثين حزباً سياسياً. تعددت الوسائل والطرق والمجالات الإيرانية الموجهة للوطن العربي وظل الهدف الإيراني واحداً. فقد ظل الهدف الإيراني يتمحور حول تهشيم وتخريب الوطن العربي وإضعاف أقطارة وتمزيق وحدة مجتمعاتها عبركل وسيلة متاحة. والسؤال الذي يتبادر للذهن بشكل تلقائي ما السبب الذي يكمن خلف هذه السياسة العدوانية الإيرانية للعرب وللأقطار العربية ؟

أيكمن السبب في هذه العدوانية في الأرث التاريخي العربي ـ الفارسي المثقل بالهموم والمشاحنات والحروب القومية التي دارت في تلك المنطقة من العالم عبر العصور والقرون الطويلة !

أهو البعد المذهبي والطائفي الذي يرمي بظلاله الثقيلة على العلاقات العربية ـ الإيرانية السبب المباشر في هذه العدوانية، وذلك على خلفية أن أغلب المسلمين العرب هم من أتباع المذاهب الإسلامية السنية في حين أن أغلب الفرس وأغلب الإيرانيين من أتباع المذهب الجعفري بنسخته الصفوية !

أم أن القضايا السياسية الحساسة التي تنشأ بالعادة بين قوميتين جارتين هي السبب، حيث تخلق وتنمو عوامل الصراع والسيطرة والهيمنة على المناطق الحدودية والمتاخمة لكل منهما !

أم أن السبب الحقيقي الذي يكمن خلف هذه العدوانية الفارسية الظاهرة للعرب مردها طبيعة وماهية الفلسفة السائدة في المجتمع الفارسي والمجتمع الإيراني، تلك التي تصنع الميول وتكون الإنطباعات البشرية الفردية والجمعية عن الأخر. حيث أن الفلسفة السائدة في المجتمع الفارسي بنيت على مبادئ الديانة الزردشتية (المجوسية) صاحبة الثنيوية في التفكير وازدواجية الموقف، وكذلك التركيز على الأصول الآرية للشعب الفارسي النقيض والمعادي للعنصر السامي العربي ومشتقاته ؟

يجمع أغلب المختصون في شأن العلاقات العربية ـ الإيرانية بأن لكل من هذه العوامل الأربعة السالفة الذكر حصة في صياغة هذه العلاقة السلبية كما هي عليه في وقتنا الحاضر، كإمتداد واستمرار لتلك السمة في العلاقات منذ قرون سلفت.

لقد تشكلت خلال النصف قرن الأخير استراتيجية إيرانية متكاملة وواضحة المعالم في كيفية التعامل مع العرب ومع الأقطار العربية. شارك في رسم الإستراتيجية الإيرانية الموجهة إلى أقطار الوطن العربي مجموعات منتخبة من السياسين وأساتذة الجامعات ورجال الإقتصاد ومجموعة من رجال الدين والقادة العسكريين. لقد أشرف الشاه محمد رضا في بداية أعوام الخمسينات على عمل هذه اللجان التي استفادت من المشاريع الأمريكية والبريطانية والصهيونية المشابه الموجهة إلى الوطن العربي، و الموجهة إلى المواطن العربي في تلك الحقبة من الزمن. لقد وضعت اسس لهذه الإستراتيجة السياسية والإعلامية في منتصف عام 1955 وسار عليها حكام إيران على اختلاف انتماءاتهم ومشاربهم الفكرية. فقد نالت هذه المشاريع الإيرانية رضا ومباركة إدارة الرئيس الأمريكي أيزنهور وأنتوني إيدن رئيس وزراء بريطانيا في حينه.

كان في صلب الإستراتيجية الإيرانية والإستراتيجيات الغربية الموجهة إلى الوطن العربي يكمن الهدف المشترك في وقف تمدد وتوسع حالة النهوض القومي العربي بقيادة مصر وقيادة الرئيس جمال عبد الناصر. حيث استطاعت حركة التحرر الوطني العربي في تلك الأثناء من تعبئة الملايين من الجماهير العربية في مشروع التحرر الوطني ومحاربة الإستعمار والتصدي لمشاريع الإحلاف الإستعمارية في المنطقة، كحلف بغداد المشأوم ،واستنهاض همم الجماهير العربية لوقف الخطر الصهيوني المتمثل بقيام دولة إسرائيل في قلب الوطن العربي على أرض فلسطين العربية، ومساندة الثورة الجزائرية التحررية.

الأعمدة الأساسية التي سارت عليها الحكومات الإيرانية بخصوص الوطن العربي عبر السنين والعقود الخمسة الأخيرة يمكن جمعها في ثلاثة محاور أساسية. تتمثل هذه المحاور في:

محور إنشاء الأحزاب والمنظمات السياسية على أسس طائفية وعرقية

محور مشاغلة واستنزاف الأقطار العربية عسكرياً. ولهذا الغرض تفانت الحكومات الإيرانية المتعاقبة في بناء قاعدة صناعية عسكرية كبيرة.

وفي المجال الإعلامي رسمت الحكومات الإيرانية استراتيجية إعلامية تشيع الإحباط والفوضى وأجواء الهزيمة وتبرير التدخل الأجنبي وخلق وتوتير النزاعات العرقية والدينية والمذهبية داخل المجتمعات العربية .

إنشاء الأحزاب والمنظمات السياسية
على أسس طائفية وعرقية

سقط الشاه عام 1979 ولكن مشروعه الموجهة إلى الوطن العربي لم يسقط معه، بل تبنت القوى الحاكمة الجديدة بقيادة الخميني ورجال الدين الآخرين هذا المشروع وقامت بتطوير أجزائه ومحاوره ووضعت تفاصيل هذا المشروع وتلك الإستراتيجية في مجال التطبيق الجاد، حيث رصدت الحكومات الإيرانية الدينية لهذا الغرض الأموال الطائلة والمؤسسات البحثية والأمنية المناسبة لتنفيذ بنود هذا المشروع على طول ساحة الوطن العربي . تحت جنح الظلام الإعلامية وفي أجواء المهاترات الإعلامية التي كانت شائعة بين القوى السياسية العربية الحاكمة والمعارضة عملت حكومة الخميني على تصدير الأفكار وتصدير العملاء إلى الساحة العربية. عرف هذا الجهد الإيراني في حينه بمشروع تصدير الثورة، وقبل كثير من العرب تسويق هذه الفكرة الإيرانية نظراً لعدم رضاهم عن سياسات الحكومات العربية العبثية التي كانت تسود بلادهم.

كانت أهم المؤسسات التي أوجدتها حكومة الخميني، والتي أشرفت على إختراق المجتمعات العربية في تسويق وجهة نظر حكام إيران الجدد هي **"المنظمة العالمية لحركات التحرير الإسلامية"**. تلك المنظمة المرتبطة مباشرة بمكتب مرشد الجمهورية الإسلامية وتحت أشراف مرشد الجمهورية. تأسست هذه المنظمة عام 1981. كانت المنظمة الثانية التي أقدمت على تأسيسها الحكومة الدينية في طهران عام 1982 هي منظمة **"مجمع المبلغين الإسلامي"** المرتبطة مباشرة بجهاز الأمن الخارجي الإيراني. لقد بلغ عدد العاملين في هاتين المؤسستين الإيرانيتين المتخصصتين تصدير اثورة وإختراق المجتمعات العربية والإسلامية والمناط بهما تنفيذ مشروع إيران الإستراتيجي في الوطن العربي العربي أكثر من ثلاثين ألف عامل ومرتبط وتابع. من بين صفوف هذه المؤسسات كان عدد كبير من الدارسين العرب في الجامعات الإيرانية والمدارس الدينية الإيرانية.

عندما شعر حكام إيران أن الشباب العربي من أبناء الطائفة الشيعية أصبحت تتكاثر أعدادهم في أوساط الأحزاب القومية والأحزاب اليسارية في الدول العربية، وعندما تكاثرت أعداد الشباب الشيعي المتمرد على سلطة الحوزات الإيرانية و الحوزات الدينية المرتبطة بإيران من خلال الإنفتاح على الأفكار السياسية والأديولوجية الأخرى، دق ناقوس الخطر في دوائر الحكم الإيرانية. فبخروج الشباب الشيعي من "غيتو" الانعزال المذهبي سيفقد حكام إيران التربة الخصبة وأدواتهم السهلة في تدخلهم في الشؤون الداخلية في المجتمعات العربية. قررت مراكز صنع القرار في إيران وقررت معها المرجعيات الدينية الشيعية في إيران والعراق ولبنان المرتبطة والموالية للدولة الإيرانية استعادة هؤلاء الشباب من الأحزاب الوطنية والقومية واليسارية والزج بهم مرة أخرى في داخل أسوار الأحقاد الطائفية المقيتة. عندما شعر قادة إيران أن الشباب العربي الشيعي أصبح يسير في طليعة الحركة القومية التحررية العربية وأصبح كم كبير من قادة هذه الحركات الوطنية والقومية واليسارية من أبناء فقراء الشيعة العرب تحركت المؤسسات الإيرانية بشكل مباشر لقطع الطريق على أبناء الشيعة العرب التحررية الجديدة.

فقد عملت حكومات إيران منذ منتصف خمسينيات القرن العشرين على إنشاء وتأسيس أحزاب ذات توجهات طائفية في عدد من الأقطار العربية. فقد بلغ عدد الأحزاب التي سعت الحكومات الإيرانية المتعاقبة على تشكيلها ورعايتها في أقطار الوطن العربي خلال الخمسة عقود الأخيرة إلى اكثر من ثلاثين حزب ومنظمة سياسية. وساعدت إيران مادياً وإعلاميا اكثر من عشرين حزب ومنظمة عربية كانت قائمة.

السمة العامة التي تغلب على الأحزاب والمنظمات السياسية التي ساهمت إيران في إنشائها في أقطار الوطن العربي كانت دائماً سمة الأسس والأهداف الطائفية والعرقية وكذلك الإنعزال والإنغلاق الذاتي. ولم يعرف أن ساهمت إيران في إنشاء حزب أو منظمة سياسية تتبنى مبدأ وحدة الوطن أو وحدة الأمة العربية أو الأمة الإسلامية. هذه الحقيقة لم تأتي بمحض الصدفة، بل هي استراتيجية ثابتة في المشروع الوطني الإيراني والمشروع القومي الفارسي الذي لا يجد حرجاً في التشديد على البعد الطائفي للكيان الإيراني القائم واختلاطه وانسجامه مع البعد القومي الفارسي للدولة، وذلك منذ تأسيس الدولة البهلوية في عام 1925 . وقد نص الدستور الإيراني على في مادته الرابعة على أن دين الدولة الرسمي الدين الإسلامي الجعفري. ونص نفس الدستور على أن رئيس الدولة يجب أن يكون من أتباع المذهب الجعفري. وأن رأس الدولة هو الولي الفقيه المنبثق من فقه المذهب الشيعي الجعفري.

كان أهم هذه الأحزاب الطائفية والإنعزالية التي أقدمت إيران على تأسيسه عام 1958 من عناصر إيرانية وعراقية في طهران هو حزب "الدعوة الإسلامي". جاء تأسيس

حزب الدعوة في حينه رداً على قيام ثورة 14 تموز العراقية التي قادها التيار القومي العروبي وتم فيها اسقاط نوري السعيد وحكومته وتأسيس الجمهورية في العراق. أن خمسة أشخاص من اصل سبعة من مؤسسي حزب الدعوة الإسلامي الشيعي هم من الإيرانيين. وكما تؤكد أدبيات الحزب بأن مهدي آصفي وعلي كوراني وكاظم حائري ومرتضي عسكري ومهدي طباطبائي هم من الإيرانيين، أما الاثنان الآخران فهما فقيه الحزب محمد باقر الصدر الذي انسحب من الحزب مبكراً، والثاني عبد الصاحب دخيل الذي اعدم في عام 1978. ظل، ومنذ أول أيام التأسيس، الأساس الفكري والتنظيمي لهذا الحزب قائم على أسس طائفية. يتناول البرنامج السياسي لهذا الحزب مصالح طائفة بعينها ويختصر جل اهتماماته عند حدود تواجد أعضاء الطائفة الشيعية. و شروط العضوية في هذا الحزب كانت منذ البداية مصاغة لفئة محددة من المجتمع العراقي وهي محصورة في أبناء الطائفة الشيعية. نشط هذا الحزب بمساعدة إيرانية مفضوحة في كلٍ من العراق والكويت والبحرين وجنوب لبنان. إن كلاً من إبراهيم الجعفري ونوري المالكي رئيسا وزراء العراق أثناء الإحتلال الأمريكي من قادة هذا الحزب الإيراني المنشأ. يأتي وفي المرتبة الثانية من الأهمية حزب "المجلس الأعلى للثورة الإسلامية في العراق" وذراعه العسكري "فيلق بدر" الذي تأسس عام 1981 في إيران أثناء الحرب العراقية الإيرانية من عناصر عراقية ذات أصول فارسية كمشروع لمحاربة الجيش العراقي والدولة العراقية وارباك الجبهة الداخلية العراقية في أثناء الحرب وسير المعارك على الجبهات العسكرية. "شكلت إيران في عام 1981 وبرغبة من الخميني (المجلس الأعلى للثورة الإسلامية في العراق) أناطت رئاسته بآية الله الإيراني الجنسية (محمود الهاشمي)، فيما كان المرحوم السيد محمد باقر الحكيم في موقع (الناطق الرسمي) قبل أن يكون فيما بعد رئيسا للمجلس ، والمجلس المذكور هو مؤسسة إيرانية بالكامل مرتبط بمجلس الوزراء الإيراني وهو الوعاء التنظيمي للأحزاب الإسلامية العراقية ومنه ومن خلاله تشكل (فيلق بدر) كذراع عسكري لذلك المجلس وقد ضم عناصر متطوعة لمساندة الجهد العسكري الإيراني وكذلك استعين بخدمات ضباط سابقون في الجيش العراقي كانوا في الاسر الإيراني عرفوا باسم (التوابين)."[247]

وظهرت جبهة التحرير الإسلامي بالبحرين، والمنظمة الثورية الإسلامية لشبه الجزيرة العربية في السعودية، والمجلس الشيعي الأعلى وحركة أمل في لبنان، وحزب الله في كل من إيران والعراق والبحرين ولبنان، وجماعة الحوثي في اليمن، وجيش الحراس ومنظمة النصر في أفغانستان الخ. وطورت إيران عمل هذه المنظمات وقامت في إنشاء أحزاب طائفية في بلدان عربية لا يوجد بها مواطنين شيعة. لقد قامت إيران في الإعلان عن تأسيس حزب شيعي في فلسطين، وأخر في مصر وفي الجزائر وتونس والسودان،

[247] داوود البصري في مقالة تحت عنوان "شيعة العراق وسنوات العذاب الإيراني" في موقع الأحواز على شبكة الإنتير نيت العالمية.

وكل هذه البلدان خالية تماماً من المواطنين الشيعة. لقد تخطت هذه الأفعال درجات الاستفزاز وكشفت عن الطبيعة المنهجية لهذه السياسات التي تنم عن مخططات خطيرة تهدف إلى خلق أجواء من التوتر في هذه البلدان ونشر الطائفية بأي ثمن لغايات استعمارية توسعية في نفوس أصحابها.

لقد أنشأت الحكومة في إيران هيئة مستقلة تسمى **"المنظمة العالمية لحركات التحرير الإسلامية"**، ومقرها مدينة "قم" للإشراف على الأحزاب والمنظمات في الأقطار العربية التي تدور في فلك الدولة الإيرانية. أصبحت هذه المنظمة الحكومية الإيرانية القاعدة والموجه لكل الأحزاب والمنظمات السياسية والمؤسسات الإجتماعية المرتبطة والمومِلة من الحكومات الإيرانية. وصارت أحد مهمات هذه المؤسسة الإيرانية تخريج رجال متخصصين في تشكيل الأحزاب والمنظمات السياسية على أسس طائفية. أوكلت لهذه المؤسسة الحكومية الإشراف على سير هذه المنظمات والأحزاب التي تدور في فلك الحكومة الإيرانية وتوجيه سياساتها حسب المصلحة القومية الفارسية في البلدان العاملة بها هذه المنظمات. والمهمة الثانية التي أوكلت إلى "المنظمة العالمية لحركات التحرر الإسلامية"، هي طبع الكتب والمنشورات وإيصالها إلى دول الجوار كأسلوب من أساليب تصدير للثورة ونشر أفكار الثورة الإيرانية ذات المفهوم المذهبي الصفوي المحدد والمتبع في نظام الحكم في الجمهورية الإسلامية الإيرانية.

لقد حققت السلطات الإيرانية والمرجعيات المذهبية الإيرانية المنسجمة مع الأهداف الحكومية الرسمية الإيرانية، نجاحاً كبيراً في إعادة هذه الأجيال إلى «غيتو» العزلة الطائفية. وذلك عبر تشكيل أطر وأحزاب سياسية طائفية التوجه متصادمة في الوظيفة والأهداف مع التيارات والأحزاب الوطنية والقومية العربية ومتصادمة مع الأحزاب التقدمية واليسارية النشطة والفاعلة على الساحة العربية. لقد لعبت هذه الأحزاب دور حصان طروادة في المنطقة العربية ورديف لتنفيذ المشاريع الإيرانية وكانت أهم البؤر التي خلقت وساهمت في خلق ثقافة الطائفية الإجتماعية والطائفية السياسية في المنطقة العربية.

تستقبل المدارس الدينية الإيرانية في مشهد وقم آلاف الطلاب والدارسين من عدد من دول العالم الإسلامي. وتركز إدارات هذه المدارس الدينية على استيعاب اكبر عدد ممكن من الطلبة العرب من أبناء المذهب الشيعي على وجه الخصوص. اغلب الطلبة والخريجين الذين عادوا إلى أوطانهم ظلوا على علاقة وثيقة مع هذه الحوزات والمدارس الدينية في مشهد وقم، والكثير منهم اصبح من قادة ومسئولي تلك الأحزاب التي أنشأتها إيران ورعتها الحكومات الإيرانية المتعاقبة.

لم يختصر عمل هذه الهيئة فقط على استيعاب الساسة والمهتمين في الشأن السياسي من أبناء الشيعة العرب بل توسع وتمدد نشاط هذه المؤسسة والهيئات المتفرعة عنها إلى

النشاط التبشيري بين التجمعات السنية في اكثر من قطر عربي. ففي الجزائر وتونس فتحت فروع وأنشأت مؤسسات خيرية لمساعدة الفقراء والمحتاجين بأموال إيرانية، تروج للمذهبية وللتشيع الصفوي. هذه الإستراتيجية في إنشاء وربط أحزاب ومنظمات سياسية في الوطن العربي بفلك سياسة الدولة الفارسية ومن بعدها الدولة الإيرانية ليست اختراع من اختراعات حكومات الجمهورية الإسلامية، بل كان الشاه رضا بهلوي في عام 1926 المبادر في تصدير الرجال والأفكار من طهران وقم ومشهد إلى العراق والأقطار العربية الأخرى بأشراف أجهزة الدولة الرسمية من مخابرات وسفارات وقنصليات. "كانت المهمات الموكلة إلى ملاكات المدارس الإيرانية في العراق تتركز في خدمة النظام الإيراني، سواء في عهد الشاه أو في عهد خميني، وتتمثل في تأجيج نيران الطائفية وزرع الأحقاد الفارسية في نفوس الطلبة من أبناء الجالية و(التبعية) الإيرانية، ضد العراق وشعبه، وتستهدف جمع المعلومات الاستخبارية لتقديمها إلى الأجهزة المختصة في إيران."[248] لم يتوقف هذا المشروع بزوال الشاه عن سدة الحكم، بل تضاعف واصبح اكثر تركيزاً وعدوانية، مسلحاً بالشرعية والغطاء الديني الإسلامي. التيار الديني الفارسي لم يتخلى عن الطموحات القومية الفارسية التي رسمها الشاه رضا والشاه محمد رضا بهلوي في التوسع والهيمنة على دول الجوار العربي.

الحكومات الإيرانية ترسم سياساتها في المنطقة على أسس وطنية إيرانية وعلى أسس قومية فارسية وتستخدم كل الوسائل والقوى المتاحة لها في سبيل تنفيذ وتطبيق الأهداف التي رسمت من خلال المشروع الوطني الإيراني والمشروع القومي الفارسي. وليس في هذا ما يعيب إيران وحكوماتها وتستحق علية النقد والملامة. لكن ما يعيب الحكومات الإيرانية أن ترى المصلحة الإيرانية تكمن في الإساءة والعدوان على الشعوب المجاورة، وتعتبر الخطر الحقيقي يكمن في استقرار الوطن العربي، هذا من جهة. ومن جهة أخرى العيب والجريمة التي تقترفها بعض الأحزاب المبنية على أسس طائفية، هو في العمل على خدمة المشروع الوطني الإيراني وخدمة المشروع القومي الفارسي على حساب مصالح أوطانها، وضد مصالح شعوبها، وعلى حساب مصالحها القومية. هذه المفارقة وتلك الإشكالية في العلاقة الإيرانية بالأحزاب والمنظمات السياسية العربية الشيعية تشكل أحد مساحات الاحتكاك والصراع العربي ـ الإيراني منذ عدة قرون.

تتخذ الأحزاب والمنظمات السياسية ذات التوجهات الطائفية الشيعية اللون الأصفر لألوان أعلامهم ورياتهم. فأعلام ورايات كلٍ من حزب الدعوة ومنظمة بدر وحزب الله بفروعها المختلفة اختارت اللون الأصفر لألوان راياتها. لم يعرف، حاضراً أو عبر التاريخ، أن اتخذت دولة أو قبيلة عربية اللون الأصفر لوناً لرايتها، ولوناً لأعلامها، تصطف خلفه وظل تستظل به. ومن المعروف أن العرب والقبائل العربية تنفر من اللون

[248] فاضل البراك، المدارس اليهودية والإيرانية في العراق، ص 180.، دار الرشيد، بغداد 1984 .

الأصفر. والمخزون الثقافي العربي يعتبر اللون الأصفر مدعاة للشؤم وسوء الطالع. لكن من المعروف ايضاً أن الصفويين الذين حكموا إيران في القرن السادس والسابع عشر اتخذوا اللون الأصفر لوناً لعلم دولتهم وميزوا أنفسهم مذهبياً عبر هذه الراية عن بقية دول وشعوب العالم الإسلامي في ذاك الحين. وكان من قبلهم قد اتخذ البويهيون الإيرانيون المتعصبون للمذهب الشيعي الذين دخلوا بغداد في القرن العاشر، اللون الأصفر لوناً لراياتهم وإعلامهم أيضاً.

غير مؤكدة الأسباب التي جعلت قادة ومؤسسو حزب الله اللبناني وحزب الدعوة وفيلق بدر وجماعة الحوثي في اليمن اتخاذ اللون الأصفر لوناً لأعلامهم ورمزاً لأحزابهم، أكانت الصدفة أم خلف هذا الاختيار المهم المشورة الإيرانية، ومغالاة في تأكيد الهوية المذهبية ذو اللون والطابع الصفوي.

محور مشاغلة واستنزاف
الأقطار العربية عسكرياً

القاعدة الأساسية الثانية في استراتيجية الحكومات الإيرانية الملكية والجمهورية، العلمانية والدينية هي مشاغلة الوطن العربي والمساهمة في استنزاف قدراته عسكرياً. لقد ظلت الحرب هي وسيلة من الوسائل المركزة والمكثفة لتحقيق أهداف سياسية وفرض إرادة قوى على قوى أخرى، ومصالح دولة على دولة أخرى. الحرب ليست دائماً هي الهدف بل هي الوسيلة للوصول إلى الهدف. الحروب العسكرية تأخذ أشكالا متعددة. فهي الحرب المفتوحة على الجبهات بين الجيوش المعرفة المواقع والقواعد. وهناك الحروب الأهلية داخل الشعب والأمة الواحدة. وكذلك حرب الكر والفر بين أطراف غير متوازية القوى والتسليح. وهي في نفس الوقت الخلط والمزج بين تلك الأشكال من الحروب في آن معاً.

مشاريع التسليح الإيرانية الطموحة ليست جديدة. وهي مقبولة ومفهومة لبلد يعاني تهديدات خارجية. لكن واقع الحال في إيران يختلف عن هذه البديهية. بل منذ أكثر من قرن وإيران تهدد دول الجوار وتعتدي على تلك الدول وتحتل أجزاء من تلك الدول المجاورة وتخضع أعداد من الشعوب والأمم المجاورة تحت هيمنة النخب الفارسية. وخلال المئة عام المنصرمة لم تهدد الدولة الإيرانية بشكل جدي من قبل أي قوة خارجية أو داخلية. إن الترسانة العسكرية التي تبنيها حكومات الملالي في إيران ومشاريع التسليح النووي الإيرانية التي يدور حولها التجاذب السياسي مع الغرب وإسرائيل هي ليست إلا امتداد للمشروع الإيراني الذي بدأه الشاه رضا بهلوي في العشرينات من القرن العشرين وتابعة ابنه ووريثه، الشاه محمد رضا بهلوي حتى أصبحت إيران، بمساعدة الولايات المتحدة الأمريكية والدول الغربية الأساسية، فرنسا وبريطانيا وألمانيا والكيان الصهيوني، من أكثر دول العالم الثالث تسليحا وغطرسة وعدوانية. كان يطلق على الجيش الإيراني في الستينات والسبعينات من القرن العشرين "بشرطي المنطقة". ولقد نال العرب من أعمال هذا الشرطي الشر الكثير في عمان واليمن والخليج العربي بالإضافة لإحتلال إقليم الأحواز في 20.4. 1925 وإحتلال جزر دولة الإمارات العربية المتحدة.

إشغال الدول والشعوب في حرب من الحروب هدف تعمل علية القوى المتصارعة والمتنافسة وهو الأسلوب الأجدر الذي يفتعله الأعداء لاستنزاف الدول وإسقاط

الحكومات. الحكومات الإيرانية لازالت تتقن بشكل متميز فن إثارة الفتن وإشعال الحروب بين صفوف دول الجوار وحققت من وراء هذه الإستراتيجية مكاسب سياسية كبيرة عبر التاريخ.

من ثوابت الحكومات الإيرانية المشاركة في أي شكل من الأشكال وتحت أي ذريعة من الذرائع بكل حرب يبتلى بها أحد الأقطار العربية. على مدى ثلاثين عاماً لعب نظام الشاه دور الشرطي في المنطقة وحامي المصالح الأمريكية. الجيش الإيراني جهز وسلح بمساعدة الولايات المتحدة الأمريكية ودرب على أيدي الضباط الأمريكان حتى اصبح هذا الجيش القوة الضاربة في المنطقة. وقد ساهمت أمريكا مع بقية الدول الغربية بقوة في تحديث وتصنيع الدولة الإيرانية في عهد الشاه. وإيران دخلت في عضوية كل المشاريع السياسية والعسكرية الأمريكية في المنطقة العربية والإسلامية.

وقفت إيران إلى جانب الولايات المتحدة في التصدي لحركة التحرر الوطني العربي في الخليج. وساهمت إيران بالنيابة عن الولايات المتحدة في إرهاق العراق واستنزافه بعد سقوط الملكية هناك منذ عام 1958. ظلت إيران العضو الدائم في الأحلاف الاستعمارية المشبوهة والمعدة لإعادة هيمنة القوى الغربية الاستعمارية على المنطقة العربية والإسلامية بعد أن اضطرت تحت ضغط الثورات الشعبية وضربات حركات التحرر الوطني، لإخلاء المنطقة ورحيل قواتها إلى بلدانها. حلف بغداد وحلف السنتو حتى الحلف الإسلامي كانت هي المشاريع العسكرية المعدة والمقترحة لمنطقة ما بات يعرف بالشرق الأوسط. تلك الأحلاف الاستعمارية التي أريد بها السيطرة وإعادة استعمار المنطقة العربية والإسلامية من جديد، بعد أن رحل الاستعمار الغربي عن جزء من أوطانه، كانت إيران الدولة التي شكلت العمود الفقري لتلك الأحلاف. والقوات المسلحة الإيرانية لعبت على الدوام دور القوات الضاربة وقوات التدخل السريع ضمن استراتيجية تلك الأحلاف. لقد أطلق على الجيش الإيراني في زمن الشاه تعبير " شرطي المنطقة".

دور نظام الشاه محمد رضا والجيش الإيراني في قمع حركات التحرر في منطقة الخليج العربي وعمان إلى جانب القوات البريطاني وبإيعاز أمريكي تكرر وبقي قائم طوال سنين حكم الشاه.

العلاقات الإيرانية ـ الأمريكية في عهد الشاه محمد رضا كانت معلنة وتسير على قدم وساق، ويتم التنسيق بين الطرفين حول كل القضايا المطروحة في المنطقة، ويتم على أساسها توزيع الأدوار، وربما المغانم إن وجدت. وعلى أساس هذه الحقائق منح الشاه في الأوساط الجماهيرية والإعلامية والسياسية لقب "الشاه العميل" . الإدارة الأمريكية في عهد الرئيس بيل كلينتون قدمت اعتذاراً رسمياً عندما أعلنت وزيرة خارجيتها، "مادلين اولبرايت"، عن أخطاء ارتكبتها الولايات المتحدة الأمريكية بحق إيران

وخاصة في دعمها اللامحدود للشاه المخلوع ومشاركتها في الانقلاب الذي أدى إلى الإطاحة بمحمد مصدق في الخمسينيات عندما أقدم على تأميم النفط وإخراج الشركات الغربية النفطية.

وكانت إيران حاضرة في حرب اليمن في بداية ستينات القرن العشرين إلى جانب قوات الإمام بدروالبريطانيين والصهاينة . وشاركت القوات الإيرانية في الحرب الأهلية في عمان في منتصف أعوام السبغعينات من القرن العشرين إلى جانب القوات البريطانية. وإيران مشاركة في كل فصول العرب الأهلية اللبنانية في عقدي السبعينات والثمانينات من نفس القرن.

وعندما سقط الشاه عام 1979 استمرت سياسة الإستنزاف العسكري للّطار العربية ثابتة في استراتيجية حكام إيران الجدد. لقد تغير الكثير في إيران بعد سقوط الشاه لكن حالة العداء للعرب ظلت الثابت المستمر في ثقافة الأوساط الحاكمة في طهران وإيران. بعد عدة أسابيع من قدوم الحكام الجدد في إيران تجدد الدعم المادي والعسكري للمتمردين الأكراد في شمال العراق. وفي نفس الوقت فتحت الحدود العراقية على مصراعيها لتسسل القوى المعارضة العراقية المقيمة في إيران إلى داخل الأراضي العراقية، وعها بدأت سلسلة من التفجيرات والعمليات التخريبية داخل المدن العراقية تبين أن محركها ومنفذها كانت الأجهزة الأمنية الإيرانية وعملائها من الأحزاب الطائفية . وبدأت سلسلة من المناوشات العسكرية على الحدود العراقية الإيرانية. لقد سجلت الأمم المتحدة أكثر من سبعين اعتداء إيراني على المواقع العسكرية العراقية في الأشهر الأولى لاستيلاء القوى الدينية على سدة الحكم في طهران. لقد تطورت المناوشات على الحدود عام 1980 إلى حرب مفتوحة بين العراق وإيران دامت ثمان سنوات دامية.

والحكومة الإيرانية الدينية كانت ولازالت حاضرة في الحرب الأهلية في الجزائر، وفي الحرب الأهلية في السودان إلى جانب "جون غرنغ" الماركسي ضد الحكومة الإسلامية في الخرطوم. اصبح من المألوف إقدام نفس الحكومة الإيرانية على إمداد كل الأطراف المتنازعة والمتورطة في حرب أهلية في قطر من أقطار العربية بالسلاح والمال. في نفس الوقت الذي كانت الحكومة الإيرانية تدعم جماعة حسن الترابي، الطرف الأساسي في الحكومة السودانية، كانت إيران توصل السلاح والذخيرة لجيش الحركة الشعبية بقيادة "جون قرنغ " المتمردة على الحكومة في جنوب السودان طوال عقد التسعينات.

في الساحة الفلسطينية دخلت السفارة الإيرانية على الخط في النزاع الذي حصل داخل حركة فتح الفلسطينية علم 1983 - 1985 بين جناح ياسر عرفات وجناح أبو موسى وأبو خالد العملة بعد الخروج من بيروت. تبين أن الطرف الأيراني كان يعمل على شق حركة فتح ومن ثم شق منظمة التحرير الفلسطينية باي شكل من الأشكال. كانت بعض التبريرات تقول أن هذا الموقف الإيراني في أضعاف جناح ياسر عرفات كان بمثابة

الرد المنطقي على موقف رئيس منظمة التحرير الفلسطينية الداعم للموقف العراقي في الحرب العراقية الإيرانية. كان هذا التحليل في حينه مقبول لكنه غير كافٍ. عندما عادت إيران واستغلت خلاف حركة حماس مع السلطة الفلسطينية ومع حركة فتح الفلسطينية ودخلت الحكومة الإيرانية على الخط في توسيع هوة الخلاف بين الفصائل الفلسطينية وتثوير النفوس حتى وصلت إلى حمل السلاح وإشعال حرب أهلية فلسطينية أصبح التحليل السلف الذكر غير دقيق وغير صحيح، وأصبح الأرجح في فهم الدور الإيراني هو الرغبة الجامحة في استغلال الفوضة في الساحة الفلسطينية لتحقيق مآرب توسعية إيرانية في المنطقة العربية وتدمير أحد ركائز الوحدة العربية المتمثلة في قدسية القضية الفلسطينية من خلال تبهيتها في نظر ملايين المواطنين اتلعرب.

التدخل الإيراني في إثارة الحروب الأهلية في القطر العربي العراقي كان هو الأكثر وضوحاً والأكثر تدميراً وقسوة. منذ اليوم الأول لتأسيس العراق الحديث عملت حكومات ملوك القاجار على التدخل في الشأن العراقي وتحريض جزء من الشعب العراقي على الجزء الآخر تحت ذريعة المشاركة في الإشراف على الأماكن المقدسة عند الطائفة الشيعية و تحت ذريعة حماية مصالح الشيعة العراقيين المهضومة. فكانت سلسة الحروب العشائرية والنزاعات مع الحكومات العراقية منذ مطلع العشرينات القرن العشرين. عائلة بهلوي تابعت سياسة النعرات المذهبية والإثنية في العراق وساهمت مساهمة مباشرة في تحريض الأقلية الكردية على الحكومة المركزية. كانت الحكومات الإيرانية الممول الأساسي إلى جانب الدول الغربية والكيان الصهيوني لحركات التمرد الكردية والتي استمرت أكثر من أربعين عاماً وكلفت الشعب العراقي مئات الآلاف من القتلى والجرحى.حكومات الجمهورية الإسلامية لم تشذ عن قاعدة خلق التوترات العسكرية في العراق وغير العراق من الدول العربية. سلسلة من الحروب صنعت في طهران ونفذت على الأرض العربية.

محور السياسة الإعلامية الإيرانية
الموجهة إلى المنطقة العربية

السياسة الإعلامية الإيرانية الموجهة إلى المنطقة العربي تعتبر أحد الأعمدة الأساسية في استراتيجية إيران العربية. تعددت النشاطات الإعلامية للحكومات الإيرانية في الساحة العربية. لقد وضعت القيادات الإيرانية برامج إعلامية متشعبة للعمل في الأوساط العربية. هذه البرامج تنطلق من النظرة الإستراتيجية الإيرانية للمنطقة العربية ومن النظرة الإيرانية للأمة العربية بشكل عام والتي تعتمد على السياسة الراسخة في ذهنية المثقف والسياسي الفارسي بحتمية العداء للعرب والتنكر لتاريخهم والعمل الجاد على عدم تمكين العرب من التجمع والوصول إلى حالة الاستقرار الاجتماعي والتقدم العلمي والاقتصادي. استفاد الفرس من تجارب الدول الغربية واقتبسوا الكثير من برامج الدول الاستعمارية الغربية في سياستهم الإعلامية الموجهة إلى المواطن العربي وإلى القوى السياسية العربية. تلك البرامج التي التقت في القاسم المشترك الأعظم بإتباع سياسة فرق تسد وخلق بؤر التوتر بين الدول العربية وداخل المجتمع في كل دولة عربية على حدى.

فقد رسمت الحكومات الإيرانية المتعاقبة جملة من المبادئ والأسس الإعلامية للتعامل مع المواطن العربي ومع الجماهير العربية، ورسمت كذلك كيفية التعامل مع الحاكم العربي. من أجل تنفيذ هذه الإستراتيجية رصدت إيران عبر السنين الأموال والطاقات والكوادر الإعلامية الهائلة لتلك المهام الإعلامية وبنت المؤسسات الحكومية الكبيرة التي أكلت إليها مهمة صياغة البرامج الإعلامية الموجهة للوطن العربي ومهمة الإشراف على تنفيذ هذه البرامج. كل هذا الاهتمام الإيراني في الساحة العربية لم يكن مجرد من الأهداف السياسية والاقتصادية والعسكرية. بل يشكل جزء أساسي من استراتيجية إيرانية شاملة متكاملة ومتناغمة مع التطورات الدولية المتسارعة، ومتناغمة مع الأطراف الدولية الفاعلة، وتقوم ايضاً بمغازلتها في ترتيب أوراق تحتاجها في عملية ترتيب مصير العالم الإسلامي وإعادة صياغة المنطقة العربية.

أهم نقاط الإستراتيجية الإعلامية الإيرانية للمنطقة العربية تتلخص بالآتي:

من أجل كسب التعاطف الجماهيري العربي ركز الإعلام الإيراني على المبالغة في تبني القضية الفلسطينية. وأصبح أسلوب المبالغة والمزايدة على العرب في تبني هذه القضية يشكل أحد المحاور الأساسية في السياسة الإعلامية الإيرانية. وخاصة كلما توجهت

الأنظار إلى المواقف الإيرانية الحقيقية من القضايا العربية الأخرى.ظل موقف المغالاة من القضية الفلسطينية السلاح الفعال في حجب الأنظار عن السياسات الإيرانية العدوانية على أقطار الوطن العربي. المسؤولون الإيرانيون يعرفون مسبقاً مكانة القضية الفلسطينية عند الجماهير العربية على اختلاف مشاربهم، ويعرفون موقف المواطن العربي، على اختلاف توجهاته الفكرية والعقائدية، الرافض للوجود الصهيوني على أي شبر من الأرض العربية في فلسطين. مواقف المزايدة على العرب وعلى الفلسطينيين ظلت النقطة الدائمة في برامج أجهزة الإعلام الإيرانية. لقد طال أسلوب المزايدة فصائل الثورة الفلسطينية والشعب الفلسطيني الذي لازال يقدم قوافل الشهداء على درب التحرير والصمود في وجه الغطرسة الصهيونية. والمفارقة في هذا المجال أن طيلة عمر الصراع مع الصهاينة لم يسجل أن قدمت إيران شهيداً أو جريحاً واحداً في سبيل القضية الفلسطينية.

السياسة الظاهرية التي كانت موجهة إلى الجماهير الإيرانية وإلى الجماهير الإسلامية، ومن ضمنها كانت موجهة بالدرجة الأولى إلى الجماهير العربية. كانت السياسة الظاهرية الموجهة إلى الجماهير العربية التي تناهض منذ قرون السياسات الغربية في المنطقة، وتتصدى للسياسات الأمريكية المعادية لحرية الشعوب في منطقتنا. السياسة الظاهرية للقادة الجدد في إيران كانت ولازالت تتجسد وتتميز بالمغالاة والتطرف وإبراز المواقف المتصلبة والمعادية للولايات المتحدة الأمريكية والكيان الصهيوني، وإظهار المواقف الداعمة للقضية الفلسطينية. ويتم التعبير عن هذه السياسة وبالدرجة الأولى عبر وسائل الإعلام الإيرانية. الشعارات الرئيسية التي سادت وانتشرت عبر وسائل الإعلام الإيرانية، بقصد التعبير عن عناوين ومفاصل السياسات الإيرانية الظاهرية القادمة، كانت مثل "لا شرقية ولا غربية"، "الشيطان الأكبر والشيطان الأصغر"، "الموت لإسرائيل"، "الموت لأمريكا"، "مناصرة الشعوب الإسلامية أمام قوى "الاستكبار العالمي"، "تحرير القدس الشريف"، "مناصرة ودعم الشعوب المستضعفة في آسيا وإفريقيا وأمريكا اللاتينية"، وغيرها من تلك الشعارات التي تنسجم مع هذا السياق ومع الخطاب الإيراني العلني عبر وسائل الإعلام.

الموقف الإيراني المغالي في العداء لإسرائيل محسوب بدقة ويهدف إلى استهلاك ورقة القضية الفلسطينية في محاولة لاختراق الشارع العربي وكسب الأنصار والمؤيدين. وساعدهم في إعطاء مصداقية لهذا الإدعاء لجوء بعض الأطراف الفلسطينية إلى طهران لطلب المساعدة المادية التي يحتاجونها في عملهم النضالي وتخاذل بعض الحكام العرب في نصرة وتقديم الدعم الكافي لأبناء فلسطين الجريحة. يصف مصطفى الفقي نائب رئيس البرلمان العربي الانتقالي رئيس لجنة العلاقات الخارجية في مجلس الشعب المصري في برنامج "حالة حوار" على الفضائية المصرية في مساء 8. 11. 2006

السياسة الإعلامية الإيرانية بخصوص القضية الفلسطينية "بالفلكلور السياسي". وهو في هذا أصاب كبد الحقيقة.

إبراز موقف الحكام العرب المهادنة أو المتخاذلة وربما العاجزة على التعامل مع تعقيدات القضية الفلسطينية، وتكرار هذا العجز وإبراز هذا التخاذل بشكل يومي، والمساهمة في رسم صورة سوداوية عن مستقبل هذه القضية تندرج ضمن سياسة بث روح الإحباط والإستسلام في نفوس الجماهير العربية والجماهير الفلسطينية. الأجهزة الإعلامية الإيرانية التي تتناول مواقف الحكام العرب المتخاذلة هو حق يراد به باطل، الهدف منه إشاعة أجواء الإحباط والاستسلام والهزيمة عند المواطن العربي. سياسة إشاعة أجواء اليأس والإحباط في المجتمعات العربية هي تلك السياسية الصهيونية والموجهة إلى الوطن العربي. وكان هذا الهدف على الدوام من أهم أهداف الإعلام الصهيوني. يتقاطع هذا الهدف الإعلامي الإيراني، ذو العمق الإسترتيجي في فلسفة الصراع الطويل الأمد مع أهداف الدول الإمبريالية بشكل تلقائي وفي تحقيقه تكون المقدمة الأولى لهزيمة أمة قد تحققت.

والشئ الثابت في المشروع الإيراني الإعلامي العربي هو محاربة التيارات السياسية العروبية بشتى الوسائل، وإلصاق كل شيء شرير بهذه التيارات العروبية، لمعرفة القائمين على هذه المشاريع الإيرانية الإعلامية من العناصر والقوى الفارسية المتعصبة بخطورة التيارات القومية العربية على مشاريع التوسع الإستعمارية الفارسية. ولمعرفة التيارات القومية الفارسية المسبقة بعدم تمرير الشعارات الإيرانية المغالية والمخادعة في معاداة الصهيونية والإمبريالية العالمية لفترة طويلة. فالتيار العروبي في الوطن العربي كان على الدوام الأكثر حساسية وتنبه بالأخطار المحدقة بالأمة.

تتجنب هذه الأجهزة تناول الوطن العربي ككتلة قومية وتشدد على الهوية القطرية. تنشط هذه الأجهزة في تسليط الأضواء على الخلافات القطرية العربية في محاولة منها لفك عرى الروابط القومية بين شعوب الأمة.

التشكيك بكل الرموز الدينية والسياسية والثقافية العربية التاريخية. وذلك عبر فتح ندوات متلفزة تتناول هذه الشخصيات التاريخية العربية المجمع حولها في التراث العربي بصورتها الإجابية في ندوات متلفزة تطرح اشارات استفهام حول تلك الصور الإجابية لتلك الشخصيات التراثية وتضج الشك مكان اليقين حول تلك الشخصيات. فبرامج مثل "التاريخ الإسلامي بين الحقيقة والتزوير " الذي كان يبث على فضائية "العالم" الإيرانية الناطقة باللغة العربية حيث كان محور هذا البرنامج على مدى عام كامل هو التشكيك في مسلمات التاريخ العربي والتاريخ الإسلامي. النهج في التشكيك في مكانة الشخصيات التراثية العربية هو استمرار لما سارت عليه وتناولته بالشك والتجريح الحركات الشعوبية في القرن الثمن والعاشر الميلادي، وإعيد إحيائها وتثبيت جملة

الإتهامات والإدعاءات العنصرية المعادية للعرب في كتاب الشاه نامة (تاريخ الملوك) لكاتبه أبو القاسم الفردوسي . يعتبر كتاب الفردوسي السيئ الصيت المرجع الأول في الثقافة الفارسية والإيرانية المعاصرة ويحتل المكانة الأولى في المراجع التاريخية الفارسية. على الرغم من معرفة سياسي ومثقفي إيران وفارس بعدم علمية مواضيع هذا الكتاب وأن هذا الكتاب الضخم سطرت صفحاته وسطورة حسب أساطير وروايات ليس له أصل علمي في التاريخ.

تسليط الأضواء على المكاسب و النجاحات التي تحققها القوى السياسية التي تدور في فلك الحكومات الإيرانية هي المهمة الأخرى الأساسية في السياسة الإعلامية الإيرانية في المنطقة العربية. تبالغ الأجهزة الإعلامية الإيرانية وتوابعها في حقيقة تلك النجاحات حتى تصل في أغلب الأحيان إلى حد الابتذال. وتعمل هذه الأجهزة على تصوير إنجازات القوى الموالية لإيران بصورة تبدو وكأنها الإنجازات الوحيدة التي تستحق الذكر في المنطقة. وفي نفس الوقت، تتولى أجهزة الإعلام التابعة لإيران مهمة تسخيف وتهميش حجم وتأثير إنجازات القوى العربية الأخرى، بحيث تبدو تلك الإنجازات ليست ذات قيمة ولا تحتاج للتذكير بها أو الالتفات إليها مقابل إنجازات القوى التي توالي إيران. في هذا الإعلام الإيراني تبرز المحاولات المحمومة لتزوير الوقائع وتزوير التاريخ العربي، ونكران كل إنجاز وكل انتصار عربي قد تحقق. إنها حرب من نوع آخر تشنها إيران وقوى أخرى على الأمة العربية، تهدف إلى تفكيك لحمة الأمة وسلب الأمة إنجازاتها الكبيرة التي تحققت عبر الملايين من الضحايا. لقد تمت المبالغة في دور حزب الله في إخراج القوات الإسرائيلية من لبنان، وتم في نفس الوقت إغفال دور فصائل العمل الوطني اللبناني، وتناسي بشكل مقصود دور منظمة التحرير الفلسطينية في مقارعة العدو الصهيوني على أرض لبنان لأكثر من نصف قرن من الزمان. ذلك الكفاح المشرف الذي أجبر القوات الصهيونية على الخروج من بيروت ومن منطقة جبل الشوف، وكذلك إجبار العدو الصهيوني على التقهقر والانسحاب من الجنوب اللبناني ومناطق جزين والانكفاء إلى داخل الشريط الحدودي وأيضاً دون مفاوضات وتنازلات سياسية تقدم لهذا العدو. هذا الشريط الذي لا يتجاوز عرضه السبعة كليو متر فقط .

لقد صور الإعلام الإيراني وتوابعه في الوطن العربي صمود المقاومة اللبنانية التي قادها حزب الله في شهر تموز عام 2006 ضد الهجمة الصهيونية :إنها الانتصار العسكري العربي الوحيد على العدو الصهيوني وعلى الغزاة الخارجيين. تغافل هذا الإعلام الموجه بقصد وعن سبق إصرار صمود المقاومة اللبنانية والفلسطينية في بيروت لمدة 85 يوماً عام 1982 أمام نفس العدو الصهيوني. وصمت هذا الإعلام الباحث عن الكبوات والهزائم التي تحل بالعرب عن الانتصار الخالد للجيوش العربية في حرب أكتوبر عام 1973. وعن ملاحم الفداء والنصر في بور سعيد والسويس أثناء

العدوان الثلاثي على مصر عما 1956 . لقد تغافل هذا الإعلام عن وعي وقصد عن النصر العربي المبين في حرب التحرير الجزائرية الخالدة على فرنسا الاستعمارية العظمى في حينه. ويسكت هذا الإعلام على صمود المقاومة العربية في العراق أمام جحافل الغزاة الغربيين التي أوقفت ببطولات أبنائها وشجاعة الشعب الذي يحتضن هذه المقاومة الهجمة الغربية العاتية عند حدودها الدنيا وأسست قواعد هزيمة هذه القوى الإستراتيجي. بل يشارك الإعلام الإيراني وتوابعه في جوقة الأجهزة الإعلامية الغربية والصهيونية المعادية في حملة تشويه المقاومة العراقية العملاقة والتي باتت تقترب كثيراً من النصر المبين وهزيمة الأطراف المعتدية المشاركة في احتلال العراق العربي. لقد وقع الإعلام العربي في فخ استراتيجية الإعلام الإيراني وفي فخ الإعلام الصهيوني الموجه، وساهم الإعلام العربي بسذاجته وسطحية بعض القائمين عليه في طمس إنجازات وتضحيات القوى الوطنية العربية الأخرى، وتم التنكر لآلاف الضحايا العرب الذين قضوا على درب الحرية والتحرير الشاق.

والأساس الآخر في استراتيجية الإعلام الإيراني الموجهة إلى المواطن العربي إبراز أدوار الشخصيات والعناصر السياسية والثقافية العربية التي تتبنى المواقف التي تنسجم مع المواقف الغربية، واختيار هذه الشخصيات من الأوساط العربية التي لها مواقف معادية من مشروع التضامن العربي مثل مجموعات المثقفين العرب التي أصبحت تعرف "باللبراليين العرب الجدد". وهم بقايا أفراد تخفوا خلف رايات وأيديولوجيات وأحزاب يسارية ليخفوا حقيقة ولاءاتهم المذهبية والشعوبية المعادية للهوية الوطنية والقومية العربية. من أمثال قادة الحزب الشيوعي في العراق عبد العزيز محمد ومفيد الجزائري.

تسليط الأضواء على الاختلافات المذهبية في الدين الإسلامي، وإبراز الخلافات الطائفية، واختلاق الكثير من تلك الخلافات، وخاصة بين السنة والشيعة. وترك هذه المواضيع التي تساهم في توسيع هوة الخلافات المذهبية والطائفية كنقطة دائمة على جدول أعمال الأجهزة الإعلامية الإيرانية والأجهزة التي تدور في فلكها. من الأعمدة الأساسية في السياسة الإيرانية في أقطار الوطن العربي هي تحريض الأقليات العرقية والدينية وإبراز أدوار القوى الانفصالية والانعزالية في تلك الأقطار. ففي وسائل الإعلام الإيرانية الموجهة إلى الوطن العربي وتلك التي تدور في فلكها ظل موضوع الأقليات حاضراً من خلال تسليط الأضواء على أي خبر أو حدث مهما كان صغير في أي من الأقطار العربية له علاقة في أقلية من الأقليات. ومن ناحية أخرى لم تدخر الحكومات الإيرانية جهداً من تقديم المساعدات والعينية والسياسية والعسكرية لكل قوة من القوى ولكل حزب من الأحزاب يطرح موقفاً أو رغبة في إثارة أزمة من الأزمات في أحد الدول العربية. الدعم الإيراني للأحزاب الكردية في العراق ولقوات التمرد في جنوب

السودان ودار فور والأحزاب الانعزالية الجزائرية المعادية للثقافة واللغة العربية مثل جبهة القوى الاشتراكية أصبحت معروفة. والحكومة الإيرانية الحالية كما سابقاتها لا تنكر تبني ودعم الأحزاب والحركات السياسية الطائفية في لبنان والعراق والخليج العربي واليمن.

عيسى شتات أحد الكتاب الصحفيين العراقيين أوجز في أحد مقالاته التي كتبها ونشرها على موقع البصرة على شبكة الإنترنت في 1 مايو 2005 تحت عنوان "الاحتلال الإيراني للعراق" ما يلي في شأن السياسة الإعلامية الإيرانية: "لقد موّلت إيران وأنشأت فضائيات متخصصة في سب العرب وشتمهم بلسان عربي وقلب فارسي إيراني وتبث هذه الفضائيات من طهران وبغداد وبيروت ، تزور الحقائق وتفتري وتكذب تبث الدعاية الإيرانية المعادية لعروبة العراق." هذا القول من السيد عيسى شتات لم يأت من فراغ، بل مبني على وقائع وحقائق لا يمكن لأحد إنكارها.

عدد القنوات الفضائية الناطقة باللغة العربية والتي تمول من الخزينة الإيرانية مباشرةً والتي تدور في فلك الحكومة الإيرانية تجاوز الثلاثة عشر محطة فضائية. فضائية "العالم" و"سحر1" و"سحر2" الإيرانية و"الديار" و"العراقية" و"الفرات"، و"الكوثر" و"الفيحاء" العراقيات، و"المنار" و(ANB) اللبنانية ، هي فقط عيينات من هذا الأسطول الإعلامي الإيراني الكبير والمكرس لخوض هذه الحرب الإعلامية الشرسة في الترويج للمشروع السياسي الإيراني في المنطقة العربية. والحكومة الإيرانية تشارك وتساهم في دعم عدد من المؤسسات الإعلامية مادياً في أكثر من قطر عربي بشكل غير مباشر تجاوز عددها 350 دار نشر ودار طبع وتوزيع موزعة في دول المغرب العربي ومصر والسودان ولبنان وسوريا والأردن، ويساهم عملاء الحكومات الإيرانية في صنع الموقف الإعلامي والموقف السياسي في هذه المؤسسات العربية العامة على الساحة العربية. المشروع الإيراني الإعلامي المتوجة للمواطن العربي متقاطع في اكثر من مجال وهدف مع استراتيجيات الدول الغربية الإعلامية، و مشابه لاستراتيجية إسرائيل والصهيونية العالمية الإعلامي السافرة في عدائه للوطن العربي والأمة العربية. تكاد أهم نقاط الإرتكاز الإسترتيجية للمشروع الإيراني الإعلامي العربي تتطابق مع نقاط الإرتكاز الإساسية للمشروع الأسرائيلي والصهيوني العربي. إذا ما استثني الموقف الإعلامي المغالي في دعم القضية الفلسطينية ودعم جانب من القوى السياسية الفلسطينية الفاعلة ضد جانب فلسطيني فاعل على الساحة الفلسطينية سيلحظ المرأ أن كيفية تناول القضايا العربية الأخرى في الإعلام الإيراني الموجه سيكون مطابقاً بشكل سافر للإعلام الصهيوني.

الملفت للانتباه أن الدول العربية لم تعير التدخلات الإيرانية في شؤونها الداخلية كبير الاهتمام، ولم تتصدى الدول العربية، إلا ما ندر، للسياسة الإعلامية الإيرانية المندفعة

والمنفلتة من عقالها. لم تواجه الدول العربية السياسة الإعلامية الإيرانية العدوانية بسياسة إعلامية مضادة، ولقد غابت في المقابل الإستراتيجية العربية الموحدة تجاه إيران واتجاه المشاريع الإيرانية بشكل عام ما عدى فترة المرحلة الناصرية في عقدي الخمسينات والستينات من القرن العشرين. لا يوجد صحيفة عربية واحدة ناطقة باللغة الفارسية وموجهة إلى المواطن الإيراني، وكذلك لم توجه فضائية عربية واحدة إلى المشاهد الإيراني تشرح المواقف العربية المختلفة بشتى القضايا المطروحة على الساحة العربية والدولية.

لقد اصبحت سياسة إعادة النظر في السياسة العربية الإعلامية بخصوص إيران والمواطن الإيراني ضرورة ملحة ولا تقبل التأجيل والمماطلة. وقبل كل ذلك لا بد من الإقلاع عن المواقف العربية غير المبالية واطلاع المواطن العربي على حجم الدمار والخراب الذي تسببت به الحكومات الإيرانية في الدول العربية، أو ساهمت في نشر الخراب والأذى إلى جانب الدول الغربية في مدننا وقرانا في اكثر من دولة عربية.

لا توجد جهة عربية أو دولية واحدة قامت بجرد وحصر حجم الخسائر الفادحة التي تسببت بها السياسات والتدخلات الإيرانية في شؤون الأقطار العربية المتعددة. ولا يوجد حصر دقيق لحجم الضحايا البشرية التي خلفتها التدخلات الإيرانية والإعتداءات الإيرانية في الأقطار العربية. لكن من المؤكد أن حجم الخسائر المادية التي تسببت بها الحكومات الإيرانية في الوطن العربي فاق مئات المليارات من العملات الصعبة. وما تسببته السياسات الإيرانية العدوانية في الحروب الحدودية والحروب الأهلية والتي كانت إيران طرف أساسي مباشر أو غير مباشر فيها زادت خلال الثلاثين عاماً التي مضت على الثلاثة ملايين ضحية عربية. فالعدوانية الإيرانية لم تتوقف عند حدود احتلال الأوطان والشعوب كما هو الحال مع شعب الأحواز وقطر الأحواز المحتل منذ عام 1925 ، وإحتلال الجزر الإماراتية الطنب الصغرى والطنب الكبرى وأبو موسى منذ عام 1971 ، وكذلك المشاركة باحتلال العراق منذ عام 2003 حتى الآن، أيضاً تسببت السياسة الإيرانية العدوانية بقتل مئات الآلاف من الضحايا العرب في لبنان والعراق والجزئر وفلسطين وعمان واليمن والسودان.

فقد ساهمت الحكومات الإيرانية إلى جانب الكيان الصهيوني وقوى الشر الغربية بالإضافة للخسائر لمادية والبشرية في دول الوطن العربي أيضاً في تمزيق المجتمات العربية المستقرة والمنسجمة على اسس طائفية ودينية وعرقية. فأحداث العراق ولبنان واليمن خير شاهد على الفعل الإيراني العدواني في هذا المجال.

الدولة القومية
وانتشار الأقليات الدينية والعرقية

عرف عصر الثورة الصناعية الأوروبية بعصر القوميات، أو عصر تكون الدول على أساس قومي بدل عصر الإمبراطوريات الذي كان سائدا قبل هذا الزمان. عصر الإمبراطوريات كان فيه تشكيل الكيانات السياسية وبناء الدولة يتجاوز الحدود القومية والدينية للجماعات البشرية. هذا الشكل من الدولة عرف بالكيان السياسي "بالفوق قومي والفوق ديني". دولة الإمبراطوريات كانت بشكل عام كبيرة ومترامية الأطراف. فالإمبراطورية الرومانية والخلافة العربية والسلطنة العثمانية والإمبراطورية النمساوية وكذلك الروسية والبريطانية مجرد أمثلة على هذه الحقيقة التاريخية. كانت تعيش داخل حدود كل إمبراطورية من تلك الإمبراطوريات أعداد كثيرة من الشعوب والقوميات والأقليات الدينية.

قيل أن القرن التاسع عشر هو عصر القوميات. المقصود في ذلك هو تفكك الكيانات السياسية التي كانت مألوفة وبناء دول وكيانات سياسية جديدة تتناسب مع طبيعة العصر وتطور أدوات الإنتاج المرافق لعصر النهضة الصناعية. حدود الكيان السياسي الجديد، وبناء أجهزة الدولة الجديدة، وشكل الحكومة التي يجب أن تقود هذه الدولة، مبنية على أساس حدود انتشار مواطني قومية من القوميات. وشكل أجهزة الدولة والحكومة مبنية على أساس وحدود مصالح تلك المجتمعات التي تنتمي لتلك القومية. أي بدل التعدد القومي في الكيان السياسي الواحد طرح مشروع بناء الكيانات السياسية حسب مساحة انتشار الكتل القومية وحسب ما أصبح يعرف بمبدأ "لكل قومية كيانها السياسي ودولتها".

لكن الدولة القومية الحديثة بقيت في الواقع العملي تشابه إلى حد كبير شكل الدولة القديمة مع بعض التطوير في بناء الأجهزة الحكومية من الناحية الفنية التي أملتها حالة التطور التقني والعلمي العام الذي طرأ على المجتمعات البشرية في القرون الأخيرة. ومتجاوباً مع تأثير التطور السياسي والفلسفي العام، الذي انعكس على شكل البناء التنظيمي لمؤسسات الدولة ومؤسسات المجتمع في جسم الدولة.

عند التدقيق في واقع وحقيقة ماهية وصفات الدولة الحديثة، وعند التدقيق في المكونات الاجتماعية للدولة الحديثة يتأكد لكل من أراد التأكد أن المركب الاجتماعي للدول، من الناحية العرقية ومن الناحية الدينية، ظل يشابه إلى حد كبير شكل ومضمون الكيانات السياسية في عصر الإمبراطوريات. على الرغم من أن الدول الحديثة بنيت على أساس

مبدأ الروابط القومية، بقيت أغلب الكيانات السياسية، ال 193 دولة القائمة الآن في العالم، تضم داخل حدودها أعدادا من مجتمعات الأقليات. صحيح أن أغلب دول الكيانات السياسية في عالمنا الحاضر تشكل أحد القوميات أو أحد المجموعات الدينية الأغلبية العددية في كل دولة من هذه الدول، لكن الصحيح أيضاً أن هذه الدول والكيانات السياسية بقيت تضم بين صفوف مواطنيها أبناء أقلية قومية أو دينية ومذهبية أخرى أو أكثر.

الشيء الجديد في تركيبة المجتمع في الدولة القومية الحديثة يكمن في هيمنة أحد القوميات العددية مقارنة ببقية القوميات التي يتشكل منها مجتمع الدولة القومية. فالدولة القومية الحديثة تعني أن أحد القوميات، بشكل عام، تشكل أغلبية عدد السكان. وهذه الأغلبية العددية تمنح هذه الدولة القومية اسم تلك الدولة وثقافة هذه الدولةنبالإضافة إلى لغتها الرسمية.

فالتعدد العرقي والثقافي والديني لازال هو القاعدة والسمة السائدة في تكوين الدول على الرغم من الإدعاء بغير ذلك عند الغلاة والمتطرفين. فعصر القوميات لم يكن يعني، من الناحية العملية، الانسجام والتماثل القومي أو العرقي أو الديني أو المذهبي التام داخل حدود الدولة الحديثة والكيان السياسي الحديث. في الدولة الحديثة ظلت إلى جانب الهوية العرقية لأغلبية السكان والهوية التاريخية ً والموقع الجغرافي الذي تقوم عليه الدولة، أيضاً الإرث الثقافي المشترك لمواطني الدولة والكيان السياسي. فالدساتير التي تبنى عليها الدولة الحديثة كرست مساواة الناس في الحقوق والواجبات والتساوي أمام القانون. أعطت الفرصة من الناحية النظرية لكل مواطن أن يصل إلى أي مكان في تحمل المسؤولية وقيادة الدولة. عنصر التأكيد على المساواة في المواطنة سببه المعرفة المسبقة من تعددية الانتماءات الثقافية والقومية والدينية والاجتماعية لرعايا الدولة الحديثة. إن أحد الأسباب الحقيقية التي تكمن خلف نشأة وصياغة الدساتير والقوانين الحديثة في عصر النهضة الأوروبية وبناء الدول الحديثة على أسس وقواعد جديدة، هو الاعتراف الصريح بتعددية الانتماءات القومية والعرقية والدينية لرعايا الدولة الحديثة وليس العكس.

المزج الإثني والعرقي الذي يحصل في الدول الغربية الحديثة، والتي نشأت على اعتبارات الأسس القومية، ونظراً للتطور البشري العام في التواصل والترحال، وتطور طرق ووسائل المواصلات، فاق أي مرحلة من مراحل تطور الدولة الإمبراطورية التي كانت أحد ميزاتها الاجتماعية كثرة وشدة تعددية المجموعات البشرية.

إن المنطقة التي يطلق عليها بمنطقة "الشرق الأوسط" والتي تمتد من الباكستان حتى المغرب يعيش فيها عدد كبير من المكونات العرقية والدينية والطائفية. تكاد لا تخلو أي دولة من دول هذه المنطقة من أحد الأقليات العرقية والدينية والطائفية. بل يمكن الجزم

من عدم خلو أي من تلك الدول من اكثر من أقلية من تلك الأقليات. مناطق العالم الأخرى تشترك مع منطقة الشرق الأوسط في هذه الحقيقة السكانية التي تؤكد استمرار صفة التنوع والاختلاط في التكوينات الاجتماعية للدول المعاصرة. فعصر دول الإمبراطوريات يتشابه من حيث الواقع والجوهر إلى حد كبير مع التركيبة السكانية في مجتمعات الدولة القومية المعاصرة الصغيرة والكبيرة على حد سواء.

في ألمانيا، على سبيل المثال، هذه الدولة التي عرفت بانسجامها القومي السكاني والتي أشيع عن أصول شعبها العرقية الموحد، يعيش فيها من بين ال 82 مليون مواطن ما يقارب من ال 70% من ذوي الأصول الألمانية. وهم بدورهم ينقسمون إلى 60% منهم مسيحيين كاثوليك و40% من أتباع المذهب المسيحي البروتستانتي. ال 30% الباقية من مجموع عدد السكان هم من أعراق وديانات أوروبية مختلفة، ومن أعراق وديانات أخرى غير أوروبية، وصلت إلى السبعين عرق وقومية وديانة. ولا زالت في ألمانيا عدد من اللغات القديمة غير اللغة الألمانية الرسمية، تستعمل في كثير من المقاطعات الألمانية. لغة "أوست فريزلند" لازالت حية ومستعملة في المنطقة الشمالية الغربية المحاذية لبحر الشمال وهي لغة الناس ولغة التعامل اليومية في تلك المقاطعة الألمانية. وهذه الحال بالنسبة للأقلية الدنمركية بالقرب من الحدود الألمانية مع الدنمارك.

كذلك الحال في فرنسا وبريطانيا وإسبانيا وغيرها من الدول الأوروبية الصناعية، وإن اختلفت المكونات الأساسية من بلد إلى آخر فهي متشابهة إلى حد كبير في صيرورة الاختلاط والتمازج السكاني بين الأعراق والشعوب والأقليات. فاللغة الفرنسية الرسمية والمنتشرة في اكثر من مكان في العالم لم تكن في الأساس غير لغة أهل باريس وما حولها. وأصبحت لغة كل فرنسا المكونة من عدد من القوميات التي تمتلك لغاتها الخاصة بها وتتعايش مع هذه اللغات. تراجعت الحساسيات القومية والثقافية للأقوام والشعوب القديمة في فرنسا، كشعب الكورسك على البحر المتوسط، وشعب "النورمانن" في الشمال، لصالح لغة مدينة باريس العاصمة، لكن هذه الشعوب لازالت تعيش ثقافاتها داخل دولة فرنسا وتتكلم لغاتها الخاصة بها في البيت. هذا بالإضافة إلى ملايين المهاجرين من شعوب ودول المستعمرات الفرنسية في آسيا وإفريقيا، الذين يعيشون في فرنسا وتتزايد أعدادهم يوم بعد يوم، وأكثر من نصفهم اصبح يحمل الجنسية الفرنسية.

الصين في أسيا هي نموذج آخر في التعدد العرقي والديني السكاني. على الرغم من الأساس القومي العرقي لبناء الدولة الصينية الحديثة والتي احتفظت على أساسه بحدود الدولة الصينية القديمة، إلا أن هذا لا يلغي حقيقة أن سكان الصين أو الشعوب الصينية تتألف من أكثر من ستة وخمسون (56) قومية وعرق واكثر من ثلاثين دين، و كثير من الثقافات واللغات والعادات المختلفة والمتمايزة. على الرغم من كل هذه التمايزات

العرقية والثقافية والتعددية الدينية، فقد خلق طول الزمن والعيش المشترك بين هذه الشعوب والأعراق والأقليات الدينية داخل حدود جغرافية الصين نوعاً خاصاً من الوحدة والانسجام الاجتماعي في جمهورية الصين الشعبية. فالتاريخ المشترك لهذه الشعوب والأعراق واتباع الديانات المختلفة، صنعت النموذج الصيني وعرفت ملامح وصفات "الأمة" الصينية عند الآخرين وأكدت رسوخ مبدأ وحدة "الأمة" الصينية عند مواطني الدولة الصينية.

والدولة الهندية هي يضاً نموذجاً خاصاً. في جمهورية الهند في آسيا فقد تجاوز عدد المجموعات البشرية بلغاتها وأعراقها ودياناتها ومذاهباه المختلفة ال 500 أقلية. بعض هذه الأقليات يتجاوز عدد أعضائها عشرات الملايين.على الرغم من هذا التعدد القومي والديني في الهند بقيت هوية الدولة الهندية هي هوية القومية الهندوسية الأكبر عدداً بين القوميات الأخرى. هذا الفسيفساء الهندي هو نموذج أخر يقدم نفسه حول شكل الدولة الحديثة وإمكانية التعايش بين الأعراق والثقافات المختلفة والهوية القومية للدولة الحديثة.

ليس من الضروري سرد قائمة بقية دول العالم والتي تتشابه في ناحية من النواحي بالأمثلة التي تم تقديمها سالفاً. ويمكن الجزم والقول بان العالم لم يعرف حتى الآن دولة لم تضم داخل حدودها اقليات أخرى إلى جانب القومية السائدة عددياً. هل يطال هذا الجزم ايضاً الوطن العربي بدوله المنضوية في إطار الجامعة العربية؟ سؤال لابد من محاولة الإجابة عليه في سياق الصفحات التالية.

الأقليات في الوطن العربي

إن الإدعاء بأن دول الوطن العربي تتمتع بدرجة عالية جداً من الإنسجام القومي تفوق بها أغلبية دول العالم من حيث درجة الإنسجام القومي السكاني، وأن المنطقة العربية تتمتع بدرجة عالية من حيث الانسجام الاجتماعي والثقافي، هو قول مفاجئ ومغاير لما يشعاع حول المنطقة ويحتاج لبرهان.

إذا ما وضعت النسب العددية، لمكونات سكان ومواطني الدول العربية كمقياس لشدة الانسجام القومي أو الديني من عدمه، سيلحظ الباحث والمراقب بسهولة الدرجة العالية من الإنسجام الإجتماعي والقومي لسكان الدولة العربية الحديثة.

إن المنطقة العربية تحتوي هي أيضاً على عدد من الأقليات العرقية والدينية. فمن بين 370 مليون مواطن يعيشون في دول الوطن العربي تتجاوز متوسط نسبة العرب منهم ال 90% وما يقارب ال 10% من سكان دول الوطن العربي ينتمون إلى اقليات عرقية واثنية أخرى. وإذا أخذ الإنتشار السكاني الدين كمقياس سنجد أن المسلمين تجاوزت نسبتة إنتشارهم في دول الوطن العربي ال 92% من مجموع السكان. وإذا ما أخذ العامل الطائفي لهذه التمايزات السكانية بعين الإعتبار سنجد بأن متوسط نسبة المواطنون العرب المسلمون السنة تقارب 85% من مجموع عدد السكان في الوطن العربي. وإذا أضيفت نسب الأقليات العرقية والدينية والطائفية مجتمعة إلى بعضها سنجد أن النسبة الكلية للأقليات في الوطن العربي تصل إلى ال 15% من مجموع عدد السكان في الوطن العربي. وبالتالي فإن العرب المسلمون السنة تصل نسبتهم إلى المجموع الكلي من عدد سكان المنطقة العربية ال 85% .

إذا ما قورن هذا الواقع السكاني دول الوطن العربي مع واقع الحال في الدول والكيانات السياسية الأخرى المجاورة وغير المجاورة لهذا الوطن، فإن سكان الوطن العربي يشكلون حالة إنسجامٍ قومي وديني وثقافي تتفوق على كل الدول المجاورة والبعيدة بدرجات شاسعة. وإن كل ما يقال على أن المنطقة العربية تحتوي على تنوعات قومية ودينية عالية من الناحية النسبية هو مجرد وهم ويفتقد إلى أي أرضية من الصحة. من المؤكد أن المنطقة العربية تحتوي على عدد كبير من الأقليات الثقافية والعرقية والدينية، وهذا مجالفخر لأبناء المنطقة، لكن الصحيح أيضاً أن هذا العدد الكبير من الأقليات يكل نسبة ضئيلة من عدد السكان من الناحية الواقعية. فإن نسبة الإنسجام السكاني القومي

والديني مجتمعة التي تصل إلى 85% من مجموع عدد السكان المنطقة العربية لم تصل إليها لا فرنسا ولا ألمانيا ولا تركيا ولا إيران ولا أي دولة من دول العالم الكبيرة والمتوسطة الحجم. فالأمة العربية تعتبر من الناحية القومية والثقافية حيث أصبحت اللغة العربية لغة الأم لأكثر من 95% من مجموع عدد سكان الدول العربية، من أكثر مناطق العالم إنسجاماً.

كذلك تعتبر حالة الانسجام الإجتماعي القومي والانسجام الديني عالية ايضاً في أقطار الوطن العربي كل على حدة. حتى في بعض الأقطار التي تعتبر من الدول التي تعيش بها أقليات عرقية كبيرة ومتعددة مثل العراق والسودان هي أيضاً ليست خارج هذا السياق، على الرغم من كل ما يشاع ويبث عبر أجهزة الإعلام المحلية والعالمية عن واقع هذين القطرين الاجتماعي. ففي العراق مثلاً يشكل المسلمون العرب 85% من مجموع عدد سكان العراق. والكرد والتركمان وغيرهم من الأقليات العرقية لا تتجاوز نسبتهم 15% من مجموع سكان العراق. فالعراق اكثر انسجاماً من الناحية القومية من الواقع في الدولة الألمانية والفرنسية والإسبانية التي لم تصل في هذه الدول نسب الانسجام القومي إلى 70 %. والعراق هو الأكثر انسجاماً من الناحية القومية من المجتمع في دولة إيران وتركيا من دول الجوار، والتي لم تصل نسبة الفرس في الدولة الإيرانية نسبة 35% ونسبة الترك 50% في الدولة التركية.

هناك عدد من الأسباب والعوامل تفسر سعة الانسجام وزيادة درجة التماسك والتوافق في المجتمعات العربية. بعض هذه العوامل يمكن إيجازها بالنقاط التالية:

- إن انفتاح العرب على الأقوام والشعوب الأخرى معززين بقيم العدالة والمساواة الإسلامية بين الناس (لا فرق بين عربي وأعجمي إلا بالتقوى)، حسب الآية الكريمة، وقيم العزة والنخوة والكرامة الموروثة عند العرب، (وما جئت إلا لأتمم مكارم الأخلاق) كما قال الرسول الكريم، فتح الأبواب واسعة على انضمام أفراد وجماعات كثيرة عبر القرون الطويلة إلى البوتقة العربية وإلى الثقافة العربية وبالتالي إلى العروبة ومجتمع الأمة العربية، التي تشكلت عبر العصور على أساس وحدة التاريخ والثقافة الجامعة. القيم الإنسانية في العدالة والمساواة كانت أحد العوامل الأساسية التي ساهمت في تقريب الناس من بعضها البعض وتوثيق عرى العلاقات الإنسانية في بوتقة الأمة.
- الترابط العضوي بين الإسلام والثقافة العربية، وفي المقدمة منها اللغة العربية. هذا الترابط ساهم إلى حد كبير في خلق حالة الانسجام الثقافي واللغوي داخل المجتمعات العربية. بحكم النشأة على الأرض العربية، ونزول القرآن الكريم باللغة العربية، واستمرار السيادة السياسية والثقافية العربية لمدة ثمانية قرون متواصلة في دولة الخلافة، خلق حالة خاصة من الترابط العضوي بين العروبة

والإسلام. هذا الترابط العضوي لم يختصر تأثيره على المسلمين في المجتمع العربي، بل شمل بتأثيراته الروحية والثقافية المسيحيين العرب أيضاً وعزز من لحمة الأمة ووحد مكوناتها عبر العصور والقرون الطويلة.

- هذا الترابط الشديد جعل من الأمة العربية البديل الحضاري والمنافس الحضاري للغرب المتغطرس، وجعل هذه الأمة هدفا دائماً لكل القوى الحاقدة على الإسلام والطامعة في نهب واستغلال ثروات ومقدرات الشعوب الإسلامية والشعوب الفقيرة. الهجمات الخارجية على المنطقة العربية كانت في كثير من الحقب عامل توحد وعامل تراص في وجه الأخطار الخارجية. من أحد ميزات المجتمعات العربية، والتي لازالت ملازمة لتلك المجتمعات، هي صفة التقارب والتضامن أثناء الحروب والأزمات. وظلت هذه الصفة المميزة للأمة العربية المجدد لحيوية هذه الأمة ويمدها بعوامل الصمود في وجه الأخطار العاتية.
- لقد حمى الإسلام العرب والثقافة واللغة العربية من الأخطار والزوال في العصور والأزمنة الصعبة الغابرة. في نفس الوقت ظل العرب على الدوام القلعة الصامدة في الدفاع عن الإسلام وقيمة ومبادئه الخالدة عبر القرون. في أرض العرب و بدماء العرب، مسلمون ومسيحيون على حد سواء، حمي الإسلام عبر القرون من الضياع والاندثار. تاريخ الصراع الدامي مع الغرب صنع لحمة فريدة بين مكونات المجتمع في المنطقة العربية ترك آثار كبيرة في صيرورة تكون الأمة العربية وأزال كثير من الحواجز النفسية والدينية والعرقية عند قطاعات شاسعة من مكونات الأمة مع مرور الزمن.

هذه العوامل مجتمعةً جعلت من الانتماء إلى الأمة العربية بين أوساط الأفراد والجماعات الإسلامية على وجه الخصوص عملية ميسرة ومرغوب فيها. حتى في الظروف الصعبة التي مر بها الوطن العربي لم تتوقف جماعات وشعوب كثيرة في القارة الأسيوية والقارة الإفريقية تعتز بانتمائها إلى الأمة العربية. ربما هذا العرض السريع يفسر ارتفاع عدد المواطنين الذين يشعرون بانتمائهم للأمة العربية ويعرفون هويتهم القومية بالهوية العربية. لقد وصل عدد المواطنين العرب إلى أكثر من 450 مليون مواطن منتشرين في دول الوطن العربي وخارج دول الوطن العربي، في الجوار منه وفي المهاجر البعيدة. في حين أن شعب كالشعب الفارسي، على سبيل المثال، الذي يمتد حضوره البشري والسياسي إلى اكثر من ألفى عام، لا يتجاوز عدد نفوس من ينتمي إلى هذه الأمة 50 مليون مواطن في إيران وخارج إيران. وإن حالة الإنسجام الإجتماعي في المجتمعات العربية ظلت مرتفعة وتشكل حالة متميزة مقارنة بأغلب الأمم الأخرى.

لا يغير من حقيقة انتماء تلك الملايين، التي تقترب من النصف مليار من المواطنين، إلى أمة واحدة رؤية الحقيقة السياسية في توزع المواطنين العرب على عدة دول وكيانات

سياسية وصلت إلى 22 كيانا ودولة. حالة الوطن العربي في الوقت الراهن تشكل نموذج آخر متميز من نماذج تكون الأمم وعلاقتها بشكل الدولة الحديثة. فمثل ما أن هناك دول تتكون من عدة من الشعوب ومن الأمم، هناك أيضاً أمم تتكون من عدة من الدول والكيانات السياسية. والأمة العربية تشترك مع وكوريا والصين ومع ألمانيا وفيتنام إلى حد كبير في صفة تعدد الكيانات السياسية للأمة الواحدة. كذلك تشترك الأمة العربية مع الهند والصين وبقية دول العالم بصفة التعدد العرقي والديني داخل كيان الدولة السياسي.

على الرغم من وجود الأقليات العرقية، كالأكراد في العراق والأفارقة في جنوب السودان، والأقليات الدينية، كالمسيحية واليهودية لم تشهد المنطقة العربية حروب وصراعات عرقية أو دينية كبيرة. وان حدثت هذه الصراعات والحروب العرقية والدينية كان وعلى الدوام خلف هذه الصراعات قوى خارجية بالدرجة الأساسية. ففي القرن العشرين زرعت إسرائيل من قبل الغرب في قلب الوطن العربي، ولازال هذا الكيان يدعم من قبل القوى الغربية. مع نشأة هذا الكيان بدأ الصراع العربي ـ الإسرائيلي، العربي ـ الصهيوني المستمر، وحلت النكبات والحروب والكوارث مع فكرة إنشاء هذا الكيان الاستعماري الاستيطاني الدخيل على المنطقة العربية، التي كلفت المنطقة مئات الآلاف من الضحايا بالإضافة إلى الدمار المادي والاجتماعي والتوترات الدينية والمذهبية التي لا يمكن تقدير حجم أضرارها بثمن.

حرضت الحكومات الغربية، والكنائس في الدول الغربية، على دعم الأقليات العرقية والدينية في جنوب السودان، وأمدتها بالمال والسلاح ابتدأ من منتصف سنين الخمسينات من القرن العشرين، ولازالت حتى الوقت الحاضر مستمرة بهذا الدور. ولا زالت الحرب الأهلية في هذا البلد مستمرة وتتنقل من الجنوب إلى "دار فور"، والشعب السوداني والشعوب المجاورة للسودان تدفع ثمن عبث القوى الخارجية في مقدرات السودان ووحدة شعبة ووحدة أراضيه. كذلك كان الحال في الوضع اللبناني، فالصراع في هذا البلد العربي هو في محصلته النهائية إنتاج غربي ـ صهيوني ـ إيراني بالدرجة الأولى.

لقد انعكست في الادبيات الاستشراقية في الدول الغربية الرغبة السياسية للحكومات الغربية تجاه المنطقة العربية، والتي غالت في تسليط الاضواء علي خصائص الجماعات والأقليات المحدودة النسبة العددية في المشرق والمغرب العربيين مقابل تكثيف الظلال حول روابطها التراثية والثقافية والاجتماعية مع محيطها العربي بل وطمسها. ويغلب على هذه الدراسات التجاهل المتعمد لتعايش هذه الأقليات السلمي مع مواطنيها العرب باعتبارها جزء من النسيج الاجتماعي الوطني علي مدي القرون السابقة للمرحلة الاستعمارية. ويذكر في هذا الصدد الكاتب جورج قرم ، في كتابه انفجار المشرق العربي، "أن المشرفين علي اطروحات الدكتوراه في الجامعات

الاوروبية والامريكية يشجعون طلبتهم العرب علي ابراز قضايا الاقليات في اقطارهم، وانهم يرغمونهم احيانا علي ذلك بهدف ابراز التمايزات الاجتماعية حيث وجدت."[249]

لقد انسجمت حكومات إيران مع توجه المستشرقين الغربيين هذا. حتى هذه الأيام تمارس إيران هوايتها المفضلة في إزعاج وإيذاء العراق من خلال تحريضها و دعمها للأكراد في شمال العراق، وكذلك تحريض القوى والأحزاب الطائفية في الجنوب العراقي، والتي أشرفت على تأسيسها وتوجيهها الحكومات الإيرانية. لازال العراق يدفع ثمن العبث الإيراني المزمن.

لقد استعملت القوى المعادية للعرب كل السبل في تحريض الأقليات، على اختلاف أنواعها ومسمياتها في المنطقة العربية، لضرب الأمة العربية تحقيقا لمصالحها القومية الخاصة. لقد استنفذت اغلب هذه الوسائل ولم يتبق في جعبتها إلا الورقة الطائفية التي تثار في الوقت الحاضر، ويتم تسويقها مرة أخرى كمحاولة جديدة لضرب العرب السنة بالعرب الشيعة بعد أن خمدت هذه الفتنة الطائفية وانكفأت بعد انتهاء وتوقف الحرب الأهلية اللبنانية في عام 1990 .

[249] جورج قرم، انفجار المشرق العربي من تأميم قناة السويس إلى غزو العراق 1956 - 2006 ، صفحة 105 ، دار الفارابي للنشر، بيروت 2006.

الظواهر السلوكية
المرافقة لمجتمعات الأقليات

عندما تعيش المجموعات البشرية في محيط مشترك وتحتك ببعضها البعض تبدأ في البحث عن تعريف لذاتها وعن أسس مكوناتها. فكل مجموعة بشرية تنشط في تعريف الذات وتعريف المجموعات البشرية المجاورة والبعيدة الأخرى. في نفس الوقت تعمل على رسم الحدود والفواصل بينها وبين المجموعات البشرية الأخرى.

إن وجدت صفة من الصفات أو أكثر يشترك بها اغلب أفراد هذه المجموعة أو تلك، تصبح الصفات المشتركة هي المقياس الذي تأهل الفرد وتزكيه في ادعاء الانضمام إلى هذه المجموعة من عدمه.

الشعوب والمجموعات البشرية تعرف ذاتها وتخلق لها هوية مشتركة من توفر بعض الصفات المشتركة بين أفرادها. وإذا لم تتوفر هذه الصفات الجامعة يصار إلى خلقها وإبداعها لتمرير أهداف سياسية أو اجتماعية وربما اقتصادية. وعلى أساس هذه الصفات تضع الحواجز والاختلاف والتمايز عن الآخرين، وتتشكل مع مرور الزمن العصبية لتلك المجموعة البشرية. وترسم لهذه المجموعة البشرية أيضا مصالح وأهداف. تعمل قوى من داخلها وباسم المجموعة للحفاظ على هذه المصالح وتحقيق الأهداف المطروحة في وجه المجموعات الأخرى.

الصفات والمزايا التي يمكن أن تجمع أو تفرق الشعوب والمجموعات البشرية يمكن أن تكون ثقافية كاللغة أو إثنية وعرقية أو ربما دينية ومذهبية...الخ.

تمايز البشر والمجموعات البشرية في صفاتها ليس سبب في صراع وتناحر الشعوب والمجموعات البشرية، بل الحفاظ على المصالح وصياغة الأهداف والسعي إلى تحقيقها هي على الغالب وراء تفجر الصراعات والحروب والأحقاد بين الناس.

من خلال التجربة الجماعية تنشأ بعض الصفات المكتسبة عند أبناء الأقليات والتي يمكن إجمالها بالنقاط التالية:

أظهرت الدراسات العلمية في مجال علم الاجتماع وعلم النفس الجمعي أن الأقليات التي تعيش مع مجموعة بشرية تشكل الأغلبية في إقليم من الأقاليم يميل أعضاء تلك الأقلية

إلى الاعتقاد أنهم يعانون من اضطهاد الأكثرية لهم لمجرد أنهم الأقلية. مما يؤدي إلى الإحساس بالخطر المحدق وضياع الحقوق غير المصانة. بصرف النظر عن موضوعية هذا الاعتقاد والشعور بعدم المساواة، والإحساس بالخطر من عدم موضوعيته، يبقى هذا الميل هو المهيمن على الأفراد الذين ينتمون لتلك الأقليات. هذا لا يعني أن المساواة متوفرة والعدالة قائمة وحقوق بعض الأقليات مصانة ولم تهضم.

وكذلك الشعور الطاغي بالدونية أمام الأكثرية ينتشر في أوساط الأقليات. هذا الشعور يتكون بفعل عوامل وتجارب تاريخية وسياسية عاشها أبناء تلك الأقليات في علاقتهم مع الآخرين. ذلك بحكم الجوار وتناقض المصالح.

الجنوح إلى الانعزال والتقوقع على الذات صفة ملازمة ايضاً للمجموعات البشرية التي تعرف ذاتها بالأقلية. أسباب تلك الميول الانعزالية عن المحيط الذي تعيش فيه هذه الأقلية أو تلك متعددة تعود بالأساس إلى تجارب سلبية فردية أو جماعية مع الآخرين، دعت إلى البحث عن أساليب تساعد على حماية الذات من أخطار حقيقية أو موهومة.

وإذا ما استمرت ظاهرة الانعزال والشعور بالمظلومية لعقود طويلة تتشكل عند أبناء الأقليات من خلال الشعور بالمرارة ظواهر عدوانية وثقافة تبرر الحقد على الأخر وحب الانتقام. هذا المزاج في حد ذاته يعرف في علم النفس في محاولة لإعادة التوازن النفسي عند الفرد كل ما سنحت الفرصة بذلك.

بالمقابل تساعد بعض المظاهر السلوكية عند أفراد المجموعات التي تشكل الأغلبية في المجتمعات إلى استفزاز أفراد الأقليات وتترجم هذه السلوكيات ترجمة سلبية وهي بذلك تستند على وقائع ونمطية في العيش تمارس على الأرض. من تلك الصفات والسلوكيات عند أفراد مجتمع الأكثرية:

اللامبالاة في بمطالب الأقلية السياسية والاجتماعية إلا إذا ما تفجرت أزمة أو افتعلت قضية، مما يخلق أجواء تساعد على سوء الفهم بين الأطراف وتقبل أكثر من تأويل وتفسير لنشوء تلك الأزمة

وعدم الاهتمام بهموم الجماعات الأخرى، لكل جماعة بشرية لها اهتمامات ثقافية وبعض الاهتمامات الدينية، التي تميزها عن المجموعات البشرية الأخرى، التي تقاسمها في العيش على نفس الأرض وفي نفس الوطن وفي نفس الإقليم. السائد والشائع أن أبناء الجماعات التي تشكل الأكثرية العددية تمتلك معرفة قليلة ومتواضعة عن اهتمامات وعبادات وقيم الآخرين، وعلى العكس من أبناء الأقليات الذين يتمتعون، بشكل عام، وبشكل نسبي، بمعرفة أكبر عن اهتمامات وعقائد الآخرين من أبناء الجماعات البشرية.

الجنوح إلى الغطرسة واستعمال ثقل الأكثرية عند نشوء الأزمات مع الأطراف المتنازعة، ففي حالة النزاع المفتوح، وبصرف النظر عن حجم هذا النزاع إن كان كبيراً

أم كان صغيراً تلجأ الأطراف المتنازعة إلى توظيف عناصر القوة لديها، والطرف الذي ينتمي إلى الأكثرية يزج بعامل الكثرة في محاولة لحسم الصراع لصالحه، ومن المألوف تعدي مرحلة حسم النزاع إلى الغطرسة والمبالغة في استعمال العنف والقوة.

الميول إلى المحافظة على الوضع القائم وتوخي الحذر من التغيير، في كل المجتمعات الإنسانية هناك، وبفعل عوامل مختلفة، حركة دائمة في التغيير. وحركة التغيير هذه تأخذ أشكال عدة في التعبير عن ذاتها، فمنه الشكل السكوني الهادئ البطيء ومنها الشكل النشط والظاهر والسريع الحركة. المجتمعات والشعوب والأمم الكبيرة تكون التغيرات فيها بطيئة الحركة لكنها أعمق وأطول بقاءً، في حين تميل المجتمعات الصغيرة إلى الرغبة في التغيير السريع مما يخلق في حالات عدة مساحة من الاحتكاك والتعارض داخل البلد الواحد والشعب الواحد لاختلاف مكوناته الاجتماعية.

هذه الحقيقة وهذا الشعور الملازم لوجود الأقليات في علاقاتها اليومية مع مواطنيهم من أبناء الأكثرية في المجتمع يجعل المجتمعات، بين الفينة والأخرى، عرضة للهزات الاجتماعية والسياسية الخطيرة، وربما تصل إلى الحروب الأهلية. تفرز أجواء حالات عدم الاستقرار والحروب نوع من أنواع الشك وعدم الثقة بين أفراد الجماعات المتناحرة. هذه الإفرازات لا تنتهي بزوال حالة عدم الاستقرار التي طرأت بل تتعداها وتترك بصماتها السلبية على علاقات الأفراد ببعضها البعض لفترات زمنية ربما تطول.

ينتقل الصراع والتنافس العلني المكشوف بين القوى المتقابلة في الحروب على سبيل المثال، بعد أن تضع الحرب أوزارها، إلى شكل من الصراع والتناحر الخفي وغير المرئي وغير مباشر. ساحات هذا الصراع متعددة والطرق شائكة، أحد هذه الساحات هي ساحة الفكر والثقافة، والتي يكون إطارها العام ووعائها الحاوي في اغلب الأحيان الدين والفلسفة. القوى المهزومة تلجأ إلى التمسك بقيمها والتركيز على مفاهيمها الثقافية والدينية والسياسية، وتحاول إدخالها وزرعها في ثقافة وقيم ودين القوى المنتصرة، وجعلها جزء من قيمه ومفاهيمه وعقائده. فالقوى المهزومة تلجأ، تحت معطيات الظروف والشروط السياسية الجديدة إلى الحيلة والتدبير لضمان البقاء والاستمرار. المزج الثقافي والتلاقح الحضاري هي إحدى الاحتمالات في المستقبل بين الغالب والمغلوب في المعادلة التي فرضتها شروط القوة العسكرية أو الاقتصادية أو الثقافية والدينية، منفردة أو مجتمعة. لكن احتمالات فتح أبواب لصراع طويل لا ينتهي، يورث من جيل إلى جيل، ويتأقلم مع تغير الشروط الذاتية والموضوعية المحيطة، تكون إحدى الاحتمالات الواردة.

انسجم العرب في مسيرتهم التاريخية في ظل الإسلام مع شعوب وأقوام كثيرة، ودخل العرب في عملية التمازج الثقافي والعرقي مع أغلب الشعوب التي وصل إليها الإسلام. ودخل العرب في صيرورة من الاختلاط الاجتماعي والتبادل الثقافي مع الشعوب

الإيرانية إلى درجات متقدمة. لكن جزء من النخبة الفارسية ناصبت العرب وثقافة العرب العداء، وتناقلت بعض الفئات الفارسية هذا العداء جيلاً بعد جيل، وكرست ثقافة العداء للعرب في الأدب والثقافة المعتمدة في الدولة الفارسية. لقد استمرت هذه الثقافة سائدة في المجتمعات الفارسية حتى أصبحت صفة الصراع والنفور الصفة الطاغية في علاقة العرب ـ بالفرس.

لم تسلم مجموعات النخبة الفارسية في المجتمع الفارسي كلها بالواقع الجديد، ولم تسلم هذه الدوائر بانتصار العرب وانتصار الدين الإسلامي بعد فتح الهضبة الإيرانية. بل انبرت طائفة منهم إلى مناصبة العرب ومناصبة الدين الإسلامي العداء، ولجأت هذه الطائفة إلى المكر والخديعة والدخول من الثغرات السياسية والاجتماعية والثقافية التي فتحت وتعددت مع اتساع الدولة العربية الإسلامية الناشئة. تمدد وتوسع النشاط الفكري بعد انفتاح الشعوب والثقافات على بعضها البعض في حدود الدولة العربية الإسلامية المترامية الأطراف، وخلق مناخات للجدل والحوار الواسع، خلقت في نفس الوقت ثغرات كثيرة وظروف مواتية لنشوب النزاعات وتصادم المصالح والثقافات والديانات. مجموعات وأفراد من الفرس، التي كانت تدين بالديانة "الزردشتية" أو التي كانت تدين بالديانة "المزدكية"، وجدت في هذه المناخات غير المستقرة الفرص المناسبة للمحافظة على معتقداتها التي ورثتها عن آبائها وأجدادها.

هذه الجماعات وتلك الأفراد كانت تمتلك الخبرة والممارسة في بناء التنظيمات والعمل السري. هاتان الميزتان المهمتان منحت المجموعات الفارسية المتمردة على الدولة العربية، وعلى الدين الإسلامي، أوراق قوة لا يعرفها العرب في حياتهم الاجتماعية وحياتهم السياسية. يميل المزاج الفردي والجماعي في النشاطات السياسية والاجتماعية عند المواطنين في بوتقة الثقافة العربية إلى العلنية، ويغلب على شكل الحركات السياسية والدينية في التاريخ العربي، الجاهلي والإسلامي، بالعمومية وعدم الدقة في التنظيم. لكن الحركات الدينية والسياسية في عصر الاضطهاد الساساني القاسي، تتميز بالخبرة العالية في بناء التنظيمات السرية والعلنية. صفة العمل السري رافقت على الدوام القوى والأقليات الضعيفة وخاصة عندما أصبح لبها مشروع لا تستطيع تنفيذه في حينه، وتتحين الفرص المناسبة للانقضاض على الأعداء وتحقيق الأهداف.

أغلب الشرائع الدينية والدنيوية نادت بتطبيق مبادئ العدل والمساواة ورفع الظلم عن المظلومين من الناس. السعي لتحقيق تلك الأهداف والمبادئ كان ولازال من أهم المحركات الاجتماعية والسياسية التي ساهمت في تطوير المجتمعات البشرية في مسيرة التاريخ الإنساني. لكن رفع شعار تحقيق العدالة والمساواة ومساعدة الأقليات المظلومة ورفع الظلم عنها لم يكن دائما بريء القصد وخالص النية. بل ربما يساء استعمالها وتستغل معانات الناس ويضاف ظلم على ظلم وتتضاعف المآسي والأحزان. فمقولة

"حق يراد به باطل" مستندة في الأساس على تجارب إنسانية حقيقية ومتكررة أخذت هكضا مسار.

حالة عدم الرضى والشعور بالمظلومية يترك جل مجتمع الأقلية، أو بعض من فئاته عرضة للاستغلال والابتزاز لمن يتبرع "برفع الظلم وتحقيق العدالة". إن كانت تلك القوى من داخل المجموعة أو خارجها، من داخل الوطن أو خارج الوطن فأصحابها بالتأكيد يدركون ظاهره "الشعور الدائم بالمظلومية" عند أبناء الأقليات. وهي متكررة وملاصقة لتواجد الأقليات عبر مسار التطور التاريخي للشعوب. كل الغزاة ادعوا في أهدافهم المعلنة مساعدة المستضعفين والأخذ بيد المظلومين من الناس وحماية الأقليات في البلد المراد غزوه. لكن بعد أن يتم لهم دخول البلاد يشرعون باستعباد البلاد والعباد، والضعيف منهم والقوي والظالم والمظلوم على حد سواء.

في كل مرة سعت قوة خارجية لرفع الظلم الحقيقي أو الوهمي الواقع على كاهل أقلية من الأقليات كانت النتيجة النهائية أن بقيت هذه الأقلية غارقة في دوامة مشاكلها وأضيفت إلى تلك المشاكل التي كانت قائمة قبل قدوم الغزاة حزمة جديدة من المعضلات والصعاب، التي جلبها القادم الخارجي معه وبسبب قدومه إلى تلك الأقلية. لم يتخلص "التوتسي" من ظلم "الهوتي"، المزعوم ولم يتحرر "الكردي" من جور "التركي"، ولا "الطاجيكي" من ظلم "البشتوني"، ولا "الكاثوليكي" من ظلم "البروتستانتي"، ولم يتغير واقع حال الهندي الأحمر في دول أمريكا الشمالية والجنوبية على الرغم من الحضور الأجنبي في هذه الأزمات الإقليمية والدولية الذي تجاوز طول زمن استمرارها العقود والقرون من الزمان.

إن مشاركة بعض من أبناء أقلية من الأقليات أهداف وممارسات القوى الخارجية الغازية كانت تضيف عبئاً ثقيل على كاهل أبناء تلك الأقلية. وتحمل تلك الأقلية أوزراً وتهماً إضافية تعقد أكثر حياة الأجيال القادمة، وسترغمها، في كثير من الأحيان، على دفع أثمان باهظة جراء تلك المواقف غير المسئولة بحق الأوطان وأبناء تلك الأقلية. لعب دور الطابور الخامس والخيانة الوطنية والشك بالولاء للوطن هي من أكثر النعوت والتهم الشائعة التي توجه إلى أبناء الأقليات أثناء وبعد كل تدخل أجنبي في بلد من البلدان. وهنا لا يهم إن كانت تلك الاتهامات توجه بحق أو بغير وجه حق، فهي تساهم من جديد في محاصرة أبناء تلك الأقليات وتزيد من مشاكلهم وهمومهم. هذه الصيرورة وتفاعلاتها كانت سائدة في الماضي وهي كذلك في الحاضر. ومن المحتمل أن تكون هي نفس الصيرورة والأحكام والمواقف في المستقبل بعد كل تدخل أجنبي يأخذ ذريعة حماية الأقليات لتدخله في شؤون دولة من الدول، وشعب من الشعوب. يظل على الدوام وفي كل مرة أبناء الأقليات أول الخاسرين.

دور إيران وإسرائيل في نشر نظام الطائفية السياسية في العراق والوطن العربي

تمكنت الدول الغربية، وخاصة فرنسا أثناء فترة الانتداب على لبنان بين الحربين العالميتين، من فرض نظام الطائفية السياسية في القطر اللبناني. عبر قوى وعناصر طائفية وانعزالية لبنانية فرض نظام المحاصصة الطائفية في قيادة الدولة والمؤسسات الحكومية في لبنان أثناء فترة الإستعمار الغربي. لم يكتب لهذا البلد العربي الاستقرار، وهو ينتقل من أزمة إلى أخرى ومن حرب أهلية إلى حرب أهلية أخرى. لقد ساهمت إلى جانب قوات الانتداب (الاحتلال) الفرنسي بتعزيز نظام المحاصصة الطائفية السياسي دول أخرى في المنطقة. وسهرت هذه الدول على استمرار وتعميق حدة التوترات الاجتماعية والسياسية على مدى عشرات السنين.

كرست فرنسا نظام المحاصصة السياسية في لبنان وتمت صياغة هذا النظام في الدستور اللبناني. ففي الدستور اللبناني يضبط أداء النظام السياسي الطائفي، حيث تنص المادة 24 منه على توزيع المقاعد النيابيّة بالتساوي بين المسيحيين والمسلمين، ونسبيّا بين طوائف كل من الفئتين، كما تنص المادة 95 من هذا الدستور علي تمثيل الطوائف بصورة عادلة في تشكيل الوزارة. أهم الدول التي كانت معنية في استمرار نظام الطائفية السياسية في لبنان كانت دولة الكيان الصهيوني وكذلك دولة إيران. هاتان الدولتان عملتا بكل جد على خلق التوترات الطائفية وعلى تكريس واستمرار نظام الطائفية السياسية في لبنان من خلال خلق الأحزاب السياسية على أسس دينية وأسس مذهبية وطائفية، ودعم كل من ينادي بنظام المحاصصة الطائفية. على الرغم من تبدل القوى السياسية التي قادت هاتين الدولتين لكن هدف نشر الطائفية في دول الجوار ظل الهدف الدائم لقادة وحكومات هاتين الدولتين المتعاقبة.

العراق هو البلد العربي الثاني بعد لبنان الذي يتعرض إلى مؤامرة فرض نظام الطائفية السياسية. نظام المحاصصة الطائفية والعرقية فرضه الحاكم المدني الأمريكي بول بريمر على العراقيين وكانت القوى العراقية المرتبطة بإيران الشريك المباشر في تنفيذ هذا المشروع. لقد أسس بريمر مجلس الحكم الانتقالي في العراق التي توزعت المقاعد فيه على أسس طائفية بحتة، حين خصّص للشيعة 13 مقعدا و5 للسنّة و5 للأكراد و1 للتركمان و1 للكدو ـ آشوريين، ممّا جعل الطائفية والتمييز المذهبى أمرا قائما. وفي هذا البلد العربي المحتل تعمل سلطات الاحتلال الأمريكي وتشاركها إيران في مشروع

تكريس الإنشقاقات الطائفية والمذهبية والعرقية بكل جد ومنهجية. وتعمل سلطات الاحتلال، بالتعاون مع الحكومة الإيرانية على سن القوانين والدساتير التي تكرس وتفرض نظام المحاصصة الطائفية والعرقية على الشعب العراقي. دولة الكيان الصهيوني ضالعة أيضاً في هذا المخطط في كل أبعاده، وهي وعملائها، وخاصة في شمال العراق، حاضرة في كل مراحل هذا المخطط وهذا المشروع. لقد أصبح واضحاً التنسيق الوثيق بين تلك الأطراف المتحمسة لتقسيم الشعب العراقي وتكريس هذا الانقسام. تعمل كل من الإدارة الأمريكية وإسرائيل وإيران على فرض هذا الشكل وهذا النوع من النظم السياسية على الشعب العراقي وتحشد لتنفيذ هذا المشروع قوى عراقية طائفية وقوى عراقية انعزالية هناك، كمقدمة لتعميم هذا المشروع التدميري على بقية الأقطار العربية. وما الأصوات التي تنبعث من البحرين ومن دولة الكويت مطالبة في تطبيق نظام المحاصصة الطائفية، وعودة الفتنة الطائفية إلى أرض لبنان إلا تأكيداً لنوايا تلك القوى الضالعة في فرض نظام المحاصصة الطائفية.

المفارقة في هذا الأمر بأن الدول المعنية والتي تبذل الجهود الكبيرة لتعميم وتسويق هذا النوع من النظم السياسية المتخلفة، نظام الطائفية السياسية، ترفض تطبيق هذا النظام في دولها رفضاً باتاً. تعمل هذه الأطراف الثلاثة على تسويق نظام المحاصصة الطائفية والعرقية بدل نظام المواطنة. الأطراف الثلاثة ترفض تطبيق نظام المحاصصة الطائفية والعرقية في دولها، مجتمعاتها ولا تسمح هذه الحكومات مجرد مناقشة هذا الخيار في وسائل إعلامها. التعدد الديني والطائفي والقومي في مجتمعات هذه الدول هي الصفة السائدة، والتعدد العرقي والثقافي الأكثر انتشاراً في هذه الدول الثلاثة من غيرها من الدول. فهذه الدول حسب كل المقاييس والمعايير هي اقل انسجاماً اجتماعياً من العراق، واكثر تعددية دينية وعرقية من العراق. فعدد اللغات المنطوقة في هذه الدول يفوق عدد اللغات في العراق ولبنان أضعاف المرات.

الطوائف اليهودية في الكيان الصهيوني تصل إلى ثمانية طوائف يهودية وثلاثة طوائف إسلامية وستة طوائف مسيحية. والتنوع العرقي والقومي في هذا الكيان، حسب الأرقام الرسمية لهذا الكيان، وصل إلى الثمانية عشر قومية. على الرغم من هذا الكم من تعدد الديانات والأعراق في هذا الكيان، يرفض الصهاينة بناء كيانهم السياسي على أسس نظام المحاصصة الطائفية والدينية والعرقية. يشكل السكان العرب في دولة الكيان الصهيوني (عرب 1948) أو العرب (داخل الخط الأخضر) 22% من مجموع عدد سكان الكيان الصهيوني، لكن الأحزاب الصهيونية في إسرائيل لم تسمح بتسمية وزيراً عربياً واحداً ليمثل ربع سكان الدولة من العرب خلال الستين عاماً التي مضت من عمر الاحتلال الصهيوني لفلسطين. فقط في 28. 1. 2007 تم تعيين "غالب مجادلة" العربي للمرة الأولى كوزير في حكومة "ايهود اولمرت" في منصب وزير بدون حقيبة.

ظلت الحكومات الإيرانية من أكثر الأطراف المتحمسة لإشاعة الطائفية والعرقية في المجتمع العراقي والمجتمع اللبناني. والفرس الذين نصبهم الاحتلال على حكم العراق جادون في زرع نظام الطائفية السياسية في العراق ويبشرون ليل نهار "بخير و بركات وعدالة" هذا النوع من تقسيم السلطات على أسس طائفية وعرقية، وفي تمرير مشروع المحاصصة الطائفية في هذا البلد العربي. لكن هؤلاء الفرس يرفضون رفضاً قاطعاً الاستمتاع "بخيرات وبركات وعدل" هذا النوع من النظم السياسية، والعمل على تطبيق نظام المحاصصة الطائفية والعرقية في إيران. إيران بلد متعدد الأعراق والقوميات، ومتعدد الطوائف والديانات، وكذلك فيه اللغات والثقافات متعددة أيضاً. ويصل عدد الجماعات البشرية من ديانات وقوميات وطوائف في إيران خمسة أضعاف ما هو قائم في العراق.

تتكون إيران من سبعة قوميات كبيرة وما يزيد على ثمانية قوميات صغيرة. يشكل الفرس نسبته 35% فقط من مجموع عدد سكان إيران الحالية. ويعيش في إيران، بالإضافة للمسلمين للشيعة ايضاً مسلمون سنة تصل نسبتهم في المجتمعات الإيرانية إلى 25% ، بالإضافة إلى اليزيديين والإسماعيليين والمجوس والمزدكيين واليهود والمسيحيين بمختلف طوائفهم. لكن حكام إيران لم يبدوا أي استعداد ولو قليل لإنصاف وتمثيل تلك الأقليات الكبيرة في النظام السياسي الإيراني. في مؤتمر تقارب المذاهب الذي عقد في الدوحة عاصمة دولة قطر "أثار الأستاذ في كلية الشريعة في جامعة قطر الدكتور حامد عبد العزيز المروني «وضع السنة» في إيران وضعف تمثيلهم في مجلس الشورى، وقال إنه لا يوجد وزير سني في إيران على رغم أن عدد السنة يبلغ عشرين مليون نسمة من بين 75 مليون إيراني بحسب تقديره."[250]

على الرغم من هذا التنوع القومي والعرقي والديني والطائفي الواسع يرفض الفرس تطبيق نظام الطائفية السياسية والمحاصصة العرقية في العمل السياسي في الدولة الإيرانية. القيادات الإيرانية تبذل الجهود السرية والعلنية، وتشكل الأحزاب وتفتح الإذاعات ومحطات التلفاز الفضائية والأرضية، وتخوض الحروب السياسية والعسكرية والإعلامية من اجل فرض نظام المحاصصة الطائفية والإثنية على العراقيين واللبنانيين والبحرانيين والكويتيين وغيرها من الأقطار العربية. تلك مفارقة تستدعي التفكير بالأسباب والأهداف التي تكمن خلف تلك السياسات الإيرانية، وخلف هذا الحماس الإيراني لتطبيق نظام المحاصصة الطائفية في لبنان والعراق. ومن المفيد البحث عن سر هذا الحماس الإيراني، الذي لا يوازيه ويساويه في الشدة والحماس غير الحماس الصهيوني لتلك المشاريع المدمرة للشعوب والدول.

---

[250] صحيفة الحياة، لندن، في 22. 1. 2007 .

والمثال الثالث في هذا المجال هو الولايات المتحدة الأمريكية. من المسلم به أن أمريكا من أكثر دول العالم تعددية من حيث الأعراق والثقافات والأديان. فهي بلد تشكل من مجموعات المستوطنين الجدد وبقايا شعوب وقبائل الهنود الحمر الذين أبيدوا من غير رحمة وشفقة. وربما الأجدر أن يطبق نظام المحاصصة الدينية والطائفية والعرقية أولاً في أمريكا قبل أي بلد آخر في هذا العالم. إذا كان المقصود من نظام المحاصصة الطائفية والمحاصصة القومية في النظام السياسي هو حل المشاكل والمعضلات الدينية والقومية في الدول، فإن الولايات المتحدة الأمريكية هي المرشح الأول لتطبيق هذا النظام السياسي العتيد. لكن الولايات المتحدة ترفض هذا النوع من النظم السياسية رفضاً قاطعاً. لكن الإدارات الأمريكية تسعى في نفس الوقت إلى زرع هذا الشكل من الحكم والإدارة، وبكل الوسائل، لفرضه على أقطار الوطن العربي ودول العالم الإسلامي.

من غير المستبعد أن قامت حكومة طهران وحكومة تل أبيب والإدارة الأمريكية، في لقاءات ممثليها السرية والعلنية علي تنفيذ استراتيجية تمزيق المنطقة العربية انطلاقاً من لبنان والعراق عبر تطبيق نظام المحاصصة الطائفية. أصبح هذين البلدين العربيين النموذج الحي والصورة المصغرة لمشروع الشرق الأوسط الجديد، ومشروع الشرق الأوسط الكبير من خلال أساليب الفوضى "الخلاقة". من الواضح أن كل ادعاءات الدول الثلاثة المشاركة في تطبيق هذه الإستراتيجية وإدعاءات عملائها في المنطقة العربية باطلة ومخادعة. فنظام الطائفية السياسية هو نظام منتج ومفرخ للأزمات وللاضطرابات العرقية والطائفية والدينية، وهو المقدمة الأولى لتفكك الأمم والدول. وهذا بالضبط هو المقصود من محاولات فرضه وتكريسه في الأقطار العربية، وأصحابه يعرفون تلك الحقيقة كل المعرفة دون أدنى شك.

الإسرائيليون أعلنوا بصراحة منذ عقود عن الخطوط العريضة لسياستهم في الشرق الأوسط والوطن العربي، والتي ذكرها ولخصها رئيس وزراء الكيان الصهيوني، موشي شاريت، عام 1954، والتي تتضمن القواعد الأساسية في هذه السياسة:

دعم الحركات الانفصالية في كل قطر من أقطار الوطن العربي.

دعم الحركات العرقية والحركات الدينية والطائفية داخل المجتمعات العربية ضد الأغلبية العربية الإسلامية.

العمل على تشكيل دويلات وكيانات صغيرة في المحيط العربي مبنية على أسس عرقية ودينية وطائفية.

العمل المشترك مع الدول التي تجاور الوطن العربي ودعمها في نزاعها مع الدول العربية كأثيوبيا وتركيا وإيران.

اعتمد موشي شاريت في استراتيجيته التحالف مع الأقليات الدينية والعرقية الأساسية، والتي عددها وذكرها بالاسم. كان شاريت وحكومته يطمحان ويعملان على أن تكون هذه الأقليات الأدوات التنفيذية بيد إسرائيل في مشروع تمزيق الدول العربية، وتمزيق المجتمعات العربية. كان في مقدمة الأقليات التي ذكرها موشي شاريت لتلعب دور أساسي في مشروعه الأقلية الشيعية، والتي أطلق عليها موشي شاريت اسم "الأقلية الطائفية الكبرى". اعتمد رئيس وزراء الكيان الصهيوني في هذا التصنيف وهذا التمييز في الأهمية في مشروعه العتيد على أساس أن هذه الطائفة متواجدة في أكثر من منطقة عربية، وتتمتع بعمق استراتيجي متمثلاً في دولة إيران، تلك الدولة التي تكن العداء الدائم للعرب حسب قوله. وحظيت الأقلية الكردية في المنطقة العربية على المرتبة الثانية في الأهمية في مشروع موشي شاريت هذ التخريبي في معرض تصنيفه للأقليات في الدول العربية ودورها المستقبلي في اشاعة عدم الإستقرار واستنزاف دول الوطن العربي. كان تحريض الأقليات في المنطقة العربية منذ الأيام الأولى لنشاة هذا الكيان الإستعماري الإستيطاني على أرض فلسطين العربية جزء من استراتيجية بقاء واستمرار هذا الكيان. فبقاء هذا الكيان مرهون بضعف وعدم استقرار المجتمعات العربية، ومرهون بنشاط القوى الإنعزالية والإنفصالية من قوى الأقليات العرقية والدينية والطائفية.

التقارب والعلاقة مع بعض الرموز السياسية من الأقلية العرقية الكردية ليس حديث العهد، بل عمره يوازي نشأة الكيان الصهيوني على أرض فلسطين العربية. عدد كبير من الساسة الصهاينة أدلوا بدلوهم في طرح أفكار ومخططات عامة وعينية محددة حول كيفية تقسيم المنطقة العربية على أسس طائفية وعرقية. لقد أكمل "شمعون بيرس"، وزير الدفاع الإسرائيلي في الخمسينات من القرن العشرين وصاحب المشروع النووي الإسرائيلي، ووزير الخارجية ورئيس الوزراء الإسرائيلي بعد مقتل رابين في عام 1996، ورئيس الكيان الصهيوني حالياً، استراتيجية الكيان الصهيوني. أسس بيرس إستراتيجية التقارب مع الدول والكيانات العربية الصغيرة وتحريضها ووضعها في مواجهة الدول العربية الكبيرة. كان هدف بيرس من هذه السياسة التأثير على هذه الكيانات العربية الصغيرة وجعلها تقف حجر عثرة في وجه كل محاولة تهدف إلى صياغة مشاريع تقارب عربي ـ عربي. وكذلك كان شمعون بيرس من طور مفهوم خلق بدائل لهوية المنطقة العربية، مثل تعابير االشرق الأوسط وشمال افريقيا بدل الوطن العربي والجامعة العربية.

كان على رأس اهتمامات بيرس في أعوام التسعينات من القرن العشرين العمل على إلغاء الهوية العربية للمنطقة من خلال خلق بدائل لمؤسسة الجامعة العربية الحاضنة والمشكلة للهوية العربية في العصر الحديث. لقد طرح شمعون بيرس مشاريعه

ومشاريع دولته في كتاب نشرة عام 1996 تحت عنوان "الشرق الأوسط الكبير". اخترعت أسماء ومشاريع شتى كان الهدف الأول منها هو إلغاء الجامعة العربية "بيت العرب". من تلك الأسماء والمشاريع كان مشروع منظمة "السوق الاقتصادية في الشرق الوسط وشمال إفريقية" التي طرحه شمعون بيرس بالتوافق مع الإدارة الأمريكية في أعوام التسعينات. وأضافت إليه وزيرة الخارجية الأمريكية كوندليزا رايس مشروع "الشرق الأوسط الجديد" في عام 2005. وهذا يظهر درجة التناغم والتوافق الأمريكي - الإسرائيلي في سياستهم المشتركة في المنطقة العربية.

كان آخر المشاركون من الصهاينة في طرح أفكار تهدف إلى إلغاء الهوية العربية وتفتيت المنطقة على أسس عرقية وطائفية ليس أقل من الوزير الإسرائيلي الصهيوني المتعصب، والهارب من الاتحاد السوفييت "فلاديمير شارنينسكي". شارنينسكي أكد في كتاب نشره عام 2006 تحت عنوان "تشجيع الطوائف والأقليات العرقية" أهداف الكيان الصهيوني الحقيقية في المنطقة. لقد أكد شارنينسكي في هذا الكتاب أن ضمان استمرار الدولة اليهودية مرتبط ارتباطاً وثيقاً بتفكيك المنطقة العربية إلى وحدات سياسية عرقية وطائفية متصارعة ومتحاربة، تسمح لإسرائيل لعب دور الحماية لهذه الكيانات الهزيلة المتداعية.

فالمشروع الأمريكي الذي أعلن عنه وتناقلته وكالات الأنباء العالمية، والذي يقضي بتقسيم سبعة دول عربية إلى كيانات سياسية على أسس مذهبية وعرقية لم يأتي من فراغ. هذا المشروع بالأساس والجوهر مشروعاً صهيونياً دأبت الأوساط الصهيونية في إسرائيل وفي الدول الغربية على التنظير له وتسويقه عبر وسائل الإعلام الغربية والأوساط المتنفذة في هذه البلدان. وعمل اللوبي الصهيوني من زمن ليس بالقليل على إقناع أطراف دولية وإقليمية بجدوى وأهمية هذه المشاريع التقسيمية لكل الأطراف. الخرائط التي تناقلتها وكالات الأنباء تضمنت شكل وصورة الدول العربية السبعة المستقبلية التي تنوي الإدارة الأمريكية مع حلفائها في المنطقة والعالم الغربي تطبيقها أكدت طبيعة الأهداف السياسية الأمريكية والصهيونية في المنطقة. انطلاقاً من العراق ومن ثم سوريا والسعودية ومصر والسودان ووصولاً إلى الجزائر والمغرب هي الدول العربية المقصودة بالتقسيم والتفتيت.

مشروع تفتيت وتقسيم الدول العربية السبعة الواردة في المشروع الأمريكي مرتبطة بشكل وثيق بعمل القوى المحلية الانعزالية والقوى الإقليمية مثل إيران والكيان الصهيوني. ويشترط نجاح هذا المشروع "المؤامرة" مشاركة إيران والكيان الصهيوني عبر حلفاء و امتدادات وأذرع هذين الكيانين في الإقليم العربي. تتجلى فصول هذا المشروع التقسيمي بكل وضوح في العراق. أصبحت أطراف هذا المشروع مكشوفة أيضاً بكل وضوح، ونصوص هذا المشروع جاهزة منذ زمن ويجري العمل على

تسويقها وتنفيذها ابتداءاً في العراق دون مواربة وتورية. لا تستطيع تعابير مثل "الفدرالية" أن تغطي الحقيقة والأهداف الحقيقية من وراء هذه النصوص، ومشاريع الدستور العراقي الجديد وتغيير العلم وحل الجيش والمؤسسات العراقية، وتنصيب العملاء الطائفيين على رأس الدولة العراقية كلها خطوات عملية اتخذت لتنفيذ مشروع تقسيم العراق إلى كيانات مذهبية وعرقية هزيلة وتابعة.

لم تخفي الحكومات الإيرانية في زمن الشاه إعجابها بما يخص دول الوطن العربي بالسياسة الإسرائيلية، وتبنت هذه الحكومات تلك الإستراتيجية بشكل واضح وغير مخفي. لكن حكومات النظام الإيراني الدينية ادعت عدم تبني تلك الإستراتيجية. وأعلنت تلك الحكومات عن نيتها نهج سياسات مغايرة لنهج الشاه المخلوع. لكن لم تمر فترة طويلة على تسلم هذه القوى مقاليد الحكم في إيران حتى تكشفت أهداف هذه القوى الحاكمة في طهران من خلال الممارسات العملية مع أقطار الوطن العربي. من خلال تلك الممارسات تبين وجه التشابه مع سياسات حكومات الشاه المخلوع. تلك السياسة التي إلتقت مع قواعد السياسة الصهيونية في المنطقة العربية والمحيط الإسلامي من حيث إشاعة الطائفية السياسية، وخلق التوترات الاجتماعية، وإشعال الحروب الأهلية، والعمل على تقسيم الدول إلى كيانات سياسية هزيلة يسهل السيطرة عليها. ورث حكام إيران الدينيين عن الشاه سمة العدوانية المطلقة لدول الوطن العربي وزادوا عليها شيئاً في مراحل التنفيذ من خبث المواربة وفن ممارسة فقه التقية.

في 2. 6. 2005 كشف النائب "عبد الكريم المحمداوي" لصحيفة الحياة اللبنانية، رئيس حزب الله في العراق، الموالي والمرتبط بإيران، عن أن "مؤتمراً هو الثاني سيعقد في جنوب العراق لوضع آليات عملية لإنشاء إقليم (سومر) الفيديرالي، وقال انه سيضم ثلاثة فيديراليات، الأولى تشمل محافظات ميسان وذي قار والبصرة، والثانية محافظات واسط والديوانية والسماوة، والثالثة تضم كربلاء والنجف والحلة". وأضاف: "الائتلاف سيعمل لتثبيت مبدأ الفيدرالية الجغرافية في مسودة الدستور الدائم". المحمداوي وحزبه لا يخرج عن توجهات الحكومة الإيرانية بل جل تعبيرات الإستراتيجية الإيرانية بما يخص العراق وتمزيقه تجد إسقاطاتها من خلال تلك الشخصيات الفارسية العراقية وتلك الأحزاب الشخصيات الطائفية العاملة على أرض العراق.

وعن موقف قائمة (العراقية) التي يرأسها أياد علاوي ، قال حسين الصدر الشخصية الدينية الشيعية البارزة في القائمة لصحيفة الحياة أن "مشروع إقليم جنوب العراق الفيدرالي عرض على المرجع الشيعي الأعلى في النجف علي السيستاني، المرجعية الدينية لم تتبن المشروع في شكل رسمي، لكن هناك موقف تأييد غير رسمي ربما يعلن لاحقاً". الموقف العلني والموقف الباطني للسيد علي السيستاني الذي كشف عنة حسين الصدر كان افضل تعبير عن السياسة الإيرانية وموقف رجال الدين الفرس من

المشروع المعد سلفاً للعراق ومستقبله قبل أن يقع تحت وطأة قوات الاحتلال الأمريكي ـ الإيراني المشترك. فالقوم يجيدون فن الخداع من خلال إتخاذ المواقف المبهمة وإطلاق التصريحات المتناقضة في نفس الحدث والموضوع المتداول.

عبد العزيز الحكيم رئيس المجلس الأعلى للثورة الإسلامية ورئيس مليشيات منظمة بدر ألقى خطاباً في 18. 8. 2005 في مدينة النجف العراقية وطالب فيه بإنشاء فيدرالية شيعية في جنوب العراق تضم تسعة من محافظات العراقي الجنوبية. وكان المبرر الأساسي الذي طرحة عبد العزيز الحكيم لإنشاء تلك الفيدرالية، حسب قوله، هو الانسجام الطائفي لسكان تلك المناطق. مبررات وحجج عبد العزيز الحكيم تجافي الحقيقة الديمغرافية لتلك المناطق والمحافظات حيث تبلغ نسبة العرب المسلمين السنة والمسيحيين أكثر من ربع سكان تلك المحافظات المعنية في جنوب العراق. وفي نفس السياق قال المسؤول العسكري لمنظمة بدر، مهدي العامري، في نفس المكان وفي نفس الاحتفال "على الشيعة أن لا يفوتوا هذه الفرصة في بناء الإقليم الشيعي". بالطبع الرغبة والأمنية الإيرانية موجهة بالدرجة الأولى إلى دول الجوار العربي، وخاصة إلى دول الخليج العربي. لم يترك حكام إيران تحقيق هذه الأهداف والأمنيات إلى عوامل الصدف التاريخية والفرص العابرة، بل عملت الحكومات الإيرانية المتعاقبة، ومنذ عقود خلت، على خلق الأرضية المناسبة، وصنع الشروط السياسية والاجتماعية، في إشاعة أجواء الأحقاد الطائفية في اكثر من قطر عربي، خليجي وغير خليجي، من خلال زرع وتشكيل ورعاية الأحزاب والمنظمات المبنية على الأسس الطائفية كأدوات ومعاول هدم مناسبة لتفتيت المجتمعات العربية المستقرة.

يعتقد عرب العراق بأن قوى دخيلة جاءت مع قوات الاحتلال تريد تكريس تقسيم العراق إلى دويلات من خلال تمرير الدستور المقترح، والذي صيغ وصيغت بنوده في الولايات المتحدة الأمريكية وبأيدي غربية وصهيونية تضمر كل الشر للعراق. ويؤكد قادة القوى السياسية العربية وقطاعات واسعة من أبناء الشعب العربي العراقي أن غلب هذه الرموز والعناصر قدمت من إيران وذات أصول وميول فارسية. كشف عن هذه الحقيقة النائب عن اللائحة الكردية في الجمعية العمومية العراقية "محمود عثمان" عندما صرح لوكالات الأنباء العالمية "إن مسودة دستور كاملة عرضت على الجمعية العمومية من قبل الإدارة الأمريكية."[251]

صرح الشيخ حارث الضاري الأمين العام لهيئة العلماء المسلمين في العراق، والتي تعتبر أكبر منظمة سياسية واجتماعية عراقية، وتمثل قطاعات واسعة من أبناء الشعب العراقي،في مقابلة في فضائية "العربية" على دور الأطراف الخارجية في مشروع تقسيم العراق. وأكد الضاري في هذه المقابلة على الشراكة التامة بين الولايات المتحدة

---

[251] وكالات الأنباء العالمية في 2. 10. 2005.

الأمريكية والكيان الصهيوني وحكومة إيران في مشروع تقسيم العراق من خلال فرض دستور على الشعب العراقي كانت هذه الأطراف الثلاثة قبل أعوام من إعلان الحرب قد أعدته وقدمته لأطراف عراقية عميلة لتلك الأطراف.

قال الضاري: "إن الفدرالية وإثارة موضوع الفدرالية في هذا الظرف هو عمل يُراد منه تقسيم العراق, وهذه الفدرالية اتفق عليها حقيقة في مؤتمر لندن سنة 1992 الذي كان يحضره زلماي خليل زادة نفسه السفير الأميركي الحالي في بغداد, وكذلك أُقرت هذه الفدرالية وهذا التقسيم في مؤتمر لندن سنة 2002 ليقسم العراق, وهذا يتفق مع رغبة إسرائيلية قديمة، كما يتفق مع رغبة بريطانية قديمة, ويتفق مع رغبة بعض الأحزاب السياسية الأميركية, لأن العراق للأسباب التاريخية ولتكوينه الجغرافي والحضاري والبشري والاقتصادي يمثل قوة حقيقية، فلا يراد للعراق أن يبقى قوة، بل لا بد من أن يجزأ."[252] من المعلوم أن تلك المؤتمرات التي عرفت باسم مؤتمرات "المعارضة العراقية" كانت تجري تحت إشراف وحضور إيران بشكل مباشر، وتمويل وتنسيق إيراني ـ أمريكي مشترك وحضور إسرائيلي بشكل غير مباشر عبر بعض الرموز الكردية.

[252] فضائية "العربية" من الإمارات العربية المتحدة. في 12. 11. 2006 .

ملاحظات عامة حول
مستقبل إيران السياسي في المنطقة

المعرفة والانطباع العام عند المواطن العربي عن إيران مر خلال النصف قرن الأخير بعدة أطوار. انطباعات عامة سادت في كل مرحلة من المراحل في وصف السياسة الرسمية الإيرانية وكذلك انطباعات سادت في وصف موقف وميول الشعوب الإيرانية والفارسية في كل مرحلة من تلك المراحل.

لقد تأثر موقف المواطن والسياسي والمثقف العربي بتطور الأحداث مع مرور الزمن ومن ثم انكشاف بعض المواقف والسياسات الإيرانية. وكذلك تأثر بنوعية القوى السياسية والاجتماعية التي تأثر في صنع القرار في إيران والصفات والأهداف التي تتبناها هذه القوى السياسية، وتأثر المواطن العربي ايضاً بنوعية الخطاب السياسي والخطاب الإعلامي الذي تنهجه القوى السياسية المسيطرة والحاكمة في طهران في كل حقبة من الحقب التي مرت بها الدولة الإيرانية خلال القرن الأخير.

تغيرت وتحولت القناعات السياسية عند اكبر القطاعات الجماهيرية العربية، وكذلك عند النخب والمسؤولين العرب، وحلت انطباعات محل أخرى عن هذه الدولة الجارة، وهذه الشعوب المجاورة للوطن العربي. لقد تجمع عدد من الأسباب والعوامل التي ساهمت في إعادة التفكير بالدور الإيراني في المنطقة. إن تراكم مجموعة من التجارب السلبية مع النظام الإيراني دعت إلى تصحيح النظرة الخاطئة، و الفكرة الساذجة السطحية التي كانت سائدة عن القوى الدينية التي تحكم إيران. من أهم هذه الأسباب التي ساهمت في وصول العرب إلى قناعات جديدة حول إيران ودورها في المنطقة العربية هي:

ارتفاع مستوى الوعي عند المواطن العربي بشكل عام.

تطور وسائل الإعلام والمعرفة بشكل كبير وتزايد سرعة الحصول على المعلومة والخبر بطريقة مباشرة.

انكشاف العلاقات الإيرانية السرية مع الكيان الصهيوني، ومع الولايات المتحدة الأمريكية، هذه العلاقات التي، كما اصبح مؤكداً، لم تنقطع يوماً، من الناحية العملية، واستمرت منذ زمن الشاه محمد رضا حتى الوقت الحاضر.

انكشاف دور إيران خلال العقود الأخيرة التخريبي في اكثر من قطر عربي، في الجزائر واليمن ولبنان والبحرين والعراق.

تتوافق وتتشابه، من الناحية العملية، السياسات الإعلامية والعسكرية الإيرانية، بشكل مثير وملفت للانتباه، مع المشاريع والسياسات والمشاريع الإعلامية والعسكرية الغربية للمنطقة. ويتطابق جوهر المشروع الإعلامي الإيراني بشكل خاص مع جوهر ومفاصل المشروع الإعلامي الإسرائيلي الموجه إلى الوطن العربي. فإثارة التوترات العرقية، وإشاعة الأحقاد الطائفية، وبث روح التطرف والمغالاة، تظل أهم العناوين المشتركة بين سياسة طهران وتل أبيب وواشنطن للمنطقة العربية.

إن وقوع أحداث كبيرة في المنطقة العربية وذات أبعاد خطيرة هزت وجدان المواطن العربي والمواطن المسلم، ومساهمات حكام إيران في تفاقم جملة المآسي التي حلت بشعوب المنطقة العربية والإسلامية، طرحت عدد من الأسئلة وإشارات الاستفهام حول الدور الإيراني في تلك الأحداث. الدور الذي تمارسه إيران وحلفائها في العراق في ظل الاحتلال الغربي لهذا البلد العربي كان له الأثر الكبير في إعادة التفكير ومحاولة فهم الدور الإيراني الحقيقي في المنطقة.

لقد مرت صورة إيران في وعي المواطن العربي، وفهم سياسات حكام إيران، ودور إيران في المنطقة في عدة أطوار. لقد مرت صورة إيران داكرة الرأي العام العربي بثلاثة أطوار عامة، وبثلاثة مراحل زمنية وسياسية متتالية. انتقل وعي المواطن العربي وتطور هذا الوعي خلال النصف قرن الأخير من الزمن، وتكونت في كل مرحلة جملة من المفاهيم والقناعات الجديدة وسادت صورة عن إيران ودور إيران، وسادت صورة عن الشعوب الإيرانية وميول ومواقف الشعوب الإيرانية بخصوص القضايا العربية، وفي المقدمة منها القضايا العربية الكبرى، والقضايا الإسلامية العامة كقضية فلسطين.

المرحلة الأولى كانت في مرحلة حكم الشاه محمد رضا بهلوي. في هذه المرحلة ساد الانطباع العام لدى الحاكم والسياسي والمواطن العربي على حد سواء، بان الشعب الإيراني شعب مسلم، وهذا الشعب محكوم ومضطهد من قبل حاكم جائر، ومدعوم من قبل قوى استعمارية تشارك في استغلال وتجهيل هذا الشعب وتبعده عن المشاركة في قضايا المنطقة العادلة. وكانت القناعات في هذه المرحلة منتشرة بأن الشاه وأسياد الإمبرياليين هم الحائل وتلك القوى الاستعمارية هي التي تحول وتمنع بتضامن و الشعوب الإيرانية من الوقوف إلى جانب العرب وقضاياهم العادلة، كقضية فلسطين على سبيل المثال.

كان الاعتقاد السائد أن الشعب الإيراني مثل بقية الشعوب المسلمة في العالم يعتبر موقعه الطبيعي إلى جانب العرب والتضامن معهم كل ما سنحت الفرص والظروف بذلك. وكان المواطن العربي والمثقف العربي يعتقد أن القيود التي يفرضها الشاه وحكومته هي التي تحول دون إمكانية تعبير الشعوب الإيرانية عن مواقفها الحقيقية التضامنية مع العرب والمسلمين وقضاياهم العادلة. الانطباع السائد بشكل عام عن إيران في أيام حكم

الشاه يتلخص بالتالي: (إن الشعب الإيراني شعب مسلم وشعب صديق لكن الحاكم عدو وعميل للأجنبي).

المرحلة الثانية التي بدأت مع وصول القوى الدينية إلى السلطة وامتدت حتى منتصف تسعينات القرن العشرين، سادت فيها لدى المواطنين العربي الانطباعات الإيجابية عن إيران وشعوب إيران. وساد الاعتقاد بان الشعوب الإيرانية والحكومة في إيران هي شعوب حليفة و حكومات صديقة وحليفة للعرب، وداعمة للقضايا العربية. والشعارات المعادية للولايات المتحدة الأمريكية وإسرائيل والغرب هي التعبير المباشر عن المواقف الحقيقية للشعوب والدولة والحكومات الإيرانية.

لقد فهمت الجماهير العربية الخطاب السياسي الإيراني المعبر عنه في وسائل الإعلام الإيرانية والعربية كموقف وخيار استراتيجي إيراني متقدم عما سبقه من مواقف مدافع عن مصالح الشعوب الإيرانية والشعوب الإسلامية والعربية. واعتبرت الجماهير العربية وقواها الحية القيادة الدينية الجديدة في إيران الحليف الأساسي للأمة العربية ونصير أساسي لقضايا الأمة العربية، وتحاول الاقتراب بكل جد الإقتراب من الدول العربية على قاعدة الأخوة الإسلامية والعداء للصهيونية والإمبريالية العالمية. كثير من المواطنين العرب والمثقفين والسياسيين العرب اعتقد بوجهة النظر هذه حول إيران وحكام إيران الجدد، وكان أغلب الكواطنين العرب يعتقد بأن الخلل القائم في العلاقات العربية مع الجمهورية الإسلامية الإيرانية يكمن في سوء سياسات ومواقف بعض الحكام والمسؤولين العرب ولا يحمل إيران وحكام طهران أية مسؤولية بهذا الخلل.

كانت النخبة العربية في اغلب الأحيان، وخاصة في صفوف المعارضة، تتهم الحاكم العربي في تعطيل أي خطوة تفاهم مع حكام إيران "الثوريين" خوفاً من انتقال شرارة الثورة إلى دول وشعوب هؤلاء الحكام والمسؤولين العرب. كان السائد في تلك المرحلة حول إيران والسياسة الإيرانية: (أن الشعوب في إيران والحكام في طهران يمكن أن يكونوا حلفاء للعرب وللعالم الإسلامي، والخلل في عدم إمكانية كسب إيران وحكامها إلى جانب الدول العربية يكمن في سوء تصرف بعض الحكام العرب وسوء نيتهم وظنهم بأهداف حكام إيران الجدد، وخوفهم من أطروحات هؤلاء الحكام المسلمين الثورية).

المرحلة الثالثة وهي المرحلة الحالية التي نشهدها، والتي يسود فيها الانطباع العام السلبي والتشكك في حقيقة المواقف الإيرانية. المسؤول العربي والنخبة العربية، وكذلك المواطن العربي، يغلب على وعيه وفهمه للأحداث الجارية حالة الشك والريبة من الأدوار الإيرانية في تلك الأحداث الدائرة والدامية في الساحة العربية. لقد تجاوزت حالة التقييم والتشخيص مواقف وأدوار الحكومات الإيرانية المتعاقبة، وطالت عملية وصيرورة الفهم والتشخيص لمواقف وميول الشعوب الإيرانية والشعب الفارسي على

وجه الخصوص من القضايا العربية ومن الثقافة العربية. مع تطور وسائل المواصلات وتكاثف الأحداث الجسام في العمل الإسلامي، أصبحت ثقافة المجتمعات الإيرانية السائدة أكثر فأكثر تحت المجهر والرصد والدراسة.

أصبحت استنتاجات عامة متداولة في قطاعات واسعة في المجتمعات العربية، ترى بأن المجتمعات الإيرانية تطغى عليها صفة الحقد الدفين على العرب من منطلقات عنصرية قومية فارسية، وأن هذه الثقافة السائدة في إيران لا تكن أي ود أو محبه للمواطن العربي وقضاياه. يكتشف المواطن العربي والمشاهد العربي من خلال الإحداث ووسائل المعرفة والإعلام المختلفة حقائق كانت غائبة عن إمكانياته المعرفية. تلك التي تتلخص في أن في إيران تسود منذ قرون ثقافة الحقد والكراهية والعداء للعرب، وسياسة التعبئة المنهجية ضد العرب وتاريخهم وثقافتهم. وأن الحكومات الإيرانية، بتياراتها السياسية المختلفة، المحافظة والإصلاحية، اليسارية واليمينية والدينية والقومية لم تتخلى في مجملها ويوماً عن جوهر السياسة الفارسية القومية الشوفينية والطامعة ببلاد العرب. تلك السياسة العدوانية التي كان يمارسها حكام إيران ضد العرب وبلاد العرب منذ قرون.

يتأكد المشاهد والمواطن العربي يوميا من ظاهرة الانسجام بين مواقف الحكومات الإيرانية العملية مع مواقف الجماهير الإيرانية الداعم لسياسات تلك الحكومات بخصوص الموقف من العرب ومن قضايا العرب من الناحية العملية. تتجلى السلبية، بل العدوانية من العرب وقضايا العرب عند الإحتكاك بالمواطن العادي في الشوارع الإيرانية. وتتجلى هذه العدائية والسلبية من العرب وقضايا العرب على صفحات الصحف والمجلات المحلية الناطقة باللغة الفارسية. وتتجلى هذه السلبية تجاه العرب وقضايا العرب بالأحكام الجاهزة والقوالب الجاهزة الشائعة عن العرب عند مواطني الدولة الإيرانية على اختلاف مشاربهم الإجتماعية والمناطقية. لم تخرج مظاهرة واحدة في طهران احتجاجاً على الحرب على العراق واحتجاجا على احتلال العراق. خرجت المظاهرات الاحتجاجية الغاضبة على الحرب فقط في مدن وقرى إقليم الإحواز العربي المحتل من قبل إيران. لم يتخذ حزباً ايرانيا واحداً، أكان في الحكومة أم المعارضة، موقفاً ينتقد مواقف الحكومة الإيرانية من الحرب على العراق ومشاركتها قوات الاحتلال الغربية في احتلال وتمزيق المجتمع العراقي. أربعة أعوام مرت على مشاركة إيران قوات الاحتلال الغربية في عمليات قتل الشعب العراقي ولم يقدم سياسي أو رجل دين إيراني في الحكومة أو المعارضة صوت احتجاج على الدور الإيراني في سلسلة المذابح الطويلة على أرض العراق.

هناك انسجام كبير قائم بين المزاج الجماهيري والرأي العام الإيراني مع جوهرالسياسات الحكومية الإيرانية الموجهة للدول العربية والمعادية للعرب، قل

نظيرها في دولة من دول العالم. وأن كل ما يسمع ويطرح في وسائل الإعلام الإيرانية لا تعد اكثر من خداع سياسي وممارسة مبدأ التقية في السياسة مع الأعداء. وأن القصد من المبالغة في العداء للصهيونية والغرب هي محاولة أصبحت مكشوفة من أجل اختراق المجتمعات العربية، وتسخير هذه الإختراقات لكسب المؤيدين والأنصار من داخل المجتمعات العربية بهدف استعمال هؤلاء الأنصار والمرتبطين عند الحاجة وفي الأوقات المناسبة لخلخلة المجتمعات العربية وإثارة القلاقل في أوساطها من جديد.

تصريحات رئيس الجمهورية الإيرانية "أحمدي نجاد" في "يوم القدس" في 30. 10. 2005 عندما شدد وكرر مقولته المشهورة في العمل على "محو إسرائيل عن الخريطة"، وتصريحاته بالرياض في المملكة العربية السعودية عندما صرح على هامش اجتماع قمة منظمة المؤتمر الإسلامي بخصوص موضوع اضطهاد اليهود في العالم الغربي حيث قال: "ما سمي محرقة اليهود في أوروبا ليست إلا أكذوبة مفضوحة." وإذا كان الغرب قد أساء إلى اليهود بإمكان الدول الغربية أن تقيم لهم دولة في أوروبا ولماذا يدفع الشعب الفلسطيني المسلم ثمن جرائم الغربيين." وكرر ذلك في خطابة بالذكرى 27 للثورة الإسلامية في 5. 2. 2006 . لقد أصبح تكرار هذه المواقف المغالية تدخل في خانة إعادة الثقة بسياسة النظام الإيراني المهتزة لدى الجماهير العربية. تلك الجماهير التي بدأت تتحسس أوجه التناقضات في المواقف الإيرانية، وأصبحت تشك في مصداقية التصريحات السياسية لرموز النظام الإيراني. المحاولات المحمومة لقادة ورموز السلطة في طهران لإعادة الثقة لسياسات إيران في الساحة العربية لم تجدي نفعاً كثيراً وزادت تلك التصريحات من حالة الشك والريبة من الأهداف الإيرانية في المنطقة العربية.

الانطباع العربي العام المتنامي يتجه إلى الاعتقاد بأن هناك انسجام بين المواقف الشعبية في إيران مع المواقف الحكومية للنظام الإيراني. المواقف السياسية العملية للنظام تنسجم إلى حد كبير مع المشاعر والأحاسيس العدائية للعرب عند أوسع القطاعات الجماهيرية الفارسية. هذه الانطباعات العامة عن إيران والمجتمع الإيراني تزداد وتتوسع بين الجماهير العربية يوماً بعد يوم، وتعززها الأحداث المتواترة والمتلاحقة في المنطقة، والتي تكشف باستمرار عن مدى التواطؤ الإيراني مع القوى الغربية المعتدية على العرب ومع القوى الشعوبية المحلية المعادية والحاقدة أيضاً.

عملية إعادة التقييم لإيران ودورها لازالت في بداياتها وتحتاج إلى وقت حتى تصل إلى أوسع القطاعات الجماهيرية العربية. فالصورة المزيفة التي رسمتها الحكومات الإيرانية عن دورها وعن موقعها في معادلة الصراع والتحالف على خريطة المنطقة، خلال العشرون عاماً المنصرمة، كانت كبيرة وعميقة التأثير على الملايين من المواطنين العرب. هذه الملايين التي سقطت في حلبة الخداع الإعلامي، في استغلالها للورقة

الدينية وكذلك في استغلال ورقة القضية الفلسطينية والمبالغة والمزايدة فيها على العرب والحكومات العربية، لازالت لا تصدق ما تراه من وقائع وما تلمسه من حقائق دامغة عن الدور الإيراني التخريبي في المنطقة، والعداء المتجذر للعرب والثقافة العربية والإسلامية القادم من بلاد فارس.

سيمر بعض من الوقت حتى يتحرر بعض المثقفين والسياسيين العرب من وهم النظرة الساذجة والاعتقادات الخاطئة، التي طالما تبنوها خلال الأعوام العشرين الماضية عن إيران ودور إيران في المنطقة. سيحتاج هؤلاء إلى شئ من الوقت لاستيعاب حجم الضرر والدمار الذي سببته السياسة الإيرانية المتحالفة مع الأعداء المتربصين بالشعوب العربية والإسلامية. السياسة الإيرانية التي تسببت بالإضافة إلى الملايين من القتلى والجرحى والمشردين واحتلال الأوطان، ساهمت سياسات هذه الدولة في صنع الشقوق والأخاديد في جسم المجتمعات العربية والإسلامية. نهج وسياسة إثارة النعرات الطائفية والعرقية المنظمة في اكثر من بلد عربي التي تبنتها الحكومات الإيرانية المتعاقبة بدت أثارها الكارثية تظهر على السطح.

الإسلام السياسي الإيراني كان النموذج السيئ، والمثل الفج في كيفية طرح الدين الإسلامي على الناس من مختلف الأجناس. الإسلام الإيراني بما حمله من التركيز على المظاهر العامة في اللباس وممارسة العبادات والطقوس الدينية الغريبة والمنفرة، والتدخل في أدق تفاصيل الحياة عند الناس عكس هذا النوع من الإسلام صورة ليست إيجابية عن الدين الإسلامي الحنيف. أعطيت عبر النموذج الإيراني لتطبيق الإسلام صور مشوهة عن هذا الدين، وفتحت مساحات شاسعة للقوى المعادية للنيل من الإسلام والمسلمين في كل أنحاء العالم. إن جر العالم الإسلامي إلى مهاترات فكرية لا طائل منها، كما حصل مع موضوع "سلمان رشدي"، الكاتب البريطاني من أصول هندية الذي نشر كتابة "الآيات الشيطانية" المسيئة للرسول والإسلام، والفتوى التي صدرت بحقه من الإمام الخميني بقتله في عام 1988 أوقعت العالم الإسلامي والإسلام في فخ محاولات تبسيط الدين الإسلامي العظيم وتبهيت الفكر الإسلامي الرحب، وقدمت الدين الإسلامي كدين عاجز عن تحمل نقد من كاتب مهووس وتافه بحجم هذا الذي يدعى سلمان رشدي. المغالاة في اصغر المواضيع والمغالاة والمبالغة الإيرانية في طرح القضايا الخلافية مع الآخرين ساهم إلى حد كبير في طرح إسلام مغاير عن الإسلام الذي تعرفه الملايين من المؤمنين عبر القرون الطويلة.

المناظر المؤذية التي يتفاخر الإيرانيون، ومن لف لفهم، في ممارسة بعض العادات والبدع الدخيلة على الدين الإسلامي، مثل عادة اللطم وضرب الرؤوس حتى النزيف والتشويه الجسدي والبكاء المصطنع، ينقل صورة وحشية غريبة تذكر بعادات وتقاليد المجتمعات التي عاشت قبل انتشار الأديان وبعث الرسل. من المؤكد سيكون لهذه

المناظر المؤلمة دور منفر بالإسلام بدل الدور المحبب والداعي إلى الدخول في دين الهدى والفرقان.

الخسائر البشرية والمادية والأخلاقية التي سببتها سياسات حكومات الجمهورية الإسلامية الإيرانية للعالم الإسلامي والوطن العربي، المحافظة منها والإصلاحية، تجاوزت حجم الخسائر التي سببها الحكم الملكي الشاهنشاهي الإيراني بأضعاف مضاعفة. فحجم الخسائر البشرية التي ساهمت الحكومات الإيرانية بتسببها بشكل مباشر في الدول العربية، في العراق واليمن والجزائر ولبنان، وصل إلى اكثر من مليون ونصف المليون قتيل. والخسائر المادية التي تسببت بحصولها إيران في البلدان العربية تجاوزت مئات المليارات من الدولارات. الشروخ الاجتماعية التي كانت إيران طرف مباشر في افتعالها وتعميقها في المجتمعات العربية تجاوز في ضرره كل الحدود.

المتوقع حسب المعطيات والشروط التي تبلورت حتى الآن هو تراجع النفوذ الإيراني على الساحة الإقليمية وعلى الساحة الدولية. لقد وصل النفوذ الإيراني خلال العقد الأخير إلى ذروته. وخاصة بعد احتلال العراق وتمدد نفوذ الدولة الإيرانية إلى داخل العراق عبر بوابة الأحزاب العراقية الطائفية والعرقية التي تدور في فلكها وعبر الاتفاق مع قوات الاحتلال في المشاركة في إدارة شؤون العراق. لقد تنبهت الحكومات العربية إلى الدور الذي تلعبه إيران من خلال الأحزاب والمنظمات السياسية الموالية لها في الأقطار العربية، وبدأت هذه الحكومات تحد من نشاط هذه الأحزاب والمنظمات. لم تعد النشاطات الخيرية التي تدعمها إيران تفهم فقط في أبعادها الإنسانية البريئة، بل الحذر والريبة من كل النشاطات الإيرانية أصبحت السمة العامة عند الحكومات والجماهير العربية التي تقابل بها هذه النشاطات.

في الأزمنة التي سبقت الحرب على العراق واحتلاله كان تواجد الزائرين والسواح الإيرانيين في المدن والأسواق السورية مرحباً به، ويلقى الزائر الإيراني من المواطن السوري كل المودة والمساعدة والترحاب. لكن الحرب على العراق واحتلاله وافتضاح الدور الإيراني في هذه الحرب العدوانية والاستعمارية، والدور الإيراني في مشاركة القوى الغربية في احتلال هذا البلد العربي، قلب المزاج الجماهيري السوري رأساً على عقب واصبح التواجد الإيراني الكثيف في المدن السورية غير مرحب به، ويميل إلى النفور من هذا التواجد على الأرض السورية. لقد تغير مزاج الجماهير العربية في كل الأقطار العربية الأخرى حول إيران ودورها، ويشابه المزاج الجماهيري في كل الأقطار العربية، إلى حد كبير، مزاج الجماهير السورية في النفور من المجتمعات والحكومات الإيرانية على حد سواء.

خسرت إيران الشيء الكثير من سياسة المخادعة بحق العرب والمسلمين، وفي الاشتراك في الحرب على أفغانستان والعراق إلى جانب واشنطن ولندن وتل أبيب. لقد

خسرت إيران ما قد كسبته من تعاطف ونفوذ سياسي عند أعداد كبيرة من المنظمات والأحزاب السياسية والقوى الاجتماعية العربية. هذا التعاطف والتأييد الذي كانت إيران قد جنته بعد سقوط الشاه سهل على الحكومات الإيرانية اختراق المجتمعات العربية وكسب الأنصار بين صفوفها. وفي نفس الوقت أعطي هذا التعاطف والتفهم من قبل القطاعات الجماهيرية العربية الواسعة للسياسات الإيرانية مساحات واسعة للعمل السياسي والجماهيري للمنظمات والأحزاب التي تدور في فلك الحكومات الإيرانية داخل صفوف الجماهير العربية، كحزب الله اللبناني، وأكسبها التفافاً جماهيرياً معقولاً على الرغم من التوجهات الطائفية لأغلب تلك المنظمات والأحزاب المرتبطة بالأجهزة الحكومية الإيرانية.

هذه الأجواء والمناخات الجماهيرية لم تعد قائمة، وتقلصت إلى حد كبير مساحات الحركة والعمل السياسي والجماهيري لتلك الحركات السياسية ذات الميول الفارسية والارتباطات الإيرانية. وحسب هذه التغيرات من المتوقع أن تعود هذه القوى والأحزاب الطائفية لأحجامها الطبيعية التي كانت عليها قبل عقود. إن الانكشاف المباغت للدور الإيراني السلبي والمعادي لطموحات الجماهير العربية في المنطقة خلق الأسس الواقعية للتعامل الصحيح مع الحكومات الإيرانية ومع القوى التي تدور في فلكها في المنطقة العربية التي ربما تغلق كثير من الأبواب التي سببت خسائر فادحة لبعض الأقطار العربية وكانت عامل إجهاض في جسم الأمة العربية. ما عادت سياسة إيران الإعلامية في المغالاة في تبني القضايا الإسلامية والإدعاء في الدفاع عن مصالح الشعوب الإسلامية تؤخذ على محمل الجد. المغالاة في الدفاع عن مصالح الشعب الفلسطيني وتبني القضية الفلسطينية، لم تعد تصدق وأصبحت الجماهير الفلسطينية والعربية تشك بمصداقيتها وترتاب من النوايا الإيرانية التي تكمن وراء هذه السياسة.

الشعوب الإسلامية غير العربية تنبهت هي ايضاً لحقيقة الدور الإيراني في العالم الإسلامي، وكثير من الحكومات الإسلامية في العالم تعيش حالة مراجعة وتقييم لطبيعة ومعالم السياسات الإيرانية في اكثر من مكان في آسيا وإفريقيا. المشاركة الإيرانية الفعالة في الحرب واحتلال بلدين إسلاميين، أفغانستان والعراق، إلى جانب القوى الإمبريالية الغربية ترك بصماته الواضحة على صورة إيران في العالم ومن غير المتوقع أن تمر دون نتائج سياسية سلبية في علاقة إيران بالدول الإسلامية.

إذا ما قررت دول الجوار الإسلامي عزل إيران والابتعاد عن التعامل مع حكومات هذا البلد، التي تتقن لعب دور حصان طروادة في قلب العالم الإسلامي في كل فرصة تسنح لها، سيعني عودة إيران إلى حاله العزلة القاتلة التي كانت تعيشها في أواخر أيام حكم الشاه المخلوع. من الناحية العملية لم تكن العلاقات الباكستانية ـ الإيرانية والتركية ـ الإيرانية منذ أكثر من نصف قرن من الزمان جيدة، وكان يغلب عليها طابع التوتر، وإذا

ما تدهورت العلاقة مع بقية الدول العربية فستقع إيران في جحيم العزلة السياسية التي لا تتمنى الوصول إليها أي دولة في العالم.

في أجواء العزلة السياسية مع دول الجوار الجغرافي، وفي حال استمرار إيران في متابعة النهج الذي ألفته منذ عقود طويلة، في استفزاز وإيذاء دول الجوار، من المحتمل انتقال دول الجوار الجغرافي إلى مبادرات سياسية ومواقف عملية ضد الدولة الإيرانية تهدد وحدة الدولة. بإقدام بعض الدول العربية على دعم عرب إقليم الأحواز الذين يكافحون من اجل نيل حريتهم من نير الاحتلال الفارسي، وإقدام تركيا على دعم الحركة الوطنية التركمانية والمنظمات الأذربيجانية، التي تعمل على الانفصال عن إيران والانضمام إلى جمهورية أذربيجان، وأقدمت باكستان على الانتقال إلى سياسة رد الصاع بصاعين إلى إيران وساهمت في دعم المنظمات البلوشية التي تناضل منذ سنين من اجل التحرر من سيطرة القومية الفارسية والاستقلال عن إيران سيكون الكيان الإيراني يعيش حالة التمزق الحقيقية، ولن تعد تنفع القنابل الذرية والصواريخ بعيدة المدى والدعم الغربي لهذا الكيان.

رؤية مستقبلية للوطن العربي

حدثت في الأعوام الأخيرة عدة تطورات ذات أبعاد استراتيجية ستترك أثارها القوية على المنطقة العربية وعلى مجموعة القوى اللاعبة النشطة والفاعلة هناك.

إن صمود المقاومة العراقية في وجه الغزاة، وفي وجه عملاء الغزاة المحتلين تعتبرمن أهم الحقائق السياسية والعسكرية التي تأكدت في المنطقة العربية. في الحرب على العراق واحتلاله ونشوء وتشكل المقاومة العراقية في وجه قوات الاحتلال وأعوانه برزت إلى العلن مجموعة من الحقائق كانت غائبة في حسابات ميازين القوة الإستراتيجية. النتائج والحقائق التي خلقت بفعل المقاومة العراقية الأسطورية، الفريدة في قوتها وحنكتها العالية في التعامل مع العدو المحتل والمتغطرس الذي يملك كل عوامل القوة المادية، طرحت جملة من الحلول العملية والناجعة لمواجهه الخطر الأمريكي على المنطقة العربية. تحولت المقاومة العراقية إلى مدرسة من مدارس النضال تستفيد منها الشعوب الأبية في مسيرة الإنعتاق من الظلم والهيمنة الأجنبية.

والسقوط المدوي للحزب الجمهوري في الانتخابات الرءاسية الأمريكية التي جرت في في نهاية شهر نوفمبر من عام 2008 وفوز أباما الحزب الديموقراطي بأغلبية المقاعد في الكونجرس الأمريكي بغرفتيه البرلمان ومجلس الشيوخ وذلك لأول مرة منذ زمنٍ طويل هو من أهم التطورات السياسية على المسرح السياسي العربي والعالمي. هذا التغير في المزاج الجماهيري وعند الناخب الأمريكي حدث بالدرجة الأولى على خلفية تطور الأحداث في العراق. وحسب أغلب المرقبين الدوليين أن سقوط الحزب الجمهوري في هذه الانتخابات جاء مرتبطاً ارتباطاً مباشراً بحجم الخسائر البشرية والمادية المرتفعة التي منيت بها قوات الاحتلال الأمريكية في العراق بسبب فعل المقاومة العراقية الباسلة.

إن إقالة رامسفيلد قبل ذلك من منصبه كوزير للدفاع تعتبر اعترافاً مباشراً من قبل إدارة بوش بفشل سياسة الولايات المتحدة في المنطقة العربية، وفشل الخيار العسكري في محاولات تركيع المنطقة العربية لإرادة واشنطن ولندن وتل أبيب. لقد دخلت الإدارة الأمريكية في مرحلة إرباك حقيقي وهذا الإرباك سيترك آثاره السلبية على الوجود الأمريكي في المنطقة العربية. لقد عبر "زيغنود بريجينسكي"، مستشار الأمن القومي الأمريكي السابق وأحد الرموز الأساسية في التيارات الأمريكية المحافظة عن هذه

الحقيقة عندما قارن مستقبل السياسة الأمريكية في الشرق الأوسط بما آلت إليه السياسة البريطانية في نفس المنطقة بعد هزيمة بريطانيا في أزمة السويس عام 1956 . قال بريجينسكي في مقابلة تلفزيونية في برنامج "من واشنطن" مع فضائية الجزيرة في 13. 11. 2006 "إن حرب السويس كانت الضربة التي أدت إلى إنهاء الإمبراطورية البريطانية وإخراجها من الشرق الأوسط، وأعتقد أن خسارة الحرب في العراق ستؤدي إلى نهاية الهيمنة الأمريكية في المنطقة."[253]

التطورات التي تشهدها الساحة الإيرانية من اضطرابات ونشقاقات عميقة داخل صفوف النخب الحاكمة في إيران تنبئ بحدوث تغييرات كبيرة على المسرح السياسي في المنطقة. إن تفجر الإحداث وتفاقم الأزمة داخل المجتمعات الإيرانية سيترك أثار ملموسة على في أكثر من إتجاه وعلى فعالية أكثر من طرف لاعب في الخريطة السياسية في المنطقة العربية ودول الشرق الإسلامي. كل القوى السياسية والإجتماعية والدينية التي ربطت مصيرها بمصير حكام طهران ستتأثر بشكل مباشر سلباً بالتغيرات المتسارعة على الساحة الإيرانية. لم تعد إيران القوى الصاعدة في المنطقة. ولم يعد نظامها السياسي يغري أحداً. وكشفت الأزمة الدائرة في الساحة الإيرانية أن الدولة الإيرانية هشة وضعيفة وغير قادرة على حماية الكيان السياسي القائم. فإن انشقاق المجتمعات الإيرانية بشكل عمودي يهدد وحدة الكيان السياسي بشكل جدي ويذكر بتجربة دول البلقان والإتحاد السوفيتي السابق وما آلت إليه الأمور في تلك البلدان من تشقق وتشرذم سياسي وقومي وديني. فالشعوب غير الفارسية كالعرب والبلوش والأذربيجان يتحينون الفرص المناسب لإعلان استقلالهم عن الدولة الإيرانية التي احتلت أراضيهم من عدة عقود. كثير من الأقليات المذهبية والعرقية خارج إيران والتي دخلت مع الحكومات الإيرانية بعقود تحالف ضد مواطني بلدانهم كالحوثيين في اليمن وحزب ال في لبنانله والأكراد في العراق يرتعدون خوفاً من استمرار هذا التآكل في القوة الذاتية الإيرانية واستمرار الفوضى السياسية في هذا البلد. فسقوط أيران يعني سقوط هذه القوى بشكل مأساوي.

من الملاحظ أن أحزاب ومنظمات الأقليات الدينية والعرقية السياسية تلعب في زمن الهيمنة الأمريكية ـ الإيرانية في المنطقة أدوارا سياسية وعسكريةً كبيرة لا تتناسب مع أحجامها الحقيقية في وسط المجتمعات التي تعيش فيها. هذا الواقع لن يستمر طويلاً وسينحسر دور هذه الأقليات مع انحسار الدور والنفوذ الأجنبي في المنطقة. من المتوقع أن نفوذ الأقليات الدينية والمذهبية والعرقية سيتراجع في السنين القادمة. فالدور الذي لعبته الأقليات في الحرب على العراق مرتبط بشكل وثيق بوجود القوات الأمريكية والبريطانية على أرض العراق. التواجد الأمريكي سينتهي وهي تستعد للرحيل ومغادرة

[253] فضائية الجزيرة القطرية، في 13. 11. 2006 .

العراق. مواقف تلك الأقليات في زمن الاحتلال غير المشرفة لا تؤسس إلى علاقة سوية بين تلك الأقليات والأغلبية العربية الساحقة التي تتكون منها الشعوب في الأقطار العربية.

قبل الاحتلال الأجنبي للعراق كانت القضية الكردية تلقى التفهم والتأييد من قبل قطاعات واسعة من الأحزاب والجماهير العربية في كثير من أقطار الوطن العربي. لقد تأسست و نشطت اغلب الأحزاب الكردية في أقطار الوطن العربي، وكان عدد من الحكومات العربية تمد يد العون إلي الأحزاب الكردية، وغير الكردية، ضد الحكومات التي تنشط ضدها. لكن الأدوار التي تلعبها بعض الأحزاب الكردية والعناصر والجماعات الفارسية في العراق في زمن الاحتلال أوقف صور الدعم والتفهم لأهداف هذه الأحزاب في الأوساط الرسمية والشعبية العربية، وزادت حالة الشك والريبة من هذه الأحزاب والقوى في أغلب الأوساط العربية.

من المؤكد بعد تجربة المنطقة مع الإحتلال الأمريكية ومواقف القوى السياسية التي تحدثت باسم الأكراد سيعود وبالاً على الشعب الكردي وقضيته المزمنة. وأن استقواء الأحزاب الطائفية والانعزالية بالأجنبي الغازي سيعود وبالاً على تواجد بعض هذه الأقليات في الدول العربية. أصبح من المؤكد حضور القوى السياسية، والتي تدعي تمثيل تلك الأقليات، في المستقبل غير مرحب به في الأوساط السياسية والثقافية والجماهيرية العربية.

تعززت حالة الشك والريبة في تلك الأحزاب من خلال الأدوار التي لعبتها بعض القوى الكردية في شمال سوريا. إثارة الشغب وتأجيج الاضطرابات في مدينة "القامشلي" السورية في شهر آذار (مارس) عام 2004 الذي افتعلته بعض العناصر الكردية مدفوعة من قبل أحزاب وقوى متواجدة في شمال العراق عزز حالة الشك هذه. إثارة القلاقل في سوريا كان القصد منه إعطاء ذريعة للإدارة الأمريكية بمهاجمة الجمهورية العربية السوري لتدمير مدنها وقراها واحتلال أراضيها.

بعد تلك التجارب التي عاشها وتابعها ملايين العرب مع القوى العرقية والطائفية في العراق وسوريا والبحرين واليمن اصبح الشك بوطنية هذه القوى هو سيد الموقف. الأمر الذي جعل رئيس أكبر دولة عربية، الرئيس حسني مبارك، يصرح في لقاء تلفزيوني مع الفضائية المصرية ويقول " إن أغلب جماعات الشيعة تظهر ولاءً لإيران ضد مصالح أوطانها". بالتأكيد سيكون لهذه الاستنتاجات السياسية والانطباعات الجماهيرية عن دور القوى التي تدعي تمثيل هذه الأقليات نتائج لا تصب في مصلحة القضية الكردية ومصالح الأقليات الأخرى.

لقد عاشت هذه الأقليات مئات السنين في كنف الشعوب العربية دون أن يمسها من طرف الجماهير العربية ضرر أو سوء يذكر، بل ظل العرب أمناء على قيم الشهامة والكرامة والوقوف إلى جانب من جار عليه الزمان والدفاع عن حقوق الأقليات التي ضمنتها مبادئ الدين والقيم الإنسانية المتأصلة والموروثة. وان كان قد حل ببعض تلك الأقليات الدينية والعرقية في حقبة من حقب الزمن الغابر جور وظلم ما كانت الجماهير العربية واقعة تحت نفس الظلم والجور القادم من المحتل الأجنبي كالعثماني والغربي.

هذه الظواهر السالفة الذكر بالإضافة إلى عوامل محلية ودولية أخرى أفرزت عدد من النتائج السياسية والاستنتاجات الأساسية ومهدت الطريق لخروج العرب من مرحلة الهزائم والضربات القاسية المتتالية والدخول في مرحلة أخرى من النهوض وذات ملامح اكثر تفاؤلا. أهم تلك الاستنتاجات يمكن إدراجها كالتالي:

من المؤكد أن الوطن العربي وأقطاره المختلفة يمر في مرحلة قاسية وحرجة، لكن من رحم هذه المرحلة تتشكل قواعد وصورة المستقبل الواعد. أن مجرد صمود هذه الأمة في وجه العواصف الهوجاء والهجمات البربرية المدمرة القادمة من عتاة القوى الاستعمارية وحلفائها في العالم، ومن مكائد وتواطؤ بعض دول الجوار العربي، وتخاذل رهط من الحكام والمسؤولين العرب في القيام بواجباتهم التاريخية في تعزيز أمن الأمة والدفاع عن مصالح الجماهير، يشكل مؤشر قوة ويكشف عن قدرات كامنة يختزنها الوطن العربي لم تؤخذ من قبل بالحسبان. في نفس الوقت الذي غاب فيه النصير والحليف الدولي لهذه الأمة وهي تواجه مصيرها لوحدها منفردة وتصمد، لهو مؤشر إيجابي كبير على قدرة هذه الأمة على النهوض وتجاوز المحن والمصائب التي حلت بها خلال الثلاثة عقود الأخيرة. تظهر هذه القدرة بشكل جلي في ميزة الأمة العربية العالية على امتصاص الضربات القاسية التي وجهت إلى جسد الأمة في أكثر من مكان العربي والنكبات التي حلت في أكثر من قطر من أقطار الأمة.

أدرك الحاكم العربي بضرورة الاحتماء بالجماهير العربية وقواها الشعبية. الاحتماء بالقوى الشعبية الموالية للحاكم والاحتماء بالقوى الشعبية والسياسية المعارضة للحاكم ايضاً هي طوق النجاة. و أدركت أحزاب وقوى المعارضة في أقطار الوطن العربي ايضاً أن الخطر الداهم الذي يمس ويهدد الجميع من أبناء الوطن، يحتم على الجميع خفض مستوى الأهداف والشروط المطلوبة من الحاكم في الأقطار العربية تقديمها قبل القدوم على العمل المشترك واللقاء مع الحكومات. وكذلك ضرورة اللقاء والتفاهم مع القوى المنافسة الأخرى داخل المجتمع على الحد الأدنى، والتخلي عن السلبية وطرح الشروط التعجيزية، والانتقال إلى واقع المبادرة وتحمل المسؤولية الوطنية، والدفاع عن مصالح الوطن والشعب العليا.

تلك القناعات التي ستسهل طريق انطلاق الحراك السياسي في المنطقة لبناء مجتمعات أكثر وعياً، وبناء أنظمة سياسية اكثر عدلاً وشفافية وثبات، وقوى معارضة وطنية تتحمل مسؤولية حقيقية للمشاركة في بناء الأوطان والإبتعاد عن ثنائية التفكير والمواقف العقيمة. الخوف من الغازي الأجنبي، الذي لا يترك لأي قوة وطرف سياسي محلي، أي قيمة تذكر غير القيام بالأعمال القذرة والوقوع في مستنقع الخيانة العظمى، أحدث حالة واسعة من الجدل بين الحاكم والمحكوم في الساحة العربية. هذه النتيجة وهذا الجدل لن يمر دون ترك أثر إيجابي حقيقي يعيد صياغة شكل الحكم وشكل العمل السياسي في أقطار الأمة العربية.

من المتوقع استمرار الإصلاحات البنيوية في أجهزة العمل العربي المشترك والارتقاء في هذه المنظمات والأجهزة إلى مستويات اكثر حداثة وعصرية واكثر قدرة على استيعاب تناقضات الدول والأنظمة العربية. فبعد سلسلة الإصلاحات البنيوية والدستورية التي أجريت في بناء مؤسسات الجامعة العربية، والخطوات المزمع إجرائها على تلك هيكلية ومؤسساتها، ستجعل من كيان الجامعة العربي مركزاً مهماً من مراكز صنع القرار العربي. والجامعة مرشحة لأن تكون الجهاز التشريعي والتنفيذي الفعال في صياغة وقيادة دول وشعوب الأمة العربية، التي ستشكل نوعاً من أنواع الوحدة أو الاتحاد العربية.

الحرب في العراق حطمت هيبة القوة العسكرية الأمريكية، التي قيل عنها أنها "لا تقهر"، والتي اكتسبت هذه الصفة وتضاعف تأثيرها بعد انتهاء الحرب الباردة. لوقت قريب كان مجرد أن تلوح الإدارة الأمريكية باستعمال القوة العسكرية كانت واشنطن تحصل على ماتريد وتحقق مكاسب سياسية واقتصادية كبيرة. لقد تهشمت سمعة الولايات المتحدة الأمريكية في العالم، بعد الذي تعيشه في العراق، من عجز عسكري وفوضى وانفلات على اكثر من صعيد، وأصبحت لا تخيف الكثيرين. فالشعوب العربية بدأت تتحرر من عقدة الخوف، ومن جبروت الغطرسة العسكرية الغربية ـ الأمريكية. ايضاً السلاح الأمريكي الذي شاع صيته في أرجاء الأرض، من تقنية عالية ودقة، وقوة تدمير وفتك سقط في المستنقع العراقي، وسقط في الامتحان العسكري في العراق، وأصبحت هذه الأسلحة المتطورة والمرتفعة التكلفة والثمن غير قادرة على الصمود أمام أسلحة المقاومة العراقية. في الصراع الدائر على أرض العراق تقهقر سحر التقنية العالية للأسلحة الأمريكية أمام الإستعدادية القتالية العالية التي يتمتع بها المقاتل العراقي والعربي على ارض العراق. هيبة الجيش الأمريكي وسمعة السلاح الأمريكي التي تمرغت في وحل العراق سيكون لها آثار سلبية وكارثية على الولايات المتحدة الأمريكية ومشاريعها السياسية والعسكرية والاقتصادية.

من المتوقع أن ينخفض حجم مبيعات الأسلحة الأمريكية في الأسواق الدولية في العقد القادم. مما سيترتب عليه آثار سلبية كبيرة في عجلة الإقتصاد الأمريكي. و سيكون له في نفس الوقت آثار إيجابية على مستقبل المنطقة العربية. هذه المنطقة التي اقتنع خطأً كم هائل من أبنائها ومسئوليها باستحالة الصمود في وجه الأله العسكرية الأمريكية، واعتقدوا بصحة بعقلانية سياسة الخضوع والرضوخ للمطالب الأمريكية، والشروط الغربية في صياغة العلاقات السياسية والاقتصادية غير المتكافئة. تبين بالملموس والتجربة توفر إمكانيات ونهج سياسي آخر قادر على دحر المعتدي والغازي مهما كانت قدراته المادية. هذه المنطقة تعيش حالة جدل كبيرة و إعادة تقييم لكل ما يدور من حولها من أحداث، وتجري إعادة النظر في كثير من القناعات والاعتقادات التي كانت حتى الأمس القريب سائدة وتعتبر من المسلمات، وغير قابلة للنقاش والتشكيك في مصداقيتها، مثل إمكانية التصدي لغطرسة القوة الأمريكية، و إمكانية الصمود في وجه هذه القوة .

حرب العراق أسهمت مساهمة كبيرة في كسر هيمنة قيادة القطب الواحد للعالم، وسيتشكل في الأعوام القليلة القادمة عالم متعدد الأقطاب. صيرورة تشكل الأقطاب الدولية هي في الواقع في طور التشكل. فبالإضافة إلى الولايات المتحدة الأمريكية هناك دول وتجمعات بشرية تتحفز إلى اخذ مكانٍ ما فاعل في المسرح السياسي الدولي، كالصين والمجموعة الأوروبية واليابان وروسيا الاتحادية والهند والبرازيل. هذه التغيرات التي تؤشر إلى السير في هذا الاتجاه ستعطي العرب هامشاً معقولاً من الحرية. وسيخفف من حجم الضغوط والتهديدات الغربية على المنطقة العربية بشكل تدريجي، مما سيفسح المجال لبعض الحكومات العربية الجادة إلى إعادة بناء الأوطان والأمة على أسس اكثر متانة وكثر استقراراً.

من المشاركة الفعالة والنشطة للتيار القومي العربي في المقاومة الشعبية في العراق وفلسطين ضد قوات الاحتلال خلقت حقائق ومسلمات لا يمكن تجاوزها. فالمقاومة العراقية الباسلة التي قام على الإعداد لها وتنظيمها وقيادتها حزب البعث العربي الاشتراكي، والجيش العراقي، الذي يشكل العمود الفقري لهذه المقاومة، ساهمت في إعادة الاعتبار للتيار القومي العربي، الذي وقع تحت طائلة النقد والتجريح والاتهام من خلال التجارب السلبية مع ممثلي هذا التيار في سنين العقود الثلاثة الأخيرة، عندما كان هذا التيار يحكم في بعض الأقطار العربية. لقد أعيد الاعتبار للقوى القومية العربية في العراق. وأعيد الاعتبار إلى جماهير وأعضاء حزب البعث الذين تخلصوا من العناصر الانتهازية والعناصر المتسلقة بعد سقوط الدولة العراقية. أبت البعثيون انهم في مقدمة القوى الوطنية التي امتشقت السلاح للدفاع عن الوطن والشعب في ظروف وطنية وإقليمية وعالمية صعبة. الشعب العراقي والشعب العربي يتابع باهتمام شديد سير

الأحداث الجارية على ارض العراق، ويلحظ دور القوى القومية، ودور القوى الدينية، ويلحظ دور حزب البعث وتشكيلات الجيش العراقي الذي أشرفت الحكومات والقيادات البعثية على تشكيله وتدريبه وتربية أفراده على حب الوطن والوطنية والانتماء للآمة العربية.

تجارب وحدة الصف بين التيارات السياسية الأساسية، القومية العروبية والتيار الديني، في ميادين الكفاح في فلسطين والعراق واليمن وغيرها من البلدان العربية اظهرت نتائج كبيرة تحققت في نهج التضامن والوحدة بين هذين التيارين العملاقين في المجتمعات العربية. من المحتمل أن يستمر نهج التقارب والتفاهم بين التيار القومي والتيار الديني في الوطن العربي، الذي بدوره سيساهم في قلب ميازين القوى لصالح حركة الجماهير العربية وقواها الحية. النتائج التي توصل إليها التيار القومي العربي والتيار الديني الإسلامي العربي عبر المسيرة الكفاحية المشتركة، وطبيعة العدو الأجنبي المشترك، الذي لم يعد يميز بين ما هو عروبي وما هو ديني من أبناء الشعب العربي في العراق وفلسطين، خلقت ظروفاً جديدة ومهمة على درب تصفية الخلافات بين هذين التيارين العملاقين في الساحات العربية.الانتقال إلى ساحة العمل المشترك على أساس مصالح الأمة العليا، سيخلق الظروف الذاتية الضرورية لإعادة اللحمة للأوطان وللأمة، وسيغلق أبواب كثيرة واسعة استطاعت القوى الداخلية الحاقدة، والعدو الأجنبي المتربص، النفاذ من خلالها إلى جسم الأمة، والعيث فساداً وتخريباً في صفوف مجتمعاتنا.

الحرب على العراق واحتلال أرضه من قبل القوى الغربية، والصهيونية العالمية، والدولة الإيرانية، أسقطت مشروع الدولة القطرية وكشفت هشاشة مفهوم الأمن القطري المنفك عن الأمن القومي العربي. كشفت هذه الحرب عجز الدولة القطرية في التصدي للأخطار المحدقة بها مهما عظم شأن هذه الدولة القطرية. القوى السياسية العربية تعيش حالة إعادة نظر وإعادة اعتبار للمشروع القومي العربي. المشروع العربي المشترك اثبت في كل مرة يقترب العرب من تطبيقه كانت نتائجه على المستوى الخارجي والداخلي اكثر جدوى واكثر فائدة وقدرة على التصدي للأخطار المحدقة بالأمة. وأكثر ردعاً للقوى الطامعة بخيرات الأمة. إن أمن كل قطر عربي المرتبط والمصاغ على أساس الارتباط العضوي في أمن وسلامة مصالح الأقطار العربية الأخرى كان على الدوام الأكثر جدوى في حماية مصالح كل قطر. بدل التعويل على الحماية الخارجية، التي فشلت فشلاً ذريعاً وسلبت كل الأقطار العربية، الأمن والسيادة والاستقلال، يعاد الإعتبار مرة أخرى في للمشاريع التوحيدية ومشاريع التكامل العربي.

حالات الفقر والبطالة المنتشرة في أقطار الوطن العربي في معدلات متفاوتة من قطر إلى آخر تنذر بعواقب وخيمة على جبهة الاستقرار والسلم الاجتماعي. وإذا لم توضع حلول سريعة تناسب النمو السكاني ومتطلبات التطور البشري العام في اكثر من مجال،

وتراعي ضرورات التنمية البشرية والاقتصادية ستخلق من بعض الفئات الاجتماعية والأفراد أدوات سهلة وطيعة تستطيع القوى الخارجية المعادية لمصالح الأمة من خلال كسب جزء من هذه الفئات إلى جانبها، والسير في خدمة مشاريعها في المنطقة، اختراق الجسم الاجتماعي في الأقطار العربية. تحت ضغط الحاجة المادية سيكون بإمكان هذه القوى من تجنيد كم كبير من أبناء الأمة العربية لصالح مخططات تلك القوى التخريبية. العوز والفقر كان دائماً التربة الخصبة التي تساهم في خلق جيوش من الطابور الخامس تستعمل لتشتيت طاقات الأمة، وإثارة القلاقل داخل جسم الدولة الوطنية والجسم الاجتماعي. حرب العراق أكدت من جديد تلك الحقيقة حيث تمكن الغزاة من أمريكان وبريطانيين وإيرانيين من تجنيد أعداد كبيرة من المواطنين العراقيين مرتبطة بشكل مباشر في أجهزة قوات الاحتلال وأجهزة الدولة الإيرانية. على المعنيين في مراكز صنع القرار في الأقطار العربية الاستفادة من الدروس البليغة من تلك الحرب والعمل على تدارك الأخطار في بلدانهم قبل فوات الأوان.

الحرب على العراق قدمت خدمات كبيرة لمن يبغي رؤية الحقائق كما هي. فرضت على الجميع ضرورة إعادة النظر في كثير من القناعات التي كانت سائدة قبل مأساة احتلال العراق. إن إعادة النظر في المواقف الحقيقية لدول الجوار العربي أصبحت ضرورة وحتمية وتكتسب أهمية استراتيجية تحدد مستقبل الأمة.

على الرغم من الحساسية التاريخية بين العرب والأتراك لكن الأحداث أثبتت أن نقاط الالتقاء بين المصالح التركية والمصالح العربية متعددة ويمكن تعظيم هذه النقاط إذا اخذ مشروع التقارب العربي ـ التركي في السنين القادمة على محمل الجد. الموقف التركي الرافض لاحتلال العراق والتأكيد التركي على وحدة شعب ووحدة أراض العراق، والموقف الإيجابي التركي من القضية الفلسطينية، والمصالح الاقتصادية العربية والتركية المشتركة هي أرضية مناسبة لإعادة صياغة العلاقات العربية ـ التركية المهزوزة منذ قرن من الزمان. من المعروف أن المزاج الجماهيري التركي يكن الاحترام للعرب وللإسلام، ولم يعرف في التاريخ التركي أن سادت سياسة التحريض على كره العرب وعلى الإساءة للعرب. والتراث الثقافي والفكري التركية ليس من مكوناته العداء والإنفصال عن العرب، كما هو الحال والشائع في التاريخ والتراث والحاضر الفارسي مثلاً.

إن الدور الإيراني النشط في الساحات العربية خلال القرن الماضي كشف عن حقائق مروعة في المسار العام لهذا الدور المتمثل في :

1. قضم واحتلال لأراضٍ عربية بشكل مستمر ومنهجي.
2. تفتيت للمجتمعات العربية بطريقة منهجية.

3. التحالف الدائم، من الناحية العملية، مع أي قوة تعادي العرب.

التحالف مع قوات الاحتلال الغربية في العراق لم تك إلا الحلقة الأخيرة في سلسلة طويلة من هذا النهج. السياسة التسليحية الإيرانية تهدد بشكل مباشر المنطقة العربية وعلى العرب أن يعيدوا النظر بالدور الإيراني الخطير الذي يعرض مصالح الأمة العربية للتهديد الحقيقي والذي تجاوز مرحلة التخمينات والظنون. الأهداف الإيرانية في الوصول إلى مياه البحر المتوسط لم تعد مجرد خيال وأحلام يقضه تراود عتاة المغامرين الفرس لإعادة مجد عرش كسرى انو شروان البائد. الملك عبد الله ملك الأردن كان مصيب ولم يكن يتحدث من فراغ عندما صرح أن إيران تعمل على بناء الهلال "الشيعي"، من إيران والعراق إلى لبنان عبر سوريا، ولعله ينطلق من حقائق على الأرض بادية للعيان ومعلومات وصلت إليه عبر الأجهزة الأردنية المتخصصة، وعبر علاقاته الدولية المتشعبة بفعل منصبه كملك لدوله في منطقة حساسة من العالم كالأردن. هذه التصريحات والحقائق المتواترة التي تتكشف كل يوم تكشف عن جدية المشاريع التوسعية الفارسية في المنطقة العربية. لقد تنبه العرب إلى شكل وأبعاد الخطر الإيراني وهم في صدد تحديد تأثيراته، ووقف تمدده في المنطقة من خلال كشف وفضح قواعد ارتكازه وتمدد أذرعه، وإنهاء تأثيراتها على المجتمعات العربية.

أتخذ مجلس وزراء الخارجية العرب في ثلاثة اجتماعات متتالية في القاهرة وعلى مدى ثلاثة أشهر، شهر أيلول وتشرين الأول وتشرين الثاني من علم 2006، ثلاثة قرارات ذات أبعاد استراتيجية.

الأول اعتبار العملية السلمية في حكم المنتهية وفاقدة الحياة والعودة بالقضية الفلسطينية إلى المؤسسات الدولية والأمم المتحدة والعمل على تطبيق قرارات الشرعية الدولية التي تكفل الحقوق الوطنية والقومية للشعب العربي الفلسطيني بدل الشرعية الأمريكية التي استفردت في صياغة المبادرات والحلول حسب رغبة عتاة الصهاينة واليمين المتطرف في الكيان الصهيوني، وحسب أهواء أقطاب الإدارة الأمريكية والمحافظين الجدد في هذه الإدارة منذ مؤتمر مدريد عام 1992.

ثاني هذه القرارات مطالبة الدول العربية في العمل على استعمال الطاقة النووية للأغراض السلمية والعمل على امتلاك المعرفة والتقنية النووية الضرورية للتعامل مع هذه المعرفة للأغراض الدفاعية إذا أصر الصهاينة والفرس على المضي في برامجهم النووية المغامرة. في هذه الخطوة وجه العرب رسالة لكل من إيران وإسرائيل والدول الغربية التي تعاملت مع التسليح النووي الإسرائيلي بالتغاضي والدعم ومع المشروع الإيراني بتسويف الوقت والمهاترات الإعلامية والمماطلة لفرض الأمر الواقع على العرب الذين يشكلون الأغلبية الساحقة من سكان هذا الإقليم من العالم.

والقرار الثالث كان كسر الحصار الاقتصادي المفروض على الشعب العربي الفلسطيني ومد العون لهذا الشعب والتمرد.

المراجع العربية

ابن خلدون، عبد الرحمن، المقدمة، دار اوفست للنشر، حيفا 1960 .

ارحيم هيبو، احمد، تاريخ العرب قبل الإسلام، الطبعة الثانية، المؤسسة العلمية للوسائل التعليمية، حلب 1981 .

أنطونيوس، جورج، يقضة العرب، دار العلم، الطبعة الثامنة، بيروت 1987 .

بدر الدين، صلاح، كردستان والحركة التحررية الكردية، دار الفكر الجديد للنشر، نيقوسيا 1983 .

البراك، فاضل، المدارس اليهودية والإيرانية في العراق، دراسة مقارنة، دار الرشيد، بغداد 1984 .

بزي، مصطفى محمد، جبل عامل في محيطه العربي، 1864 - 1948، مركز الدراسات والتوثيق والنشر، بيروت 1993.

البشري، طارق، المسلمون والأقباط في اطار الجماعة الوطنية، القاهرة 1980 .

جعيط، هشام، الكوفة، نشأة المدينة العربية الإسلامية، مؤسسة الكويت للتقدم العلمي، الكويت 1986.

جعفر، ماهر وجمعة ضياء احمد، الأهواز، دار الرسالة، الكويت 1983 .

جهماني، يوسف، العلويون في تركيا، دار الكنوز الأدبية، بيروت 2002.

الجندي، عبد الله بن سعيد، حوار هادئ بين السنة والشيعة، سنة الإصدار ودار النشر غير معلومة.

دائرة المستشار الصحفي في سفارة الجمهورية العراقية في بيروت، عربستان قطر عربي أصيل، بيروت 1980 .

الدوري، عبد العزيز، التكوين التاريخي للأمة العربية، بيروت 1984.

الدنيوري، ابن قتيبة، الإمامة والسياسة، الجزء الأول، دار الكتب العلمية، بيروت 1997 .

الدميجي، عبد الله بن عمر بن سليمان، الإمامة العظمى عند اهل السنة والجماعة، دار طيبة للنشر الرياض 1987.

هيكل، محمد حسنين، حرب الخليج، دار الأهرام، القاهرة 1992 .

هيكل، محمد حسنين، سنوات الغليان، دار الأهرام، القاهرة 1988 .

حتي، فيليب، تاريخ العرب، الجزء الثاني، بيروت 1960 .

الطبري، أبي جعفر محمد بن جرير، تاريخ الرسل والملوك، المجلد 1- 7، مكتبة الأسدي طهران 1965.

النقاش، اسحق، ترجمة عبد الإله النعيمي، شيعة العراق، دار المدى للثقافة والنشر، دمشق 1996.

المنصور، محمد عبد العزيز، الكويت والعلاقة بعربستان والبصرى، الطبعة الثانية، ذات السلاسل دار النشر، الكويت 1980.

مسلم احمد،طلعت ، حرب الخليج والأمن القومي، دار الملتقى، قبرص 1992 .

الموسوعة العربية، المجلد الأول، العلوم الإنسانية، دار الفكر دمشق 2005.

العامري، محمد اديب، في عروبة فلسطين، بيروت 1972 .

عمارة، محمد، تيارات الفكر الإسلامي، دار المستقبل، القاهرة 1983 .

عفلق، ميشيل، في سبيل البعث، الطبعة الثالثة، بيروت 1960 .

عساكرة، عباس، القضية الأحوازية كلية الحقوق والعلوم السياسية بتونس، تونس 2004 .

الغوثان، اسد، ارتيريا تاريخ وثورة، العراق للنشر، بغداد 1973 .

الإشتراكيون الناصريون، الإشتراكيون الناصرون يحاكمون انور السادات، القاهرة 1978 الإتحاد الإشتراكي العربي، القوة القومية في الوطن العربي، بيروت السنة غير محددة.

دار المسيرة، محاضر محادثات الوحدة بين مصر- سوريا - العراق 1963 ، مجلدين، بيروت 1978 .

ذبيان، سامي الحركة الوطنية اللبنانية، بيروت 1972 .

حمادي، سعدون، القومية والوحدة العربية، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت 1994

حمروش، أحمد، قصة ثورة 26 يوليو، عبد الناصر والعرب، المجلد الثالث، بيروت 1976 .

الحلو، نعمة، الأحواز ، عربستان ، الطبعة الأولى، دار البصري، بغداد 1969 .

الحصري، ساطع، الأعمال القومية لساطع الحصري، مركز دراسات الوحدة العربية مجلد 1 -17 بيروت 1984 -1985 .

الكواكبي، عبد الرحمن، الأعمال الكاملة، بيروت 1975.

الكبيسي، باسل، حركة القوميين العرب، بيروت 1973 .

لوتسكي، فلاديمير، تاريخ الأقطار العربية الحديث، ترجمة عفيفة البستاني، الطبعة السابعة، بيروت 1980.

معلوف، أمين، الحروب الصليبية كما رأها العرب، دار الفارابي للنشر، بيروت 1989 .

موسى كاظم نورس، علاء، وعبد السلام، رؤوف، التفريس اللغوي في الأحواز، دار الرشيد للنشر بغداد 1982 .

فرجي، موشي، إسرائيل وحركة تحرير جنوب السودان نقطة البداية ومرحلة الانطلاق، مركز ديان لأبحاث الشرق الأوسط وإفريقيا عام 2003، التابع لجامعة تل أبيب.

القاسمي، سلطان بن محمد، الاحتلال البريطاني لعدن 1839 م ، دار الخليج للنشر والصحافة.

القرأن الكريم، الطبعة التاسعة، دار ابن كثير، دمشق وبيروت 1405 ه.

قرم، جورج، انفجار المشرق العربي من تأميم قناة السويس إلى غزو العراق 1956 - 2006 ، دار الفارابي للنشر، بيروت 2006 .

عبد الناصر، جمال، الميثاق 1962 ، بيروت 1970 .

عبد القادر النجار، مصطفى ،التاريخ السياسي لإمارة عربستان العربية من 1897 - 1925 ، دار المعارف بمصر ، 1970 ، القاهرة.

عزيزي بني طرف، يوسف، القبائل والعشائر العربية في خوزستان (عربستان)، ترجمة جابر أحمد، الطبعة العربية الأولى 1996 ، دار الكنوز الأدبية، بيروت.

صليبا، كمال، تاريخ لبنان الحديث، بيروت 1967 .

رجوان نسيم، العلاقات الإيرانية الإسرائيلية، وستويو للنشر، لندن 1985.

الرميحي، محمد، البحرين، مشكلات التغيير السياسي والإجتماعي، دار ابن خلدون بيرت 1976 .

الرهيمي، عبد الحليم، تاريخ الحركة الإسلامية في العراق، الجذور الفكرية والواقع التاريخي (1900 - 1924) ، الدار العالمية للطباعة والنشر، بيروت 1985 .

سالم الهراوي، عبد السميع، لغة الإدارة في صدر الإسلام، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة 1986 .

السيد، رضوان، الأمة والجماعة والسلطة، دراسات في الفكر السياسي العربي الإسلامي، دار اقرأ للنشر بيروت 1984.

سبحاني، سهراب، توافق مصلحت آميز روابط إيران وإسرائيل 1948 - 1988 ، ترجمة ع.م. شاربوريان، دار النشر شركت كتاب، لوس انجلس الولايات المتحدة الأمريكية.

شريعتي،علي ، التشيع العلوي والتشيع الصفوي، دار الأمير للثقافة والعلوم بيروت 2002.

شيت خطاب، محمود، قادة الفتح الإسلامي، قادة فتح بلاد فارس (إيران)، دار الفتح بيروت 1965 .

شيت خطاب، محمود، قادة فتح العراق والجزيرة، دار القلم، القاهرة 1964 .

الثعالبي، ابو منصور، تاريخ غرر السير، غرر أخبار ملوك الفرس وسيرهم، اعيد طبعه سنة 1963 مكتبة الأسدي طهران 1963.

ثعالبي مرغي، حسين بن محمد، شاهنامه، كهن بارسي تاريخ غرر السير، انتشارات دانشكاه فردوسي، مشهد(1372) التقويم الفارسي.

فيضي، سليمان، مذكرات سليمان فيضي، الطبعة الثالثة، دار الساقي بيروت 1998 .

الوردي، علي، لمحات إجتماعية في تاريخ العراق الحديث، الجزء الأول حتى الجزء السادس، مطبعة الإرشاد، بغداد 1971 .

المراجع الأجنبية

Abdel-malik، Anouar: Ägypten، Militärgesellschaft. Das Armeeregime، die Linke und der soziale Wandel unter Nasser. Frankfurt 1971

Al-Massalmeh، Khaled: Nationalismus im Arabischen Raum، Theorie und Praxis Verlag، 1999 Hamburg

Al-Massalmeh، Khaled: Nationalistische Hintergründe der Besatzung des Irak، Risala Nr. 6، Irak، Theorie und Praxis Verlag، 2004 Hamburg

Antoine، Louis، Polier Henri: A European Experience of the Mughal Orient، The Ijazi Arslani (Persian Letters، 1773-1779)، Transleted and with an Introduction by Muzaffer Alam and Seema Alavi، Oxford University Press 2001، Second impression New York 2002

Boek BV: Welt Geschichte، Band.I، A.B. Verlag، 1975 Amsterdam

Böhm، Adolf: Die zionistische Bewegung. Welt-Verlag Berlin 1920

Brockelmann، Carl: Geschichte der Islamischen Völker und Staaten. Verlag R. Oldenburg München، Berlin 1939

Brünnow،Rudolf Ernst: Die Charidschiten، Universität Strassburg، Leiden-E.J.Brill 1884.

Brünnow، Rudolf Ernst und V.Domaszewki، Alfred: Die Provincia Arabia. 3.Band. Verlag Karl J. Trübner، Strassburg 1909

Cornevin، Robert und Martinne، Ernst: Geschichte Afrikas. 2. Aufl. Klett Verlag، Stuttgart 1966

Claus، Ursel: Zur Arabisierung in Algerien. Orient، Deutsche Zeitschrift für Politik und Wirtschaft des Orient Jahrgang/Volumen 25/1984

Ende، Werner: Arabische Nation und Islamische Geschichte. Beirut 1977. In

Endreß، Gerhard: Der Islam، Verlag C.H.Beck، München 1991

Ewans، Martin: Afghanstan، A New History، London 2002

Farhan، Faroug: Probleme des irakisch-iranischen Konflikts von 1968-1984. Peter Lang Verlag، Frankfurt am Main 1989

Ferdowsi، Abul-Gasem، The Shahnameh (Book of Kings)، Volume 1-5،Edited by Djalal Khaleghi-Motlagh، with an interoduction by Ehsan Yarshater، Bibliotheca Persica New York 1988

Freiherr von Oppenheim‹ Max: Die Beduinen‹ Band IV. Teil 1. Die arabischen Stämme in Chuzistan (Iran). Bearbeitet und herausgegeben von Werner Caskel‹ Otto Harrassowitz Verlag‹ Wiesbaden 1967

Georg Maier Franz‹ Weltgeschichte‹ Weltbild Verlag‹ Augsburg 1998

Goldziher‹ Ignaz: Muhammedanische Studien. Verlagsbuchhandlung‹ Hildesheim‹ 1961. Unveränderter Nachdruck der Ausgabe Halle 1889

Irabi‹ Abdulkader: Arabische Soziologie. Wissenschaftliche Buchgesellschaft‹ Darmstadt 1989

Hanf‹ Theodor: Das Erziehungswesen in Gesellschaft und Politik des Libanon. Bielefeld 1969

Harmann‹ Maria (Hrsg.): Der Islam. Ein historisches Lesebuch‹ Verlag C.H.Beck München 1995

Harttung‹ Arnold: Zeittafel zum Nahost-Konflikt:[1920 - 1979]; Berlin Verlag Berlin 1979

Harttung‹ Arnold: Zeittafel zum Nahost-Konflikt:[1979 - 1990]. Berlin Verlag Berlin 1991

Hauser‹ Hans: Die Kurden. Herbig Verlag München 1979

Heikal‹ Mohamad Hasanen: Sadat. Das Ende eines Pharao. Düsseldorf und Wien 1984

Henle‹ Hans: Der neue Nahe Osten. Frankfurt 1972

Herder‹ Johann Gottfried: Mensch und Geschichte. (Hrsg.): Willi A. Koch. Stuttgart 1957

Herder‹ Johann Gottfried: Ideen zur Philosophie der Geschichte der Menschheit. (Hrsg.): Gerhart Schmidt. Darmstadt 1966

Herzl‹ Theodor: Der Judenstaat. M. Breitensteins Verlags-Buchhandlung Leipzig. Wien 1896‹ Hrsg. Otto‹ Zeller Osnabrück 1968

Hofmeier‹ Rolf (Hrsg.): Afrika Jahrbuch 1988. Leske + Budrich‹ Opladen 1989

Hornung‹ Klaus: Krisenherd Naher Osten. Wilhelm Heyne Verlag‹ München 1993

Hottinger‹ Arnold: Die Araber vor ihrer Zukunft. 2.um einen Nachtrag ergänzte Auflage 1991‹ Ferdinand Schöningh Verlag Paderborn. München. Wien. Zürich

Hottinger‹ Arnold: Die Araber. Zürich 1960.

Hourani‹ Albert: Arabic Thought in the Liberal Age. 1798-1939. Oxford University Press; London‹ New York und Toronto 1962

Hourani‹ Albert: Die Geschichte der Arabischen Volker. Fischer Verlag‹ Frankfurt am Main 1992

Hunke‹ Sigrid: Allah ist ganz anders. 2. Aufl. Goldmann Verlag‹ München 1991

Hunke‹ Sigrid: Allahs Sonne über dem Abendland. Unser arabisches Erbe. Fischer Verlag‹ Frankfurt am Main 1990

Husry‹ Khaldun S. al-: Three Reformers. A Study in Modern Arab Political Thought. Beirut 1966

Ibn khaldun‹ Abd Al-Rahman: Buch der Beispiele‹ Die Einführung al-Muqadima. Reclam Verlag Leipzig 1992

Gronke‹ Monika: Geschichte Itans‹ Verlag C.H.Beck; München 2003

Katajun Amirpu, Reinhard Witzke : Schauplatz Iran - Ein Report. Freiburg 2004, Herder Verlag

Keddie‹ R Nikki‹ Iran‹ Frank Coss published‹ London 1980

Khella‹ Karam: Geschichte der arabischen Völker. Theorie und Praxis Verlag. 4.Aufl. Hamburg 1994

Kohn‹ Hans: Geschichte der Nationalen Bewegung im Orient. Berlin 1928

Kuli khan‹ Thamas: The History of Nader Shah‹ Westmed‹ London 1971

Lamblon‹ K. S. Ann: Qajar Persia‹ I.B. Tauris‹ London 1987

Landmann‹ Kamillo und Geigel‹ Ernst-Eberhard: Die Geschichte des Vierzigjährigen Kriegs in Nahost. 2. Auflage‹ H.-A. Herchen Verlag‹ Frankfurt am Main 1991

Lemberg‹ Eugen: Nationalismus I. Psychologie und Geschichte. Hamburg 1964

Lemberg‹ Eugen: Nationalismus II. Soziologie und Politische Pädagogik. Hamburg 1964

L. Lockhart: Nader Shah‹ Luzac & co‹ London 1938

Luise Rinser: Khomeini und der islamische Gottesstaat. Eine große Idee, ein großer Irrtum? Starnberg: R. S. Schulz, 1979.

Mahr‹ Horst: Die Baath-Partei. Portrait einer panarabischen Bewegung. München und Wien 1971

Mejcher‹ Helmut: Die Arabische Welt. Aufbruch in die Moderne. Ernst Klett Verlag‹ Stuttgart 1976

Melville‹ Charles: Safavid Persia‹ London- New York 1972

Miller‹ Judith / Mylroie‹ Laurie: Saddam Hussein. Martin Greil Verlag‹ München 1991

Mommsen‹ Theodor: Römische Geschichte. 4. Aufl. 5. Band. Weidmannsche Buchhandlung. Berlin 1894

Narwan, Sultan Hamid: AfghanstanBochumer Universitätsverlag, Berlin, Bochum, 2006 .

Navid Kermani: Iran. Die Revolution der Kinder. München: Verlag C.H. Beck, 2001

Nebez‹ Jemal: Kurdstan‹ Nukse Verlag‹ Berlin 1972

Neuhaus‹ Dietrich und Sterzing‹ Christian: Die PLO und der Staat Palästina. Verlag Haag + Herchen Frankfurt am Main‹ 1991

Perry. R. John: Karim Khan Zand‹ Universty of Chicago Press‹ Chicago 1979

Samuel P. Huntintigton: Der Kampf der Kulturen (The Clash of Civilizations). Die Neugestaltung der Weltpolitik im 21. Jahrhundert‹ Europaverlag München- Wien 1996

Salinger‹ Pierre und Laurent‹ Eric: Guerre du Golfe. Oliver Orban‹ Paris‹ 1991 ins Arabisch übersetzt:Harb al-khalige‹ 2.Aufl. Asal Verlag‹ Beirut 1991

Schetter‹ Conrad: Ethnizität und ethnische Konflikte in Afghanstan‹ Dietrich Reimer Verlag‹ Berlin 2003

Schimmel‹ Annemarie: Der Islam. Philipp Reclam Jun. Stuttgart 1990

Strohmeier. M & L.Yalcin – Heckmann‹ Die Kurden‹ Verlag C.H.Beck‹ Münschen 2003

Tibi‹ Bassam:Der Wahre Imam‹ Der Islam von Mohammed bis zur Gegenwart‹ Piper Verlag München- Zürich 1996

الصحف والمجلات

صحيفة الحياة، اللبنانية. صحيفة القدس العربي ، لندن. صحيفة الشرق الأوسط، لندن. صحيفة الشروق ، العراقية. صحيفة تشرين، السورية. صحيفة الخليج، الإماراتية. صحيفة لوموند، باريس. صحيفة العرب، لندن. صحيفة السفير، بيروت. صحيفة اللواء، بيروت. صحيفة النهار، بيروت. صحيفة المستقبل، بيروت. صحيفة الأخبار، بيروت. صحيفة الإنتقاد، بيروت. صحيفة البيان، الإماراتية. صحيفة الخبر، العراقية. صحيفة المحرر، الأردنية. صحيفة الإتحاد، الإماراتية. صحيفة السياسة الكويتية. صحيفة الزمان، لندن. صحيفة الوفاق، لندن. صحيفة الرأي، عمان. صحيفة إيران دايلي، الإيرانية. صحيفة يو اس ايه توداية، الأمريكية. صحيفة واشنطن بوست، الأمريكية. صحيفة لوس اجيلوس تايمز، الأمريكية. صحيفة المانوفيستو، الإيطالية. صحيفة التايمز البريطانية. مجلة الفكر الاستراتيجي العربي اللبنانية. مجلة المجلة الدولية، السعودية. مجلة باري ماتش، الفرنسية. مجلة ميديل است، البريطانية. مجلة الأسبوع، المصرية. مجلة اكتوبر، المصرية. مجلة الشؤون الخارجية، الأمريكية. مجلة اتلانتك مونتلي، الأمريكية.

مواقع على شبكة الإنترنيت العالمية

موقع الجزيرة، موقع العربية، موقع المرصد، موقع اسلام أونلاين، موقع إيلاف، موقع الأهواز، موقع البصرة، موقع المحمرة، موقع المحرر، موقع ميديل است، موقع قدس برس، موقع التجديد العربي، موقع منظمة ميعاد، موقع حسن است، موقع أخبار سورية، موقع بي بي سي، موقع اصدقاء الديمقراطية، موقع مفكرة الإسلام،

بلإضافة إلى عدد من محطات التلفزيون العربية والأجنبية.

محتويات الكتاب

تـمـهيـد	5
مـقـــدمـــــة	10
لمحـــة تاريخيــة	14
الدولة الفارسية	22
إيــران دولة متعددة الأعراق والثقافات	28
التيارات السياسية في إيران	34
التيار القومي الفارسي	35
التيارات القومية غير الفارسية	41
التيار اليساري	43
التيار الديني	47
القوى السياسية التي تحكم في الجمهورية الإسلامية الإيرانية	53
القيم الثقافية السائدة في المجتمعات الإيرانية	59
دخول الدين الإسلامي بلاد فارس	66
الديانات عند الفرس والإيرانيين قبل انتشار الإسلام	70
ملاحظات عامة حول الديانات في بلاد فارس	78
الدولة الإيرانية كيان سياسي متعدد القوميات والأعراق	82
الصراع العربي - الإيراني	91
أبعاد الصراع العربي ـ الإيراني	93
البعد التاريخي	94
الفتح الإسلامي و دولة الخلافة العربية	97
تفكك دولة العرب ونشوء الدول والدويلات	103
الحضور المؤثر للعناصر الزردشتية والمزدكية في الثورة العباسية	106

الدولة الفارسية الصفوي 111
البعد المذهبي 115
نشأة وتطور المدارس الفقهية في الإسلام (المذاهب) 120
تشكل الحركات السياسية والعشائرية في الدولة الإسلامية الفتية 123
إنتقال الطوائف من حركات سياسية إلى فرق اجتماعية دينية 128
التشيع العربي والتشيع الصفوي 137
الشيعة الصفوية ومبدأ التقية 139
التراتيبية الهرمية للمؤسسة الدينية عند الشيعة الصفوية 141
ممارسة طقوس اللطم عند الشيعة الصفوية 144
الشيعة الصفوية وتكريس مبدأ العصمة 145
الصفوية في إيران ومبدأ ولاية الفقيه 146
الصفوية في إيران ومبدأ ولاية الفقيه 150
الطائفية الاجتماعية 151
الطائفية السياسية 152
البعد السياسي والصراع على الأرض
الاحتلال الفارسي للساحل الشرقي للخليج العربي 156
الإمارات العربية المحتلة على الساحل الشرقي للخليج العربي 159
إقليم الأحواز المحتل (عر بستان) 161
مقاومة الشعب العربي الأحوازي الإحتلال الإيراني 169
الإمارات العربية الأخرى التي تحتلها إيران
على الساحل الشرقي للخليج 172
إمارة القواسم 172
إمارة المنصور 173
إمارة آل علي 173
إمارة المرازيق 174

إمارة العبادلة 175
الأطماع الإيرانية في الأرض العربية
على الساحل الغربي للخليج العربي 176
احتلال جزر الإمارات العربية على مدخل الخليج العربي 178
التدخل الإيراني في البحرين ومحاولة احتلالها 183
التدخل الإيراني في شؤون المجتمع والدولة العراقية 191
الإيرانيون في العراق 194
الشيعة والتشيع في العراق 199
الأكراد في العراق حلفاء لأعداء العراق 203
النفوذ الإسرائيلي في شمال العراق 209
الدور الإيراني في العراق في زمن حكم الشاه محمد رضا 214
المساهمة الإيرانية في إنشاء الأحزاب الطائفية في العراق 217
سلسلة الحروب التي ساهمت الحكومات الإيرانية بشنها على العراق 221
الحرب العراقية ـ الإيرانية (حرب الخليج الأولى) 223
حرب الخليج الثانية (حرب الكويت) 235
دور إيران في حرب التمرد على السلطة المركزية
في الجنوب وفي الشمال العراقي 240
حرب الاستنزاف العسكرية و الاقتصادية 243
الخلفيات القومية في الحروب على العراق قبل احتلاله 246
الدور الإيراني في الحرب على العراق عام 2003 259
أهداف الإدارة الأمريكية من الحرب على العراق 259
الأهداف الإيرانية من إحتلال العراق 268
الدور الإيراني في مرحلة التحضير للحرب 272
المشاركة الإيرانية في غزو العراق 279
المشاركة الإيرانية في غزو العراق 284

ملاحظات على عملية قتل الرئيس صدام حسين 296
خلفيات الصعاب في العلاقات الدولية
والعجز العربي على فهم طبيعة الفكر السياسي الإيراني 299
الآثار السياسية والاجتماعية التي أحدثها الاحتلال في العراق 302
تداعيات الحضور الإيراني في العراق 307
التشكل الجديد للخارطة السياسية في المجتمع العراقي 320
التأثيرات المباشرة لاستمرار المقاومة العراقية 325
أهم الآثار التي أحدثتها المقاومة العراقية على المستوى المحلي 327
تأثيرات المقامة العراقية على المستوى الأقليمي 330
تأثير المقاومة العراقية على المستوى الدولي 335
التدخل الإيراني في الشؤون الداخلية للأقطار العربية 340
التدخل الإيراني في لبنان 342
تأسيس حركة "أمل" 348
تأسيس حزب الله اللبناني 351
الحرب التي أشعلتها طهران في لبنان 359
اجتياح حزب الله لمدينة بيروت والجبل 365
بوادر مقاومة النفوذ الإيراني العابث بمقدرات القطر اللبناني 367
الدور الإيراني في تأجيج الصراع في الجزائر 371
التدخل الإيراني في الشؤون الداخلية اليمنية 380
العلاقات السورية ـ الإيرانية 387
التدخل الإيراني في الشؤون المصرية 400
القضية الفلسطينية والسياسة الإيرانية 410
التنافس العربي الإيراني في أفغانستان 421
إشكالية علاقة التيارات السياسية العربية الأساسية
بالحكومات الإيرانية الدينية 429

علاقة القوى الدينية العربية بحكام إيران 430
العلاقات الغربية ـ الإيرانية 432
العلاقات الإيرانية مع العالم الغربي في عهد الشاه رضا بهلوي 435
العلاقات الإيرانية ـ الأمريكية في عهد الشاه محمد رضا بهلوي 440
العلاقات الإيرانية ـ الأمريكية في عهد الجمهورية الإسلامية 445
الصفقة السياسية الإيرانية ـ الأمريكية الكبرى 462
العلاقات الإيرانية ـ الإسرائيلية 467
العلاقات الإيرانية ـ الإسرائيلية في عهد الشاه محمد رضا بهلوي 470
العلاقات الإيرانية ـ الإسرائيلية في عهد الجمهورية الإسلامية 477
المشروع النووي الإيراني وأبعاده الدولية 485
أبعاد المشروع النووي الإيراني على المنطقة العربية 495
أمن الخليج العربي 499
الأمن القومي العربي والتهديدات الإيرانية 510
الإستراتيجية الإيرانية المعاصرة الموجهة للأقطار العربية 524
إنشاء الأحزاب والمنظمات السياسية على أسس طائفية وعرقية 527
محور مشاغلة واستنزاف الأقطار العربية عسكرياً 533
محور السياسة الإعلامية الإيرانية الموجهة إلى المنطقة العربية 537
الدولة القومية وانتشار الأقليات الدينية والعرقية 544
الأقليات في الوطن العربي 548
الظواهر السلوكية المرافقة لمجتمعات الأقليات 553
دور إيران وإسرائيل في نشر نظام
الطائفية السياسية في العراق والوطن العربي 558
ملاحظات عامة حول مستقبل إيران السياسي في المنطقة 567
رؤية مستقبلية للوطن العربي 576
المراجع العربية 586

المراجع الأجنبية 589
المراجع الأجنبية 593
مواقع على شبكة الإنترنيت العالمية 593
محتويات الكتاب 594
نبذة موجزة عن الكاتب 600

نبذة موجزة عن الكاتب

الكاتب من مواليد الجمهورية العربية السورية ومقيم حالياً في ألمانيا الإتحادية. درس وتخرج من جامعة الرور في مدينة بوخوم الألمانية من كلية العلوم الإجتماعية والعلوم السياسية. حائز على إجازة الماجيستير وإجازة الدكتوراه في العلوم السياسية والعلوم الإجتماعية والتاريخ من نفس الجامعة. كاتب صحفي في القضايا السياسية الدولية والقضايا الإجتماعية. نشر عدد من المؤلفات والبحوث في المجالات الإجتماعية والعلاقات الدولية. شغل منصب مدير مكتب "تبادل الثقافات" بمدينة جيلزين كيرشن الألمانية، يعمل حالياً كمدير لمركز الدراسات الألمانية ـ العربية في مدينة اسن الألمانية.

هذا الكتاب

يعالج أدوار إيران في المنطقة العربية وعلاقة إيران بدول الجوار. يلقي هذا الكتاب الضوء على مجموعة أهداف الحكومات الإيرانية المتعاقبة في دول المنطقة وعلى طبيعة وسمات الأساليب التي ينهجها حكام إيران في سبيل تحقيق الأهداف. تقع إيران وسط العالم الإسلامي وللشعوب في الدولة الإيرانية ثقافات تتمايز عن الشعوب الإسلامية المجاورة في بعض جوانبها لكنها في نفس الوقت تتشابه وتشترك مع هذه الشعوب في جوانب ثقافية ولغوية وتاريخية أخرى. عبر تطور الأحداث ظل لإيران دور في تلك الأحداث. إن مشروع الدولة الإيراني بطابعه التوسعي كان يصطدم على الدوام بمصالح شعوب دول الجوار الإيراني في العراق ودول الخليج العربي. وإنطلاقاً من هذه الحقيقة التاريخية نشات جملة من الأزمات والحروب بين إيران والدول العربية. كذلك على مسار العلاقات الدولية الإيرانية ظلت هذه العلاقات محل شك وريبة عند العرب وغير العرب في المنطقة، تغلب عليها بشكل عام صفة الشبهات في الخديعة والغدر. وعبر صفحات الكتاب تدرس علاقات إيران والعالم الغربي وعلاقات إيران بإسرائيل. لقد أصبح المشروع النووي الإيراني محل خلاف مع الدول الغربية، وهو في نفس الوقت محل رفض وريبة عند العرب. في هذه الظروف العربية الحساسة والمعقدة حيث ساهمت حكومات إيران في تعميق المأزق العربي يصبح التعرف على أدوار وأهداف إيران، التي تحتل الأحواز وجزر الإمارات العربية وتشارك في إحتلال العراق، أمر ضروري وواجب لدفع الأخطار المحدقة بالأمة العربية من أكثر من اتجاه.

الناشر